غونتر غراس

سنوات الكلاب



رواية

منشورات الجمل

غونتر غراس: **سنوات الكلاب**، رواية

غونتر غراس، الأعمال الكاملة، الجزء الرابع

غونتر غراس

سنوات الكلاب

رواية

ترجمة: أحمد فاروق

منشورات الجمل

ولد **غونتر غراس** في ١٩٢٧ بضاحية لانغفور التابعة آنذاك إلى دولة دانسغ الحرّة. والتحق في ١٩٤٤ بالجيش الألماني جندياً في سلاح الجوّ ثم في صنف الدروع، وقد جرح ووضع في الأسر الأمريكي. بعد إطلاق سراحه مارس العديد من المهن في الزراعة والمناجم والمقالع قبل أن يبدأ بتعلّم الحفر على الحجر ومن ثم النحت والطبّاعة الفنيّة (الغرافيك) في أكاديمية الفنون بدوسلدورف من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢، وتابع دراسته في كليّة الفنون ببرلين. وفي ١٩٥٥ بدأ بنشر أولى قصائده، وبعد ذلك بعام واحد رحل إلى باريس، حيث أقام حتى ١٩٦٠ وأنجز كتابة روايته «**الطبل الصفيح**» التي جلبت له شهرة واسعة، لتتبعها أعمال مهمة أخرى مثل «**القطّ والفأر**» و«**أعوام الكلاب**» التي أصطلح عليها بثلاثية دانسغ. ويعتبر غراس من الكتّاب الغزيريّ الإنتاج؛ إذ أصدر حتى الآن سبعة عشر مجلّداً، ضمّت إلى جانب أعماله الروائية والمسرحية والشعرية، الكثير من المعالجات النقدية والفكرية والخطابات والسياسية. وحظيت أعماله الإبداعية والفكرية باهتمام الرأي العام الألماني والعالمي منذ عشرات الأعوام، وقد توّجت أخيراً بجائزة نوبل للآداب في العام ١٩٩٩. صدر له عن منشورات الجمل: **الطبل الصفيح** (٢٠٠٠)؛ **القط والفأر** (٢٠٠١)؛ **مئويتي** (٢٠٠٢).

ولد **أحمد فاروق** عام ١٩٧١ بالجيزة/مصر. درس العلاقات العامة والإعلان بجامعة القاهرة. صدرت له مجموعة قصصية بعنوان خيوط على دوائر ١٩٩٥ بالاشتراك مع خمسة كتّاب آخرين. نشرت له مجموعة من القصص والترجمات في عدة صحف ومجلات مصرية وعربية. يدرس حالياً الترجمة بكلية علوم اللغة والثقافة التطبيقية، بجامعة غوتنبرغ، ماينتس.

غونتر غراس: **سنوات الكلاب**، رواية، ترجمة: أحمد فاروق

الطبعة الأولى، كولونيا ـ ألمانيا ٢٠٠٣
Günter Grass: *Hundejahre*, Roman 1963

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

ساهمت مؤسسة انترناسيوس ـ معهد غوته مشكورة في بعض تكاليف هذه الترجمة

الكتاب الأول

#ورديات صباحية



الوردية الصباحية الأولى

احك أنت. لا، احك حضرتك! أو هل ينبغي على الممثل أن يبدأ بالحكي؟ هل ينبغي أن تبدأ الفزاعات كلها مختلطة؟ أو هل ننتظر حتى تتكور كواكب برج الدلو الثمانية؟ من فضلك ابدأ! على أية حال لقد بدأ كلبك من قبل. لقد بدأ كلبك قبل كلبي وقبل كلب الكلب. لا بد أن يبدأ شخص ما: أنت أو هو أو حضرتك أو أنا. . . قبل مغارب كثيرة كثيرة، قبل ميلادنا، كان نهر الفايكسل يجري ويصب، دون أن يعكسنا على صفحته.

في الوقت الحالي، سيدعى الكاتب هنا، براوكسل Brauxel وهو يدير منجما لا ينتج بوتاسا ولا معادن ولا فحما، ومع ذلك فهناك مائة وأربعة وثلاثون عاملا يشتغلون في خطوط الإنتاج وفي قيعان المنجم والغرف السفلية والممرات الأفقية داخل المنجم وعند خزينة الأجور وفي التغليف ويغيرون من وردية إلى أخرى.

كان الفايكسل يجري في الماضي بغير انتظام وكان خطرا. لذلك جيء في عام ألف وثمانمائة وخمسة وتسعين بألف عامل حفر وقام هؤلاء بحفر ما يسمى بالقناة التي تجري من أينلاغه باتجاه الشمال مارة بين اللسان النهري لقريتي شيفنهورست ونيكلسفالده. وبذا تم تجنب خطر فيضان الفايكسل، حيث أصبح له مصب ضيق مستقيم.

كاتب هذه السطور يكتب اسمه براوكسل Brauksel في أغلب الأحيان على غرار اسم مدينة كاستروب-راوكسل Castrop-Rauxel أي Brauxel أو مثل

هيكسل Häksel. أي Brauksel وأحيانا يعن له أن يكتبه مثلما يكتب كلمة فايكسل. Weichsel. أي Brauchsel، الرغبة في العبث والدقة المتناهية يمليان بعضهما البعض ولا يتناقضان.

امتدت سدود نهر الفايكسل من أفق إلى أفق وتحتم عليها، تحت رقابة مفتش إدارة تنظيم السدود في مارينفيردر، أن تقف في وجه فيضانات أوائل العام وفي وجه ماء نهر الدومينيك. الويل، كل الويل، إذا ما كانت هناك فئران بالسدود.

وضع كاتب هذه السطور، الذي يدير المنجم ويكتب اسمه بطرق مختلفة، على طاولة المكتب التي أخلاها لهذا الغرض مخططا لمجرى الفايكسل، قبل وبعد التنظيم، صنع المخطط من ثلاثة وسبعين عقب سيجارة هي حصيلة تدخينه في يومين: بقايا التبغ والرماد الناعم يمثلان النهر ومصباته، أما أعواد الثقاب المحترقة فهي السدود التي تحجزه.

قبل مغارب كثيرة كثيرة: يأتي السيد مفتش إدارة تنظيم السدود من منطقة كولم، التي تحطم سدها في كوكوتسكو عام خمسة وخمسين وفاض ماؤه بارتفاع مقابر المينونيين- بعد أسابيع، تعلقت النعوش بالأشجار- لكنه كيفما يأتي راجلا أو ممتطيا حصانه أو في قاربه، ومرتديا معطفه الذي لا يخلو جيبه الواسع أبدا من زجاجة العرق، هو فيلهلم ابرنتال كاتب قصيدة «رسالة تأمّل في السد» المرحة رغم قِدمها. لقد وضع للقصيدة بعد صدورها بقليل إهداء لطيفا إلى العاملين على السدود وعمد القرى ووعاظ المينونيين، ورد ذكره هنا لكي لا يُذكر بعد ذلك مطلقا. لقد قام بالتفتيش على السد من أعلى ومن أسفل وتفقد العوائق الطبيعية والجنادل، وطرد الخنازير من على السد عملا بقانون شرطة المزارع، الفقرة الثامنة، بتاريخ ألف وثمانمائة وسبعة وأربعين الذي يمنع مثل هذه الحيوانات، سواء كانت ذات ريش أو مخالب، من أن ترعى أو تتجول على السد.

الشمس تغرب على اليد اليسرى. يكسر براوكسل عود ثقاب: لقد نشأ مصب الفايكسل الثاني دون عون عمال الحفر في الثاني من فبراير عام ألف وثمانمائة وأربعين، عندما اخترق النهر دلتاه تحت قرية بلنيندورف، وأخذ في طريقه قريتين وبقعتي أرض كانتا تحت التأسيس، هما قريتا الصيادين نويفير شرق ونويفير غرب. لكننا نهتم بالأساس، رغم غنى قريتي النويفير بالحكايات

والثرثرات القروية والوقائع الغريبة، بالقريتين الواقعتين شرق وغرب المصب الأول، حتى ولو كان هو الأحدث عمرا: شيفنهورست ونيكلسفالده كانتا أو ما تزالان آخر القرى التي لديها معدية، لأنه ليومنا هذا ما يزال ماء البحر المالح بنسبة صفر فاصلة ثمانية في المائة يختلط على عمق خمسمائة متر بماء النهر الذي يكون عادة رماديا وفي الأغلب أصفر بلون الطمي وقادما من جمهورية بولندا البعيدة.

يستدعي براوكسل كلمات من الذاكرة ويحادث بها نفسه «الفايكسل نهر واسع، إنه يداوم على الاتساع في الذاكرة، ورغم كثرة ضفافه الرملية فهو صالح للملاحة...»، ثم يضع على مكتبه الذي أصبح دلتا الفايكسل، بقايا ممحاة بين السدود المصنوعة من أعواد الثقاب ويستخدم الممحاة كمعدية ويضع الآن، لأن الوردية الصباحية قد بدأت واليوم بدأ صاخبا بالعصافير، يضع فالتر ماتيرّن - التشديد على المقطع الأخير- ذا السنوات التسع على رأس سد نيكلسفالده أمام الشمس الغاربة، إنه يصر بأسنانه.

ماذا يحدث عندما يقف ابن الطحان ذو السنوات التسع فوق السد وينظر إلى النهر معرضا نفسه للشمس الغاربة ويصر بأسنانه ضد الريح؟ لقد أخذ هذه العادة عن جدته التي بقيت ملتصقة بالكرسي تسع سنوات ولم يكن بإمكانها أن تحرك سوى بؤبؤي عينيها.

أشياء كثيرة يجرفها النهر معه ويراها فالتر ماتيرن. هناك فيضان ما بين مونتاو وكيزهمارك. هنا قبل المصب بقليل، يُعين البحر. يقولون إن هناك فئرانا بالسدود. كلما انهار سد، قيل إن هناك فئرانا بالسدود. المينونيون يقولون إن الكاثوليك من القطر البولندي قد وضعوا ليلا فئرانا بالسدود وآخرون يقولون إنهم قد رأوا حارس السد على حصانه الأبيض[١]. لكن شركة التأمين لا تريد أن تعتقد لا في الفئران النابشة ولا في حارس السد من غوتلاند. عندما انهار السد بسبب الفئران، قفز الحصان الأبيض وحارس السد معه، حسبما تمليه الأسطورة، في النهر ذي الماء الآخذ في الارتفاع، لكن ذلك لم يجد؛ لأن الفايكسل قد أخذ

(١) تلميح إلى ساجه ألمانية معروفة ونوفيلا لتيودور شتورم اسمها فارس الحصان الأبيض فيها يأتي فارس مجهول بدون رأس على حصان أبيض بثلاثة أرجل. (مترجم)

معه كل حراس السد وكل الفئران الكاثوليكية القادمة من القطر البولندي. أخذ المينونيين الأجلاف ذوي الكلاليب والفتحات ولكن بدون جيوب، وأخذ المينونيين الأرقى منزلة ذوي الأزرار والعراوي والجيوب الشيطانية، وأخذ إنجيليي غوتلاند الثلاثة والمعلم الاشتراكي الديمقراطي. أخذ بهائم غوتلاند ذات الخوار، أخذ مهاد غوتلاند المنقوشة، أخذ كل غوتلاند: أسرة غوتلاند وخزاناتها، ساعات غوتلاند وعصافير الكناريا بغوتلاند، أخذ واعظ غوتلاند - لقد كان جلفا وكان ذا كلاليب وفتحات - وأخذ بنت الواعظ، ويقال إنها كانت جميلة.

كل ذلك وأكثر جرفه النهر معه. ماذا يجرف معه نهر مثل الفايكسل؟ يجرف معه ما ينكسر: خشبا وزجاجا وأقلام رصاص وتحالفات بين براوكسل وبراوكسل وكراسي وعظاما وأيضا مغارب. ما تم نسيانه منذ زمن يعود إلى الذاكرة سابحا على البطن أو الظهر بمساعدة الفايكسل: جاء أدالبرت. جاء سائرا على قدميه، فلاقته البلطة. لكن سفانتبولك قد قَبِل أن يُعمّد. ماذا حدث لبنات ميستفين؟ هل تسير إحداهن حافية القدمين؟ ماذا تأخذ معها؟ العملاق ميلغيدو بهرواته الرصاصية؟ بركونوس الأحمر الناري؟ بيكولوس الشاحب، الذي ينظر دائما من أعلى لأسفل؟ يضحك الصبي بوتريمبوس ويمضغ سنابل قمحه. تُسقط أشجار البلوط. الأسنان التي تصر - وبُنَيّة الأمير كينستوس التي ذهبت إلى الدير: اثنا عشر فارسا بدون رأس واثنتا عشرة راهبة بدون رأس يرقصون في الطاحونة. الطاحونة تدور ببطء، الطاحونة تدور أسرع، وتطحن أرواحا صغيرة دقيقا، لكن الثلج الساقط بياضه أفتح. الطاحونة تدور ببطء، الطاحونة تدور أسرع، وأكلت مع اثني عشر فارسا من الطبق نفسه. الطاحونة تدور ببطء، الطاحونة تدور أسرع، يضاجع اثنا عشر فارسا اثنتي عشرة راهبة في القبو. الطاحونة تدور ببطء، الطاحونة تدور أسرع، وهم يحتفلون بالعيد بالضراط والأهازيج. الطاحونة تدور ببطء، الطاحونة تدور أسرع. . . ولكن عندما احترقت الطاحونة من الداخل إلى الخارج وانتظرت عربات الحنطور أمام الباب من أجل الفرسان الذين لا رأس لهم والراهبات اللاتي بلا رأس، وبعد ذلك بكثير، عندما اخترق القديس برونو النار - مغارب - وأضرم اللص بوبروفسكي وزميله ماتيرنا الذي دبر كل شيء النار في بيوت الخونة - مغارب مغارب - نابليون من قبل ومن بعد: لقد حوصرت المدينة حصارا متقنا لأنهم قد اختبروا عدة مرات وبنجاح

متفاوت صواريخ كونغريف: وجهوها إلى المدينة وسعل الفرنسيون بقيادة راب على الأسوار وعلى حصون فولف (ذئب) وبير (دب) وبراونيس روس (الحصان البني) وأوسشبرونج (انشطار) ومايدلوخ (ثقب الفتاة) وكانينشن (أرنب)، وبصق البولنديون مع أميرهم راتسيفيل، وتحشرج صوت فرقة الكابتن دو شامبور ذي الذراع الواحدة. لكن في الخامس من أغسطس أتى ماء نهر الدومينيك وصعد بدون سلالم حصون براونس روس وكانينشن وأوسشبرونج وبلل البارود وأغرق صواريخ كونجريف. وجلب إلى الحارات والمطابخ أسماكا كثيرة، بخاصة من نوع الكركي، وشبع الجميع بشكل رائع، برغم أن مخازن الغلة في حارة الهوبفنغاسه قد احترقت منذ زمن - مغارب. ما الذي يناسب وجه الفايكسل، ما الذي يلون نهرا مثل الفايكسل: مغارب ودم وطمي ورماد. عندئذ يكون على الريح أن تحمل كل ذلك. لن تُنفَّذ كل الأوامر؛ الأنهار التي تريد أن تذهب إلى السماء، تصب في الفايكسل.

الوردية الصباحية الثانية

هنا، على مكتب براوكسل وفوق سد شيفينهورست تدور الشمس كل يوم، ويقف فالتر ماتيرن على سد نيكلسفالده ويصر بأسنانه؛ لأنها تغرب. تتجدد السدود خالية نظيفة. لا يلتصق برؤوس السدود سوى مراوح طواحين الهواء وأبراج كنائس متهدمة وأشجار حور زرعها نابليون من أجل مدفعيته. يقف وحيدا. ربما معه الكلبة، لكنها قد سرحت، مرة هنا، ومرة هناك. خلفه في الظل وتحت صفحة النهر تقع الجزيرة وتفوح برائحة الزبد والحليب المتخثر ومعامل الجبن، تفوح برائحة الحليب التي تحسن الصحة وتدعو إلى القيء. عمره تسع سنوات، ساقاه منفرجتان، يقف فالتر ماتيرن بركبتيه ذاتي الحمرة المزرقة من أثر شمس مارس، يفرد أصابعه ويفتح عينيه نصف فتحة، ويتيح لندبات رأسه الحليق التي نتجت عن السقطات والمشاجرات وجروح السلك الشائك أن تتورم وتكتسب معالمها. يصر بأسنانه من اليسار إلى اليمين - لقد ورث ذلك عن جدته - ويبحث عن حجر.

ليست هناك أحجار فوق السد. لكنه يبحث. ويجد عصيا جافة. القذف بعصا جافة ضد الريح غير ممكن. لكنه يريد، يجب عليه، يريد أن يرمي. بإمكانه

أن يصفر لسنتا التي سرحت هنا أو هناك، لكنه لم يصفر، إنه يصر فقط بأسنانه - وذلك يجعل الريح تتبلد - ويريد أن يرمي. بإمكانه أن ينتبه إلى نظرة أمزل وصياحه من أسفل السد هاه! هاه!- يريد يجب عليه يريد مع ذلك، لكن ليس لديه حجر في جيبه؛ فيما عدا هذه المرة، عادة ما يكون لديه في ذلك الجيب أو في الجيب الأخر حجر أو حجران.

تسمى الأحجار هنا زلاكن. البروتستانتيون يقولون: زلاكن والأقلية الكاثوليك: زلاكن. المينونيون الأجلاف: زلاكن ورقاتهم: زلاكن. وحتى أمزل الذي يحب دائما أن يخالف، يقول زلاك، عندما يعني حجرا؛ وتحضر سنتا حجرا، عندما يقول لها أحدهم: أحضري زلاكا. كريفه يقول زلاكن وكورنيليوس كابرون وبايستر وفولشرت وأوجست شبوناجل وزوجة عمدة أنكوم، كلهم يقولون زلاكن؛ والواعظ دانيل كليفر من بازهفارك يقول لجماعته من الأجلاف والرقاة: «وداود الصغير أخذ زلاك وضرب بيه جالوت العملاق» لأن الزلاك عبارة عن حجر في حجم بيضة الحمامة.

رغم ذلك لم يجد فالتر ماتيرن أي أحجار لا في هذا الجيب ولا في الآخر. في الجيب الأيمن فتافيت خبز ولب عباد الشمس وفي الأيسر بين الخيوط بقايا الجرادات ذات الحفيف- بينما هو يصر بأسنانه بأعلى، بينما الشمس تغرب، والفايكسل يجري، ويجرف معه شيئا من غوتلاند وشيئا من مونتاو، أمزل منحن والسحب تتكاثف، أثناء ما كانت سنتا تجري ضد الريح والنوارس تطير مع الريح والسدود قد توجهت نظيفة نحو الأفق، أثناء ذهاب الشمس بعيدا بعيدا بعيدا- يجد فالتر ماتيرن مطواة جيب. تدوم المغارب في المناطق الشرقية وقتا أطول عنها في المناطق الغربية: كل الأطفال يعرفون ذلك، حيث يجري الفايكسل من هذه السماء إلى السماء المقابلة. تتحرك المعدية من مرسى شيفنهورست وتريد بشراسة وميل ضد تيار النهر أن تنقل عربتي بضاعة تابعتين لخط السكة الحديد الإقليمي إلى نيكلسفالده، حيث سيتم نقلهما إلى شتوتهوف على القضبان. في هذه الأثناء يبتعد قطعة الجلد، المسمى كريفه، بوجهه ذي الجلد البقري عن الريح ويتفقد بعينيه الخاليتين من الرموش قمة السد: يمكنه عد بعض مراوح طواحين الهواء الدائرة وأشجار الحور. الآن يقع شيء ثابت في مجال بصره، شيء لا ينثني، لكن يده في جيبه. وإذا انزلق ببصره من المنحدر:

هناك شيء غريب ومستدير، منحن ويريد أن يأخذ شيئا من النهر. إنه أمزل، يريد أن يصطاد ملابس - ملابس لأي غرض؟ - كل الأطفال يعرفون ذلك.

لكن قطعة الجلد كريفه لا يعرف ما الذي وجده فالتر ماتيرن في جيبه أثناء بحثه عن زلاك. أثناء ما كان كريفه يبتعد بوجهه عن الريح، كانت مطواة الجيب قد أصبحت أكثر دفئا في يد فالتر ماتيرن. لقد أهداها إليه أمزل. ولها ثلاث شفرات، ومبرام ومنشار وشوكة. أمزل بدين، ببشرة مشربة بالحمرة ويثير الضحك عندما يبكي. يصطاد أمزل أسفل السد في الطين لأن الفايكسل يصل، بسبب الفيضان من مونتاو إلى كيزهمارك رغم انسيابه السريع، إلى قمة السد ويجلب معه أشياء كانت قبل ذلك في بالشاو.

غابت الشمس. إنها هناك خلف السد وقد خلفت احمرارا يأخذ في الازدياد. يكور فالتر ماتيرن - ذلك ما يستطيع براوكسل معرفته - قبضته حول المطواة في جيبه. أمزل أصغر قليلا من فالتر ماتيرن. سواد الكلبة سنتا التي ذهبت بعيدا للبحث عن الفئران، يشبه بعض الشيء الحمرة التي للسماء المقابلة لقمة سد شيفينهورست. تبقى قطة طافية وخشب طاف عالقين. تتكاثر النوارس أثناء الطيران: ورق أملس ممزق، يتكور ثم ينبسط، ويفرد أشرعته؛ والعيون الزجاجية الصغيرة بحجم ثقب الإبرة ترى كل شيء، ترى ما يطفو وما يعلق، ما يجري وما يقف، أو ما هو كائن فقط، كنقاط النمش الألفين لدى أمزل وأنه يرتدي خوذة، قد ارتُديت قبل ذلك في فيردون. والخوذة تنزلق ويجب أن تعود إلى موضعها على القفا وتنزلق ثانية أثناء اصطياد أمزل لألواح الأسوار الخشبية وعيدان الفاصوليا، وملابس ثقيلة جدا من الطين: تخرج القطة عن التيار وتدور بعيدا وتصبح من نصيب النوارس. تتحرك الفئران في السد من جديد والمعدية ما زالت تقترب يطفو كلب أصفر ميت ويدور. تقف سنتا ضد الريح. بميل وشراسة تنقل المعدية عربتي البضاعة. يطفو عجل، لم يعد على قيد الحياة. والآن تتعثر الريح، لكنها لا تغير اتجاهها. وتظل النوارس عالقة بالجو في ترقب. الآن أخرج فالتر ماتيرن - بينما المعدية والريح والعجل والشمس خلف السد، الفئران في السد والنوارس فوق بقعة - قبضته وفيها مطواة الجيب، ومررها، أثناء جريان الفايكسل، أمام سترته وجعل مع الاحمرار المتزايد في الجهة المقابلة، لعظام اليد ملمسا طباشيريا.

الوردية الصباحية الثالثة

كل الأطفال ما بين هيلدسهايم وزارشتيت يعرفون ما الذي يتم إنتاجه في منجم براوكسل الواقع ما بين هيلدسهايم وزارشتيت.

كل الأطفال يعرفون، لماذا كان على فرقة المشاة رقم مائة وثمانية وعشرين أن تترك في بونزاك هذه الخوذة الفولاذية التي يلبسها أمزل مع كومة من الملابس العسكرية وبعض أشياء من عدة المطبخ العسكري المتنقل عند مغادرتها بونزاك بالقطار عام عشرين.

ها هي القطة مرة ثانية. كل الأطفال يعرفون: إنها ليست القطة نفسها، فقط الفئران لا تعرف والنوارس لا تعرف. القطة مبللة مبللة مبللة. يمر شيء طاف، ليس بكلب ولا بخروف، إنها خزانة ملابس. الخزانة لا تصطدم بالمعدية. وعندما يسحب أمزل أحد عيدان الفاصوليا من الطين، وتبدأ قبضة فالتر ماتيرن في الارتعاش على مطواة الجيب، تحصل قطة على حريتها: يدفعها البحر المفتوح الواصل إلى السماء. تتقلص النوارس، وتتحرك الفئران في السد وينساب الفايكسل، ترتعش قبضة فالتر ماتيرن على المطواة، تدعى الريح شمالية غربية، تتجدد السدود، يضغط البحر المفتوح بكل ما فيه ضد النهر، ما تزال الشمس آخذة في الغروب، وما تزال المعدية تنقل في نفسها وفي عربتي البضاعة: المعدية لا تحيد، والسدود لا تتحطم، والفئران لا تخاف، لا تريد الشمس أن تعود، ولا القطة ولا النوارس ولا السحب ولا فرقة المشاة، ولا تريد سنتنا أن تعود إلى الذئاب، بل هي طيعة طيعة طيعة... وكذلك لا يريد فالتر ماتيرن أن يعيد تلك المطواة التي أعطاها له أمزل الممتلئ القصير السمين، إلى جيبه؛ بل إن القبضة على المطواة قد تمكنت من أن تصبح أكثر طباشيرية. بأعلى تصر الأسنان من اليسار إلى اليمين. تستريح القبضة على المطواة، بينما ينساب يأتي تغرب يطفو تدور وتقل، بحيث يفيض الدم المندفع في اليد المغلقة الآن بارتياح: يدفع فالتر ماتيرن بالقبضة المنطوية على الشيء الذي أصبح ساخنا إلى الوراء، ويقف فقط على ساق وقدم وضرة واحدة، على خمسة أصابع داخل حذاء برباط، يدفع بثقله دون جوارب في الحذاء، ينزلق بكل ثقله إلى اليد التي وراءه، لا يصوب إلى هدف، ولا يصر بأسنانه إلا قليلا؛ وفي هذه اللحظة المنسابة الطافية الغاربة الضائعة - لأن براوكسل لا يستطيع أن ينقذه، لأنه نسي، نسي شيئا ما - الآن إذن، لأن أمزل

يرفع رأسه من طين السد، ويدفع بظهر يده اليسرى وبعضا من نقاط نمشه الألفين الخوذة الفولاذية في قفاه إلى الجزء الأخر من نقاط نمشه الألفين، تندفع يد فالتر ماتيرن بعيدا إلى الأمام، خالية وخفيفة وتظهر مواضع الضغط على مطواة الجيب التي كان لها ثلاث شفرات ومبرام ومنشار وشوكة؛ وتحجر في داخلها رمل بحر وبقايا مربى وأشواك صنوبر ومسحوق من قشور الأشجار وأثار دماء لحيوان الخُلد؛ وقيمتها التبادلية تعادل ثمن جرس دراجة جديد؛ لم تكن مسروقة، اشتراها أمزل بنقوده التي كسبها بعرق جبينه من دكان أمه، وقد سمرت المطواة فراشة على باب المخزن الخشبي لفولشرت وأصابت تحت كوبرى مرسى معدية كريفه أربعة فئران في خلال يوم واحد وكادت تصيب أرنبا في الكثبان وأصابت قبل أسبوعين حيوان خلد، قبل أن تتمكن سنتا من اكتشافه. كذلك يبين باطن اليد آثار ضغط المطواة نفسها، التي شق بها إدوارد أمزل وفالتر ماتيرن ذراعيهما، كعهد أخوة بالدم، عندما كان عمرهما ثماني سنوات، لأن كورنيليوس كابرون، الذي كان في ناميبيا وكان عالما بأخبار قبائل الهوتنتوت، قد حكى عن ذلك.

الوردية الصباحية الرابعة

في هذه الأثناء - لأنه أثناء كشف براوكسل عن ماضي مطواة جيب، وهذه المطواة نفسها قد طاوعت بوصفها شيئا مقذوفا قوة القذف وقوة الريح المضادة وثقلها الخاص، يتبقى وقت كاف للانتقال من وردية صباحية إلى أخرى وخصم يوم عمل والقول في هذه الأثناء -، في هذه الأثناء ضغط أمزل الخوذة الفولاذية بظهر يده في قفاه. وتخطى بنظره منحنى السد، وشمل بنظرته الرامي وأرسل نظرته وراء الشيء المقذوف؛ وبلغت مطواة الجيب، حسبما يدعي براوكسل، في هذه الأثناء نقطة النهاية، المقدرة لكل شيء آخذ في العلو، بلغتها بينما الفايكسل يجري والقطة تطفو والنوارس تنعق والمعدية تأتي، بينما الكلبة سنتا سوداء والشمس لا تكف عن الغروب.

في هذه الأثناء- لأنه عند بلوغ الشيء المقذوف هذه النقطة، التي يبدأ بعدها النزول، يتردد الشيء للحظة، ويتظاهر بالثبات -، أثناء ثبات المطواة بأعلى، ينسلخ أمزل بنظره عن النقطة ويعاود النظر - المطواة تسقط بسرعة في اتجاه النهر، لأنها معرضة أكثر للريح المضادة - إلى صديقه فالتر ماتيرن الذي ما يزال

يتأرجح بضرة قدمه وأصابعها دون جورب في حذاء برباط، ويده اليمنى مرفوعة لأعلى وبعيدة عن جسمه، بينما تتأرجح ذراعه اليسرى لتكسبه اتزانا.

في هذه الأثناء - لأنه بينما يتأرجح فالتر مالترن على ساق واحدة وينشغل بالحفاظ على توازنه، بينما الفايكسل والقطة والفئران والمعدية والكلب والشمس، بينما تسقط المطواة في النهر، تبدأ الوردية الصباحية في منجم براوكسل وتخرج الوردية الليلية على ظهور الدراجات، أغلق حارس مبنى تغيير الملابس المبنى وبدأت العصافير يومها في مجاري الأمطار... تمكن أمزل وقتها بنظرة خاطفة متبوعة بنداء من أن يُفقد فالتر ماتيرن توازنه. صحيح أن الصبي الواقف على قمة سد نيكلسفالده لم يسقط، لكنه أخذ يترنح ويتعثر، بحيث لم يعد باستطاعته رؤية مطواته، قبل أن تلمس صفحة الفايكسل المنساب وتختفي عن الأنظار.

أمزل ينادي «يا صرار، صررت بأسنانك من جديد ورميت ككل مرة؟»

يقف فالتر ماتيرن الذي نودي هنا بالصرار على ساقين مفرودتين وركبتين مشدودتين للوراء ويدعك كفه اليمنى الذي ما يزال يحوي أثر سالب صورة مطواة جيب ويظهره.

«ألا ترى إنه كان لازم أرمي، لم تسأل إذن؟»

«لكنك لم ترمي بزلاك»

«ماذا أعمل، لم يكن هناك زلاك»

«بم رميت إذن إن لم يكن معك زلاكا»

«لو كان معي زلاك، كنت رميت الزلاك»

«لو أرسلت سنتا، كانت ستأتي لك بزلاك»

«فات الأوان، أي واحد ممكن يقول، لو كنت أرسلت سنتا، جرب ترسل كلبة تجيب لك حاجة وهي مشغولة بالفئران»

«بم رميت، إن لم يكن معك زلاك»

«لم تسأل، بأي شيء، ما أنت شفت!»

«رميت مطواتي»

«ماذا، إنها مطواتي أنا والهدية هدية. ولو كان معي زلاك لم أكن لأقذف بالمطواة، كنت رميت الزلاك.»

«كنت قلت لي فقط إنك لا تجد زلاكا، كنت رميت لك واحدا، هنا فيه كتير»

«أنا لا أفهم عم تتكلم الآن، ما هي راحت خلاص»

«يمكن أحصل على واحدة جديدة في عيد الصعود»

«لكن أنا لا اريد مطواة جديدة»

«حين أعطيها لك، ستأخذها»

«تراهن، إني لن آخدها؟»

«أراهن إنك ستأخذها»

«تراهن»

«تراهن»

ويتراهنان كفا بكف: عساكر صفيح مقابل عدسة مجمعة، يرفع أمزل يده ذات النمش الكثير لأعلى باتجاه قمة السد وينزل فالتر ماتيرن يده التي بها مواضع أثار الضغط على المطواة إلى أسفل ويشد أمزل إلى قمة السد.

يبقى أمزل ودودا: «أنت بالضبط مثل جدتك التي في الطاحونة، هي أيضا كانت تصر بأسنانها، أيام كان عندها أسنان، بس الفرق إنها لا ترمي شيئا، إنها تضرب فقط بالمغرفة»

على السد يبدو أمزل أصغر قليلا من فالتر ماتيرن. أثناء حديثه كان يشير بإبهامه من فوق كتفه خلف السد حيث يقع شارع القرية وطاحونة آل ماتيرن الهوائية. أثناء صعوده منحدر السد، يسحب أمزل معه بعض ألواح السقف الخشبية وعيدان الفاصوليا وخرق معصورة ومجففة. وعليه دائما أن يرفع الطرف الأمامي لخوذته الفولاذية بظهر يده. رست المعدية على مرسى نيكلسفالده. والآن يمكن سماع صوت حركة عربتي البضاعة. سنتا تكبر تصغر تكبر وتقترب بسوادها. ومرة أخرى يطفو حيوان صغير منسابا مع النهر. يجري الفايكسل عريض الكتفين. يلف فالتر ماتيرن يده في طرف البلوفر المنسل. تقف سنتا على سيقان أربع بين هذا وذاك. لسانها مدلى إلى الخارج ناحية اليسار وهو يرتجف. وجهت نظرتها إلى فالتر ماتيرن، لأنه... بأسنانه. لقد ورث ذلك عن جدته، التي بقيت ملتصقة بالكرسي و.... سوى بؤبؤي عينيها.

والآن يذهبون: واحد صغير وواحد كبير عكس اتجاه مرسى المعدية، الكلبة سوداء. نصف خطوة إلى الأمام: أمزل. وخلفه: فالتر ماتيرن. إنه يجر ملابس أمزل. تنتصب الحشائش خلف حزمة الملابس مرة ثانية، بينما يصبح الثلاثة فوق السد أصغر وأصغر.

الوردية الصباحية الخامسة

انحنى براوكسل، حسبما هو مفترض، على أوراقه وترك الفايكسل ينساب، بينما انحنى المؤرخان الآخران أيضا على الماضي، حسب الموعد المتفق عليه، وبدآ الكتابة. يجد براوكسل متعة في أن يتذكر بدقة: قبل سنوات عديدة عديدة، عندما أتى الطفل إلى العالم، ولما يكن قادرا على أن يصر بأسنانه، لأنه لم تكن له أسنان مثل كل الأطفال عندما يأتون إلى العالم، جلست الجدة ماتيرن في الغرفة المعلقة ملتصقة بكرسيها، ومنذ تسع سنوات لم يكن بإمكانها أن تحرك شيئا سوى بؤبؤي عينيها، وكانت تغمغم ويسيل لعابها.

كانت الغرفة المعلقة معلقة فوق المطبخ ولها شباك على الصالة التي يمكن منها مراقبة عمل الخادمات، وشباك يطل على طاحونة الهواء الماتيرنية المثبتة بصارٍ فوق المِنصب الخشبي، فهي إذن طاحونة منصبية أصلية؛ كان ذلك منذ مائة عام. لقد بنتها عائلة ماتيرن عام ألف وثمانمائة وخمسة عشر، بعد وقت قليل من احتلال المدينة واحتلال حصن دانتسيغ بالأسلحة الروسية والبروسية الظافرة؛ لقد استطاع أوجست ماتيرن، جد جدتنا الملتصقة في كرسيها، أثناء الحصار الطويل الممل أن يضرب عصفورين بحجر واحد: فمن ناحية بدأ ينتج سلالم لتسلق الحصون في مقابل تالر المعاهدة الجيد[٢] ومن ناحية أخرى أبلغ الجنرال الكونت دي أودليت في خطاب قصير مهرب أنه من الغريب أن يطلب الروس إنتاج هذا الكم من السلالم رغم أن أوان جني التفاح لم يحن بعد وحصل مقابل ذلك على عملة تالر الغار[٣] والعملة البرابنتية[٤] الأفضل.

وعندما وقّع الحاكم، الكونت راب، أخيرا استسلام الحصن، عد أوجست

(٢) عملة نمساوية قديمة استخدمت في بافاريا وتم تداولها في بروسيا أيضا وبولندا أيضا.
(٣) عملة فرنسية.
(٤) عملة بلجيكية تسمى أيضا تالر البرتوس.

ماتيرن في نيكلسفالده النائية عملات دانمركية وقطع الثلثين والروبل ذا القيمة المتزايدة بسرعة، وماركات هامبورج وتالر الغار وتالر المعاهدة، وجوال صغير مليء بالغيلدر الهولندي وكذلك أوراق بنكنوت دانتسيغ التي تم إصدارها حديثا. أحس أوجست ماتيرن بأن لديه مالا كافيا وانصاع لرغبته في إعادة بناء الطاحونة القديمة التي يقال إن الملكة لويزه التي هربت بعد هزيمة بروسيا قد باتت فيها، هذه الطاحونة التاريخية التي عانت مراوحها الأمرّين، المرة الأولى عند الهجوم الدانمركي من جهة البحر، والمرة الثانية أثناء القتال الليلي مع فرقة المتطوعين كثيرة العدد التي قادها الكابتن دو شامبور. هدم أوجست ماتيرن الطاحونة مبقيا على المِنصب الذي كان خشبه ما يزال في حالة جيدة وبنى فوق المِنصب القديم هذه الطاحونة الجديدة التي ظلت مثبتة بالصاري فوق المِنصب، حين كان على الجدة ماتيرن أن تلتصق بلا حراك في كرسيها. يريد براوكسل في هذا الموضع أن يقر قبل فوات الأوان أن أوجست ماتيرن لم يبن بالأموال التي كسب جزءا منها بالجهد والجزء الآخر دون عناء، الطاحونة الجديدة ذات المِنصب فقط، بل بنى كنيسة صغيرة في شتيغن، حيث عاش هناك بعض الكاثوليك ووهب للكنيسة تمثالا للعذراء، ورغم أن التمثال لم يفتقر إلى رقائق الذهب، فلم يكن مدعاة لمجيء زوار للكنيسة ولم تسفر عنه أية معجزات.

كانت كاثوليكية العائلة الماتيرنية، مثلما هو الحال في كل عائلات الطحانين، مرتبطة بالريح، ولأن نسائم الأرياح كانت تهب دائما من الجزيرة، فقد أعاقهم عمل الطاحونة على مدار السنة عن الذهاب الاحتفالي المبالغ فيه إلى الكنيسة كل يوم أحد والذي كان يثير حنق المينونيين. فقط في أيام التعميد والجنازات والأعراس والأعياد الكبيرة تذهب العائلة إلى شتيغن؛ ومرة في السنة أثناء عيد جسد المسيح تنال الطاحونة وأوتادها وعمودها وقادوسها وشجرة المنزل الكبيرة وصاري الطاحونة وبالأخص مراوحها، البركة والماء المقدس؛ هذه الرفاهية لم يكن للكاثوليك أن ينعموا بها في قرى المينونيين الأجلاف كقرية يونكرأكر أو بازهفارك، مع ذلك سلك المينونيون القاطنون بنيكلسفالده والذين زرعوا القمح في أرض الجزيرة الخصبة وكانوا يعتمدون في طحينهم على الطاحونة الكاثوليكية، مسلك المينونيين الرقاة، أي كانوا ذوي أزرار وعراوٍ وجيوب حقيقية، يمكن أن يضع المرء بها شيئا. الاستثناء الوحيد كان الصياد والمزارع زيمون بايستر الذي

كان مينونيا أصيلا بكلاليب وفتحات، كان جلفا وبلا جيوب، لذلك كانت هناك لوحة خشبية مطلية معلقة فوق جراج قاربه وقد كُتب عليها بخط متأنق:

بالثقوب والكلاليب يخلصك الرب الحبيب

بالزراير والجيوب،

يأخذك الشيطان في عبه

وظل زيمون بايستر هو الوحيد من نيكلسفالده الذي لا يطحن قمحه في الطاحونة الكاثوليكية، بل في طاحونة في بازهفارك. مع ذلك فليس من الضروري أن يكون هو الذي قد حرض لبانا من فراينهوبن عام ١٩١٣ قبل اندلاع الحرب بقليل، على إضرام النار في الطاحونة الماتيرنية ذات المِنصب. اشتعلت الحرائق تحت المِنصب والصاري، عندما أخذ كلب الرعاة الصغير الأسود، كلب بافل، عامل الطاحونة الذي كان الجميع ينادونه بباولشن، في الدوران بذيل مفرود في دوائر آخذة في الضيق حول التبة وحول المِنصب وحول الطاحونة وتمكن بنباحه الجاف من إخراج عامل الطاحونة والطحان من المنزل.

أتى بافل بالكلب من ليتوانيا وكان يقدم عند الطلب ما يشبه شجرة سلالة للكلب ويمكن للمرء من خلالها استخلاص أن جدة بركون من ناحية الأب ذئبة ليتوانية أو روسية أو بولندية.

وولد بركون سنتا؛ وسنتا أنجبت هاراس؛ وهاراس ولد برينتس؛ وبرينتس صنع تاريخا... لكن في الوقت الحالي ما تزال الجدة ماتيرن ملتصقة بالكرسي ولا تستطيع أن تحرك سوى بؤبؤي عينيها. إنها مجبرة على رؤية زوجة الابن تعمل في المنزل والابن في الطاحونة والابنة لورشن مع عامل الطاحونة. لكن الحرب تأخذ عامل الطاحونة وتصاب لورشن بالجنون: تبحث دائما في البيت وفي حديقة الخضروات وفي الطاحونة وعلى السدود ووسط نباتات بنات النار خلف مخزن فولشرت وخلف الكثبان وعلى الشاطئ وبين أشجار التوت الأزرق في غابة الشاطئ، وهي حافية عن باولشن- الذي لا يعرف أحد إن كان الألمان أم الروس هم الذين واروه بالتراب. فقط يرافق الكلب بركون الفتاة العانس الرقيقة التي يقتسم معها سيده.

الوردية الصباحية السادسة

منذ زمن بعيد بعيد - يعد براوكسل على أصابعه - في سنة الحرب الثالثة، عندما بقي باولشن في مازورِن وسرحت لورشن تائهة مع الكلب، وأمكن للطحان ماتيرن أن يستمر رغم ذلك في حمل أجولة الدقيق، لأنه لا يسمع جيدا من الجهتين، جلست الجدة ماتيرن ملتصقة بكرسيها في ذلك اليوم المشمس، الذي كان من المفترض فيه الاحتفال بتعميد الطفل - ذلك الولد القاذف بالمطواة في ورديات صباحية ماضية سمي فالتر - وأدارت بؤبؤي عينيها وغمغمت وسال لعابها ولم تستطع مع ذلك أن تنبس بكلمة واحدة.

جلست الجدة في الغرفة المعلقة وهاجمها ظل مجنون. فومضت ثم أصبحت شبه معتمة، جلست متوهجة، جلست معتمة. وتوهجت أيضا قطع الأثاث، توهج الجزء الأعلى من الدولاب الطولي والغطاء المقوس للكومودينو وتوهجت القطيفة الحمراء لمقعد الصلاة المنقوش والتي لم تستخدم منذ تسع سنوات، ثم اختفى الضوء عن هذه الأشياء وظهرت ملامحها الجانبية ثم غمرت العتمة كتلتها: غبار لامع، وبصيص من الضوء غير المغبر فوق الجدة وأثاثها. غطاء رأسها والكأس الأزرق الزجاجي على الدولاب الطولي، الأكمام المنسلة لرداء نومها. تحركت السلحفاة التي في حجم كف اليد تقريبا من ركن إلى ركن على الأرضية التي جُليت حتى انطفأ لمعانها. السلحفاة أهداها عامل الطاحونة باول إلى الجدة ولقد عاشت أطول من عامل الطاحونة بأن قضمت من أوراق الخس الخضراء قضمات صغيرة معطية إياها شكلا نصف دائري. وطال الظل كل أوراق الخس المتناثرة في الغرفة المعلقة والمزخرفة بقضمات السلحفاة وجعلها متوهجة متوهجة متوهجة؛ لأن بالخارج، خلف المنزل طحنت الطاحونة الماتيرنية ذات المِنصب بسرعة ريح قدرها ثمانية أمتار في الثانية، القمح دقيقا وأزالت الشمس بأجنحة مراوحها الأربعة أربع مرات في ثلاث ثوان ونصف.

في الوقت نفسه تقريبا، أثناء التحول الشيطاني ما بين الوهج والعتمة في غرفة الجدة، كان الطفل في طريقه إلى شتيغن عبر بازهفارك ويونكرأكر من أجل التعميد. أصبحت زهور عباد الشمس على السور الذي يفصل حديقة خضراوات آل ماتيرن عن الطريق الزراعي أكبر وأكبر، وأخذت تصلي بعضها لبعض ومجدتها الشمس نفسها التي أزالتها مراوح طاحونة الهواء أربع مرات في ثلاث ثوان

ونصف، دون توقف؛ لأن الطاحونة لم تزج بنفسها بين الشمس وزهور عباد الشمس، لقد زجت بنفسها فقط بين الجدة الملتصقة بكرسيها وشمس لم تسطع دائما في الجزيرة.

منذ كم سنة والجدة لا تقوم من محلها؟

منذ تسع سنوات في الغرفة المعلقة.

وكم من مدة قضتها خلف زهور النجمة وزهور الثلج والبازلاء العطرة أو اللبلاب؟

تسع سنوات من وهج عتمة وهج بجانب طاحونة الهواء ذات المِنصب.

من ألصقها بالكرسي؟

فعلتها زوجة الابن ارنستينه، واسم ميلادها شتانغه.

كيف حدث ذلك؟

لقد طردت المرأة البروتستانتية من يونكرأكر تيلده ماتيرن، التي لم تكن في ذاك الحين جدة بعد، بل كانت ما تزال محتفظة بصحتها وقوة صوتها، أولا من المطبخ ثم استولت على حجرة المعيشة وأخذت تمسح بعد ذلك زجاج النوافذ بمناسبة عيد جسد المسيح. عندما طردت ستينه حماتها من الحظيرة، فقد الدجاج أثناء هذه المعركة لأول مرة حفنة من الريش: ضربت المرأتان بعضهما البعض بصحائف الطعام. لا بد أن يكون ذلك قد حدث في عام، يعد براوكسل على أصابعه، عام ألف وتسعمائة وخمس؛ لأنه بعد عامين من الزواج، ولما لم تتق ستينه ماتيرن، واسم ميلادها شتانغه، بعد إلى التفاح الأخضر والخيار المخلل وحاضت بانتظام وفقا للتقويم ودون أي ارتباك في مواعيد الدورة، قالت تيلده ماتيرن إلى زوجة ابنها التي وقفت أمامها بذراعين معقودين على بعضهما في الغرفة المعلقة: «هذا ما كنت أقوله دائما، إبليس وضع فأره في ثقب النسوان البروتستانت، وها هو يأكل كل شيء ولا شيء يخرج من الثقب، فقط رائحته كريهة!»

واندلعت إثر هذه المقولة حربا دينية بالمغارف الخشبية، انتهت بإلصاق الكاثوليك بالكرسي: هذا الكرسي البلوطي ذو المسند، الموضوع أمام النافذة ما بين المدفأة ومقعد الصلاة، قد تلقف تيلده ماتيرن التي تأثرت من الضرب. منذ تسع سنوات وهي تجلس في هذا الكرسي، ولا تبارحه إلا عندما ترفعها لورشن

أو إحدى الخادمات من أجل النظافة، وللوقت اللازم لقضاء الحاجة.

عندما مرت السنوات التسع وثبت أن لا وجود للفأر الشيطاني الذي يلتهم كل شيء ولا يدع مجالا للإخصاب في حوض البروتستانتية، وأن ذاك الحوض على العكس من ذلك قد جاء بطفل إلى العالم وتم قطع حبله السري، ظلت الجدة جالسة في كرسيها بلا حراك أثناء تعميد الطفل في جو معتدل بشتيغن. في المطبخ الواقع أسفل الغرفة رقدت إوزة في الفرن وطش دهنها. فعلت الإوزة ذلك في العام الثالث من الحرب الكبيرة، في الوقت الذي صار فيه الإوز شيئا نادرا، حتى عده الناس من الأنواع الآخذة في الانقراض. لورشن ماتيرن ذات الوحمة، ذات الصدر المفلطح والشعر الملفلف، لورشن التي لم تحصل على زوج - لأن باولشن واراه التراب ولم يخلف وراءه سوى كلبه الأسود -، لورشن التي كان عليها أن تنتبه إلى الإوزة في الفرن، لم تكن بالمطبخ، ولم تسق الإوزة مطلقا، ونسيت أن تقلبها، ولم تتحدث إليها، لقد وقفت مع زهور عباد الشمس مكونة معها صفا وراء السور الذي دهنه عامل الطاحونة الجديد بالجير في مطلع العام - لقد تحدثت في البداية بلطف، ثم بجزع، ثم نطقت جملتين بغضب، ثم بود مرة أخرى، مع شخص ما لا يقف على الناحية الأخرى من السور ولم يمر أمامها وهو يرتدي حذاءً برقبة مدهونا وذا صرير ولم يرتد بنطلونا فضفاضا ومع ذلك يدعى باول أو باولشن وكان عليه أن يعيد إلى لورشن ماتيرن ذات النظرة المائية شيئا قد أخذه منها. لكن باول لم يعده إليها، بالرغم من أن هذا الوقت كان مناسبا - سكون طويل، مع أزيز - وكان للريح بسرعة ٨ أمتار في الثانية الحذاء ذو المقاس المناسب الذي مكنها به أن تركل الطاحونة التي فوق المِنصب، بحيث دارت الأخيرة بسرعة أكبر قليلا من الريح وحولت في دورة طحن واحدة، قمح ميلكه - الذي كان للتو في الطاحونة - إلى دقيق قمح ميلكه.

لأنه حتى في الوقت الذي كان يتم فيه تعميد ابن الطحان في الكنيسة الخشبية الصغيرة بشتيغن، لم تتوقف طاحونة آل ماتيرن عن الحركة. فما دامت هناك ريح مناسبة لدوران الطاحونة فلا بد من الطحن. فطاحونة الهواء تعرف فقط أياما ذات ريح مناسبة للطحن وأياما بدونها. ولورشن ماتيرن عرفت فقط أياما مر فيها باولشن ووقف أمام السور وأياما لم يمر فيها أي شيء ولم يقف فيها أحد أمام السور. لأن الطاحونة طحنت، مر باولشن وظل واقفا. ونبح بركون.

وبعيدا خلف أشجار حور نابليون وخلف مزارع فولشرت وميلكه وكابرون وبايستر وموموبرت وكريفه، وخلف المدرسة المستوية السطح ومقصف لورمان للمشروبات والألبان، تناوبت أصوات البقر واحدة تلو الأخرى. عندئذ قالت لورشن بلطف «باولشن»، قالتها عدة مرات «باولشن» بينما بقيت الإوزة في الفرن دون سقاية ولا حديث ولم يقلبها أحد قط وأصبحت أكثر هشاشة وأكثر ملاءمة لوليمة يوم الأحد: «أعدها لي أعطها لي، لا تكن سخيفا. كف عن ذلك. أعطها لي ثانية لأنني، عشان أنا أحتاج إليها جدا، أعطها لي، لا تكن. . .، ألا تريد أن تعطيني إياها. . .»

لم يعد أي شخص أي شيء. أدار الكلب بركون رأسه فوق رقبته ونظر إلى باولشن الذي انصرف، مصدرا أثناء ذلك عواءً خافتا. تزايد الحليب تحت الأبقار. رقدت طاحونة الهواء بصاريها فوق المِنصب وطحنت. رتلت زهور عباد الشمس صلوات عباد الشمس بعضها بعض. أصدر الهواء أزيزا. وبدأت الإوزة داخل الفرن في الاحتراق ببطء، ثم بسرعة شديدة وفاحت رائحة شياطها، حتى أن الجدة ماتيرن قد أدارت بؤبؤي عينيها بسرعة أكبر من سرعة مراوح طاحونة الهواء. بينما كان الجمع يغادر كنيسة العماد الصغيرة في شتيغن، وبينما كانت السلحفاة بحجم كف اليد تتحرك من مكان إلى مكان على الأرضية المجلية، أخذت الجدة متوهجة معتمة متوهجة، تغمغم وتتمخط وأخذ لعابها في السيلان بسبب الإوزة التي تصاعدت رائحة شياطها إلى الغرفة المعلقة. في البدء نفثت الجدة شعيرات من فتحات أنفها كتلك الشعيرات التي لدى كل الجدات، لكن عندما غمرت الغرفة المتوهجة رائحة ذات مرارة، عطلت السلحفاة عن حركتها وقلصت أوراق الخس، لم تخرج من أنف الجدة شعيرات بل خرج منها دخان. وأفرغت الجدة سخط السنوات التسع: قطار الجدة كان في الطريق. فيزوف وإتنا. النار عنصر الجحيم المفضل قد أرجف الجدة الطليقة وأسهم مثل تنين في إحداث الوهج والعتمة، وحاولت الجدة مرة أخرى وسط الإضاءة المتغيرة بعد تسع سنوات، أن تصر بأسنانها صريرا جافا. لقد أفلحت في ذلك: تثلمت أسنانها من رائحة الشياط واحتكت آخر الأسنان الثالمة بعضها ببعض من اليسار إلى اليمين؛ وفي النهاية اختلطت أصوات القرع والتهشم بتمخط التنين، وطرد البخار وقذف الحمم وصرير الأسنان. هذا الكرسي البلوطي، الذي ينتمي

إلى عصور ما قبل نابليون، والذي حمل الجدة طوال سنوات تسع، باستثناء أوقات النظافة، استسلم وانهار في اللحظة التي طارت السلحفاة فيها من على الأرضية وانقلبت على ظهرها. في الوقت نفسه تساقطت عدة بلاطات من المدفأة واحدة تلو الأخرى. وتمزقت الإوزة بأسفل وأخرجت حشوها. استحال الكرسي إلى بودرة خشبية ناعمة، أنعم مما تطحنه الطاحونة الماتيرنية ذات المِنصب، وانهار وعلا غباره وانتشر مثل سحابة كصورة تذكارية رائعة للماضي وغمر الجدة ماتيرن التي لم ترد أن تشارك الكرسي مصيره وتتحول إلى تراب جدة. الغبار الذي كان على أوراق الخس المتقلصة وعلى السلحفاة الراقدة على ظهرها وعلى الأثاث والأرضية، لم يكن سوى غبار خشب البلوط؛ أما هي تلك المرأة الشنيعة، فلم ترقد، لقد وقفت متأججة مكهربة وعُرضة للعبة تغير الضوء من الوهج إلى العتمة والتي تمارسها مراوح طاحونة الهواء. أثناء وقوفها وسط الغبار والعفن، صرت بأسنانها من اليسار إلى اليمين، وجعلت من صرير الأسنان منطلقا لخطوتها الأولى: خطوة من الوهج إلى العتمة، خطوة وهج، وخطوة عتمة وتخطت السلحفاة التي كانت على وشك أن تسلم روحها وكان بطنها الأصفر الكبريتي جميلا، قامت الجدة بعد الجلوس الساكن لمدة تسع سنوات بعمل خطوات محددة الهدف ولم تنزلق على وريقات الخس، دفعت بقدمها باب الغرفة المعلقة ونزلت، كنموذج أمثل للجدة، إلى المطبخ مرتدية حذاءً من اللباد ثم وقفت على بلاط المطبخ فوق نشارة الخشب واضعة كلتا يديها في أحد الأرفف ثم حاولت بحيل الجدات المطبخية إنقاذ إوزة العماد التي أخذت في الاحتراق بشدة. وقد أمكنها أن تنقذ ما يمكن إنقاذه من الإوزة بأن كحتت الجزء المحترق وأزالته ووضعت الإوزة في طبق آخر. لقد سمع الجميع في نيكلسفالده بوضوح كيف زعقت الجدة من حنجرة غير مجهدة بغلظة وفظاظة «يا بنت، يا بنت! أين أنتِ يا بنت! لورشن يا كلبة، سأريك يا كلبة، يا بنت يا ملعونة!»

وخرجت بمغرفة خشبية متينة من المطبخ المشتاط إلى وسط الحديقة ذات الأزيز وكانت الطاحونة خلفها. وطئت بقدمها اليمنى أشجار الفراولة وباليسرى نباتات القرنبيط ولم تعلق بأشجار التوت الشوكي، ووقفت لأول مرة وسط نباتات الفاصوليا، ثم صارت بعد ذلك مباشرة خلف وبين زهور عباد الشمس ورفعت يدها اليمنى عاليا ونزلت، يؤازرها الدوران المنتظم لمراوح الطاحونة،

بالمغرفة الخشبية على لورشن المسكينة وعلى زهور عباد الشمس ولم تطل الضربات بركون الأسود الذي قفز من بين العيدان الخشبية التي تسند نباتات الفاصوليا.

ورغم الضربات وبرغم أن باولشن غير موجود بالمرة، نهنهت لورشن المسكينة طالبة عونه «الحقني يا باولشن، يا باولشن الحقني...» لكن لم تأت سوى الضربات الخشبية مصحوبة بأغنية الجدة الطليقة «يا بنت، يا بنت! يا ملعونة!»

الوردية الصباحية السابعة

يتساءل براوكسل، إن كان قد بالغ كثيرا في وصف عيد قيامة الجدة ماتيرن. ألم يكن معجزا بشكل كاف، أن تقوم المرأة الطيبة بخفة وبساقين مفرودتين وتذهب إلى المطبخ لإنقاذ الإوزة؟ هل كان ضروريا نفث البخار وقذف حمم النار؟ هل كان من اللازم أن تتساقط بلاطات المدفأة وتتقلص أوراق الخس؟ هل كان الأمر في حاجة إلى سلحفاة محتضرة وكرسي يستحيل بانهياره إلى تراب؟

عندما يكون على براوكسل، الذي يعد اليوم من رجال الاقتصاد الحر الواعين، أن يجيب عن هذه الأسئلة بنعم وأن يتمسك بالنار والدخان، فسوف يذكر لذلك أسبابا. كان هناك سبب وما يزال هناك سبب لهذه البهرجة في وصف عيد قيام الجدة: فآل ماتيرن، خاصة الفرع الذي يصر بأسنانه، من اللص ماتيرنا في القرون الوسطى مرورا بالجدة، التي تعد ماتيرنية أصيلة - فلقد تزوجت من ابن عمها -، ووصولا إلى طفل العماد فالتر ماتيرن، لديهم حس فطري لتمثيل المشاهد الأوبرالية العظيمة؛ وفي الحقيقة لم تذهب الجدة ماتيرن في ذلك اليوم من شهر مايو عام سبعة عشر بهدوء وبشكل طبيعي لتنقذ الإوزة، بل أطفأت قبل ذلك كل الألعاب النارية التي سبق وصفها بأعلى.

علاوة على ذلك يجب أن نذكر أنه أثناء محاولة الجدة لإنقاذ الإوزة وأثناء ضربها للمسكينة لورشن بالمغرفة بعد ذلك، تحركت العربات الثلاث التي يجر كلا منها حصانان بأهل وضيوف حفل التعميد الجائعين في طريق العودة من شتيغن مارة بيونكرأكر وبازهفارك. ورغم أن براوكسل تلح عليه رغبة في أن يصف وليمة العماد - لقد جاءوا من الكرار بلحم خنزير مملح وكرنب أبيض، لأن الإوزة لم تكف - فسيضطر مع ذلك أن يترك أهل وضيوف الحفل يأكلون على

المائدة بلا شهود. ولن يعرف أحد أبدا كيف امتلأت بطون كل من رومايكه وكابرون وميلكه والأرملة شتانغه في منتصف سنة الحرب الثالثة بالإوزة المحروقة والكرنب ولحم الخنزير المملح والقرع العسلي المخلل. يأسف براوكسل بشكل خاص للمشهد العظيم للجدة ماتيرن التي استعادت حركتها الخفيفة؛ الأرملة أمزل هي الوحيدة التي يمكن لبراوكسل استثناءها من المشهد القروي، لأنها أم صديقنا السمين إدوارد أمزل، الذي كان ينتشل، من بداية الوردية الأولى وحتى الوردية الرابعة، عيدان الفاصوليا وألواح السقف الخشبية والملابس الثقيلة جدا من نهر الفايكسل أثناء الفيضان، والذي يفترض تعميده الآن مثله مثل فالتر ماتيرن.

الوردية الصباحية الثامنة

كان يا ما كان زمان زمان، منذ سنوات بعيدة - فالحواديت هي أفضل ما يحكيه براوكسل لنفسه - عاش في شيفينهورست وهي قرية صيادين تقع يسار مصب الفايكسل، التاجر ألبرشت أمزل. وكان يبيع كيروسينا وأقمشة شراع وجراكن للماء النظيف وحبالا وشباكا وسلالا لثعابين الماء وسلالا لصيد السمك وأدوات صيد مختلفة وقارا وبوية وورق صنفرة وخيوطا وقماشا مزيتا وزفتا وشحما أبيض. وكان يبيع أيضا عددا وأدوات بدءا من البلطة وحتى مطواة الجيب. وكان لديه بالمخزن نضد النجارة وأحجار لسن السكاكين وإطارات داخلية للدراجات ومصابيح كربيد وبكرات لرفع الأثقال وأوناش وملزمات. كانت قطع البسكويت مرصوصة أمام سترات من الفلين؛ وأحاط طوق نجاة، كان يحتاج فقط إلى الكتابة عليه، ببرطمان أقراص ملبس السعال الكبير؛ وكان هناك عرقي من القمح اسمه «بروتشن» يصب من جمدانة خضراء منتفخة؛ وأقمشة تباع بالمتر وبقايا أقمشة، كل ذلك كان من جملة معروضاته، كما كان لديه أيضا ملابس جديدة وأخرى مستعملة بالإضافة إلى شماعات الملابس وماكينات الخياطة المستعملة وحبات النفتالين. ورغم النفتالين والزفت والكيروسين والورنيش والكربيد، فاحت في محل ألبرشت أمزل، وهو مبنى خشبي كبير مبني على أساس خرساني ويُدهن كل سبع سنوات باللون الأخضر الغامق، أولا وقبل كل شيء رائحة ماء الكولونيا، وقبل الانتقال من رائحة الكولونيا إلى رائحة النفتالين تطغى رائحة السمك المدخن؛ لأن ألبرشت أمزل كان يعد إلى جانب تجارته الصغيرة،

تاجرا كبيرا للأسماك النهرية والبحرية: صناديق من خشب الصنوبر الخفيف بلون ذهبي مصفر مترعة بالسمك المفلطح المدخن وثعابين الماء المدخنة والرنجة الصغيرة مفردة أو في حزم وسمك الجلكي وبطارخ سمك القد، وسالمون الفايكسل المدخن بشدة أو متوسط التدخين. كانت واجهة الصناديق موسومة باسم شركة أ. أمزل - أسماك طازجة - أسماك مدخنة - شيفنهورست - الجزيرة الكبيرة - في مبنى سوق دانتسيغ الواقع ما بين حارة لافندلغاسه وحارة يونكرغاسه، ما بين كنيسة الدومينيكان ومقابر المدينة القديمة، كانت الصناديق تُفتح بواسطة أجنات متوسطة الحجم. كان الغطاء الخشبي المنزوع يحدث دويا جافا. وكانت المسامير تصدر صريرا عند خروجها من الألواح الجانبية للصناديق. ويسقط الضوء من النوافذ المقوسة ذات الطراز القوطي الحديث على الأسماك المدخنة.

إضافة إلى ذلك، فبوصفه تاجرا يخطط على المدى البعيد ويشغله مستقبل معامل تدخين السمك في منطقة دلتا الفايكسل وبطول اللسان النهري، فقد عين ألبرشت أمزل بنّاءَ للمداخن، توافر لديه ما بين بلينيندورف وأينلاغه، أي بطول الفايكسل الميت عمل كثير. وقد أضفت المداخن على مظهر القرى طابعا غريبا وخربا، فكان مصير المدخنة التي لا تعمل جيدا هو الإزالة وكان لا بد من تشييد واحدة من تلك المداخن الضخمة التي تفوق أشجار الليلكي وبيوت الصيادين المدكوكة؛ وكل ذلك تحت اسم ألبرشت أمزل الذي لم ينعت دون مبرر، بالغني. يقولون أمزل الغني- أو: «أمزل اليهودي». بالطبع لم يكن أمزل يهوديا. فرغم أنه لم يكن مينونيا فقد أطلق على نفسه صفة البروتستانتي، وكان لديه كل يوم أحد مقعد ثابت ومحجوز في كنيسة الصيادين في بونزاك وقد تزوج لوتشن تيده، وهي ابنة فلاح من غروس-تسوندر، بشعر أشقر مائل إلى الحمرة وجسم أميل للامتلاء؛ وهذا يعني: كيف يمكن لأمزل أن يكون يهوديا، وقد قبل المزارع الكبير تيده أن يزوجه من ابنته، وهو الذي لم يكن ليركب في تنقله ما بين غروس- تسوندر وكيزهمارك إلا عربة تجرها أربعة خيول، مرتديا بوطا لامعا مصقولا وكان دائم التردد على مجلس البلدية، والذي أرسل أولاده إلى فرقة الفرسان، بمعنى أدق، أرسلهم ليخدموا لدى فرقة سلاح فرسان الهوصار الغالية في لانغفور.

بعد ذلك قال كثيرون إن العجوز تيده قد زوج أمزل بابنته، لأنه، مثله مثل

كثير من الفلاحين والتجار والصيادين والطحانين - من بينهم الطحان ماتيرن من نيكلسفالده - المدينين لأمزل، غارق في الديون لديه بشكل فادح من أجل الحفاظ على عربته التي تجرها الخيول الأربعة. علاوة على ذلك، فقد قال البعض، بغرض إثبات شيء معين، إن أمزل قد رفض بشكل قاطع طلب لجنة تنظيم السوق الخاص بدعم تربية الخنازير. براوكسل الأكثر علما ببواطن الأمور يضع بشكل مؤقت خطا فاصلا تحت كل هذه التخمينات: فسواء كان الحب أم كانت الديون هي التي جلبت لوتشن تيده إلى بيت أمزل وسواء جلس ألبرشت أمزل كل أحد في كنيسة الصيادين ببونزاك بوصفه يهوديا أو مسيحيا، فإن التاجر النشيط ألبرشت أمزل القاطن بضفة الفايكسل، والذي يعد أحد المؤسسين الرئيسين لاتحاد بونزاك الرياضي، تأسس عام ١٩٠٥، اتحاد مسجل، قد استطاع أن يحصل على ضفاف نهري زومه ومارنه على رتبة ملازم احتياط بنياشين متعددة وقد لاقى حتفه عام سبعة عشر قرب حصن فردون، قبل حوالي شهرين من ميلاد ابنه إدوارد.

الوردية الصباحية التاسعة

لقد أبصر فالتر ماتيرن نور العالم لأول مرة في شهر أبريل منطوحا بقرون الجدي. وسحبت حيتان شهر مارس بنشاط وموهبة إدوارد أمزل من مغارة الأم. تم تعميد ابن الطحان في شهر مايو، حينما احترقت الإوزة وقامت الجدة. أما ابن التاجر الميت ألبرشت أمزل فقد تم تعميده بروتستانتيا في آخر أبريل، بكنيسة الصيادين في بونزاك، وذلك وفقا للعرف الذي جرى أن يرش المولود بماء نصفه من ماء نهر الفايكسل ونصفه الآخر من ماء بحر الشرق.

مهما حاد المؤرخان الآخران، اللذان يكتبان في تنافس مع براوكسل منذ تسع ورديات، في كتابتهما عن رأي براوكسل، فإنهما سيتعهدان لي فيما يخص طفل العماد من شيفنهورست: بأنه باستثناء براوكسل، سيكون إدوارد أمزل أو إيدي أمزل أو الفم الذهبي إلخ، هو البطل الأنشط من بين الشخوص التي تحيي هذا الكتاب التذكاري- منجم براوكسل لا ينتج منذ عشر سنوات فحما ولا معادن ولا بوتاسا.

كانت مهنته منذ البداية هي صنع فزاعات الطيور. مع ذلك فهو لا يكره الطيور؛ أغلب الظن أن لدى الطيور أيا كان نوع أجنحتها أو ريشها، شيئا ضده

وضد روحه المبتكرة للفزاعات. فقد عرفته الطيور بعد تعميده مباشرة - ولم تكن أجراس الكنيسة قد كفت بعد عن الدق. مع ذلك فقد رقد إدوارد أمزل سمينا على وسادة العماد ذات الحشو الجاف ولم يكن يعرف إن كانت للطيور أية أهمية لديه. وكان اسم أم العماد جيرترود كارفايزه وقد حاكت له بعد ذلك في كل عام وبالضبط في وقت أعياد الميلاد جوارب صوفية. لقد حملته على ذراعيها القويتين متقدمة ضيوف حفل العماد الكثيرين المدعوين إلى وليمة العماد التي لا أول لها ولا آخر. بقيت الأرملة أمزل، واسم ميلادها تيده، بالمنزل وأشرفت على إعداد المائدة وأعطت التعليمات الأخيرة في المطبخ وتذوقت صلصات الأطعمة. سار كل آل تيده من غروس- تسوندر في أحسن زينة وراء وسادة العماد، ما عدا الأبناء الأربعة الذين يعيشون حياة خطرة في سلاح الفرسان وقد قُتل ثالثهم بعد ذلك. سار موكب العماد بطول الفايكسل الميت: الصياد كريستيان غلومه من شيفنهورست وزوجته مارته غلومه واسم ميلادها ليدكه؛ هربرت كيناست وزوجته يوهانه واسم ميلادها بروبست؛ كارل ياكوب أيكه الذي مات ابنه دانيل أيكه على ضفة نهر الدوغر أثناء خدمته بالبحرية القيصرية؛ أرملة الصياد بريغيته كابوس التي يدير مراكبها أخوها ياكوب نيلنتس؛ بين زوجات أبناء ارنست فيلهلم تيده اللائي تبخترن في ملابس المدينة ذات اللون الوردي والأخضر الزاهي والأزرق النيلي والأسود ذي اللمعة الخفيفة كان هناك راعي الكنيسة العجوز بليش- وهو سليل الشماس أ. ف. بليش، الذي كتب تاريخ مدينة دانتسيغ من عام ألف وثمانمائة وسبعة وحتى عام ألف وثمانمائة وأربعة عشر، أي أثناء الاحتلال الفرنسي، أثناء عمله كقس بكنيسة سانت مارتن. وسار فريدريش بولهاغن صاحب معامل تدخين الأسماك الكبير في غرب نويفير بجانب الكابتن بونزارد المحال إلى المعاش والذي ارتأى لنفسه أثناء الحرب وظيفة حارس متطوع لهاويس بلينيندورف. وكان أوغست شبوناغل، وهو صاحب مطعم في فيسلينكن، أطول من زوجة عمدة أنكوم بمقدار رأس، وحيث إن ديرك هاينريش فون أنكوم، صاحب الضيعة بكلاين-تسوندر قد مات منذ عام خمسة عشر، فقد تأبط شبوناغل ذراع زوجة العمدة الممدودة إليه بزاوية مائلة إلى اليمين. وفي ذيل الموكب خلف الزوجين بوزينيتس، اللذين كانا يتاجران في الفحم، جاء عمدة شيفنهورست المعوق ايريش لاو مع امرأته الحامل في شهورها الأخيرة مارغريته

لاو ابنة مومبر عمدة نيكلسفالده التي لم تفقد بزواجها هذا أي شيء من وضعها ومكانتها كابنة عمدة. وقد توجب على هابرلاند مفتش السد أن يودع الجمع عند باب الكنيسة لأنه صارم في أداء عمله. ومن المحتمل وجود ثلة من الأطفال شديدي الشقر بملابس العيد وقد أطال هؤلاء الموكب.

سار الموكب على الضفة اليمنى للنهر فوق أرض يغطي رملها الجذور الزاحفة المتناثرة لأشجار صنوبر الشاطئ، باتجاه العربات المنتظرة التي يجر كلا منها حصانان وباتجاه عربة العجوز تيده التي تجرها أربعة خيول والتي استطاع تيده أن يحافظ عليها رغم الحرب ونقص الخيول. رمل في الأحذية. ضحك الكابتن بونزارد ضحكة عالية دون أن يأخذ نفسه، ثم أخذ يسعل لوقت طويل. تأجلت الأحاديث لما بعد الوليمة. كان لغابة الشاطئ رائحة بروسية. ولم ينساب النهر، فهو فرع ميت من الفايكسل، يكتسب شيئا من الحركة في الأمام عندما يصب نهر الموتلاو فيه. وسطعت الشمس بحذر فوق ملابس العيد. تجمدت زوجات أبناء تيده في ألوانهن الوردية والخضراء الزاهية والزرقاء النيلية من البرد وتمنين أن يلبسن عباءات الأرامل. من المحتمل أن سواد الأرامل وزوجة العمدة الضخمة وطريقة المشي التاريخية المتمايلة للعمدة المعوق قد ساعدوا في حدوث شيء كان قد تم تدبيره من قبل: فبمجرد أن خرج الجمع من كنيسة الصيادين ببونزاك، تجمعت فوق ميدان الكنيسة سحب من النوارس التي لم تكن تتحرك من قبل. لم يكن هناك حمام، فعند كنائس الصيادين لا يوجد حمام بل نوارس. الآن تخرج طيور السنونو البحري وبط الحذف مائلة وعمودية من بين أعواد البوص ومن فوق طحالب الماء. تطير كل طيور الغطاس. وتخرج الغربان من بين شجيرات الصنوبر على الشاطئ. تغادر الزرازير والشحارير المقابر والحدائق المواجهة لبيوت الصيادين المطلية بالجير الأبيض. من بين شجيرات الليلكي والزعرور البري تخرج طيور الطول والقرقف وأبي الحناء والحسون والسمنة، وكل الطيور التي ترد في الأغنية؛ وتخرج العصافير في شكل سحب من مجاري الأمطار، ومن بين الأسلاك، طيور السنونو من الحظائر وشقوق الأسوار، يخرج كل ما هو محسوب على عائلة الطيور ويتطاير ويئز متحركا بسرعة السهم المنطلق، وتحمله ريح البحر فوق النهر ثم يكون سحابة سوداء ممزقة، تلتقي فيها بلا انتقاء، طيور تتجنب بعضها بعضا في العادة وقد أثارها جميعا الفزع نفسه: نوارس وغربان؛ زوج

الصقور وسط الطيور المغردة الملونة؛ طيور العقعق العقعق!

ويهرب خمسمائة طائر، دون حساب العصافير، في كتلة واحدة إلى ما بين الشمس وضيوف حفل العماد، وتلقي خمسمائة طائر بظلها على ضيوف حفل العماد وعلى وسادة العماد وعلى طفل العماد بصورة موحية.

وخمسمائة طائر- من يريد أن يعد العصافير؟- دفعت موكب العماد بدءا من عمدة القرية المعوق لاو ووصولا إلى آل تيده إلى الاقتراب بعضهم من بعض وإلى التزاحم من الخلف إلى الأمام. حدث ذلك في البدء في صمت ثم بهمهمات ونظرات محملقة وبدأوا يخطون خطوات سريعة لاهثة. تعثر أوغست شبوناغل في جذر شجرة صنوبر. من بين الكابتن بونزارد وراعي الكنيسة بليش الذي يرفع ذراعه ويحاول بطريقة الوعاظ أن يهدئ الطيور، تندفع زوجة العمدة العملاقة وتلملم تنورتها وتسحب بقية الجمع وراءها، ويحذو الجميع حذوها بأنفاس ثقيلة: آل غلومه وكيناست وزوجته، أيكه وكابوس وبولهاغن والزوجان بوزنيتس؛ وحتى المعوق لاو وزوجته ذات البطن المنتفخ، التي لا ينبغي أن تلد بعد ذلك بنتا بشعة، بل فتاة طبيعية- فقط تبقى أم العماد ذات الذراعين القويتين في المؤخرة وتصل بوصفها الأخيرة إلى موقف العربات التي يجرها حصانان وعربة تيده التي تجرها أربعة أحصنة ما بين أول أشجار الحور والطريق الزراعي إلى شيفنهورست، حاملة طفل العماد ووسادة العماد المنزلقة.

هل صرخ طفل العماد؟ لم يبك، لكنه لم ينم أيضا. هل انقشعت غمامة الخمسمائة طائر والعصافير التي لا حصر لها بعد الهروب السريع وغير الاحتفالي للعربات؟ لم تعرف السحابة فوق النهر الخامل أي هدوء لوقت طويل. فتوقفت مرة فوق بونزاك ثم مرة أخرى بزاوية حادة فوق غابة الشاطئ وعلى الكثبان، ثم بعرض وانسياب على الضفة الأخرى وتركت غرابا يسقط في مرج مستنقعي. وهناك خرج الغراب رماديا ومنتصبا. ولم تتفكك السحابة إلى أنواع مختلفة من الطيور التي عادت إلى ميدان الكنيسة وإلى المقابر وإلى الحدائق وإلى الحظائر وإلى عيدان البوص وشجيرات الليلكي وأشجار الصنوبر، إلا بعد أن دخلت العربات التي يجرها حصانان والعربة التي تجرها أربعة أحصنة إلى شيفنهورست. لكن حتى المساء حينما شبع ضيوف الحفل من الطعام وأثقلوا المائدة بكيعانهم، ظل القلق حيا في القلوب الكبيرة لكثير من الطيور المختلفة؛ لأن روح إدوارد أمزل المبتكرة

للفزاعات، قد أبلغت كل الطيور أثناء رقاده على وسادة العماد. وعلى الفور عرفوا بأمره.

الوردية الصباحية العاشرة

من ذا الذي يريد أن يعرف أن التاجر والملازم الاحتياط ألبرشت أمزل ربما كان بالفعل يهوديا؟ فلا يمكن أن ينعته الناس في شيفنهورست وأينلاجه ونويفير باليهودي الغني دون سبب. واسمه؟ أليس اسما يهوديا تقليديا؟ ماذا؟ أصل الاسم من الهولندية لأن هناك مستوطنين هولنديين قد جاؤوا لتجفيف سهل الفايكسل في أوائل القرون الوسطى وجلبوا معهم خصائصهم اللغوية وطواحين الهواء وأسماءهم؟

بعدما أكد براوكسل في الورديات الصباحية المنصرمة أن أ. أمزل ليس يهوديا. وقال بالحرف الواحد: «بالطبع لم يكن أمزل يهوديا»، يمكنه الآن- وله الحق في ذلك أيضا - لأن التلاعب بالأصل ممكن وحسب الهوى - أن يبرهن أن ألبرشت أمزل كان بالطبع يهوديا. وأصله من عائلة يهودية عريقة تمتهن الحياكة من برويسيش-ستارغارد وقد غادر برويسيش-ستارغارد في سن السادسة عشرة متوجها إلى شنايدهمول ثم فرانكفورت على نهر الأودر ثم برلين - لأن بيت الأب كان مليئا بالأطفال - ثم وصل بعد ستة عشر عاما - وقد تحول وأصبح مؤمنا وثريا - إلى مصب الفايكسل عبر شنايدهمول ونويشتات وديرشاو. هذه القناة التي جعلت من شيفنهورست قرية على النهر، كان عمرها لم يتعد العام حينما أتى ألبرشت أمزل واشترى ممتلكاته بسعر رخيص.

وهكذا بدأ يمارس تجارته. ما الذي ينبغي عليه أن يفعله غير ذلك؟ وهكذا غنّى في جوقة الكنيسة. لماذا لم ينبغ عليه أن يغني في جوقة الكنيسة كباريتون؟ وهكذا أسس مع آخرين اتحادا للجمباز وكان أكثر سكان القرية إيمانا، فأمزل (شحرور) ليس يهوديا والأسم أصله هولندي: هناك كثيرون يدعون شبيشت (نقار الخشب) وأحد رواد الاستكشاف في أفريقيا يدعى ناختيجل (عندليب). يعد أدلر (نسر) فقط اسما يهوديا تقليديا، أما أمزل فليس اسما يهوديا على الإطلاق: لقد عمل ابن الترزي طوال أربعة عشر عاما على نسيان أصله وإلى جانب ذلك تمكن خلال هذه الفترة نفسها بنجاح من تكوين ثروة بروتستانتية.

وفي عام ألف وتسعمائة وثلاث، ألف شاب ذكي يدعى أوتو فايننغر كتابا. وكان عنوان ذلك الكتاب الفريد «الجنس والشخصية»، وقد نشر في فيينا ولايبتسغ واجتهد الكاتب على مدى ستمائة صفحة في دحض امتلاك الأنثى للروح. ولأن هذا الموضوع كان حيويا في عصر المساواة، وبخاصة الفصل الثالث عشر من الكتاب الفريد والذي يحمل عنوان «اليهودية» ويعتبر فايننغر فيه اليهودي منتميا إلى جنس النساء وينفي عنه كذلك امتلاكه للروح، فقد سجل الإصدار الجديد للكتاب عددا مذهلا من الطبعات ووصل إلى بيوت لم يكن بها كتاب يُقرأ سوى الكتاب المقدس. وهكذا وصل هذا الكتاب الفذ إلى بيت ألبرشت أمزل أيضا.

وكان من المحتمل ألا يفتح التاجر هذا الكتاب الضخم لو عرف أن رجلا يدعى السيد بفنيغ قد اتهم أوتو فايننغر بالسرقة الأدبية: لأن هناك منشورا شريرا قد صدر في عام ١٩٠٦، ووجهت فيه اتهامات فظة إلى فايننغر الميت - لقد أنهى الشاب حياته بيده - وإلى زميله سفوبودا. وحتى ز. فرويد الذي اعتبر المرحوم فايننغر موهبة فذة، لم يستطع رغم استنكاره للهجة التي كتب بها المنشور أن يغض النظر عن الحقيقة التي يتضمنها: ففكرة فايننغر الرئيسية عن الازدواج الجنسي لم تكن فكرته أصلا، بل إنها قد خطرت لرجل يدعى السيد فليس - إذن فقد فتح ألبرشت أمزل الكتاب وهو على غير علم بهذه الخلفيات وقرأ التالي لدى فايننغر - الذي قدم نفسه في حاشية سفلية باعتباره منتميا إلى الديانة اليهودية: ليس لليهودي روح. اليهودي لا يغني. اليهودي لا يمارس الرياضة. على اليهودي أن يتغلب على اليهودية داخله. . . وقد تغلب ألبرشت أمزل على اليهودية داخله بأن غنى في جوقة الكنيسة وأنه لم يكتف فقط بتأسيس اتحاد جمباز بونزاك عام ١٩٠٥، اتحاد مسجل، فقط، بل ارتدى هو نفسه زي الفريق نفسه ونزل إلى حلبة الجمباز ولعب على المتوازيين وعلى العقلة وتدرب على القفز العالي والقفز الطويل وشارك في سباق التتابع وأدخل رغم المعارضة لعبة كرة المضرب الجلدية إلى يسار ويمين كل مصبات الفايكسل، وهي لعبة كانت تعد في ذلك الوقت حديثة نسبيا.

لو أن لوتشن أمزل واسم ميلادها تيده قد التزمت الصمت، لظل براوكسل، الذي يكتب هنا عن علم مكين، شأنه شأن سكان قرى الجزيرة، جاهلا بأمر

المدينة الصغيرة برويسيش-ستارغارد وبأمر جد إدوارد أمزل الخياط. لقد فاهت بذلك بعد سنوات عدة من اليوم المميت في فيردون.

لقد هرع الشاب أمزل، الذي سيروى عنه من الآن فصاعدا مع بعض فترات من الراحة، من المدينة إلى أمه وهي على فراش الموت وهمست هي له وقد أوقعها مرض السكر في الحمى: «يا ابني سامح أمك المسكينة. أمزل الذي لا تعرفه، لكنه كان أباك وأنت من صلبه، كان، مثلما يقولون، مختونا، أرجو ألا يلقوا القبض عليك، لأنهم مشددين جدا في القوانين هذه الأيام.»

ورث أمزل في زمن القوانين المشددة - التي لم تطبق بعد في نطاق دولة دانتسيغ الحرة - المحل وثروةً وبيتا وأثاثا وكذلك رفا مليئا بالكتب: ملوك بروسيا- رجال بروسيا العظام - فريتز العجوز - نوادر - الكونت شليفن- كورال لويتن - فريدريش وكاته - باربارينا - وكتاب أوتو فايننغر الفريد، الذي حمله أمزل معه دائما، بينما ضاعت الكتب الأخرى بمرور الوقت. لقد قرأ الكتاب بطريقته الخاصة وقرأ أيضا الملاحظات الهامشية التي كتبها الأب الذي كان يلعب الجمباز ويغني، وأنقذ إدوارد أمزل الكتاب من الضياع خلال أوقات عصيبة، وعمل على أن يكون الكتاب موجودا هنا على مكتب براوكسل وجاهزا للقراءة اليوم وفي كل وقت: لقد غذى فايننغر كاتب هذه السطور ببعض الأفكار. خُلقت الفزاعات على صورة الإنسان.

الوردية الصباحية الحادية عشرة

ينمو شعر براوكسل. ينمو أثناء الكتابة أو أثناء إدارته للمنجم، أثناء تناوله لطعامه وحين غفوته، أثناء تنفسه أو حبسه لأنفاسه، ينمو حين تبدأ الوردية الصباحية وتنتهي الوردية الليلية وتعلن العصافير بدء اليوم. أجل، وأثناء قص الحلاق لشعر براوكسل بأصابع باردة بالقصر الذي يريده براوكسل، حيث إأن نهاية العام قد حلت، ينمو شعر براوكسل تحت المقص. في يوم ما سيموت براوكسل مثلما مات فايننغر،وسيبقى شعره وستبقى أظافر يديه وقدميه لفترة من بعده - وكذلك سيبقى هذا الكتاب عن بناء الفزاعات الفعالة وسيُقرأ بعد وقت طويل من فناء كاتب هذه السطور.

تحدثنا بالأمس عن القوانين المشددة، ولكن في وقت بداية حكايتنا الحالية،

ما تزال القوانين معتدلة، ولم تكن لتعاقب أصل أمزل مطلقا؛ لوتشن أمزل، واسم ميلادها تيده، لا تعرف شيئا عن مرض السكر المفزع؛ و«بالطبع» لم يكن ألبرشت أمزل يهوديا؛ ويعتبر إدوارد أمزل بدوره بروتستانتيا وقد ورث شعره الأشقر المحمر عن أمه، يتجول سمينا، بكل نقاط نمشه بين شباك الصيادين الآخذة في الجفاف ويفضل رؤية العالم من وراء هذه الشباك: ويا له من شيء رائع، عندما يبدو له العالم الآن في صورة شبكة تحجب فيها عيدان الفاصوليا الرؤية.

الفزاعات! يُدَّعى هنا أن إدوارد أمزل الصغير الذي صنع أول فزاعة تستحق الذكر في سن خمس سنوات ونصف، لم يقصد في البداية أن يصنع فزاعات. لكن هذا ما فكر فيه أناس من أهل القرية ومندوبون متجولون، طافوا بالجزيرة ببوالص تأمين ضد الحريق وعينات من البذور، وفلاحون عائدون من عند الموثق العقاري وكل من شاهدوه وهو يضع تماثيله لترفرف على السد بجانب جسر مرسى شيفنهورست؛ وقال كريفه لهربرت كيناست: «شوف يا أخي فزاعات ابن أمزل الصغير: فزاعات و لا البني آدميين الحقيقيين.» وكما كان الحال بعد التعميد، فلم يكره أمزل الطيور بعد ذلك؛ لكن كل ما حملته الريح بخفة طائر على يمين ويسار الفايكسل، كان لديه شيء ضد منتجاته التي تسمى الفزاعات. هذه المنتجات التي يصنع واحدة منها كل يوم، لم تتشابه قط. فما صنعه الأمس خلال ثلاث ساعات عمل، ببنطلون مخطط وخرق تشبه الجاكت من الكاروهات العريضة وقبعة بلا حواف وبالاستعانة بسلم مكسور وخال من بعض الدرجات وذراع من الصفصاف، خلعه في الصباح التالي وبنى من الإكسسوارات نفسها شيئا فريدا من جنس آخر ومعتقد آخر - لكن هذا الكيان قد مثّل على أية حال شيئا يأمر الطيور بالابتعاد.

وإذا ما كشفت هذه الأعمال دائما عن خيال صانعها واجتهاده، فلقد كان ذهن أمزل الواعي بالواقع المتعدد الأشكال وعينيه ذات الفضول فوق خدين ممتلئين، هي التي أثرت منتجاته بالتفاصيل المدروسة وجعلتها تعمل وتصبح منتجات لإفزاع الطيور. تختلف منتجات أمزل عن فزاعات الطيور العادية التي تتمايل في الحدائق والحقول، ليس فقط شكلا، بل وأيضا في تأثيرها. ففي حين أن الفزاعات العادية لا تستطيع أن تكتسب سوى قدر ضئيل من احترام الطيور

لها، كمنت بداخل كائناته، التي بناها دون غرض ولم تكن موجهة ضد أحد، إمكانية إشاعة الذعر بين الطيور.

بدت الفزاعات التي يصنعها أمزل ممتلئة بالحياة، وكانت إذا تأملها المرء طويلا، أثناء صنعها، وحتى عند تفكيكها وحين لا يبقى منها إلا الجذع، تبدو حية تماما: لقد انطلقت فوق السد، شخوص تعدو على السد وتلوح، تهدد، تهاجم، تضرب، وتبعث بالتحية من ضفة لأخرى، تترك نفسها للريح كي تحملها، تتحادث مع الشمس وتبارك النهر والأسماك، تعد أشجار الحور، وتسبق السحب، وتكسر قمم أبراج الكنائس وتريد أن ترحل إلى السماء، وأن تستولي على المعدية، تطارد وتهرب، لم تكن مجهولة بل كانت لها أهمية لدى الصياد يوهان ليكفيت وراعي الكنيسة بليش ودائما لدى كريفه المراكبي الذي ينظر إليها بفم فاغر ورأس معوج ولدى الكابتن بونزارد والمفتش هابرلاند وكل من على السهل. ورغم أن المزرعة المتواضعة لزوجة عمدة أنكوم تقع في كلاين-تسوندر ورغم أنه قد ندر أن تقف المرأة ذات العظام المتينة في المعدية عرضة للتصوير، فقد تم وضعها على سد شيفنهورست في هيئة امرأة عملاقة تخيف الطير والأطفال وبقيت هناك أياما ثلاثة. بعد ذلك بقليل، عندما بدأ أمزل في الذهاب إلى المدرسة، كان الدور على الأستاذ أولشفسكي المدرس بمدرسة القرية في نيكلسفالده، لأن شيفنهورست لم يكن بها مدرسة، وكان على المدرس، الخفيف مثل فزاعة، أن يلتزم الصمت أثناء ما كان تلميذه ذو النمش الكثير يقوم بغرسه على الكثيب الكبير على يمين النهر. وضع أمزل قرين المدرس على قمة الكثيب بين أشجار الصنوبر التسع المنحنية للريح. ووضع عند قدميه ذاتي الأحذية المصنوعة من قماش الأشرعة، الجزيرة المستوية من الفايكسل إلى نهر النوغات، والسهل بامتداده حتى أبراج مدينة دانتسيغ، وكذلك التلال والغابات خلف المدينة، إضافة إلى النهر من مصبه حتى الأفق والبحر حتى جزيرة هيلا المعروفة بما في ذلك السفن المربوطة على المرسى.

الوردية الصباحية الثانية عشرة

انتهى العام. نهاية عام ذات طابع خاص، بسبب الأزمة في برلين، لذلك سيحتفل برأس السنة بالألعاب النارية الضوئية دون المفرقعات. علاوة على ذلك،

فهناك سبب آخر لعدم استخدام الألعاب النارية المفرقعة هنا في ولاية سكسونيا السفلى، ألا وهو أنهم قد حملوا هينريش كوبف، وهو أحد حكام الولاية المخلصين، منذ وقت قليل إلى مثواه الأخير. من باب الحيطة قام براوكسل، بالاتفاق مع مجلس العمال، بتعليق إعلان في مبنى تغيير الملابس ومكاتب الإدارة وكذلك عند نهاية خط الإنتاج وفي مكان التعبئة ونصه كالتالي: يرجى من عمال وموظفي مؤسسة براوكسل وشركاه- استيراد وتصدير- الاحتفال بنهاية العام في هدوء مراعاة للظروف الجدية الحالية. ولم يستطع كاتب هذه السطور أن يقاوم الاقتباس من عباراته فطبع عبارته «خُلقت الفزاعات على صورة الإنسان» بشكل أنيق على ورق مصنّع يدويا وأرسلها إلى الزبائن وأصدقاء العمل كتحية بمناسبة رأس السنة الجديدة.

لقد عاد العام الدراسي الأول على إدوارد أمزل بكثير من الأشياء. مستدير ومضحك ومغطى بالنمش، ولأنه كان محط أنظار البشر أثناء مروره اليومي عبر قريتين، فقد كان دور صبي العُلق من نصيبه. أيا ما كانت أسماء ألعاب الصبا، فقد كان عليه أن يشارك في اللعب، بالأصح كان الأولاد يرغمونه على اللعب. ورغم أن أمزل الصغير كان يبكي عندما يجره قطيع الأولاد إلى شجيرات بنات النار خلف مخزن فولشرت ويقيدونه بحبل متهالك له رائحة القار على عمود خشبي ثم يعذبونه، وإن كانوا لا يتفننون في تعذيبه فهم يؤلمونه، لكن عبر الدموع المعروف عنها أنها تتيح رؤية غائمة وفائقة الدقة رغم ذلك، لم تكف عيناه الصغيرتان ذاتا الخضار الرمادي المغلف بالدهن، عن المراقبة والتقييم والإدراك الموضوعي للحركات المعتادة. وبعد مرور يومين أو ثلاثة على إحدى العلق- وقد تكون كلمة «كوهين» قد نطقت بقصد أو غير قصد بين الضربات والشتائم والألقاب الأخرى، تم تصوير مشهد العلقة نفسه في غابة الشاطئ بين الكثبان أو على الشاطئ مباشرة في صورة فزاعة متعددة الأذرع وقد لعقها ماء البحر.

وضع فالتر ماتيرن حدا لهذه العلق وأشباهها اللاحقة. هو، الذي طالما شارك في الضرب، بل وكان أول من قال كلمة «كوهين» بقصد أو غير قصد، أنزل قبضتيه، غالبا لأنه قد اكتشف في يوم من الأيام، أثناء ضربه لأمزل مع الآخرين على الشاطئ، فزاعة مهلهلة لكنها مغشية بالغضب الأعمى رغم ذلك وضاربة في كل الاتجاهات، إنها تشبهه، تصنع منه تسعة أشباه، لقد أنزل قبضتيه

متأملا لمدة قدرها- إن جاز التعبير- خمس لكمات متوالية، ثم استمر في الضرب. منذ ذلك الحين، لم يعد أمزل الصغير هو تلك الضحية التي عليها أن تذعن صامتة لضربات فالتر ماتيرن الطليقة، لقد تصدى فالتر ماتيرن للمتحرشين بأمزل وكانت ضرباته تتميز بالإخلاص الشديد مصحوبة بالإيقاع المنتظم لصرير الأسنان، لدرجة أنه كان يستمر وقتا طويلا في ملاكمتهم خلف مخزن فلوشرت في هواء الصيف العليل، رغم أنهم جميعا قد ذهبوا ولم يبق خلف المخزن سوى أمزل الرامش بعينيه.

تظل الصداقات التي تنشأ أثناء أو بعد المشاجرات، كعهدنا بها في الأفلام المشوقة، دائما مشوقة ومثيرة. وكذلك ستتعرض صداقة أمزل وماتيرن في هذا الكتاب للكثير من التجارب ومن أجل ذلك فقط ستطول الحكاية. كان على قبضة فالتر ماتيرن أن تعمل كثيرا في بداية الصداقة لأن الصبية الغلاظ من أبناء الصيادين والفلاحين، لم يريدوا استيعاب الصداقة المنعقدة بينهما وما كادت المدرسة تنتهي حتى سحبوا أمزل المتململ خلف مخزن فلوشرت كما هو معتاد. لأن الفايكسل قد انساب ببطء وتجددت السدود ببطء وتعاقبت الفصول ببطء وتحركت السحب ببطء وببطء جاهدت المعدية، وبالبطء نفسه تحول الناس قاطنو الأرض المستوية من مصباح البترول إلى الضوء الكهربي. لكن الشيء الوحيد الذي تردد الناس في القرى الواقعة يمين ويسار الفايكسل أن يدركوه هو: من يريد شيئا من أمزل الصغير عليه أن يتخابر أولا مع فالتر ماتيرن. وبدأ سر الصداقة ببطء في صنع المعجزات. ظلت مواقف كثيرة ومتنوعة لصداقة ناشئة بالريف بين الشخوص الراسخة في الحياة الريفية - الفلاح والتابع وراعي الكنيسة والمدرس ومأمور البريد والبائع الجوال وصاحب معمل الجبن ومفتش اتحاد العاملين بصناعات الألبان والمتدرب على حراسة الغابة وعبيط القرية - محتفظة بتفردها لسنوات طويلة دون أن تلتقطها آلة تصوير: يعمل أمزل في مكان ما بين الكثبان، موليا ظهره لغابة الشاطئ بطرقها. الأرض مفروشة بقطع ملابس من مختلف الأنواع وهي مرتبة ويمكن رؤيتها بوضوح. ليست هناك موضة غالبة. تمنع أكوام من الرمل والخشب الطافي ملابس الجيش البروسي الغابر وغنيمة الفيضان الأخير اليابسة الجافة الملونة من الطيران: قمصان نوم ومعاطف للخروج وبنطلونات بدون مقعدة وخرق مطبخ وصديريات وملابس خروج عسكرية

متقلصة وستائر بثقوب للنظر من خلالها وفانلات داخلية ومرايل أطفال ومعاطف للحوذية وأربطة بطن ولفافات صدر وسجاجيد معجونة، وأربطة عنق كلفائف الأمعاء وأعلام صغيرة من أعياد الرماة وطاقم من أغطية المائدة، ولكل هذه الأشياء رائحة تجذب الذباب. وتريد الكومة التي تشبه اليرقة ذات الأطراف الأربعة المصنوعة من اللباد والقبعات القطيفة والقلنسوات والخوذات وأغطية الرأس وقلنسوات النوم والطواقي العسكرية والباريهات وقبعات القش، أن تتلوى وتعض ذيلها وتعطي لكل طرف طوله. ترقد موشاة بالذباب منتظرة أن تستخدم. ويمكّن شعاع الشمس كل عيدان الأسوار الخشبية وبقايا السلالم الخشبية وعيدان الفاصوليا والعكاكيز الملساء والمدببة والعصي العادية المغروسة في الرمل، كيفما يطفو بها البحر والنهر، من أن تلقي ظلالا مختلفة الطول تتجول وتزحزح الوقت معها. إضافة إلى ذلك هناك جبل من الخيطان وأسلاك الزهور وحبل شبه متعفن وجلد مهترئ وغطاء مكسي باللباد وتلافيف من الصوف وحزم من القش، في الحالة التي تكون عليها عندما تنزلق من فوق السقوف المنهارة لشونات الحقول. وترقد زجاجات منتفخة البطن ودلاء حلب بلا قعر وقساري تبول وأوعية للحساء بعضها مع بعض في جانب. وبين كل هذه المؤن هناك: إدوارد أمزل ذو النشاط المذهل. يعرق ويخطو حافيا على نبات ذي مئة شوكة لكنه لا يلاحظ شيئا، يئن ويغمغم ويتبسم قليلا ويغرس عودا من عيدان الفاصوليا ويلقي عليها بالعرض أحد ألواح السقف الخشبية، ويلقي بسلك وراءها - إنه لا يربط الألواح بعضها ببعض، لكنه يرمي بالأشياء بعضها فوق بعض وتظل ثابتة بصورة رائعة - ويتيح لستارة ذات لون بني محمر ومشغولة بخيوط فضية أن تتسلق عود الفاصوليا ولوح الخشب ثلاث مرات ونصف، ثم يسمح لحزم القش الملتصقة بعضها ببعض أن تتحول إلى رأس فوق آنية الخردل ويعطي الأولوية لقبعة دائرية ويستبدل قبعة الطلبة بقبعة طائفة الفرندز، يحضر اليرقة المكونة من أغطية الرأس، ويربك في الوقت نفسه ذبابات الشاطئ الملونة ويريد طيلة وقت قصير أن ينصر قلنسوة نوم ويقر أخيرا لسخان القهوة الذي أعطاه الفيضان الأخير شكلا مشدودا، وظيفة فوق قمة الرأس. ثم يدرك في الوقت المناسب أن الأمر ينقصه سترة، ليست أية سترة بل سترة لامعة من الخلف ويختار من بين هلاهيل الثياب وخرقها العفنة ويقذف دون أن يدقق النظر وراءه بسترة إلى المخلوق الواقف تحت سخان القهوة.

ويثبت في اليسار سلما خشبيا صغيرا ومتهالكا ويضع في اليمين عصوين بطول شخص بالغ على شكل صليب ويصنع من لوح سور حديقة بعرض ثلاثة ألواح وضع الآرابيسك المعقود ثم يصوب لبرهة ويرمي ويصيب بأردية عسكرية ويربط بأحزمة لها خشخشة ويعطي لهذه الشخصية، قائدة مجموعته، بمساعدة تلافيف الصوف سلطة الأمر العسكرية. وبعد ذلك مباشرة يصبح أمزل محملا بالأقمشة والجلد، ملفوفا بالحبال وتغطي رأسه سبع قبعات ويحتفي به الذباب، على جانب في الجنوب الشرقي يمين كومته الضائعة التي ستتحول شيئا فشيئا إلى جماعات مفزعة للطيور؛ لأن -من الناحية الأورنثولوجية- هناك طيور عادية ونادرة تخرج من الكثبان ونجيل الشاطئ وأشجار صنوبر غابة الشاطئ-. السبب والنتيجة: تتكور الطيور على شكل سحابة فوق محل عمل إدوارد أمزل. بخط الطير تدون الطيور فزعها بكثافة وحدة وتجعيد. الصوت الأساسي في هذا الخط هو «غاق غاق» ويستدعي هذا الصوت فرع منه وهو صوت الحمامة البرية «غرو غرو» وينتهي عندما ينتهي بـ «بيه»، لكنه يحتوي على الكثير من «الأوبو» «والأووك» و«واك واك» من البط البري الصغير وخوار طائر القوق المشابه لخوار الثور. لا يوجد ذعر مدعوم من منتجات أمزل إلا وله ما يعبر عنه. لكن من ذا الذي يقوم بجولته على رؤوس الكثبان المنسابة ويضمن لعمل صديقه المفزع للطيور السلام المطلوب؟

تلك القبضات تخص فالتر ماتيرن. عمره سبع سنوات، ينظر برمادية على البحر وكأنه ملك له. تنبح الكلبة الصغيرة على أمواج بحر الشرق ذات الأنفاس القصيرة. بركون لم يعد على قيد الحياة. لقد أودى بحياته مرض من أمراض الكلاب الكثيرة. ولد بركون سنتا وسنتا من نسل بركون، ستنجب هاراس وهاراس من نسل بركون سيلد برينتس. وبرينتس، من نسل بركون سنتا هاراس- في البدء نبحت الذئبة الليتوانية- سيصنع تاريخا... لكن سنتا هي التي تنبح الآن على بحر الشرق الخامل. يقف فالتر ماتيرن حافيا في الرمل. بإرادة محضة وذبذبة خفيف من الركبة إلى أخمص القدم يستطيع أن يغوص بقدميه في الكثبان الرملية أكثر وأكثر. وحالا سيصل الرمل إلى بنطلونه المنفوش، المشدود من ماء البحر: حينئذ يقفز فالتر ماتيرن خارجا من الرمل وينثر الرمل في وجه الريح ويبتعد عن الكثيب، وتبتعد سنتا عن الأمواج القصيرة، لقد وجد كلاهما

شيئا رائعا، يلقيان بنفسيهما هو بني وأخضر في صوف وقطن وهي سوداء متمطية فوق الكثيب التالي على نجيل الشاطئ ثم يظهران تدريجيا وراء بعضهما البعض في مكان آخر وقد أصابهما الملل، بعد أن يرتطم البحر المشلول ست مرات مع الشاطئ. لم يكن هناك شيء. كبيبة هواء، مرقة ريح. ولا حتى أرنب واحد.

لكن بأعلى، من ناحية خليج بوتسيج حيث تسبح سحب متساوية في الحجم نسبيا أمام ثوب الغسيل الأزرق باتجاه هاف، تصر الطيور على أن فزاعات أمزل شبه المنتهية هي بالفعل فزاعات كاملة الصنع.

الوردية الصباحية الثالثة عشرة

ساد الهدوء في أراضي المنشأة في نهاية العام وهو أمر يستحق الثناء. لقد أطلق الصبيان المتدربون تحت إشراف فيرنيكه مفتش المنجم، من برج الإنتاج، بعض الصواريخ الجميلة التي شكلت شعار شركتنا، بموتيفة الطائر المعروفة. للأسف كان سقف السحاب خفيضا جدا في الوقت الذي كان لتلك الألعاب السحرية أن تفصح عن نفسها.

صنع التماثيل: أصبح لهذه اللعبة على الكثبان أو على رأس السد أو في داخل بقعة محاطة بأشجار التوت الأزرق على الشاطئ، معنى إضافيا عندما سار المراكبي كريفه في إحدى الليالي - بعد انتهاء عمل المعدية - بعمدة شيفنهورست وابنته ذات الفستان المخطط أحمر في أبيض على حافة الغابة إلى حيث وضع أمزل، المحروس دائما من صديقه فالتر ماتيرن وكلبته سنتا، على المطلع الجارف لكثبان الغابة ستة أو سبعة منتوجات من آخر إنتاجه دون أن يصنفها في ترتيب معين.

سقطت الشمس على شيفنهورست. وألقى الصديقان بظلال طويلة ممدودة. وإن بقي ظل أمزل أكثر امتلاءً، لتتمكن الشمس الغارقة من إثبات مدى سمنة هذا الطفل؛ سيصبح بعد ذلك أسمن وأسمن.

كلاهما لم يتحرك عندما جاء كريفه الجلدي المعوج والفلاح المعاق لاو مع الابنة التي جرها معه مصحوبين بظلالهم. انتظرت سنتا ثم لهثت لبرهة. نظر الاثنان- لقد تدرب كلاهما على ذلك- نظرة خاوية من قمة الكثيب عبر الفزاعات المصفوفة، والمرعى المنحدر الذي تسكنه حيوانات الخلد في اتجاه طاحونة الهواء

الماتيرنية ذات المِنصب. قبعت الطاحونة بصاريها على المنصب ورفعتها تبة مستديرة في وجه الريح، لكنها لم تطر.

لكن من الذي وقف عند التبة وحمل جوالا انثنى على الكتف اليمنى؟ لقد كان ذلك هو الطحان الأبيض ماتيرن الذي وقف تحت الجوال، وحتى هو أيضا كان شاخص البصر مثله مثل مراوح الطاحونة والاثنين على قمة الكثيب وسنتا وإن كانوا قد شخصوا بأبصارهم لأسباب أخرى. فرد كريفه ذراعه اليسرى بإصبعه الناتئة ذات اللون البني بلون الجلد. وحفرت هيدفيغ لاو التي ترتدي ملابس يوم الأحد حتى في الأيام العادية بحذائها ذي الجلد المصقول في الرمل. أشارت إصبع كريفه إلى معرض أمزل: «هذه يا سيدي الحاجات التي قلت لك عنها» وتجول إصبعه بعناية من فزاعة إلى أخرى وتبع رأس المزارع لاو، الذي يشبه ثماني الأضلاع، الأصابعَ الجلدية، مخلفا وراءه فزاعتين، حيث كانت في المجمل سبع فزاعات. وظل الرأس متابعا الإصبع حتى نهاية العرض. «هذا الولد بيعمل يا أخي فزاعات لا تبقي لك ولا طير واحد».

ولأن الحذاء المصقول كان يحفر في الرمل امتدت الحركة لتصل إلى طرف الفستان وإلى أشرطة الضفائر المصنوعة من القماش نفسه. حك المزارع لاو طاقيته ثم تحسس بنظره الفزاعات - الآن طبعا ببطء - بترتيبها المعكوس. جلس أمزل وفالتر ماتيرن على قمة الكثيب وتركا سيقانهما تتأرجح بغير انتظام وعلقا أبصارهما بالمراوح الشاخصة للطاحونة ذات المِنصب. وضغط جوربا أمزل الطويلان المربوطان بالمطاط على سمانتي أمزل السمينتين: نتوء يشبه الدمى من لحم وردي. بقي الطحان الأبيض شاخصا أسفل التبة. وترك الجوال القنطار ينثني على كتفه. كان من الممكن رؤية الطحان؛ لكنه كان في دنيا أخرى. «أنا ممكن أسأل لك الولد عن ثمن الفزاعة الواحدة من هذه الفزاعات، لو كان لها ثمن». ليس هناك من باستطاعته أن يومئ أبطأ من المزارع والعمدة اريش لاو. ترتدي ابنته دائما ملابس يوم الأحد. تبعت سنتا برأسها المعوج كل الحركات وغالبا ما سبقتها؛ لأن الكلبة كانت من الصغر بحيث لا يمكن لها ألا تسبق الإشارات البطيئة. عندما تم تعميد أمزل وأعطت الطيور إشارتها الأولى، كانت هيدفيغ لاو ما تزال تسبح في ماء المشيمة. رمل البحر ضار للأحذية المصقولة. يدور كريفه نصف دورة على قبقابه الخشبي باتجاه قمة الكثيب ويبصق على الجانب سائلا بنيا، يتحول

في الرمل إلى كرة صغيرة: «اسمع يا بني، إنه يريد أن يعرف كم ثمن الفزاعة الواحدة، لو كان لها ثمن.»

لم يترك الطحان الأبيض البعيد الجوال المنثني يسقط، لم تسحب هيدفيغ لاو حذاءها المصقول من الرمل، لكن سنتا قفزت قليلا وأثارت غبارا عندما أسقط أمزل نفسه من فوق قمة الكثيب. وتدحرج على الأرض مرتين. ثم بدفع الدورتين اللتين دارهما على الأرض وقف بعد ذلك مباشرة بين الرجلين مرتديا جاكتا من الصوف وقريب جدا من حذاء هيدفيغ لاو المصقول الحافر في الرمل.

ثم بدأ الطحان الأبيض البعيد يتسلق تبة الطاحونة خطوة بخطوة. لم يعد الحذاء المصقول يحفر في الرمل وبدأت ضحكة لها جفاف فتات الخبز الجاف تحرك الفستان الكاروه الأحمر في أبيض والشرائط الكاروه الحمراء في أبيض. ستتم عملية شراء. أشار أمزل بإبهامه على الحذاء المصقول. هز المزارع لاو رأسه الطري معلنا أن الحذاء ليس للبيع وأخرجه مؤقتا من الصفقة. وتم إحلال البيع بالعملات محل المقايضة. وبينما كان أمزل وكريفه يحسبان على أصابعهما ويخفيان منها البعض ويظهران البعض الآخر- قليلا ما فعل العمدة لاو ذلك- ظل فالتر ماتيرن جالسا على قمة الكثيب، وأبدى اعتراضاته على الصفقة مصدرا هذه الأصوات التي يصنعها بأسنانه واصفا الصفقة بأنها «مماطلة».

توصل كريفه وأمزل إلى سعر قبل أن يتمكن المزارع لاو أن يومئ برأسه موافقا. عاودت الابنة الحفر في الرمل. ثمن الفزاعة الواحدة ٥٠ بفنيغا. اختفى الطحان. طحنت الطاحونة. سنتا عند قدم أمزل. طلب أمزل غولدنا واحدا لثلاث فزاعات. إضافة إلى ذلك طلب، وليس دون سبب، نظرا لأن الصفقة ستستكمل، مقابل كل فزاعة ثلاث قطع من الخرق وفوق ذلك حذاء هيدفيغ لاو المصقول بمجرد استغنائها عنه.

يا له من يوم صاف مفرح، يتم فيه عمل أول صفقة! وفي الصباح التالي نقل العمدة الفزاعات الثلاث عبر النهر إلى شيفنهورست وغرسها في حقول قمحه خلف خط السكة الحديد. ولأن لاو مثله مثل فلاحين كثيرين بالجزيرة يزرعون قمحا من النوع الأيبي أو الكويافي، أي نوعين لا يحيط بهما الزغب وهما بذلك فريسة للطيور، كانت للفزاعات فرصتها أن تثبت فعاليتها. لقد بدت من خلال سخانات القهوة والخوذات من حزم القش والأحزمة المتعارضة وكأنها جنود مشاة

قتلة من حرس الفرقة الأول في معركة تورغاو كما يقول شليفن. منذ ذاك الوقت المبكر بدأ شغفه بالتماثيل البروسية الدقيقة الصنع في الازدياد، وعلى كل حال تمكن الجنود الثلاثة من إثبات فعاليتهم: ساد الصمت القاتل بين نباتات القمح الصيفي الآخذة في النضج، والتي كانت من قبل حقولا صاخبة يسهل نهبها من قبل الطير.

وعرف الجميع بأمر الفزاعات. وبسرعة جاء مزارعون من كلتا الضفتين، من يونكراكر وبازهفارك، من أينلاجه وشناكنبورغ، بعيدا من داخل الجزيرة: من يونغفر وشارباو ولادهكوب. كان كريفه هو الوسيط؛ لكن أمزل لم يرفع الأسعار في البداية وأخذ، بعد اعتراضات فالتر ماتيرن، كل ثاني طلبية ثم بعد ذلك كل ثالث طلبية. وقال لنفسه ولكل الزبائن إنه لا يريد أن يصنع أي هراء، وإنه يريد أن يصنع فزاعة واحدة أو اثنتين على الأكثر كل يوم. لقد رفض المساعدة. فالتر ماتيرن هو الوحيد المسموح له بالمساعدة وذلك بأن يجمع له المواد الخام من ضفتي النهر وأن يستمر في حماية أعمال الفنان بقبضته وبمعاونة الكلبة السوداء.

بإمكان براوكسل أن يروي أيضا أنه قد أصبح في حوزة أمزل المال اللازم لاستئجار مخزن فولشرت الذي كان مهدما ورغم ذلك يمكن إغلاقه مقابل فائدة محدودة. في هذا المخزن الخشبي الذي كان يعد مكانا سيئ السمعة، لأنه في وقت من الأوقات قام أحد الأشخاص بشنق شخص أخر لسبب من الأسباب على إحدى دعاماته الخشبية، أي تحت سقف المخزن وهذا شيء موح لأي فنان، قام أمزل بتخزين كل شيء يفترض أنه سيصبح فزاعة حية على يده. في الجو الممطر أصبح المخزن ورشة لأمزل. وأصبحت تلك مهنته، لأن أمزل عمل برأسماله واشترى من محل أمه، بسعر التكلفة، مطارق ومنشارين ومثاقيب وكماشات وأجنات ومطواة الجيب تلك التي تحتوي على ثلاث شفرات وشوكة ومبرام ومنشار. لقد أهداها لفالتر ماتيرن. وبعد عامين ألقاها فالتر ماتيرن، عندما لم يجد حجرا على قمة سد نيكلسفالده، بدلا من الحجر في نهر الفايكسل ذي المنسوب الآخذ في الارتفاع. لقد عرفنا بذلك.

الوردية الصباحية الرابعة عشرة

على السيدين أن يتخذا من يوميات أمزل نموذجا لهما ويسجلا كتابتهما

بشكل منظم. كم من مرة شرح براوكسل فيها للكاتبين الزميلين طريقة العمل؟ جمعتنا رحلتان على نفقة الشركة وسنحت الرحلتان للسيدين، حيث لا يعوزهما شيء، بأن يدونا الملاحظات وأن يضعا خطة للعمل وكذلك لكي يجربا عدة نماذج للعمل. ورغم ذلك تنهال على براوكسل استفسارات كثيرة: «متى يجب تسليم المخطوط؟ هل يجب أن تتكون صفحة المخطوط من ٣٠ أم ٣٤ سطرا؟ هل أنتم راضون بالفعل عن شكل الخطابات أم هل علي أن أعطي الأفضلية لشكل حديث، كالمدرسة الفرنسية الجديدة مثلا؟ هل يكفي أن أصف قناة الشتريس بأنها مجرى مائي ما بين هوخشتريس وليبغشتريس؟ أم يجب أن أذكر الروابط التاريخية، كالنزاع على الحدود بين مدينة دانتسيغ ودير جماعة القسترقيين بأوليفا؟ أو خطاب إقرار الأمير سفانتبولك، حفيد سوبيسلاف الأول، الذي أسس الدير، والذي يرجع إلى عام الف ومائتين وخمس وثلاثين؟ هناك تذكر الشتريسباخ دائما مقرونة ببحيرة زازبه Lacum Saspi usque in rivulum Strieza <...> أو شهادة إقرار ميستفين الثاني التي ترجع إلى عام ألف ومائتين وواحد وثمانين، وفيه تذكر القناة الحدودية شتريسباخ كالتالي Praefatum rivulum Striesz usque in < Vislam > ؟ أم خطاب إقرار كل ملكية دير أوليفا وسارنوفيتس الذي يرجع إلى عام ألف ومائتين وواحد وتسعين؟ وفيه تكتب الشتريسباخ هكذا < Stricze > وفي موضع أخر وردت ... perfatum fluuium Strycze cum utroque < littore a lacu Colpin unde scaturit descendendo in Wislam.. > ولا يكف الكاتب الزميل الآخر عن طرح الاستفسارات وينفث في كل الخطابات رغبته في الحصول على دفعة مقدمة: «. . . أريد أن أشير إلى أنه قد تم الاتفاق شفهيا على أن: كل كاتب مشارك سيحصل عند بداية العمل في المخطوط على دفعة مقدمة. . .» سيحصل السيد الممثل على دفعته المقدمة. لكن ينبغي على السيدين أيضا اعتبار يوميات أمزل مقدسة، حتى وإن لم يكن لديهما الأصل، أن يعتبروا النسخة شيئا مقدسا أيضا.

لا بد أن سجل الرحلات البحرية قد أثر فيه. على متن كل السفن، وبل وحتى على متن معدية يجب تدوين هذا السجل. كريفه: قطعة جلد مهترئة بعينين رماديتين كطقس مارس، بلا رموش وبها حوَل خفيف، تسمح له مع ذلك أن يقود المعدية بميل ضد التيار، أي بحوَل أيضا من مرسى إلى أخر. كان المراكبي

كريفه يعبر النهر محمَّلا بعربات وبائعات سمك بسلال سمك موسى، وبراعي الكنيسة، وتلاميذ المدارس ومسافرين عابرين وبائعين متجولين بحقائب العينات، وعربات قطار الأشخاص والبضائع لخط سكك حديد الجزيرة الإقليمي، وماشية للذبح وماشية للتربية، وأصحاب الأفراح وأصحاب المآتم بالنعوش والأكاليل، ويسجل كل هذه الأحداث في سجل الرحلات البحرية. ما بين المرسى والمقدمة الصاجية للمعدية لا يمكنك أن تزج بفنيغا واحدا. لقد كان باستطاعة كريفه أن يرسي ملتصقا بالمرسى دون ضجة. كما أنه كان بالنسبة لأمزل وفالتر ماتيرن ولوقت طويل مندوبا تجاريا يُعتمد عليه، ولم يطلب لعملياته التي نفذها أية نسبة ونادرا ما كان يأخذ مقابل ذلك تبغا. عند انتهاء عمل المعدية كان كريفه يقود الاثنين إلى أماكن لا يعرفها سوى كريفه. وكانت الصفصافة المرعبة مهمة جدا لأمزل؛ بل توصلت النظريات الفنية لكريفه وأمزل والتي تواجدت بعد ذلك في اليوميات إلى أنه: «يجب أن تكون الأفضلية لنماذج من الطبيعة.»

تحت اسم هازيلوف أكمل أمزل بعد سنوات جملة قصيرة في اليوميات نفسها: «كل ما يمكن حشوه، ينتمي للطبيعة؛ الدمية مثلا.»

لكن الصفصافة المجوفة التي قاد كريفه الصديقين إليها كانت تهتز ولم تكن محشوة بعد. طحنت الطاحونة مسطحة في الخلفية. ومر آخر قطار ببطء على المنحنى وأصدر صفيره بسرعة تزيد عاى سرعة سيره. ساح الزبد هناك وصار الحليب حامضا. أربع أقدام حافية وبوطان مزيتان. أولا عشيبة ثم نبات بنات النار ثم البرسيم. عبروا فوق سورين ومروا بثلاثة أسوار ثم تسلقوا سورا آخر. على جانبي القناة تقدمت أشجار الصفصاف بخطوة للأمام ورجعت خطوة للخلف واستدارت وكان لها خصر وسرة؛ ومن بين الصفصافات، كانت هناك صفصافة جوفاء جوفاء جوفاء، حتى حشاها أمزل بعد ذلك بثلاثة أيام: جلس سمينا ودودا على كعبيه، وتفحص داخل الصفصافة وتأمل الصفصافات يسار ويمين القناة بعناية؛ وخاصة تلك ذات الرؤوس الثلاثة التي تضع إحدى قدميها على الشاطئ وتبرد الأخرى في ماء القناة لأن العملاق ميليغيدو بهرواته الرصاصية قد داس على قدمها منذ أزمنة بعيدة، فقد رأى فيها أمزل موديلا لعمله. وظلت هي صامتة بالرغم أنها بدت وكأنها تريد الفرار منه، ولا سيما أن ذاك الضباب الأرضي يزحف من النهر عبر المراعي ويفترس جذوع الصفصافات: وقريبا

ستسبح الصفصافة الموديل ذات الرؤوس الثلاث فوق الضباب وتناجي بعضها بعضا.

ويغادر أمزل مخبأه، لكنه لا يريد أن يعود إلى أمه التي تقلّب في دفاتر أشغالها وهي راقدة في السرير وتحسب كل شيء من جديد، يريد أمزل الآن أن يكون شاهدا على ساعة شرب الحليب التي تحدث عنها كريفه. ويريد فالتر ماتيرن ذلك أيضا. سنتا لن تكون معهم لأن كريفه قال «لكن يا إخوان، لا تأخذوا الكلبة معكم، لأنها ستنبح وستفزع عندما تبدأ الحكاية.»

إذن بدون الكلبة. هي فجوة بين الاثنين ولها أربعة سيقان وذيل. يتسحبان حافيين على المراعي الرمادية، ينظران إلى الخلف في البخار العالق ويريدان التصفيق: تعالي! تعالي ورانا! تعالي ورانا! لكنهما بقيا صامتين لأن كريفه قال... مشهد أثري: أبقار في حساء رجراج. بالقرب من البقر، بالضبط بين كتان بايستر والصفصافات على ضفتي القناة، كانت الأبقار راقدة تنتظر. اللون الرمادي المنبعث من السدود ومن شاطئ الغابة يتدرج. تتقاطع مراوح طاحونة الهواء الماتيرنية ذات المِنصب عبر الضباب مع الطريق العمومي إلى بازهفارك وشتيغن وشتوتهوف. لوحة مسطحة محفورة بمنشار أركت. في هذا الوقت المبكر جدا لا يطحن طحان القمح دقيقا. ولم يصح ديك بعد، لكنه سيفعل ذلك قريبا. على الكثيب الكبير تلقي أشجار صنوبر الشاطئ التسع المتماثلات الملتصقات ببعضهن والمائلات باتجاه الريح من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بظلالها. أتلك سلاحف- أم ثيران؟ تزأر السلاحف أو الثيران. تصلي الضفادع الأكثر رشاقة. بعوض يزوم في طبقة صوتية واحدة. يعلن شيء ما عن نفسه أو يثير الانتباه إليها، علي أية حال ليس أبو زقزاق. وما زلنا بلا ديك. تتنفس الأبقار مثل جُزر في البخار. يجري قلب أمزل فوق سطح من الصفيح. ويركل قلب فالتر ماتيرن أحد الأبواب. جأرت بقرة بصوت دافئ. وجأرت الأبقار الأخرى من بطونها بدفء أكبر. يا له من ضجيج في الضباب: قلوب على صفيح ضد الأبواب، من يثير انتباه من، تسع بقرات، سلاحف ثيران بعوض... وفجأة - لأنه لم توجد أية إشارة - صمت. اختفت الضفادع والسلاحف والثيران واختفى البعوض. لا شيء يثير انتباه أو يسمع أو يجيب أي شيء. ويضغط أمزل وصديقه، تقريبا بدون أي نبض، آذانهما في الندى، في البرسيم: إنها قادمة! تتسحب من

الجدول. خرق تنظيف تنوح ولكن في صوت منتظم ودون أن يأخذ صوتها في العلو: بلوف بشيش-بلوف بلوف بشيش. هل هم مثلا رجال مذعورون؟ راهبات بلا رأس؟ غاكوس شراته بارشتوكن؟ من هناك؟ بالديرلاه عشماتاي بنج؟ الفارس بيج بيغوود؟ مشعل الحرائق بوبروفسكي وصاحبه ماتيرنا، الذي يعود إليه أصل الحكاية؟ ابنة كينستوتيس التي تدعى تولا؟- ها هي تلمع: مغطاة بالتربة مترعة بالطين، أحد عشر خمسة عشر سبعة عشر من ثعابين الماء النهرية بلون بني تريد السباحة في الندى. إنها ساعتها الآن. تسحب الثعابين المائية نفسها فوق البرسيم مهرولة وتنساب في الاتجاه. يبقى البرسيم مطويا تحت الأثر اللزج. ما تزال حناجر السلاحف والثيران والبعوض ساكنة. ولزمت الضفادع الرشيقة الصمت، ولأنه ليس هناك ما يثير، فليست هناك أية توابع أيضا. ترقد الأبقار دافئة على جانبها الأبيض في أسود. تمجد الضروع نفسها: باهتة مصفرة صابحة ممتلئة: تسع بقرات، ست وثلاثون حلمة وثمانية عشر ثعبانا مائيا. تقبع هناك وترضع بثبات وتصنع للحلمات ذات البقع الوردية امتدادا بنيا مائلا للسواد: تمتص، تلعق، تعضعض، عطش. في البدء ترتعش الثعابين. من يرغب في من؟ ثم تترك الأبقار رؤوسها الثقيلة تسقط في البرسيم واحدة تلو الأخرى. ينساب الحليب. تنتفخ ثعابين الماء. تخور السلاحف مرة أخرى. ويرفع البعوض صوته. الضفادع الخفيفة. ورغم أن الديك لم يصح بعد، لكن فالتر ماتيرن لديه صوت رخيم. يريد أن يذهب ويصطاد. أمر هين، هين جدا. لكن أمزل لا يريد ذلك، إنه ينوي شيئا آخر وقد بدأ في تصميمه بالفعل. الآن تعود ثعابين الماء ثانية إلى القناة. تتنهد الأبقار. أول ديك. تبدأ الطاحونة في العمل ببطء. يصدر القطار الإقليمي صفيره عند المنحنى. يقرر أمزل بناء فزاعة جديدة.

وصارت واضحة للعيان: لقد حصل على مثانة خنزير بدون مقابل لأن آل ليكفيت قد ذبحوا. وقد كانت المثانة بمثابة الضرع المنتفخ. وتم حشو جلد ثعابين الماء الحقيقية المدخنة بالقش والسلك الملفوف ثم خيطت ولصقت بها مثانة الخنزير: ووضعت مقلوبة بحيث إن ثعابين الماء تلوت في الهواء وكأنها خصلات شعر سميكة، تقف على رأسها فوق الضرع وهكذا ارتفع رأس الميدوسا فوق حقل كارفايزه بمعونة عودين متفرعين.

وقد رسم أمزل في يومياته تصميم الفزاعة الجديدة كما اشتراها كارفايزه-

بعد ذلك حصلت الفزاعة على شيء يشبه المعطف من جلد بقري مليء بالثقوب وضع فوق العودين المتفرعين- رسمها أولا بدون معطف بشكل مؤثر، ثم رسمها بالجلد المهترىء كمنتج تام الصنع.

الوردية الصباحية الخامسة عشرة

السيد الممثل يثير مشكلات! فبينما يكتب براوكسل والشاب الآخر يوميا- الأول عن يوميات أمزل والثاني عن وإلى ابنة خاله-، أصيب ذاك الثالث ببرد خفيف مع بداية العام. يجب أن يتوقف، ليست لديه الرعاية الجيدة، دائما ما يكون عرضة للمرض في هذا الوقت من العام، ويرجو مرة أخرى أن نتذكر الدفعة المقدمة الموعودة. أرسلناها يا سيدي الممثل! ضع نفسك في الحجر الصحي، سيعود ذلك بالنفع على مخطوطك يا عزيزي الممثل. آه، يا أيتها الرغبة الصحوة في الاجتهاد: كانت هناك يوميات، كتب فيها أمزل بخط زوترلين الجميل، الذي تعلمه حديثا، حساباته ونفقاته في أغراض صنع فزاعات الطيور للحدائق والحقول. لم تكلف مثانة الخنزير شيئا. وجلد البقرة عديم النفع جلبه له كريفه مقابل قاروصة من تبغ المضغ.

أيتها الفلوس، يا لك من كلمة مدورة جميلة: كانت هناك يوميات، حسب فيها أمزل بأرقام مستديرة أو حادة، ما أخذه لقاء بيع مختلف أنواع فزاعات الطيور للحدائق والحقول - لقد جلبت ثعابين الماء على الضرع غولدن كاملا.

حرر أمزل هذه اليوميات لمدة عامين تقريبا، وجر خطوطا رأسية وأفقية ورسم خط زوترلين الحاد وزوترلين كثير العقد، ودوّن كثيرا من الدراسات اللونية والتصميمات الكروكية لعدة فزاعات وخلد تقريبا كل الفزاعات التي باعها، لاحقا وأعطى نفسه ومنتجاته علامات حظر بحبر أحمر. بعد ذلك، حينما كان بالتعليم الثانوي وضع كراسة اليوميات المطوية عدة مرات في مفرش مشمع مهترئ ووجدها بعد سنوات في صندوق ببيت العائلة كان مستخدما كدكة للجلوس، حينما توجب عليه أن يسارع بالعودة من المدينة إلى ضفاف الفايكسل لدفن أمه، . كانت الكراسة موجودة بين الأشياء التي خلفها أبوه، بين الكتب عن معارك وأبطال بروسيا، تحت كتاب أوتو فايننغر الضخم وكان ما يزال بها حوالي دستة كاملة من الصفحات الخالية، ملأها أمزل تحت اسم هازيلوف والفم

الذهبي، بغير انتظام وبعد سنوات من الصمت، بكثير من الجمل.

اليوم يمتلك براوكسل، الذي يحرر له وكيله وسبعة موظفين الحسابات، تلك الكراسة العزيزة المحفوظة في بقايا المشمع. ولا يعني ذلك أنه يستخدم ذاك الأصل الحساس كدعامة لذاكرته! ترقد الكراسة مع العقود والسندات والتراخيص وأسرار المنشأة في الخزنة، بينما يستخدم براوكسل نسخة من اليوميات موضوعة على مكتبه بين مطفأة السجائر المترعة وفنجان قهوة الصباح الفاترة كمادة لعمله.

تشغل الصفحة الأولى لليوميات جملة مرسومة أكثر منها مكتوبة ونصها كالتالي: «فزاعات صُنعت وبيعت بمعرفة إدوارد هاينريش أمزل»

وتحتها تقريبا كشعار، مرسوم بخط صغير وبدون تاريخ: «بدأ تحريرها في عيد الفصح لأنه يجب على المرء ألا ينسى أي شيء كما قال كريفه مؤخرا». والآن يعتقد براوكسل أن استخدام طريقة كتابة التلميذ إدوارد أمزل ذي الثماني سنوات بلهجة أهل الجزيرة لن يفيد كثيرا؛ مع ذلك سيظل هناك حافز أثناء تدوين هذا المخطوط لاستخدام هذه اللغة، التي قاربت على الانقراض مع اتحادات اللاجئين[٥]، أي التي ستصبح مثل اللاتينية لغة ميتة نافعة للعلم، في الكلام المباشر. فقط حينما يتفوه أمزل أو صديقه فالتر أو كريفه أو تتفوه الجدة ماتيرن بلهجة أهل الجزيرة، ينبغي على براوكسل أن يكتب معهم بهذه اللغة. عند الاقتباس من اليوميات يرى براوكسل أن قيمة هذه الكراسة ليست في طريقة الكتابة الجريئة للتلميذ بل بالأحرى في اجتهاداته الطموحة المبكرة للبحث عن تطور للفزاعة مما جعل أسلوب التلميذ القروي أمزل أسلوبا بليغا، لذا يجوز أن تكون الاقتباسات مزيجا من لهجة أهل الجزيرة والأسلوب الأدبي، مثلا: «النهارده غولدن واحد زيادة بعد الحلب ثمن فزاعة واقفة على رجل واحدة ومالت على الناحية الثانية أخذها ليدفورمر. وبعد ذلك أُضيفت لها خوذة من خوذات سلاح الفرسان البولندي مبطنة بشيء ما كان في يوم من الأيام عنزة.»

يحاول براوكسل بمزيد من الإخلاص أن يشرح التصميم الكروكي لهذه الفزاعة: رُسمت هذه الفزاعة لاحقا بعد بنائها وليس كدراسة تمهيدية لبنائها،

(٥) يقصد اللاجئين من منطقة بومرن ودانتسيغ بعد الحرب العالمية الثانية، حيث توجهوا إلى غرب ألمانيا وكانت لهم اتحادات وكان لهم حزب ممثل لهم. (مترجم)

بأقلام ملونة عديدة، البني والأحمر البرتقالي المائل للبنفسج واللون الأخضر الزرعي والأزرق البروسي، والتي لا تظهر قوتها اللونية من خط واحد بالفرشاة، بل بطبقات لونية لتؤكد تقادم الملابس المستعملة «. . . واقفة على رجل واحدة ومالت ع الناحية التانية. . .». المفاجئ فعلا، إلى جانب الرسوم بالأقلام الملونة، هو ذاك التصميم الكروكي الأساسي المرسوم بغير عناية بالقلم الأسود والذي يبدو ليومنا هذا حديثا: وضع «. . . واقفة على رجل واحدة. . .» يُلمح إليه من خلال السلم الخشبي الممدود قليلا إلى الأمام والذي فقد درجتين من درجاته؛ والوضع «. . .مالت ع الناحية التانية. . .» يمكن فقط التعبير عنه من خلال هذه العصا التي تحاول أن تأخذ وضع اتيتيود في الباليه (الوقوف على ساق واحدة) بزاوية مقدارها ٤٧ درجة، وذلك من خلال امتدادها من منتصف السلم ناحية اليسار، بينما يميل السلم قليلا ناحية اليسار. ويصور هذا التصميم الكروكي وكذلك الرسم الملون لراقص، ارتدى زيا ترى فيه انعكاسا متأخرا للباس فرسان فرقة مشاة أمير أنهالت-ديساو أثناء معركة ليغنتس. وفي المجمل: تكتظ يوميات أمزل بفزاعات ترتدي الأزياء العسكرية: فيهجم جندي من كتيبة الحرس الثالثة على مقابر لويتينر؛ يقف الرجل المسكين من توغنبورغ في فرقة مشاة الإيتسنبليز؛ يستسلم فارس من فرقة الهوصار عند ماكسن؛ يتبارز فرسان ناتسمار في الزي الأزرق في أبيض مع فرسان دراكون شورلم؛ ويحيي الحشو الأزرق في أحمر أحد رماة فرقة مشاة البارون دى لا موتته فوكيه؛ باختصار قامت أصابع أمزل بإحياء كل ما حدث طوال سبع سنوات بين بوهيميا وسكسونيا وشلزين وبومرن وبل وقبل ذلك، من نجى عند مولفيتس، من فقد كيس تبغه عند قرية هنرسدورف الكاثوليكية، من تعاهد على التحالف مع الفريتس عند بيرنا، ومن هرب إلى الأعداء بكولين ومن حصل على الشهرة السريعة في روسباخ، لكن وظيفة هؤلاء ليست صنع جيش امبراطوري متنوع، بل طرد الطيور من منطقة دلتا الفايكسل. وبينما كان على زايدليتس مطاردة هيلدنبورغ – "voilà au moins mon martyre est fini..." – عبر فايمار وايرفورت وزالفيلد وحتى نهر الماين، كان المزارعون ليكفيت وومزن وبايستر وفولشرت وكارفايزه راضين تماما، عندما قامت فزاعات أمزل المثبتة في يومياته بإبعاد طيور دلتا الفايكسل من حقول القمح الإيبي غير المزغب إلى أشجار الكستناء والصفصاف والحور الرومي والحور.

يعرب عن شكره. يتصل تليفونيا، طبعا مكالمة يدفع المخابَر ثمنها، سبع دقائق كاملة: لقد حصل على المال، حالته الصحية تتحسن، تخطت الأنفلونزا ذروتها، يتماثل حاليا للشفاء، غدا أو بالكثير بعد غد سيجلس ثانية على الآلة الكاتبة. كما قال، للأسف سيضطر إلى الكتابة مباشرة على الآلة الكاتبة لأنه يرى أن ليس باستطاعته قراءة خطه؛ لكن خطرت بباله أفكار ممتازة أثناء مرضه بالأنفلونزا. . . وكأن الأفكار التي تختمر بفعل الحمى يمكن أن تعتبر أفكارا يعتد بها في الحرارة الطبيعية. لا يقيم السيد الممثل وزنا للتدوين المزدوج لكتاباته، رغم أن براوكسل قد أعانه بمال محرج بعد حساب سنين من الميزانيات المحرجة.

من المحتمل أن إدوارد أمزل لم يتعلم ممارسة كتابة اليوميات من سجل كريفه البحري فقط بل تعلم ذلك أيضا بموهبة من أمه التي اعتادت أن تتنهد وهي جالسة في ساعات المساء على دفاتر حساباتها: على الأغلب أنه قد ساعدها في ترتيبها وحفظها في الملفات وفي مراجعة الحسابات.

استطاعت لوتشن أمزل واسم ميلادها تيده، رغم الصعوبات الاقتصادية بعد سنوات الحرب أن تحافظ على استمرار شركة أ. أمزل، بل وفعلت ما لم يجرؤ المرحوم أمزل على فعله وهو تغيير نشاط المنشأة وتوسيعه. بدأت في التجارة في مراكب الصيد الجديدة من ترسانة صنع المراكب في كلافيتر وكذلك في المراكب القديمة التي جلبتها من شترودايش وفي محركات المراكب الخارجية. لقد باعت مراكب الصيد أو أجرتها لشباب الصيادين الذين تزوجوا لتوهم وكان ذلك أربح.

إن كان إدوارد أمزل بارا بأمه لدرجة أنه لم يصورها في هيئة فزاعة ولم يلمح حتى في تصويره إليها، فقد بدأ من سن الثامنة تقريبا دون أي خجل في تصوير ممارستها للعمل: فحين كانت تعير مركبا للصيد، كان يصمم فزاعات طيور متينة مخصصة للإعارة. تثبت العديد من صفحات اليوميات، كم من مرة ولمن أُعيرت الفزاعات. في أحد الأعمدة يحسب براوكسل ما الذي جلبته الفزاعات المعارة لأمزل من خلال هشها للطيور: مبلغ محترم. في هذا الموضع يمكن الحديث عن فزاعة واحدة فقط من الفزاعات المعارة، صحيح أنها لم تجلب عائدا كبيرا، لكنها ستؤثر على أحداث حكايتنا وبالتالي على تطور الفزاعات بشكل كبير.

بعد الدراسة المذكورة لأشجار الصفصاف على القناة وبعد أن بنى أمزل فزاعة

باستخدام موتيف «ثعابين الماء الشاربة للحليب» وباعها، ظهر موديل مستوحى من ناحية من شجرة الصفصاف ذات الرؤوس الثلاثة ومن ناحية أخرى من مثال الجدة ماتيرن التي تلوح بالمغرفة وتصر بأسنانها، وكان تصميمه موجودا أيضا في يوميات أمزل؛ لكن بجانب التصميم الكروكي كانت هناك جملة تفرق بين هذا المنتج وغيره من المنتجات: «لازم تتكسر النهارده لأن كريفه قال إنها تجلب المشاكل.»

اكترى ماكس فولشرت، الذي لم يكن محبوبا لدى آل ماتيرن، من أمزل الفزاعة المكونة من نصف صفصافة ونصف جدة ووضعها على سور حديقته الواقعة على الطريق العام المؤدي إلى شتوتهوف وفي مقابل حديقة خضروات آل ماتيرن. وتبين أن هذه الفزاعة المكتراة لا تفزع الطيور فقط؛ لقد أفزعت الخيل وجعلتها تمر بسرعة خاطفة. وفزعت الأبقار العائدة إلى الإسطبل، بمجرد أن ألقت الصفصافة الملوحة بالمغرفة ظلها وانضمت لورشن المسكينة ذات الشعر الملفلف والتي كانت تعاني يوميا من الجدة الحقيقية الملوحة بالمغرفة إلى قطيع الماشية المرتبك. الآن أصبح الفزع يأتيها من جدة أخرى مزينة بثلاثة رؤوس وتشبه الصفصاف وكان رعبها كبيرا لدرجة أنها خرجت مسرعة بشعرها المحلول تائهة وسط الحقول وغابة الشاطئ وعلى الكثبان والسدود وفي البيت والحديقة وكادت تصطدم بمراوح الطاحونة الماتيرنية الدائرة لو لم يتمكن أخوها الطحان ماتيرن من الإمساك بمريلتها. بناء على نصيحة كريفه وضد رغبة فولشرت العجوز الذي طلب في الحال أن يعاد إليه جزء من الأجرة، كان على فالتر ماتيرن وإدوارد أمزل أن يحطما الفزاعة أثناء الليل. كان على فنان إذن أن يدرك للمرة الأولى أن أعماله، حينما تكون مكثفة ومأخوذة عن الطبيعة لا يكون لها سلطة على الطيور تحت السماء فقط، بل أيضا على الخيل والأبقار وكذلك لها قدرة على عرقلة السير الريفي الهادئ للورشن المسكينة، أي لها أثرها على الإنسان. لأجل هذه المعلومة ضحى أمزل بأنجح فزاعاته، ولم يعد يأخذ بعد ذلك أية صفصافات كموديل، حتى لو جلس أحيانا أثناء وجود الضباب الأرضي في إحدى الصفصافات المجوفة، أو قال عن ثعابين الماء العطشى المتجهة من القناة إلى الأبقار الراقدة أنها جديرة بالملاحظة. بحذر تجنب المزاوجة بين الإنسان والشجرة ورأى برقابة ذاتية تطوعية أن موديلات فلاحي الجزيرة الأجلاف المسالمين كافية تماما لأن تكون

فزاعات طيور مؤثرة. لقد صنع منهم جنودا ورماة وجاويشية وحاملي ألوية وضباطا تابعين لملك بروسيا وجعلها تهيم بين حدائق الخضراوات وحقول القمح والحنطة السوداء. ثم استكمل نظام الإعارة الخاص به بهدوء من خلال رشوة لم تكن لها عاقبة، حيث أغرق أحد محصلي قطار الجزيرة بهدايا مغلفة تغليفا جيدا، في مقابل أن نُقلت فزاعات أمزل المكرية- أو تاريخ بروسيا القابل للاستخدام- في عربات بضاعة القطار الإقليمي بلا مقابل.

الوردية الصباحية السابعة عشرة

يحتج الممثل. لم تمنعه الأنفلونزا التي شفي منها من أن يتفحص بدقة خطط عمل براوكسل، التي أرسل بها لكلا الكاتبين المشاركين. لا يناسبه أن يحصل الطحان ماتيرن في هذه الوردية الصباحية على تمثال يخلده. ويرى أن له الحق في أن يقوم هو بعمل ذلك. يتنازل براوكسل الذي يحرص على تماسك مجموعة كتابه، عن هذه الصورة الاستعراضية للطحان، لكنه يصر على أن يعكس هذا الجزء الخاص بالطحان والذي كان له أثره الملموس على يوميات أمزل.

فحتى عندما كان الطفل ذي الثماني سنوات يبحث عن أزياء لا صاحب لها جاعلا الأولوية لمعارك بروسيا، كان هناك موديل قام بتصويره مباشرة دون أية مكونات بروسية، ذاك هو الطحان المذكور.

لقد نتج عن ذلك فزاعة معوجة لأن الطحان كان رجلا شديد الاعوجاج. فلأنه يحمل أجولة القمح والدقيق على كتفه اليمنى، كانت هذه الكتف أعرض بمقدار كف، بحيث إن أي شخص يرى الطحان من الأمام كان عليه أن يغالب الرغبة العارمة في أن يمسك رأس الطحان بكلتا يديه وأن يعيد الرأس إلى وضعه الصحيح. ولأنه لم يفصل مريلة عمله أو ملابس يوم الأحد حسب مقاساته، بدا كل ما يرتديه سواء كان جاكتة أو مريلة أو معطفا معوجا وله ثنيات عند الرقبة والكم الأيمن قصير جدا ولديه به خيوط متهتكة دائما. كان دائما يزر بعينه اليمنى. على الناحية نفسها من الوجه امتدت زاوية فمه إلى أعلى، حتى في الأوقات التي لم ينثن فيها الجوال القنطار على كتفه. وتبعت الأنف الحركات نفسها. إضافة إلى ذلك التصقت أذنه اليمنى برأسه مباشرة، مضغوطة ومكورة، ومثقلة على الجانب منذ عقود بألف قنطار ونيف - لذلك سيرسم هذا البورتريه -

بينما مقارنة باليمنى ابتعدت أذنه اليسرى عن رأسه بشكل كبير ولكن بصورة طبيعية. في الحقيقة إذا ما نظرنا إلى الطحان ماتيرن من الأمام فسوف نجد أن له أذناً واحدة؛ أما الأذن الناقصة أو التي يمكن رؤيتها في الخطوط المحددة للبورتريه كانت هي الأهم.

ليس مناسبا له تماما أن يعيش في هذا العالم، مع ذلك فهو قادر على ذلك أكثر من لورشن المسكينة. كان الناس في القرى يهزأون قائلين بأن أمه كانت تقيس نموه عندما كان طفلا بمغرفة الطبخ. لم يترك اللص ومشعل الحرائق ماتيرنا، الذي أُعدم مع زميله عند برج شتوكتورم، لآل ماتيرن سوى أسوأ ما لدى آل ما لديهم من طباع. يتغامز المينونيون الأجلاف منهم والرقاة بعضهم بين بعض، والمينوني الجلف الذي لا جيب له زيمون بايستر يقول إن الكاثوليكية لم تعد بنفع على آل ماتيرن؛ خاصة الصبي الذي يدور دائما مع أمزل السمين من الضفة الأخرى، يصر بأسنانه بطريقة كاثوليكية شيطانية؛ لا بد أن تنظروا إلى الكلب، لا يمكن أن تكون اللعنة الأبدية أسود منه. مع ذلك كان للطحان ماتيرن روح طيبة، كذلك كانت لورشن المسكينة. ولم يكن لهم أعداء في القرى، ولكن كان لهم كثير من المستهزئين.

أذن الطحان-حينما تُذكر أذن الطحان، يُقصد بذلك دائما الأذن اليمنى المفلطحة، المثقلة بجوال الدقيق. تستحق أذن الطحان إذن أن تذكر مرتين: أولا لأن أمزل مسح بشجاعة من يومياته التصميم الكروكي لفزاعة تصور أذن الطحان، وثانيا لأن أذن الطحان تلك، برغم أنها كانت صماء إزاء كل الأصوات العادية كالسعال والحديث والوعظ والأغنية الكنسية وأجراس الأبقار، وحدادة حدوة الحصان، وكل نباح الكلاب وشدو الطير وأصوات الصراصير، فقد كان لديها في المقابل القدرة على فهم كل ما يُتداول داخل زكيبة الحبوب أو الدقيق، بدءاً من الأشياء الواضحة جدا إلى الهمس والتناجي وادعاء السرية داخل الزكيبة. سواء كان ذلك قمحا بدون قشر أو بقشر وهو النوع الذي نادرا ما ينمو في الجزيرة، سواء كان ذاك القمح مدروسا من سنابل طرية أو من سنابل جافة؛ لو كان قمحا لصناعة البيرة أو قمح جريش أو قمحا للخبيز أو قمح المعكرونة والنشا، إن كان قمحا بلوريا أو نصف بلوري أو ناعما؛ تتنصت أذن الطحان الصماء لكل قنطار، وتعرف نسبة بذور الكُشني والحبوب العفنة أو حتى الحبوب

المنبتة. يتنصت الطحان كذلك لنوع القمح دون أن يراه: فرانكشتاينر أصفر باهت، كويافي ملون، بروبشتاينر أحمر، قمح زهري أحمر، وذاك النوع يعطي في الأرض الغرينية بضاعة جيدة لتخمير البيرة، القمح الإنجليزي ذو الحبة الكبيرة وكذلك نوعان زرعا في الجزيرة على سبيل التجربة: قمح أورتوبا السيبيري المقاوم للصقيع وقمح شليبهاك الأبيض، نمرة خمسة.

بل وأثبتت أذن الطحان الصماء عادة علو قدرتها السمعية إزاء الدقيق. فبينما كان يستمع لشهادة زكيبة حبوب عن كم خنافس الحبوب والشرانق واليرقات وعدد ذبابات النمس وخنافس الدقيق بها، كان بإمكانه وأذنه على الزكيبة أن يذكر العدد بالضبط، وكان قادرا على معرفة عدد سوسات القمح Tenebrio-molitor- في قنطار من دقيق القمح. كذلك وذلك هو المذهل، كان باستطاعته بسبب أذنه المفلطحة أن يعرف أيضا بعدة دقائق من الإنصات المتنبه عدد السوسات الميتة التي ينوح عليها سوس القمح الحي في داخل زكيبة من الزكائب. لأنه يقول دون تلعثم وقد زر بعينه اليمنى ورفع زاوية فمه اليمنى إلى أعلى وتبعها الأنف، أن الضجيج الذي أحدثته ديدان القمح الحية، كشف له عن عدد الخسائر في أرواح سوس الدقيق.

قال هيرودوت إن البابليين قد زرعوا قمحا له حبوب في حجم حبة البازلاء؛ لكن هل يمكن للمرء أن يصدق هيرودوت؟

يقدم الطحان أنطون ماتيرن شهادات تفصيلية عن الحبوب والدقيق؛ هل كان هناك من يصدق الطحان ماتيرن؟

لقد نُفذت تجربة في مشرب لورمان الواقع ما بين ضيعة فولشرت ومعمل أجبان لورمان. كان المشرب ملائما لعمل التجربة وكان له ماض مضيء فيما يتعلق بهذه الأمور. فأولا كان هناك مسمار مثبت في البار له العجب طوله بوصة، ويقال إن طوله بوصتان، كان اريش بلوك، أسطى معمل البيرة بتيغنهوف، قد أدخله منذ عدة سنوات، على سبيل التجربة، في لوح خشب البار بضربة واحدة من قبضته؛ وثانيا هناك على سقف المشرب الجيري أدلة من نوع آخر: آثار أحذية، حوالي اثني عشر أثرا، أيقظت الانطباع الحتمي بأن شخصا ما من أصل شيطاني قد تجول على السقف ورأسه لأسفل. لقد تعلق الأمر هنا باستعراض للقوة، حينما لم يرد أحد مندوبي شركة التأمين ضد الحريق أن يعتقد

في القوة العضلية لهرمان كارفايزه، حمله كارفايزه وجعل رأسه تجاه الأرضية وقدميه باتجاه السماء وطوحه باتجاه السقف ثم تلقفه ثانية كي لا يصاب الرجل بضرر وبين له أن آثار حذائه على سقف المشرب قد بقيت دليلا على قوة أهل الجزيرة.

وعندما اختُبر أنطون ماتيرن، لم يكن الاختبار له علاقة بالقوة البدنية، فلقد بدا الطحان نحيفا. تعلق الأمر بالأحرى بشيء غامض وذهني جدا: اليوم هو الأحد. الباب والنافذة مغلقان. يبقى الصيف خارج المشرب. مصايد الذباب الأربعة هي الشيء الوحيد الذي يذكر بصوت عال متنوع بهذا الفصل من السنة. في المشرب المسمار أبو بوصة وآثار الأحذية على السقف الرمادي الذي كان يوما ما أبيض جيرياً. صور عيد الرماة المعتادة وجائزة عيد الرماة. على الرف هناك بعض الزجاجات الخضراء القليلة تحتوي على براندي مقطر من الحبوب. تتنافس روائح تبغ وورنيش أحذية ومصالة حليب مع بعضها، لكن رائحة الأنفاس المخمورة التي بدأت تختمر من يوم السبت، هي التي كادت تغلب. يتحدثون يمضغون يتراهنون. يضع كارفايزه ومومبر وفولشرت الصغير برميلا صغيرا من بيرة «نويتايش» الداكنة كرهان. صمت حول كوب صغير من مشروب «كورفورستليش» الذي لا يشربه هنا سوى أهل المدينة. يراهن الطحان ماتيرن ببرميل بيرة مماثل في المقابل. يحضر لورمان الواقف خلف البار زكيبة صغيرة وزنها عشرين رطلا من ورائه، ويحمل مصفاة دقيق استعدادا لاختبار الرهان. في البدء تكون الزكيبة في يد الطحان الأعوج بغرض التأمل ثم يضعها على الأذن المفلطحة. وفي الحال يعلو صوت مصايد الذباب، حيث لم يعد أحد يمضغ التبغ أو يتحدث بلهجة أهل الجزيرة ولا أثر تقريبا للأنفاس المخمورة: ما قيمة ترنيمة البجع المحتضر في المسرح إذا ما قيست بطنين الذباب على الأرض المستوية!

زج لورمان للطحان لوح إردواز وقلم إردواز تحت يده الخاوية. ولأن الحصر سيسجل على اللوحة فقد كتب عليها: أولا اليرقات. ثانيا الشرانق. ثالثا السوس. ما يزال الطحان يتنصت. تطن الذبابات. تسود رائحة مصالة الحليب والورنيش، حيث لا تجرؤ أية أنفاس مخمورة على الخروج. تزحف اليد الملخومة - لأن الطحان يسند الزكيبة الصغيرة قليلا بيمناه - من البار إلى لوح الإردواز: خلف كلمة يرقات يخشخش قلم الإردواز سبع عشرة جامدة. ثم يصلصل اثنين

وعشرين شرنقة. تمسحها الإسفنجة؛ وكلما أخذت البقعة الرطبة في الجفاف أصبح واضحا أن عدد الشرانق تسع عشرة فقط. من المفترض أن يكون بالزكيبة الصغيرة ثماني سوسات. وفوق البيعة، حيث لم يدخل ذلك في الرهان، سجل الطحان على لوح الإردواز: «خمس سوسات ميتة في الزكيبة». بعد ذلك مباشرة تبتلع الأنفاس المخمورة رائحة الورنيش ومصالة الحليب السائدة. لقد أخفض شخص ما صوت طنين الذباب. أصبح لورمان محط الأنظار بالمصفاة التي في يده.

لكي نختصر الحكاية: لقد كان العدد المقدر المتنبأ به من اليرقات البرشمانية الصلبة والشرانق الطرية الصلبة فقط عند الرأس واليرقات البالغة، المسماة بسوس الدقيق، مضبوطا. فقط نقصت واحدة من الديدان المقدرة بخمس سوسات؛ ربما أصابها الجفاف ومرت مفتتة عبر مصفاة الدقيق.

وهكذا حصل الطحان ماتيرن على برميل بيرة نويتايش وأعطى كل الحاضرين، بخاصة كارفايزه ومومبر وفولشرت، الذين راهنوا بالبيرة، مواساة لهم وكرما منه نبوءة يعودون بها إلى منازلهم. فأثناء وضعه لبرميل البيرة على كتفه، محل ما كانت الزكيبة موضوعة منذ قليل، تحدث بشكل عارض وكأنه ينقل ما يسمعه: لقد سمع بأذنه المفلطحة أثناء وجود العشرين رطلا على كتفه، ما قاله عدد من سوس دقيق - لا يستطيع أن يحدد عددها بالضبط- عن المحصول. وفقا لرأي ديدان القمح، يستحسن حصاد القمح الإيبي قبل أسبوع من عيد الأخوة السبعة[٦] والقمح الكويافي وكذلك قمح الشليبهاك نمرة خمسة بعد الأخوة السبعة.

وقبل سنوات عديدة من صنع أمزل لفزاعة تصور الطحان المرهف السمع، كانت هناك صيغة تحية شائعة «نهاره أبيض يا سيدي ماتيرن، يا ترى سوستك قالت لك حاجة جديدة».

كان هناك مزارعون كثيرون يسألون الطحان ماتيرن، سواء كانوا جادين أم هازئين، أن يستفتي الزكيبة المنتفخة التي أجابت عن الوقت المناسب لزراعة القمح الشتوي والوقت المناسب لزراعة القمح الصيفي وكانت الزكيبة تعرف أيضا وقت

---

(٦) أسبوع في يونيو، إن كان ممطرا تبعه حسب الاعتقاد الشعبي صيف ممطر، يسمى أيضا بالسبع النيام، الاسم يشير إلى حكاية مشابهة لحكاية أهل الكهف.

الحصاد ووقت نقل المحاصيل. وحتى قبل أن يتحول الطحان إلى فزاعة ويوضع كتصميم كروكي في يوميات أمزل، كان يتنبأ بنبوءات أخرى قائمة أثبتت بتحققها ليومنا هذا، الذي يريد فيه الممثل أن يبني للطحان تمثالا تذكاريا، طغيان جانبها القاتم على جانبها المشرق.

لأنه لم يتنبأ فقط بوباء الأرغوت السام الذي هدد محاصيل الحبوب والعاصفة الثلجية التي تستحق التأمين ضدها وقدوم عدد لا حصر له من فئران الحقول في المستقبل القريب فحسب، بل لقد تنبأ بالضبط باليوم الذي ستنهار فيه الأسعار في بورصتي الحبوب ببرلين وبودابست وانهيارات البنوك في عام ثلاثين وموت هندنبورج وانخفاض قيمة غولدن مدينة دانتسيغ في مايو سنة خمس وثلاثين؛ وحتى اليوم التي بدأت فيه الأسلحة تتكلم، نبأه به السوس.

ولقد عرف بالطبع أيضا بقدرة أذنه المفلطحة عن الكلبة سنتا التي أنجبت هاراس، أكثر بكثير مما تظهره الكلبة، التي وقفت سوداء بجانب الطحان الأبيض، للعيان.

لكن بعد الحرب الكبيرة، عندما تجول الطحان ببطاقة لاجئ (أ) بين كريفلد ودورن، كان ما يزال قادرا على التنبؤ بالمستقبل من زكيبة وزنها عشرون رطلا عاشت معه أهوال الحرب والهروب... لكن وفقا للاتفاق مع مجموعة الكتاب، لا يجوز لبراوكسل أن يكتب عن ذلك، حيث إن السيد الممثل سيقوم بذلك.

الوردية الصباحية الثامنة عشرة

غربان في الجليد- يا له من موضوع! يتوج الجليد المجاريف والأوناش الصدئة من أيام إنتاج البوتاس. سيضرم براوكسل النار في الجليد، فمن ذا الذي يستطيع تحمل هذا المنظر: غربان في الجليد، تتحول بعد إطالة النظر إليها إلى راهبات في الجليد: يجب أن يزول الجليد. على عمال الوردية الليلية أن يقوموا بساعة عمل إضافية قبل دخولهم إلى مبنى تغيير الملابس؛ أو يأمر براوكسل بإحضار الموديلات الجديدة التي تم اختبارها من على عمق سبعمائة وتسعين مترا ويأمر بوضعها على أرض المنشأة المغطاة بالجليد: بركونوس وبيكولوس وبوتريمبوس- في هذه الحالة ينبغي للغربان وللراهبات أن يبحثوا لأنفسهم عن مأوى ولا حاجة إلى إضرام النار في الجليد. سيبقى الجليد راقدا أمام شباك

براوكسل، دون أن يتناثر، ويصبح مادة للوصف: وينساب الفايكسل، وتطحن الطاحونة ويسير القطار الإقليمي ويسيح الزبد ويثخن الحليب، يوضع فوقه قليل من السكر والملعقة تقف والمعدية تأتي والشمس تروح والشمس تأتي ورمل البحر يذهب والبحر يلعق رملا. . . يجري الأطفال حفاة ويجدون توتا أزرق ويبحثون عن الكهرمان ويمشون فوق الأشواك ويحفرون بحثا عن الفئران ويتسلقون حفاة داخل الصفصافة الجوفاء. . . لكن من يبحث عن الكهرمان ويدوس على الأشواك ويقفز داخل الصفصافة ويحفر بحثا عن الفئران، سيجد في السد فتاة ميتة ومجففة تماما: تولا تولا انها إبنة الأمير سفانتبولك، تولا التي كانت تحفر دائما في الرمل بحثا عن الفئران وتقضم بسنتين قاطعتين ولم ترتدي أبدا جوارب طويلة ولا أحذية: يجري الأطفال حافين وتهز الصفصافات رأسها ويستمر الفايكسل في انسيابه، والشمس ساعة تسطع وساعة تغيب والمعدية تأتي أو تذهب أو ترسو وتصر، أثناء ما يثخن اللبن وحتى تقف الملعقة ويسير القطار الإقليمي ببطء ويصفر بسرعة عند المنحنى. كذلك تقرقر الطاحونة، عندما تكون سرعة الريح ثمانية أمتار في الثانية. ويستمع الطحان لما يتفوه به سوس الدقيق. وتصر الأسنان عندما. . . فالتر ماتيرن بأسنانه من اليمين إلى اليسار. كذلك تفعل الجدة: إنها تطارد لورشن المسكينة عبر الحديقة. تكسر سنتا، وهي سوداء ومعشَّرة، سورا علقت عليه نباتات الفاصوليا. لأنها تقترب مفزعة وترفع يديها بميل، وبيدها المغرفة الخشبية، تلقي بظل على لورشن الملفلفة الشعر وتصبح أكبر وأسمن، أكثر وأكثر. . . لكن إدوارد أمزل الذي ينظر في كل النواحي ولا ينسى شيئا لأن يومياته تحتوي على كل شيء، يطلب الآن مبلغا أكبر بعض الشيء، إنه يطلب غولدنا وعشرين بفنيغا ثمنا للفزاعة الواحدة.

والسبب أنه منذ بدأ الأستاذ أولشفسكي يتحدث في المدرسة الابتدائية عن كل الآلهة التي كانت موجودة من قبل وما تزال موجودة للآن وكانت موجودة في القديم، وهب أمزل نفسه للميثولوجيا.

بدأ الأمر بأن كلبا من كلاب الرعاة يمتلكه صاحب معمل تقطير خمور من شتوتهوف قد ركب مع سيده القطار الإقليمي إلى نيكلسفالده. كان الكلب يدعى بلوتو وشجرة سلالته لا عيب فيها، كان عليه أن يعشر سنتا وقد تم ذلك أيضا بنجاح. في المدرسة الابتدائية أراد أمزل أن يعرف معنى كلمة بلوتو. وفي الحال

بدأ المدرس الشاب المغرم بالإصلاح المدرسي والذي تستثيره أسئلة التلاميذ يملأ ساعة الدرس المخصصة في الجدول للجغرافيا المحلية بحكايات كثيرة، كان أبطالها في البدء فوتان وفريا وفانفير[٧] ثم جاء بعد ذلك زيوس وجونو وبلوتو وأبولو وميركور والإلهة المصرية إيزيس. وقد أفاض في الحديث أيما إفاضة حينما أسكن آلهة بروسيا القدماء بركونوس وبيكولوس وبوتريمبوس فروع شجرة بلوط ذات صرير.

بالطبع لم يكتف أمزل بالإصغاء فقط بل طبق بتفنن كل ما رسمه في يومياته: لقد أحيا بركونوس الأحمر الناري باستخدام قماش وسائد رخو أخذه من البيوت التي بها حالات وفاة. خلع أمزل كومة من خشب البلوط المتشقق من سنابك الخيل القديمة ووضع في شقوقها ريشا من ذيول ديوك مذبوحة وصنع منها رأس بركونوس. وما كادت الفزاعة تقف متوهجة ونارية كالرب على السد لوقت قصير بغرض العرض حتى بيعت بغولدن وعشرين بفنيغ ونقلت داخل الجزيرة إلى لادهكوب.

لم يُصنع بيكولوس الشاحب الذي قيل عنه أنه ينظر من أسفل لأعلى والذي كان معنيا بأمور الموت في العصور الوثنية، من الملاءات التي خلفها الموتى وراءهم شبانا كانوا أو عجائز، فما أسهل وأبسط من إلباس إله الموت زيا من الأكفان، لكن أمزل - ساهم انتقال إحدى العائلات من القرية في صنع زي إله الموت - ألبسه فستان عروس مصفراً ومهترئاً جدا وله رائحة اللافندر والمسك وخراء الفئران. هذا الزي الذي أسدله أمزل على بيكولوس ذي المظهر الذكوري قد جعل منظره مخيفا مهيبا؛ جلب الإله عند بيع الفزاعة العروس المميتة لأحد المشاتل الكبيرة في شوستركروغ، عملتي غولدن كاملتين.

أما الصبي بوتريمبوس الضاحك دائما بسنبلة القمح بين أسنانه، برغم كثرة الألوان والبساطة التي صنعها به أمزل، لم يجلب سوى غولدن واحد. رغم أن بوتريمبوس يحمي بذور الشتاء والصيف من نبات دحريج القمح الضار ومن خردل المزارع والنجيل والعشب الضار والكشني والأرغوت، ظلت الفزاعة الشابة معروضة على السد لمدة أكثر من أسبوع وكان جسمها مصنوعا من فرع شجرة

(٧) من شخوص الميثولوجيا الجرمانية. (مترجم).

بندق مغطاة بالورق المفضض وقد لف وسطها بتنورة من جلد القطط رفرف عليها قشر بيض ملون بلون الزعفران، ثم اشتراها مزارع من فيشر -بابكه. ولأن زوجته كانت حبلى ولذلك أميل للاعتقاد في الخرافات، فقد رأت أن الفزاعة الجالبة للخصوبة حلوة المنظر ومثيرة للقرقرة: بعد أسابيع ولدت توأمين.

وحتى سنتا نالت أيضا من بركة الصبي بوتريمبوس: فبعد أربعة وستين يوما بالضبط ولدت الكلبة تحت مِنصب طاحونة الهواء الماتيرنية ستة جراء عميان، لكن لها سواد السلالة. وتم تسجيل الجراء الستة واحد تلو الآخر. من بينها جرو ذكر، اسمه هاراس، سيتواتر ذكره في الكتاب التالي أكثر وأكثر. لأن هناك سيد يدعى ليبناو قد اشتراه ككلب حراسة لورشة النجارة الخاصة به. لقد جاء الأسطى النجار مستخدما القطار الإقليمي إلى نيكلسفالده بناء على إعلان نشره الطحان ماتيرن في جريدة «نويسته ناخريشتن» وقد اتفقا على البيع.

في البدايات السحيقة كانت هناك أو يفترض أنه كانت هناك ذئبة ليتوانية، حفيدها هو الكلب بركون الذي ولد الكلبة سنتا؛ وعشَّر بلوتو سنتا وأنجبت سنتا ستة جراء، من بينها الجرو الذكر هاراس وولد هاراس برينتس وسيصنع برينتس تاريخا في الكتب التي لا ينبغي على براوكسل كتابتها.

لكن أمزل لم يصمم قط فزاعة على صورة كلب ولا حتى على صورة الكلبة سنتا التي تتجول بينه وبين فالتر ماتيرن. تتخذ الفزاعات المرسومة في يومياته، باستثناء تلك الفزاعة الخاصة بثعابين الماء الشاربة للحليب والفزاعة المكونة من نصف صفصافة بثلاثة رؤوس ونصف جدة، من الآلهة والبشر مرجعا لها.

جنبا إلى جنب مع حصة الدرس وتوافقا مع المادة العلمية التي يبثها الأستاذ أولشفسكي فوق رؤوس التلاميذ الغافين من طنين الذباب والصيف، نشأت أشكال مفزعة للطيور، كانت تعتبر، بخلاف الآلهة، موديلا لسلسلة من فرسان الصليب الألماني، بدءا من هرمان بالكه ومرورا بكونراد فون فالنرود وانتهاء بيونغنغن: صلصلت قطع كثيرة من الصاج المموج الصدئ وقُصت صلبان سوداء من ورق مشمع أبيض و لُصقت على ألواح براميل ذات مسامير بارزة. وكان على عدة أشخاص من عائلة ياغيلو[٨] وكازيمير الكبير واللص بوبروفسكي ذي

(٨) ملك توحدت بولندا وليتوانيا تحت قيادته في القرون الوسطى.

السمعة السيئة وبينكه ومارتن براديفيك وليتشنسكي المسكين أن يقفوا أمام كنيبروده وليتسكاو وفون بلاون. لم يكن باستطاعة أمزل أن يشبع من تاريخ بروسيا وبراندنبورغ، يمر بيده متحسسا القرون المختلفة بدءاً من ألبرشت أخيليس وحتى تسييتين ويعصر من خثارة التاريخ البروسي الشرقي فزاعات تجابه طيور السماء.

تقريبا في الوقت نفسه الذي اشترى فيه الأسطى النجار أبو هاري ليبناو الكلب هاراس من الطحان أنطون ماتيرن، ولما يكن هاري وابنة خاله تولا قد قيدا بعد لدى السجل المدني، كان بإمكان من يستطيع القراءة أن يقرأ في الجزء المحلي بجريدة «نويسته ناخريشتن» مقالة طويلة وشاعرية عن الجزيرة الكبيرة وقد وصفت بإسهاب ومعرفة الناس والأرض وخصائص أعشاش طائر اللقلق وبيوت المزارعين كتلك ذات الأعمدة الخشبية. وفي الجزء الأوسط من المقال الذي نسخه براوكسل من أرشيف إحدى الصحف الألمانية كان التالي مكتوبا وما يزال مكتوبا: «حتى وإن كان كل شيء في الجزيرة يأخذ سيره المعتاد ولم تحتفل التكنولوجيا الحديثة بعد بانتقالها إلى هناك، فهناك تغير مذهل وملحوظ في مجال ربما يكون فرعيا: إنها فزاعات الطيور الموجودة بحقول القمح الممتدة في الأرض الخلابة. قبل سنوات قليلة كانت هناك فزاعات من النوع العادي النافع والذي به شيء من الحزن والغرابة، لكنها في نهاية الأمر ذات صلة بالفزاعات الموجودة في أماكن مقاطعات ومناطق ريفية أخرى. أما الآن فتضفي هذه الفزاعات الموجودة في حقول القمح الرائعة الممتدة ما بين أينلاغه ويونغفر ولادهكوب بل وحتى في كيزهمارك ومونتاو والتي توجد حتى منفردة في منطقة نويتايش الجنوبية، على المنطقة وجها جديدا مفعما بالتنوع. تمزج الفزاعات الجديدة العادات الشعبية القديمة بشيء من الفانتازيا: أشكال مسلية لكنها غريبة تقف في الحقول المنسابة وفي الحدائق المباركة؛ ألا ينبغي أن يسترعي هذا الكنز من الفن الشعبي البسيط ذي الشكل المحكم انتباه المتاحف المحلية والبلدية المختصة؟ ألا ندرك أن هناك تراثا شماليا يزدهر ثانية وسط هذه الحضارة المسطحة: روح الفايكنغ والبساطة المسيحية في تضامن ألماني شرقي. بالأخص هناك مجموعة مكونة من ثلاث فزاعات في حقل قمح ممتد بين شارباو وبيرنالده، تذكر بإلحاح لطيف بمجموعة الصلب على تلة الصلب، بالرب والمجرمين، وتبين ورعا بسيطا، يمس قلب

المتجول العابر بين الحقول المنسابة الممتدة المباركة، ولا يعرف هذا الأخير لماذا.»

لا ينبغي الآن لأحد أن يظن أن أمزل قد صنع هذه الفزاعة بورع طفولي طمعا في جزاء الرب. ففي اليوميات كان هناك مجرم واحد مصور: وفقا لليوميات جلبت هذه الفزاعة لأمزل عملتي غولدن وعشرين بفنيغا.

ماذا حدث للمال الذي دفعه مزارعو منطقة الجزيرة الكبيرة لأمزل عن رضا أو بعد فصال قصير؟

لقد حفظ فالتر ماتيرن المال المتنامي في كيس صغير من الجلد وكان يحرسه بقتامة تعلو حاجبيه ودون الاستغناء عن صرير الأسنان. لقد لف الكيس الممتلئ بالعملات الفضية لدولة دانتسيغ الحرة حول رسغه وبقي معه وهو يتجول بين أشجار الحور على الطريق العمومي وعبر طرق غابة الشاطئ وأثناء عبوره النهر بالمعدية وكان يضرب بالكيس في أسوار الحدائق ويضرب به ركبته متحديا نفسه وكان يفتحه بصعوبة عندما يتحول أحد المزارعين إلى زبون. لا يحصّل أمزل النقود. في حين كان أمزل يتظاهر بعدم المبالاة، كان على فالتر ماتيرن أن يقترح سعر البيع ويتمم البيعة بالمصافحة بالأيدي على طريقة تجار الماشية؛ ثم يقبض العملات. علاوة على ذلك كان فالتر ماتيرن مسؤولا عن نقل الفزاعات المشتراة أو المعارة. لقد صار تابعا لأمزل. لقد جعله أمزل خادما له. وحاول فالتر ماتيرن الخروج على أمزل في انتفاضات قصيرة النفس. حكاية مطواة الجيب كانت واحدة من هذه الفورات غير الواعية: لأن أمزل الذي يتدحرج حول العالم بساقيه القصيرتين وجسمه السمين كان متفوقا عليه دائما. وعندما كان الاثنان يسيران على السد كان ابن الطحان يمشي مثل الخدم تاركا نصف خطوة وراء صانع الفزاعات الجديدة الذي لا يكل. كان الخادم يحضر لسيده المواد الخام أيضا: عيدان الفاصوليا والخرق المبلولة، التي يلقي بها الفايكسل إلى البر.

الوردية الصباحية التاسعة عشرة

كان الأطفال يضايقونه منادين «يا خدام يا خدام»، حين كان أمزل يكلف صديقه فالتر ماتيرن بخدمته. سيُعاقب كثيرون ممن يجدفون على الرب؛ لكن يا ترى من سيطبق القانون على هؤلاء السمجين نتني الرائحة الذين يسبون الشيطان يوميا؟ كان الاثنان (يقصد براوكسل ابن الطحان والولد السمين) مثل الرب

الحبيب والشيطان غارقين في حب بعضهما للدرجة التي جعلت من مضايقات أطفال القرية لهما شهدا مصفى على قلبيهما. علاوة على ذلك شق كلاهما ذراعيهما بالمطواة نفسها، كما فعل الرب والشيطان.

كانت الخدمة المؤقتة ضربا من ضروب الحب لذلك كثيرا ما جلس الصديقان معا في الحجرة المعلقة التي كان ضوؤها محكوما بالشمس ومراوح طاحونة الهواء الماتيرنية ذات المنصب. جلسا بجوار بعضهما على مقعدين صغيرين تحت أقدام الجدة ماتيرن. بالخارج كان الوقت عصرا. صمت سوس الخشب. سقطت ظلال الطاحونة على مكان آخر وخفض الصوت الصادر من حظيرة الدجاج لأن الشباك كان مغلقا. فقط ماتت ذبابة بلطف بالغ على مصيدة الذباب ولم تستطع التوقف عن الموت. وبما يعادل مسافة طابقين تحت الذبابة حكت الجدة، بصوت متجهم وكأن الأذن التي تستطيع أن تسمعها لم تخلق بعد، حدوتة الفيضان وحدوتة الأبقار المسحورة وحكايات ثعابين الماء المعتادة والحداد الأعور والحصان ذي الأرجل الثلاث وكذلك حدوتة ابنة الأمير كينستوتس التي خرجت لتحفر بحثا عن الفئران وحكايات حيوانات الدلفين الضخمة التي أخرجها الفيضان العاصف من تحت بونزاك إلى البر بالضبط في السنة نفسها التي زحف فيها نابليون إلى روسيا.

لكن الجدة، التي كانت تحب أن تلف وتدور في حكايتها، كانت تتخبط دائما في طرق مظلمة ومتاهات بفضل الأسئلة الذكية التي كان يصطادها أمزل بها أثناء حكيها، حيث إن الحكاية التي لم تنهها ليومنا هذا هي حكاية الاثنتي عشرة راهبة بدون رأس والاثني عشر فارسا برؤوس وخوذات تحت الإبط والذين ساروا بأربع عربات تجرها الخيول، عربتان تجرهما خيول بيضاء واثنتان تجرهما خيول سوداء عبر تيغنهوف مصلصلة فوق البلاط الإسفلتي. وقفت العربات أمام مطعم خال ودخلوه اثنتي عشرة اثني عشر: وانطلقت الموسيقى. صفير نفير نقير. وفوق ذلك زغاريد وأصوات أنفية مدربة. أغان سيئة بلوازم سيئة من حناجر ذكورية. كان مصدرها من الرؤوس والخوذات تحت الأذرع المثنية للفرسان، ثم استبدلت الأغاني بترنيمة روحية خفيضة على النحو الذي تغني به النساء الورعات، ثم كان الدور ثانية على الراهبات اللائي بلا رأس واللاتي أمسكن برؤوسهن أمامهن ومن هذه الرؤوس صدرت كلمات فاحشة بألحان فاحشة تم

الرقص والدق عليها مصحوبة بالزعيق والدوار. وفي هذه الأثناء ألقى موكب متواضع وغير متحرك بظلال اثنتي عشرة واثني عشر رأسا عبر نافذة المطعم على بلاط الشارع الحجري، حتى عاد الدق والقرع واللغط والخبط ثانية وفكك خرسانة المبنى والخوابير المثبتة له. قرب الصباح، قبل صياح الديكة تحركت أخيرا أربع عربات تجرها خيول بيضاء وسوداء، بلا حوذية. وغادر المطعم بتيغنهوف اثنا عشر فارسا مصلصلين ويخرج معهم غبار الصدئ بوجوه الراهبات الشاحبة شحوب الدود ويلفها غطاء الرأس. وتغادر المطعم اثنتا عشرة راهبة مرتديات خوذات فرسان بقناع يغطي الوجه فوق ردائهن الكهنوتي. في أربع عربات، أحصنة بيضاء في المقدمة، أحصنة سوداء في المقدمة، ركبوا ست وستة وست وستة دون أن يختلطوا، فقد بدلوا الرؤوس، ثم سارت العربات عبر القرية الخاضعة التي صلصلت طرقاتها ثانية. قالت الجدة ماتيرن قبل أن تستمر في مط الحكاية وتقود العربات إلى مناطق أخرى، وتجعلها تقف أمام كنائس وقلاع، إنه ليومنا هذا ما يزال يُسمع في مدفأة المطعم المهجور، الذي لا يريد أحدا أن يعمره، ترنيماً ورعاً وصلوات مجدفة.

ولذلك أراد الصديقان أن يذهبا إلى تيغنهوف. لكن عندما اتخذا طريقهما إلى هناك لم يصلوا إلا إلى شتيغن، أو إلى لادهكوب بأية حال من الأحوال. فقط في الشتاء التالي الذي يعد لصانع فزاعات وفقا للطبيعة الموسم الهادئ للإبداع الحقيقي، وجد أمزل الفرصة مهيأة لأخذ مقاييس هؤلاء الذين لا رأس لهم: وهكذا صنع أول فزاعاته الميكانيكية، بالرغم أنه سحب جزءا كبيرا من ثروته الموجودة في الكيس الجلدي.

الوردية الصباحية العشرون

يُحدث جو ذوبان الجليد ثقبا في رأس براوكسل. في هذه الأثناء تسقط قطرات أمام نافذته على غطاء من الزنك. ولأن هناك بمبنى الإدارة حجرات خالية بلا نوافذ، فبإمكان براوكسل تجنب هذا العلاج؛ لكن براوكسل يريد هذا الثقب في الرأس: سلولويد سلولويد، لو كانت سوسة فلتكن بثقب صغير في جبهة من السلولويد. لأن براوكسل قد عايش من قبل جو ذوبان الجليد وتم تحوله تحت الماء الذائب في تمثال الجليد المتقلص؛ لكن، قبل ذلك، قبل ذوبانات

جليد عديدة عديدة، انساب الفايكسل تحت طبقة سميكة من الجليد مرت فوقها زلاجات تجرها الجياد. وحاول شباب القرى الواقعة على ضفاف النهر القيام بالتزحلق الشراعي على الجليد بأحذية تزلج مائلة تسمى شلايفين. وجعل اثنان منهم شراعا مصنوعا من ملاءة سرير مثبتة على لوح خشب يمتلئ بالريح ويندفع بشدة بقوتها. كل الأفواه أخرجت بخارا. تراكم الجليد ووجبت إزاحته. حملت الأرض الواقعة خلف الكثبان، سواء كانت خصيبة أو بورا، الجليدَ نفسه. جليد على كلا السدين. امتزج جليد الشاطئ بجليد الطبقة الثلجية فوق البحر الذي لا حد له وفوق أسماكه. وقفت الطاحونة الماتيرنية ذات المنصب بساقين متعاكستين على التبة البيضاء المستديرة وقد لبست طاقية جليدية منزلقة وسقط عليها الجليد من ناحية الشرق، وسط مروج بيضاء تحددت معالمها من خلال أسوار صلبة وقد أخذت الطاحونة تطحن. وتحلت أشجار حور نابليون بالسكر. ودهن رسام هاو غابة الشاطئ بطبقة من اللون الأبيض من أنبوبة ألوان. وعندما أصبح الجليد رماديا، انتهت الطاحونة من عملها وأوقفت عمل الريح. ذهب الطحان وعامل الطاحونة إلى البيت. يمشي الطحان الأعوج إثر عامل الطاحونة. والكلبة سنتا المنفعلة منذ أن باعوا جراءها، طبعت آثار أقدامها وعضت في الجليد. جلس فالتر ماتيرن وإدوارد أمزل بملابس ثقيلة وقفازات على أحد الأسوار المواجهة للطاحونة وكانا قبل ذلك قد أزالا الجليد من كعوب أحذيتهما بضربها في هذا السور.

في البدء سكتا ناظرين للأمام. ثم تحدثا سويا بغموض وبشكل تقني. عن الطواحين ذات السرعة الواحدة، والطواحين الهولندية بدون صار وبدون مِنصب، لكن بثلاث سرعات وسرعة قصوى، تحدثا عن مراوح الطواحين وعن دفة الريح التي تنظم نفسها عند ازدياد سرعة الريح. هناك حلزون الطحين واسطوانة الطحين، وأوتاد الطحين وعمود الطاحونة. وهناك علاقة بين طبلة الطاحونة والمكابح. لكن الأطفال يغنون دون أن يعرفوا ذلك: الطاحونة تدور ببطء، الطاحونة تدور أسرع. لم يغن أمزل وفالتر ماتيرن، لكنهما كانا يعرفان لماذا ومتى تدور الطاحونة. . . : الطاحونة تدور ببطء والطاحونة تدور أسرع عندما تقبض المكابح بخفة أو بشدة على محور المراوح. لكن حتى عندما يسقط الجليد، كانت الريح تهب بسرعة ٨ أمتار في الثانية، والطاحونة تطحن بانتظام دوامات

غير منتظمة من الدقيق. لا شيء في العالم يمكنه أن يعادل طاحونة تطحن أثناء سقوط الجليد، ولا حتى المطافئ التي يجب عليها إطفاء برج المياه في جو ممطر.

لكن عندما انتهت الطاحونة من عملها وسكنت المراوح متخذة شكلها وسط دوامة الثلج، تبين- وذلك لأن أمزل قد أغلق عينيه زارا إياهما- أن الطاحونة لم تتوقف بعد. تحرك الثلج من الكثيب الكبير إلى هنا في هدوء، أحيانا أبيض، أحيانا رماديا وأحيانا أسود. تمايلت أشجار الحور على الطريق العام. اشتعل ضوء أصفر أقحواني بمشرب لورمان. لم يصفر أي قطار إقليمي عند المنحنى. أصبحت الريح قارصة. ناحت فروع الأشجار. توهج أمزل. وغفى صاحبه. رأى أمزل شيئا ما ولم ير صديقه أي شيء. دعك أمزل أصابعه الصغيرة في قبضته الصغيرة ثم انزلقت الأصابع وبحثت ثم وجدت الفردة اليمنى للحذاء اللامع المصقول في جيب الجاكت الأيسر: تغلي عروق أمزل! لا تبقى ندفة ثلج على جلده. زم شفتيه وقالت وباحت عيناه بأكثر مما يقال في نفس واحد: تحركت العربات بعضها وراء بعض بدون حوذية. والطاحونة كانت ساكنة. أربع زلاجات، اثنتان بحصانين أبيضين (ينصع الأبيض) واثنتان بحصانين أسودين (ويبرز الأسود في مقابله). يهبطون ويساعدون بعضهم بعضا: اثنا عشر واثنتا عشرة وكلهم بلا رأس. يقود فارس بلا رأس راهبة بلا رأس إلى الطاحونة. في المجمل يقود اثنا عشر فارسا اثنتي عشرة راهبة إلى الطاحونة، لكن سواء الفرسان أو الراهبات كانوا جميعهم يحملون رؤوسهم تحت أذرعهم أو أمامهم. تتعقد الأمور على المشى؛ لأنه برغم التساوي بين غطاء الوجه وغطاء الوجه وبين الدرع والدرع، فقد ظلت بينهم مشاجرات من الماضي، عندما حلوا المعسكر في راغنيت: لا تتحدث الراهبة الأولى مع الفارس الرابع. لكن كلاهما يجب أن يتحدث مع الفارس فيتزواتر الذي يعرف ليتوانيا معرفته لثقوب سترته الشبكية. كان من المفروض أن تلد الراهبة التاسعة في مايو، لكنها لم تلد، لأن الفارس الثامن واسمه انغلهارد رابه قد خلع عنها وعن الراهبة السادسة التي أكلت صيفا ووراء صيف كثيرا من ثمار الكرز، الرأس وغطاء الوجه، بسيف الفارس العاشر السمين الذي جلس على لوح خشبي وأخذ ينزع لحم دجاجة عن عظمها مرتديا خوذته ذات الغطاء الحاجب للوجه. وكل ذلك لأن راية القديس جورج لم ينته تطريزها بعد، رغم أن نهر سيزوبه Szeszupe قد تجمد بشكل مناسب. وبينما أسرعت الراهبات الباقيات في التطريز

أكثر وأكثر- وقارب الجزء الأحمر الأخير من الراية أن ينتهي تقريبا- أتت الراهبة الثالثة الشمعية التي كانت تتبع دائما ظل الفارس الحادي عشر وأحضرت الوعاء لتضعه تحت الدم المنسال. فضحكت الراهبات السابعة والثانية والرابعة والخامسة، وألقين بأدوات التطريز خلفهن وقدمن رؤوسهن وأغطية وجوههن إلى الفارس الثامن الأسود انغلهارد رابه. رفع الفارس الثامن، الذي لم يكن كسولا، أولا الرأس والخوذة بغطائها عن الفارس العاشر، الذي جلس على اللوح الخشبي وتبرز ممسكا بالدجاجة خلف غطاء الخوذة، وأعطاه سيفه، وساعد السمين الذي بلا رأس، والذي كان ما يزال يمضغ، الأسود الثامن وساعد الراهبة الثانية والثالثة الشمعية التي بقيت وراء الظل وكذلك ساعد الراهبتين الرابعة والخامسة في خلع رأسيهن وغطائي وجهيهن وخلع رأس انغلهارد رابه. وجروا إليهم الوعاء ضاحكين. قليل من الراهبات قمن بتطريز راية غريغوروس، بالرغم أن سيزوبه قد تجمد بشكل مناسب، بالرغم من أن الإنجليز بقيادة دوق لانكستر كانوا بالمعسكر وبالرغم من أنه كانت هناك تقارير عن الطرق، أراد الأمير فوتفولد أن ينأى بنفسه ودعا فالنرود بالفعل إلى اجتماع المائدة. لكن وعاء الدم كان قد امتلأ وفاض. وعندما كان على الراهبة العاشرة السمينة- حيث إنه مثلما كان هناك فارس سمين، كانت هناك فارسة سمينة- أن تأتي مترجرجة، كان لها أن ترفع الوعاء ثلاث مرات وكانت المرة الأخيرة عندما كان نهر سيزوبه بدون جليد. وكان على أورزولا، الراهبة الثامنة، التي كان الجميع ينادونها باختصار ولطف تولا، أن تركع والزغب يغطي قفاها. ونذرت نذرها في مارس وحنثت به اثنتا عشرة مرة، لكنها لم تعرف مع أي منهم وبأي تسلسل، لأنهم كانوا يرتدون جميعا خوذة بقناع للوجه. والآن الإنجليز بقيادة هنري ديربي[٩]؛ إنه جديد بالمعسكر ومتعجل. كان هناك واحد اسمه توماس بيرسي، لكن ليس هنري، بل توماس بيرسي. لقد حاكت له تولا بأناقة راية خاصة، برغم أن فالنرود قد منع الرايات الخاصة. وأراد جاكوب دوتريمر وبيج بيغود السير وراء هذه الراية الخاصة. وفي النهاية تلاقى فالنرود مع دوق لانكستر. وأطاح براية توماس بيرسي التي في حجم الجيب وجعل النهر الخالي من الجليد يحمل راية

---

(٩) هو هنري الرابع ملك بريطانيا. (مترجم)

غريغوروس التي انتهى هاتنشتين لتوه من صنعها وأمر الراهبة الثامنة ويطلق عليها اسم تولا أن تركع أثناء بناء الجسر[١٠]، حيث غرقت أربعة خيول وحوذي. لقد كان غناؤها أجمل حين سبقتها الراهبتان الحادية عشرة والثانية عشرة بالغناء. واستطاعت أن تتكلم من أنفها وتصرصر وتجعل في الوقت نفسه لسانها الأحمر يرفرف في تجويف فمها الأحمر الغامق. بكى دوق لانكستر خلف قناع وجهه لأنه كان يفضل البقاء ببيته، لكنه تشاجر مع عائلته وأصبح رغم ذلك فيما بعد ملكا. وفجأة ولأن أحدا لم يعد يرغب في عبور نهر سيزوبه وأراد الجميع باكين العودة إلى بيوتهم، قفز الفارس الأصغر من فوق شجرة كان نائما فوقها واتجه بخطوات رشيقة تجاه الزغب على القفا. لقد جاء من مورس على أراضي الراين ليهدي أهل بارتن إلى المسيحية لكنهم كانوا قد اهتدوا جميعا وتأسست بلدة بارتنشتاين. ليتوانيا هي الوحيدة التي بقيت، ولكن قبلها كان الزغب على قفا تولا. لقد أصاب الفارس السادس الزغب بسيفه عند فقرة القفا الأخيرة. ثم رمى بسيفه بعد ذلك مباشرة في الهواء وتلقاه بقفاه. لقد كان بارعا جدا. وأراد الفارس الرابع الذي لم يتحدث أبدا مع الراهبة الأولى تقليده، لكن الحظ لم يحالفه ففصل في المحاولة الأولى رأس الراهبة العاشرة السمينة وفي المحاولة الثانية فصل الرأس المكتنزة الغليظة للراهبة الأولى المتزمتة. ثم كان على الفارس الثالث الذي لم يغير سترته الشبكية أبدا وكان يعد حكيما أن يحضر الوعاء، لأنه لم تعد هناك أية راهبات.

وقام بقية الفرسان برحلة صغيرة وتبعهم الإنجليز بدون راية والمسلحون من راغنيت إلى ليتوانيا التي لا سبيل إليها[١١]. قرقر الأمير كينستوته في المستنقعات. وأخذت ابنته تلغو تحت شجرة سرخس عملاقة. امتلأ المكان بنقيق الضفادع وتعثرت الخيل لهذا السبب. وفي النهاية لم يكن بوتريمبوس قد دُفن بعد؛ لم يرد بركونوس أن يحترق؛ واستمر بيكولوس في النظر من أسفل لأعلى دون أن يزوغ بصره. ياااه! كان ينبغي عليهم أن يصوروا فيلما. لقد كان هناك ما يكفي من

(١٠) الجسر المؤدي إلى ليتوانيا عبر نهر سيزوبه، فشلت محاولة بناءه عدة مرات. (مترجم)

(١١) الجبهة الأخرى للحملات الصليبية كانت هي شرق أوروبا حيث أراد فرسان الصليب هداية هذه الشعوب الوثنية إلى المسيحية، لكنهم احتاجوا إلى قرون حتى تمكنوا غزوها. (مترجم)

الكومبارس ومناظر طبيعية كثيرة. هناك ألف ومائتا زوج من الواقي المعدني لقصبة الرجل والأقواس ودروع الصدر وأحذية متعفنة وألجمة مهروسة وسبعون كرة من بطانات الأقمشة واثنتا عشرة قارورة حبر وعشرون ألف شعلة وشموع وفرش لتنظيف الخيول وبكرات من الدوبارة وأعواد من نبات السوس- علكة القرن الرابع عشر- ودروع يعلوها السخام وقطيع من الكلاب، فرسان الصليب الألماني يلعبون الضامة، عازفو الهارب والحواة والمكارية وجالونات من بيرة الشعير وحزم من البيارق وسهام ورماح وأداة لتقليب المقليات لزيمون باخه واريك كرونه وكلاوس شونه وريشارد فيسترال وشبانرله وتيلمان وروبرت فيندل عند مشهد بناء الجسر، ومشهد العبور ومشهد التربص ومشهد الأمطار المستمرة: حزم من البرق، يتشقق البلوط وتخاف الخيل، يحملق البوم وتبدل الثعالب أوكارها وتزوم السهام: يصبح فرسان الصليب الألماني قلقين؛ وتنادي العرافة العمياء في ايرلنغبوش «فيلا! فيلا!» إلى الوراء. . . . إلى الوراء، لكنهم لم يروا هذا النهير، الذي ما يزال الشاعر بوبروفسكي يتغنى به بحزن ليومنا هذا، إلا في يوليو. انساب نهر سيزوبه صافيا وكان له أزيز على أحجار الشاطئ. وأيضا جلس كثيرون من المعارف القدامى: جلست الراهبات اللاتي بلا رأس هناك وأمسكن بيسراهن الرؤوس وأغطية الوجوه وغرفن باليد اليمنى من ماء سيزوبه ومسحن بالماء وجوههن الساخنة. في الخلفية وقف الفرسان بدون رأس متجهمين ولم يريدوا أن يهدأوا. فقرر باقي الفرسان أن يكونوا مع هؤلاء الذين بلا رأس. بالقرب من راغنيت رفعوا بعضهم عن بعض الرؤوس والخوذات وربطوا خيولهم بأربع عربات بسيطة وساروا بخيول سوداء وخيول بيضاء عبر أراض قد تحولت إلى المسيحية وأراض لم تتحول بعد. لقد أعلوا شأن بوتريمبوس وأسقطوا المسيح وحاولوا دون جدوى أن يغشوا بصر بيكولوس ثم عادوا مرة أخرى إلى الصليب. نزلوا بالمطاعم والكنائس الصغيرة والطواحين وعبروا وهم يتسامرون قرونا: أفزعوا البولنديين والهوسيين والسويديين. كانوا في تسوندروف عندما عبر زايدليتس[١٢] بكتائبه عبر منخفض سافيرين. وعندما كان على

(١٢) قائد عسكري في عهد فريدريش الكبير. (مترجم)

(١٣) يقصد نابليون. (مترجم)

الكورسيكي[١٣] أن يسرع بالعودة إلى وطنه، وجد في طريقه أربع عربات ذات زنابك وصار الفرسان والراهبات شهودا لمعركة تانينبرغ الثانية التي لم تقع أيضا في تانينبرغ شأنها شأن معركة تانينبرغ الأولى. ووسط قطيع فرسان بدغوني المهلهل، كان ما يزال باستطاعتهم أن يلتفتوا، عندما أحرز بيلزودسكي انتصاره بمعونة العذراء عند منحنى الفايكسل؛ ودأبوا على التنقل بلا هوادة بين تابياو ونويتايش، في الأعوام التي كان أمزل يقوم فيها بصنع الفزاعات ويعرضها للبيع. وأراد اثنا عشر واثنتا عشرة أن يبقوا في حركة دائبة ما لم يتم خلاصهم حتى يكون لكل رأسه أو يكون لكل جزع أن يحمل رأسا ما. واجتمعوا مؤخرا في شارباو ثم فيشر-بابكه وكانت الراهبة الأولى قد حملت مؤقتا وجه الفارس الرابع، لكنها لم تتكلم معه رغم ذلك. ثم تحركوا بالعربات بين الكثبان والطرق الرئيسة باتجاه شتوتهوف، عبر الحقل وتوقفوا عند الطاحونة الماتيرنية ونزلوا من عرباتهم- كان أمزل هو الوحيد الذي رآهم: إنه الثاني من فبراير أو عيد تطهير العذراء وهم يريدون الاحتفال. يساعدون بعضهم بعضا في النزول من العربات وصعود تبة الطاحونة ويدخلون الطاحونة ذات المنصب. وبعد ذلك مباشرة - أمزل هو الوحيد الذي سمع ذلك - امتلأت الطاحونة بالأزيز والحشرجة والصرخات واللعنات المتقطعة والتلاوة المعكوسة للصلوات. أصوات أنفية وصفير على الحديد، بينما يسقط الجليد من جهة الكثبان غالبا من السماء. يتوهج أمزل ويحك الحذاء اللامع المصقول في الجيب العميق. لكن صديقه يظل شاردا ويغفو في داخله. استراحة بين الأشواط، لأنهم يتمرغون بالداخل في الدقيق ويتسلقون شجرة البيت ويحشرون أصابعهم ما بين طبلة الطاحونة ومكابحها ويديرون الطاحونة في الريح بمناسبة العيد: تدور الطاحونة ببطء، حسب هواها؛ ويردد اثنا عشر رأسا الغناء الحلو: وقفت أم المسيح متألمة - يا بيركول -juxta crucem lacrimosa- كيف صار سبعة منا نحن الاثني عشر باردين -juxta crucem lacrimosa- يا بيركون نحن الاثنا عشر نحترق، وإذا صرت رمادا، يبقى أحد عشر -Dum pendebat filius- يا بوتريمبوس، نريد أن نندم على دم المسيح أثناء تمرغنا في الدقيق. . . وأخيرا تترجرج بقادوس الطاحونة رأس وخوذة الفارس الثامن الأسود مع الرأس السمين الودود للراهبة العاشرة وتدور الطاحونة الماتيرنية ذات المنصب أسرع وأسرع، بالرغم من أن الريح قد سكنت. ويرمي الفارس الأصغر

القادم من منطقة الراين السفلى رأسه المغرد بالقناع المفتوح عن آخره إلى الراهبة الثامنة. لكنها تتصنع أنها لا تعرفه، ولا تريد أن تتعرف عليه، اسمها أورزولا وليس تولا وهي مكتفية بذاتها وتمتطي هذه الخوابير المثبتة لعمود الطاحونة. الآن يرتعد الفارس السادس: الطاحونة تدور ببطء، الطاحونة تدور أسرع؛ وزعقت الرؤوس غاضبة في قادوس الطاحونة. لهاث جاف على خوابير خشبية؛ غربان في الدقيق؛ تصر عوارض السقف وتتزحزح المزالج القابضة على أجزاء الطاحونة: جذوع بلا رأس صاعدة وهابطة؛ من غرفة الزكائب إلى غرفة الدقيق يحدث تحول ما: فتتجدد الطاحونة الماتيرنية القديمة وسط نعير شهواني وصلوات جلية وتتحول بصاريها فوق المِنصب إلى فارس يضرب في كل اتجاه ويصيب الجليد- أمزل وبيده الحذاء اللامع المصقول هو الوحيد الذي رأى ذلك؛ ثم تتحول -أمزل يدرك ذلك والحذاء في يده- إلى راهبة في زيها الكهنوتي الفضفاض، منتفخة من أكل الفاصوليا ومن النشوة وتصنع دوائر بكميها. فرسان طاحونة الهواء راهبات طاحونة الهواء: فقر فقر فقر. لكن حليب أنثى الفرس المتخمر موجود للسكر. ويُقطر عصير من دحريج القمح. القواطع تقرض عظمة ثعلب بينما تتضور الجذوع التي بلا رأس جوعا. فقر حلوى السوس. رغم ذلك يشكلون صليبا بأجسادهم والرؤوس إلى جانب ويعلو من الاضطجاع الكبير على شكل صليب صوتا نقيا مليئا بالزهد وبالفناء، صوتا صافيا كالماء حادا كالسوط يغني نشيد الأنشاد لرضاء الرب. يلوح فارس طاحونة الهواء بسوط طاحونة الهواء؛ ويصيب سوط طاحونة الهواء راهبة طاحونة الهواء - آمين - أو ليس آمين بعد -؛ لأنه بينما يسقط الثلج من السماء بدون ضجيج أو مشاعر ملتهبة، ويرقد أمزل وقد ضاقت عيناه على السور ويتحسس الفردة اليمنى لحذاء هيدفيغ لاو اللامع المصقول في جيب الجاكت الأيسر ويقوم بوضع خطته، يصحو ذاك اللهب الصغير الذي ينام في كل طاحونة هواء.

ثم غادروا الطاحونة الثابتة التي لم تكد تتحرك، بعد أن وجدوا بدون اختيار رؤوسا للجذوع. لكن الطاحونة بدأت تحترق من الداخل إلى الخارج بعدما صعدوا إلى عرباتهم الأربع واتجهوا إلى الكثبان. حينذاك انزلق أمزل من على السور وسحب صاحبه معه «حريقة، حريقة!» نادوا في اتجاه القرية: لكن لم يبق شيء يمكن إنقاذه.

الوردية الصباحية الحادية والعشرون

أخيرا وصلت الرسومات. وضعها براوكسل في إطار زجاجي وأمر بتعليقها. قطع متوسط: «تكدس للراهبات ما بين كاتدرائية كولونيا ومحطة قطارات كولونيا الرئيسية. مجلس القربان المقدس بميونيخ. راهبات وغربان وغربان وراهبات.» ثم أوراق من القطع الكبير A1، وحبر صيني باهت اللون بعض الشيء، راهبة مبتدئة ترتدي ملابس الكهنوت؛ رئيسة دير كبيرة؛ رئيسة دير تجلس القرفصاء- ممتاز، طلب الفنان مبلغ ٥٠٠ مارك ثمنا لهذه اللوحة. معقول، معقول جدا. سترسل اللوحة مباشرة إلى مكتب التصميمات. سنستخدم محركات كهربية خفيضة الصوت: تطوح راهبة طاحونة الهواء سوط طاحونة الهواء...

لأنه في أثناء فحص الشرطة لموقع الحريق، حيث كان هناك احتمال أن يكون الحريق مدبرا، صنع إدوارد أمزل فزاعته الميكانيكية الأولى وبعد ذلك في الربيع، بعد أن فقد كل الجليد معناه وتبين أن المينوني زيمون بايستر هو الذي أحرق الطاحونة الكاثوليكية لأسباب دينية، صنع أمزل الفزاعة الميكانيكية الثانية. لقد وضع مالا كثيرا من الكيس الجلدي في هذا المشروع. ووفقا للرسوم الكروكية باليوميات قام أمزل بصنع فارس طاحونة الهواء وراهبة طاحونة الهواء وجعلهما يجلسان على منصب الطاحونة وصنع لهم مراوح بالملابس المناسبة لذلك وتركهما يتبعان الريح؛ لكن لا فارس طاحونة الهواء ولا راهبة طاحونة الهواء،برغم أنهما وجدا مشترين بسرعة، كانا بقادرين على أن يعكسا ما رآه أمزل في ليلة عيد تطهير العذراء الجليدية: ظل الفنان غير راض؛ كذلك سيكون من الصعب على شركة براوكسل أن تنتهي من تصنيع السلسلة التجريبية للمنتجات المتحركة قبل منتصف أكتوبر. بعد ذلك ستطرحها كخط إنتاج.

الوردية الصباحية الثانية والعشرون

بعد احتراق الطاحونة، نقلت المعدية، وبعدها قطار الجزيرة الإقليمي المينوني الجلف الذي بلا أزرار ولا جيوب زيمون بايستر، ذاك المزارع الصغير والصياد الذي أضرم النار في الطاحونة لأسباب دينية، إلى المدينة، ثم إلى السجن الحضري شيسستانغه، الكائن بحي نويغارتن عند سفح جبل هاغلسبيرغ، وأصبح ذلك

محل إقامة زيمون بايستر في السنوات التالية.

أبدت سنتا من نسل بركون والتي أنجبت ستة جراء برز لونها الأسود جميلا بمقارنته بالطحان الأبيض، بمجرد أن بيعت كل الجراء، علامات الهياج العصبي الكلابي وأصبحت بعد الحريق جالبة للضرر- لقد عضت بذئبية أحد الخراف وهاجمت أحد مندوبي شركة التأمين ضد الحريق- لدرجة أن الطحان ماتيرن قد أرسل ابنه فالتر إلى عمدة قرية شيفنهورست إريش لاو: حيث كان لدى أبي هيدفيغ لاو سلاح ناري.

أحدث حريق الطاحونة أيضا تغييرا في حياة الصديقين. فقد جعل القدر، أو من الأفضل أن نقول جعل مدرس مدرسة القرية والأرملة أمزل والطحان ماتيرن وكذلك مدير المدرسة د. باتكه، من الطفلين ذوي السنوات العشر فالتر ماتيرن وإدوارد أمزل تلميذين بالمدرسة الثانوية، وأمكن لهما أن يجلسا على المقعد نفسه بالفصل. وأثناء ما كان العمل في الطاحونة الماتيرنية ذات المنصب ما يزال مستمرا- حيث تم التخلي عن مشروع بناء طاحونة هولندية برأس دوار لأنه ينبغي الحفاظ على الشكل التاريخي للطاحونة التي باتت بها الملكة لويزة- جاء عيد الفصح مصحوبا بفيضان هزيل وبداية وباء الفئران وانتشار نبات النورة الهرية المفاجئ، وبعد العيد بقليل ارتدى كل من فالتر ماتيرن وإدوارد أمزل الطاقية القطيفة الخضراء لمدرسة القديس يوحنا الثانوية. وكان لكليهما مقاس الرأس نفسه ومقاس الحذاء نفسه، لكن أمزل كان أسمن، أسمن بكثير. علاوة على ذلك لف شعر أمزل لفة واحدة فقط بينما لف شعر فالتر ماتيرن لفتين وذلك ينبئ كما يقولون بموت مبكر.

وقد جعل طريق المدرسة من مصب الفايكسل إلى مدرسة القديس يوحنا الثانوية من الصديقين تلميذين يركبان المواصلات. يتعلم التلاميذ راكبو المواصلات أشياء كثيرة ويكذبون كثيرا. كذلك يمكن لهؤلاء التلاميذ النوم جالسين. التلاميذ راكبو المواصلات هم التلاميذ الذين يكتبون واجباتهم المدرسية في القطار وبذلك يتعودون على الكتابة بخط مهزوز. وحتى في السنوات التالية، حينما لا تكون هناك واجبات مدرسية، لا يتحسن خطهم إلا قليلا، على أية حال يختفي الاهتزاز فيه. لذلك يجب على الممثل أن يكتب مخطوطه على الآلة الكاتبة مباشرة؛ فلأنه من التلاميذ راكبي المواصلات السابقين، فما يزال يكتب

بخط متشنج وغير مقروء، يهزه الارتطام المتخيل بقضبان السكة الحديد.

كان القطار الإقليمي يسير من محطة الجزيرة إلى المحطة التي سماها أهل المدينة «محطة نيدرشتات»، عبر كنوبلكروغ، وغوتسفالده ثم يُنقل عند شوستركروغ بالمعدية عبر الفايكسل الميت ويُنقل عند شيفنهورست بعبارة بخارية عبر ما يسمى بالقناة إلى نيكلسفالده. وبمجرد أن تجر قاطرة القطار الإقليمي كل عربة من عرباتها الأربع على حدة إلى أعلى سد الفايكسل، يسير القطار بعد نزول إدوارد أمزل في شيفنهورست وفالتر ماتيرن في نيكلسفالده عبر بازهفارك ويونكرأكر وشتيغن إلى آخر خط القطار الإقليمي في شتوتهوف.

يركب كل التلاميذ راكبو المواصلات في العربة الأولى خلف القاطرة المحركة. ركب بيتر إلنغ وأرنولد ماتري من أينلاغه. وصعد غريغور كنيسن ويواخيم بيرتوليك في شوستركروغ. وفي شيفنهورست قامت أم هيدفيغ لاو بمرافقة ابنتها إلى المحطة. وكثيرا ما أُصيبت هذه الطفلة بالتهاب اللوزتين ولم تأت. ألم يكن ذلك نوعا من عدم الطاعة، أن يمضي القطار الإقليمي ذو الصدر الضيق دون هيدفيغ لاو؟ جلست ابنة عمدة القرية منذ عيد الفصح مثلها مثل فالترن ماتيرن وإدوارد أمزل في الصف الأول الثانوي. بعد ذلك، بدءا من الفصل الثالث الثانوي أصبحت الطفلة أكثر صحة وعافية ولم تمرض بالتهاب اللوزتين ثانية، ولأن أحدا لم يعد بعد يرتعد وجلا على حياتها، أصبح الحكي عنها مملا، مما سيدفع براوكسل إلى عدم الكتابة عنها في القريب. في الوقت الحالي ما يزال أمزل يستمتع بالنظر إلى فتاة ناعسة، جميلة أقرب في جمالها إلى بنات السواحل، بشعر فاتح اللون بعض الشيء وعيون شديدة الزرقة وبشرة شديدة النضارة، تجلس أمامه وتقرأ في كتاب اللغة الإنجليزية.

كان لهيدفيغ لاو ضفائر طويلة. وحتى عند اقتراب القطار الإقليمي بعوادمه، كانت رائحة الزبد ومصالة الحليب تنبعث من جسدها. يزر أمزل عينيه ويتيح للضفائر الشقراء الساحلية أن تبرق. خارج القطار، خلف بلينيندورف، يبدأ ميناء الخشب عند ظهور منشار الشجر الآلي الأول. وتحل النوارس محل طيور السنونو، لكن أعمدة التلغراف تبقى. يفتح أمزل يومياته. ضفائر هيدفيغ لاو تعلق حرة، تتأرجح وتكاد تلامس كتاب اللغة الإنجليزية المفتوح عن آخره. يجر أمزل خطوطا في كتابه: لطيف، لطيف! لقد صنع من الضفائر المعلقة التي

يرفضها لأسباب شكلية، ضفائر على شكل حلزونين يغطيان أُذني هيدفيغ المحمرتين من اندفاع الدم بهما. لكن ذلك لا يعني أنه يقول لها: اصنعي هذا بشعرك، فالضفائر سخيفة المنظر وعليك أن تلفي شعرك على شكل حلزونات؛ لا، أثناء نزولهما من القطار يدفع أمزل بيومياته أمام كتابها المفتوح دون أن ينبس بكلمة، وتتأمل هي الرسم ثم تومئ موافقة برموشها وكأنها تطيع أوامره، بالرغم من أن أمزل لم تكن له هيئة الولد الذي تطيع بنات المدارس عادة أوامره.

الوردية الصباحية الثالثة والعشرون

يضمر براوكسل تقززا لا يمكن التخفيف من حدته إزاء شفرات الحلاقة غير المستعملة. يقوم أحد السعاة من العاملين لدى براوكسل، كان في السابق عامل منجم بمستودع الملح أيام شركة بورباخ لإنتاج البوتاس، باستخدام شفرات حلاقة براوكسل الجديدة لأول مرة ثم يقدمها له وبذا يتغلب براوكسل على تقززه. ولدى إدوارد أمزل أيضا تقزز فطري مماثل ولكن ليس إزاء شفرات الحلاقة. لقد كان لديه اشمئزاز من الملابس الجديدة ورائحتها. حتى الغسيل النظيف كان يدفعه إلى مغالبة شعور مداهم بالغثيان. وطوال فترة ذهابه إلى مدرسة القرية كانت حساسيته إزاء الملابس الجديدة محدودة، حيث إن أطفال المدارس من شيفنهورست أو نيكلسفالده كانوا يجلسون على مقاعد المدرسة بملابس مرقعة مهلهلة. لكن مدرسة القديس يوحنا الثانوية قد طلبت زيا آخر. ألبسته أمه ملابس جديدة تنبعث منها رائحة الملابس الجديدة: لقد ذكرنا الطاقية القطيفة الخضراء، وإضافة إليها كانت هناك سترتان بياقة وبنطلونات قصيرة رمادية من قماش غال وجاكت أزرق بأزرار من الصدف - وغالبا بناء على رغبة أمزل - حذاء مصقول لامع بإبزيم؛ لأن أمزل لا يكره الورنيش ولا الأبازيم. وليست لديه مشكلة في ارتداء جاكت بأزرار من الصدف، لكن مجرد تصوره بأن هذه الملابس الجديدة ستلتصق ببشرته التي هي بشرة صانع فزاعات، جعلته يرتجف، ولا سيما أن جسمه يرد على الملابس المغسولة والتي لم تُرتد من قبل بإكزيمات الهرش؛ وكذلك يخشى براوكسل بعد الحلاقة بشفرة جديدة أن يصاب بالحكة الجلدية في ذقنه.

لحسن الحظ كان بإمكان فالتر ماتيرن أن يعاون صاحبه. فملابسه المدرسية

كانت مفصلة من قماش مستعمل وحذاؤه ذو الرباط كان مرتين لدى الإسكافي، واشترت أُم فالتر ماتيرن العجوز المدبرة لابنها طاقية تلميذ الثانوي وهكذا بدأت رحلات القطار الإقليمي إلى المدرسة لمدة أربعة عشر يوما كاملين بالوتيرة الاحتفالية نفسها: فقد قام الصديقان في عربة البضائع بتبادل ملابسهما المدرسية وسط بهائم الذبح التي لا يزعجها ذلك: كان ارتداء الحذاء والطاقية أمرا سهلا، أما جاكت وبنطلون وقميص فالتر ماتيرن الذي لم يكن بالتأكيد نحيفا، فقد كانت هذه الملابس ضيقة وغير مريحة بالنسبة لصديقه أمزل ومع ذلك كانت منعشة لأنها لُبست واستخدمت من قبل ولأنها قديمة وليست لها رائحة الملابس الجديدة. لا يجدي أن نقول إن ملابس أمزل الجديدة عُلقت مهلهلة على جسم صديقه، فقد كان منظره هو نفسه بالورنيش اللميع والإبزيم والجاكت المضحك غريبا. كان أمزل، الذي وضع قدمي صانع الفزاعات في حذاء خشن ومليء بالثنيات، شديد الانجذاب لمنظر الحذاء اللامع المصقول في قدمي فالتر ماتيرن. كان لا بد أن يلبسه فالتر ماتيرن حتى يعتبره أمزل ملبوسا ويراه متشققا مثل هذا الحذاء المصقول ذي الأبازيم الموجود في حقيبته المدرسية والذي كان يعني شيئا بالنسبة له.

لا بد أن نسبق بالقول إن تغيير الملابس ذاك كان لسنوات جزءاً من هذه الصداقة إن لم يكن أحد روابطها. وحتى مناديل الجيب التي طبقتها أم أمزل له بعناية ووضعتها له في جيبه، كان لا بد لصديقه ماتيرن أن يبدأ باستخدامها. وكذلك الجوارب الطويلة والقصيرة. ولم يتوقف الأمر عند استبدال الملابس: فقد تبين أن أمزل لديه أيضا حساسية تجاه أقلام الرصاص الجديدة وأقلام الحبر الجديدة. وكان على ماتيرن أن يبري أقلام الرصاص وأن يزيل عن الممحاة الجديدة شكلها الأصلي وأن يبدأ الكتابة بأقلام زوترلين - وبالتأكيد كان ماتيرن سيقوم أيضا باستخدام شفرات الحلاقة قبل صديقه، لو بدأ الزغب الأحمر يظهر فوق وجه أمزل المليء بالنمش، مثلما يفعل ساعي براوكسل.

الوردية الصباحية الرابعة والعشرون

من ذا الذي يقف هناك ويتأمل برازه مرتاحا بعد الإفطار؟ إنسان غارق في الفكر ومهموم بالماضي الذي وراءه. لماذا ينظر فقط إلى جمجمة الميت اللامعة؟ جو مسرحي، حديث هاملت، حركات ممثل! ينظر كاتب هذه السطور إلى أعلى ويشد

السيفون ويتذكر أثناء تأمله موقفا هيأ للصديقين أمزل الحصيف وماتيرن الممثل فرصة تطبيق تأملاتهم وإحداث جو مسرحي.

كانت المدرسة الثانوية الكائنة بحارة الفلايشرغاسه مثيرة للمغامرات وكانت موزعة بشكل غير منظم على حجرات دير فرنسيسكاني قديم، أي لها تاريخ سابق وكانت بالنسبة للاثنين مدرسة ثانوية مثالية لأن حجرات الدير القديم كان بها مداخل كثيرة إلى المخابئ التي لا يصل إليها المعلمون ولا البواب.

حتى براوكسل الذي يدير منجما لا ينتج بوتاسا ولا معادن ولا فحما ومع ذلك يجري العمل به على عمق ثمانمائة وخمسين مترا، كان بإمكانه أن يستشعر أيضا فرحة صغيرة بهذه الفوضى الكائنة تحت الأرض: حيث إن تحت كل حجرات الفصول المدرسية وتحت صالة الجمباز والمبولة، وتحت قاعة الاحتفالات وحتى تحت قاعة المؤتمرات وحجرات المدرسين امتدت هناك سراديب يمكن الزحف خلالها، وتتيه هذه السراديب بالمرء في غياهب وبيارات أو تدور به في دوائر. عندما بدأت المدرسة بعد عيد الفصح، كان أمزل هو أول من يطأ الفصل الدراسي في الدور الأرضي. لقد سار بساقين قصيرتين مرتديا حذاء فالتر ماتيرن على الأرضيات المزيتة، ثم تنشق قليلا بثقبي أنفه الوديين الرائحة العفنة للقبو والجو المسرحي! ظل واقفا وعقد أصابعه السمينة بعضها على بعض. وتأرجح على أصابع قدميه، ثم قام بعدما تأرجح وتنشق بعمل صليب بطرف حذائه الأيمن على أحد الألواح الخشبية للأرضية. ولأنه لم يجد أي رد فعل على العلامة التي وسمها بصفير من خلفه، استدار بعنقه المبطن جيدا ونظر وراءه: ووراءه وقف فالتر ماتيرن مرتديا حذاء أمزل اللامع المصقول، لم يفهم ماتيرن شيئا، وقف بوجهه الكريه المقبض، ثم أدرك بأرنبة أنفه ما الأمر ورد أخيرا متفهما بصفير عبر أسنانه. ولأن الطريق تحت أرضية الفصل كانت مجوفة ومبهمة شعر تلميذا الصف الأول الثانوي بالألفة، رغم عدم وجود فايكسل ينساب عريض الكتفين بين السدود عبر نافذة الفصل.

لكن بعد مرور أسبوع من الدراسة وجد الاثنان، حيث إنهما كانا يبحثان عن الأنهار، مدخلا إلى نهير صغير وبديلا للفايكسل. كان لا بد من رفع غطاء في أرضية حجرة تغيير الملابس الخاصة بصالة الجمباز التي كانت في الماضي مكتبة الفرنسيسكان. قام فالتر ماتيرن بفتح مربع البلاط المحفور في الأرضية وكانت

حواف المربع مجلية من أثر تنظيفه لعقود متوالية، ولم ير أمزل في ذلك تمويها أو خداعا: عفن القبو وجو المسرح! وجدوا بداية سرداب جاف ورطب يختلف عن السراديب الأخرى تحت حجرات الفصول في أنه يلتقي بمجاري المدينة ويقود من المجاري إلى نهر الراداونه. هذا النهير باسمه الغامض أتى من بحيرات الراداونه في دائرة بييرنت محملا بالأسماك والسرطانات واقترب، مارا ببيترسهاغن، من المدينة من ناحية نويماركت. كان النهير يزحف عبر المدينة القديمة، أحيانا فوق الأرض، أحيانا تحت الأرض وله عادة عدة جسور وتضفي عليه طيور البجع وأشجار الصفصاف منظرا مهيبا ويصب ما بين كرفنزايغن وبرابنك في نهر الموتلاو قبل امتزاج هذا الأخير مع الفايكسل الميت.

استطاع أمزل وصديقه إذن، بمجرد خلو حجرة تغيير الملابس من الشهود، أن يرفعا هذا المربع من الأرضية - لقد فعلا ذلك - زحفا عبر سرداب - وتقريبا على ارتفاع مساو للمبولة هبطا أحد البيارات - أولا هبط فالتر ماتيرن على درجات منتظمة لسلم حديدي مثبت في الحائط - فتح باب حديدي صدئ في قاع البيارة بسهولة - فتحه فالتر ماتيرن - والسير عبر قناة جافة ذات رائحة مثيرة للغثيان وعامرة بالجرذان - سارا في هذه القناة بالأحذية التي تبادلاها. لكي نكون أكثر دقة مرت القناة تحت سوري الفيبنفال والكارنفال اللذين بهما مبنى التأمين البلدي، وتحت حديقة المدينة وتحت أرصفة السكة الحديد بين بيترسهاغن والمحطة الرئيسية ووصلت إلى نهير الراداونه. ووصلت القناة أمام مقابر القديس سالفاتور الواقعة ما بين حارة الغريناديز وكنيسة المينونيين عند سفح جبل البيشوفسبرغ، إلى مصرفها الواسع. على جانب هذه الفتحة برزت سلالم حديدية على الشاطئ المسور بشكل حاد، تصل إلى الدرابزين المزين بعقد. ومن ورائه منظر يعرفه براوكسل من خلال عدة نقوش: من الحديقة ذات الخضار الربيعي النضر تظهر بانوراما للمدينة بلون أحمر طوبي: من بوابة أوليفا إلى بوابة ليغن، من كنيسة القديسة كاتارينا إلى كنيسة القديس بتري ببوغنبفول تشهد أبراج مختلفة وعالية وضخمة بأن هذه المدينة ما تزال شابة.

قام الصديقان بهذه الرحلة مرتين أو ثلاث مرات. وصرع فالتر ماتيرن في هذه الرحلات دستة كاملة من الجرذان. وفي المرة الثانية التي وصل فيها الصديقان إلى النور عبر نهير الراداونه، رآهما بعض الجالسين في الحديقة العامة من

المحالين على المعاش، لكنهم لم يبلغوا عنهما. ثم اكتفيا بذلك - لأن الراداونه لم يكن مثل الفايكسل - ثم وجدا تحت صالة الجمباز، ولكن قبل البيارة المؤدية إلى قناة مجاري المدينة، تفريعة مغلقة بالطوب بشكل غير محكم. لقد كشفت عنها بطارية الضوء الخاصة بأمزل. حين يكون هناك سرداب زاحف متفرع، يجب الدخول فيه والزحف لنهايته. كان للسرداب انحدار. والقناة التي يبلغ ارتفاعها طول إنسان بالغ والتي يفضي إليها السرداب الزاحف لم تكن قناة لمجاري المدينة، لكنها انسابت متهدمة بعبق العصور الوسطى، لتؤدي إلى كنيسة الثالوث المقدس القوطية الطراز قلبا وقالبا. كانت كنيسة الثالوث المقدس بجانب المتحف ولا تبعد عن المدرسة الثانوية بأكثر من ثلاثمائة خطوة. في أحد أيام السبت، عندما انتهى الصديقان من المدرسة بعد أربع حصص دراسية، قاما باكتشاف قبل ساعتين من تحرك قطار الجزيرة الإقليمي. لقد قاما بهذا الاكتشاف الذي لن يحكى عنه هنا فقط لمجرد أن سراديب العصور الوسطى مادة جيدة للوصف ولكن لأن اكتشاف تلميذ الصف الأول الثانوي إدوارد أمزل جدير بالتأمل وقد أعطى تلميذ الصف الأول الثانوي فالتر ماتيرن فرصة للتمثيل ولأن يصر بأسنانه. علاوة على ذلك يستطيع براوكسل الذي يدير منجما تحت الأرض أن ينتقي عباراته.

الصرار- أمزل هو الذي اخترع الاسم وردده التلاميذ الآخرون - الصرار يمضي إذن إلى الأمام. يحمل بيسراه بطارية الضوء، ويحمل في يمناه عصا يبعد بها جرذان المجاري ويقتلها إن لزم الأمر. ليست هناك جرذان كثيرة. وللحائط ملمس خشن جاف ومتفتت. الهواء بارد هنا ولكن ليست له برودة القبر، بالأحرى هناك تيار هوائي بارد، بالرغم من أن المرء لا يعرف مصدر هذا التيار. ليس هناك صدى للخطوات كما كان الحال في قناة المجاري الخاصة بالمدينة. وكان للسرداب الذي يبلغ ارتفاعه طول إنسان بالغ الانحدار نفسه الذي كان للسرداب الواطئ وللطريق المؤدية إليه. يرتدي ماتيرن حذاءه، لأن حذاء أمزل اللامع المصقول قد عانى بما فيه الكفاية في السراديب الواطئة: والآن يمشي بحذاء قد ارتُدي من قبل. من هناك يأتي تيار الهواء الجيد: من الثقب. لقد كادا يمران مرور الكرام، لو أن أمزل لم. . . على يسارهم. يزج أمزل بالصرار عبر الفتحة الموجودة بطول سبع طوبات، وعرض خمس طوبات. الأمر أصعب بالنسبة لأمزل. يشد الصرار أمزل عبر الفتحة ممسكا ببطارية الضوء بين فكيه

ويساعد في تحويل ملابس أمزل المدرسية الجديدة إلى ملابس مدرسية عادية. يقف كلاهما ويستنشقان لبرهة. إنهما في داخل قاع متسع لإحدى البيارات المستديرة. وفي الحال تنجذب أبصارهما إلى أعلى حيث يتسرب بصيص من الضوء. هذه الشبكة المصنوعة بفن فوق البيارة ومثبتة في الأرضية الحجرية لكنيسة الثالوث المقدس؛ سيتأكدا من ذلك فيما بعد. مع هذا الضوء الآخذ في الانحسار تهبط أربع عيون إلى أسفل البيارة وبأسفل تبين لهم بطارية الضوء، أن هيكلا عظميا يرقد أمام أطراف أحذيتهم الأربعة.

يرقد الهيكل العظمي محنيا وغير كامل أو أن تفاصيله قد تداخلت وتبدلت أماكنها. فعظم الكتف اليمنى به أربعة أضلاع مكسورة. وعظم القص يخترق الأضلاع اليمنى. وتنقص عظمة الترقوة في الجانب الأيسر. ينثني العمود الفقري على أول الفقرات القطنية. الذراعان والساقان مجتمعة بلا إكراه: إنسان منهار.

يقف الصرار متصلبا، ويترك لأمزل بطارية الضوء. يبدأ أمزل في إضاءة الهيكل العظمي. تنشأ مؤثرات الظل والضوء دون أن يسعى أمزل إلى ذلك. ويمشي على طرف الحذاء اللامع المصقول - قريبا سيستغني براوكسل عن دهان الحذاء المصقول - على الوسخ الناعم ذي السطح المتكلس لقاع البيارة باحثا عن أثر لأطراف الهيكل العظمي المتساقطة، ويأخذ مسافة ويتيح لمخروط الضوء الصادر من البطارية أن يتتبع الأثر، ثم يزر بعينيه كما هو الحال دائما عندما يتعلق الأمر برؤيته لموديل فني، ويميل برأسه ويلعب بلسانه ثم يغمض إحدى عينيه ويدور في محله، وينظر خلفه من فوق كتفه، ويحصل مثل الحاوي على مرآة جيب من مكان ما ويلعب بالضوء والهيكل العظمي وصورة المرآة، ويقوم بتشغيل بطارية الضوء تحت ذراعه المثنية لتضيء ما خلفه ويميل بطرف المرآة قليلا ثم يسير بسرعة على أطراف أصابع قدميه ليكبر نصف قطر الدائرة ثم يقارن ما بين ذلك ووضع الجلوس على الركبة ثم يقف ثانية مستقيما بدون مرآة ويصحح الأثر هنا وهناك ويبالغ في رسم إيماءات الهيكل المنهار بطرف حذائه اللامع المصقول، ثم يمسحها ويعيد تصويرها بطرف الحذاء نفسه، يضبط عناصر اللوحة يكثف ويخفف، ويريد أن يحصل على لذة تحقيق التوازن الحركي فيها، يريد أن يصمم رسما للهيكل العظمي، يحفظه في ذاكرته ويخلده في يومياته بالبيت. لا عجب أن يرغب أمزل، بعد أن قام بكل هذه الدراسات التمهيدية، في رفع هذه الجمجمة

المحشورة في عظام الترقوة الناقصة وأن يضعها بشكل طبيعي في حقيبته المدرسية بجانب كتبه وكراساته وحذاء هيدفيغ لاو المهترئ. يريد أن يحمل الجمجمة إلى ضفة الفايكسل وأن يضعها على إحدى فزاعاته التي ما زالت قيد الإنشاء، وربما يضعها فوق تلك الفزاعة المصممة في التراب. تصبح يده بأصابعها الخمس الغليظة المضحكة المفرودة فوق عظمة من بقايا عظام الترقوة، ويريد أن يمسك بتجويف العينين ويرفع الجمجمة بطريقة سليمة، حينئذ يبدأ الصرار الذي تصلب ولم يكد أحد يشعر بوجوده، في الصر بأسنان عدة. ويفعل ذلك كالعادة: من اليسار إلى اليمين. لكن الصوت داخل البيارة يرتفع وينتشر محذرا، بحيث يتوقف أمزل أثناء إمساكه بالجمجمة وينظر خلفه ويوجه كشاف الضوء إلى صديقه.

الصرار لا يتكلم. لا بد أن صرير الأسنان يغني تماما عن الكلام. وذلك يعني: لا يجوز لأمزل أن يحرك أي من أصابعه. ولا يجوز له أن يأخذ الجمجمة معه. الجمجمة يجب أن تبقى. لا تزعجها ولا تلمسها. مكان الجمجمة، جلجُثة[14]، شاهد قبر، صرير الأسنان.

لكن أمزل الذي يحتاج إلى قطع الديكور والإكسسوارات المميزة بشكل ملح، يريد أن يحرك يديه ثانية في اتجاه الجمجمة، حيث إن المرء لن يجد جمجمة كل يوم، ويظهر يده المبسوطة في الغبار اللامع بفعل ضوء الكشاف الكهربي ثانية. فتضربه العصا التي لم تضرب سوى الفئران مرة أو مرتين. ويردد صدى الصوت بالبيارة كلمة تأخذ في العلو، وتصدر ما بين الضربة والضربة: «كوهين» لقد نعت فالتر ماتيرن صديقه بـ «كوهين» وأكمل ضربه. يسقط أمزل جانبا بجوار الهيكل العظمي. يعلو الغبار ثم يهبط بعد وقت. يقوم أمزل ثانية. من ذا الذي يستطيع أن يبكي مثل هذه الدفقات من الدموع الجارية الثخينة؟ إضافة إلى ذلك يستطيع أمزل أثناء انسياب الدموع من كلتا عينيه وأثناء تحول الدموع إلى لآلئ مغبرة على أرض البيارة أن يبتسم بطيبة أو بتهكم: "Walter is a very silly boy" ويكرر جملة تلميذ الصف الأول الثانوي عدة مرات ويقلد أثناء ذلك مدرس اللغة الإنجليزية، حيث يتوجب عليه دائما أن يقلد شخصا ما، حتى أثناء جريان دموعه وإن لزم الأمر قلد نفسه: "Walter is a very silly boy" ثم بعد

(١٤) مكان الجمجمة بالعبرية. راجع إنجيل يوحنا ١٩، ١٧. (مترجم)

ذلك مباشرة، يتحدث بلهجة أهل الجزيرة: «هذه الجمجمة ملك لي. أنا الذي وجدها. أريد فقط أن أجربها وبعد ذلك أرجعها إلى مكانها».

لكن الحديث مع الصرار غير ممكن. لقد جعل النظر إلى العظام المتفتتة وجهه ممتقعا مسودا. يعقد ذراعيه ويستند إلى العصا متحجرا في تأمله. دائما عند رؤيته لشيء ميت: قطة غارقة، أو فئران قتلها بنفسه، أو نوارس أصابتها مطواته التي ألقاها في النهر أو عندما يرى سمكة مترهلة تلقي بها أمواج صغيرة إلى الشاطئ، أو لأنه رأى الهيكل العظمي الذي يريد أمزل أخذ جمجمته، يجب عليه أن. . . بأسنانه من اليسار إلى اليمين. وتتقلص عضلات وجهه الغلامي الكريه. تصبح نظرته، التي هي عادة غافية أو غبية، ثاقبة وتصير قاتمة ولا تنبئ سوى بكراهية غير محددة الاتجاه: تمتلئ ممرات البيارات والغياهب تحت كنيسة الثالوث المقدس القوطية بهواء المسرح. ثم يدق الصرار بقبضته على جبهته، ثم ينحني ثم يرفع الجمجمة إليه مفكرا ويتأملها، بينما يتقرفص إدوارد أمزل في الجانب.

من الذي يجلس القرفصاء هناك ويجب أن يهدئ من روعه؟ من يقف هناك ويمسك بجمجمة غريبة بعيدا عن وجهه؟ من ينظر بفضول خلفه ويتأمل برازه؟ من الذي يثبت نظرته على جمجمة لامعة ويريد أن يتعرف على صاحبها؟ من ذا الذي ليست لديه ديدان، لكن كان لديه بعض منها ذات مرة من أكل السلاطة؟ من يمسك بالجمجمة الخفيفة ويرى ديدانا، كانت ذات مرة ديدانه؟ من؟ من؟ اثنان من البشر: متأملان وغارقان في همومهما. ولكل منهما أسبابه. إنهما صديقان. يضع فالتر ماتيرن الجمجمة في مكانها ثانية. يكحت أمزل ثانية في الوسخ بحذائه ويبحث ويبحث ويبحث. يطلق فالتر ماتيرن في الفراغ كلاما كبيرا بصوت عال: «ياللا نمشي دلوقت. هذه هي مملكة الأموات. ربما يكون هذا يان بوبروفسكي ولا ماتيرنا، الذي هو أصل عائلتنا». لا يعتقد أمزل بالتخمينات. إنه لا يستطيع أن يصدق أن اللص بوبروفسكي أو أن اللص ومشعل الحرائق ماتيرنا الجد الأكبر لعائلة ماتيرن، قد كسيا هذا الهيكل العظمي لحما في يوم من الأيام. يتحسس شيئا معدنيا، يكحته ويبصق عليه ويدعكه فيظهر زر معدني، يصفه أمزل بكل تأكيد بأنه زر لفارس دراكون نابليوني. يرجع تاريخ الزر إلى فترة الحصار النابليوني الثانية ويضعه في جيبه. لا يعترض الصرار، فلم يسمع شيئا تقريبا وما يزال بأفكاره عند اللص بوبروفسكي وجده الأكبر

ماتيرنا. يطرد البراز البارد الصديقين عبر فتحة في الجدار. يخرج فالتر ماتيرن أولا ثم يحشر أمزل نفسه في الفتحة خارجا بظهره ومسلطا كشاف الضوء على رأس الميت عبر الفتحة.

الوردية الصباحية الخامسة والعشرون

تغيير وردية لدى شركة براوكسل وشركاه: تعجل الصديقان في عودتهما، فالقطار الإقليمي على محطة نيدرشتادت لا ينتظر أكثر من عشر دقائق.

تغيير وردية لدى شركة براوكسل وشركاه: اليوم نحتفل بمناسبة مرور مائتين وخمسين عاما على مولد فريدريش الكبير؛ ينبغي على براوكسل أن يملأ أحد السراديب بأشياء تخص عصر فريدريش الكبير وحده: مملكة بروسيا تحت الأرض!

تغيير وردية لدى شركة براوكسل وشركاه: في حجرة تغيير الملابس بجانب صالة الجمباز الخاصة بمدرسة القديس يوحنا الثانوية، أعاد فالتر ماتيرن الحجر المربع إلى مكانه وسط ألواح الأرضية. ونفض الصديقان التراب بعضهما عن بعض

تغيير وردية لدى شركة براوكسل وشركاه: بماذا سيعود علينا التحول الاقتصادي الكبير ما بين الرابع والخامس من فبراير القادم. يبدي أورانوس معارضة غير محددة في وقت برج الدلو، لكن نبتون يكمل المربع. هناك موضوعان أكثر من حرجين! هل سنتحمل أو هل سيتحمل براوكسل التغيير الاقتصادي الكبير بدون أضرار؟ وهل سيمكن الانتهاء من كتابة هذا المخطوط عن فالتر ماتيرن والكلبة سنتا والفايكسل وإدوارد أمزل وفزاعاته. يريد براوكسل الذي يكتب هذه السطور، برغم الموضوعين الحرجين، أن يتجنب هذه النغمة المنذرة بنهاية العالم وأن يكتب الأحداث التالية برزانة؛ بالرغم من أن حرق فزاعاته يعد شيئا قريبا من نهاية العالم.

تغيير وردية لدى شركة براوكسل وشركاه: بعدما ينفض إدوارد أمزل وفالتر ماتيرن التراب بعضهما عن بعض، يذهبان عبر حارة الكاتر هابطين ثم يصعدان اللاستاديه. ثم يمشيان بطول حارة الأنكرشميدر. تقع العوامة الجديدة لاتحاد التجديف لطلبة المدارس خلف مكتب التوفير البريدي. ترفع القوارب على

الحوامل. ينتظران حتى إغلاق جسر البقر ويبصقان عدة مرات من فوق الجسر في نهر الموتلاو أثناء سيرهما. نعيق النوارس. عربات تجرها الخيول تسير على أرضية من عروق الخشب. تدور براميل البيرة على الأرض، يتكئ حمال مخمور على حمال فائق ويرغب بشدة في الرنجة المملحة... «تراهني. تراهن!» عبر شبايشرإنزل، «إريش كاركوتش»: دقيق، تقاو، بقول؛ محل «فيشر ونيكل»: سيور الماكينات، منتجات الأسبستوس، يعبران أرصفة السكة الحديد، بقايا كرنب، وندف من ألياف الكابوك. يقفان عند محل أويجن فلاكوفسكي لأدوات السراجة ولصق ورق الحائط: كور من عشب البحر وألياف القنب الهندي وألياف الجوت وشعر الخيل ولفافات من قماش الخيام وحلقات من البورسيلين وحزم من الخيوط وخرج القماش، خرج القماش! يسيران بالعرض عبر بول الخيل بحارة المونشنغاسه عبر الموتلاو الجديد. يصعدان طريق الماتنبودن. ويركبان في قاطرة الترام باتجاه هويبوده، ولكن فقط حتى بوابة لانغارتر ويصلان في الوقت المناسب إلى محطة القطار الإقليمي الذي يفوح برائحة الزبد وخثارة اللبن والذي يصفر بسرعة عند مروره ببطء في المنحنى ويتجه إلى الجزيرة. ما يزال إدوارد أمزل محتفظا بزر فارس الدراكون النابليوني ساخنا في جيبه.

لم يتحدث الصديقان بعد ذلك عن الهيكل العظمي أسفل كنيسة الثالوث المقدس، لقد بقيا إخوة دم رغم رأس الميت وكلمة «كوهين». ولكن ذات مرة وقف الصديقان في حارة الميلشكاننغاسه بين محل الأدوات الرياضية دويتشندورف وأحد فروع محل فاتينات لمنتجات الألبان أمام نافذة عرض بها سناجب ونموس وبوم وديوك غابات أثناء التعشير كلها محنطة وكذلك كان هناك نسر محنط وهو يرفرف بجناحه ويمسك بمخالبه حملا محنطا. وقف الصديقان أمام نافذة عرض تتدرج أرففها من أعلى لأسفل حتى تلتصق بزجاج النافذة، كانت هناك مصايد للفئران ومصايد للثعالب وعبوات من بودرة المبيدات الحشرية، وأكياس من مبيدات العث والناموس والصراصير وسم الفئران، كانت هناك عدد للمشتغلين بإبادة الحشرات بالمنازل وكان هناك غذاء الطير وطعام الكلاب وأحواض سمك فارغة، وعلب مليئة بالذبابات وبراغيث الماء المجففة وضفادع وسمندر وثعابين في برطمانات مليئة بالكحول وفراشات رائعة تحت الزجاج وجعارين بقرون وعناكب مشعرة وحصان البحر المعتاد وهيكل عظمي لإنسان على اليمين بجانب

الرف والهيكل العظمي لقرد الشمبانزي على يسار الرف المتدرج. وعلى الدرج الأعلى للرف كانت هناك جماجم معروضة للرجل والمرأة وللشيخ وللطفل وللوليد المولود مبكرا وللوليد المشوه خلقيا. لقد وقفا أمام هذه النافذة التي تصور العالم بأكمله - بالداخل يمكن للمرء شراء كلاب صغيرة وقطط صغيرة تم إغراقها بأيدي قتلة معتمدين من الدولة. أمام نافذة العرض تلك والتي يتم تنظيفها مرتين أسبوعيا، عرض فالتر ماتيرن على صديقه دون أية مقدمات أن يشتريا بالمال المتبقي في الكيس الجلدي إحدى هذه الجماجم وأن يستخدمها أمزل في صنع فزاعاته. أشار أمزل بالرفض وأكد باقتضاب، ليس باقتضاب المتضايق، بالأحرى باقتضاب وتعال، أن موضوع رأس الميت لم يتقادم ولم ينته من العالم ولكنه ليس ملحا للدرجة التي تجعله يشتريه بالمال المتبقي لديه: وعندما يرغب في شراء شيء، فهناك لدى المزارعين ومربي الطيور أرطال من ريش الإوز والبط والدجاج من نوعية رديئة ولكنه أرخص، لقد تراءى له أن يصنع شيئا مليئا بالتناقض: سوف يصنع فزاعة على صورة طائر عملاق - لقد ألهمته نافذة العرض المليئة بالحيوانات المحنطة وبخاصة ذاك النسر فوق الحمل.

يا لحظة الإلهام المقدسة المضحكة: يدق الملاك على الجبهة. ربات الفن بشفاه مفتوحة للتقبيل. كواكب في برج الدلو. تسقط طوبة. للبيضة صفاران. مطفأة السجائر مترعة. قطرات ماء تسقط من السطح: سليلويد. ماس كهربائي. علب للقبعات. ما الذي ينحني على الناصية: الحذاء اللامع المصقول. من الذي يدخل دون أن يطرق على الباب: باربارينا ملكة الثلج، وتماثيل الثلج. ما الذي يمكن تحنيطه: الرب وثعابين الماء والطيور. ما الذي تنتجه المناجم: فحم معادن بوتاس فزاعات ماض.

لقد نشأت هذه الفزاعة في وقت متأخر. وعلى مدار السنين تعد آخر فزاعة صنعها أمزل. لأنها تعد القطعة الأخيرة المرسومة في يوميات أمزل كتصميم كروكي ودراسة لونية تحت الأسم الساحر «الطائر الكبير بيبماتز». لم يكن هذا الاسم من اختراع أمزل بل من اختراع المراكبي كريفه حسبما تفيد بذلك الملحوظة المدونة في اليوميات المحفوظة بخزنة أمزل ليومنا هذا. ورد في اليوميات ما يفيد بالتالي تقريبا: تدهن خرق بالزفت أو بالقطران. ويلصق بهذه الخرق المدهونة قطران وزفت ريش طيور من الخارج وإن كان هناك ريش كاف، يمكن لصقه

أيضا من الداخل. ولكن بطريقة مصطنعة، غير طبيعية.

حينما وقف الطائر الكبير بيبماتز على السد لافتا للانتباه بقامته التي تعلو قامة رجل، انتصب ريشه المدهون قطرانا وزفتا بصورة غير طبيعية. لقد كان مرعبا. هربت نساء الصيادين الحاذقات، لأنهن قلن إنه يمكن للواحدة منهن إذا نظرت عن غير قصد إلى ذاك الوحش أن تصاب بورم في العنق أو تتحجر إحدى عينيها أو أن تجهض. بقي الرجال ثابتين في أماكنهم لكن غلايينهم انطفأت. وقال يوهان ليكفيت: «لا أتمنى أن يهديني أحد وحشا كهذا».

وكان من الصعب إيجاد مشتر للطائر، مع أنه لم يكن غالي الثمن رغم القطران والريش. وقف وحيدا مواجها السماء على سد نيكلسفالده قبل الظهيرة. ولم يأت أحد حتى عاد التلميذان راكبا المواصلات من المدينة، حينئذ مر البعض على سبيل الصدفة بطول السد ولكن على مسافة مناسبة وعاينوه وكونوا رأيهم، ثم ماطلوا ولم يريدوا الشراء. لم تكن هناك نوارس تحت السماء الخالية من الغيوم. انتقلت فئران السد من جحورها إلى مكان آخر. لم يعد بإمكان الفايكسل أن يصنع منحنىً نهريا، رغم أنه كان يفعل ذلك في العادة. انتشرت جعارين مايو في كل مكان، عدا في نيكلسفالده. وعندما ضحك الاستاذ أولشفسكي، الذي نعت نفسه بالإنسان المتنور، بصوت عال معربا عن رغبته في شراء الطائر من أجل التسلية وليس لحماية حديقة منزله ذات العشرين مترا مربعا، كان لا بد من بخس ثمن الطائر الكبير بيبماتز إلى سعر أدنى بكثير من السعر المحدد. وتم نقله على عربة اليد الخاصة بأولشفسكي.

وقف الوحش طوال أسبوعين في حديقة المنزل وألقى بظلاله على بيت المدرس المدهون بالأبيض. ولم يجرؤ أي طائر على أن يحرك ساكنا. ونفشت ريح البحر الريش المقطرن. أصيبت القطط بحالة هيستيرية وغادرت القرية. قام التلاميذ بتغيير طريقهم إلى المدرسة كي لا يمروا على بيبماتز وكانوا يحلمون أحلاما مفزعة ويبللون الملاءات ويصحون صارخين فزعا وقد ابيضّت أناملهم. وأُصيبت هيدفيغ لاو بالتهاب أسوأ في اللوزتين وأُصيبت فوق ذلك بنزيف مفاجئ من الأنف. وقفزت قطعة من الخشب في عين فولشرت العجوز أثناء تقطيعه الحطب. ولم تتحسن حالته لمدة طويلة. وعندما انكفأت الجدة ماتيرن على وجهها في وسط حظيرة الدجاج، قال الكثيرون إن هذا من تأثير الطائر الكبير؛ إضافة

إلى أن الدجاج كان يحمل بمنقاره قشا منذ عدة أسابيع وكذلك فعل الديك: وذلك ينذر دائما بحالة وفاة. وكل من ببيت الطحان وأولهم لورشن المسكينة قد استمعوا إلى سوسة الخشب، إلى ساعة الموت. لقد أدركت الجدة ماتيرن كل هذه العلامات المنذرة وطلبت لنفسها طقوس الموت. وماتت مزودة بطقوس الموت بين الدجاج الناقل للقش بمناقيره. في نعشها بدت هادئة مسالمة. لقد ارتدت قفازا أبيض وأمسكت بين أصابعها المضمومة منديلا من الدانتيلا معطرا باللافندر. وهذا العطر قد فاح كما هو معتاد. للأسف نسوا أن يسحبوا مشابك الشعر من رأسها، قبل إغلاق النعش ووضعه في التربة الكاثوليكية. وإلى هذا السهو يرجع سبب الصداع الموخز الذي أصاب زوجة الطحان ماتيرن، واسم ميلادها شتانغه، بعد الدفن مباشرة ولم يفارقها مطلقا منذ ذلك الحين.

عندما رقدت الجثة مسجاة في الغرفة المعلقة وازدحم الناس بالملابس المنشاة في المطبخ وعلى السلم المؤدي إلى الغرفة المعلقة وقالوا عن الجثة «لم تعد تأكل الآن»، «الآن لم تعد تثرثر»، «الآن عندها كل حاجة وسترتاح الراحة الأبدية»، طلب المراكبي كريفه الإذن في أن تلمس سبابة الميت اليمنى أحد أسنانه القليلة الباقية والتي كانت تؤلمه منذ أيام وتنز صديدا. الطحان الجالس بين النافذة والكرسي ذي المسند والذي بدا غريبا جدا في زيه الأسود دون زكيبته ودون دودة الدقيق، أومأ ببطء موافقا. وفي جلسته هذه لم يكن معرضا لتغير الضوء حيث إن الطاحونة الجديدة لم تبدأ عملها بعد. تم سحب القفاز الأيمن من يد الجدة ماتيرن ومرر كريفه السن المصابة على قمة سبابتها المحنية: أيتها اللحظة المقدسة المضحكة للشفاء المعجز: الملاك يطرق، يضع يده على، ويمسح على الأصابع المعقودة. دم سلحفاة عيون غربان حليب مهرة. في الليالي الاثنتي عشرة، ثلاث مرات على الكتف اليسرى وسبع مرات باتجاه الشرق. مشابك شعر. شعر العورة. زغب القفا. النبش في القبور، نثر في الريح، شرب ماء غُسل الميت، صبه على العتبة، وحيدا بالليل، قبل صياح الديك في يوم القديس متى. سم من دحريج القمح. ودهن طفل حديث الولادة. عرق الميت. كفن الميت. إصبع الميت: لأنه من المفترض وفقا للخرافة التي يعتقد فيها بشدة عن شفاء إصبع الموتى لآلام الأسنان، أن يكون الصديد الموجود في سنة كريفه قد انحسر وأن يكون الألم أيضا قد خف وراح عند تلامس السنة مع السبابة اليمنى المحنية للجدة ماتيرن الميتة.

عندما حُمل النعش من المنزل مارا بضيعة فولشرت ثم بيت المعلم ذي الحديقة الصغيرة، تعثر أحد حاملي النعش لأن الطائر بيبماتز كان ما يزال واقفا بهيئته المرعبة في حديقة المعلم. التعثر له معنى. التعثر علامة موحية. كان تعثر حامل النعش هو النقطة الفاصلة. قدم المزارعون والصيادون عريضة احتجاج إلى الأستاذ أولشفسكي وهددوا بتقديم عريضة أكثر صرامة إلى مجلس المدرسة.

في يوم الاثنين التالي، عندما عاد أمزل وفالتر ماتيرن بالقطار من المدرسة، انتظرهما الأستاذ أولشفسكي عند جسر مرسى شيفنهورست. وقف مرتديا بنطلون نيكرز وجاكيتا رياضيا بكاروهات عريضة وحذاء من الكتان وقبعة من القش. وبينما كان القطار ينتقل من المعدية إلى القضبان، تحدث إلى الاثنين مؤيدا بالمركبي كريفه. قال إن الاحتفاظ بالطائر لم يعد ممكنا، لأن بعض أولياء الأمور قد اشتكوا وينوون كتابة شكوى إلى مجلس المدرسة وقد قيل إن رياحا هبت على تيغنهوف، بالطبع تلعب الخرافة دورا ما، وهم يعزون كذلك وفاة المأسوف عليها الجدة ماتيرن إلى الطائر وهي «إمرأة فاضلة»، كل ذلك يحدث في القرن العشرين المتنور، لكن أحدا لا يستطيع الوقوف هنا في قرى الفايكسل ضد التيار، هذه هي الحقيقة. ورغم جمال منظر الفزاعة، فإنها تعد بالنسبة لسكان قرية ما ولا سيما سكان قرية بالجزيرة شيئا لا يستطيعون استيعابه.

قال الأستاذ أولشفسكي حرفيا لتلميذه السابق إدوارد أمزل: «يا بني، إنك تذهب الآن إلى المدرسة الثانوية وقد اتخذت خطوة واسعة باتجاه العالم الكبير. وستكون القرية من الآن فصاعدا مكانا ضيقا بالنسبة لك. فليحفظك اجتهادك والجانب الفني بداخلك، ذلك الذي يطلقون عليه الموهبة الربانية، خارج هذه القرية. أما هنا فلا تكترث كثيرا. إنك تعرف، إنني أريد بك خيرا.»

وفي اليوم التالي اتخذت الأمور طابعا أُخرويا: قام أمزل بالتخلص من مقتنياته بمخزن فولشرت. أي أن فالتر ماتيرن قد فتح قفل المخزن والمدهش أن كثيرين تطوعوا لإخراج مواد صانع الزركشات - هكذا يطلقون على أمزل في القرى - إلى الهواء الطلق: أربع فزاعات بدأ في صنعها وحزمة من ألواح خشب السقف وعيدان الزهور. وقد مُزعت ألياف الكابوك وقذفت المرتبات بعشب البحر. وخرج شعر الخيل من وسادات الكنبة. خوذة المشاة والباروكة الألونج الرجالي من القرنين السابع عشر والثامن عشر من كرامبيتس وقبعة الشاكة

الاسطوانية ذات الريشة وقلنسوة البوكية والقبعات المزينة بالريش، وقلنسوات الفراشة وقبعات من اللباد والقش والفيلور والقبعة الكلابريزية وقبعة ولنجتون التي تبرع بها آل تيده من غروس-تسوندر، وكل ما كان مخصصا لحماية الرأس تجول من رأس إلى رأس من غسق المخزن إلى الشمس المشرقة بلون عسلي خارجه: «صانع الزركشات، صانع الزركشات!» اندلق من صندوق أمزل، الذي قد تصيب محتوياته مئات من مهووسي النظام بالجنون، قماش مكشكش وترتر وخرز وجدائل من القصب وسحب من الدانتيلا وحبال الكنب وبمبونات حريرية لها عبق القرنفل. وكل ما له أيدٍ وأرجل وأراد مساعدة صانع الزركشات، أخذ يلبس ويخلع ويلقي بالملابس على الكومة: جوبيات وجواكت وبنطلونات، ومعاطف ليتيفكا لها خضار الضفدع. أهدى مندوب متجول لأحد معامل الألبان لأمزل سترة جندي زواوي وجيليه أزرق بلون البرقوق. ها ها، الكورسيت، الكورسيت! التف اثنان في معطف بلوشر. ورقصت عرائس بحماس في فساتين العرس المعطرة باللافندر. وكان للقميص لون أخضر صارخ كخضار الزيزفون. فرو اليدين كرة. فئران صغيرة مرتدية عباءات. ثقوب بالأركان. بدون ياقات، ياقات القساوسة الإنجيليين ورباط الجوارب. زهور بنفسج من القماش، زنابق شمعية، وورود من الورق، نيشان عيد الرماة، رخص كلاب، زهور بنسيه، وحمات مصنوعة بالماكياج، أشرطة الزينة. «صانع الزركشات، صانع الزركشات!» ومن ناسبه الحذاء أو لم يناسبه، ارتدى أو حشر الصندل أو أية أحذية أو أبواط ومشى بأحذية القرون الوسطى المدببة عبر ستائر بنية بلون التبغ، أو قفز بلا حذاء ولكن بجوارب جلدية عبر الستائر الخاصة بكونتيسة أو أميرة أو ملكة. كانت هناك أكوام من الملابس البروسية والكويافية والدانتسغية: يا له من عيد وسط نباتات بنات النار خلف مخزن فولشرت: «صانع الزركشات، صانع الزركشات». وفوق كل هذه الأكوام وقف مرتكزا على عيدان الفاصوليا مدهونا بالزفت والقطران، ذلك الطائر الكبير بيبماتز، بعل، مثير القلاقل، مفزع الأطفال.

سطعت الشمس عمودية تقريبا. واشتعلت النار من يد كريفه وبقداحة كريفه حول الطائر. رجع الجميع بضع خطوات إلى الوراء. لكنهم بقوا وأرادوا أن يكونوا شهودا للمحرقة الكبرى. وبينما يحاول فالتر ماتيرن، كعادته في الأحداث الرسمية، أن يعلو بصوت صرير أسنانه المجرد على هسيس النار، يقف إدوارد

أمزل المسمى بـ «صانع الزركشات» والذي كانوا ينادونه من وقت لأخر أثناء المحرقة المضحكة «كوهين»، على ساقيه المنمشتين غير مبال ويدعك بحماس كفيه المبطنتين ويزر بعينيه الصغيرتين ويرى شيئا ما. لم يمنعه الدخان الأخضر المصفر ولا الجلد المحترق ولا الشرارات الملتهبة أو طيران حشرات العث من التوقف عن النظر بحدة عبر النار، بل لقد ألهمته ألسنة لهب الطائر المحترق الذي أخذ دخانه يتداعى زاحفا على نباتات بنات النار بأفكار نابضة بالحيوية وأشياء رائعة. لأنه كما قام الطائر المشتعل المخلوق من الخرق والقطران والريش، بأقصى حيويته بآخر محاولة للطيران وتداعى منهارا، قرر أمزل في يومياته أن يتناول فكرة الطائر بيبماتز مرة أخرى عندما يكبر: يريد أن يصنع طائرا كبيرا يلتهب ويشتعل ويطلق الشرر دوما، لكنه لا يحترق، بل يظل أبدا مشتعلا، بطبيعته وطابعه الأُخروي والجمالي، يظل يلتهب ويشتعل ويطلق الشرر.

الوردية الصباحية السادسة والعشرون

يقرر براوكسل، قبل الرابع من فبراير بأيام قليلة وقبل أن تتشكك الساعة الفلكية الحرجة في وجود هذا العالم، أن يثري عرض بضاعته أو جحيمه بموديل إضافي: يريد صنع الكائن دائم الاشتعال الذي تفتقت عنه قريحة أمزل في صورة طائر. فالعالم ليس غنيا بالأفكار للدرجة التي تجعل المرء يتنازل بيأس عن واحدة من أروع الخطرات، حتى ولو كانت نهاية العالم بعد ورديات صباحية قليلة، لا سيما وأن إدوارد أمزل قد قام بعد المحرقة التي تمت خلف مخزن فولشرت، بتقديم مثال على مسلك الزاهد بأن قام بالمساعدة في إطفاء الحريق الذي نشب في مخزن فولشرت بفعل تطاير الشرر.

وبعد أسابيع قليلة من المحرقة العمومية لمخزون أمزل ولآخر موديل من فزاعاته، بعد الحريق الذي قد أشعل، كما رأينا، في رأس أمزل لهيبا ونارا لا يمكن إخمادهما، تلقى كل من الأرملة لوتشن أمزل واسم ميلادها تيده والسيد أنطون ماتيرن الطحان بنيكلسفالده خطابات زرقاء، احتوت على اليوم والساعة المحددين للمقابلة الشخصية مع السيد الدكتور باتكه مدير المدرسة في حجرته بمدرسة القديس يوحنا الثانوية.

سافرت الأرملة أمزل والطحان ماتيرن بالقطار الإقليمي نفسه إلى المدينة وقد

جلسا طوال الرحلة معا على مقاعد بجوار النافذة. وعند بوابة لانغارتر أخذا الترام إلى محطة الميلشكانبروكه. ولأنهما قد وصلا مبكرا، استطاعا أن ينجزا بعض الأشغال. كان عليها أن تذهب إلى شركة هان ولوشل وبعدها إلى شركة هاوبولد ولانزر؛ وكان عليه أن يذهب بشأن الطاحونة الجديدة إلى شركة البناء بروخنوف في حارة أديبارغاسه. ثم تقابلا في لانغن ماركت وتناولا مشروبا لدى محل "شبرنغر"، ثم أخذا، رغم استطاعتهما سير هذه المسافة على الأقدام، تاكسيا ووصلا مبكرا إلى حارة الفلايشر.

ولكي نذكر زمنا دون كسور سنقول إنه كان عليهما أن ينتظرا عشر دقائق كاملة في صالة الانتظار الخاصة بـ د. رازموس باتكه، حتى خرج عليهما مدير المدرسة في صالة الانتظار، متزنا، بلا نظارات، وقد ارتدى حذاءً رماديا فاتحا وملابس رياضية. ثم دعا الاثنين إلى غرفته وحينما لم يجرؤ القادمان من الريف على الجلوس على المقاعد الوثيرة، قال لهما ببساطة: «تفضلا بالجلوس بدون تكليف. أنا سعيد جدا بالتعرف على أولياء أمور تلميذين من التلاميذ الواعدين لدينا».

ثلاثة حوائط مليئة بالكتب وحائط عبارة عن نافذة. كان لتبغ غليونه رائحة إنجليزية. تبرم شوبنهاور بين أرفف الكتب، لأن شوبنهاور... كوب ماء، جرة ماء، منظف الغليون على المكتب ذي اللون الأحمر القاني المغطى بلباد أخضر. أربع أيدٍ حائرة على مساند المقاعد الجلدية المبطنة. أولى الطحان ماتيرن للمدير أذنه الظاهرة وليس أذنه التي تستمع إلى سوس الدقيق. أومأت الأرملة أمزل بعد كل جملة فرعية للمدير الذي تحدث بطلاقة. وقد تحدثوا أول ما تحدثوا عن الأحوال الاقتصادية في الريف، أي التعديل المتوقع الذي سيحدث في السوق نظرا لتطبيق قوانين الجمارك البولندية ومشاكل معامل الجبن والألبان في الجزيرة الكبيرة. ثم تحدثوا عن الجزيرة الكبيرة بشكل عام وبخاصة عن حقول القمح المرفرفة المتمايلة مع الريح؛ وعن مزايا القمح الإيبي والقمح السيبيري المتحمل لقسوة الشتاء، ومكافحة آفة دحريج القمح - «الجزيرة أرض واسعة ومبروكة، طبعا طبعا...». ثم قال د. رازموس باتكه: هذان التلميذان النجيبان، رغم اختلاف مواهبهما - الصغير أمزل لديه القدرة على استيعاب كل شيء بسهولة، وإنه لمن المؤثر رؤية الصغير ماتيرن وهو يدافع عن صديقه من مداعبات الزملاء غير الشريرة بالتأكيد

- تلميذان على هذه الدرجة من الإبداع وصديقان، الخلاصة أن السفر الطويل بالقطار يحول دون إتاحة الفرصة لهذين التلميذين اللذين يستحقان الدعم والتشجيع، لتفتيح طاقتيهما الكاملة. وهو بوصفه مدير المدرسة ولخبرته الطويلة مع التلاميذ راكبي المواصلات، يقترح لذلك نقل التلميذين ابتداء من الاثنين القادم إلى مدرسة أخرى. فثانوية كونراد في لانغفور، ومديرها صديق قديم له ويعرف بالأمر وهو متفق معه على ذلك، بها نُزل للتلاميذ، ويقيم بها عدد كبير من تلاميذ الداخلي ويستطيعون الأكل والشرب بها مقابل مبلغ معقول. تتكسب المدرسة من مؤسسة شرفية. وخلاصة القول أن كلاهما سيتمتعان بعناية طيبة هناك وليس باستطاعته باعتباره مديرا للمدرسة إلا أن ينصح بذلك.

وهكذا يستبدل إدوارد أمزل وفالتر ماتيرن يوم الاثنين التالي الطاقية القطيفة الخضراء لثانوية القديس يوحنا مقابل الطاقية الحمراء لثانوية الكونراديوم. بواسطة القطار الإقليمي غادر التلميذان مع حقائبهما مصب الفايكسل والجزيرة الكبيرة والسدود من أفق إلى أفق وأشجار حور نابليون ومعامل تدخين الأسماك ومعدية كريفه والطاحونة الجديدة بالمنصب الجديد وثعابين الماء ما بين الصفصافات والأبقار والأم والأب ولورشن المسكينة والمينونيين الأجلاف والرقاة وفولشرت وكابرون وليكفيت ومومبر ولورمان وكارفايزه والأستاذ أولشفسكي وشبح الجدة ماتيرن، الذي يجوب البيت لأنهم نسوا أن يصبوا ماء غسل الجثمان على عتبة البيت على شكل صليب.

الوردية الصباحية السابعة والعشرون

أبناء المزارعين الكبار وأبناء ملاك الضياع وأبناء الأشراف الريفيين ذوي المديونية القليلة في غرب بروسيا وأبناء أصحاب قمائن الطوب الكاشوبيين، ابن الصيدلي في نويتايش وابن الواعظ في هوهنشتاين وابن عضو المجلس البلدي عن شتوبلاو، وهايني كادلوبيك من أورتشوكن وبروبست القصير من شونفارلنغ والأخوان ديك من لادهكوب وبوب ايلرز من كفاتشين وورودي كيزاو من شتراشين وفالديمار بوراو من برانغشين وديرك هاينريش فون بيلتس - شتيلوفسكي من كالداو على نهير الكالداو؛ أي أبناء الفقراء والأشراف والمزارعين والوعاظ أصبحوا تلاميذ داخلين بنزل التلاميذ الكائن بجانب ثانوية كونراد، لم يدخلوه

جميعا في الوقت نفسه، ولكن معظمهم دخل بعد عيد الفصح بقليل. لقد ظلت المدرسة الثانوية لعقود طويلة مؤسسة تعليمية خاصة بمساعدة المؤسسة الكونرادية، لكن عندما انضم فالتر ماتيرن وإدوارد أمزل إلى تلاميذ المدرسة الكونرادية، قدمت مدينة دانتسيغ منحا سخية. ولذلك كان لا بد من تسمية ثانوية كونراد، مدرسة دانتسيغ الثانوية. أما نزل التلاميذ فلم يتبع المدينة، بل ظل ملكية خاصة للمؤسسة الكونرادية وموضوعا لهباتها المالية.

عنبر النوم لتلاميذ الصف الأول والثاني والثالث الثانوي ويسمونه أيضا عنبر النوم الصغير، يقع في الدور الأرضي على أرض مستوية وكانت له نوافذ تطل على حديقة المدرسة، أي باتجاه أشجار التوت الشوكي. ودائما كان هناك من يتبول في فراشه. وبمرور الوقت أصبح للعنبر رائحة المراتب المحشوة بأعشاب البحر. ونام الصديقان على سريرين متجاورين تحت مقياس زيتي يبين بوابة الونش والمرصد والجسر الطويل عند طفو الجليد في الشتاء. لم يبلل الصديقان سريريهما مطلقا أو ندر أن حدث ذلك. استقبال الجدد، محاولة تلطيخ مؤخرة أمزل بورنيش أسود، ردها فالتر ماتيرن في غمضة عين. في حوش الفسحة وقف الاثنان تحت شجرة الكستناء نفسها بعيدا عن الأخرين. وعلى كل حال فقد سمحا لبروبست القصير ولهايني كادلوبيك ابن تاجر فحم، بالتنصت، عندما كان إدوارد أمزل يوسع من مفردات لغته السرية ويسمي المحيط الاجتماعي الجديد بأسماء جديدة، بينما يستمع إليه فالتر ماتيرن طويلا بصمت وقتامة موجها نظرته إلى الأمام.

«رويطلا انه ال ينبجعت اريثك»

الطيور هنا لا تعجني كثيرا

«ريفاصعلا يف تنيدملا تسيل لثم ريفاصعلا يف فيرلا»

العصافير في المدينة ليست مثل العصافير في الريف

«دارودإ لزمأ ملكتي سكعلاب»

وقد استطاع دون عناء وبطلاقة أن يقلب جملا طويلة وقصيرة، كلمة بكلمة، بل وكان على استعداد أن يضفي على اللغة المقلوبة الجديدة لكنة أهل الجزيرة: جمجمة الميت تحولت إلى تيملا تمجمج. السين ذات اللثغة والشين الثقيلة خففها بلسان مفرود. وفهم فالتر ماتيرن فحوى كلامه وأجاب أيضا إجابات قصيرة

مقلوبة وغالبا بلا أخطاء: «نعمل كذا - لمعن اذك!» وكان أمزل دائما يقرر: «ال وأ معن» اندهش الصغير بروبست. لم يكن هايني كادلوبيك وينادونه «كيبوداك» سيئا في تقليد الكلام المقلوب.

كثير من الاختراعات المناظرة لفنون أمزل اللغوية، نشأت في أفنية الفسح، ثم طواها النسيان من بعد. في النهاية يقوم العجائز بطابعهم الطفولي بجد بالنبش في الذكريات أثناء جلوسهم في الحدائق العامة التي أصبحت نظيرا لأفنية الفسح ويقومون بتطوير الاختراعات القديمة. عندما ذهب الرب إلى المدرسة، خطرت له فكرة خلق العالم في فناء الفسحة السماوي، وكان معه صديق دراسة آخر هو الشيطان الصغير الموهوب. من المفترض أن تكون نهاية العالم في الرابع من فبراير، قرأ براوكسل ذلك في كثير من الصفحات الفنية بالصحف، وهذا ما تقرر في أفنية المدارس.

إضافة إلى ذلك هناك شيء مشترك بين أفنية الفسح وحظائر الدجاج: فالخيلاء التي يمشي بها ديك الحظيرة تشبه الخيلاء التي يمشي بها المعلم القائم بالرقابة على الحوش. فالديوك تضع أيديها أيضا وراء ظهورها أثناء السير وتنعطف فجأة وتنظر نظرة عقابية بعضها إلى بعض.

يصنع الأستاذ أوزفالد برونيس هنا معروفا جليا في مؤلف تشبيه حظيرة الديوك والدجاج، بقيامه بالرقابة على الفناء. لقد نوى مؤلفو هذا الكتاب أن يصنعوا له نصبا تذكاريا: فبعد كل تسع خطوات ينبش حصى الفناء بمقدمة حذائه الأيسر؛ ويزيد في الحفر ويثني ساق المعلم - عادة لها أهميتها - فالأستاذ أوزفالد برونيس يبحث عن شيء ما: ليس عن الذهب ولا عن قلب ولا عن السعادة أو الرب أو المجد، يبحث عن أحجار صغيرة نادرة. يلمع فناء الفسحة المفروش بالحصى.

والعجيب هو عندما يأتي إليه التلاميذ أحيانا واحدا تلو الآخر وأحيانا اثنان معا ويقدموا له بجد أو بمزاح التلاميذ حصيات عادية أخذوها من الأرض. الأستاذ أوزفالد برونيس يأخذ كل الحصيات أيا كانت بين سبابة وإبهام يده اليسرى وينظر إليها في الضوء، ثم يسحب بيده اليمنى عدسة مثبتة برباط مطاطي من الجيب الصدري الصغير لسترته السوداء بلون فحم المستنقعات والتي تلمع في بعض المواضع ويحرك العدسة المربوطة بالمطاط المطاوع بحرفة بين الحجر والعين

ويترك العدسة بعد ذلك تعود إلى جيبه الصدري الصغير بثقة تامة في الرباط المطاطي، ثم يكون الحجر الصغير في كفه اليسرى ويتركه يدور في دائرة محدودة القطر ثم يتسع قطر الدائرة أكثر وأكثر حتى يصل إلى حافة باطن اليد. يعلن رفضه للحجر بأن يضرب باليد اليمنى أسفل اليد اليسرى. ثم يقول «جميل ولكن لا قيمة له»، ثم يغرف باليد نفسها التي أدارت الحجر الذي لا قيمة له في كيس بني مكرمش، سيخرج هذا الكيس كثيرا من الجيب الجانبي لسترة الأستاذ، طالما كان الحديث هنا عنه. وبأسلوب مزخرف، مثلما يفعل القساوسة أثناء القداس، يقود قرص السعال بطعم الشعير من الكيس الورقي إلى فمه: يمصه بفرح، ويستحلبه ويصغره ويترك عصيره ينساب بين الأسنان البنية من أثر التبغ. وينقله من ناحية إلى ناحية ويترك قرص السعال يصغر ويصير أكثر زجاجية في فمه، بينما تتقلص الفسحة ويزداد الخوف من نهاية الفسحة في دواخل التلاميذ، بينما تنشد العصافير فوق شجرة الكستناء انتهاء الفسحة وبينما يتجول الأستاذ برونيس متبخترا في الفناء وينبش في حصى الحوش ويرفض الحجارة التي لا قيمة لها.

فسحة صغيرة، فسحة كبيرة. ألعاب الفسح، التهامس في الفسح. طعام الفسح وانعدام الفسح: الخوف، يقول براوكسل: سيدق الجرس حالا...

أفنية الفسح الخالية التي هي ملك للعصافير. مشهد تحريك الريح لورقة السندوتش في فناء فسحة خال وحزين ومفروش بالرمل لمدرسة ثانوية بروسية إنسانية، يعد مشهدا مكرورا وتمت رؤيته وتصويره كثيرا.

كان فناء فسحة الكونراديوم مكونا من فناء فسحة صغير مربع تظلله بغير انتظام، أشجار كستناء عجوز، تحولت إلى غابة كستناء منيرة ويحد الفناء الصغير من اليسار فناء الفسحة الكبير غير المسور والذي يحتوي على أشجار زيزفون صغيرة تستند إلى عيدان خشبية على مسافات منتظمة. وتشكل صالة الجمباز المصممة على الطراز القوطي الحديث والمبولة المصممة بالطراز نفسه ومبنى المدرسة القوطي الحديث المكون من أربعة طوابق والمزود ببرج أجراس بلا أجراس، بطوبه الأحمر واللبلاب الذي يتسلقه، الجوانب الثلاثة لفناء المدرسة الصغير وتحمي هذه المباني الفناء الصغير من الريح، التي تهب على الفناء الكبير، وتملأه بأكياس من التراب من الناحية الشرقية، حيث إنه ليس هناك ما يعصم الفناء الكبير من الريح سوى حديقة المدرسة الواطئة بسورها السلكي الشبكي ومبنى نزل التلاميذ المصمم

أيضا على الطراز القوطي. وقد كان الفناء الكبير ملعبا رياضيا أثناء حصص الألعاب، حتى بنوا بعد ذلك ملعبا رياضيا حديثا بمضمار ونجيل. ما يجدر ذكره هنا أيضا ذلك القائم الخشبي الموجود بين شجيرات الزيزفون وسور حديقة المدرسة حيث تعلق فيه العجلات الأمامية للدراجات. لعبة صغيرة: بمجرد إدارة العجلات الأمامية المرفوعة بضربة يد يتحرر الحصى، العالق بإطار الدرجة من جراء السير عبر الفناء الكبير، ويصدر خشخشة عند سقوطه وسط شجيرات التوت الشوكي الموجودة خلف السور السلكي الشبكي لحديقة المدرسة.

من كان عليه أن يلعب كرة يد أو كرة قدم أو الكرة الشعبية أو كرة القبضة أو حتى كرة المضرب الجلدية على ملعب رياضي مفروش بالحصى، سوف يتذكر بعد ذلك بمجرد وطئه للحصى كل جروح الركبة، هذه الخدوش التي يصعب مداواتها والتي تكتسب قشورا جافة، وسيطلق على كل الملاعب، ملاعب مشربة بالدماء. أشياء قليلة في هذا العالم تستطيع أن تترك بصماتها للأبد مثلما يفعل الحصى.

ولكن بالنسبة له هو، ديك الفناء، الأستاذ المتبختر الماص أوزفالد برونيس الذي سُيبنى له نصب تذكاري، بعدسته المربوطة بالرباط المطاطي وبكيسه اللزج في جيب السترة اللزج، بالنسبة له هو ذلك الذي كان يجمع الأحجار والأحجار الصغيرة والحصى النادر مع تفضيله للميكا - موسكوفيت يبوتيت -، وأحجار الكوارتز والصفاح والهورنبلند، ويتأملها ويرفضها أو يحتفظ بها، بالنسبة له لم يكن فناء المدرسة الكبير سببا للجروح، بل موضعا دائما للنبش بمقدمة الحذاء بعد تسع خطوات ديكية. لأن أوزفالد برونيس الذي درس تقريبا كل المواد - جغرافيا وتاريخ ولغة ألمانية ولغة لاتينية وإن لزم الأمر تربية دينية - لم يكن أبدا مرهوبا مثل مدرس التربية الرياضية بصدره المشعر وساقيه غزيرتي الشعر، بصفارة الحكم ومفتاح صالة الأجهزة الرياضية. لم يتسبب برونيس أبدا في ارتعاد أحد تلاميذه تحت العقلة أو في تألم أحدهم على قضيبي المتوازيين، أو في بكائه على أحبال التسلق الساخنة. ولم يطلب من أمزل أبدا القيام بأداء الوثبة الأمامية أو الوثبة الجانبية على حصان القفز الطويل. ولم يحدث أبدا أن دفع أمزل أو ركبة أمزل اللحيمة إلى السقوط على الحصى الحاد.

رجل في الخمسين بشارب صغير محترق بعض الشيء على الشفة العليا من

تدخين السيجار. وحواف شعر شاربه كلها مسكرة من أقراص ملبس السعال التي يلتهمها دائما. وفوق رأسه المستدير هناك قبعة من اللباد الرمادي يعلق بها دائما نبات الحسك الشائك طوال ما قبل الظهيرة. وتخرج من أُذنيه كرتان ملفلفتان من الشعر. وجه منسوج من ثنيات الضحك الكركرة والتبسم. عشش أيشندورف في حواجبه المجعدة. وتدور أغنيات دولاب الطاحونة والزملاء المدرعون والليلة الرائعة حول طاقة أنفه المتحركة دائما. والآن في زاوية الفم، أيضا عبر منبت الأنف، هناك بعض المشاركين في طعامه: حدوتة الشتاء لهاينه وكعكة سد الحنك لرابه. وإضافة إلى ذلك فهو محبوب ولا يأخذه أحد مأخذ الجد. أعزب، يرتدي قبعة بسمارك وهو المشرف على الصف الأول الثانوي، الذي يدرس به فالتر ماتيرن وإدوارد أمزل، الصديقين القادمين من مصب الفايكسل. ما زال للاثنين بعض الشيء من رائحة حظائر البقر والحليب السائل والأسماك المدخنة؛ كذلك رائحة الحريق التي علقت بشعرهما وملابسهما بعد المحرقة العمومية خلف مخزن فولشرت.

الوردية الصباحية الثامنة والعشرون

بعد تغيير الوردية في الميعاد المضبوط والمشاكل المرتبطة بسير العمل، حيث سيشكل إبرام اتفاقيات بروكسل الزراعية مشكلات في الإيراد لشركة براوكسل وشركاه- نعود إلى حصى فناء المدرسة. لقد كان وقت المدرسة مبشرا بالبهجة لكلا التلميذين. فما كادا يغادران من مدرسة القديس يوحنا إلى مدرسة كونراد الثانوية، وما كادا يتعودان على نزل التلاميذ العفنة التي تفوح بالرائحة القذرة للصبية البذيئين- من ذا الذي لا يعرف قصص من الأقسام الداخلية؟- وما كاد فناء المدرسة المفروشة بالحصى يترك فيهما علاماته، حتى أُعلن أن الصف الأول الثانوي سيذهب بعد أسبوع إلى زاسكوشين لمدة أسبوعين. وسيقوم بالإشراف عليهما الأستاذ برونيس وأستاذ التربية الرياضية مالنبرانت.

زاسكوشين! يا لها من كلمة لطيفة.

كان النزل الريفي للمدرسة في غابة زاسكوشين. وأقرب قرية كبيرة نسبيا كان اسمها مايسترفالده. إلى هناك جلب باص البريد الفصل المدرسي والأستاذين عبر شودلكاو وشتراشين-برانغشين وغروس-زالاو. قرية متناثرة الأطراف.

ميدان السوق الرملي به اتساع كاف لإقامة سوق للبهائم، وحول الميدان هناك أوتاد خشبية بها حلقات من حديد قديم من أجل ربط الدواب. بقع مائية لامعة حفرتها هبات الرياح: قبل وصول باص البريد بقليل أمطرت بغزارة. لم يكن هناك روث أبقار أو خيول ولكن كانت هناك أسراب عديدة من العصافير التي أعادت تشكيل نفسها عدة مرات وفرضت صخبها على المكان، عند مغادرة أمزل للباص. بيوت فلاحين واطئة وبعض منها مسقوف بالقش، تحيط ميدان السوق بنوافذها الصغيرة. وبالميدان كان هناك مبنى جديد غير مدهون ومتجر «هيرش»: محاريث وجرافات وقلابات للقش، كلها جديدة وتنتظر المشتري. عرائش العربات تقف متطلعة تجاه السماء. وفي الناحية المقابلة كان في المقدمة مصنع مهجور مبني بالطوب الأحمر بنوافذ مغلقة بمسامير. من المفترض أن يبدأ موسم البنجر في نهاية أكتوبر ويجلب معه الرائحة الكريهة والمكسب. الفرع المعتاد لبنك شباركاسه- دانتسيغ والكنيستين ومحل الألبان، وبقعة لونية هي صندوق البريد. أمام محل الحلاق هناك بقعة لونية أخرى: هذه اللوحة العسلية اللون من النحاس الأصفر، المعلقة باعوجاج تعطي إشارات ضوئية عند تغير الأجواء. قرية باردة بلا أشجار.

كانت مايسترفالده مثلها مثل باقي المناطق الريفية الواقعة جنوب المدينة تابعة لبلدية دانتسيغ هوهه. أرض فقيرة، إذا ما قورنت بسهل الفايكسل. البنجر، والبطاطس والشوفان البولندي غير المحمص، والشاودار الشفاف. في كل خطوة تصطدم بحجر. الفلاحون الذين يمرون عبر الحقول ينحنون بين الخطوة والخطوة ويتناولون حجرا من بين أحجار كثيرة ثم يطوحونه بغضب أعمى. ويسقط الحجر على أراض زراعية أخرى. وتتكرر هذه الحركات أيضا يوم الأحد: يسير الفلاحون بقلنسواتهم السوداء وشماسيهم المصقولة اللامعة عبر حقول البنجر ويمسكون بالشماسي في اليد اليسرى وينحنون ليلتقطوا الأحجار من الأرض ثم يقذفون بها في كل اتجاه: وتسقط الأحجار كعصافير متحجرة، لم يتمكن أي شخص من أن يصنع ضدها أية فزاعات حجرية، ولا حتى إدوارد أمزل.

إذن فهذه هي مايسترفالده: ظهور سوداء محنية ورؤوس الشماسي المهدِدة موجهة نحو السماء، يلتقطون ويقذفون، وتفسير سر هذه الأحجار الكثيرة هو ما يلي: يقال إن الشيطان حينما رفض الفلاحون أن يعطوه ما أقسموا له عليه، انتقم

من نقضهم العهد، بأن مر عبر الحقول طوال ليلة كاملة وتقيأ أرواح الملاعين الكثيرين الموجودين في معدته. وتبين أن أرواح الملعونين كانت حجارة ولا يمكن التخلص منها وعلى الفلاحين أن يلتقطوها ويقذفوا بها طوال حياتهم مهما شاخوا وانحنت قاماتهم.

كان على تلاميذ الفصل المدرسي أن يسيروا مسافة ثلاثة كيلومترات كاملة بانتظام غير صارم، يتقدمهم الأستاذ برونيس وفي المؤخرة الأستاذ مالنبرانت، ساروا أولا عبر أرض جبلية نما بها على يمين ويسار الطريق بين البذور الحجرية نباتات الشاودار المنحنية ذات الارتفاع المتوسط، ثم مشوا عبر مطلع غابة زاسكوشين، حتى أعلنت الحوائط الجيرية البيضاء خلف أشجار الزان وصولهم إلى نزل المدرسة الريفي.

هزيل، هزيل! برواكسل الذي يكتب هذه السطور، يعاني من عدم قدرته على وصف المناظر الطبيعية الخالية من البشر. لا تنقصه البدايات، لكن بمجرد أن يبدأ في وصف تلة مدورة بعض الشيء، بخضارها الغني والتدرجات اللونية للتلة التي اعتاد أدالبرت شتيفتر[١٥] وصفها، حتى الأزرق الرمادي البعيد تحت الأفق، يبدأ حينئذ، مثلما فعل الشيطان قبل ذلك، في نثر الحجارة التي لا يمكن التخلص منها حول منطقة مايسترفالده في واجهة اللوحة التي لم تتشكل بعد، ثم يضع أيضا واجهة من الشجيرات، يقول: شجيرات العرعر والبندق والرتم الأخضر اللامع والهيشر والعشبات مدورة ومخروطية ومعشوشبة بأسفل التلة وأعلاها، شجيرات هزيلة، شجيرات شوكية، شجيرات في الريح، شجيرات هامسة - لأن الريح تهب دائما في المنطقة -، ثم تلح عليه الرغبة في أن يبث الحياة في قفر شتيفتر. يقول براوكسل: وخلف الشجيرة الثالثة من الناحية اليسرى، وعلى مسافة ثلاث قفزات بالإبهام فوق البنجر الذي عمره يوم ونصف، لا، ليس غصن البندق، ويح هذه الأغصان! هناك هناك هناك بأسفل خلف الأحجار الجميلة الكبيرة المغطاة بالطحالب، على أية حال خلف الشجيرة الثالثة من الناحية اليسار، يختبئ رجل وسط المنظر الطبيعي الخالي من البشر.

---

(١٥) أدالبرت شتيفتر (١٨٠٥-١٨٦٨) كاتب نمساوي اشتهر بوصفه للمناظر الطبيعية. (مترجم)

ليس باذر الحبوب. ولا الفلاح ذى المحراث المفضل في اللوحات الزيتية. رجل في منتصف الأربعين. شاحب البشرة أسمر أسود جريء مختبئ خلف الشجيرات. أنفه معقوف، أُذناه مثل ملعقتين، بلا أسنان. هذا الرجل لديه الخاتم المسمى أنجوستري في إصبعه الصغيرة وسيكتسب أهمية في الورديات الصباحية التالية أثناء لعب الأولاد إلى كرة المضرب الجلدية ومص برونيس لأقراص ملبس السعال، لأنه يحمل صرة صغيرة معه. ماذا يوجد بهذه الصرة؟ وما اسم الرجل؟

إنه غجري يدعى بيداندنجيرو والصرة تنوح.

الوردية الصباحية التاسعة والعشرون

كرة المضرب الجلدية (الشلاجبال) كانت هي اللعبة الرياضية لتلك السنة الدراسية. قذفت في فناء المدرسة الكبير المفروش بالحصى كرة عالية وأصابت الهدف جيدا وأثناء اختراق الكرة للسماء وسقوطها يجرى جزء من الفريق القاذف بالكرة على شكل مروحة إلى عارضتي المرمى دون أن يعترضهما أحد ثم يسرعون بالرجوع ويستطيعون جمع النقاط. عمل عظيم، يقاس بتدريب ثني الركبة خمسا وخمسين مرة أو تدريب رفع الجسم على العقلة سبع عشرة مرة، واللذين كان التلاميذ يقومون بأدائهما يوميا. كانوا يلعبون كرة المضرب الجلدية قبل الظهر وبعد الظهر. وكانت هناك بعض الحصص الدراسية القليلة قبل اللعب وبعده. وقد رأى كل من فالتر ماتيرن وصديقه إدوارد أمزل وأستاذ التربية الرياضية مالنبرانت هذه اللعبة بعين مختلفة.

فبالنسبة لمالنبرانت كانت هذه اللعبة فلسفة حياة. فالتر ماتيرن كان أفضل من يجيد الكرات العالية. كان يقذف بالكرات العالية ويتلقفها بسهولة ثم يلقي بالكرة الجلدية بمجرد تلقفها إلى زميله وهذا يجلب النقاط لفريقه.

أما إدوارد أمزل فكان يتدحرج ككرة عبر الملعب كمن يتدحرج عبر المطهر. بسمنته وقصر ساقيه كان مثاليا في التطويق على اللاعبين وفي القذف بالكرة. وكان نقطة ضعف بالنسبة لفريقه، حيث يطارده أربعة لاعبين من الفريق الخصم ويطوقونه ويرقصون حوله مع الكرة الجلدية المتراقصة. كانوا يقومون بحيل رائعة فوق رأسه حتى يتمرغ منهنها في التراب ويشم رائحة الكرة الجلدية قبل أن تأتي إليه.

تنقذه الكرة فقط حينما يقذفها صديقه فالتر ماتيرن عالية، وفالتر ماتيرن لم يقذف حقيقة سوى الكرات العالية، حتى يجرؤ أمزل على اتخاذ طريقه إلى منطقة تصويب الكرة الجلدية. مع ذلك لم تبق كل الكرات العالية عالقة في السماء لوقت كاف: بعد أيام قليلة من ممارسة لعب فلسفة الحياة حسب القواعد، ازدان لحم أمزل المنمش بعدة أقمار مزرقة، لم تأفل إلا بعد وقت طويل.

وحتى في ذاك الوقت كان هناك تغيير وردية: فبعدما قضى أمزل على يسار ويمين الفايكسل طفولة لطيفة، بدأت عذابات أمزل بعيدا عن الفايكسل. ولن يكفوا عن ممارسة هذه اللعب في القريب العاجل، لأن الأستاذ مالنبرانت يعتبر خبيرا في اللعبة وقد ألف كتابا أو فصلا من كتاب عن اللعبات الألمانية الجماعية للتلاميذ، وقد كتب فيه بكل تفصيل ودون أن تفوته فائتة عن لعبة كرة المضرب الجلدية. وقال في تصديره للكتاب أن كرة المضرب الجلدية أصبحت بخصوصيتها الألمانية ندا للعبة كرة القدم التي تلعبها كل الشعوب. ثم حدد القواعد نقطة نقطة. الصفارة الواحدة تعني: الكرة ميتة. والهدف المحسوب يحدده الحكم من خلال صفارة مزدوجة. لا يجوز الجري بالكرة. وبالنسبة لأنواع الكرات: هناك الكرات العالية، والطويلة والكرات المسطحة - الركنية - القصيرة، والجارية والزاحفة وكرات التمريرات وكرات الوقوف وكرات التصويب وكرات التمرير الثلاثي. وتدور الكرة بضربات رأسية أوبضربات طويلة، بضربات مستقيمة أو بضربات بعزم اليد، ضربات مسطحة بعزم الذراع وضربات بكلتا اليدين، وفيها يجب رفع الكرة بارتفاع الكتفين قبل ضربها. ويقول مالنبرانت إنه عند تلقف الكرة العالية، يجب أن تشكل عين الشخص المتلقف للكرة ويداه المتأهبتان لتلقفها والكرة خطا واحدا. إضافة إلى ذلك، تم بناء على اقتراحه تمديد مسافة الجري إلى عوارض المرمى خمسة أمتار لتصبح خمسة وخمسين مترا، وكان ذلك سببا لشهرته. وهذا التصعيب لقواعد اللعبة الذي استشعره أمزل قد تم تطبيقه في جميع مدارس شرق ألمانيا وشمالها. كان عدوا صريحا لكرة القدم وعدّه الكثيرون كاثوليكيا متشددا. علقت صفارة الحكم المعدنية حول عنقه وعلى صدره المشعر: صفارة واحدة تعني أن الكرة ميتة. الصفارة المزدوجة تعني: أن إدوارد أمزل قد أصاب هدفا. كثير ما صفر مالنبرانت ضد الكرات العالية التي يقذفها فالتر ماتيرن لصديقه: تخطيت الخط!

ولكن الكرة العالية التالية والتالية عليها تصيبان الهدف. لكن ما بعدهما تنزلق: الكرة ضُربت من موضع غير سليم وخرجت عن الملعب لتسقط في الغابة التي تحد الملعب، لتحدث خشخشة وتمزق بعض أوراق الشجر. وعلى أثر صفارة مالنبرانت: الكرة ميتة! يهرع فالتر ماتيرن إلى السور ويعبره ثم يبحث في الطحالب والشجيرات على حافة الغابة؛ ثم يلقي إليه غصن بندق بالكرة.

يتلقفها وينظر فوقه، من أوراق الشجر المتشابكة ينمو رأس وجذع رجل. تأرجح قرط من النحاس الأصفر في أذنه اليسرى، لأنه يضحك بدون صوت. أسود شاحب أسمر. ليس لديه أسنان في فمه. بيداندنجيرو هو اسم ذاك الأهتم. ومعه صرة نائحة تحت ذراعه. ينسحب فالتر ماتيرن من الغابة، ممسكا بالكرة في يديه، وماشيا للوراء. لم يحك لأحد عن ذاك الضاحك بلا صوت خلف الأغصان. في الصباح التالي وكذلك بعد الظهيرة قذف فالتر ماتيرن عمدا الكرة خطأً لتسقط في الغابة النفضية. وحتى قبل أن يكون بإمكان مالنبرانت أن يصفر، هرع فالتر ماتيرن عبر الملعب إلى السور. لم تردّ له الشجيرات ولا أعشاب الهيشر الكرة. لقد وجد الكرة الجلدية في المرة الأولى بعد بحث طويل تحت إحدى نبتات السرخس. والكرة الثانية يقال إن نمل الغابة قد حملها إليه.

الوردية الصباحية الثلاثون

خطوط بقلم رصاص وعصافير: التظليل وترك مساحات خالية، التكاثر والانفجار.

دأب النحل دأب النمل دأب دجاج الليغهورن: سكسونيون دؤوبون، غاسلات دؤوبات.

ورديات صباحية خطابات غرامية ماتيرنيادات: براوكسل وزميلاه في الكتابة تعلموا الكتابة على يد شخص أخذ يطبل طوال حياته بدأب على صفيح لامع.

والكواكب الثمانية؟ الشمس القمر المريخ عطارد المشترى الزهرة زحل أورانوس التي يحتمل حسب الإشاعات التي نشرتها التقويمات الفلكية، أن ينضم إليها القمر الخفي ليليت. فهل كانت هذه الكواكب دؤوبة في مدارها طوال عشرين ألف سنة كي يقع اقتران الكواكب المحظور بعد غد في برج الدلو؟

لا تصيب كل الكرات العالية هدفها. لذلك لا بد من التدريب الدؤوب على

القذف المتعمد للكرات العالية المنحرفة التي تحيد عن هدفها.

صالة الرقاد عبارة عن مبنى خشبي مفتوح على الناحية الشمالية للمرج. وبها خمسة وأربعون مرقدا خشبيا وعند حافة المراقد هناك خمسة وأربعون غطاء مطويا بعناية، برائحة زاعقة وملمس شعري جاف. هذه المراقد معدة يوميا لراحة الظهيرة الخاصة بالفصل الأول الثانوي. وبعد راحة الظهيرة كان فالتر ماتيرن يتدرب على الكرات العالية شرق صالة الرقاد.

ويحيط بنُزل المدرسة الريفي وصالة الرقاد وملعب كرة المضرب الجلدية والسور السلكي الشبكي الممتد من الركن إلى الركن، من كل النواحي غابة مختلطة بها خنازير برية وحيوانات الغُرير والأفاعي وتمر عبرها حدود البلاد. لأن هذه الغابة بدأت في بولندا، بدأت عند المساحات الرملية المقفرة لمروج توخلر التي بها بعض الهيشر وأشجار الصنوبر، ثم اكتسبت عند الأرض المتعرجة للكوشنايديراي أشجار البتولا والزان مختلطة بعضها مع بعض، ثم تزحزحت إلى الشمال حيث مناخ الساحل المعتدل: نمت الغابة المختلطة على رواسب الطفل الجيري وانتهت على الساحل بوصفها غابة نفضية محضة.

أحيانا يعبر غجر الغابة الحدود من هنا إلى هناك والعكس. وكانوا لا يشكلون أي خطر ويتعيشون من أكل الأرانب البرية والقنافذ ومن أعمال السمكرة. وقد زودوا نُزل المدرسة بأنواع عش الغراب البري المختلفة. وكان حارس الغابة يحتاج إلى مساعدتهم عندما تعشش الزنابير بتجاويف جذوع الأشجار وتعوق بذلك نقل الأخشاب لأن الخيل تخاف السير عبر الغابة حينذاك. وكانوا يسمون أنفسهم غاكّوس ويخاطبون بعضهم بعضا بكلمة: مورى! ويسميهم الناس عامة مينغيش وأحيانا تسيغانكن.

وذات مرة ألقى أحد هؤلاء الغاكّوس الكرة إلى تلميذ الصف الأول الثانوي الذي أخطأت رميته طريقها وسقطت في الغابة. هذا المورى يضحك بدون صوت.

وصار تلميذ الصف الأول الثانوي يتدرب على الكرات العالية التي تحيد عن الهدف، بعد أن كان يتدرب فقط على الكرات العالية.

وتمكن التلميذ من قذف كرتين عاليتين أخطأتا هدفهما، وسقطتا في الغابة، لكن أحدا من هؤلاء المينغيش لم يلق إليه بالكرة.

أين تدرب فالتر ماتيرن على الكرات العالية والكرات العالية الخاطئة؟ عند مؤخرة صالة الرقاد باتجاه الشرق، كان هناك حمام سباحة، سبعة أمتار في سبعة أمتار، لا يستطيع أحد السباحة فيه، لأنه كان معطلا ومسدودا وبجدرانه رشح؛ على أية حال تبخر ماء المطر في المربع الخرساني المتشقق. ورغم أنه لم يكن باستطاعة التلاميذ السباحة في الحمام، كان هناك زوار آخرون، ضفادع في حجم أقراص ملبس السعال، ضفادع باردة نشطة تقفز هناك بهمة وكأنها تتدرب على القفز - ونادرا ما تأتي السلاحف الكبيرة ثقيلة الأنفاس - ولكن هناك دائما ضفادع، مؤتمر للضفادع، ضفادع فناء المدرسة، باليه للضفادع، ضفادع الملعب الرياضي، ضفادع يستطيع المرء أن ينفخها بشفاطة؛ ضفادع يستطيع المرء أن يضعها في ياقة القميص؛ ضفادع يمكن دهسها بالأقدام؛ ضفادع يمكن دسها في الأحذية. ويمكن للمرء وضع الضفادع في حساء البازلاء المحترق بعض الشيء، أو على السرير أو في دواة الحبر أو في مظروف الخطابات، ضفادع تستخدم للتدريب على الكرات العالية.

تدرب فالتر ماتيرن يوميا في حمام السباحة الجاف. وحصل على الضفادع الناعمة من مخزون لا ينفد. وفارق ثلاثون ضفدعا بلون رمادي مزرق حياتهم الباردة الشابة، عندما أصابت ضربات فالتر ماتيرن هدفها. وفي الغالب توجب على سبعة وعشرين ضفدعا بلون بني مائل للسواد تصديق ذلك، حين قلل فالتر ماتيرن من عدد مرات تدريبه. لم يكن بنيته أن يقذف بالضفادع ذات الخضار الرمادي عاليا حتى تفوق في ارتفاعها أشجار غابة زاسكوشين الساكنة أو ذات الحفيف. ولم يتدرب على مجرد إصابة الضفادع العادية بأحد مواضع المضرب الخشبي. لم يرد إتقان الكرات الطويلة أو المنبسطة أو القصيرة الخبيثة - لقد كان هايني كادلوبيك أفضل من يجيد الضربات الطويلة - لقد أراد فالتر ماتيرن أن يصيب الضفادع، بعد رفع المضرب من أسفل الجسم لأعلاه حسب قوانين، بذاك الموضع على المضرب الذي يتيح صنع كرة عالية نموذجية وعمودية تقريبا لكنها تتبع الريح. ولو كانت الكرة البنية الغامقة والتي تلمع فقط عند مواضع الخياطة بديلا عن الضفادع لكان لفالتر ماتيرن في فترة قدرها ساعة نصف في الظهيرة أن يحقق اثنتي عشرة ضربة عالية متميزة وخمس عشرة إلى ست عشرة ضربة عادية. وإحقاقا للحق لا بد أن نقول: رغم الاجتهاد والضربات العالية لم يقل عدد

الضفادع في حوض السباحة الخالي من المياه: لقد قفزت الضفادع بشكل متواتر بالطول والعرض، بينما وقف فالتر ماتيرن بينها كعزرائيل الضفادع. لم تدرك الضفادع ذلك، أو كانت واعية بكثرة عددها بحيث لم يمكن للفزع أن يستشري بين أفرادها وهذا الوعي يعد شيئا مشتركا بينها وبين العصافير.

وفي الأجواء الرطبة تواجد بحوض الموت أبراص وعظايا وسحال عادية. لكن هذه الحيوانات المتحركة لم تكن لتخاف المضرب الخشبي، لأنه كانت هناك لعبة منتشرة بين تلاميذ الصف الأول الثانوي، تنص قواعدها على قطع ذيول الأبراص والعظايا وتركها حية.

يوضع اختبار للشجاعة: يجب بلع هذه الذيول المرتعشة المثيرة للجنون، والتي تلفظها الأبراص والعظاءات عن نفسها، عندما يمسكها المرء بيده - يمكن للمرء أيضا أن يصيبها بضربة إصبع قوية - يجب بلع هذه الذيول حية وفي حالة حركة. ويمكن أيضا بلع الذيول التي تمرق مسرعة عبر ثقوب الخرسانة واحدا تلو الآخر. من يفعل ذلك يصبح بطلا. كذلك يجب بلع الذيول الثلاثة أو الخمسة المتحركة دون شرب ماء أو أكل قطعة من الخبز، ومن يأوي في بطنه ثلاثة أو خمسة ذيول لأبراص أو عظايا أو سحايا، يحظر عليه أن تظهر على وجهه علامات الاستياء. باستطاعة أمزل عمل ذلك. يدرك أمزل المطارد المعذب في لعبة كرة المضرب الجلدية، فرصة للتفوق في بلع ذيول الأبراص. ليس فقط من خلال حشوه لسبعة ذيول مارقة واحدا تلو الآخر داخل جسده البدين، بل إنه على استعداد للقيام باختبار مقابل، إذا ما وعدوه بالإعفاء من لعب كرة المضرب البغيضة بعد الظهر وأن يبقى مع مقشري البطاطس بالمطبخ. فباستطاعته بعد دقيقة من بلع الذيول السبعة أن يتقيأها دون أن يضع إصبعه في فمه بقوة الإرادة وكذلك للخوف العظيم من كرة المضرب الجلدية. اتفرج يا سلام، ما تزال هذه الذيول تلعب على الأرضية الخرسانية لحمام السباحة وسط الضفادع القافزة التي لم يقل عددها رغم تدرب فالتر ماتيرن على الكرات العالية قبل بلع أمزل للذيول، رغم ذلك تبدو هذه الذيول أقل حيوية لأن المخاط الذي سال معها يعيقها عن الحركة.

ويعجب تلاميذ الصف الأول الثانوي لذلك. ويعدون الذيول السبعة التي بُعثت من جديد ويربتون على ظهر أمزل المنمش المستدير ويعدونه بأن يتنازلوا عنه

كضحية في مباراة ما بعد الظهيرة، إن لم يكن لدى مالنبرانت مانع. وإذا عارض مالنبرانت قيام أمزل بالعمل في المطبخ، سيلعبون بشكل صوري.

تستمع ضفادع كثيرة إلى هذا الاتفاق. وتنعس الذيول السبعة التي بُلعت وبُصقت ببطء. يقف فالتر ماتيرن مستندا بمضربه الخشبي إلى السور السلكي ويحملق فيما حوله من شجيرات غابة زاسكوشين الباسقة. هل يبحث عن شيء؟

الوردية الصباحية الحادية والثلاثون

ما الذي تخبئه لنا الأيام؟ سيقوم براوكسل غدا، بسبب النجوم التي تشكل فوقنا عنقودا متخمرا، ببدء الوردية الصباحية ويذهب تحت الأرض إلى الأرشيف الموجود على عمق ثمانمائة وخمسين مترا - في الماضي كان القائمون بأعمال التفجير في المناجم يخزنون المواد المتفجرة فيه - ثم يقوم بختام تقريره، محاولا أن يكتب ذلك بالمثابرة نفسها التي كتب بها دائما.

بالنسبة له يمضي الأسبوع الأول من العطلة في نزل المدرسة الريفي بزاسكوشين ما بين لعب كرة المضرب الجلدية وجولات التنزه المنظمة وساعات الدرس اللطيفة. من ناحية هناك الاستهلاك المنتظم للضفادع وبلع ذيول الأبراص الموسمي الذي يتوقف على الجو، ومن ناحية أخرى هناك الغناء ليلا بظهور باردة ووجوه ملتهبة حول نيران المعسكر. أحدهم تمزقت ركبته واثنان لديهم ألم بالحلق. في البدء يصاب بروبست القصير بشحاذ العين ثم يصاب يوخن فيتولوسكي بشحاذ العين. ويُسرق قلم حبر، أو أن هورست بيلاو قد فقده. تحريات مملة. يتوجب على بوبه ايلرز وهو حارس مرمى متميز أن يعود إلى كفيتشين لأن أمه مريضة جدا. وبينما كان أحد الأخوين ديك معروفا في نزل التلاميذ بأنه يبلل سريره دائما، توقف في المعسكر عن التبول أثناء النوم، وبدأ أخوه في عمل ذلك بانتظام في نزل المدرسة الريفي وكذلك على المراقد الموجودة بصالة الرقاد وقد كان قبل ذلك جافا. غفوة الظهيرة في صالة الرقاد. يبرق نجيل ملعب كرة المضرب الجلدية معلنا خلوه من اللاعبين. يتسبب نوم أمزل في وجود لآلئ على جبينه. تتلمس عينا فالتر ماتيرن المتجولة هنا وهناك السور السلكي الشبكي البعيد والغابة التي وراءه. لا شيء. من يصبر يرى التلال خلف ملعب كرة المضرب الجلدية وهي تنمو. تنبش حيوانات الخلد في الظهيرة أيضا. بازلاء مع شحم الخنزير -

ودائما محترقة بعض الشيء - كانت هي طعام الغداء. وفي العشاء من المفترض أن يكون هناك عش غراب محمر وبعده حساء التوت الأزرق مع بودنغ الجريش، لكن سيكون هناك شيء غير ذلك. وبعد العشاء سيكتبون بطاقات بريدية إلى الأهل.

ليست هناك نيران معسكر. بعضهم يلعبون مونوبولي وبعضهم يلعبون الضامة وفي صالة الطعام حاول صوت كرة تنس الطاولة أن يعلو على هسيس الصقيع في الليل المدلهم. يرتب الأستاذ برونيس في حجرته، أثناء تقلص قرص من ملبس السعال في فمه، الغنيمة التي جمعها: المنطقة غنية بالبيوتيت والموسكوفيت. عندما تحتك الأحجار بعضها ببعض تصدر شررا وتلمع بلون فضي عندما تصر أحجار النايس. لكن عندما يصر فالتر ماتيرن بأسنانه، لا يبرق أي شيء بوهج فضي.

على حافة ملعب كرة المضرب الجلدية الحالك الظلمة كالليل يجلس فالتر ماتيرن على الحافة الخرسانية لحمام السباحة الغني بالضفادع والفقير في مائه. بجانبه أمزل: «يف تباغلا دوسي مالظلا»

يبحلق فالتر ماتيرن تجاه سور غابة زاسكوشين الذي يزحف مقتربا أكثر وأكثر.

يدعك أمزل عينيه، اللتي أصابتهما الكرة في العصر. خلف أية شجيرة؟ هل يضحك بلا صوت؟ هل الصرة...؟ هل بيداندينجيرو...؟

ليست هناك أحجار نايس لامعة. يصر فالتر ماتيرن من اليمين إلى اليسار. وتجيبه سلاحف بأنفاس ثقيلة. تنوح الغابة بطيورها. و لا ينساب أي فايكسل.

الوردية الصباحية الثانية والثلاثون

براوكسل يكتب تحت الأرض: ياه، يا لها من ظلمة في الغابة الألمانية. الغجري يتجول. تخادع عفاريت الغابة بعضها بعضا. ياه، يا لها من ظلمة في الغابة البولندية! يعبر الغاكوس الحدود، سمكرية. عشماتاي! عشماتاي! أو بنج ديراخ بيلتسبوب الذي يطلق الفلاحون عليه اسم إبليس. أصابع الخادمة التي كانت ذات مرة فضولية، أصبحت الآن شموعا شبحية، سهرايات. بقدر الاشتعال يكون النوم. بالديرلاه يدوس على طحالب: ايفتا في ايفتا يساوي تسعة

وأربعين. ياه! لكن الغابة الألمانية البولندية هي الأكثر ظلمة، ففيها ينحني بنج ويطير بالديرلاه وتهب السهرايات ويزحف النمل وتعانق الأشجار بعضها بعضا ويعبر المينجش الحدود: بيبي ليوبولد والخالة بيبي وبيبي ايسترزفيه وبيبي هيت وبيبي غاشباري وجميعهم، جميعهم أطلقوا الشرر وأشعلوا النار حتى تظهر: ماشاري الطاهرة توبين لابن النجار كيف ينساب الحليب من طبقها الأبيض بياض الأوز، ينساب أخضر صمغيا ويجذب إليه الحيات، تسعة وأربعين، ايفتا في ايفتا.

تجري الحدود عبر أشجار السرخس على ساق واحدة. هنا وهناك: عش غراب أبيض في أحمر[16] يتحارب مع نمل أسود في أبيض في أحمر[17]. ايسترزفيه ايسترزفيه! من يبحث هناك عن أخته الصغيرة؟ تسقط أشجار البلوط في الطحالب، تنادي كيترله لأن هناك شيئا يبرق: أحجار النايس بجانب الغرانيت تحك بعضها بعضا. يتطاير الشرر وتصر الشظايا. من الذي يسمع ذلك؟

رومنو، الرجل خلف الشجيرات. بيداندينجيرو، بلا أسنان، لكنه يسمع جيدا: تتدحرج أشجار البلوط وتنزلق الشظايا ويرتطم حذاء برباط، نامي نامي ياصرة، ويقترب الحذاء، ويصبح عش الغراب حساءً وتعبر الحية إلى القرن القادم، وتنفجر ثمار التوت الأزرق وترتعد شجيرات السرخس. مِن من؟ يدخل الضوء عبر ثقب المفتاح بالباب ويهبط السلم إلى الغابة المختلطة، كيترله هو طائر العقعق. قاق- ريشه الذي يطير. يقرقع الحذاء بلا حساب. ويقرقر الطنان الداعك المرعب المعلم- برونيس، برونيس! أوزفالد برونيس! لأن الأحجار تحتك، حتى يتطاير شررها: الشرر المتشظي كحصيات وقشور: الصفاح المزدوج، وصفاح الحقول والكوارتز. ويقول «نادر، نادر جدا» ثم يتقدم بحذائه ويجذب عدسته من رباطها المطاطي ويقرقر تحت قبعته البسماركية.

كذلك يرفع من الأرض غرانيت أحمر لامعا رائع الجمال ويقلبه وسط الغابة المختلطة تحت الشمس الغاربة، حتى تتمكن كل المرايا الصغيرة من أن تقول

---

(١٦) لون العلم البولندي. (مترجم)

(١٧) لون العلم الألماني في عهد جمهورية فايمار. (مترجم)

بييب. لا يرفض الحجر ويبقيه في الضوء ويصلي به ولا يتلفت حوله. يمشي ويتمتم بكلمات مع نفسه، وتبقى قطعة الغرانيت اللامعة في الضوء التالي والضوء التالي عليه والتالي عليه، حتى تتمكن ألف مرآة من أن تقول بييب مرة ثانية، واحدة تلو الأخرى وقليل منها قالها في الوقت نفسه. اقترب بحذائه جدا من الشجيرات. وخلفها جلس بيداندينجيرو بلا أسنان، في سكون تام. والصرة كانت هُس هُس. لم يعد رومنو هو العقعق. وكيترله لم يعد ينادي. قاق - ريشها لم يعد يطير. لأن الطنان الداعك المرعب المعلم أوزفالد برونيس قريب جدا.

في أعماق الغابة يضحك برونيس تحت قبعته لأنه وجد في أكثر مواضع غابة زاسكوشين الألمانية البولندية ظلمة غرانيت أحمر لامع نادر الوجود وله حمرة اللحم. ولأن المرايا الألف الصغيرة لا تريد أن تكف عن قول بييب بأصوات متعددة، يشعر الأستاذ أوزفالد برونيس بمرارة وجفاف في الفم. تحمل قبعته أغصانا جافة ووريقات صنوبر. ويصنع موقدا من ثلاثة أحجار كبيرة فقيرة في لمعانها. ويشعل من علبة الثقاب السويدية نارا في عمق الغابة المظلمة. وبعدها ينادي كيترله: قاق- طائر العقعق يفقد ريشة.

لدى الأستاذ برونيس في جعبته طاسة مزيتة وسوداء ولها سطح لامع لأنه لا يحتفظ في جعبته بالطاسة فقط بل بالنايس والغرانيت اللامعين أيضا، وكذلك بالصفاح المزدوج. لكن جعبة الأستاذ تحتوي بخلاف الطاسة والأحجار على أنواع متنوعة من الأكياس البنية والزرقاء في أحجام مختلفة. وعلاوة على ذلك هناك زجاجة بدون اتيكت وعلبة من الصفيح بلا غطاء. يشتعل لهب صغير جاف. يتحمر الصمغ. تتقافز المرايا المتوهجة في الطاسة. تصاب الطاسة بالهلع عندما يصب شيئا من الزجاجة. يهسهس اللهب بين الأحجار. يأخذ ست ملاعق شاي ملآنة من العلبة الصفيح. يكب بقدر معقول من الكيس الأزرق الكبير ومن الكيس البني الرفيع. ويأخذ من الكيس الأزرق الصغير ملء طرف مقبض الملعقة، وقليلا جدا من الكيس البني الأصغر. ويقلب باتجاه عكس عقارب الساعة وينثر باليد اليسرى مسحوقا من علبة صغيرة. ثم يقلب في اتجاه عقارب الساعة، بينما العقعق ثانية والسرخس وراء الحدود ما زالا يبحثان عن ايسترزفيه، رغم أنه ليست هناك رياح لتحملها.

يمشي على ركبته وينفخ حتى تعلو النار وتشتعل، ولا بد له أن يقلب حتى

يبدأ الخليط في الغليان ويصبح أكثر لزوجة وخمولا. ويمر أنف الأستاذ وشعره الطويل الخارج من الأذنين عدة مرات فوق الطاسة ذات البخار والفقاقيع. وتعلق بعض القطرات بشاربه المحترق على الشفة العليا وتنعقد وتتسكر وتصبح زجاجية أثناء تقليبه للخليط. ويأتي النمل من كل الاتجاهات. ويزحف الدخان في حيرة فوق الطحالب ويعلق بنباتات السرخس. ويصرخ جبل الأحجار اللامعة الكبير تحت الضوء المتجول المائل - من كومه هكذا يا ترى؟ فوضى كبيرة: بيب بييب بيييب! يحترق الخليط فوق اللهب ولكن حسب الوصفة. لا بد أن يتشرب باللون البني. تُفرد ورقة من البرجامون وتدهن بالشحم. تمسك يدان بالطاسة: ينسال عجين منهك ممتلئ بنيا بفقاعات كحمم اللافا على الورق المدهون بالشحم وفي الحال يصبح ملمس العجين زجاجيا. ثم يتجعد بفعل البرودة المفاجئة ويصبح لونه داكنا. وقبل أن يبرد تقطع السكين التي بيد الأستاذ اللوح إلى مربعات صغيرة في حجم قطع الملبس: لأن ما صنعه الأستاذ أوزفالد برونيس وسط غابة زاسكوشين الألمانية البولندية المظلمة بين ايسترزفيه وصرخة كيترله، كان عبارة عن أقراص ملبس السعال.

لأنه يحب الأشياء المسكرة ولأن مخزونه من الحلويات قد نفد ولأن جعبته ملآنة دائما بأكياس صغيرة وعلب. ولأنه في الأكياس والعلب وفي الزجاجة مسحوق الشعير وسكر وزنجبيل وينسون وملح قرن الغزال والعسل والبيرة والفلفل وشحم ضأن كلها على أهبة الاستعداد. لأنه ينثر من علبة رش صغيرة- هذا هو سره - قرنفلا مجروشا على الخليط الآخذ في اللزوجة: الآن تفوح الغابة برائحة ملبس السعال وتستسلم أمامها روائح عش الغراب والتوت الأزرق والطحالب وأوراق النباتات التي عمرها عشرات السنين ونباتات السرخس والصمغ. يتيه النمل. تتسكر الحيات في الطحالب. وتصرخ كيترله بشكل مختلف. قاق، ريشها يلتصق. كيف يمكن البحث عن ايسترزفيه؟ الطريق الحلو أم اللاذع؟ ومن يبكي خلف الشجيرات ويتنشق خلف الشجيرات، لأنه جلس في الدخان الذي يحرق في العين؟ هل أعطى أحدهم أفيونا للصرة، لأنها كانت ساكنة أثناء نزع الأستاذ في صمم لبقايا اللافا الباردة من الطاسة بمقبض الملعقة ذي الصوت الحاد.

ما يسقط من الشظايا في الطحالب ويقفز بين الأحجار اللامعة، يدخله

الأستاذ أسفل شاربه المسكر ويمص ويستحلب ويترك الحلوى تتقلص. يجلس بأصابعه اللزجة التي تسحق النمل فيما بينها بلا كلل، بجانب اللهب الخابي الذي لا يزال يتصاعد منه الدخان ويقسم اللوح الصلب الزجاجي ذا اللون البني على الورق المشحم إلى حوالي خمسين مربع محدد. بالكسور والنمل الذي تحول إلى ملبس يعبأ المستحضر المسكر في أكياس زرقاء كبيرة، كانت قبل طهي الملبس مليئة بالسكر. وتعود كل الأشياء، الطاسة والأكياس المطوية والكيس المملوء بمخزون الملبس، ثانية إلى جعبة الأحجار اللامعة. ثم يقف ويضع الملعقة ذات البلورات البنية في فمه. ثم يخطو بحذائه ذي الرباط تحت قبعته البسماركية على الطحالب ويترك الورق المشحم والكسور وراءه. ثم يأتي التلاميذ عبر أشجار التوت الأزرق وبين جذوع أشجار الغابة المختلطة محدثين جلبة. يبكي بروبست القصير لأنه وقع في شرك زنابير الغابة وقرصه ستة منها. ويحمله ستة من تلاميذ الصف الأول الثانوي. يحيّي الأستاذ برونيس زميله الأستاذ مالنبرانت.

وعندما استمر الفصل المدرسي في السير وغاب عن الأنظار، لم يتبق من أثرهم سوى نداءات وضحكات وصرخات وأصوات الطنان الداعك المرعب الأستاذ برونيس، صرخ العقعق: قاق - ريشها طار ثانية. حينئذ غادر بيداندينجيرو الشجيرات التي يختبئ وراءها وكذلك فعل الغاكوس الآخرون: غادر غاشباري وهيته وليوبولد مخابئهم خلف الشجيرات وانزلقوا من فوق الأشجار. والتقوا عند الورقة المشحمة التي وضع عليها لوح الملبس. كانت الورقة سوداء من كثرة النمل وتتحرك باتجاه بولندا. اتبع الغاكوس النمل: هيته، وغاشباري وليوبولد وبيداندينجيرو مروا مطرقين بلا صوت فوق الطحالب عبر نباتات السرخس باتجاه الجنوب. كان بيداندينجيرو هو آخرهم وأخذ يصغر وسط جذوع الأشجار. وقد حمل معه نهنهة خفيفة وكأن صرته، هذه القطيطة، هذا الشيء الصغير الجائع بلا أسنان، وكأن ايسترزفيه تبكي.

لكن الحدود كانت قريبة وأتاحت التنقل بين الجانبين. بعد مرور يومين على طهي أقراص ملبس السعال في أعماق الغابة، ولمجرد لأن هايني كادلوبيك قد قال عنه إنه يجيد الكرات العالية فقط ولا يجيد الكرات الطويلة، اقترح فالتر ماتيرن الذي وقف بساقين مفتوحتين في الملعب، على غير العادة، أن يقذف بكرة طويلة تتخطى عارضتي المرمى وتعبر الملعب وحمام السباحة المليء بالضفادع

والخالي من الماء. أطار فالتر ماتيرن الكرة إلى الغابة. وكان عليه أن يعيدها من الغابة المختلطة خلف السور السلكي الشبكي قبل أن يأتي مالنبرانت ويُحصي عدد الكرات.

لكنه لم يجد الكرة وأخذ يبحث في المكان الذي ليس به شيء. وأخذ يرفع كل أطراف نباتات السرخس. وسار على ركبتيه أمام وكر للثعالب، كان يعرف أنه غير مسكون. ونخر بفرع شجرة في الفجوة التي أخذت تتسع. وأراد بالفعل أن ينام على بطنه ويدخل ذراعه في وكر الثعالب. عندئذ صرخ العقعق، طارت الريشة. أصابته الكرة الجلدية: أي شجيرة قذفتها يا ترى؟

كانت الشجيرة رجلا. ظلت الصرة ساكنة. وتأرجح الحلق النحاسي في أذن الرجل، لأن الرجل كان يضحك بلا صوت. رفرف لسانه الأحمر الفاتح في فمه الذي بلا أسنان. هناك حبل من ألياف صناعية يقطع سترته على الكتف اليسرى. وفي الأمام علقت ثلاثة قنافذ على الحبل. كانت تنزف من أنوفها. وعندما استدار الرجل قليلا، علقت على ظهره زكيبة صغيرة لتحفظ التوازن على الحبل. وقد صنع الرجل من شعر فوديه الأسود المدهون بالزيت، جديلتين قصيرتين ثابتتين وبارزتين للأمام. مثلما كان جنود الهوصار التابعون للقائد تسيتين يفعلون في الماضي.

«هل حضرتك هوصار؟»

«شوية هوصار وشوية سمكري»

«وما اسم حضرتك؟»

«بي- دان- دين- جيرو. وما عندي ولا سن باقية»

«والقنافذ؟»

«نطبخها في الفخار»

«وهذه الصرة؟»

«ايسترزفيه، ايسترزفيه صغيرة»

«والكيس الذي وراء حضرتك؟ وحضرتك ماذا تفعل هنا وبم تصطاد القنافذ؟ وأين تسكن؟ وفعلا اسمك غريب هكذا؟ طيب ولو قبض حارس الغابة على حضرتك؟ هل صحيح إن الغجر؟ والخاتم اللي في إصبعك؟ وهذه الصرة؟»

قاق - صرخ العقعق من أعماق الغابة المختلطة. كان بيداندينجيرو على عجل وقال إن عليه أن يذهب إلى المصنع الخالي من النوافذ حيث يوجد الأستاذ المعلم. إنه يريد منه عسلا بريا لأقراص الملبس وقد أراد أيضا أن يجلب للأستاذ أحجارا لامعة وبعض الهدايا الأخرى.

وقف فالتر ماتيرن بالكرة الجلدية ولم يعرف في أي اتجاه يذهب وماذا يفعل. أخيرا قرر الرجوع عبر السور السلكي الشبكي إلى الملعب، لأن اللعب سيستمر. حينئذ تدحرج أمزل من بين الشجيرات دون أن يطرح أية أسئلة، لقد سمع كل شيء ولم ير أمامه سوى وجهة واحدة: بيداندينجيرو... سحب صديقه وراءه. وتتبعوا الرجل ذا القنافذ الميتة، وعندما كانوا يفقدون أثره، كانوا يجدون على أطراف نباتات السرخس دماء قنافذ فاتحة اللون، سقطت من أنوف ثلاثة قنافذ رفيعة. وعندما كفت القنافذ على كتف بيداندينجيرو عن نزف قطرات الدماء، صرخ العقعق: قاق - ريشة كيترله سبقتكم. تصبح الغابة أكثف وتقترب أشجارها بعضها من بعض. تصفع الأغصان وجه أمزل. دهس فالتر ماتيرن عش الغراب الأحمر في أبيض وسقط في الطحالب واصطدمت أسنانه بملمسها الناعم كوسادة. تحجر ثعلب وصار للأشجار وجوه مخيفة. وجهان يخترقان خيوط العناكب. إصبع مصمغة. طعم اللقمة مر. تبتعد أشجار الغابة بعضها عن بعض. تهبط الشمس غاربة على أحجار المعلم المكومة. كونسير بعد الظهر: نايس، هورنبلند، وبينهما أوجيت، شظايا ووهج، موتسارت، الخصيان المغردين، بدءا من كيري Kyrie وحتى أغنية الكورال دونا نوبيس Dona nobis: هيه بأصوات متعددة- لكن لم يكن هناك معلم تحت القبعة البسماركية.

لم يكن هناك سوى موضع النار البارد. والورقة المشحمة اختفت. ولم يلحقوا بها إلا عندما التحمت أشجار الزان بعضها ببعض ثانية وراء هذه البقعة الجرداء من الغابة: لقد أرادوا مثلهم مثل بيداندينجيرو بقنافذه إنقاذ الغنيمة عبر الحدود. ومثلما سار أمزل وصديقه في صف واحد وراء الآخر، ظلت طيور العقعق واقفة في صف واحد في الخلف وقالت: هنا هنا هنا! عبر نباتات السرخس التي يصل ارتفاعها إلى الركبة وعبر جذوع الزان المصطفة بعناية وعبر ضوء الكنيسة الأخضر. يختفي ويظهر، سرخس، ثم يظهر ثانية: بيداندينجيرو. لم يكن وحيدا. نادى كيترله على الغاكوس. غاشباري وهيته، بيبي ليوبولد وبيبي

هيته وكل المينجش، السمكرية وهوصار الغابة تجمعوا كلهم حول بيداندينجيرو. سحب بيبي غاشباري رجلا ملتحيا، إنه العنزة.

وغادر ثمانية أو تسعة من الغاكوس بمصاحبة العنزة الغابة عندما خفت كثافة أشجارها. وعندما اختفت الأشجار غاصوا في الحشائش الطويلة لمروج الغابة المنخفضة الممتدة جنوبا والخالية من الأشجار: يقف المصنع في منتصف المرج ويبرق. وهو عبارة عن طابق واحد محترق. مبنى طوبي مهجور بسواد فاحم يؤطر فتحات النوافذ. تبدو المدخنة من أسفلها وحتى منتصف طولها كفك من الطوب ناقص الأسنان، وتقف مع ذلك منتصبة مستقيمة وترتفع قليلا عن أشجار الزان التي تقف مؤازرة بعضها بعضا في الغابة. لكنها ليست مدخنة لقمينة طوب، رغم كثرة قمائن الطوب بالمنطقة. لم تعد تطلق دخان مصنع تقطير الكحوليات الذي كان لها في الماضي، حيث إن المصنع لم يعد على قيد الحياة والمدخنة قد بردت، وتحمل في الوقت الحالي عشا كبيرا لطائر اللقلق. لكن حتى العش أصبح مهجورا. يغطي فوهة المدخنة المتهدمة قش أسود عفن ويلمع خاليا.

يقترب الغاكوس من المصنع في شكل مروحة ورقية. لم تعد طيور العقعق تنعق. يسبح الغاكوس في الحشائش الطويلة. تترنح الفراشات فوق مروج الغابة. يصل أمزل وفالتر ماتيرن إلى طرف الغابة ثم ينبطحان ويتطلعان عبر الأسياخ المهتزة إلى الغاكوس وهم يدخلون في الوقت نفسه إلى المصنع الميت عبر فتحات نوافذ متعددة. بيبي غاشباري ربطت العنزة بأحد الخطاطيف المثبتة بجدار المبنى.

عنزة بيضاء بشعر طويل. لا يغمر الوهج المصنع والقش المسود والمدخنة المتهدمة والمرج فقط بل يمتد أيضا ليغمر العنزة الملتحية. النظر إلى الفراشات المترنحة خطر. كان لديهما خطة ليس لها أهمية.

أمزل ليس متأكدا إن كانا قد عبرا إلى الناحية البولندية أم لا. يقول ماتيرن بأنه قد تعرف على رأس بيداندينجيرو في إحدى فتحات النوافذ: الجدائل المدهونة بالزيت على طريقة جنود الهوصار والقرط النحاسي في الأذن.

وأمزل يقول بأنه قد رأى قبعة بسمارك في إحدى فتحات النوافذ ثم في الفتحة التالية عليها.

لا أحد منهما يرى الحدود. فقط بعض الفراشات المستهزئة. وفوق الأزيز المتنوع الدرجات للنحل الطنان تعلو وتخفت الهمهمات الآتية من المصنع. لم تكن

زعيقا أو سبابا أو صراخا واضحا. بالأحرى أصوات رخيمة ورفيعة آخذة في العلو. تلغو العنزة الملتحية ببعض التحايا إلى السماء.

ثم يقفذ من فتحة النافذة الرابعة من ناحية اليسار أحد الغاكوس: يجر هيته بيبي هيته إليه. ثم تفك العنزة الملتحية. ثم يقفز غاكوس آخر، الآن يخرج اثنان بأسمال الغجر الملونة: غاشباري وليوبولد، الذي ترتدي بيبيه عدة تنورات. لا أحد يخرج من الباب المفتوح، كل الغجر يخرجون عبر فتحات النوافذ وآخرهم كان بيداندينحيرو الذي خرج برأسه أولا.

لأن كل المينجش قد أقسموا عند ماشاري ألا يدخلوا عبر الأبواب، ولكن دائما عبر فتحات النوافذ.

وكما جاؤوا على شكل مروحة، يسبح الغاكوس عبر الحشائش المرتعدة في طريقهم إلى الغابة التي تبتلعهم. العنزة البيضاء مرة ثانية. كيترله لا ينادي. قاق. ريشها لا يطير. صمت، حتى يعود طنين الغابة: هزل الفراشات، والنحل الطنان مثل سفينة ذات طابقين واليعاسيب تصلي، الزنابير وأشباهها.

ومن ذاك الذي أغلق كتاب الصور؟ من صب الليمون على سحب يونيو التي أُعدت بالمنزل؟ من جعل الحليب لزجا؟ ما الذي جعل بشرة كل من أمزل وفالتر ماتيرن مسامية وكأنها قد قذفت بالبَرَد؟

الصرة. القطيطة. الشيء الصغير بلا أسنان. صرخت ايسترزفيه من المصنع الميت باتجاه المروج النابضة بالحياة. ولم تكن فتحات النوافذ المظلمة هي التي لفظت قبعة بسمارك إلى الخارج، بل فعل الباب الأسود ذلك. الطنان الداعك المرعب الأستاذ: أوزفالد برونيس وقف بصرته الصارخة تحت الشمس ولم يعرف كيف يحملها ونادى «بيداندينجيرو بيداندينجيرو!» لكن الغابة لم ترد. ولم يبد أمزل ولا فالتر ماتيرن اللذان وقفا على أثر النداء وانسلا عبر الحشائش ذات الحفيف إلى المصنع، وكذلك لم يبد الأستاذ برونيس الذي أمسك بالصرة التي تصرخ بأعلى صوتها ولا حتى كتاب صور مروج الغابة أي دهشة حينما حدث شيء معجز: من الجنوب، من المناطق البولندية مرت طيور اللقلق بضربات أجنحة محسوبة فوق المرج. وقام اثنان منها بعمل منحنيات احتفالية ثم هبطا واحدا تلو الآخر في العش المسود الممزق فوق مدخنة المصنع المتهدمة.

ثم لقلقا في الحال. وتسلقت كل العيون، عينا الأستاذ تحت القبعة

البسماركية وعيون التلميذين، المدخنة حتى قمتها. وتوقفت القطيطة عن الصراخ. أديبار أديبار. وجد أوزفالد برونيس في جيبه حجر نايس لامعا- أم كان ذلك صفاحا مزدوجا؟ أديبار- أديبار. يريد فالتر ماتيرن أن يعطيها تلك الكرة الجلدية التي شاركت في صنع الطريق الطويلة التي بدأ معها كل شيء، إلى الصرة. أديبار أديبار. لكن البنت ذات الأشهر الستة بيدها شيء تلعب وتضعه في إصبعها: أنغوستري، خاتم بيداندينجيرو الفضي.

وربما ما تزال جيني برونيس ترتديه في إصبعها ليومنا هذا.

الوردية الصباحية الأخيرة

لم يحدث شيء. ومن الواضح أنه لم تكن ثمة نهاية عالم. يستطيع براوكسل أن يكتب ثانية فوق الأرض. الفائدة الوحيدة من هذا التاريخ، الرابع من فبراير هو أن المخطوطات الثلاث قد انتهي من كتابتها في الموعد المتفق عليه، يستطيع براوكسل أن يضع خطابات الشاب هاري ليبناو الغرامية فوق ودرياته الصباحية وفوق «الورديات الصباحية» و«الخطابات الغرامية» ستوضع اعترافات الممثل. وإذا كانت هناك رغبة في كتابة خاتمة، فسوف يقوم براوكسل بكتابتها، لأنه يدير المنجم ويرأس مجموعة الكتاب، إنه يدفع الدفعات المقدمة ويحدد مواعيد التسليم ويقوم بتصحيح النصوص.

ماذا حدث عندما أتى الشاب هاري ليبناو إلينا وتقدم بطلب لتأليف الكتاب الثاني؟ لقد امتحنه براوكسل. حتى ميعاد المقابلة كان قد كتب شعرا ونشره. وقد أُذيعت كل تمثيلياته الإذاعية. وقد حصل على نقد لطيف ومشجع. وقد وُصف أسلوبه بأنه محكم ومتجدد ومتواتر. سأله براوكسل أولا عن دانتسيغ: «قل لي يا صديقي الشاب، ما اسم الحواري التي تربط بين حارة الهوبفن والموتلاو الجديد؟»

قام هاري ليبناو بكر أسماء الحارات: «كيبيتسغاسه، شوتتسنغاسه، ماوزهغاسه، براندغاسه، أديبارغاسه، مونشنغاسه، يودنغاسه، ميلشكاننغاسه، شلايفنغاسه وتورمغاسه ولايترغاسه.»

وأراد براوكسل أن يعرف منه «كيف يمكن أن توضح لنا أيها الشاب العزيز، أصل الاسم الجميل لحارة بورتكايزنغاسه (حارة الكرسي المحمول)؟»

وأوضح هاري ليبناو بإسهاب، أن الاسم يرجع إلى القرن الثامن عشر حيث

كان النبلاء رقيقو الطبع ونساؤهم يقفون ويحملون بتاكسي ذلك الزمان عبر الخراء والطاعون، دون أن تصاب ملابسهم الثمينة بأي أذى.

وردا على سؤال براوكسل، من الذي أدخل العصي المطاطية الإيطالية الحديثة إلى شرطة دانتسيغ في عام ألف وتسعمائة وستة وثلاثين، أجاب هاري ليبناو بطلاقة وكأنه مجند: «لقد أدخلها رئيس الشرطة فريبوس» لكنني لم أكتف بهذه الأسئلة: «من كان يا صديقي الشاب- أعتقد أنك لن تتذكر- آخر رئيس لحزب المركز في دانتسيغ؟ ما اسم هذا الرجل الفاضل؟» لقد هيأ هاري ليبناو نفسه للاختبار بصورة جيدة، وحتى براوكسل تعلم منه: «إنه عالم اللاهوت الأستاذ الدكتور ريشارد شتاخنيك الذي أصبح عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثلاثين رئيسا للحزب وعضوا ببرلمان المقاطعة. ثم قبض عليه في عام ألف وتسعمائة وسبعة وثلاثين بعد حل الحزب وسجن لمدة نصف عام. وفي عام ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين تم ترحيله إلى معسكر التعذيب بشتوتهوف، ثم سُمح له بمغادرة المعسكر بعد وقت قليل. وقد قضى د. شتاخنيك حياته في إثبات قدسية المرحومة دوروتيا فون مونتاو، التي دفنت نفسها بجوار كاتدرائية العذراء بمارينفردر في عام ألف وثلاثمائة واثنين وتسعين.»

ثم خطرت لي بعض الأسئلة العويصة عن مسار قناة الشتريس، واسم كل مصانع الشوكولاتة في لآنغفور، وارتفاع جبل الإربس في غابة الياشكنتال، وقد حصلت على إجابات مرضية. وعندما أجاب هاري ليبناو عن السؤال: أي من الممثلين المعروفين بدأ حياته المهنية في مسرح مدينة دانتسيغ؟ وذكر الممثلة ريناته مولر التي توفيت صغيرة والسينمائي المحبوب هانس زونكر، رجعت بظهري إلى الوراء معلنا لنفسي انتهاء الامتحان وأنه قد اجتازه.

وهكذا اتفقنا بعد ثلاث جلسات عمل على إيجاد حلقة وصل بين «الورديات الصباحية» لبراوكسل و«الخطابات الغرامية» لهاري ليبناو وهي كما يلي:

ولدت تولا بوكريفكه في الحادي عشر من يونيو عام ألف وتسعمائة وسبعة وعشرين.

عندما ولدت تولا كان الطقس متقلبا وغائما أغلب الوقت. ثم أصبح ميالا لهطول الأمطار بشدة. وهزت الرياح الضعيفة أشجار الكستناء في حديقة كلاينهامر.

عندما ولدت تولا، هبط مستشار الجمهورية السابق د. لوتر، قادما من كونيغسبيرغ[١٨] في طريقه إلى برلين، في مطار دانتسيغ. في كونيغسبيرغ حضر مؤتمرا عن الاستيطان وفي مطعم المطار تناول وجبة خفيفة.

عندما ولدت تولا قامت فرقة موسيقى شرطة دانتسيغ بقيادة ارنست شتيبريتس، بإحياء حفل موسيقي في حدائق تسوبوت العلاجية.

عندما ولدت تولا ركب ليندبرغ الشهير بطيرانه فوق المحيط على متن السفينة «ممفيس».

عندما ولدت تولا، قبضت الشرطة، حسب تقرير الشرطة بتاريخ الحادي عشر من الشهر، على سبعة عشر شخصا.

عندما ولدت تولا وصل وفد مدينة دانتسيغ إلى اجتماع مجلس عصبة الأمم في جينيف.

عندما ولدت تولا، سجلت البورصة شراء أسهم الحرير الصناعي والصناعات الكهربية من الخارج. وسجلت أسهم الفحم الحجري الاسني[١٩] ارتفاعا قدره أربعة ونصف في المائة ولدى شركة ايلزه وشتولبيغر للزنك، سجلت الأسهم ارتفاعا قدره ثلاثة في المائة. إضافة إلى ذلك تم رفع قيمة بعض السندات الخاصة، فمثلا ارتفعت قيمة سندات غلانتسشتوف أربعة في المائة وسندات بيمبرغ اثنين في المائة.

عندما ولدت تولا، عرض في مسرح أوديون فيلم «دهشته الكبرى» تمثيل هاري بيل بشهرته ودوره المزدوج.

عندما ولدت تولا، دعا حزب العمال الألمان الاشتراكي الوطني (النازي)، بمقاطعة دانتسيغ، إلى بيان هام وعظيم في بيت القديس يوزف الكائن بحارة التوبفر من الساعة الخامسة إلى الساعة الثامنة. وكان من المفترض أن يلقي هاينتس هاكه عضو الحزب من كولونيا على نهر الراين خطبة حول الموضوع: «يا عمال الذهن والقبضة الألمان، اتحدوا». في اليوم التالي على ميلاد تولا كان من المفترض إعادة جلسة بعنوان «شعب في أزمة! من ينقذه؟» في الصالة الحمراء لبيت علاج

---

(١٨) هي مدينة كالييننغراد. في عهد الاتحاد السوفياتي (مترجم)

(١٩) نسبة إلى مدينة اسن الألمانية.

تسوبوت وقد وقع سيد يدعى هوهنفيلد، وهو عضو ببرلمان المقاطعة، «تعالوا في حشود».

عندما ولدت تولا ظل سعر الخصم لدى بنك دانتسيغ بلا تغيير بنسبة خمسة ونصف في المائة. وسجلت بورصة الحبوب تسعة غولدن وستين لقنطار الشاودار: فلوس.

عندما ولدت تولا، كان الدكتور سيترون يمتلك عيادة في لانغفور؛ وتوجب عليه بعد ذلك تركها هاربا إلى السويد.

عندما ولدت تولا عزفت أجراس برج مجلس المدينة في الساعات الزوجية «تكرمت أيها الرب في عليائك» وعند الساعات المفردة دقت «كل الملائكة جنود السماء». ودقت أجراس كنيسة القديسة كاترينا كل نصف ساعة بالنشيد «أيها السيد يسوع المسيح، أنظر إلينا».

عندما ولدت تولا جاءت الباخرة السويدية «أوديفولد» من أوكسلوزوند فارغة.

عندما ولدت تولا خرجت الباخرة الدانماركية «صوفي» من دانتسيغ متجهة إلى غريمسبي محملة بالأخشاب.

عندما ولدت تولا، كان سعر فستان الأطفال المضلع اثنين غولدن وخمسين بفنيغا. وتنورات - الأميرة للفتيات اثنين غولدن وخمسة وستين. دلو صغير للعب، ثمنه خمسة وثمانون بفنيغا. رشاشة لسقاية الزرع، غولدن واحد وخمسة وعشرون. وطبلة من الصفيح، مصقولة، بلوازمها، كانت معروضة للبيع بغولدن وخمسة وسبعين بفنيغا.

عندما ولدت تولا، كان يوم أحد.

عندما ولدت تولا، غربت الشمس الساعة الثامنة وثماني عشرة دقيقة.

عندما ولدت تولا، كان عمر ابن عمتها هاري ليباو شهرا وأربعة أيام.

عندما ولدت تولا، تبنى الأستاذ أوزفالد برونيس طفلة لقيطة عمرها ستة أشهر، بدأت أسنانها اللبنية في الظهور.

عندما ولدت تولا، كان عمر هاراس كلب زوج عمتها سنة وشهرين.

الكتاب الثاني

خطابات غرامية



عزيزتي بنت الخال تولا،

لقد أُسديت إلي نصيحة بأن أضعك أنت وألقابك في بادئة كلامي، أن أخاطبك، لأنك كلك كنت وما زلت وستصبحين مادة، بشكل غير رسمي وكأنني أكتب خطابا. مع أنني أحكي في هذه الأثناء لنفسي، فقط لنفسي ولا أحد غير ذلك، أم أنني أحكي لك أنت، بأنني أحكي لنفسي؟ عائلتكم آل بوكريفكه وآل دام أصلهم من منطقة الكوشنايديراي.

عزيزتي بنت الخال،

بما أني قد أهدرت جميع كلماتي عليك وبما أن كل كلماتي، حتى عندما أحكي بإرادة ثابتة لنفسي، تعنيك أنت وحدك، أفلا نريد إذن أن نعقد سلاما ورقيا وأن أضع من خلال ذلك أساسا رقيقا لكسب معيشتي ولتقضية وقتي الضائع: إنني أحكي لك، لكنك لا تسمعين. وستظل مخاطبتي لك، وكأنني أكتب مائة خطاب وخطاب، هي عصا التجوال الشكلية، التي أريد أن أتخلص منها من الآن والتي سألقيها، بكل ما أوتيت من غضب في قناة الشتريس، أو في البحر، أو في بركة الأكتسين، لكن الكلب، أسود وعلى أربع، سيعيدها بدربه إلي.

عزيزتي تولا،

أمي، واسم ميلادها بوكريفكه وهي أخت أبيك أوغست بوكريفكه، أصلها ككل آل بوكريفكه من منطقة الكوشنايديراي. في السابع من مايو، عندما كان عمر جيني برونيس حوالي نصف عام، كان مولدي. وبعد سبعة عشر عاما أمسك بي شخص ما بإصبعيه ووضعني في دبابة حقيقية كمحمل للذخيرة. وفي وسط

منطقة شليزيين التي لا أعرفها جيدا بقدر ما أعرف منطقة الكوشنايديراي الواقعة جنوب كونيتس، اتخذت الدبابة وضعها وتحركت لأسباب تمويهية إلى الوراء داخلة في مخزن خشبي مليء بمنتجات صانعي الزجاج من أهل شليزيين. وبينما كنت أبحث حتى هذه اللحظة بلا توقف عن كلمات على وزن اسمك، تولا، جعلت الدبابة المتحركة في وضعها والزجاج الصاخب حبيبك هاري يكتب كلاما غير موزون: وفي الحال بدأت أكتب جملا بسيطة والآن أكتب بناء على نصيحة رجل يدعى السيد براوكسل، رواية، رواية بمعنى الكلمة دون قافية أو وزن.

عزيزتي بنت الخال تولا،

لا أعرف شيئا عن بحيرة البودنزيه ولا عن البنات، لكنني أعرف كل شيء عنك وعن الكوشنايديراي. لقد ولدتِ في الحادي عشر من يونيو. تقع الكوشنايديراي على خط عرض ثلاثة وخمسين وثلث شمالا وخط طول سبعة عشر ونصف شرقا. كان وزنك عند الولادة أربعة أرطال وثلاثمائة غرام. تتبع منطقة الكوشنايديراي الأصلية سبع قرى: فرانكنهاغن، بيتسين، دويتش-تشكتسين، غراناو، ليشتناو، شلانغنتين وأوسترفيك. وُلد أخواك الكبيران زيغسموند وألكسندر في الكوشنايديراي، أما تولا وأخوها كونراد فقد تم قيدهما بحي لانغفور. واسم بوكريفكه كان موجودا قبل عام ألف وسبعمائة واثنين وسبعين في سجل كنيسة أوسترفيك. أما آل دام، عائلة أمك، فقد ظهروا إلى حيز الوجود بعد سنوات من التقسيمات التي طرأت على بولندا، أولا في فرانكنهاغن ثم في شلانغنتين. يجوز أنهم قد نزحوا من منطقة بومرن البروسية. وما يقال عن أن اسم آل دام مشتق من اسم قرية دامراو الأسقفية، يعد بالنسبة لي شيئا مثيرا للتشكك، خصوصا لأن دامراو قد أُهديت مع أوبكاس وغروس تسيركفيتس إلى الأسقف الأكبر لمدينة غينيزن منذ عام ألف ومائتين وخمسة وسبعين. وفي الماضي كان اسم دامراو لويسيفا دامبروفا، وأحيانا دوبرافا، ولم تكن تابعة في الأصل إلى منطقة الكوشنايديراي: لقد كان آل دام من النازحين.

عزيزتي بنت الخال،

لقد أبصرتِ نور العالم في شارع الإلزن. وكنا نسكن المنزل نفسه. كان هذا المنزل ملكا لأبي الأسطى النجار ليبناو. وفي المنزل المقابل المسمى «أكتسينهاوس» سكن أستاذي الذي سيقوم لاحقا بتدريسي، أوزفالد برونيس. لقد تبنى فتاة،

سماها جيني، برغم أنه لم يكن لأحد في منطقتنا هذا الاسم من قبل وكان اسم كلب الرعاة الذي يحرس ورشة النجارة لدينا هاراس. تم تعميدك باسم أورزولا، لكنهم كانوا ينادونك من البداية تولا. غالبا ترجع هذه الكنية إلى جنية الماء الكوشنيفية طوله Thula، التي عاشت في بحيرة أوسترفيك وكان اسمها يكتب بطرق مختلفة: دولر Duller توله Tolle تولاتش Tullatsch طوله Thula أو دول Dul تول Tul طول Thul. وعندما كان آل بوكريفكه ما يزالون يسكنون أوسترفيك، ظلوا مستأجرين لأرض الموسبراوخباش بالقرب من البحيرة، على الطريق الزراعي المتجه إلى كونيتس. منذ منتصف القرن الرابع عشر وحتى ميلاد تولا في عام سبعة وعشرين كان اسم قرية أوسترفيك Osterwick يكتب كالتالي: أوستيرفيغ Ostirwig، أوستيرفيش Ostirwich، أوسترفيغ Osterwigh، أوسترفيغ Osterwig، أوسترفيك Osterwyk، أوسترفيت Osterwit، أوستروفيت Ostrowit أوسترفييك Osterwieck، أوستروفيتّه Ostrowitte، وأوسترو Ostrów. وأهل الكوشنايديراي يقولون: أوستيفيتش. ويعني أوستروف وهو الاسم البولندي لقرية أوسترفيك، جزيرة نهرية أو جزيرة في بحيرة، لأن قرية أوسترفيك قد تأسست في الأصل، أي في القرن الرابع عشر على جزيرة في بحيرة أوسترفيك. وقد أحاطت أشجار الحور الرومي والبتولا بالبحيرة الغنية بأسماك الشبوط. وبخلاف أسماك الشبوط بأنواعه والبجن وسمك الكركي الذي لا بد منه، كان هناك العجل ذو البقعة الحمراء الذي كان يستطيع الكلام في يوم القديس يوحنا، جسر جلدي خرافي، وكانت هناك زكيبتان مليئتان بالذهب الأصفر تعودان إلى أيام هجمات الهوصار وبالبحيرة أيضا جنية ماء ذات مزاج متقلب: طوله دولر تول.

عزيزتي تولا،

كثيرا ما كان أبي الأسطى النجار يحب أن يقول «إن مجيء آل بوكريفكه إلى هنا لن يثمر شيئا. كان حريا بهم أن يبقوا حيثما أتوا، حيث الكرنب الذي اعتادوا أكله».

كانت أمي وهي من آل بوكريفكه أصلا، هي المقصودة بهذه التلميحات الخاصة بالكرنب الكوشنيفي، لأنها هي التي جذبت أخاها وزوجته وطفليهما من الكوشنايديراي إلى ضاحية المدينة. فبناء على رغبتها قام الأسطى النجار ليناو

بتشغيل عامل الزراعة أوغست بوكريفكه الذي كان يسكن الأكواخ، كمساعد نجار في ورشته. لقد استطاعت أمي أن تقنع أبي أن يؤجر المسكن ذا الغرفتين ونصف الذي أصبح خاليا، إلى العائلة المكونة من أربعة أفراد بثمن مناسب، حينئذ كانت إرنا بوكريفكه حبلى بتولا. وكان المسكن في الطابق الذي يعلونا.

لكل هذه الأعمال الطيبة أبدت أمك لأبي قليلا من العرفان. بل لقد أرجعت في كل مشاجرة عائلية صمم ابنها الأصم الأبكم كونراد إلى ورشة النجارة، حيث يفترض أن منشارنا القرصي الذي يدوي منذ البكور وحتى انتهاء العمل ويجعل كل كلاب الحي بما فيهم كلبنا هاراس، تعوي معه ويتحشرج صوتها، والذي نادرا ما يلزم الصمت، هو المتسبب في تقلص وصمم الأذنين الصغيرتين للرضيع كونراد الذي كان ما يزال في اللفة.

وكان الأسطى النجار يستمع إلى سباب إرنا بوكريفكه بهدوء حيث إنها كانت تسب على الطريقة الكوشنيفية. من الذي يستطيع فهم هذه اللهجة؟ فأهل الكوشنايديراي كانوا ينطقون كلمة Kirchhof أي ساحة الكنيسة Tchätchhoff وينطقون كلمة Berg أي جبل Bäsch وكلمة Weg أي طريق Wäsch. وPreisterwäs كانوا يعنون بها Wiese des Priester zu Osterwick أي مرج كاهن الكنيسة في أوسترفيك الذي يبلغ اتساعه حوالي هكتارين. وعندما كان أوغست بوكريفكه يحكي عن تجواله بين قرى الكوشنايديراي، أي رحلاته الشتوية كبائع متجول إلى تشيسكين وأبراو وغيردورف وداكراو وشلانغنتين، كان يتحدث كالتالي:

Äsch oppn Wäsch na Cetchia. Äsch oppn Wäsch na Obrog, na Tjesdöep, oppn Wäsch na Domärog, Wäsch na Slagentin"

وإذا وصف رحلة بالقطار إلى كونيتس كان يقول: "Isäbonsträtch vä Kauntz" وإذا سأله المستهزئون، عن عدد الهكتارات التي يمتلكها في أوسترفيك، يقول مائة واثنا عشر هكتارا، ثم يصحح غامزا وملمحا إلى رمل الكثبان الذي تشتهر به أرض الكوشنايديراي "U hunnet Moj sint imme ünewajet". أي مع عدم ذكر مائة هكتار منهم.

لا بد أن تعترفي يا تولا،

بأن أباك كان عاملا سيئا. ولم يكن بإمكان الأسطى المشرف على الماكينات أن

يتركه يعمل على أية ماكينة ولا حتى المنشار القرصي. فبغض النظر عن أن سيور تشغيل المنشار كانت تفلت منه دائما، كان يفسد أنصال المنشار الغالية بخشب التغليف المليء بالمسامير والذي كان يقطعه لحسابه كحطب للمدفأة. كان هناك عمل وحيد يستطيع أداءه بدقة ويكسب به رضا الزملاء. مرجل الغراء على الموقد الحديدي بالطابق الذي يعلو صالة الماكينات كان مخصصا لخمسة نجارين يعملون على خمس نضد للنجارة وكان دائما ساخنا وجاهزا. وكان الغراء يصنع فقاقيع ويدمدم بغضب ويمكن للونه أن يصبح أصفر بلون العسل، أو عكرا بلون الطمي أو بلون حساء البازلاء وأن يصبح سميكا كجلد الفيل. يغمر الغراء حافة المرجل وقد برد جزء منه وسال الجزء الآخر لزجا وتصنع قطراته أنوفا فوق أنوف ولم يترك الغراء أي جزء من طلاء المرجل إلا وغطاه، بحيث لم يعد بإمكان مرجل الغراء أن يستعيد طبيعته السابقة كقدر طعام. يُقلب الغراء المغلي بعصا خشبية من ألواح السقف. لكن قطعة الخشب تكتسي أيضا بالغراء طبقة فوق طبقة وتنتفخ جلدية ومتشققة، ويزداد وزنها في يد أوغست بوكريفكه بمجرد أن ينعت النجارون الخمسة ذاك الوحش الذي في يديه خرطوم الفيل، ويبدلون هذه العصا الغرائية بعصا أخرى جديدة من العصيان التي لا نهاية لها.

غراء العظم[1]، غراء الخشب! رصت ألواح الغراء الصلب البني اللون بعضها فوق بعض على رف خشبي يعلوه تراب بسمك الإصبع. منذ عامي الثالث وحتى عامي السابع عشر كنت أحمل في جيب بنطلوني بإخلاص قطعة من الغراء. كان الغراء بالنسبة لي شيئا مقدسا وقد سميت أباك إله الغراء، لأنه، إله غراء العظم، لم يكتف فقط بامتلاك أصابع مغراة تطقطق بصوت عال إذا ما حركها، بل وانبعثت منه رائحة غراء، كان تصحبه أينما راح وكان يخلفها وراءه أينما ذهب. وكان لمسكنكم المكون من غرفتين ونصف ولأمك وأخويك الرائحة نفسها. وقد كان لابنته النصيب الأكبر من رائحة عرقه. كان يهدهدها بأصابعه المغراة وكان يغمر الطفلة بأدوات مغراة، إذا ما لاعبها بحيله اليدوية. خلاصة الأمر أن إله غراء العظم قد حول تولا إلى فتاة غراء الخشب. وحيثما ذهبت تولا أو وقفت أو جرت، حيثما كانت واقفة أو حيثما ذهبت أو في أي مسافة كانت

---

(١) المقصود هنا الغراء المصنوع من عظام الأبقار. (مترجم)

قد قطعتها جريا، كل ما لمسته أو ألقته أو لمسته لمدة طويلة أو قصيرة، أو ما لفت به نفسها أو ارتدته أو خبأته أو ما لعبت به: نشارة خشب مسامير مفاصل، كل مكان وكل شيء عرفته تولا، اكتسب رائحة غراء عظام تتراوح ما بين الخفة والنفاذية الكريهة التي لا يمكن أن تغشاها أي رائحة أخرى. حتى ابن عمتك هاري ظل ملتصقا بك: لسنوات عديدة ظللنا متعلقين بعضنا ببعض وكانت لنا الرائحة نفسها.

عزيزتي تولا،

عندما كنا في الرابعة قيل إن لديك نقصا في أملاح الكالسيوم، قيل ذلك أيضا عن تربة الكوشنايديراي الطفلية. كما نعرف، تحتوي الرواسب الطفلية من العصور الجليدية التي تكون فيها ركام التربة الأساسي، على كربونات الكالسيوم. كانت الطبقات الطفلية المعرضة للتقلبات الجوية والمرهقة من مياه الأمطار هي وحدها المفتقرة إلى الكالسيوم في أراضي الكوشنيفر. ولم تسعفها الأسمدة ولا إعانات الدولة. ولم تطعّم مواكب الحقول الكنسية (كان جميع أهل الكوشنايديراي من الكاثوليك) أرض الكوشنايديراي بأي كالسيوم. لكن الدكتور هولاتس قد أعطاك أقراص كالسيوم: وبمجرد أن أصبحت في الخامسة من عمرك لم يعد لديك أي نقص في أملاح الكالسيوم. ولم تتخلخل أي من أسنانك اللبنية. كانت قواطعك بارزة بعض الشيء إلى الأمام: ومن المفترض أن تخيف تلك القواطع الطفلة اللقيطة جيني برونيس التي تسكن على الناحية المقابلة.

تولا وأنا لم نصدق أبدا،

أن الغجر وطيور اللقلق قد لعبا دورا في العثور على جيني. إحدى حكايات بابا برونيس المعتادة: فلا شيء يتم لديه بصورة طبيعية، دائما ما تنبثق عنه قوى خفية. لقد استطاع دائما أن يتحرك في الضوء الفوضوي للأشياء غريبة الأطوار، سواء كان ذلك متعلقا بتغذية هوسه بأحجار النايس اللامعة من خلال التعرف على أنواع جديدة ورائعة- لقد كان هناك مهووسون مشابهون له في ألمانيا المهووسة وكان يتراسل معهم- أو بسيره في الشارع أو حوش المدرسة أو في الفصل مثل شاعر سلتي قديم أو مثل إله بلوط بروسي أو مثل أحد أتباع زارادشت. كانوا يقولون عنه إنه ماسوني، ودائما ما كان يترك المجال لتشكل الصفات الغريبة عنه، والتي يحبها العالم كله لأصالتها. لكن جيني ومسلكه معها

هما اللذان جعلا من الأستاذ برونيس شيئا فريدا أصيلا، ليس فقط في نطاق المدرسة، بل وأيضا في شارع الإلزن والشوارع الموازية له والمتقاطعة معه، عامة في ضاحية لانغفور.

كانت جيني طفلة سمينة. وحتى عندما كان ايدي أمزل يحوم أثناء السير حولها وحول الأستاذ برونيس، لم تبد الطفلة أقل سمنة. قيل عنه وعن زميله فالتر ماتيرن وكان كلاهما تلميذين لدى الأستاذ برونيس، بأنهما كانا شاهدين، حينما تم العثور العجيب على جيني. على أية حال كان أمزل وماتيرن هما الفريق الآخر الذي كان مثارا لسخرية شارعنا وسخرية حي لانغفور بأكمله.

من أجل تولا أرسم صورة من الماضي:

أقدم لك رجلا كبير الأنف كثير التجاعيد، يرتدي فوق شعره الرمادي الثلجي الملبد قبعة عريضة متهدلة، يتبختر مرتديا عباءات من الجوخ الأخضر. عن يمينه وعن يساره يحاول تلميذان أن يسايرا خطاه. إيدي أمزل هو التجسيد الفعلي لما يطلق عليه الناس ولدا سمينا. ملابسه مشدودة على جسده لتحتوي جسده المكتنز. وتعلم ركبتيه بعض النقر الصغيرة. وحيثما يتبدى شيء من لحمه يزدهر النمش فوقه. ويتدحرج بجسمه كله بلا عظام. أما صديقه فهو شيء آخر: يمشي قوي البنيان بثقة بجوار برونيس ويتصرف وكأنه الحارس والحامي لكل من المعلم وإيدي أمزل وجيني السمينة المكورة. ما زالت الطفلة ذات الخمس سنوات ونصف ترقد في عربة أطفال كبيرة، لأنها تواجه صعوبات في السير. يدفع الأستاذ برونيس العربة أحيانا وأحيانا يدفعها إيدي أمزل، ونادرا ما يدفعها الصرار. وعند أقدام جيني هناك كيس بني مكور ونصف مفتوح. يتبع أطفال نصف الحي الأشقياء العربة المدفوعة، إنهم يريدون أقراص الملبس، التي يسمونها «أرواح».

لكننا، أنا وتولا والأطفال الآخرين، لم نحصل على الملبس إلا أمام «الأكتسينهاوس»، المنزل المقابل لمنزلنا، حين تتوقف العربة ذات العجلات الكبيرة، ويغرف الأستاذ برونيس من الكيس البني ملء كفه، ويعطينا دون أن ينسى نفسه، حتى ولو كان فمه العجوز لم يفرغ بعد من بقايا الملبس الزجاجي. أحيانا يمص إيدي أمزل قرصا من الملبس كنوع من المشاركة. لكنني لم أر أبدا فالتر ماتيرن يأخذ أحد أقراص الملبس. أما أصابع جيني فكانت لزجة من أثر

أقراص الملبس المربعة، مثلما كانت أصابع تولا لزجة من أثر غراء لعظم الذي كانت تكوره في فمها أثناء الهمهمة. كانت تلعب به.

عزيزتي بنت الخال،

كما أريد أن تتضح لي الأمور بشأنك وبشأن غرائك، ينبغي أيضا أن تتضح لي الأمور بشأن أهل الكوشنايديراي أو الكوشنيفيين. فمن غير المعقول أن تظل تسمية الكوشنيفيين مرتبطة بتفسير يعد تاريخيا، لكنه غير مثبت. لقد قيل إن أهل الكوشنايديراي قد أبدوا في الثورات البولندية كراهية عنيفة للألمان، لذلك كان بالإمكان اشتقاق المعنى الجامع كوشنايدار من المعنى الجامع كوبفشنايدار Kopfschneider أي قاطعي الرؤوس. وحتى لو كانت لدي كل الأسباب التي تجعلني أتبنى هذا التفسير، حيث إن لديك أنت، أيتها الكوشنيفية النحيفة، كل الأدوات اللازمة لهذا العمل، فلسوف أتمسك مع ذلك بتفسير يخلو من الخيال لكنه عقلاني. كان هناك موظف في إدارة القرى البولندية بتوخل اسمه كوسنيفسكي وقد وقع في عام ألف وأربعمائة وأربعة وثمانين وثيقة تحدد حقوق وواجبات كل القرى من الناحية الإدارية، ثم سميت هذه القرى بعد ذلك قرى الكوشنيفيين نسبة إلى اسم موقع الوثيقة. مع ذلك يبقى شيء من الغموض. قد يمكن تفسير أسماء الأماكن والأراضي بهذه الطريقة، لكن تولا التي هي أكثر من مجرد فتاة عادية، لا يمكن الوصول إلى سرها الغامض من خلال موظف نظامي من إدارة القرى البولندية يدعى كوسنيفسكي.

تولا،

ببشرتها البيضاء تتعلق ممشوقة على الحامل المخصص لنفض السجاد وتترك رأسها مدلى إلى أسفل لمدة نصف ساعة وتغني أثناء ذلك من أنفها. العظام المزرقة من أثر التصادمات والعضلات التي لا يبطنها أي دهن، جعلوا من تولا شيئا دائم الجري والقفز والتسلق وبصفة عامة دائم الطيران. ولأن تولا قد ورثت عن أمها العينين الغائرتين الضيقتين الملتصقتين بعضهما ببعض، فقد كانت فتحتا أنفها هما أكبر شيء في وجهها. وعندما تغضب تولا وهذا يحدث عدة مرات في اليوم، فتصير صلبة متشنجة وغاضبة، تقلب عينيها بحيث لا يبدو من فتحتيهما سوى بياض المقلة الذي تتخلله الشعيرات الدموية. كانت عيناها المقلوبتان الغاضبتان تشبهان العيون المفقوءة أو عيون الشحاذين والدجالين الذين يدعون العمى. وكنا

تقول عندما تتشنج وترتعد: «تولا فتحت شبابيكها المكسورة مرة ثانية.»

كنت دائما وراء بنت خالي، على وجه الدقة: حاولت أن أسير على مسافة خطوتين منك ومن رائحة غرائك العظمي. كان أخواك زيغسموند وألكسندر قد وصلا إلى سن المدرسة واتخذا طريقهما الخاص. والتحق بنا كونراد الأصم الأبكم ذو الشعر المجعد. أنت وهو، وأنا فوق البيعة. لقد جلسنا في المخزن الخشبي تحت السقف المدهون بالقطران. كان لألواح الخشب رائحة نفاذة وكان علي أن أصبح أصم أبكم لأنكما تستطيعان التحدث بالأيدي. وعندما كنتما تخفيان أصابع معينة أو تعقدانها، كان ذلك يعني بالنسبة لي شيئا مريبا. أنت وهو، لقد حكيتما بعضكما لبعض قصصا، جعلتك تقرقرين ضاحكة وجعلته يهز رأسه بلا صوت. أنت وهو، دبرتما خططا، كنت أنا ضحيتها في أغلب الأحوال. وإذا كنتِ قد أحببتِ أحدا في حياتك، فقد أحببته هو، ذاك الرأس الصغير المجعد الشعر، لقد استطعتما أن تجعلاني أضع يدي تحت فستانك. كان الجو ساخنا تحت السقف القطراني للمخزن الخشبي، وللخشب رائحة حامضة. طعم يدي كان مالحا. لم أستطع الفرار، التصقت: غراؤك العظمي. في الخارج كان المنشار القرصي يغني وماكينة السحج تدمدم وماكينة التشطيب تعوي. في الخارج نهنه كلبنا هاراس.

اسمعي يا تولا،

لقد كان هو: كلب رعاة أسود كبير بذيل طويل. لم يكن من نوع الغرونينديل البلجيكي الطويل الشعر، بل كان كلب رعاة ألماني بشعر قصير. اشتراه أبي الأسطى النجار جروا من قرية نيكلسفالده على مصب الفايكسل، قبل ميلادنا بفترة قصيرة. وطلب صاحبه الذي يمتلك طاحونة لويزه بنيكلسفالده، ثلاثين غولدنا ثمنا له. لهاراس أنياب قوية وشفتان جافتان تنغلقان جيدا. عينان داكنتان مائلتان قليلا تتبعان خطواتنا. عنق ممشوق دون لغد وحلق غير بارز. يفوق طول الجذع ارتفاع الكتفين بحوالي ست سنتيمترات: لقد قمت بقياسها بنفسي. وكنا نستطيع تأمل هاراس من كل الجوانب ودائما كانت قوائمه مستقيمة، وحوافره مضمومة جيدا. لبد القدم صلب ومستوي. كفليه الطويلان المنسدلان بانسياب. الأكتاف الأفخاذ مفاصل القفز: عضلاته قوية ومتماسكة. وكل شعرة من شعره مستقيمة، خشنة، راسخة، وسوداء، وحتى الجلد الذي

تحت فراءه أسود. ليس له لون فراء الذئاب الداكنة بأساس رمادي أو أصفر. لا، فحتى داخل أذنيه الواقفتين المائلتين إلى الأمام قليلا، وعلى صدره المتموج وبطول أفخاذه المكسوة بالشعر بتساو، يلمع شعره الأسود، سواد المظلات، سواد القساوسة، سواد الأرامل، سواد فرق الحماية SS، سواد السبورة، سواد الفلانخ الفاشي الأسباني، سواد الشحرور، سواد عطيل، سواد منطقة الرور، سواد البنفسج، سواد الطماطم، سواد الليمون، سواد الدقيق، سواد الحليب، سواد الثلج.

بحث هاراس بأنفه ووجد، صوب وأنجز أعمال تقصي الأثر. لقد فشل في إحدى مسابقات الحراسة على مرج البورغرفيزن. كان هاراس كلب تعشير وكان اسمه مقيدا في سجل أنساب الكلاب. لم يكن السير به مقيدا بالحبل شيئا جيدا بالنسبة له، فقد كان يجر سيده دائما. ينبح جيدا لكن قدرته على تقصي آثار الغرباء ليست متميزة. لقد ألحقه الأسطى النجار ليبناو بالتدريب في شرطة دانتسيغ. هناك أرغموه على التوقف عن أكل إخراجاته: تلك العادة السيئة التي تمارسها الكلاب الصغيرة. رقم رخصته كان خمسمائة وسبعة عشر. وحاصل جمع الأرقام المكونة لرقم الرخصة هو ١٣.

في كل الأماكن ترك هاراس أثرا لرائحته، في لانغفور وفي شلموول وفي مستوطنة شيشاو، من زاسبه حتى بروزن، صاعدا طريق الياشكنتال وهابطا الهايليغنبرونن، حول ملعب هاينريش ايلرز الرياضي وخلف محرقة الجثث وأمام متجر شتيرنفيلد، عند بركة الأكتسين وفي حفر سور الشرطة وأسفل أشجار معينة في حديقة أوبهاغن، وتحت أشجار زيزفون بعينها في طريق هندنبورغ، وأسفل أعمدة الدعاية التي تعلن عن الأحداث القادمة وعلى سواري الأعلام الموجودة أمام الصالة الرياضية المهووسة بالدعايات وعلى أعمدة إضاءة حي لانغفور التي لم تظلم بعد. وبقي وفيا لآثاره لسنوات كلاب عديدة.

كان طول هاراس حتى أعلى الظهر أربعة وستين سنتيمترا وطول تولا البالغة من العمر خمس سنوات مترا وخمسة سنتيمترات. وكان ابن خالتها هاري أطول منها بمقدار أربعة سنتيمترات. وبلغ طول أبيه النجار الضخم في الصباح مترا وثلاثة وثمانين سنتيمترا وبعد انتهاء العمل يقصر سنتيمترين. ولم يزد طول كل من أوغست وإرنا بوكريفكه وكذلك يوهانه ليبناو عن المتر واثنين وستين

سنتيمترا. هؤلاء الكوشنيفيون، قصيرو القدود!

عزيزتي بنت الخال تولا،

ما لي أنا والكوشنايديراي، لو أنكم جميعا يا آل بوكريفكه لم تأتوا من هناك. لكنني أعرف أن قرى الكوشنايديراي كانت تابعة لأمراء بومرن منذ عام ألف ومائتين وسبعة وثلاثين وحتى عام ألف وثلاثمائة وثمانية. وبعد انقراض سلالتهم دفع أهل الكوشنايديراي فوائد إلى فرسان الصليب الألماني حتى عام ألف وأربعمائة وستة وستين. ثم ضمتها المملكة البولندية إليها لغاية عام ألف وسبعمائة واثنين وسبعين. وأثناء المزاد الأوروبي كانت الكوشنايديراي من نصيب بروسيا. لقد حافظ البروسيون على الأمن والنظام هناك حتى عام ألف وتسعمائة وعشرين. ومنذ فبراير عام عشرين آلت قرى الكوشنايديراي إلى جمهورية بولندا، ثم أصبحت في عام ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين تابعة لإقليم الرايخ دانتسيغ- فيستبرويسن وجزءا من الرايخ الألماني الكبير: عنف. دبابيس مختبئة. أعلام صغيرة في الريح. إيواءات: السويد الهوصار أسلحة- فرق الحماية SS. إذا/ لم/ تفعل/ فسوف. . . الجذر/ والفرع. من/ اليوم/ صباحا/ الساعة/ أربعة/ وخمسة/ وأربعين/ دقيقة. دوائر مرسومة على خرائط عسكرية كبيرة. تم الاستيلاء على شلانغنتين في هجوم مضاد. مقدمة دبابات العدو في طريقها إلى دامراو. تمارس قواتنا ضغطا مكثفا على شمال غرب أوسترفيك. تظل الهجمات التشتيتية للفرقة الثانية عشرة من سلاح الطيران محصورة جنوب كونيتس. في إطار عملية تسوية الحدود تم إخلاء المنطقة المسماة بالكوشنايديراي. الكتائب المتبقية تأخذ وضعها جنوب دانتسيغ. المرعبون، الغيلان، المهرجون المفزعون يهزون ثقالة الورق ثانية، القبضة. . .

آه، يا تولا،

كيف لي أن أحكي لك عن الكوشنايديراي وعن هاراس وآثار رائحته وغراء العظم وملبس السعال وعربة الأطفال وقد أصبحت الحملقة إلى القبضة دافعا قهريا لدي!- لا بد أن تدور. كان يا ما كان أن سارت عربة أطفال. منذ سنوات عدة دارت عربة أطفال على أربع عجلات كبيرة. على أربع عجلات قديمة الطراز دارت عربة الأطفال بطلائها الأسود وقد تهتك القماش الذي يغطيها عند كل الثنيات. أسلاك العجلات المطلية بالكروم، والزنبرك والمقبض، ودفع العربة

كشفوا عن مواضع رمادية عمياء. زادت هذه المواضع يوما بعد يوم دون أن يلحظ ذلك أحد: ماض: كان يا ما كان: حينما.... في سنة اثنين وثلاثين: زمان، زمان، زمان، عندما كنت في الخامسة من عمري، في وقت أولمبيات لوس أنجلوس، تحركت قبضات سريعة وجافة ودنيوية، ومع ذلك، وكأنها لم تلحظ وجود التيار الهوائي، دُفعت ملايين من عربات الأطفال ذات العجلات الكبيرة والصغيرة تحت الشمس وفي الظل.

على أربع عجلات كبيرة من طراز قديم دارت في صيف عام اثنين وثلاثين عربة أطفال سوداء خفيفة ومتهتكة، اشتراها الطالب الثانوي إيدي أمزل، الذي كان يعرف كل محلات الحاجيات القديمة من حارة التاغنيت. وقد دفع العربة بالتبادل مع أستاذه أوزفالد برونيس وصديقه فالتر ماتيرن. والألواح الجافة رغم دهانها بالقطران والزيت، والتي تسير عليها العربة، هي ألواح أرضية مرسى بروزن، ذاك الشاطئ اللطيف، الذي كان الناس يستحمون فيه منذ عام ألف وثمانمائة وثلاثة وعشرين، بقرية صياديه المذكوكة ومنتجعه العلاجي ذي القباب وبنسيونات «غرمانيا» و«أويغينيا» و«إيلزه» وبكثبانه متوسطة الارتفاع وغابة الشاطئ ومراكب الصيادين وشاطئ الاستحمام المقسم إلى ثلاثة أقسام، ببرج الجمعية الألمانية لإنقاذ الحياة والمرسى الذي يبلغ طوله ثمانية وأربعين مترا. كان شاطئ مرسى بروزن يقع بالضبط بين نويفارفاسر وغليتكاو على شاطئ خليج دانتسيغ. وكان المرسى مكون من طابقين ويتفرع منه على الناحية اليمنى مصد قصير لأمواج بحر الشرق. على سواري الأعلام الاثني عشر رفرفت الأعلام كل أحد فوق مرسى بروزن: في البداية كانت أعلام مدن بحر الشرق. وبمرور الوقت، أخذت أعلام الصليب المعقوف تزداد.

تحت الأعلام، على ألواح أرضية المرسى دارت عربة الأطفال. الآن يقوم الأستاذ برونيس الذي يرتدي ملابس سوداء قاتمة وتظلله قبعته المتهدلة بدفع العربة، وسوف يقوم أمزل البدين أو ماتيرن الضخم بدفع العربة مكانه. في داخل العربة تجلس جيني التي قاربت السادسة وغير مسموح لها بالمشي. «ألا يمكن أن نترك جيني تمشي؟ من فضلك يا أستاذ. نجرب فقط. سنمسك بيديها من اليمين ومن اليسار». غير مسموح لجيني بالمشي. «هل تريدون أن أفقد الطفلة؟ هل تريدون أن يدهسها الناس في زحام يوم الأحد». الناس تأتي

وتذهب، لقاء، وداع، انحناءة، تجاهل، تلويح، تعانق، يشيرون إلى مصد الأمواج، إلى أدلرهورست، يطعمون النوارس بما قد أحضروه، تحية، ذكرى، ضيق. وكل الناس في ملابس أنيقة، بورود كبيرة للمناسبات الخاصة. ملابس بدون أكمام وملابس تلائم الموسم، ملابس التنس والبحارة. رابطة عنق في مهب ريح الشرق. كاميرات فوتوغرافية لا تكل. قبعات من القش برباط عرق جديد. أحذية كتانية لها بياض معجون الأسنان. كعوب أحذية عالية تخشى الشقوق بين ألواح أرضية المرسى. قباطنة مزيفون لم ينسوا نظاراتهم المعظمة. أو أيدٍ تظلل الأعين الناظرة إلى بعيد. سترات بحارة كثيرة، أطفال كثيرون، يجرون، يلعبون، يختبئون، ويخيفون بعضهم البعض. أرى شيئا، لا تراه أنت. حادي بادي كرنب زبادي، كيلو بامية، واحد اتنين تلاتة. هناك يسير السيد أنغليكر من النوينماركت مع توأميه. يرتديان بابيونات على شكل مروحة ويلعقان بلسانين شاحبين آيس كريم التوت. والسيد كوشنيك من شارع هرتا يسير مع امرأته وزائر من ألمانيا. يسمح السيد زلكه لأولاده واحدا تلو الأخر أن ينظروا عبر المنظار: غلالة من الدخان والجزء العلوي لسفينة «القيصر» تظهر في الأفق. لم يعد لدى السيد بيرينت وزوجته أي طعام للنوارس. السيدة غروناو التي تمتلك المغسلة في شارع هيرسانغر تسير مع الفتيات الثلاث اللائي يتدربن لديها. والخباز شيفلر من طريق الكلاينهامر مع زوجته الضاحكة. هاينه بيلنتس وهوتن زونتاغ دون الوالدين. والسيد بوكريفكه ذو الأصابع المغراة. تتعلق زوجته المصموصة بذراعه وتحرك رأسها دائما بسرعة مذهلة. تنادي «تولا». و«ألكسندر تعال هنا!» و«زيغسموند، انتبه إلى كونراد» حيث إن أهل الكوشنايديراي لا يتحدثون بلهجتهم على المرسى، بالرغم من عدم وجود الأسطى النجار ليناو وزوجته. فعلى ليناو أن يعمل بالورشة صباح الأحد كي يبين لأسطى الماكينات ما يجب عمله على المنشار القرصي يوم الاثنين. وزوجته لا تخرج أبدا بدون رجلها. لكن ابنه موجود هنا لأن تولا موجودة أيضا. الاثنان أصغر من جيني ومسموح لهما بالمشي. مسموح لهما بالحجل خلف الأستاذ برونيس وتلميذيه الخجولين بعض الشيء. مسموح لهما بالجري بطول المرسى حتى نهايته، حيث يشكل هناك مثلثا حادا تعصف به الرياح. مسموح لهما بهبوط الدرج الموجود علي يمين ويسار المرسى والمؤدي إلى طابقه السفلي، حيث يقبع الصيادون ويصطادون سمك

المُشوك. مسموح لهما بالعدو والاختباء تحت كمرات المرسى تحت خمسمائة حذاء خروج وتحت عصي التجوال والمظلات التي تلمس الأرض بخفة. المكان هنا بارد، ظليل وأخضر. هنا بأسفل ليس هناك حساب لأيام الأسبوع. للماء رائحة ملحية وشفاف بحيث يمكن رؤية القواقع والزجاجات الموجودة في القاع. على الأعمدة التي تحمل المرسى والناس السائرين فوقه، تتطاير ذقون من أعشاب البحر في حيرة: وهنا وهناك أسماك المشوك فضية نشطة عادية. تسقط أعقاب سجائر من فوق المرسى، ثم تنحل بنية في الماء وتجذب أسماك بطول الإصبع، سرعان ما تنفر منها. بنشاط تتحرك أسراب من السمك تتقدم، ترتعش، تدور، تتفرق، ثم تتجمع في طابق أسفل وترحل إلى حيث تتطاير ذقون أعشاب بحرية أخرى. تتأرجح سدادة من الفلين. تثقل ورقة لتغليف الشطائر وتترك نفسها للريح. بين الدعامات الخشبية المدهونة بالقطران تمسك تولا بفستانها الذي لصقت به بقع من القطران. كان على ابن عمتها أن يضع يده المنبسطة تحت الفستان. لكنه لا يريد وينصرف بنظره عنها. هي أيضا لم تعد تريد، لم يعد بإمكانها، تقفز من فوق الدعامة المتعاكسة إلى ممر السير وتجري بصندلها مقرقعة، فتوقظ الصيادين وتتطاير جدائلها. تصعد السلم المؤدي للمرسى، للأعلام الاثني عشر، لصباح يوم الأحد ويتبع ابن خالتها هاري رائحة بخار غرائها العظمي، الذي يطغى بشدة على رائحة ذقون أعشاب البحر ورائحة الدعامات المدهونة بالقطران والعفنة رغم ذلك ورائحة الممرات ذات الرياح الجافة ورائحة هواء البحر.

وأنت يا تولا،

قلتِ في صباح أحد الآحاد: «اتركوها. أريد أن أرى كيف تمشي».

والعجيب أن الأستاذ برونيس يومئ موافقا وتستطيع جيني أن تسير فوق ألواح أرضية مرسى بروزن. يضحكِ البعض، ويبتسم كثيرون لأن جيني سمينة جدا وتمشي على عمودين من الدهن محشورين في جوربين طويلين أبيضين وحذاء لامع مصقول فوق المرسى.

يقول برونيس من تحت قبعته السوداء «أمزل، هل عانيت وأنت طفل في السادسة من مشكلة. . . ، نقولها بدون حرج، من مشكلة السمنة؟»

«ليس بدرجة كبيرة يا أستاذ، لقد قام ماتيرن دائما بحمايتي. كنت أواجه فقط صعوبة في الجلوس بالفصل لأن المقاعد ضيقة.»

يقدم له برونيس أقراص الملبس. عربة الأطفال الخالية مركونة إلى جانب. يقود ماتيرن جيني بحذر. ترفرف الأعلام في اتجاه واحد. تريد تولا أن تمسك بيد جيني لتساعدها على المشي. عسى ألا تنزلق عربة الأطفال بعيدا. يمص برونيس أقراص ملبس السعال. لا تريد جيني أن تمسك تولا يدها وتكاد تبكي، لكن ماتيرن موجود ويقوم إيدي أمزل بسرعة بتقليد أصوات دجاج الحظيرة. وتبتعد تولا. يتجمع أناس كثيرون عند حافة المرسى: حيث سيكون هناك غناء. يصبح وجه تولا مثلثا وصغيرا جدا ويعتريها الغضب. ويغنون عند حافة المرسى. تقلب تولا عينيها. فتحات نوافذ مهشمة. شباب يقفون في المقدمة ويشكلون نصف دائرة. غضب الكوشنيفية النحيف: دول دول تولر. لا يرتدي كل الشباب زي شبيبة النازي، لكنهم جميعا يغنون، كثيرون يستمعون إليهم ويهزون رؤوسهم مؤيدين. «نحن/ نحب/ العواصف...» الجميع يغنون. والوحيد الذي لا يغني، يقف مشدودا ويحمل بيرقا مثلثا أسود مطرز عليه شعار جرماني. تظل عربة الأطفال خالية ووحيدة. والآن يغنون: «والصباح/ الباكر/ هو/ ساعتنا.» وبعد ذلك أغنية مضحكة: «رجل/ سمى/ نفسه/ كولومبوس.». وطلب شاب أجعد الشعر في الخامسة عشرة من عمره، كانت ذراعه اليمنى مربوطة لأنه غالبا قد جرح، من الجمهور بلهجة نصف آمرة ونصف مرتبكة بأن يغنوا معهم أغنية كولومبوس أو يرددوا اللازمة الغنائية على الأقل. غنت الفتيات الشابات اللائي شبكن أيديهن بعضهن ببعض والأزواج الشجعان ومن بينهم بوكريفكه والسيد بيرينت والبقال ماتسرات مع جوقة الغناء. تحدد الرياح الشمالية الشرقية اتجاه الأعلام وتنعم أصوات النشاز في الأغنية المضحكة. من يصيخ السمع، سيسمع من آن لآخر صوت طبل صفيح ينخفض أو يعلو عن الأغنية. إنه ابن البقال. لكنه لا يحافظ على لحن الأغنية. وكانت لازمات الأغنية اللانهائية كالتالي «غلوريا/ فكتوريا» و«فيده/ فيده/ فيت/ بوخ/ هايراسا»: شيئا فشيئا ستصبح المشاركة في الغناء شيئا إلزاميا. ينظرون فيما حولهم: «لماذا لا يغنى هذا الشخص؟» نظرة جانبية: السيد روبينسكي وزوجته يغنيان أيضا. وحتى زافاتسكي العجوز، الاشتراكي حتى النخاع، يغني معهم. إذن فلتغن أنت أيضا، تشجع! حتى السيد تسوريك وسكرتير البريد برونسكي يغنيان، رغم أن كليهما يعملان في ميدان هيفيليوس بمكتب البريد البولندي. «فيده/ فيدخ/ فيت/ بوم/

بوم.» والأستاذ برونيس؟ ألا يمكنه أن يبلع قرص الملبس الذي لا يفارق فمه وأن يتصرف وكأنه يغني معهم؟ «غلوريا/ فكتوريا!» تقف عربة الأطفال بعيدة وخالية على أربع عجلات كبيرة. يلمع طلاؤها أسود ومتشققا «فيده/ فيده/ فيت/ يوخ/ هايراسا!» يريد بابا برونيس أن يحمل جيني على ذراعيه وأن يحرر ساقيها السمينتين من الحذاء اللامع المصقول. لكن تلميذيه - «غلوريا/ فكتوريا!» -، وبخاصة الطالب الثانوي فالتر ماتيرن ينصحانه بألا يفعل. يغني إيدي أمزل معهم «فيده/ فيده/ فيت/ يوخ/ هايراسا!» فلأنه وليد سمين، يتمتع بصوت سوبرانو غلامي جميل وناعم، يبرز عاليا في بعض مواضع اللازمة الغنائية، مثلا عند «. . . . يوخ/ هايراساااه».

يسمون ذلك سوبرانو. ينظر كثيرون حولهم ويريدون أن يروا من أين يفيض هذا الغناء الجميل.

الآن يغنون لأن لأغنية كولومبوس، على غير المتوقع، مقطع أخير، أغنية حصاد «حملت/ سيارتي/ عن/ آخرها» والآن يغنون أغنية، يستحسن غناؤها مساءً: «ليس/ هناك/ بلد/ جميل/ في/ هذا/ الزمن». ويطلق إيدي أمزل العنان لصوته الغلامي السوبرانو. يمص برونيس أقراص الملبس بصورة واضحة للعيان وينظر ساخرا. يتجهم ماتيرن تحت السماء الخالية من الغيوم. تلقي عربة الأطفال بظل وحيد.

أين تولا؟

غنى ابن عمتها ستة مقاطع من أغنية كولومبوس. وأثناء المقطع السابع اختفى. هناك رائحة البحر المالحة ولا أثر لرائحة غراء العظم لأن أوغست بوكريفكه وزوجته وابنهما الأصم الأبكم كونراد قد وقفوا على الناحية الغربية للمرسى. وانتقلت الريح من الجهة الشمالية الشرقية إلى الجهة الشرقية. يغنون. حتى كونراد يفتح فمه في المواضع الصحيحة عن آخره ولم تفته البداية عندما حاولت الجوقة بقليل من الحظ غناء اللازمة الغنائية «أسطى/ ياكوب/ أسطى/ ياكوب».

أين تولا؟

اختفى أخوا تولا زيغسموند وألكسندر عن الأنظار. يراهما ابن خالتها هاري عند مصد الأمواج. هناك تتاح لهما فرصة الغطس. يتدرب زيغسموند على

الغطس من الوضع المقلوب والقفز في الماء من وضع الوقوف على الأيدي. ملابس الأخوين موضوعة على دعامة المرسى المعرضة للرياح وتثقلها أحذيتهما. تولا ليست معهما. من مرسى غليتكاو تقترب باخرة الرحلات حسب موعدها. يستطيع المرء من هنا أيضا رؤية مرسى تسوبوت. لون الباخرة أبيض ولها غلالة دخان سوداء كبيرة مثل الباخرات التي يرسمها الأطفال. من يريد أن يذهب بالعبّارة من بروزن إلى نويفارفاسر، يدخل إلى الجانب الأيسر عند حافة المرسى. أين تولا؟ ما تزال شبيبة هتلر تغني، لكن لم يعد أحد ينصت إليهم، لأن الباخرة تقترب وتصبح أكبر وأكبر. وتوقف إيدي أمزل أيضا عن الغناء بصوته السوبرانو. والطبل الصفيح تخلت عن إعطاء إيقاع للأغاني وتقهقر دويها أمام صوت الباخرة: إنها الباخرة «هيشت» لكن الباخرة «شفان» تشبهها تماما. الوحيدة المختلفة هي الباخرة «باول بينيكه». أولا لأن لها عجلات دفع جانبية غارفة وثانيا لأنها أكبر، أكبر بكثير وثالثا لأنها تنتقل ما بين دانتسيغ- لانغبروكه وتسوبوت وغدينغن وهيلا، ولا تأتي مطلقا إلى غليتكاو وبروزن. أين تولا؟ في البداية يبدو الأمر كالتالي: لا تريد الباخرة «هيشت» أن ترسي على مرسى بروزن، ثم تغير اتجاهها وتتحرك طوليا بسرعة غير متوقعة. لا يزبد الماء عند مقدمة ومؤخرة الباخرة وحدهما. تدخل الباخرة إلى المرسى مترجرجة وتُحدث دوامات بالماء. تلقى الحبال إلى المرسى. تصر مرابط الحبال. على يمين السفينة هناك زكائب من الخيش بلون الرمل تخفف من حدة التصادم عند الرسو. يصاب كل الأطفال وبعض النساء بالفزع لأن الباخرة «هيشت» سوف تطلق نفيرها حالا. يغلق الأطفال آذانهم ويفتحون أفواههم ويرتعدون مسبقا: تصدر الباخرة نفيرها بصوت قاتم يتحشرج عاليا عند نهايته ثم تبقى مربوطة بالمرسى. يعود الأطفال إلى لعق الآيس كريم، لكن البعض منهم ممن على ظهر الباخرة وعلى المرسى يبكي ويسد أذنيه ويثبتون أنظارهم على مدخنة الباخرة، لأنهم يعرفون أن الباخرة «هيشت» سوف تطلق نفيرها مرة ثانية قبل رسوها، ويخرج منها دخان له رائحة البيض الفاسد.

أين تولا؟

جميلة هي البواخر البيضاء حينما لا يكون بها مواضع صدئة. ليس بالباخرة «هيشت» أي موضع صدئ، لكن علم ولاية دانتسيغ الحرة على مؤخرة الباخرة

وبيرق شركة البواخر «فايكسل» كانا باهتين ومتهتكين. ما يصعد على ظهر الباخرة وما يخرج منها. تولا؟ ينظر ابن عمتها خلفه. على الناحية اليمنى للمرسى لا يوجد سوى عربة الأطفال الواقفة على عجلات أربع وتلقي بظل الساعة الحادية عشرة الذي يلتحم مباشرة بظل سور المرسى. ويقترب من ذاك المزيج الظلي ظل هزيل غير منقسم: تأتي تولا من أسفل. كانت عند ذقون أعشاب البحر المرفرفة وعند الصيادين المسحورين وأسماك المشوك المتدربة. تصعد السلم نحيفة بفستان قصير وتصطدم ركبتاها بطرف الفستان. وتريد أن تقفز من مطلع السلم على عربة الأطفال. يصعد آخر المسافرين على ظهر الباخرة «هيشت». ما يزال بعض الأطفال يبكون وبعضهم عاود البكاء. عقدت تولا ذراعيها وراء ظهرها. وبرغم أن بشرتها في الشتاء بيضاء مزرقة، فإنها تتحول بسرعة إلى اللون البني. لون بني مصفر جاف، لون غراء الخشب، يخفي آثار التطعيم الوقائي على جلدها. واحد اثنين ثلاث أربع جزر على الذراع الأيسر بحجم ثمرات الكرز تظل شاحبة ولا تخفى عن الأنظار. مع كل باخرة تأتي بعض النوارس وتذهب بعض النوارس. تتبادل الناحية اليمنى للباخرة بعض الكلمات مع الناحية اليسرى للمرسى: «تعالوا مرة ثانية وأحضروا الفيلم للتحميض. إننا متشوقون جدا لذلك. تحياتنا إلى الجميع، هل تسمعني؟» تقف تولا بجانب عربة الأطفال الخالية. تصدر الباخرة نفيرها عاليا عميقا ويغشى صوتها على كل شيء. لا تغلق تولا أذنيها. يريد ابن عمتها أن يغلق أذنيه، لكنه لا يفعل. يقف كونراد الأصم الأبكم ما بين إرنا وأوغست بوكريفكه وينظر إلى الماء عند مؤخرة السفينة ويغلق أذنيه. الكيس المصنوع من ورق التغليف البني مكور عند الجزء السفلي للعربة. لا تأخذ تولا أي ملبس. عند مصد الأمواج يتصارع صبيان مع صبي ثالث: يسقط اثنان منهما في البحر ويظهران ثانية: ويضحك ثلاثتهم. الآن حمل الأستاذ برونيس جيني على ذراعه. لا تعرف جيني إن كان عليها أن تبكي أم لا، حيث إن الباخرة قد أطلقت نفيرها. وينصحها الأستاذ برونيس وتلميذاه بألا تبكي. عقد إيدي أمزل بمنديله أربع عقد ووضع الطاقية الناشئة عن ذلك على شعره الأحمر الناري. ولأن شكله مضحك في جميع الأحوال، فلم يبد مضحكا بسبب هذا المنديل المعقود. نظر فالتر ماتيرن بتجهم إلى الباخرة البيضاء التي تفارق رصيف المرسى مرتعدة. ويلوح الرجال والنساء والأطفال وشبيبة النازي ببيرقهم الأسود من على ظهر

السفينة ويضحكون ويصيحون. تحوم النوارس وتهبط ثم تعلو وتحملق من رؤوسها المبرومة بميل. تركل تولا بوكريفكه بخفة العجلة الخلفية اليمنى لعربة الأطفال: لم يتحرك ظل العربة قيد أنملة. وشيئا فشيئا يغادر الرجال والنساء والأطفال الناحية اليسرى لحافة المرسى. تطلق الباخرة «هيشت» دخانها الأسود وتستدير ماخرة عباب البحر ويصغر حجمها بسرعة متخذة طريقها إلى مرسى ميناء نويفارفاسر. وتحفر في البحر الهادئ طريقا من الرغاوي البيضاء سرعان ما تنمحي. لا تتبعها كل النوارس. تولا تعرف ما تفعله: ترجع برأسها وجدائلها للوراء ثم تتركه يندفع للأمام وتبصق. يحمر وجه ابن عمتها ولا يذهب عنه الحرج. ينظر حوله، ليرى إذا كان أحد قد شاهد تولا وهي تبصق على عربة الأطفال. على السور الأيمن للمرسى يقف طفل في الثالثة من عمره مرتديا بدلة بحار، ويحيط بطاقيته البحرية رباط حريري مكتوب عليه بخط ذهبي «سفينة جلالته: زايدليتس». تتمايل نهايات الرباط ببطء مع الريح الشمالية الشرقية. تتعلق على صدر الطفل طبلة أطفال من الصفيح وتبرز من بين يديه عصي الطبلة. لم يطبل، عيناه زرقاوان وينظر إلى تولا، أثناء بصقها للمرة الثانية على عربة الأطفال الخالية. اقتربت أحذية صيفية كثيرة وأحذية قماش وصنادل وعصي تجوال ومظلات من حافة المرسى عندما صوبت تولا للبصق لثالث مرة على عربة الأطفال.

لست أدري ما إذا كان هناك شهود آخرون بخلافي أنا وابن البقال، عندما بصقت تولا ثلاث مرات متوالية على عربة جيني الخالية، ثم غادرتها نحيفة ببطء بالغ متجهة إلى المصحة العلاجية.

عزيزتي بنت الخال،

ما زلت لا أستطيع أن أكف عن وضعك على الألواح المتوهجة لمرسى بروزن: في أحد أيام الآحاد من العام التالي ولكن في الشهر نفسه، أي في شهر أغسطس المتقلب الأجواء والذي تكثر فيه قناديل البحر، عندما غادر رجال ونساء وأطفال بالحقائب المخصصة للذهاب إلى الشاطئ ضاحية لانغفور كثيرة الغبار وذهبوا إلى بروزن ليعسكر معظمهم على الشاطئ، وليتجول عدد قليل منهم على المرسى، في يوم علقت فيه ثمانية أعلام لمدن بحر الشرق وأربعة أعلام تحمل الصليب المعقوف متهدلة على اثني عشر ساريا، حين هبت عاصفة بحرية على

أوكسهوفت، حين لسعت القناديل النارية وانتعشت القناديل البيضاء المزرقة التي لا تلسع في الماء الفاتر، في يوم من أيام أغسطس تاهت جيني.

هز الأستاذ برونيس رأسه موافقا. أخرج فالتر ماتيرن جيني من عربة الأطفال ولم ينتبه إيدي أمزل إليها عندما تاهت بين جموع البشر التي ارتدت ملابس الخروج. وزادت عاصفة أوكسهوفت الطين بلة. لم يعثر فالتر ماتيرن على جيني ولم يجدها أمزل أيضا. لقد وجدتها أنا، لأنني كنت أبحث عن ابنة خالي: دائما كنت أبحث عنك أنت وأجد في معظم الأحيان جيني برونيس.

في هذه المرة حينما تزايدت العاصفة الآتية من الغرب، وجدت كلتيهما. وتولا كانت تمسك بكلبنا هاراس الذي أخذته معي بإذن والدي، من رباطه.

على أحد الممرات الممتدة طولا وعرضا أسفل المرسى، عند نهاية ممر لا يفضي إلى أي طريق آخر أي حارة سد وجدتهما. رقدت وقد أخفتها الدعامات والسنادات مرتدية فستانها الأبيض في ظل ضوء أخضر متغير يغشاه بعض الظل وفوقها حواف الحذاء المدرسي الخفيف وتحتها: لعق رشف نقنقة زفير- مكورة مرعوبة وباكية: جيني برونيس. لأن تولا قد أرعبتها. لقد أمرت هاراس أن يلعق وجهها وقد أطاعها.

قالت تولا «قولي خرى» وجيني تردد وراءها.

قالت تولا «قولي أبي يضرط دائما» وتوافقها جيني في ذلك وهو أمر كان يفعله الأستاذ برونيس أحيانا.

ثم قالت تولا «قولي أخي يسرق دائما». لكن جيني أعقبت: «ليس لي أخ. والله».

حينئذ اصطادت تولا بذراعها الطويل قنديلا مرتعشا لا يلسع. كان عليها أن تمسك بهذا الكائن الهلامي ذي اللون الأبيض الزجاجي والذي يخرج من قلبه أوردة وعقدا بنفسجية مزرقة بكلتا يديها.

أمرت تولا «ستأكلينه حتى لا يبقى منه شيء، ليس له طعم، كلي». تصلبت جيني وأرتها تولا كيفية أكل القناديل. لقد رشفت قدر ملعقتين من القنديل ومضغت الكتلة الهلامية بين أسنانها ونفثت من بين ثنيات قاطعيها العلويين خيطا من المادة الهلامية على يسار جيني وكادت تلامسها. ابتلعت التقلبات الجوية الشمس الساطعة فوق المرسى.

«أرأيت كيف يأكل المرء القناديل، عليك الآن أن تفعلي ذلك بنفسك.»

بدا وجه جيني على استعداد للبكاء. هددتها تولا: «هل أنادي الكلب؟» وقبل أن تتمكن تولا من إثارة كلبنا هاراس- على أية حال لم يكن ليفعل شيئا سيئا- ناديته أنا ليجلس عند قدمي. لم يذعن لي مباشرة، لكنه توجه إلي برأسه المحاط بالرباط. وأمسكت به. أرعدت السماء بأعلى. اقتربت تولا وألصقت بقايا القنديل بقميصي ودفعتني وانصرفت. وأراد هاراس أن يتبعها. وكان علي أن أناديه مرتين «قف». عن يميني أخذت جيني من يدها وقدتها عبر المرسى العاصف، حيث كان الأستاذ برونيس وتلميذاه يبحثون عنها بين ضيوف المصيف المنصرفين. كانوا ينادون «جيني» وبهم وجل أن يحدث لها مكروه. بعد هبة الرياح الأولى أنزلت إدارة المرسى ثمانية أعلام مختلفة وأربعة أعلام متشابهة. أمسك بابا برونيس بمقبض عربة الأطفال: اهتزت العربة. سقطت قطرات المطر الأولى. وضع فالتر ماتيرن جيني في عربة الأطفال: لم تتوقف العربة عن الاهتزاز. وحتى عندما كنا في مكان جاف وقدم الأستاذ برونيس بأصابع مرتعشة ثلاثة أقراص من ملبس السعال، استمرت العربة في الاهتزاز. التقلبات الجوية مسرح متجول استمر في التجوال بسرعة محدثا جلبة كبيرة.

بنت خالي تولا

توجب عليها أن تصرخ عاليا على المرسى نفسه. في ذاك الحين، كان باستطاعتنا كتابة اسمائنا، ولم تعد جيني في حاجة إلى عربة الأطفال، بل ذهبت مثلنا، خطوة بخطوة إلى مدرسة بستالوتسي. وكانت الإجازات تأتي في موعدها ومعها تذاكر المواصلات الخاصة بالتلاميذ وطقس الاستحمام ومرسى بروزن. عندما يكون الجو عاصفا ترفرف على سواري الأعلام الاثني عشر ستة أعلام لمدينة دانتسيغ الحرة وستة أعلام للصليب المعقوف ولم تعد تلك الأعلام تابعة للمنتجع العلاجي بل إلى مجموعة حي بروزن. وقبل أن تنتهي الإجازة غرق كونراد بوكريفكه بعد الساعة الحادية عشرة بقليل. أخوك ذو الشعر المجعد، الضاحك بلا صوت والذي كان يغني معك ويفهم كل شيء. لن يعاود الحديث بالأيدي بعد ذلك مطلقا: الكوعان، الجبين، الجفن السفلي، إصبعان معقودتان أمام الأذن اليمنى، الخد على الخد: تولا وكونراد. الآن اختفت إصبع منها، لأنه. . . . تحت مصد الأمواج.

الشتاء هو السبب. لقد أثقل كاهل المرسى بالجليد وذوبانه وبالجليد الطافي وبعواصف فبراير. صحيح أن إدارة المنتجع العلاجي قد أصلحت المرسى بقدر ما، دهنته بالأبيض وبدا من خلال سواري أعلامه الجديدة لامعا وله بهجة الإجازات- لكن أحد أجزاء الأعمدة القديمة الذي كُسر بفعل الجليد وأحجار المصدات الثقيلة تحت سطح الماء، قد ظهر بخبث وأودى بحياة أخي تولا الصغير. بالرغم من أن السباحة عند مصد الأمواج كانت ممنوعة هذا العام إلا أن أولادا كثيرين أتوا من المسبح المفتوح سباحة قاصدين مصد الأمواج جاعلين منه برجا للقفز. لم يأخذ زيغسموند وألكسندر بوكريفكه أخاهما معهما، لقد جاء وراءهما سابحا سباحة الكلاب، أخذ يضرب بيديه ورجليه واستطاع السباحة وإن كانت سباحته ليست حسب القواعد. غطس الثلاثة حوالي خمسين مرة قافزين من مصد الأمواج وظهروا ثانية. ثم غطسوا سبع عشرة مرة وظهروا سويا ست عشرة مرة فقط. لو لم يجن جنون كلبنا هاراس، لما كان بإمكان أي شخص أن يدرك بسرعة عدم صعود كونراد. لقد كان هاراس يعدهم وهو واقف على المرسى. أخذ يصعد ويهبط على مصد الأمواج وينبح غير مطمئن وأخيرا وقف ونهنه تجاه السماء.

في هذا الوقت رست السفينة «شفان»، لكن الناس تجمعوا على الناحية اليمنى للمرسى، الوحيد الذي لم يفهم ما حدث كان بائع الآيس كريم الذي استمر في النداء على بضاعته: «فانيليا، ليمون، فالدمايستر، فراولة، فانيليا، ليمون. . . »

لم يخلع فالتر ماتيرن سوى حذائه وقفز من فوق سور المرسى في الماء. غطس ماتيرن بالضبط عند الموضع الذي وصفه كلبنا هاراس أولا منهنها ثم نابشا بقدميه الأماميتين. أمسك إيدي أمزل بحذاء صديقه. ظهر ماتيرن فوق سطح الماء ثم غاص ثانية. لحسن الحظ لم تشاهد جيني شيئا. لقد جلست مع الأستاذ برونيس خلف أشجار حدائق المصحة العلاجية. ولم يتم تخليص كونراد الأصم الأبكم من بين العمودين المكسورين المرتفعين قليلا عن القاع واللذين انحشر رأسه بينهما، إلا بمساعدة زيغسموند بوكريفكه ورجل آخر لا ينتمي إلى فريق الإنقاذ. وبمجرد أن وضعوه على ألواح المرسى أتى فريق الإنقاذ بجهاز الأوكسجين. صفرت السفينة «شفان» للمرة الثانية واتخذت طريقها في البحر إلى المصايف الأخرى. لم يُوقف أحد بائع الآيس كريم: «فانيليا، ليمون، فالدمايستر. . . » ازرقّ رأس

كونراد. كانت يداه وقدماه مصفرة مثل كل الغرقى. تمزق منبت حلمة أذنه اليمنى بين الأعمدة: سال دم فاتح على الألواح. لم ترد عيناه أن تنغلقا. ظل شعره المجعد مجعدا تحت الماء. تشكلت بقعة من الماء حول ذاك الغارق الذي بدا حجمه أقل مما كان عليه عندما كان على قيد الحياة. أثناء محاولات إعادة الحياة إليه- لقد استخدموا لذلك جهاز الأوكسجين- أغلقتُ فم تولا. وعندما رفعوا عنه الجهاز، عضت يدي وصرخت عاليا تجاه السماء وفاق صراخها نداء بائع الآيس كريم، لأنها لن تستطيع من بعد أن تتحدث لساعات طويلة بلا صوت إلى كونراد، بالأصابع والخد على الخد، بإشارات الجبين وإشارات الحب: مختبئين في المخزن الخشبي، أو تحت المرسى حيث الرطوبة، سرا في المخابئ أو في العلن مع الاحتفاظ بالسرية في شارع الإلزن النابض بالحياة.

عزيزتي تولا،

لا بد أن صرختك كانت طويلة النفس: فما زالت تعشش في أذني وتحتفظ بنبرتها العالية الواصلة للسماء.

في السنة التالية والسنة التالية عليها لم يمكن الذهاب بكلبنا هاراس إلى مصد الأمواج. لقد بقي مع تولا التي كفت أيضا عن الذهاب إلى المرسى. ولاتفاق الاثنين على ذلك حكاية:

في صيف العام نفسه، ولكن قبل غرق كونراد الأصم الأبكم، طُلب هاراس للتعشير. عرفت الشرطة بشجرة سلالة هاراس وأرسلت مرة أو مرتين في العام خطابا موقعا من ملازم شرطة اسمه ميرشاو. لم يرفض أبي أبدا مثل هذه الخطابات ذات اللهجة الآمرة: أولا هو لا يريد مشاكل مع الشرطة، نظرا لوضعه كأسطى نجار، إضافة إلى أن التعشير كان يجلب مبلغا لا بأس به في كل مرة، عندما يقوم به كلب له سلالة هاراس، ثالثا كان فخر أبي بكلبه واضحا جدا: عندما يذهب الاثنان إلى هذا العمل المدفوع الأجر، يمكن للمرء أن يظن أن الشرطة لم تطلب هاراس للتعشير، بل طلبت أبي.

سُمح لي أن أذهب معهما للمرة الأولى: صحيح أن أحدا لم يوضح لي كيف يتم ذلك، لكنني لم أكن جاهلا بالأمر. ارتدى أبي رغم الحرارة بدلة كان يرتديها فقط في اجتماعات طائفة النجارين. وأحاط جاكت البدلة ذو اللون الرمادي الوقور بكرشه. تحت القبعة القطيفة أمسك بسيجار بني فاتح من النوع الرخيص،

ثمنه ١٥ بفنيغا. وبمجرد أن خرج هاراس من الكوخ ووضعت له الكمامة لتجنب أذاه - حيث إننا ذاهبون للشرطة - حتى عاد إلى لعبته القديمة، الجر المضني بالحبل. وصلنا إلى هوخشتريس بسرعة فاقت السرعة الممكنة والمقياس في ذلك هو الجزء الكبير الباقي من السيجار.

هوخشتريس هو اسم شارع يتفرع من الشارع الرئيسي لحي لانغفور باتجاه الجنوب. على اليسار هناك منزلان صغيران يسكن فيهما ضباط الشرطة وعائلاتهم، على اليمين معسكر مبني من الطوب كابي اللون، بُني في الماضي لضباط هوصار ماكينزن وأصبح في الوقت الحالي مأوى للشرطة. عند بوابة طريق بيلونك التي يندر استخدامها، ليس أمامها كشك حراسة، هناك فقط حاجز وحجرة حراسة - قدم أبي دون أن يخلع قبعته رسالة ملازم الشرطة ميرشاو. ورغم أن أبي يعرف الطريق فقد اصطحبنا أحد الحراس عبر أحواش المعسكر المفروشة بالحصى والتي تدرب فيها أفراد الشرطة مرتدين زيا رماديا فاتحا وقد التفوا في نصف دائرة حول رئيسهم. عقد كل المجندين أيديهم خلف ظهورهم مسترخين وأعطوا انطباعا بأنهم يستمعون إلى محاضرة. أدارت الريح الآتية من الثقب الموجود ما بين كراجات الشرطة وساحتها الرياضية عواصف ترابية صغيرة متجولة. وبطول اصطبلات الخيالة التي لا تنتهي قام مجندو الشرطة بعمل سباقات تخطي الموانع: عبر حوائط التسلق وحفر الماء ودعامات الزحف والأسلاك. وتحد كل أحواش المعسكر بانتظام أشجار زيزفون صغيرة نحيفة مسنودة بدعامات. ثم أصبح من المستحسن أن نمسك بهاراس جيدا ونشده إلينا. في حوش مربع صغير - على يمينه ويساره مخازن وفي الخلفية مبنى مسطح - يتوجب على كلاب الرعاة، حوالى تسعة كلاب، أن تسير إلى جانب مدربيها، أن تقف على ساقين وأن تحضر أشياء وأن تهاجم وأن تتسلق حوائط التسلق مثل المجندين وأخيرا وبعد كثير من أعمال تقصي الأثر عن طريق حاسة الشم، يهاجمون شرطيا متخفيا في شكل محتال يمثل مشهد الهرب الكلاسيكي ويرتدي بطانات لحمايته من العض. حيوانات معتنى بها ولكن ليس بينها واحد مثل هاراس. ألوانها كلها تتراوح ما بين اللون الرمادي للحديد أو الرمادي بعلامة بيضاء أو الأصفر الباهت بظهر أسود أو أسود غائم فوق لون بني فاتح في الطبقة السفلية للفراء. عج الحوش بالأوامر وبنباح الكلاب تبعا للأوامر.

كان علينا أن ننتظر في المكتب الخاص بكلاب الشرطة. كان الملازم ميرشاو يفرق شعره على الناحية اليسرى في خط مستقيم. أخذوا هاراس وتبادل أبي مع الملازم ميرشاو بعض العبارات المعتادة التي يتبادلها ملازم شرطة مع أسطى نجار عندما يجلسان معا لوقت قصير في غرفة واحدة. ثم يحني ميرشاو رأسه. ويتحرك مفرق رأسه يمينا ويسارا بينما هو يعمل، غالبا كان ينظر إلى تقاريره. كان بالغرفة نافذتان يمين ويسار الباب. كان من الممكن رؤية الكلاب المتدربة، لو لم تكن النافذتان مدهونتين بالطلاء حتى ثلثهما الأعلى. على الحائط المدهون بالجير في مقابل واجهة النافذة عُلقت دستتان من الصور المحاطة بإطار أسود. وللدستتين مقاس الصور نفسه وتتفرع المجموعتان في شكل هرمين - في البدء ست صور ثم أربع ثم اثنتان بأعلى من مقاس كبير، أعرض من الصور الأخرى لكنهما محاطتان أيضا بإطارين أسودين. وكانت جميع الصور الأربع والعشرين تعرض لكلاب رعاة، تجلس عند أقدام رجال شرطة وأكبر صورة مؤطرة محتفى بها كانت تعرض لوجه رجل عجوز يلبس خوذة. بسن معدني بارز بدت نظرة الرجل من تحت أجفانه الثقيلة متعبة. سألت بصوت عال جدا عن اسم الرجل الذي في الصورة. أجاب الملازم ميرشاو دون أن يرفع رأس، إنه رئيس الرايخ[٢] وهذا التوقيع المكتوب بالحبر أسفل الصورة بخط السيد العجوز ذاته. كذلك كانت هناك آثار حبر أسفل صور الكلاب ورجال الشرطة: غالبا أسماء الكلاب وإشارة إلى شجرة سلالتها واسم ورتبة رجال الشرطة، وقد يكون مسجلا أيضا، ما تم إنجازه من أعمال مكافحة الجريمة في سنوات وجود هذه الكلاب والمسؤولين عنها من رجال الشرطة في الخدمة، ويكتب مثلا اسم المجرم أو المهرب أو القاتل الذين تم التوصل إليهم من خلال هذا الكلب أو ذاك.

خلف المكتب ووراء ظهر الملازم ميرشاو تعلقت بشكل سيميتري أيضا ست ورقات مؤطرة وموضوعة خلف زجاج، لم أتمكن من قراءتها من مكاني. من نوع الخط وأبناطه المختلفة يمكن أن تكون هذه شهادات مكتوبة بالخط القوطي ومؤطرة بماء الذهب وبها أختام عادية وأختام بارزة. غالبا يتعلق الأمر بكلاب شرطة تلقت تدريبها في مركز كلاب الحراسة بشرطة لانغفور- هوخشتريس

---

(٢) يعني هندنبورغ. (مترجم)

وفازت بالجائزة الأولى أو الثانية أو الثالثة في مسابقات عبر إقليمية لكلاب الشرطة. على المكتب على يمين مفرق الشعر الذي يتمايل وفقا لمجريات العمل، وقف تمثال من البرونز أو قد يكون فقط من الجص، لكلب رعاة وكان طول التمثال في حجم كلب من تلك الكلاب قصيرة القوائم، ومن الوهلة الأولى يستطيع العليم بأمور الكلاب أن يرى أن الكلب قد جلس على عرقوبه مثل البقرة وجعل مؤخرته تسقط حتى منبت الذيل بشكل حاد.

ورغم كل العلوم الكلابية لم تكن هناك رائحة كلاب في مكتب كلاب الحراسة الخاص بشرطة لانغفور- هوخشتريس بل كانت هناك رائحة جير، لأن المكتب قد دُهن حديثا بالجير وغمرت شجيرات الزيزفون الست أو السبع التي تزين النافذتين الغرفة برائحة حادة وجافة. كان على أبي أن يعطس عدة مرات بصوت عال وكان ذلك محرجا بالنسبة لي. وعاد هاراس بعد نصف ساعة. ولم ألمح عليه أي شيء. حصل أبي على ٢٥ غولدن كمقابل للتعشير وشهادة تعشير لها لون أزرق فاتح، تبين تفاصيل أدق عن حالة الكلب ومدى رغبة الذكر في التعشير ويرد بها رقمان مقيدان في سجل التعشير. بصق الملازم ميرشاو في قصرية البصاق ذات الطلاء الأبيض الموجودة عند الرجل الخلفية اليسرى لمكتبه، حتى أظل محتفظا بصورته في ذاكرتي، ثم استند مسترخيا على المقعد وقال إنهم سيخبروننا إن نجحت عملية التعشير. وسيتم تحويل باقي نقود التعشير كالمعتاد، حينما يحدث النجاح المنشود.

ارتدى هاراس كمامته مرة أخرى ووضع أبي شهادة التعشير والقطع الخمس من عملات الغولدن في جيبه وكنا في طريقنا إلى الباب، حينئذ رفع ميرشاو رأسه عن ملفاته مرة أخرى قائلا لوالدي «لا بد أن تقلل من خروج الكلب، فقيادته بالحبل شيء بائس. تنبئنا شجرة سلالته بوضوح أن أصله يرجع عبر أجيال ثلاثة إلى ليتوانيا. وقد ينقلب حال الكلب بين يوم وليلة. لقد مررنا بكل التجارب. إضافة إلى ذلك كان ينبغي على مربي الكلاب ماتيرن أن يتمم تعشير الكلبة سنتا من طاحونة لويزه مع الكلب بلوتو من تيغه تحت إشراف وإقرار اتحاد مربي الكلاب في نويتايش.» ثم صوب إصبعه تجاهي: «ولا تترك الكلب كثيرا في صحبة الأطفال. فهو يظهر إشارات بدء التوحش. الأمر سيان بالنسبة لنا لكنه سيسبب لك مشكلات كثيرة من بعد.»

الملازم لم يعنك أنتِ،

بل كنت أنا المقصود. مع ذلك كنت أنتِ من ربى هاراس بطريقة خاطئة.

تولا النحيفة ذات العظام البارزة. تمر عبر أي شق بأي سور. هي ورقة مكورة تحت السلم، ورقة مكورة تهبط درابزين السلم. وجه تولا الذي غطت فيه فتحتا أنفها ذات المخاط الجاف المتشقق في أغلب الأحيان على باقي تفاصيل الوجه، لقد كانت تتكلم من أنفها. لقد فاقت فتحتا أنفها عينيها الملتصقتين ببعضهما في الأهمية.

ركبة تولا ذات الكدمات والبثور الجافة التي تماثلت للشفاء والتي ستصاب بكدمات جديدة.

عرق تولا برائحة غراء العظم، عرائس بغراء الخشب وباروكات من نشارة الخشب، ينشرها لها أحد العمال خصيصا من خشب طويل.

كان بإمكان تولا أن تصنع بكلبنا هاراس ما تريد، وكانت تفعل بهاراس ما يخطر ببالها. كان كلبنا هاراس وأخوها الأصم الأبكم كونراد لوقت طويل تابعيها الأساسيين، بينما كنت أنا - من أراد دائما بحرقة أن ينضم إليهم - دائما خلف الثلاثة وكان علي مع ذلك أن أتنفس بعيدا عن عرق تولا بغرائه العظمي، عندما كنت ألحق بهم عند قناة الشتريس أو بركة الأكتسين أو عند مرج فوربل أو عند مخزن جوز الهند بمصنع السمن الصناعي «أمادا» أو عند الخنادق. لأنه عندما كانت ابنة خالتي تقوم بملاطفة أبي - تولا كانت قادرة على ذلك - كان يسمح لهاراس بالذهاب معها. قادت تولا كلبنا هاراس معها إلى غابة أوليفا وإلى زاسبه وعبر المجاري وخلال الغرف الخشبية خلف يونغشتادت أو على مرسى بروزن، حتى غرق كونراد.

ظلت تولا تصرخ لخمس ساعات متواصلة.

وبعدها تصرفت وكأنها صماء بكماء. طوال يومين وحتى تم دفن كونراد بالمقابر المتحدة بجوار طريق هندنبورغ، ظلت متشنجة في سريرها، أو بجانب السرير أو تحته، ولم ترد أن تتزحزح من هناك حتى انتقلت في اليوم الرابع بعد وفاة كونراد إلى كوخ الكلب عند الحائط الأمامي لمخزن الخشب الذي كان مخصصا فقط لهاراس.

ولكن تبين أن هناك مكان لكليهما في الكوخ. رقدا بجوار بعضهما. أو

رقدت تولا وحدها في الكوخ وجلس هاراس بالعرض أمام مدخل الكوخ. ولم يمض وقت طويل حتى رقد كلاهما جنبا إلى جنب في الكوخ. كان هاراس يغادر الكوخ لكي ينبح أو يزوم على أحد الموردين الذين يحضرون مفصلات للأبواب أو أنصال للمنشار الآلي. وعندما تكون لدى هاراس الرغبة في رفع ساقه الخلفية لإخراج روثه أو عندما يذهب إلى وعاء طعامه أو شرابه، كان هاراس يترك تولا لوقت قليل، ثم يدخل بعد ذلك بظهره في الثقب الضيق لأنه لم يكن بإمكانه أن يستدير في الكوخ الضيق، وترك هو حافريه المعقودين فوق بعضهما على عتبة الكوخ بينما تركت هي ضفيرتيها الرفعيتين المربوطتين بالشرائط على العتبة. إما أن الشمس كانت تسطع على الورق المقطرن المغطي لسطح الكوخ أو أنهما كانا يسمعان خرير المطر على السطح القطراني، أو ربما كانا لا يسمعان خرير المطر، بل صوت المخرطة، أو صوت ماكينة التشطيب أو ماكينة السحج المدوية أو المنشار القرصي الذي كان ينفعل ثم يهدأ ثم يعاود الانفعال من جديد والذي كان لا يكل عن اتخاذ مساره العالي الحاد، عندما تهدر الأمطار في حوش ورشة النجارة وتعاود صنع حفر الماء المعتادة نفسها.

رقدت على نشارة الخشب. في اليوم الأول جاء إليها أبي وأسطى الماكينات دريزن، الذي كان أبي يخاطبه بعد العمل بصيغة غير رسمية. وجاء أوغست بوكريفكه مرتديا قبقابا وجاءت إرنا بوكريفكه مرتدية شبشبا. لم تأت أمي وكلهم قالوا لتولا «اخرجي الآن، هذا يكفي» لكن تولا لم تخرج ولم تقف ولم تترك الكوخ. وكل من أراد دخول كوخ الكلب تردد عند الخطوة الأولى. لأن الدخول إلى الكوخ دون إبعاد حافري هاراس بعضهما عن بعض، يزيد من زومه وكان لذلك معنى. تبادل السكان ذوو الأصل الكوشنيفي والسكان القدامى لحي لانغفور ومستأجرو الشقق ذات الحجرتين ونصف، المشورة من طابق لآخر «ستخرج بالتأكيد عندما تمل ولما تلاقي إن الواحد بالطريقة هذه لا يمكن يعيد كونراد إلى الحياة.»

لكن تولا لم تر ذلك،

ولم تخرج. وفي مساء يوم كوخ الكلب الأول لم تكن قد ضجرت من البقاء في الكوخ. رقد كلاهما على نشارة الخشب التي كانت تجدد يوميا. كان ذلك هو عمل أوغست بوكريفكه منذ سنوات. وهاراس كان يهتم بتجديد نشارة الخشب

وبذلك كان الأب بوكريفكه هو الوحيد، من بين كل من حاولوا مع تولا، المسموح له الاقتراب من الكوخ حاملا معه سلة بها نشارة خشب طازجة. إلى جانب ذلك كان يحمل معه جاروفا ومقشة تحت إبطه وكان هاراس يغادر الكوخ دون أن يطلب منه أحد ذلك، بمجرد أن يأتي أوغست بوكريفكه محملا بعدته، ثم يشد فستان تولا قليلا ثم بشدة، حتى تتحرك وتخرج إلى حيث الضوء ثم تتكور بجانب الكوخ. وأثناء تكورها ودون أن تنظر، فعيناها كانتا مقلوبتين، بحيث لم يبدو منهما سوى بصيص من بياض، أي «بشبابيكها المهشمة»، قامت بالتبول. انتظرت دون تبرم، بالأحرى دون تدخل، حتى جدد أوغست بوكريفكه نشارة الخشب وقال لها تلك الكلمات التي خطرت له كأب: «اطلعي فوق، قريبا لازم تروحي المدرسة، حتى ولو كنا ما نزال في الإجازة. هل تظني مثلا أننا لم نكن نحبه؟ لا تتصنعي الجنون وإلا سيأخذونك ويضعونك في المصحة ويضربونك طوال اليوم. سيظنون أنك مجنونة، إطلعي فوق. الدنيا ليل. أمك عاملة فطائر بطاطس. تعالي وإلا سيأتون ليأخذوك.»

انتهى يوم تولا الأول في كوخ الكلب كالتالي:

لقد بقيت في الكوخ، فك أوغست بوكريفكه السلسلة عن عنق هاراس. أغلق مخزن الخشب ومخزن الخشب الحبيبي وصالة الماكينات والمكتب الذي تخزن به دهانات الخشب والمفاصل وأنصال المناشير وألواح غراء العظم. وبمجرد أن أغلق حتى أخذت الظلمة تهبط على المكان أكثر فأكثر. لقد كان الظلام دامسا للدرجة التي جعلتني لا أتمكن من التمييز بين الغطاء الورقي القطراني للكوخ وواجهة مخزن الخشب الأفتح درجة، حينما نظرت إليهما من بين ستائر نافذة مطبخنا.

اليوم الثاني في كوخ الكلب،

كان يوم ثلاثاء، لم يعد هاراس يشد تولا، عندما يريد أوغست بوكريفكه تغيير نشارة الخشب. بدأت تولا تتناول الطعام، أي أنها بدأت تأكل مع هاراس من الوعاء نفسه بعد أن جر هاراس إليها كتلة صغيرة من اللحم الرخيص خالية من العظام وفتح شهيتها إلى كتلة اللحم هذه بأن تشممها بخطمه البارد.

وفي الواقع لم يكن هذا اللحم سيئا، عادة ما كان لحما بقريا به الكثير من العروق وكان يطبخ بكميات كبيرة على موقد مطبخنا ودائما في القدر نفسه الذي كان مطليا بلون بني محمص. كلنا، تولا وأخواتها وأيضا أنا أكلنا من هذا اللحم

بأيدينا ودون خبز كطعام لملء البطن بعد الوجبات. وأفضل شيء هو أكله باردا وثقيلا. كنا نقطعه بالمطواة إلى مكعبات. كان يُطهى مرتين في الأسبوع، وكان سميكا بلون الطين المبلول وتتخلله بعض العروق والأوتار وقطع الدهن التي ينز منها الماء. كان طعمه حلوا صابونيا محرما. وتبقى لثتنا بعد بلع مكعبات اللحم الرخامية - عادة كانت جيوبنا مملوءة بها أثناء اللعب - ثالمة ودهنية. لقد فضلنا هذه الوجبة على كثير من الوجبات التي تقدم على مائدة الأسرة. لقد سمينا هذا اللحم: لحم الكلاب. وحتى لو لم يكن لحما بقريا، فقد كان على أي حال لحم خيل أو لحم خروف اضطروا إلى ذبحه قبل أن يموت. كانت أمي تضع في القدر المطلي ملء كفها ملحا خشنا وتضع قطعا من لفافة اللحم التي في حجم القدم في الماء المغلي المملح وتتركه يغلي لبرهة وتضع البردقوش لأنه جيد لحاسة شم الكلب، ثم تطهيه على نار هادئة وتضع الغطاء فوق القدر وتتركه لساعة كاملة دون تقليب، لأن لحم البقر-الخيول-الضأن يحتاج إلى كل هذا الوقت، حتى يتحول إلى لحم كلاب، نأكل منه نحن وهاراس وقد ساعد البردقوش على ترهيف حاسة الشم لدى هاراس ولدينا نحن أيضا. كانت هذه وصفة كوشنيفية. يقولون في المنطقة الواقعة بين أوسترفيك وشلانغنتين إن البردقوش يزيد الجمال. البردقوش يزيد المال. ضد الشيطان والنار، انثر البردقوش على عتبة الدار. اشتهرت كلاب الرعاة الكوشنيفية ذات الشعر الطويل بحاسة شم قوية يعود الفضل فيها للبردقوش.

وحينما لم يكن هناك لحم رخيص معروضا بالمحال، وندر أن يحدث ذلك، كانوا يملأون وعاء الكلب بالحواشي: قلوب بقرية بها عقد من الدهن، كلى خنزير لها رائحة البول لأنها لم توضع في الماء وكلى حملان صغيرة كان على أمي أن تفصلها عن غطاء دهني سميك سمك الإبهام يبطنه ورق مقوى له أزيز: الكلى توضع في وعاء الكلب ودهن الحملان يوضع في طاسة من الحديد الزهر ويستخدم لتحمير وجبات العائلة، لأن دهن الحملان يقي من مرض السل الخبيث. وأحيانا تُطهى في القدر قطعة داكنة من الطحال الذي يتحول لونه من الأرجواني إلى البنفسجي، أو كتلة من كبد البقر ذي العروق الرئة هي الشيء الوحيد الذي ندر طهيه لدينا، لأنها تحتاج إلى وقت أطول وإلى قدر أكبر ولا يبقى منها الكثير بعد طهيها، وفي الواقع أنها لم توضع في القدر المطلي إلا عندما

شحت اللحوم ذات مرة لبضعة شهور في الصيف، حيث انتشر طاعون البقر في منطقة الكاشوبيين ومنطقة الكوشنايديراي. لم نأكل من الحواشي. تولا هي الوحيدة التي كانت تشرب سرا - ولكن أمام أعيننا التي اشرأبت - من السائل الطيني الذي سبحت فيه إفرازات الكلى وكون البردقوش الأسود فيه جزرا صغيرة.

اليوم الرابع في كوخ الكلب

- بناء على نصيحة الجيران ونصيحة طبيب كان يأتي أحيانا إلى الورشة، حينما تقع حوادث عمل، تركوا تولا لحالها ولم يزعجوها حيث إن المدرسة لم تبدأ بعد - في ذاك اليوم أحضرت أنا لها وقبل أن يستيقظ الآخرون، وقبل أن يأتي أسطى الماكينات الذي كان أول من يأتي إلى العمل، وعاء مليئا بالسائل المتبقي من طهي القلوب والكلى والطحال والكبد. كان السائل في الوعاء باردا وغطت طبقة دهن، اختلط فيها شحم البقر بشحم الضأن سطح الوعاء وكانت تشبه طبقة من الثلج. فقط عند الحواف طفا السائل وجرى بلوريا فوق طبقة الشحم. كنت أرتدي بيجامتي ومشيت حذرا خطوة بخطوة. أخذت مفتاح الحوش من على اللوحة الكبيرة التي تعلقت عليها المفاتيح دون أن أصلصل بالمفاتيح الأخرى. قرقعت السلالم الخشبية مبكرا جدا ومتأخرا جدا صحت العصافير على سطح المخزن الخشبي. ساد السكون في الكوخ. ولكن كانت هناك ذبابات ملونة على السطح القطراني الذي غمرته أشعة الشمس المائلة. تحركت إلى نصف الدائرة التي تحدد طول سلسلة الكلب والحفرة التي لها عمق قدم عند مدخل الكوخ. الكوخ ساكن ومظلم وليس به ذبابات ملونة. ثم صحا بالكوخ شعر تولا ممزوجا بنشارة الخشب. وضع هاراس رأسه على حافريه الأماميين، مغلقا شفتيه. ولم تتحرك أذناه إلا قليلا لكنها كانت تتحرك. ناديت عدة مرات، لكن حنجرتي كانت ما تزال نائمة، بلعت ريقي وناديت «تولا» وذكرت اسمي «هاري هنا وقد أحضر لك شيئا» حاولت أن أجذبها بوعاء السائل المغلي، صفرت بصوت خفيض موشوشا وكأنني أريد جذب هاراس، بدلا من تولا إلى حافة نصف الدائرة. وعندما لم تبد أية استجابة إلا من العصافير والذبابات الملونة، وكذلك أذني الكلب، تركت الوعاء عند حافة الدائرة، بالضبط: في هذه الحفرة التي نبش فيها حافرا الكلب الأماميان ثم عدت إلى المنزل دون أن أتلفت حولي، مخلفا ورائي

العصافير والذبابات الملونة والشمس المتسلقة والكوخ.

وفي هذه اللحظة أدخل أسطى الماكينات دراجته في الممر. سألني ولم أجبه. في بيتنا كانت النوافذ ما تزال مغلقة. كان نوم أبي يتميز بالهدوء وكان يثق بالمنبه. وضعت كرسيا صغيرا تحت نافذة المطبخ وأمسكت بحافة قطعة من الخبز الجاف وإناء مربى البرقوق وأزحت الستائر إلى اليسار وغمست طرف الخبز في المربى، قضمت ومضغت بأسناني: حينئذ زحفت تولا خارجة من الكوخ على أربع. وعندما خلفت تولا عتبة الكوخ، ظلت كذلك على أربع. وانتفضت بتراخ وتخلصت من نشارة الخشب، زحفت ببطء مترنحة تجاه نصف الدائرة المحددة لسلسلة الكلب واصطدمت قبيل باب المخزن الخشبي بالحفرة والسور، التفت بخاصرتيها ونفضت عنها نشارة الخشب عدة مرات، وأصبح فستانها الأبيض في أزرق، كاروه- تثاءبت مولية وجهها إلى الحوش. هناك وقف أسطى الماكينات بدراجته في الظل وقد طالت الشمس طاقيته فقط. قام بلف سيجارة ونظر تجاه كوخ الكلب، وبينما كنت أنظر إلى تولا من أعلى ممسكا بقطعة الخبز والمربى، لم أنظر إلى الكوخ، بل نظرت إليها وإلى ظهرها فحسب. وجرّت تولا نفسها في حركة غير لينة ومتكاسلة عبر نصف الدائرة وتركت رأسها وشعرها الملبد عالقين ولم تتوقف عن الحركة إلا عندما وصلت إلى حافة الوعاء الذي كان محتواه مغطى بطبقة من الدهن، وظل رأسها رغم ذلك منكسا.

وطوال الوقت الذي نسيت فيه المضغ وطوال الوقت الذي حاول فيه أسطى الماكينات، بكلتا يديه إشعال سيجارته الملفوفة - لقد حاول إشعالها ثلاث مرات وغمرت الشمس طاقيته أكثر وأكثر - سمرت تولا وجهها في الرمل واستدارت بخاصرتيها دون أن ترفع رأسها وشعرها عن نشارة الخشب. وعندما وصل وجهها إلى سطح الوعاء وانعكس وكأن الطبقة الدهنية عبارة عن مرآة جيب صغيرة، توقفت هي عن الحركة. وأنا أيضا لم أمضغ. انتقل ثقل تولا من ذراعيها اللتين ترتكز عليهما إلى الذراع اليسرى، ومن زاوية رؤيتي من شباك المطبخ، لم يعد باستطاعتي رؤية باطن يدها اليسرى الذي اختفى تحت جسدها. وكانت بالفعل، دون أن أتمكن من رؤية ذراعها الطليقة، قد وضعت يدها اليمنى على الوعاء، بينما كنت أغمس بطرف الخبز مربى البرقوق.

دخن أسطى الماكينات بانتظام وترك لفافة تبغه ملتصقة بفمه أثناء نفثه

للدخان، حتى غمرته الشمس التي كانت ما تزال حانية. فردت كتف تولا المجهدة فستانها المقلم أبيض في أزرق. فتح هاراس المستند برأسه على حافريه جفنيه ببطء ورمش بغير انتظام ونظر تجاه تولا: مدت بنصر يدها اليمنى إليه وأغلق هاراس جفنيه ببطء واحدا تلو الآخر. والآن لأن الشمس أظهرت أذني الكلب، كانت هناك ذبابات مضيئة وذبابات معتمة في داخل الكوخ.

وبينما كانت الشمس تتسلق وكان ديك الجيران يصيح - حيث كان لديهم ديوك - صوبت تولا ببنصرها اليمنى رأسيا على طبقة الدهن وبدأت بصلابة حذرة في صنع ثقب بطبقة الدهن. وضعت الخبز إلى جانب. وبدّل أسطى الماكينات ساقه التي يرتكز عليها بالساق الأخرى وترك وجهه ينزلق تحت الشمس. كنت أريد أن أرى كيف تحفر بنصر تولا ثقبا في الطبقة الدهنية وكيف تدخل في السائل الأسود وكيف تتشقق طبقة الجليد أكثر من مرة، لكنني لم أر دخول إصبع تولا إلى السائل، لم تتشقق الطبقة الدهنية وتهترئ بل رفعتها تولا كاملة ومستديرة من داخل الوعاء. رفعت الطبقة الدهنية التي في حجم غطاء البيرة الورقي فوق كتفها وشعرها ونشارة الخشب تحت سماء الساعة السابعة صباحا، ثم امتقع وجهها وألقت بقطعة الدهن بعيدا في الحوش باتجاه أسطى الماكينات: تهشمت القطعة في الرمل إلى الأبد وتمرغت مفتتة في الرمل. وتحولت بعض فتافيت الدهن إلى كور رملية دهنية وأصبح لها شكل كرات الثلج وجرت حتى وصلت إلى أسطى الماكينات المدخن ودراجته بجرسها الجديد.

والآن عندما عدت بنظرتي من قطعة الدهن الملقاة إلى تولا، وجدتها تنحني ضامرة حادة ولكن ببرود تحت الشمس. فردت أصابع يدها اليسرى المجهدة خمس مرات إلى الجنب ثم طوتها على مفاصل الذراع الثلاثة ثم استندت ثانية على الذراع نفسها. أمسكت الجزء السفلي من الوعاء بيدها اليمنى وظهر يدها للأرض ووضعته على فمها. لا يندلق منها شيء لا ترشف لا يتبدد منها أي شيء. في مرة واحدة ودون أن تضع تولا الوعاء على الأرض تشرب سائل طهي الطحال-القلوب-الكلاوي بدون الدهن وبكل ما فيه من كتل ومفاجآت بالغضاريف الصغيرة في قاع الوعاء والبردقوش الكوشنيفي والبول السائل تشرب حتى النهاية. يرفع ذقنها الوعاء ويرفع الوعاء يدها أسفل الوعاء حتى أسفل الشمس المائلة. يتحرر العنق ويصبح أطول. تغوص مؤخرة رأس بشعرها ونشارة خشبها

في القفا وترتاح. عينان ملتصقتان ببعضهما، تظلان مغلقتين، حتى يصبح الوعاء فوق وجهها وتستطيع هي أن ترفع يديها عن الوعاء وتستطيع أن تسحبها من بين أسفل الوعاء والشمس المنزلقة. يغطي الوعاء المقلوب الأعين المزرورة وثقبي الأنف بقشورهما المتشققة والفم الذي أرتوى.

أظن أنني كنت سعيدا في ملابس النوم خلف نافذة المطبخ. جعلت مربى البرقوق أسناني ثالمة. أنهى المنبه في حجرة النوم نوم أبي وكان على أسطى الماكينات بأسفل أن يشعل سيجارته. فتح هاراس جفنيه. تركت تولا الوعاء يسقط عن وجهها. سقط الوعاء في الرمل. سقطت تولا ببطء على راحتي يديها. قليل من النشارة التي أخرجتها الماكينة علقت بها. استدارت بخاصرتيها بميل حوالي تسعين درجة، وزحفت مشدودة شبعانة متكاسلة أولا تجاه الشمس المائلة ثم حملت الشمس على ظهرها متجهة إلى مدخل الكوخ، ثم استدارت في مكانها أمام الفتحة ودخلت بظهرها ورأسها وشعرها العالقين، محملة بالشمس الحانية التي تجلب الوميض لشعرها ولنشارة الخشب على عتبة الكوخ.

حينئذ أغلق هاراس عينيه ثانية. وعادت الذبابات الملونة إلى الكوخ. أسناني الثالمة. الياقة السوداء التي تلتف حول طوق عنقه، بسوادها الذي لا يُظهر شيئا. الضجة التي يحدثها أبي عند استيقاظه. انتثرت العصافير حول الوعاء الخالي. قطعة من القماش: أبيض في أزرق مقلم. خصلات شعر وميض نشارة حوافر ذبابات آذان نوم شمس الصباح: غطاء مقطرن يصبح طريا وتنبعث رائحته.

جر أسطى الماكينات دريزن دراجته تجاه باب صالة الماكينات الذي يغطي الزجاج نصفه. مشى بطيئا وهز رأسه من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين. في صالة الماكينات كان المنشار القرصي والمنشار الآلي والمخرطة وماكينة التشطيب وماكينة السحج كلها ما تزال باردة وجائعة. سعل أبي بشدة في الحمام. نزلت عن كرسي المطبخ الصغير.

قرب مساء يوم كوخ الكلب الخامس،

في يوم الجمعة حاول الأسطى النجار ليناو أن يخرج تولا من الكوخ. صنع سيجاره الرخيص ذو البفينيغات الخمسة عشر مع وجهه المستقيم زاوية قائمة وبدا بطنه بارزا قليلا، حيث إنه وقف بزاوية جانبية. تحدث الرجل الضخم بعقل. واستعان بالطيبة كطُعم. ثم تحدث إليها بإلحاح أكثر وترك رماد السيجار يسقط

قبل الآوان وأصبحت بطنه أكثر بروزا. تبدى العقاب في الأفق. عندما تخطى نصف الدائرة، نصف القطر الذي له طول سلسلة الكلب، وأظهر يديه المفتوحتين، خرج هاراس من الكوخ مصحوبا بنشارة الخشب وشد السلسلة عن آخرها وألقى بسواده وبساقيه الأماميتين على صدر الأسطى النجار. أهتز أبي راجعا للوراء وأصبح رأسه أحمر مزرقا ولكن ظل السيجار معلقا بفمه وإن لم يكن بالثبات نفسه الذي كان عليه من قبل. أمسك بلوح خشبي كان معلقا على حوامل المنشار ولكنه لم يضرب هاراس الذي وقف متسمرا ومختبرا لقوة السلسلة دون أن ينبح، بل ترك اللوح الخشبي يسقط وبعد ذلك بنصف ساعة ثبّته هوتن شيرفنسكي بيديه لأن هوتن شيرفنسكي قد نسي، حسب قول أسطى الماكينات، أن ينظف المخرطة ويزيتها، وقيل أيضا إن الصبي قد سرق مفاصل للأبواب وكيلو جراماً من المسامير ذات البوصة الواحدة.

اليوم التالي لتولا في كوخ الكلب

اليوم السادس كان يوم سبت. جمع أوغست بوكريفكه مرتديا قبقابه الخشبي حوامل المناشير مع بعضها وأخذ إخراجات هاراس وكنس الحوش ومشطه وخط بالرمل خطوطا بارزة منتظمة على الجانب نفسه كرر التمشيط بجانب نصف الدائرة الخطرة مترددا. ظلت تولا مختبئة. كانت تتبول، عندما يتوجب عليها التبول - وتولا تتبول كل ساعة - في نشارة الخشب التي يتوجب على أوغست بوكريفكه تنظيفها كل مساء. ولكن في مساء اليوم السادس لم يجرؤ أن يفرش الكوخ بنشارة الخشب الجديدة. بمجرد أن تجرأ وخطا بقبقابه الضخم ممسكا بالجاروف والمقشة وسلة النشارة الملفلفة التي أخذها من المخرطة وماكينة التشطيب وشرع في تنفيذ مهمته الليلية عبر الحفرة المنبوشة بنصف الدائرة وهمهم «مكانك يا هاراس خليك مكانك هاراس طيب هاراس يسمع الكلام»، صدرت من الكوخ أصوات زمجرة مهددة ومحذرة.

لم تُجدد نشارة الخشب يوم السبت. ولم يفك أوغست بوكريفكه الكلب من سلسلته. في هذه الليلة بقيت ورشة النجارة بكلب الحوش المسلسل تحت القمر الضامر بلا حراسة: لم يُسرق شيء.

الأحد

في يوم كوخ الكلب السابع كان الدور على إرنا بوكريفكه. جاءت بعد

الظهر وسحبت وراءها باليد اليسرى كرسيا، حفرت رجله الرابعة أثرا عرضيا على الخطوط التي صنعها زوجها الماشط للحوش. أمسكت بيدها اليمنى وعاء لطعام الكلب مليئا بكلاوي البقر المكورة وقلوب الضأن المقسومة نصفين. كانت بطينات القلوب وأوعيتها وأوتارها وأغشيتها الداخلية الناعمة الملمس ظاهرة. وضعت وعاء الحواشي بالقرب من مخزن الخشب الحبيبي. وضعت كرسيها على بعد خطوة كبيرة من منتصف نصف الدائرة أمام مدخل الكوخ. أخيرا جلست متقلصة مرتدية فستان الخروج الأسود مترقبة بعيني جرذ ورأسها الغلامي يبدو مقروضا أكثر منه محلوقا. أخرجت أدوات الحياكة من التافتاه وبدأت الحياكة ناظرة تجاه كوخ الكلب وهاراس وابنتها تولا.

ونحن، أي الأسطى النجار وأمي وأوغست بوكريفكه وولداه ألكسندر وزيغسموند، وقفنا في العصر على أمام شباك المطبخ ونظرنا متزاحمين على الحوش وفي النوافذ الأخرى المطلة على الحوش وقف وجلس أيضا الجيران الآخرون وأولادهم، أو جلست فقط الآنستان دوبسلاف أمام نافذتهما في الطابق الأرضي ونظرتا إلى الحوش.

لم أترك مكاني لأحد ولم أتقلقل منه. ولم تستطع لعبة المونوبولي أو كاتوه يوم الأحد أن يحركني عن موضعي. كنا في شهر أغسطس ولم تكن الحرارة شديدة والمدرسة كانت ستبدأ في اليوم التالي. كان علينا، بناء على رغبة إرنا بوكريفكه، أن نغلق النوافذ السفلية المزدوجة. وظل جانب من النوافذ العلوية المربعة المزدوجة أيضا مفتوحا وسمح للهواء والذباب وصياح ديك الجيران أن تدخل إلى مطبخنا. تبادلت كل الأصوات، بما فيها نغمات الترومبيت التي كان يعزفها رجل يتدرب على هذه الآلة كل يوم أحد على سطح بيت في طريق اللاب للدخول إلى بيتنا عبر النافذة. ودائما بقيت أصوات هسهسة ورطن وحشرجة وخنف: أصوات أنفية آخذة في التضخم، طيور عقعق كوشنيفية تطير في ريح رملية، دانتيلا كثيرة جدا جدا، تاج ورود من اللؤلؤ. ورق مكور ينفرد من نفسه، الفأر ينظف، تتجمع أعواد القش في حزم: الأم بوكريفكه لم تحِك فقط باتجاه كوخ الكلب بل وشوشت وتمتمت وهسهست ومطت شفتيها وأصدرت أصوات أنفية وصفرت جاذبة الانتباه لها في هذا الاتجاه أيضا. من الجانب رأيت شفتيها وذقنها المتحرك الطاحن المفتت المتهادي المتسارع وأصابعها السبع عشرة وإبرها الأربع الراقصة

التي نما بينها وفي حجرها التافتاه شيء أزرق فاتح، كان بالتأكيد لتولا وتولا ارتدته من بعد أيضا.

لم يصدر عن كوخ الكلب وقاطنيه أية حركة. عند بداية الحياكة وأثناء الولولة التي لم تتوقف، غادر هاراس الكوخ خاملا دون أن ينظر في أي اتجاه. بعد التثاؤب وتمارين التمطي توجه إلى وعاء اللحم، وفي طريقه جلس متشنجا وأخرج برازه الذي يشبه السجق ورفع ساقه أيضا. سحب الوعاء إلى الكوخ وازدرد أمام الكوخ وهو يزحف بساقيه الخلفيتين الراقصتين كلاوي البقر وقلوب الضأن بكل البطينات الظاهرة، لكنه حجب الرؤية عن مدخل الكوخ ولم يعد بالإمكان معرفة ما إذا كانت تولا قد أكلت مثله من الكلاوي أو من القلوب.

في المساء عادت إرنا بوكريفكه إلى البيت وقد انتهت تقريبا من معظم الجاكت التريكو الأزرق الفاتح. لم تقل شيئا. ولم نجرؤ على طرح أية أسئلة. كان يجب إبعاد لعبة المونوبولي. كان هناك كاتوه باق. بعد طعام العشاء وقف أبي مشدود القامة ناظرا باستقامة إلى لوحة زيتية لخليج كوري وقال إنه لا بد من عمل شيء.

في صباح يوم الاثنين

جهز الأسطى النجار نفسه للذهاب إلى البوليس، وقفت إرنا بوكريفكه بساقين منفرجتين وصوت عال في وسط مطبخنا وسبت أبي وقالت عنه إنه رجل غبي: كنت الوحيد الذي يراقب شباك المطبخ حاملا حقيبة المدرسة على ظهري. غادرت تولا الكوخ مترنحة ضامرة وبصحبتها هاراس وقد نكس رأسه. في البدء حبت على أربع ثم وقفت مثل البشر العاديين، ثم تخطت بخطوات متكسرة نصف الدائرة دون أن يعترضها هاراس. ملطخة ولون بشرتها رمادي في بعض المواضع من كثرة لعق لسان الكلب لها، عرفت ساقاها الطريق إلى باب الحوش.

عوى هاراس وراءها مرة واحدة فقط، لكن عويله طغى على دوي المنشار القرصي.

بينما بدأت المدرسة بالنسبة لتولا ولي

ولجيني ولكل التلاميذ الآخرين، استأنف هاراس ثانية حياته المعتادة ككلب حراسة، ولم يُحدث الخبر الذي جاء بعد ثلاثة أسابيع، بأن كلب التعشير هاراس قد جلب لوالدي الأسطى النجار ليبناو خمسة وعشرين غولدن، أي تغيير في هذه

الحياة الكلابية. لقد كانت زيارة معسكر تدريب الكلاب التابع لوحدة شرطة لانغفور- هوخشتريس ناجحة رغم قصرها. وبعد فترة مناسبة من الوقت جاءتنا رسالة أخرى مطبوعة خصيصا على ورق مراسلات معسكر تدريب الكلاب التابع للشرطة وورد فيها أن كلبة الرعاة تكلا من شودلكاو واسم المربي: ألبرشت ليب ورقم التسجيل هو ٤٣٥٦ قد أنجبت خمسة جراء. ثم بعد ذلك، بعد عدة شهور وبعد آحاد البشارة وبعد أعياد الميلاد والسنة الجديدة، جليد، ذوبان، جليد مرة أخرى، جليد لمدة طويلة بعد بداية السنة الجديدة وبعد توزيع شهادات عيد الفصح بالمدرسة - انتقلنا جميعا إلى الصف التالي - وبعد فترة لم يحدث فيها شيء - اللهم إلا إذا ذكرت الحادث الذي وقع في صالة الماكينات: فقد الصبي هوتن شيرفنسكي إصبعي يده اليسرى، الوسطى والسبابة، أثناء عمله على المنشار الآلي - ووصل هذا الخطاب المسجل الموقع من قبل مدير المقاطعة فورستر والذي يخبرنا بأنهم اشتروا الكلب الصغير برينتس من بين الجراء فالكو وكوستر وبودو وميرا وبرينتس- تربية تكلا من شودلكاو والمربي والمالك أ. ليب، من دانتسيغ أورا، وهاراس من طاحونة لويزة والمربي والمالك هو فريدريش ليبناو الأسطى النجار بدانتسيغ -لانغفور، وتقرر باسم الحزب وباسم السكان الألمان لمدينة دانتسيغ الألمانية، تسليم الكلب برينتس إلى الفوهرر ومستشار الرايخ - بمناسبة عيد ميلاده السادس والأربعين من قبل وفد من المدينة. لقد أعرب الفوهرر ومستشار الرايخ عن رغبته في ذلك وقرر قبول هدية مقاطعة دانتسيغ والاحتفاظ بكلب الرعاة برينتس إلى جانب كلابه الأخرى.

في داخل الخطاب المسجل كانت هناك صورة في حجم البطاقة البريدية للفوهرر وعليها توقيعه الشخصي. وقد ارتدى في الصورة ملابس سكان قرى شمال بافاريا، فقط كان للسترة التقليدية شكل عصري. عند قدميه لهث كلب رعاة رمادي بعلامات فاتحة، في الأغلب صفراء على صدره وعلى جبهته، وفي خلفية الصورة انتصبت الجبال الشاهقة. كان الفوهرر يضحك مع شخص ما لم يظهر في الصورة.

الخطاب وصورة الفوهرر - تم وضعهما مباشرة في إطار زجاجي وعلقهما الأسطى النجار مؤطرتين في ورشته - مرا عبر طرق طويلة على كل الجيران وكانا سببا في انضمام والدي أولا ومن بعده أوغست بوكريفكه وكثير من الجيران إلى

الحزب، حتى أن النجار غوستاف ميلافسكه الذي كان يعمل لدينا منذ خمسة عشر عاما والذي كان اشتراكيا ديمقراطيا هادئا قد استقال، ثم عاد للوقوف على نضد السحج بعد شهرين، بعدما تحدث إليه الأسطى النجار طويلا وأقنعه بالعودة للعمل.

حصلت تولا من أبي على حقيبة مدرسية جديدة وحصلت أنا على زي كامل للشبيبة النازية وحصل هاراس على طوق جديد، ولكن لم يمكن العناية به بصورة أفضل، حيث إننا نعتني به جيدا.

عزيزتي تولا،

هل كان للمستقبل الوظيفي المفاجئ لكلبنا هاراس أثر علينا؟ لقد جلب لي هاراس مجدا مدرسيا. كان علي أن أقف أمام الفصل عند السبورة وأحكي. بالطبع لم يكن علي أن أحكي عن التعشير وشهادة التعشير ونقود التعشير ولا عن استعداد هاراس الملحوظ للتعشير وسخونة الكلبة تكلا. كان علي وأحببت أنا أيضا أن أحكي بصورة مضحكة وطفولية عن الأب هاراس والأم تكلا وعن الكلاب الصغار فالكو وكاستور وبودو وميرا وبرينتس. وأرادت المدرسة الآنسة شبولنهاور أن تعرف كل شيء: «لماذا أهدى السيد مدير المقاطعة الكلب الصغير برينتس إلى الفوهرر؟»

«لأن عيد ميلاد الفوهرر كان قد حان وقد رغب الفوهرر في كلب صغير من مدينتنا»

«ولماذا يشعر الكلب برينتس بأنه في حالة جيدة جدا في أوبرسالتسبورغ، بحيث إنه لم يعد يشتاق إلى العودة إلى أمه؟»

«لأن الفوهرر يحب الكلاب ويعاملها بطيبة»

«ولماذا يجب أن نفرح بأن الكلب برينتس يعيش عند الفوهرر؟»

«لأن هاري ليبناو زميل لنا»

«ولأن كلب الرعاة هاراس ملك لأبيه»

«لأن هاراس أبو الكلب الصغير برينتس»

«ولأن ذلك شرف كبير لفصلنا ومدرستنا ومدينتنا الجميلة»

هل كنت موجودة يا تولا،

عندما قامت الآنسة شبولنهاور معي ومع الفصل بزيارة حوش ورشتنا؟ كنت في المدرسة ولم تكوني معنا.

وقف تلاميذ الفصل في نصف دائرة حول نصف الدائرة التي تحيط بمملكة هاراس. وكان علي أن أعيد إلقاء محاضرتي، ثم رجت الآنسة شبولنهاور أبي، أن يحكي من جانبه شيئا للأطفال. وافترض الأسطى النجار أن تلاميذ الفصل يعرفون الكفاية عن تاريخ الكلب السياسي فحكى عن شجرة سلالته. تحدث عن كلبة تدعى سنتا وكلب يدعى بلوتو. كلاهما كانا أسودين، تماما مثل هاراس ومثل الصغير برينتس أيضا، وهما كانا والدي برينتس. وكانت الكلبة سنتا ملكا لطحان في نيكلسفالده الواقعة على مصب الفايكسل. «هل كنتم ذات مرة في نيكلسفالده يا أطفال؟ لقد ذهبت إلى هناك قبل سنوات بالقطار الإقليمي، والطاحونة الموجودة مهمة من الناحية التاريخية، لأن الملكة لويزة، ملكة بروسيا قد باتت هناك، عندما كان عليها أن تهرب من الفرنسيين»- ولكن تحت منصب الطاحونة، هكذا قال الأسطى النجار، وجد ستة جراء «هكذا يسمون الكلاب الصغيرة يا أطفال»- وقد اشترى كلبا صغيرا من الطحان ماتيرن «وهذا كان كلبنا هاراس، الذي أسعدنا دائما وقد جلب إلينا المزيد من الفرح في الآونة الأخيرة »

أين كنت يا تولا،

حينما سُمح لي بقيادة فصلنا تحت رقابة أسطى الماكينات ليتفرجوا على صالة الماكينات؟ كنت في المدرسة ولم تستطيعي أن تريني وتسمعيني وأنا أحصي الماكينات أمام زملاء الفصل وأمام السيدة شبولنهاور: المخرطة وماكينة التشطيب والمنشار الآلي وماكينة السحج والمنشار القرصي.

وبعد ذلك أوضح الأسطى دريزن للأطفال أنواع الخشب. وفرق بين الخشب العريض والخشب الطويل، ودق على خشب الدردار والصنوبر والكمثرى والبلوط القيقب والزان والزيزفون الطري وتحدث عن الأخشاب النادرة وعن الحلقات السنوية في جذوع الأشجار التي يمكن من خلالها معرفة عمر الأشجار.

ثم كان علينا أن نغني في الحوش أغنية كان هاراس يريد سماعها.

أين كانت تولا،

عندما زار حوش ورشتنا قائد المجموعة النازية غوبفرت وقائد طليعة الشباب

النازية فيندت وقادة آخرون أقل منهم مرتبة؟ كلانا كان بالمدرسة ولم نكن موجودين، عندما قرروا تسمية لواء جديد من ألوية الشبيبة النازية باسم كلبنا هاراس.

تولا وهاري لم يكونا حاضرين،

بعد انقلاب روم[٣] وموت السيد العجوز[٤] حينما كان هناك اجتماع في نويدك بأوبرسالتسبورغ خلف ستائر قطنية ملونة في حجرة منخفضة تشبه حجرات الفلاحين، لكن السيدة راوبال ورودلف هيس والسيد هانفشتينغل وقائد فرق الهجوم لينسماير وراوشنينغ وفورستر وأوغست فيلهلم فون برويسن، المسمى اختصارا «أوفي» وبروكنر الطويل وزعيم مزارعي الرايخ داريه، كلهم كانوا هناك واستمعوا إلى الفوهرر. برينتس كان هناك أيضا. كلبنا برينتس، برينتس ابن هاراس الذي ولدته سنتا وبركون ولد سنتا.

أكلوا الفطيرة التفاح التي خبزتها السيدة راوبال وتحدثوا عن الفرع والأصل، عن شتراسر[٥] وشلايشر وروم وعن الأصل والفرع ثم تحدثوا عن شبنغلر وغوبيناو[٦] وعن بروتوكولات حكماء صهيون. ثم نعت هرمان راوشينغ كلب الرعاة الصغير برينتس خطأً بأنه «كلب رائع من نوع الوولف الأسود». وردد كل المؤرخين وراءه هذه العبارة. مع أن كل العارفين بأمور الكلاب سيتفقون معي: هناك فقط الكلب الوولف الإيرلندي الذي يختلف جوهريا عن كلب الرعاة الألماني. برأسه الطويل النحيل يبدو على صلة قرابة بسلالة الكلاب السلوقية المنقرضة. طول الكلب الوولف حتى أعلى الجذع اثنان وثمانين سنتمترا، أي أطول بحوالي ثمانية عشر سنتمترا عن كلبنا هاراس. أذناه صغيرتان ومطويتان ولا تنتصبان بل تتهدلان. نوع من الكلاب التي تعكس الرفاهية ولها مظهر مشرف،

---

(٣) روم كان رئيس ألوية فرق الهجوم وقد حاول الانقلاب على هتلر عام ١٩٣٤، لكن الانقلاب فشل وأعدمه هتلر.

(٤) يعني وفاة هندنبورغ أيضا في عام ١٩٣٤ حيث خلفه هتلر في رئاسة البلاد وأصبح الحاكم المطلق للبلاد.

(٥) من زعماء النازي ومؤسسي الحزب في شمال ألمانيا. بعد شجاره مع هتلر تمت تصفيته عام ١٩٣٤.

(٦) كاتب فرنسي يعتبر أحد المنظرين للعنصرية العرقية وسيادة الجنس الأبيض.

ولم يحتفظ الفوهرر أبدا بمثلها في حظيرة كلابه، وبهذا يثبت خطأ راوشينغ على مدى العصور: ليس من عادة كلاب الوولف الإيرلندية أن تتمسح بعصبية بسيقان الجماعة الآكلة للتورتة، لكن برينتس، كلبنا برينتس كان يتصنت إلى المحادثات وكان يشعر بالقلق على سيده، بالوفاء المعهود لكلب، لأن الفوهرر كان خائفا على حياته. فالهجمات الماكرة يمكن أن تكون مخبوزة في أي قطعة من التورتة. لقد شرب ليمونادته مرعوبا وتقيأ عدة مرات دون سبب.

لكن تولا كانت موجودة،

عندما جاء الصحفيون والمصورون. ليس فقط جريدة «فوربوستن» بل وأيضا جريدة «دي نويسته ناخريشتن» أرسلت محرريها ومصوريها. وجاء رجال وسيدات من البينغ وكونيغسبيرغ (كالييننغراد) وشنايدهمول وشتيتن بل ومن عاصمة الرايخ مرتدين ملابس رياضية. الوحيد الذي رفض إجراء مقابلة صحفية مع هاراس، كان هو بروست، محرر صحيفة «فولكسشتيمه» التي ستمنع بعد ذلك بوقت قليل. أو بمعنى أصح استهزأ بالضجة الصحافية الصاخبة بمقال عنوانه «عيشة الكلاب». من أجل هاراس أتى العاملون بالصحف الطائفية والمجلات المتخصصة. وأرسلت صحيفة اتحاد كلاب الرعاة الألمانية أحد خبراء الكلاب، اضطر أبي إلى طرده من الحوش، لأن هذا الرجل المتخصص حاول أن يعيب بشجرة سلالة هاراس قائلا بأن أسماء الكلاب في هذه السلالة بائس وغريب، وإنه ليست هناك معلومات كافية عن الكلبة التي ولدت سنتا، الكلب في حد ذاته ليس سيئا، مع ذلك توجب عليه انتقاد طريقة رعاية الكلب، خاصة لأن الأمر يتعلق بكلب من سلالة تاريخية، يصبح الإحساس بالمسؤولية أمرا ضروريا.

باختصار: سواء بهجوم أو بمدح لا انتقاد فيه، فقد وُصف هاراس وطُبع وصُور. وكذلك ورد الحديث عن الورشة بأسطى ماكيناتها والعاملين فيها والمساعدين والصبيان. وكثيرا ما اقتبست من والدي بحرفية مقولات مثل تلك: «نحن حرفيون بسطاء، ليس لنا إلا حرفتنا، لكننا نسعد بأن هاراس. . .» ثم وردت في الصحف بوصفها شهادات بسيطة لأسطى نجار وكانت عنوانا للصور.

أظن أن هناك حوالي ثماني صور منفردة ظهرت لهاراس في الصحف. وقد يكون قد صور مع أبي ثلاث مرات ومرة في صورة جماعية مع كل طاقم العمل بالورشة، ليست هناك صورة واحدة معي. لكن تولا ظهرت مع هاراس بالضبط

اثنتي عشرة مرة في الصحف الناطقة بالألمانية والصحف الدولية: تقف نحيلة صامتة بجانب هاراس على عصوين متكسرتين.

عزيزتي بنت الخال،

لقد ساعدته أثناء نقله لأثاثه. وحملت نوتاته الموسيقية المتراصة فوق بعضها والراقصة البورسيلين. لأنه عندما رغب أربعة عشر مستأجرا في منزلنا أن يبقوا قررت الآنسة العجوز دوبسلاف أن تخلي مسكن الدور الأرضي الأيسر الذي ينفتح شباكه على الحوش. رحلت ببقايا قماشها وألبوم صورها المرقم وأثاثها الذي تسربت منه نشارة الخشب إلى شونفارلنغ حيث أختها، وانتقل مكانها في الشقة التي أصبحت خالية معلم البيانو فيلزنر-امبس دون أن يغير السجاجيد الباهتة لغرفة المعيشة ودون أن يغير ورق الحائط ذا الزهور الكبيرة بغرفة النوم، انتقل بالبيانو وجبل النوتات الموسيقية المصفر والسمكة الذهبية والساعة الرملية وصوره التي لا تحصى عندما كان فنانا مشهورا، وتمثال راقصة الباليه البورسيلين بتاتو من البورسيلين، تقف ثابتة على سن أحذية من البورسيلين في وضع أرابيسك كامل. علاوة على أن الحجرتين اللتين سكنتهما الآنسة دوبسلاف مظلمتان بطبيعتهما، لأنه على بعد حوالي سبع خطوات لا أكثر من نافذتي الحجرتين، يلقي الجانب الطولي من مبنى الورشة مع السلم المؤدي إليه ظلا عليهما. وقد نما بين الورشة والمسكن شجيرتا ليلك، أزهرتا بنجاح في مطلع كل عام. قامت السيدة دوبسلاف، بإذن من والدي، بإحاطة الشجيرتين بسور سلكي، لكن ذلك لم يمنع هاراس أن يترك آثاره العطرية في حديقة الآنسة. لكن إخراجات الكلب لم تكن هي السبب في ترك الآنسة للمسكن ولم يكن المسكن المظلم أيضا سببا في ذلك. لقد أرادت أن تموت في مسقط رأسها شونفارلنغ.

كان على فيلزنر-امبس أن يشعل الضوء الكهربي الذي تحيطه مجموعة من الكريات الزجاجية الخضراء، عندما يأتي إليه تلاميذ دروس البيانو قبل الظهيرة وبعدها، في الوقت الذي تعربد فيه الشمس ماجنة في الخارج. على يسار المدخل ثبت لافتة مطلية: فيلكس فيلزنر- امبس - عازف بيانو بالكونسيرات ومدرس بيانو معتمد لدى الدولة. ولم يمر أسبوعان على سكنى هذا الكائن المهلهل لبيتنا، حتى بدأ التلاميذ في المجيء إليه وأحضروا معهم رسوم الدرس وكتاب طريقة دام في البيانو وكان عليهم أن يجلسوا في ضوء اللمبات عن يمينه ويساره مستخدمين

كلتا اليدين ويدقون السلالم الموسيقية والدروس حتى يخلو الجزء العلوي من الساعة الرملية من كل ذرات الرمال وتعلن على طريقة القرون الوسطى انتهاء الدرس.

لم يرتد فيلزنر-امبس بيريه قطيفة. لكن شعرا متموجا متطايرا، ناصع البياض وعليه بودرة بيضاء قد سقط على ياقة شيلر التي يرتديها. بين الحصة والحصة كان يمشط خصلاته. وحتى عندما كانت تصفف هبة ريح في ميدان السوق الخالي من الأشجار شعره، كان يلتجئ إلى فرشاته الصغيرة الموجودة في جيب معطفه الواسع. وعند قيامه بتمشيط شعره المدهش على الملأ، كان يجد في الحال جمهورا: ربات بيوت وتلاميذ ونحن. وأثناء تمشيطه لشعره كانت نظرته تبدو مفعمة بالشموخ الصافي لعينين سماويتين وخاليتين من الرموش وهاتان العينان كانتا تحلقان في صالات الكونسيرات التي لم يرد أن يكف فيها الجمهور المتخيل عن الاحتفال بعازف البيانو فيلزنر-امبس. تحت مجموعة الكريات الزجاجية سقطت لمعة خضراء على مفرق شعره: جلس على مقعد البيانو الصغير الدوار المتين وكأنه أوبيرون يفسر مقطوعات البيانو الخاصة بالأوبرا التي تحمل الاسم نفسه ويسحر تلاميذه وتلميذاته إلى عفاريت وجنيات الماء.

وكان ضروريا أن يكون هؤلاء التلاميذ الذين يجلسون في مواجهة درس البيانو المفتوح من رهيفي السمع، لأنه ليس لكل أذن أن تميز وتلتقط بصفاء نغمات السلم الموسيقي، التي تُعزف على البيانو أمام عيني فيلزنر -امبس الخالية من الرموش نغمة نغمة، من وسط الغناء الأوبرالي النهاري اليومي للمنشار القرصي والمخرطة ومن بين الطبقات الصوتية المتنوعة لماكينة التشطيب وماكينة السحج واللحن البسيط للمنشار الآلي، ولأن كونسير الماكينات يبتلع حتى أقوى الضربات التي يعزفها التلميذ على البيانو ولا يسمح لها بالتسرب إلى حوش الورشة. كان الصالون الأخضر خلف شجيرتي الليلك أشبه بمعرض للأحياء المائية، ليس به أي ضجيج ولكنه مليء بالحركة. وكانت سمكة مدرس البيانو الذهبية الزينة الموجودة في حوض صغير على الكومودينو المطلي مجرد كمالية واكسسوارا زائدا، لا يضفي على المشهد شيئا جديدا.

اهتم فيلزنر-امبس بشكل خاص بوضع اليد على البيانو حسب القواعد المحددة لذلك. فالنغمات النشاز يمكن أن تتوارى بشيء من الحظ وراء الصوت

السوبرانو للمنشار القرصي، لكن إذا نزلت يدا التلميذ أثناء عزف الدروس وأثناء صعود وهبوط السلم الموسيقي على الخشب الأسود للبيانو الأسود ولم تكن في الوضع الأفقي المنشود، فلا يمكن لأي ضجيج بالورشة أن يواري هذا الخطأ الشكلي الملحوظ. إضافة إلى ذلك، فقد وضع فيلزنر-امبس طريقة لتعليم تلاميذه وهي أن يضع قلم رصاص بين الأصابع التي يعزف بها التلميذ، وكل قبضة يد تنزلق على خشب البيانو وتبحث عن الراحة، تفشل في التجربة ويكون القلم الرصاص دليلا على فشلها.

وكان على جيني برونيس، الطفلة التي تبناها الأستاذ برونيس جارنا من الناحية المقابلة، أن تستخدم هذا القلم المختبر أيضا على يديها اليمنى واليسرى السمينتين طوال عزف السلم الموسيقي: حيث إنها أصبحت تلميذة لديه بعد شهر واحد من انتقاله.

أنا وأنت يا تولا،

رأينا جيني من حديقة الليلك الصغيرة. كنا نلصق وجوهنا بزجاج حوض الأحياء المائية الأخضر الطحلبي ورأيناها تجلس على الكرسي الدوار: سمينة مثل دمية وترتدي فستانا من القطيفة البنية المقلمة وفي شعرها البني الناعم متوسط الطول انعقدت فيونكة مروحية كبيرة تشبه فراشة بلون أخضر ليموني- في الحقيقة كانت الفيونكة بيضاء. وفي حين أن التلاميذ الآخرين كثيرا ما تلقوا ضربات موجعة سريعة على أيديهم بعد سقوط القلم، لم يكن على جيني أن تخشى أي عقاب، برغم أن القلم كان يسقط منها أحيانا على فرو الدب القطبي تحت المقعد، لكن عيني فيلزنر-امبس كانت تحدجها.

في الغالب أن جيني كانت موهوبة جدا موسيقيا.- نحن، أي أنا وتولا، لم نكد نسمع من خلف النافذة مع ضحيح المنشار القرصي والمخرطة وراءنا، أية نغمات. كذلك كان كلانا من ناحية الاستعداد الفطري غير قادرين على تمييز السلم الموسيقي السليم موسيقيا من السلم الموسيقي غير المضبوط. على أي حال كان مسموحا لهذه الكائنة السمينة التي تسكن في الناحية المقابلة أن تضرب على أصابع البيانو بكلتا يديها قبل أي تلميذ آخر. كذلك ندر أن ينزلق منها القلم الرصاص وسُمح لها في النهاية أن تستغني تماما عن أداة الكتابة، ذاك السيف المسلط على الأيادي بطوله وحدته. وأصبح بإمكان المرء إذا أراد أن يخمن أكثر ما

ينصت إلى نغمات دروس دام في البيانو، برغم الزعيق والصراخ الصادر عن أوبرا الورشة اليومية: وداعا أيها الشتاء- الصياد من كور-البلاتينيت- قريبا سأرعى على نهر النيكر قريبا سأرعى على نهر الراين...

تولا وأنا،

نتذكر أنه كانت لجيني مكانة خاصة. كثيرا ما كانت حصص التلاميذ الآخرين تنتهي في وسط أغنية «بالسهم والقوس» لأن آخر ذرة من ذرات الساعة الرملية التي تعود إلى القرون الوسطى كانت تقول آمين، لكن عندما تجلس جيني بلحمها الثقيل على الكرسي الدوار وتتلقى دروسها، لا يعبأ المدرس ولا التلميذة بالساعة الرملية. وحينما أصبح معتادا أن يصطحب إيدي أمزل السمين جيني برونيس السمينة إلى حصة البيانو - أمزل كان هو التلميذ المفضل لدى الأستاذ برونيس وكان يتردد كثيرا على المنزل المقابل - كان يحدث أحيانا أن ينتظر أمزل ربع ساعة رملية على الكنبة المهلهلة على أنغام الخلفية الموسيقية الغسقية، حتى يأتي عليه الدور، لأن إيدي أمزل الذي يقال إنه تلقى دروسا في البيانو في السكن الداخلي لثانوية كونراد، يحب أن يعزف جنبا إلى جنب مع فيلزنر-امبس ذي الخصلات الرمادية بأربع أيدي ألحان مجد بروسيا ومارش الفرسان الفنلنديين والرفقاء القدامى.

إضافة إلى ذلك كان أمزل يغني. ليس فقط في جوقة المدرسة الثانوية بل أيضا في كنيسة ماريا الموقرة التي كان بهوها الأوسط يردد ألحان باخ الغنائية وقداسات موتسارت مرة في الشهر وكان أمزل يغني بجوقة كنيسة سانتا ماريا. تم اكتشاف صوت أمزل السوبرانو العالي، عندما عُرض عمل موتسارت المبكر «ميسا بريفيس». كانوا يبحثون عن صوت سوبرانو غلامي في كل جوقات المدارس. كان الصوت الألتو الغلامي متوافرا لديهم. أتى مدير جوقة الكنيسة ذو المكانة الرفيعة إلى أمزل وكاد يطير من فرحته به: «في الحقيقة يا بني، إن صوتك سيتفوق عند مقطوعة البركة «بينيديكتوس» على صوت أنتونيو تشيساريلي الخصي المعروف الذي غنى هذا القداس في أول عرض له وعند مقطوعة «دونا نوبيس» أسمعك تغرد حتى يظن العالم كله أن هذا الصوت يحتاج إلى مكان أكثر رحابة من كنيسة سانتا ماريا.»

ويفترض أن إيدي أمزل قد قال في ذلك الوقت، على الرغم من أن السيد

ليستر كان ما يزال ممثلا لعصبة الأمم في مدينة دانتسيغ الحرة وكان على القوانين العنصرية أن تقف على حدود الدولة القزم: «لكن يا بروفيسور، إنهم يقولون إنني نصف يهودي»

وكانت إجابة البروفيسور: «هذا هراء، أنت سوبرانو وأتوقع أنك سوف تغني ترنيمة «كيريليسون»». هذه الإجابة القاطعة تحقق لها طول الأمد ويقال إنها قد اقتبست باحترام في دوائر المقاومة المحافظة(٧) بعد عدة سنوات.

وعموما تدرب السوبرانو المختار على المقاطع الصعبة من «ميسا بريفيس» في حجرة الموسيقى الخضراء لمدرس البيانو فيلزنر- امبس. كلانا، أنا وتولا، سمعنا صوته ذات مرة عندما توقف المنشار القرصي والمخرطة لالتقاط أنفاسهما: كان صوتا يذيب الفضة. كانت هناك سكاكين رفيعة وحادة تقطع الهواء أرباعا. تصهر المسامير وتخجل العصافير من نفسها. تغمر التقوى بيوت المستأجرين لأن ملاكا سمينا يغني «دونا نوبيس» مرارا وتكرارا.

عزيزتي بنت الخال تولا،

السبب الوحيد لهذه المقدمة الطويلة عن السلم الموسيقي هي تردد إيدي أمزل على منزلنا. في البدء كان يجيء مع جيني وحدها، ثم أحضر بعد ذلك صديقه الضخم. وكنا نعتبر فالتر ماتيرن قريبا لنا، لأن كلبة أبيه سنتا قد أنجبت كلبنا هاراس. وكان أبي يسأله دائما حالما يراه عن حال أبيه الطحان وعن الوضع الاقتصادي في الجزيرة الكبيرة. وفي الغالب كان إيدي أمزل الضليع في أمور الاقتصاد هو الذي يرد عليه بتفاصيل وحقائق تثبت عدم واقعية خطط الحزب ومجلس الشيوخ الخاصة بتوفير أماكن العمل. ونصح بالاستناد إلى كتلة الاستيرليني وإلا فسوف يحدث انخفاض محسوس في قيمة الغولدن. ولم يكتف بذلك فقط، بل كان يذكر أرقاما، ستنخفض قيمة العملة بما يعادل اثنين وأربعين بالمائة، ستشهد أسعار سلع الاستيراد البولندية ارتفاعا قدره ٧٠٪ ويتوقع أن يكون انخفاض العملة في الأيام الأولى من شهر مايو. كل هذه المعلومات حصل

---

(٧) من الثابت في التاريخ الألماني الحديث أن أكثر التيارات بروزا في مقاومة النازي هم المحافظون، حيث كانت هناك مجموعة من الأرستقراطيين القدامى وضباط الجيش حاولوا الإطاحة بهتلر وتجلى التعبير عن ذلك في محاولة شتاوفنبرغ الفاشلة لاغتياله عام ١٩٤٤.

عليها أمزل من أبي ماتيرن الطحان الذي يعرف كل شيء قبل وقوعه. ولا بد أن نقول إن تنبؤات الطحان قد تأكدت في الثاني من مايو عام ١٩٣٥.

في ذاك الوقت كان أمزل وماتيرن في السنة التوجيهية ويدرسان بالقدر الكافي للحصول على الشهادة الثانوية. ارتدى كلاهما بدلات كاملة ببنطالونات طويلة وشربا في الصالة الرياضية بتسينجلرز هوهه بيرة ماركة أكتسين. وقيل عن فالتر ماتيرن الذي كان يدخن سجائر ماركة «ريغاتا» و«أرتوس» أنه قد غرر في السنة الماضية بتلميذة من التوجيهي بمدرسة هيلينه لانج وذلك في غابة أوليفيا. لكن أحدا لم يتخيل أن يقوم صديقه السمين بمثل هذه الغزوة. لقد عده زملاؤه وبعض الطالبات المدعوات أحيانا، بالتأكيد بسبب صوته الحاد العالي، خصيا. وآخرون عبروا عن ذلك بتحفظ أكثر قائلين بأن إيدي ما يزال طفلا ناعم الأظافر، يعني عديم الجنس، محايد. ورغم كثرة القيل والقال، ظل فالتر ماتيرن صامتا لوقت طويل، حتى ألقى في يوم من الأيام أمام طلاب كثيرين ونصف البنات التابعين لهم خطبة وضعت صديقه في دائرة الضوء. لقد قال إن أمزل قد سبق كل الشباب في موضوع البنات. فهو يذهب إلى العاهرات في حارة التشلر أمام مصنع بيرة أدلر بانتظام. وهو لا يبقى هناك الخمس دقائق المعتادة بل إنه زبون محترم هناك، لأن الفتيات هناك يعتبرنه فنانا. وقال إن أمزل قد أنهى بورتريها ورسما عاريا بالفحم والفرشاة والريشة، وبدأها بالقلم الرصاص، ولم تبد هذه الصورة بذيئة مبتذلة، بل صورة فنية تسر الناظرين، حيث إن أمزل قد دخل بحافظة مليئة بهذه الصور على البروفسور بفوله رسام الجياد المشهور والمدرس بقسم العمارة في كلية الهندسة، وقدم له هذه اللوحات دون سابق معرفة: أدرك بفوله الذي كان معروفا بصعوبة الوصول إليه موهبة أمزل ووعده بالدعم.

بعد هذه الخطبة التي لم أستطع أن أنقل سوى فحواها دون نصها، يقال إن أحدا لم يعد يستهزئ بأمزل، بل أصبحوا يقابلونه بالاحترام الفائق. وتكرر أن جاء إليه طلاب من زملائه وطلبوا منه أن يذهبوا معه إلى حارة التشلر، لكنه كان يرفض هذه الفكرة بأدب وبتأييد من ماتيرن. ولكن في يوم من الأيام عندما طلب إيدي أمزل من صديقه أن يذهب معه إلى حارة التشلر- هكذا قيل لي- هز رأسه رافضا وقال بثقة مفعمة الذكورة المبكرة أنه لا يريد أن يخيب آمال الفتيات

المسكينات هناك. وأنه ينفر من البغاء وقد لا يقف ذكره هناك وهذا قد يحبطه كثيرا وسيكون ذلك محبطا له وللفتاة. لا بد أن يكون هناك شيء من الحب أو على الأقل المشاعر.

قد يكون أمزل قد استمع إلى أقوال صديقه الكبيرة هازا رأسه ثم ذهب وحده بحافظته وربطة جذابة من الحلوى إلى الفتيات أمام مصنع بيرة أدلر. رغم ذلك - إن صحت المعلومات التي حصلت عليها - فمن المفترض أن أمزل قد أقنع صديقه في أحد أيام ديسمبر البائسة، بأن يحتفل معه ومع الفتيات بأحد البشارة الثاني أو الثالث. ولم يتشجع ماتيرن إلا في أحد البشارة الرابع. وحينئذ تبين أن البغاء ينفره بجاذبية شديدة جدا لدرجة جعلت ذكره يقف رغم تنبئه بالعكس، وقد انتصب ذكره وأدخله وأنزل ماءه بسعر مخفض للطلبة مع فتاة قليلة الكلام اسمها اليزابيت. لكن ذاك الحنان لم يمنعه في طريق عودته إلى البيت صاعدا مقابر المدينة القديمة وهابطا بفيفرشتادت أن يغرق في تأملات مظلمة عن المرأة الغانية التي تُشترى بالمال.

عزيزني بنت الخال،

بحافظة الرسم المخططة أصفر في بني نفسها والتي حوّل بها أمزل زيارته إلى حارة التشلر المشبوهة إلى رحلات فنية مشروعة، دخل إيدي أمزل إلى حوش منزلنا مصحوبا بفالتر ماتيرن. لقد رأيناه سويا في حجرة الموسيقى لدى مدرس البيانو فيلزنر- امبس، وهو يخط سكتشات على الورق للباليرينا المصنوعة من البورسيلين. وفي أحد أيام مايو الجميلة رأيته وهو يذهب إلى أبي الأسطى النجار ويشير إلى حافظته المخططة ويفتح الملف ويريد أن يترك الرسومات تتحدث عن نفسها. لكن أبي أعطاه موافقة على بياض بأن يرسم كلبنا هاراس. فقط طلب أمزل أن يرسم الكلب بمتعلقاته خارج نصف الدائرة التي تحدد طول السلسلة بالسور والحفرة. قال أبي الأسطى النجار: «الكلب مسعور ولن يعنيه أنك فنان».

أطاع هاراس من اليوم الأول أقل نداء لإيدي أمزل وجعل أمزل من هاراس كلبه الموديل. ولم يقل أمزل مثلا «مكانك يا هاراس» عندما يكون على هاراس أن يجلس مثلما تقول تولا ذلك. من اليوم الأول تجاهل أمزل اسم كلبنا هاراس وناداه في كل مرة يريد أن يغير فيها الوضع «يا بلوتو، ممكن من فضلك، أن تقف أولا على أربع، ثم ترفع الساق الأمامية اليمنى وأن تحنيها بميل قليل،

ولكن باسترخاء من فضلك، بانسياب أكثر. وممكن سيادتك تتكرم وتدور عنق كلب الرعاة الكريم نصف لفة إلى اليسار، بالضبط، بالضبط، من فضلك خليك هكذا يا بلوتو»

وكان هاراس يستجيب لاسم بلوتو وكأنه فعلا من كلاب الجحيم. كادت البدلة الرياضية الرمادية المقلمة التي يرتديها أمزل المكتنز أن تتفتق. وكان يرتدي قلنسوة بيضاء من الكتان تجعله يشبه المراسلين الصحفيين الإنجليز. لكن البدلة لم تكن جديدة: فكل ما يرتديه أمزل يبدو وكأنه قد استُعمل من قبل، حيث قيل إنه رغم حصوله على مصروف جيب خرافي، فإنه كان لا يشتري سوى الأشياء الملبوسة من محل الرهنيات أو من محل الحاجيات القديمة في حارة التاغنيت. ويقال إن حذاءه كان قبل ذلك ملكا لساعي بريد. جلس بردفيه العريضين على مقعد بحر صغير ومثير للضحك والعجيب أن المقعد تحمّله ولم يتكسر بل بقي ثابتا. وبينما كان يسند الورق المقوى الذي ثبت عليه دفتر رسوماته على فخذه الأيسر الضخم ويقوم بتحريك اليد اليمنى بفرشاة مترعة باللون الأسود وتمريرها على دفتر الرسم من أعلى اليسار إلى أسفل اليمين، وينتج عن ذلك محاولات لرسم كلب الحراسة هاراس أو كلب الجحيم بلوتو، قد تفشل أحيانا ثم تصبح بعد ذلك أكثر دقة وجدة، تزايدت التوترات يوما بعد يوم. ساعتها كان إيدي أمزل قد قضى حوالي ستة عصاري في حوش ورشتنا.

كان فالتر ماتيرن في خلفية الأحداث. لقد ارتدى ملابس مشينة: زي عامل من البروليتاريا في إحدى المسرحيات الناقدة للعصر وقد حفظ الشكاوى الاجتماعية عن ظهر قلب. وتحول في الفصل الثالث إلى زعيم لحركة شعبية ومع ذلك كان ضحية لمنشارنا القرصي. مثله مثل كلبنا هاراس الذي يصاحب أغنية المنشار القرصي - وليس بأي حال من الأحوال دوي المخرطة - دائما بعوائه الصاعد الهابط ورأسه مرفوع لأعلى، خاصة عند بعض التقلبات الجوية، تحدث الشاب المتجهم القادم من نيكلسفالده إلى منشارنا القرصي مباشرة. صحيح أنه لم يرفع رأسه عاليا ولم يعو ولم يتلجلج ببيانات فوضوية، بل قلد بطريقة قديمة معروفة، بصرير الأسنان، ضجيج الورشة.

وكان لصرير الأسنان هذا أثره على هاراس: لقد سحب شفتيه فوق قواطع أسنانه وبدأ لعابه في السيلان. واتسعت فتحتا أنفه وانكمش جلد الأنف حتى

الفتحتين. أصبحت الأذنان الشهيرتان الواقفتان لكلب الرعاة الألماني والمائلتان قليلا للأمام غير واثقتين وسقطتا. جر هاراس ذيله وأدار ظهره من منبت الكتف عبر قمة الظهر إلى المؤخرة المحدودبة الخانعة. ونظر نظرة كلبية ذليلة. وسجل إيدي أمزل هذه الأوضاع المخزية عدة مرات في خفة بفرشاته المترعة باللون الأسود وبريشته المنفوشة النابشة على الورق، وبقلم البوص ذي اللمسات العبقرية وكانت رسوماته دقيقة لدرجة مشينة. ظهر أثر منشارنا القرصي وصرير أسنان فالتر ماتيرن، اللذان جعلا من هاراس كائنا جبانا، في يد أمزل المصورة، في المجمل شكل المنشار القرصي وماتيرن والكلب وأمزل فريق عمل مخيف مثل مجموعة كتاب السيد براوكسل: أنا وهو وشخص آخر نكتب في الوقت نفسه وينبغي علينا أن ننتهي عندما يبدأ هراء الأبراج في الرابع من فبراير.

لكن ابنة خالي تولا،

قد وقفت إلى جانبهم وتزايد غضبها يوما بعد يوم ولم ترد أن تظل متفرجة. لقد شكلت سيطرة أمزل على كلب الجحيم بلوتو بالنسبة لها عجزا أمام كلبنا هاراس. ليس بسبب أن هاراس مثلا لم يعد يتبع أوامرها - فقد كان يجلس عندما تقول له تولا «هاراس، مكانك!» - لكنه كان يطيع أوامرها الحازمة بدون تركيز وبصورة آلية، حتى أن كلينا، أنا وتولا، لم يعد باستطاعتنا أن نخفي أن هذا الأمزل قد أفسد كلبنا هاراس.

تولا،

بغضبها الأعمى، قامت أولا بقذف ظهر أمزل المستدير وقفاه السمين عدة مرات بالحصى. أما هو فقد أظهر بهز كتفيه هزة خفيفة وباستدارة خاملة برأسه أنه قد رآها ولكنها لا يريد أن يعطي الإحساس بأنه قد أصيب.

تولا،

بوجهها الممصوص الأبيض، قلبت له زجاجة الحبر. تشكلت بقعة سوداء معدنية لامعة على أرض الحوش واحتاجت إلى وقت طويل حتى تتشربها الأرض. أخرج أمزل زجاجة جديدة من جيب المعطف وأظهر لها أن لديه زجاجة احتياطية ثالثة.

لكن تولا،

عادت مهاجمة وفي يدها حفنة من نشارة الخشب المتراكمة تحت سيور موتور

المنشار القرصي وألقتها على لوحة جديدة أوشك أمزل أن ينهيها وكانت ألوانها ما تزال رطبة. بعد قليل من الاندهاش ضحك أمزل مظهرا بعض الضيق والود في ذات الوقت. ثم هدد تولا التي وقفت تراقب أثر ما فعلت من بعيد مشيرا لها بإصبعه على طريقة الكبار، ثم بدأ شيئا فشيئا يهتم بالتكنيك الجديد وهو معالجة نشارة الخشب العالقة باللوحة وأن يعطي للرسم ما يسمونه الآن بالبنية، لقد طور أسلوبا لطيفا لكنه قصير العمر. وأراد أن يستفيد من الصدفة، فجمع نشارة خشب من تحت سيور موتور المنشار القرصي ووضعها في منديله ثم لملم من النشارة الغليظة للمخرطة واللفائف القصيرة لماكينة السحج والنشارة الناعمة للمنشار الآلي وزود رسوماته بيده بمحددات بارزة دون الحاجة إلى هجمات تولا. وازدادت جاذبية هذه المحددات بمجرد سقوط أي نوع من الأنواع المختلفة من النشارة المطلية بالأسود على اللوحة، حيث كانت تزين الأساس الأبيض للوحة بجزر يكتنفها الغموض. وفي إحدى المرات لم يكن راضيا عن نثره الواعي للنشارة ووضعه لأساسات اللوحة فطلب من تولا أن تنثر على لوحة رسمها حديثا ما تشاء من نشارة أو رمل. لقد أمل الكثير من مساعدة تولا، لكن تولا رفضت وقلبت عينيها أي «فتحت شبابيكها المهشمة».

لم تتمكن ابنة خالي تولا

من أن تتخلص من الفنان ومدرب الكلاب إيدي أمزل. الوحيد الذي تمكن من أن يمنع قدم أمزل من وطء الحوش كان أوغست بوكريفكه. لقد وقف عدة مرات محملا بحوامل المناشير بجانب الفنان وأخذ يتحدث إليه ناقدا ومادحا محركا أصابعه الغرائية التي تحدث صريرا، وحكى له عن فنان كان يأتي إلى الكوشنايديراي كل صيف ويرسم بالزيت بحيرة أوسترفيك وكنيسة شلانغنتين وعدة شخوص كوشنيفية مثل يوزف بوت من أنافيلد والخياط موزولف من دامراو والأرملة فاندا ينتيك. وحتى هو نفسه أوغست بوكريفكه قد رُسم وهو يقطع الفحم النباتي وعُرضت صورته في كونيتس بوصفته عامل تقطيع للفحم النباتي. اهتم أمزل بما يسمعه عن زميله الفنان ولكنه لم يتوقف عن الرسم. ترك أوغست بوكريفكه الحديث عن الكوشنايديراي وبدأ يتحدث عن المستقبل السياسي لكلبنا. وأوضح بالتفصيل كيف توصل الفوهرر في أوبرسالتسبورغ إلى كلب الرعاة برينتس. لقد حكى عن الصورة الممهورة بتوقيع الفوهرر والمعلقة في

حجرة الجلوس لدينا فوق إحدى الشهادات المصنوعة من خشب الكمثرى، ثم حسب عدد المرات التي صورت فيه الصحف ابنته تولا مع أو بين مقالات طويلة عن هاراس. ابتهج أمزل معه لنجاحات تولا المبكرة وبدأ في رسم هاراس في وضع الجلوس. ورأى أوغست بوكريفكه أن كل ما يفعله الفوهرر صحيح وأن الناس يمكن أن تعتمد عليه وأنه يعرف أكثر بكثير من الآخرين وهو يستطيع الرسم أيضا. وعلاوة على ذلك فإن الفوهرر ليس من هؤلاء الذين يتصنعون دور السادة الكبار «الفوهرر لما يركب السيارة، يركب دائما بجانب السائق، وليس في الخلف مثل أولئك الذين يتصنعون الأهمية». رأى أمزل تواضع الفوهرر أمرا جديرا بالثناء وصور أذني كلب الجحيم الساقطتين واقفتين منتصبتين بصورة مبالغ فيها. أراد أوغست بوكريفكه أن يعرف ما إذا كان أمزل ما يزال في شبيبة هتلر أم أنه قد أصبح عضوا في الحزب. إذ إنه يجب على أمزل أن يكون في أحد التنظيمين.

ترك إيدي أمزل فرشاته تسقط وتأمل برأس مائل صورة هاراس الجالس مرة ثانية بسرعة، ثم التفت بوجهه اللامع المليء بالنمش إلى موجه السؤال وأجاب عن طيب خاطر أنه للأسف ليس عضوا في أي من التنظيمين وعن ذاك الرجل، ما اسمه مرة أخرى؟ لم يسمع عنه من قبل ولكن سيسعده أن يعرف من هو هذا السيد ومن أين هو وما هي خططه المستقبلية.

تولا

عاقبت إيدي أمزل في عصر اليوم التالي على جهله. فما كاد يجلس على كرسيه الصغير المتين ويضع الورق المقوى وورق الرسم على الفخذ السمين وما كاد هاراس المدعو بلوتو يتخذ وضع الجلوس مادا ساقيه رافعا رقبته بثبات وما كادت فرشاة أمزل تتشبع بحبر المحبرة وما كاد فالتر ماتيرن يأخذ مكانه وأذنه اليمنى تصغي للمنشار القرصي، حتى بصق باب الحوش أولا طباخ الغراء أوغست بوكريفكه ثم من بعده ابنته.

وقف مع تولا أمام الباب وأخذ يهمس لها ويلقي بنظرة جانبية على كرسي البحر الصغير ذي الحمل الثقيل، ويحقن ابنته بمهام: ها هي تأتي في البدء خاملة وبطرق ملتوية وتعقد ذراعيها النحيفتين وراء ظهر فستانها، وتطوح ساقيها بلا هدف ثم تتحرك بسرعة في نصف دوائر تضيق أكثر فأكثر. مرة من اليمين:

«أنت» ومرة من اليسار «نعم أنت» ومرة ثانية من اليسار «ماذا تفعل هنا؟»، وتدور وتلف وتتحدث من اليسار ثانية «عم تبحث هنا؟» ثم من اليمين «مكانك ليس هنا» ومن اليسار «أتعرف أنك. . . . . .» وبعد ذلك تقول عن قرب من اليمين والآن من اليسار هامسة في أذنه «هل تريد أن أقول» والآن في الأذن اليسرى «أنت كوهين، كوهين نعم كوهين، لو لم تكن كوهين ما كنت لتأتي إلى هنا وترسم كلبنا». أمسك أمزل بالفرشاة وظل صامتا. تولا: «يا كوهين» وأخذت تطوح بالكلمة في الحوش في البدء بجانب أمزل ثم بصوت عال بحيث يسمعها ماتيرن الذي أبعد على أثر صراخها أذنه عن المنشار القرصي الذي بدأ عمله للتو. وحاول الأمساك بالشيء الذي يصرخ قائلا كوهين. وقف أمزل. ماتيرن لم يمسك بتولا: «كوهين!». سقط الورق المقوى وعليه الرسومات الأولى والتي كانت ما تزال ندية بالحبر على الرمل. «كوهين!» فُتحت النوافذ في الدور الثالث ثم الرابع ثم الأول: تبرد وجوه ربات البيوت. من فم تولا «كوهين!» عبر المنشار القرصي. لا يفلح ماتيرن في الإمساك بها. لسان تولا. سيقان سريعة. يقف أمزل بجانب كرسي البحر. الكلمة. يرفع ماتيرن الورق المقوى والرسومات. تتقافز تولا على الألواح الخشبية الموضوعة على حوامل المناشير: «كوهين كوهين!» يغلق ماتيرن زجاجة الحبر. تقفز تولا من فوق الألواح وتتكور في الرمل «كوهين» والآن أصبحت كل النوافذ ممتلئة بالمتفرجين وعمال الورشة يقفون وراء نوافذ الدور الأرضي. الكلمة ترددت ثلاث مرات متتالية. برد وجه أمزل الذي كان ملتهبا أثناء الرسم. أما ابتسامته فليست عرضة للاختفاء. عرق ثخين يسيل على الشحم وبقع النمش. يضع ماتيرن يده على كتف صديقه. تتحول بقع النمش إلى اللون الرمادي. الكلمة. ما زالت هي الكلمة نفسه. يد ماتيرن ثقيلة. الآن من السلم إلى الطابق الأرضي. تولا بهستيرية «كوهين/ كوهين/ كوهين/ كوهين» يقود ماتيرن أمزل بذراعه اليمنى. أمزل يرتجف. ويحمل ماتيرن في الذراع اليسرى بجانب حافظة الرسومات، كرسي البحر الصغير. ويتخلى هاراس عن وضعه الذي اتخذه متحررا من الأوامر التي فرضت عليه. يشم ويفهم. وبالفعل تمتد السلسلة مشدودة: صوت الكلب. صوت تولا. يلتهم المنشار القرصي لوحا طوله خمسة أمتار. ما زالت ماكينة التشطيب صامتة. الآن جاء الدور عليها ثم على المخرطة. اثنان وسبعون خطوة طويلة حتى باب

الحوش. يريد هاراس أن يخلع جدار المخزن الخشبي المثبتة فيه سلسلته. تولا تردد الكلمة نفسها راقصة ومتحركة بسرعة، وبالقرب من باب الحوش حيث وقف أوغست بوكريفكه بأصابعه ذات الحفيف مرتديا قبقابه الخشبي، حدثت معركة ما بين رائحة الغراء والرائحة الصادرة من الحديقة الصغيرة أمام نوافذ مدرس البيانو: وقد انتصرت رائحة الليلك. لقد كنا في مايو. كفت تولا عن الكلام لكن الكلمة ما زالت عالقة في الجو. أراد أوغست بوكريفكه أن يبصق ما ادخره في فمه منذ دقائق. لكنه لم يفعل لأن ماتيرن قد نظر إليه بأسنان لها أزيز عال.

عزيزتي تولا،

سأتخطى بعض التفاصيل: طُرد إيدي أمزل وفالتر ماتيرن من حوشنا. لم يحدث لك شيء. ولأن أمزل قد أفسد هاراس فقد كان على هاراس أن يتدرب مرتين أسبوعيا. كان عليك أن تتعلمي مثلي القراءة والكتابة والحساب. واجتاز أمزل وماتيرن امتحاناتهما الكتابية والشفوية. تدرب هاراس على النباح على الغرباء ورفض أخذ الطعام من أيد غريبة، لكن أمزل كان قد أفسده حقا. كانت الكتابة بالنسبة لك أمرا صعبا أما بالنسبة لي فكان الحساب هو المادة الصعبة. كلانا كان يسعد بالذهاب إلى المدرسة. نجح أمزل وصديقه في الثانوية، هو بامتياز وماتيرن ببعض الحظ. نقطة تحوّل. تبدأ الحياة أو من المفترض أن تبدأ: بعد تخفيض قيمة الغولدن حدث تحسن طفيف في الحالة الاقتصادية وجاءت بعض الطلبيات. واستطاع أبي أن يعيد تشغيل عامل كان قد رفضه قبل أربعة أسابيع من تخفيض قيمة الغولدن. وبعد الثانوية بدأ إيدي أمزل وفالتر ماتيرن في ممارسة رياضة كرة القبضة.

عزيزتي تولا،

كرة القبضة هي لعبة يلعبها فريقان يتكون كل منهما من خمسة أشخاص وتُلعب في ملعبين متجاورين بكرة في حجم كرة القدم تقريبا لكنها أخف. ومثلها مثل كرة المضرب الجلدية هي أيضا لعبة ألمانية، رغم أن بلاوتوس قد تحدث في القرن الثالث قبل المسيح عن لعبة follis pugilatorius. ولتعضيد الطابع الألماني لكرة المضرب الجلدية - حيث إن بلاوتوس كان يتحدث عن عبيد جرمان يلعبون هذه اللعبة - كُتب التالي:

أثناء الحرب العالمية الأولى كان هناك في معسكر أسرى فلاديفستوك خمسون

فريقا لكرة القبضة: وفي معسكر أسرى أوستري - بانجلترا - نظم ما يقرب من سبعين فريقا مسابقات كرة القبضة، تم الفوز فيها أو الخسارة بدون أي إهدار للدماء.

واللعبة ليست من الألعاب التي تحتاج إلى الجري السريع المضني وبهذا يمكن لأشخاص في سن الستين أن يلعبوها، بل ويمكن أيضا لرجال سمان ونساء بدينات أن يلعبوها: صار أمزل لاعبا لكرة القبضة. من كان يتخيل ذلك؟! هذه القبضة الصغيرة اللينة هذه القبيضة المثيرة للضحك المكتوم. القبضة التي لم تضرب أبدا على خشب المائدة. لكن على أية حال كان ينبغي عليه أن يثقل قبيضتيه بخطابات كي يمنعهما من التطاير. لم تكونا قبضتين، كانتا قطعتي كفتة، عجين بطاطس، كرتين من الصوف الوردي تتدليان متأرجحتين من ذراعين قصيرتين. لم تكن قبضة عامل ولم تكون قبضة بروليتارية ولا القبضة التي تؤدي تحية الجبهة الحمراء، إذ كان الهواء أشد من قبضته. قبيضتان للعبة التخمين: أيهما تختار؟ حسب قانون القبضة يعتبر مذنبا، الصراع على الكرة في لعبة كرة القبضة جعل منه كرة للضرب، ولم تنتصر قبيضة أمزل إلا في كرة القبضة. لذلك يجب أن نحكي هنا بالتسلسل كيف أصبح إيدي أمزل لاعبا لكرة القبضة، أي كيف أصبح رياضيا، ذاك الفتى بقبضته المغلقة - ففرد الإبهام كان ممنوعا - الذي كان يضرب الكرة من أسفل ومن أعلى ومن الجانب.

تولا وأنا لم نكن موجودين،

قضى أمزل وصديقه إجازتهما التي استحقاها عن جدارة على مصب الفايكسل. كان الصيادون يتفرجون عندما كان أمزل يرسم مراكب الصيد والشباك. والمراكبي كان ينظر من خلف كتفي أمزل عندما كان يرسم الباخرة. وزار آل ماتيرن في الناحية الأخرى من المصب وتنبأ مع الطحان ماتيرن بشأن المستقبل ورسم الطاحونة الماتيرنية المنصبية من كل النواحي ودردش أمزل قليلا مع مدرس القرية. لكن يقال إن مدرس القرية قد وبخ تلميذه السابق. لماذا يا ترى؟ يقال أيضا إن إحدى حسناوات قرية شيفنهورست قد لقنت أمزل درسا في الأخلاق لأنه أراد تصويرها على الشاطئ بشعر طليق وفستان في مهب الريح. مع ذلك عاد إلى المدينة بحافظة رسومات ممتلئة. صحيح أنه قد وعد أمه بأن يدرس شيئا محترما كالهندسة في المعهد التقني العالي، لكنه تردد أولا على مصور

الخيول البروفسور بفوله ولم يستطع أن يقرر بشأن بدء دراسته، مثله مثل فالتر ماتيرن الذي سيصبح رجل اقتصاد ولكنه يفضل أن يردد دور فرانتس أو كارل مور في مسرحية شيلر «اللصوص».

ثم جاءت برقية: دعته أمه إلى شيفنهورست حيث كانت تحتضر. ويقال إن سبب الوفاة كان مرض السكري. صوّر أمزل وجه أمه المريض أولا بالريشة ثم بالطبشور الأحمر الناعم. ويقال إنه قد بكى عند الدفن في بونزاك. لم يكن هناك أناس عند الدفن. لماذا يا ترى؟ بعد الجنازة بدأ أمزل في تصفية ممتلكات الأرملة. لقد باع كل شيء: البيت والمحل والقوارب وموتورات القوارب والشباك ومعدات تدخين الأسماك وبكرات الرفع وصناديق المعدات وبضائع كثيرة مختلفة الرائحة. وفي النهاية صار أمزل يعد شابا غنيا. وبينما وضع جزءا من أمواله في بنك دانتسيغ الزراعي، تمكن بنجاح في استثمار الجزء الأكبر من ممتلكاته بسويسرا. لقد ظل ماله يعمل هناك لسنوات عديدة في صمت ولم ينقص.

هناك أشياء عينية محددة أخذها أمزل من شيفنهورست: ألبوما صور ونيشان الحرب الذي حصل عليه والده - مات والده كملازم احتياط في الحرب العالمية الأولى - إنجيل العائلة ودفتر يوميات أيام المدرسة المليء برسومات من أيام مدرسة القرية وكتب قديمة عديدة عن فريدريش الكبير وجنرالاته وكتاب أوتو فايننغر «الجنس والشخصية». هذه الأشياء عادت مع أمزل في قطار الجزيرة الإقليمي.

هذا العمل الأساسي كان هاما جدا لوالد أمزل. حاول فايننغر في اثني عشر فصلا أن يدحض امتلاك الأنثى للروح، ثم في الفصل الثالث عشر بعنوان «اليهودية» حاول أن يبرهن بالحجة على أن اليهود من عرق أنثوي وبالتالي فلا روح لهم. ولا يُتوقع خلاص اليهودي من يهوديته إلا عندما يتغلب على اليهودية داخله. وضع والد أمزل خطوطا حمراء تحت جمل لا تنسى وكتب عدة مرات على هامش الصفحة «صحيح!». لقد اعتبر الملازم الاحتياط ما هو مكتوب في صفحة ٤٠٨ من الكتاب صحيح جدا: «اليهود يحبون التلاصق بعضهم ببعض مثل النساء، لكنهم لا يتصلون بعضهم ببعض اجتماعيا...» ووضع ثلاث علامات تعجب على صفحة ٤١٣: «الديوثون من الرجال تجري اليهودية في دمائهم...» ووضع عدة خطوط تحت ذيل إحدى الجمل على صفحة ٤٣٤ وكتب بجانبها «لِيعنّا الرب»: «...أما الأشياء التي لن ينالها اليهودي الحقيقي أبدا فهي:

الوجود المباشر، رحمة الرب، شجرة البلوط، آلة الترومبيت، موتيفة زيغفريد، خلق نفسه، وكلمة «أنا أكون».

وهناك موضعان خط قلم الأب تحتهما خطا بالأحمر وكانا مهمين للابن أيضا. فلأن هذا العمل الرئيسي قد تحدث عن أن اليهودي لا يغني ولا يمارس رياضة، قام ألبريشت أمزل بتأسيس اتحاد جمباز بونزاك الرياضي وغنى في الكنيسة كباريتون، لدحض هذه المقولات على الأقل. وقام إيدي أمزل بدحض ذلك على المستوى الموسيقي بأن تدرب على عزف البيانو بشكل حاذق وأن أطلق العنان لصوته السوبرانو الغلامي الذي لم يرد أن يغادر حجرة تدريب الجوقة المدرسية بعد الثانوية، في قداسات موتسارت والأغاني الأوبرالية، أما عن الرياضة فقد ارتمى في أحضان كرة القبضة.

أمزل الذي كان دائما ضحية للعبة كرة المضرب الجلدية المدرسية، دخل عن طيب خاطر في فريق اتحاد «يونغ برويسن» (بروسيا الشابة) الرياضي الذي كان يرتدي الشورتات الخضراء ودفع صديقه الذي كان يلعب حتى ذلك الحين في فريق دانتسيغ لهوكي الجليد، بأن يلعب معه في فريق «يونغ برويسن». بعد الحصول على إذن مدير اتحاد هوكي الجليد وبعد أن تعهد ماتيرن بأن يساند فريقه مرتين في الأسبوع في الملعب بنيدرشتات، سجل نفسه باتحاد يونغ برويسن: في فريق كرة اليد وألعاب القوى الخفيفة: لأن لعبة كرة القبضة غير المجهدة لم تكن لتستهلك طاقة جسم هذا الشاب بصورة كافية.

تولا وأنا، كلانا كان يعرف ملعب هاينريش ايلرز الرياضي:

مكان للتدريب ما بين مستشفى المدينة ومصحة العميان في هايليغينبرونن. نجيل الملعب جيد لكن المنصة الخشبية وغرفة تغيير الملابس قديمتان وبهما شقوق تمر الريح عبرها. وكان الملعب الكبير والملعبان الفرعيان مخصصة لألعاب كرة اليد وكرة المضرب الجلدية وكرة القبضة. وأحيانا يجيء بعض لاعبي كرة القدم ولاعبي ألعاب القوى الخفيفة، حتى بنوا ملعب ألبرت فورستر الفخم بجانب محرقة الجثث ومن ساعتها أصبح ملعب هاينريش ايلرز مناسبا جدا للنشاطات الرياضية لطلبة المدارس.

ولأن فالتر ماتيرن قد فاز في العام الماضي في سباقات طلبة المدارس في رمي الكرة الحديدية والعدو ثلاثة آلاف كيلومتر وأصبح بذلك اسما معروفا في

الأوساط الرياضية كرياضي ناشئ، فقد تمكن ماتيرن من الحصول لصديقه إيدي أمزل على إذن ليصبح أحد أعضاء فريق «يونغ برويسن». في البداية أرادوا أن يجعلوا منه مساعدا فقط. وضع مدير الملعب مقشة في يد أمزل: يجب تنظيف حجرة تغيير الملابس بعناية فائقة. وكان عليه أيضا تشحيم الكرات وأن يلقي بالكرات إلى ملعب كرة اليد وأن يؤطر منطقة الجزاء بالطباشير. ولم يتغير الوضع إلا عندما اعترض فالتر ماتيرن، وأصبح إيدي أمزل لاعب خط وسط بالفريق. كان لاعبا خط الظهر يدعيان هورست بوتس وزيغي ليفاند وفيلي دوبك لعب كمهاجم أيسر. وكان فالتر ماتيرن هو لاعب الخط في فريق أصبحت له هيبة وأوشك أن يصبح في دوري الدرجة الأولى. لأن إيدي أمزل كان يقود الفريق وكان قلب الفريق ومركزه: لقد كان صانع ألعاب بالفطرة. فالكرات التي كان يتلقاها هورست بوتس وزيغي ليفاند في الخلف، كانا يرسلانها إلى الوسط ويمررها أمزل بذراعه بسلاسة ودقة إلى الخط: هناك كان يقف ماتيرن الهداف ولاعب الخط. كان يأخذ الكرة وهي طائرة ونادرا ما كان يضرب ضربات حاسمة بل يعيد الكرة إلى أمزل. وبينما كان أمزل قادرا على استقبال الكرات الماكرة التي لا رجاء منها وأن يحولها إلى تمريرات نظيفة، كان ماتيرن يصنع من الكرات المارة التي لا توحي بأي خطر نقاطا لا يمكن التصدي لها: لأن الكرة حين تسقط في الزاوية نفسها التي ضربت باتجاهها دون دوران، يستطيع المرء معرفة اتجاهها. لكن ضربات ماتيرن في الثلث الأسفل كانت تصنع في طيرانها دورة للخلف وتقفز للخلف بمجرد إصابتها للهدف. وكانت ضربة أمزل المميزة هي الضربة التي تبدو بسيطة ولكنها ضربة محسوبة ومدروسة من ذراعه. كان يصنع كرات أفقية. أما كرات شوط الفريق المنافس التي كانت تسقط تحت قدميه، كان ينقذها من الرقاد بضربات بظاهر يده. وكان يلمح الكرات الطويلة على الفور ويضربها بحافة إصبعه الصغيرة أو يطوحها بضربة يد سريعة. وكان يصحح دائما الكرات التي أفسدها لاعبو الدفاع في الخلف وكان على عكس ادعاءات فايننغر، لاعب كرة قبضة غير آري، صحيح كان مثيرا للضحك ولكنهم كانوا يحترمونه، كان من شباب«يونغ بروسيا» وكان رياضيا.

تولا وأنا كنا شاهدين

على تخلص أمزل من عدة أرطال من وزنه. ولم يدرك ذلك أحد سوانا نحن

وجيني برونيس التي كانت في هذه الأثناء كرة ممتلئة في العاشرة من عمرها. لاحظنا كما لاحظت هي أن ذقن أمزل المربربة أخذت تتماسك وتستدير استدارة كاملة. وكذلك انفردت حلمات ثدييه المرتعشتين لأن قفصه الصدري بدأ ينتفخ ويتسطح. لكن من المحتمل أن إيدي أمزل لم يفقد ولو رطلا واحدا. لقد وزع دهنه بتساو على جسمه وعملت العضلات التي تكونت بفعل الرياضة على إعطاء الدهن شكلا متماسكا. وجذعه الذي كان في الماضي زكيبة مليئة بالريش الناعم ولا شكل لها، استدار ليصبح صندوقا. لقد أصبحت له هيئة أحد الأصنام الصينين أو أحد الآلهة الحارسين لكل لاعبي كرة القبضة. لا، إيدي أمزل لم يفقد ولو حتى نصف رطل من وزنه كلاعب، بل لقد زاد وزنه رطلين ونصف: لكنه تسامى بالوزن الزائد بشكل رياضي: وهكذا نرى أن التكهن بوزن شخص ما مسألة نسبية تماما.

على أي حال فقد دفعت أرطال أمزل المائة وثمانية وتسعون التي لم يلحظ المرء فيها زيادة قدرها خمسة أرطال، الأستاذ برونيس إلى إيجاد حل للطفلة السمينة جيني في الحركة الجسمانية. قرر الأستاذ برونيس ومدرس البيانو فيلزنر-امبس إرسال جيني ثلاث مرات أسبوعيا إلى مدرسة للباليه. كان هناك في حي أوليفا حارة اسمها حارة الروزن، تبدأ عند السوق وتصب بزاوية في غابة أوليفا. كانت هناك فيلا مبنية ببساطة على طراز العمارة في أوائل القرن التاسع عشر، لُصق على حائطها الأصفر المغطى حتى نصفه بورد السياج لافتة معدنية لمدرسة الباليه. وتم قبول جيني في مدرسة الباليه مثلما تم قبول أمزل في النادي الرياضي «يونغ برويسن» عن طريق الوساطة: فقد كان فيلزنر-امبس هو عازف بيانو مدرسة الباليه لسنوات عديدة. ولم يكن له مثيل في مصاحبة تدريبات الباليه على العوارض الأفقية: كلهم كانوا يستمعون إلى عزفه البطيء «أداجيو» أثناء تمرين Demi-pliés من الوضع الأول إلى الخامس. أما تمرين Port de bras فكان يقطر قطرا من أصابعه. كانت له سرعة مثالية في تمرين battement dégagé وسرعة تجعل العرق يتصبب من جباه الراقصين والراقصات عند تمرين Peteits battements sur le cou-de pied. إضافة إلى أن عنده كثيرا من الحكايات. يقولون إنه شاهد بنفسه كل من ماريوس بيبيتا وبريوبراينسكا ونيينينسكيي المأساوي وماسينه الرائعة وفاني إلسلر وباربارينا يرقصون جميعا في وقت واحد.

ولم يشك أحد في أنه كان شاهد عيان لعرض تاريخي: وبذا لا بد أنه كان موجودا في العصر الرومانتيكي أوائل القرن الماضي أيضا عندما رقصت كل من فرقة لا تاليوني ولا غريزي وفاني تشيريتو ولوتشيلا غران رقصة Grand Pas de Quatre المشهورة. لقد حصل بعد لأي على مكان بمسرح الأولمب عند افتتاح عرض باليه «كوبيليا». وبالطبع يستطيع عازف البيانو أن يقدم برنامج الباليه بأكمله من غيزلا الحزينة وحتى الجنيات الهامسة على نغمات البيانو، وبناء على توصيته، بدأت السيدة لارا في تحويل جيني برونيس إلى أولانوفا.

ولم يستغرق الأمر وقتا طويلا حتى صار إيدي أمزل مشاهدا دائما يقف بجانب البيانو، حاملا كراس رسومه المثبتة بنوع من الرصاص اللين وتابع بعينيه اللاقطتين حركات التمرين على العوارض الأفقية واستطاع بعد وقت قصير أن يرسم الأوضاع المختلفة للتدريب، عندما أخذ الفتيان والفتيات الذين منهم أعضاء في باليه الأطفال بمسرح المدينة يمارسون التمارين على العوارض الأفقية. وكثيرا ما اهتمت مدام لارا برسوم أمزل ووضحت لتلاميذها وتلميذاتها تعليمات حركة Plié وفقا لرسوم أمزل.

كان منظر جيني في صالة الباليه شيئا يتراوح ما بين الأسى واللطف. فبرغم أن الطفلة قد اجتهدت في أداء الحركات المختلفة - فكانت تبدل قدميها الصغيرتين بهمة عند تمرين Pas de bourrée، ولكم اختلف أداء الطفلة السمينة في تغيير حركة القدم Petit changement de pieds اختلافا مؤثرا عن التغيير الروتيني لفئران الباليه الآخرين، وكيف لمعت نظرة جيني التي تزيح التراب عن قرون بالية عندما تدربت مع الأطفال مدام لارا على «البجعات الصغار» وقالت السيدة الحازمة عن نظرة جيني إنها نظرة بحيرة البجع - ولكن رغم كل هذا التألق، كان منظر جيني مثل خنزيرة صغيرة وردية اللون، أرادت أن تصبح جنية.

لماذا اتخذ أمزل دائما من وضع الأرابيسك Arabesque الحزين لجيني ووضع Tour la seconde مرة أخرى مناسبة لرسومات سريعة خفيفة؟ لأن قلمه أراد أن يكشف ما يكمن وراء الدهن الناعس من خطوط راقصة، دون أن يغض النظر عن سمنتها ولأنه أراد أن يبرهن لمدام لارا أن هناك نجمة باليه صغيرة بحجم البندقة على وشك البزوغ من خلف هذا الدهن. لا بد فقط من إذابة هذا الشحم

في مقلاة ساخنة حتى يظهر وسط اللهيب عود نحيف راقص يستطيع أداء الدورانات الاثنين وثلاثين المشهورة لتمرين Fouettés en tournant.

عزيزني تولا،

وكما أصبح أمزل مشاهدا لجيني، شاهدت جيني برونيس أيضا في العصر من مقصورة الملعب، كيف كان إيدي أمزل يقود فريق كرة القبضة الذي يلعب فيه من أجل الفوز. وحتى عندما كان أمزل يتدرب أي عندما كان يترك كرة القبضة الخفيفة تتقافز على ساعده العريض وتعلو بارتفاع ثلاثة من أكاليل الزهور، كانت جيني تندهش بفمها الفاغر الصغير الذي يشبه ثقب الزر. كان الاثنان السمينان اللذان يبلغ وزنهما معا ثلاثمائة وعشرين رطلا، معروفين، إن لم يكن لكل المدينة فعلى الأقل لأهل الضاحية. إذ إن أهل ضاحية لانغفور قد عرفوا كل شيء عن جيني وإيدي، مثلما أصبح صبي صغير ضئيل بطبلة صفيح مشهورا لديهم. فقط يختلف هذا العفريت الصغير عنهما في أنه كان غريب الأطوار.

نحن جميعا،

تولا وأنا وأخواها قابلنا أمزل وجيني السمينة ولاعب الخط فالتر ماتيرن في الملعب الرياضي. تقابل هناك أطفال آخرون في التاسعة من العمر، هانسشن ماتول وهورست كانوت وغيورغ تسيم وهيلموت ليفاندوفسكي وهايني بيلينتس والأخوان رينفاند كنا في لواء الشبيبة النازية نفسه وفرض قائد اللواء هايني فاسموت رغبته في أن نقوم بعمل سباقات التتابع على المضمار وأن نجري ونقوم بعمل التدريبات العسكرية على أرض الملعب مرتدين زي الشبيبة وبأحذية الخروج، رغم اعتراض العديد من الاتحادات الرياضية. وفي إحدى المرات وقف فالتر ماتيرن معترضا قائد لوائنا وصرخا في وجه بعضهما بعضا. وأظهر هايني فاسموت الأوامر الموكلة إليه وشهادة من مدير الملعب، لكن ماتيرن هدده بالضرب وفرض عليه عدم الدخول إلى المضمار وأرض الملعب بالزي وبأحذية الخروج. ومنذ ذلك الحين تدربنا في مرج يوهانس وأصبحنا نذهب إلى ملعب هاينريش إيلرز الرياضي فقط بصفة شخصية وبأحذية رياضية. سطعت الشمس مائلة لأن الوقت كان عصرا. كانت الملاعب عامرة باللاعبين. انطلقت صفارات حكام متنوعة لألعاب جماعية مختلفة معلنة بدء أو نهاية لعبة من تلك الألعاب. سُجلت أهداف، بدلت الفرق مرماها، ضربت كرات عالية وأُعلنت نتائج

مختلفة. وتم القيام بتمريرات وتم تخطي الخصم وتغطية اللعب والتمويه والتطويق وصنع اللعبة ثم تغييرها ثم تخطيها ثم فشل التصويب والفوز. يدخل حصى المضمار في الحذاء الرياضي. يتم انتظار لعبة الخصم دون انتباه. يبين دخان محرقة الجثث اتجاه الريح. دُعكت المضارب الخشبية وطُليت الكرات بالشحم ورُسمت خطوط الضربات الحرة وسُجلت الأهداف في الجداول وتم تكريم الفائزين. ضحكنا كثيرا وكنا نصرخ دائما وبكينا أحيانا وكثيرا ما ضايقت قطة مدير الملعب اللاعبين. والكل كان يطيع ابنة خالي تولا. وكلهم كانوا يخافون من فالتر ماتيرن. وكان البعض يضرب خفية إيدي أمزل بأحجار صغيرة. وتحلق كثيرون بكلبنا هاراس. كان على واحد من اللاعبين أن يكون آخر من يخرج من غرفة تغيير الملابس ويغلقها ثم يسلم المفتاح لمدير الملعب، تولا لم تفعل ذلك أبدا. كنت أفعل ذلك أحيانا.

وذات مرة،

أنا وتولا كنا حاضرين حين بكت جيني برونيس لأن أحدهم قد أحدث ثقبا في فستانها الأخضر الربيعي بواسطة عدسة مجمعة.

وبعد ذلك بسنوات - لم يكن أي منا حاضرا لا أنا ولا تولا - يقال إن أحد طلاب الثانوي من الذين نظموا دورة لكرة المضرب الجلدية هناك قال بوضع قطة مدير الملعب على رقبة أحد الطلاب الغافين.

وفي مرة أخرى غاب فيها كل من جيني وأمزل وماتيرن، لأن جيني كان عندها حصة باليه، سرقت تولا كرتين من كرات لعبة كرة المضرب الجلدية من أجلنا ودارت أصابع الاتهام حول أحد الصبية من فريق الجمباز وسلاح الشيش.

وذات مرة حينما رقد فالتر ماتيرن وإيدي أمزل وجيني برونيس بعد لعبة كرة القبضة على حائط المقصورة بجانب الملعب الصغير، حدث شيء كان منظره جميلا:

كنا قد عسكرنا على بعد خطوات قليلة منهم، ولم يستطع أي منا، لا تولا ولا أنا ولا هاراس، أن نحول أنظارنا عنهم. يزداد تركز سقوط أشعة الشمس الغاربة من غابة الياشكنتال على الملاعب الرياضية. يلقى النجيل الطويل على حافة المضمار بظلال طويلة. نحن لم نعد نفكر في الدخان الخارج عموديا من محرقة الجثث. أحيانا تصل إلينا ضحكات إيدي أمزل العالية. ينبح هاراس نبحات

قصيرة ويتوجب علي أن أمسك برباطه. تنزع تولا النجيل من الأرض بكلتا يديها. ولا تسمعني وهناك يقوم فالتر ماتيرن بأداء أحد الأدوار المسرحية بالتمثيل الصامت. يقولون إنه يتلقى دروسا في التمثيل. ولوحت لنا جيني التي ترتدي فستانها الأبيض الذي ربما قد نالته بقعة خضراء من النجيل. لوحت لها أنا بحذر، حتى التفتت إلي تولا بفتحتي أنفها وقواطعها. انشغلت الفراشات بعملها. زحفت الطبيعة بلا هدف. طنين النحلات الكبيرة. . . لا، ليست نحلات، ما سمعناه أولا ثم رأيناه في وقت متأخر من عصر صيف ١٩٣٦ عندما كنا جالسين في فريقين منفصلين في ملعب هاينريش إيلرز، في بداية ليلة صيفية بعد نهاية مباريات الألعاب الجماعية وتمشيط حفر القفز الطويل، كان هو المنطاد «غراف تسيبلين».

نعرف أنه سيأتي. أعلنت الصحف عن ذلك. في البدء يصبح هاراس مضطربا ثم نسمع نحن أيضا - أولا تولا - هذا الضجيج. يكبر المنطاد من كل الجهات رغم أنه قادم من جهة الغرب. والآن يبدو عالقا فوق غابة أوليفا مباشرة. بالطبع تغرب الشمس الآن في الحال ولذلك نرى لون المنطاد ورديا وليس فضيا. الآن تنزلق الشمس خلف كارلسبيرغ ويتخذ المنطاد طريقه باتجاه البحر المفتوح، ينسحب ورديا وفضيا. يقف الجميع ويظللون أعينهم بأيديهم ليروا المنطاد الآخذ في الابتعاد. تتهادى إلينا أصوات ترانيم الجوقات من المدرسة الحرفية ومدرسة التدبير المنزلي. تغني الفتيات بأصوات متعددة للمنطاد تسيبلين. تحاول فرقة آلات نفخ أن تحاكي الفتيات عند تل تسينغلرز بعزف مارش «الهوهنفربدبيرغ». يحاول ماتيرن النظر في اتجاه آخر. فلديه شيء ضد منطاد تسيبلين. يصفق إيدي أمزل بيديه الصغيرتين إعجابا. وحتى جيني تهلل «تسيبلين تسيبلين!» وتتقافز مثل كرة. وحتى تولا توسع فتحتي أنفها وتريد أن تشفط المنطاد تسيبلين داخلهما. وتجمع الاضطراب في ذيل هاراس. لون المنطاد الفضي يغري طيور العقعق بسرقته. وأثناء عزف مارش البادنفايلر متبوعا بمارش «الهوهنفربدبيرغ» فوق تل تسينغلرز وبينما كانت فتيات المدرسة الحرفية تغنين بلا انقطاع نشيد أرض الوطن المقدسة وبينما كان التسيبلين يتجه نحو هيلا ويصبح أصغر وأصغر ويصبح مع ذلك فضيا، يخرج بلا كلل وبشكل عمودي دخان من مدخنة محرقة جثث المدينة. يرقب ماتيرن الذي لا يؤمن بتسيبلين الدخان الإنجيلي.

ابنة خالي تولا،

عادة ما كنت مذنبا أو شريكا في الذنب أما في هذه المرة، عندما حدثت الفضيحة في ملعب هاينريش إيلرز، فلم أكن مذنبا. فعل فالتر ماتيرن شيئا ما. وحُكيت فعلته بروايات ثلاث: فإما أنه قد وزع منشورات في غرفة تغيير الملابس، أو أنه لصق بالصمغ منشورات على مقاعد المقصورة الخشبية قبل بدء مباراة كرة اليد بين فريقي شيلمول ٩٨ واتحاد فريق الجمباز والشيش بوقت قصير، أو أنه أثناء انشغال صغار وكبار اللاعبين بالتدريب واللعب في الملاعب، قد وضع خفية المنشورات في جيوب سراويلهم وستراتهم الموجودة بغرفة تغيير الملابس: ويقولون إن مدير الملعب قد فأجأه متلبسا بجريمته في غرفة تغيير الملابس. على كل حال ليس مهما تبرير صحة أي من هذه الروايات لأن المنشورات سواء كانت قد وزعت علنا أو لصقت أو وضعت خفية في جيوب اللاعبين، كانت جميعها حمراء.

وحيث إن مجلس شيوخ مدينة دانتسيغ بقيادة رواشنينغ أولا ثم غرايزر قد قام بحل الحزب الشيوعي عام ١٩٣٤ والحزب الاشتراكي الديمقراطي عام ١٩٣٦ وقد حل حزب المركز برئاسة د. شتاخنيك نفسه بنفسه في أكتوبر ١٩٣٧- كان لا بد من وصف العمل الذي قام به الطالب فالتر ماتيرن، الذي لم يكن قد بدأ الدراسة بعد، حيث كان فقط يزاول مهنة التمثيل، بأنه غير مشروع.

مع ذلك لم يريدوا أن يحدثوا ضجة تثير الانتباه بهذا الشأن. بعد تحقيق قصير في منزل مدير الملعب بين الكؤوس الرياضية وصور الرياضيين والشهادات المؤطرة - حيث كان مدير الملعب كوشنيك اسما لامعا في ألعاب القوى الخفيفة في العشرينيات - تم شطب اسم فالتر ماتيرن من قوائم اللاعبين بنادي «يونغ برويسن». وارتأى إيدي أمزل الذي يقال إنه نظر طوال التحقيق بعين ناقدة إلى تمثال من البرونز لرامي الرمح، أن يخرج من الاتحاد الرياضي دون إبداء أية أسباب. وبعد أن حصل العضوان الرياضيان السابقان لفريق يونغ برويسن على شهادات تخلد انتصارات فريق أمزل لكرة القبضة متخذين طريقهما إلى البيت، ودّعا الآخرين بمصافحة رياضية بالأيدي. وودع كل لاعبي يونغ برويسن وكذلك مدير الملعب إيدي أمزل وفالتر ماتيرن بكلمات حريصة معلنين عن أسفهم لما حدث وأنهم لا يريدون أن يقدموا أية بلاغات إلى الاتحاد الرياضي.

احتفظ فالتر ماتيرن بمكانته في نادي الهوكي بل وسجل نفسه في دورة للطيران الشراعي. ويقال إنه قام بالطيران لمدة اثنتي عشرة دقيقة عند اللسان الجديد بكالبيرغ وقد صور الخليج من عل. أما إيدي أمزل فقد نال كفايته من الرياضة: لقد عاد ثانية إلى الفنون الجميلة وعاونته ابنة خالي في عمل ذلك.

اسمعي يا تولا:

أحيانا أسمع صوت شعري وهو ينمو، ولا يتطلب ذلك بالضرورة أن يسود السكون في الشارع. لا أسمع صوت نمو أظافري، لكنني أسمع فقط صوت نمو شعري. لأنك أمسكتني ذات مرة من شعري، لأنك تركت يدك لثانية دامت دهرا في شعري - كنا جالسين في المخزن الخشبي بين ما جمعته من نشارة الخشب الطويلة الملفلفة مثل شعري -، لأنك قلت بعد ذلك وكنت ما تزالين في مخبئك بالمخزن الخشبي: «هذا هو أفضل ما لديك». ولأنك لمحت ذلك بدأ شعري يستقل عني وتقريبا لم تعد لدي سيطرة عليه. كان هاراس ملكا لك والمخبأ أيضا وكل قدور الغراء ولفائف نشارة الخشب الجميلة. وأنا أكتب لك أنت رغم أنني أكتب لحساب براوكسل.

ولكن ما كادت تولا تسحب يدها من شعري وتقول شيئا عنه، حتى سارت على ألواح خشبية لها أزيز ساخط بين ألواح الخشب الحبيبي المرصوصة بالطول وخرجت إلى حوش الورشة وجئت أنا وراءها بشعري المكهرب، لأمنعها من الهجوم على مدرس البيانو وعازف فرقة الباليه فيلزنر-امبس.

وطأ فيلزنر-امبس أرض الحوش. وذهب في وقار إلى صالة الماكينات وأراد أن يعرف من أسطى الماكينات الوقت الذي يكف فيه المنشار الآلي والمخرطة عن العمل لفترة أطول، حيث إن عازف الكونسير الأسبق الذي ما يزال عازفا مصاحبا لفرقة الباليه، يريد أن يتدرب في هدوء على شيء معقد اسمه «أداجيو». كان فيلزنر-امبس يستأذن أسطى الماكينات أو والدي من أجل ذلك مرتين في الأسبوع وكانا يجيبان طلبه كل مرة وإن لم يفعلا ذلك دائما في الحال. وما كاد أسطى الماكينات يومئ له موافقا ويشير بإصبعه للمنشار القرصي أن يتوقف بعد ابتلاع لوحين خشبيين فقط، وما كاد فيلزنر - امبس ينحني انحناءاته المتكلفة، التي بدت بالقرب من المنشار القرصي خطيرة جدا، ولم يكد يقطع نصف الطريق متجها إلى بوابة الحوش - وخرجت أنا لتوي من المحزن الخشبي - حتى فكت

ابنة خالتي تولا كلبنا هاراس من السلسلة وأطلقته.

في البدء لم يعرف هاراس ماذا يفعل بالضبط بهذه الحرية المفاجئة، حيث نمسكه عادة من رباطه حين نفكه من السلسلة المربوطة في الجدار، ولكن بعد ذلك برغم ارتيابه ورأسه المائل، انطلق على أربع قاطعا عرض الحوش ثم انحرف عند شجيرات الليلك، وقفز فوق أحد حوامل المناشير وتقافز عابثا حول عازف البيانو الذي تحول إلى عمود ثابت: نباح للمداعبة، نتشات لا ضرر منها وأرجل خلفية راقصة، لكن عندما حاول فيلزنر - امبس أن ينفذ بجلده وكانت تولا الواقفة في ذلك الوقت عند الكوخ ممسكة بيديها خطاف السلسلة، تحرض كلبنا هاراس بسك عليه-بسك عليه-بسك عليه، انطلق هاراس وراء عازف البيانو وأمسك بأسنانه ذيل معطفه المفروق المتطاير: حيث إن فيلزنر-امبس كان عادة ما يرتدي جاكت فنان من القطيفة أثناء دروس البيانو ويرفل في معطف مفروق الذيل إذا ما تدرب على مقطوعة موسيقية صعبة أو إذا أراد عزفها أمام مستمعين متحذلقين أو مستمعين حقيقيين.

وبذلك تقطع المعطف وكان على أبي أن يعوضه عنه، وبخلاف ذلك لم يحدث لعازف البيانو أي مكروه لأن أسطى الماكينات والأسطى النجار قد استطاعا أن يشدا كلبنا الأسود القابض بأسنانه على المعطف الاحتفالي والذي كان ما يزال لهذا الوقت حيوانا لعوبا.

كان من المفترض أن تحصل تولا على علقة ولكن تولا تبخرت ولم يمكن عقابها وفي مقابل ذلك تلقيت أنا العلقة لأنني لم أمنعها ووقفت إلى جانبها دون أن أفعل أي شيء وتحملت المسؤولية كوني ابن الأسطى النجار. ضربني أبي بأحد ألواح السقف، حتى تدخل فيلزنر - امبس الذي أوقفه أسطى الماكينات دريزن على قدميه ثانية معترضا على ضرب أبي لي. وبينما كان يمشط خصلاته المنفوشة بفرشاة كانت في جيب المعطف المفروق الذيل ونجت من هجوم هاراس على المعطف - منظر تحمّله هاراس بنهنهة - وبعد أن استعاد تسريحة رأس الأسد، نبه إلى أن تولا هي التي تستحق العقاب، لا أنا. ولكن المكان الذي وقفت فيه تولا كان عبارة عن ثقب خال. أبي لم يضرب هاراس أبدا.

اسمعي يا تولا:

بعد ذلك بنصف ساعة، صمت المنشار القرصي وصمتت المخرطة والمنشار

الآلي وماكينة التشطيب كما هو متفق عليه ورقد هاراس مرة أخرى خاملا ومربوطا في السلسلة. توقف الطنين الرخيم لماكينة السحج وخرجت من حجرة فيلزنر - امبس بوضوح وجلاء نغمات ناعمة بطيئة جدا تتسم تارة بالفرح وتارة أخرى بالحزن. تبخترت الأنغام متكسرة عبر الحوش وتسلقت واجهة المنزل ثم تهاوت من علو الدور الثاني وتجمعت ثم انتثرت: تدرب امبس على مقطوعة موسيقية صغيرة معقدة، تلك المسماة أداجيو والتي كان أسطى الماكينات يغلق من أجل عزفها ثلاث مرات متتالية بضغطة على زر بلوحة الأزرار السوداء كل الماكينات.

جلست تولا، حسب تخميني، في أعماق المخزن الخشبي وسط نشارة الخشب الملفلفة تحت السقف القطراني قد تكون قد سمعت اللحن لكنها لم تتبعه. كانت مقطوعة عازف البيانو بالنسبة لي طعما. عبرت فوق سور حديقة الليلك الصغيرة وألصقت وجهي بزجاج. النافذة: ضوء أخضر زجاجي يسقط بشكل مخروطي في الحجرة الموسيقية الخابية الضوء. يدا ساحر ورأس ناصع البياض صُب عليه ضوء أخضر داخل المخروط الضوئي الكهربي: فيلزنر-امبس فوق أصابع البيانو المسحورة ومعه النوتات الموسيقية. تعمل الساعة الرملية الكبيرة في دأب وبلا صوت. وكذلك تقف الباليرينا المصنوعة من البورسيلين متسمرة في وضع الأرابيسك تحت الضوء الأخضر المخروطي. يجلس إيدي أمزل وجيني برونيس في خدر على الكنبة في الخلفية. تملأ جيني بسمنتها فستانا له صفار الليمون. أمزل لا يرسم. يغمر شحوب مرضي وجهي المستمعين اللذين يتميز وجهاهما في العادة بالصحة والتورد. حوّل ضوء قاع البحار أصابع جيني السمينة التي تشبه السجق إلى طحالب خضراء لحيمة ومتداخلة في بعضها. يصنع أمزل بيديه سقفا مسطحا تحت ذقنه. يكرر فيلزنر - امبس عدة مرات وبمتعة فقرة موسيقية معينة شديدة الحزن - نداء وموت: لعبة الأمواج جحافل السحب إقلاع الطيور شربة الحب شهوة الغاب الموت المبكر - ثم يعيد القطعة الناعمة الخافتة مرة أخرى بمنتهى الإتقان، فيما ترتعش السمكة الذهبية في حوضها الزجاجي - من إعياء الموت إلى البهجة - وينصت إلى الإيقاع الأخير طويلا وأصابعه العشر معلقة في الضوء الأخضر حتى تنتهي فترة راحة المخرطة وماكينة التشطيب والمنشار القرصي والآلي والتي اتفق على أنها نصف ساعة.

يبدأ الضيفان اللذان جلسا بلا حراك في الحجرة الموسيقية في التحرك: تفرقت أصابع جيني بعضها عن بعض وانهار سقف أصابع أمزل: رفع فيلزنر أصابعه في ضوء الحجرة الأخضر. ويُري ضيفيه أولا المعطف المفروق الذيل الذي تهتك من الجوانب. تنقّل المعطف المتهتك هنا وهناك حتى وصل إلى يدي أمزل وبقي هناك.

ورفعه أمزل وعد الأزرار الباقية وفحص بإصبع مفرودة كل الأجزاء الممزقة وأشار إلى ما يمكن أن تصنعه الأنياب الحادة لكلب الرعاة. وبعد هذه التراتيل بدأ في قداس: لقد حملق عبر ثقوب مربعة واسترق النظر عبر فتحتين. وسع الخياطة الممزقة بزوج من الأصابع الخبيثة. كان ريحا تحت حوض المعطف. زحف أخيرا تحتها ووقف مرتديا المعطف الاحتفالي الممزق. تحول هو والمعطف وقدّم بالمعطف المصاب عرضا أمام جمهور: كان منظر أمزل مخيفا، مستثيرا للعطف، أمزل بساق عرجاء، أمزل ذو الأوصال المرتعدة، أمزل في الريح في المطر على الجليد الزلق، التاجر على البساط السحري، طائر الرخ، الخليفة اللقلق، الغراب البومة نقار الخشب، العصفور في حمام الصباح، خلف الحصان، فوق المدفع، عصافير كثيرة تتلاقى وتسب بعضها بعضا وتتشاور وتتفرق وتقدم الشكر على التصفيق. ثم يتبع ذلك عبث أمزل بالمعطف المفروق الذيل: الجدة المتحررة، المراكبي يشكو من ألم الأسنان، الواعظ في مهب الريح، شوغر ليو عند باب المدفن، مدرسون في أحواش المدارس. ولكنهم ليسوا سمانا وليس لهم أجسام سباحي الإنقاذ. ارتدى القماش ذات مرة وخدع أعواد الفاصوليا الحاجزة وطواحين الهواء وكان بالديرله وعشماتاي والصليب على الطريق والرقم الشرير ايفتا. واستحوذ شبح راقص نحيف على الباليرينا الخزفية وخطفها من فوق البيانو وضمها بجناحي خفاش وامتلكه برفق وتركها تختفي طويلا في المعطف الأسود الطويل الذي له سواد هاراس ولكنه أظهرها والحمد لله مرة ثانية سليمة وأعادها إلى موطنها فوق البيانو. وأنهى فقرته وطلبت منه الإعادة. عاشق للتنكر. كان التصفيق سابقا لهذه الفقرة وتلك والفضل في ذلك يرجع لكلبنا هاراس لأن أنيابه الحادة قد...، مدح تولا البعيدة في أغوار المخزن الخشبي، لأن تولا قد......هاراس وهاراس قد......فيلزنر-امبس ومعطفه المفروق الذيل قد أجج في داخل أمزل لهيبا وكشف عن بئر مغطاة وترك عملة صغيرة تسقط في

غورها وأتاح لبذرور أفكار أن تنمو وتترعرع داخله، أفكار غذت طفولة أمزل وتنبأت له بحصاد وافر.

ولم يكد إيدي أمزل يلف قماش المعطف الأسود ولم يكد يقف ثانية كأمزل الهادئ الذي عهدناه في ضوء الحجرة الأخضر السائل، حتى طبق قطعة القماش بعناية وأخذ معه جيني التي كانت شبه خائفة من يدها وأخذ معطف امبس المفروق الذيل معه وترك فيلزنر-امبس وسمكته الذهبية وحيدين.

تولا وأنا

ظننا أن أمزل قد أخذ يائسا قطعة القماش ليذهب بها إلى الخياط. ولكن لم يحصل أي رفاء على عمل يقوم به، لأن هاراس قد قضى على المعطف. تم إنقاص مصروفي إلى النصف، لأنه كان على أبي أن يعوض مدرس البيانو بمعطف جديد تماما. وفي مقابل ذلك كان بإمكان الأسطى النجار أن يطالب بالمعطف القديم كي يستخدمه مثلا كخرق في صالة الماكينات - فهناك يحتاجون دائما إلى خرق للتشحيم - لكن أبي دفع النقود ولم يطالب بالقطعة القديمة، بل واعتذر بالصورة اللائقة بأسطى نجار متنحنحا ومحرجا وناظرا من أعلى لأسفل. وبقي أمزل هو المنتفع من المعطف الممزق القابل للتحول. وفي الحال تبين أن موهبته ليست فقط في الرسم والتصوير فقط: في الحال صنع إيدي أمزل بالرغم من أنه لم ينو إفزاع الطيور، فزاعات طيور بالحجم الطبيعي.

يُدَّعى هنا أن أمزل ليس لديه معرفة كبيرة بالطيور. ولم يكن ابن عمة تولا خبيرا بالكلاب ولا يمكن لنا أن نقول إن إيدي أمزل بسبب الفزاعات عالم بالطيور. قد تكون التفرقة بين العصافير وطيور السنونو وبين البومة ونقار الخشب شيئا سهلا. كان أمزل يعرف أيضا أن طيور الزرزور والعقعق لا تستوي في سرقاتها، لكنه كان يرى أن طائر أبو الحناء والدغناش والقرقف والشرشور والعندليب كلها طيور مغردة. لعبة الأسئلة: «أي طائر هذا؟» لم يحر جوابا. ولم يره أحد من قبل وهو يقلب في موسوعة «بريم» للطيور. وعندما سألته: «أيهما أكبر، النسر أم طائر النمنمة؟» تهرب من الإجابة وقال «طبعا ربنا أكبر». لكن عينيه حساستان إزاء العصافير. فأمزل يستطيع أن يفرق بين سرب كبير من العصافير التي يعتبرها العالم أجمع نوعا واحدا لا لون له، وأن يميز كل طير منها على حدة وذلك أمر ليس في استطاعة عالم طيور خبير. فما يستحم في مجاري

الأمطار بسقوف المنازل وما يزقزق خلف عربات الحنطور ويهبط على أحواش الفسح بالمدارس بعد الجرس الأخير لنهاية الفسحة، يقيمها هو إحصائيا: هناك كثير من هذه الطيور تسلك مسلكها الخاص وتترك مجتمع الحشود الجماهيري. وأيضا طيور الشحرور، تلك التي وهبته اسمها، لم يراها كلها أبدا على أنها سوداء بالدرجة نفسها ولها المناقير الصفراء نفسها ولا حتى في الحديقة المغطاة بالجليد.

مع ذلك لم يصنع إيدي أمزل فزاعاته ضد العصافير وطيور العقعق التي يعرفها جيدا: لم يصنع فزاعاته ضد أحد، لقد صنعها لأسباب شكلية. على أية حال كان يريد أن يثبت لبيئته المحيطة التي كانت إنتاجيتها تتميز بالخطورة أنه منتج.

تولا وأنا

كنا نعرف أين كان أمزل يصمم ويصنع فزاعاته التي لم يطلق عليها اسم فزاعات بل سماها تماثيل. لقد اكترى فيلا واسعة في طريق شتيفن. أمزل الوريث كان غنيا والدور السفلي من الفيلا كان مبطنا بخشب البلوط. امتد طريق شتيفن في الجزء الجنوبي الغربي لحي لانغفور، ووسط غابة الياشكنتال كان طريق شتيفن يتفرع عن طريق الياشكنتال ويمتد باتجاه بيت الأيتام والتبرعات بالقرب من أرض مطافئ لانغفور. فيلا بجوار فيلا. بعض القنصليات، القنصلية اللاتفية والأرجنتينية. حدائق منسقة خلف أسوار حديدية لا تخلو من الزينة أبدا. أشجار البقس والطقسوس والزعرور البري. نجيل إنجليزي غال يُسقى صيفا ويقبع بلا ثمن تحت الجليد في الشتاء. تحيط أشجار الصفصاف والتنوب الفضي بالفيلات وتعلوها وتظللها. تسبب الفواكه التي تنمو على الجدران الفاصلة بين الفيلات مشكلات كثيرة يتم إصلاح النافورات عدة مرات. يترك البستانية العمل. توفر شركة الحراسة ضمانا ضد السارقين. قدم قنصلان وزوجة أحد أصحاب مصانع الشوكولاتة طلبا لتركيب جهاز إنذار ضد الحريق وتمت الموافقة على الطلب رغم أن المطافئ تقع وراء دار الأيتام وبرج تدريب المطافئ يعلو كل أشجار التنوب الفضي. ووعد جهاز الإنذار أشجار اللبلاب على الواجهات البيضاء والأفاريز والبوابات برشتين من سائل الإطفاء كل سبع وعشرين ثانية. في المساء كانت هناك نوافذ قليلة مضاءة، إلا إذا كان هناك حفل استقبال لدى صاحب مصنع الشوكولاتة «انغلاس». يمكن للمرء سماع الخطوات تغدو وتروح ما بين أعمدة

الإضاءة. حي هادئ وراق، لم نسمع فيه خلال عشرة أعوام سوى عن جريمتي قتل وحادثة شروع في القتل.

وسرعان ما انتقل فالتر ماتيرن الذي كان يسكن قبل ذلك في غرفة مفروشة في كاربفنسايغن بالمدينة القديمة إلى فيلا أمزل وشغل صالتين من الصالات المبطنة بخشب البلوط. وأحيانا كانت تسكن معه بعض الممثلات، حيث إنه لم يرغب بعد في البدء بدراسة الاقتصاد، لكن إدارة الكومبارس بمسرح المدينة قد قبلته ليعمل بها، كواحد من جموع غفيرة، كحامل للسلاح وسط مسلحين، كخادم من بين ستة خدام يحملون الشموع، كجندي سكير من بين كثير من الجنود السكارى، كمتذمر بين كثير من الفلاحين المتذمرين، كأحد المتنكرين من أهل البندقية، كجندي عاص، وكواحد من ستة سادة يحضرون مع ست سيدات ضمن ضيوف حفل عيد ميلاد في الفصل الأول، ضيوف حفل ريفي في الفصل الثاني وكواحد من المعزين في جنازة بالفصل الثالث وفي الفصل الأخير كواحد من شهود فتح وصية مضحك، حيث يمثل مع الجموع خلفية من المتحدثين والمتندرين والحزانى والفرحين، من خلال كل هذه الأدوار جمع فالتر ماتيرن خبراته المسرحية الأولى. إضافة إلى ذلك أراد ماتيرن أن يطور موهبته المسرحية والصرير بالأسنان بقدر كبير وذهب مرتين في الأسبوع إلى الممثل الكوميدي المشهور بالمدينة غوستاف نورد ليتلقى على يديه دروس الكوميديا، حيث إن الكوميديا ما تزال هي نقطة ضعفه الوحيدة.

وبينما كانت الصالتان المبطنتان بخشب البلوط مكانا يتدرب فيه ماتيرن على دور فلوريان غاير، كانت الصالة الثالثة الأكبر والمبطنة كذلك بالبلوط شاهدا على طريقة عمل أمزل. يكاد الأثاث ينعدم فيها. خطاف لحم غليظ معلق في السقف المتين المبطن بالبلوط. سلاسل على بكرات. تعلقت التماثيل بالحجم الطبيعي ملتصقة من السقف المبطن. يطبق الأسلوب نفسه في غرف تغيير الملابس الخاصة بعمال المناجم: هواء كاف وفضاء على الأرضية الباركيه، وزحام عند السقف. قطعة أساس واحدة. منصة، منصة حقيقية، منصة من عصر الرينسانس. وعليها: العمل الرئيس الصفحات الستمائة، العمل الذي لا مثيل له، هذا العمل الشيطاني، كتاب فايننغر، العمل الذي لم يقدر حق قدره، الذي بولغ في تقديره والذي باع جيدا، الذي أُسيء فهمه، أُحسن فهمه، بتعليقات الأب الهامشية

وحواشي فايننغر السفلية، ذاك الكتاب العبقري: «الجنس والشخصية»، الفصل الثالث عشر، صفحة ٤٠٥: «. . .ونقول بادئ ذي بدء إن الفضيلة الوحيدة الكبرى ذات الأهمية التاريخية لليهودية تتلخص في أنها جعلت الجنس الآري يصل إلى الوعي المستمر بالذات وأن تذكُّره بذاته («ذاته» مطبوعة بخط ثقيل). وهذا هو الشيء الذي يدين به الآري لليهودي: فمن خلال اليهودي يعرف الآري ممن يجب عليه أن يحترس: من اليهودية كإمكانية موجودة في داخله.»

كان إيدي أمزل يرتل مثل هذه الفقرات وغيرها بطريقة الوعاظ المنبرية متوجها إلى التماثيل المتأرجحة التي انتهى من عملها والمعلقة تحت السقف البلوطي وأطر التماثيل التي لم تتشكل بعد ورقدت على الأرضية الباركيه والتي تعد رغم ذلك ضمن جمهرة المتناقشين: كان الحديث سلسا دون تكلف وكان إيدي أمزل المُضيف العليم بالأمور المثقف ذا الثراء الروحي، الأصيل والموضوعي والذاتي عند الضرورة، الملتزم والحاضر دائما، الذي لا يتضايق أبدا والذي يحلق بموضوعيته فوق الأشياء يوضح لهم حقيقة النساء واليهود وإن كان يجب علينا أن ندحض امتلاكهما للروح وفقا لفايننغر أو هل يكفي أن ندحض امتلاك أحدهما للروح وهل تعد اليهودية من الناحية الأنثروبولوجية. . .، وهذا يتناقض وفقا للاستنتاج الامبيريقي مع الاعتقاد الثابت: «شعب الله المختار، إن لم أقل، يعنى حتى من أجل النقاش فقط، ألا يدرك المرء من خلال العداء الشديد للسامية كثيرا من الصفات اليهودية: فاغنر مثلا، برغم أن اليهودي الحقيقي لن يتمكن أبدا من فهم «البارسيفال»[8]، وبذلك يمكن للمرء أن يفرق بين الاشتراكية الآرية والاشتراكية اليهودية المعتادة، فماركس كان كما نعرف. . . .ولذلك تستعصي العقلانية الكانطية على المرأة وعلى اليهودي وحتى الصهيونية لن. . . .ألا ترون أن اليهود يفضلون البضائع المتحركة. الإنجليز يفعلون ذلك أيضا. صحيح، صحيح، هذا ما كنا نقوله من البداية: يفتقر اليهودي إلى. . .، ومبدئيا هو. . .، لا ليس فقط غريبا عن الدولة ولكن أيضا. . . .ولكن من أين لهم أن. . . .، منذ العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر وفي الوقت الحالي أيضا: والمسيحيون هم السبب في ذلك، إن لم أقل. . . . .على العكس تماما يا أعزائي: انظروا، ألا

(٨) مقطوعة لفاغنر عن بطل ملحمة أرتوس. (مترجم)

تؤمنون بالكتاب المقدس أم لا؟ إذن وماذا فعل يعقوب بأبيه المحتضر؟ لقد كذب على اسحق ها ها ها وخدع عيسو، ألا ترون؟ ولابان حاله لم يكن أفضل. ولكن ذلك يحدث في كل الدنيا. ولكن إذا حسبنا النسبة المئوية، سنجد أن الجرائم الكبيرة قد قام بها الآري وليس. . . . مع أنه قد ثبت أن اليهودي ليس طيبا ولا شريرا وكذلك لا يعرف شيئا عن فكرة الملائكة ناهيك عن الشياطين. هل أذكركم بموضوع بيليال وجنة عدن. مع ذلك يجب أن نتفق على أن اليهودي ليست لديه دراية بالمُثل القيمية العليا ولا يعرف الانحدار الأخلاقي: ولذلك ليس لديهم جرائم عنف كبيرة، مثلهم مثل النساء وهذا ما يثبت ثانية أن اليهودي يفتقر إلى العظمة في كل النواحي أو هل يمكن أن تذكروا لي على الفور قديسا، . . . . قطعة فنية، لذلك أقول: إن الأمر له علاقة بالأجناس وليس بالأفراد، وحتى فكرة العائلة بمعناها الحرفي لا تتجاوز أن تكون عملية تكاثر، نعم ولهذا مهنة القوادة. القوادة اليهودية كمقابل للارستقراطية. ولكن ألا يقول فايننغر بوضوح بأنه لا هذا ولا ذاك وأنه لا يريد بأي حال من الأحوال أن يكون الأمر بأيدي العامة وأنه لا يريد المقاطعة ولا الطرد. على كل حال لقد كان هو أيضا يهوديا. لكنه أيضا ليس مع الصهيونية، وحينما يقتبس من شامبرلين. ولقد قال في آخر المطاف إن المقارنة مع المرأة لا تنطبق في كل الحالات. لكنه يدحض امتلاك كليهما للروح. أجل ولكن، بصورة مثالية. لقد نسيتم. أنا لا أنسى شيئا يا عزيزي. يذكر حقائق، مثلا: بالأمثلة يمكنك أن تفعل كل شيء. . . عبارة مقتبسة من لينين، أو؟ إذن، ألا ترى أن الداروينية قد وجدت في وقت داروين جل تابعيها، لأن نظرية القرود: لذلك فإنه ليس من قبيل المصادفة أن الكيمياء في يد. . . . ، مثل العرب في السابق، الذين ينتمون على أي حال إلى أصل قريب، ومن هنا يأتي الاتجاه الكيميائي الخالص في علوم الطب، بينما الطب الطبيعي، ويحدو بنا ذلك إلى الحديث عما هو عضوي وما هو غير عضوي على الإطلاق: لأن الطبيعة المنحطة قد وضعها غوته في شخصية التابع فاغنر وليس في شخصية فاوست، لأن فاغنر، يمكننا أن نقول ذلك بضمير مرتاح، لديه العنصر اليهودي النموذجي، فيما فاوست: حيث إن كل العبقرية قد حُرِّمت على اليهود. وسبينوزا؟ نعم بالضبط هو من نعنيه. فلو أن غوته لم يجعل من كتابات سبينوزا قراءاته المفضلة. ناهيك عن هاينه. كذلك الإنجليز الذين ليس لديهم. . ،

فسويفت وستيرن كانا إن لم يخالفني الصواب. . . . وشكسبير لا نعرف عنه الكثير حتى الآن. بالطبع هم امبيريقيون مجتهدون وسياسيون واقعيون وعلماء نفس لكنهم لم يكونوا أبدا. . . . مع ذلك هناك. . . لا، لا من فضلك اتركيني أكمل كلامي يا عزيزتي، أعني روح الدعابة الإنجليزية، التي لا يعرفها اليهودي أبدا، ولكنه على أي حال مضحك ومثير للسخرية بالضبط مثل النساء، لكن روح الدعابة؟ أبدا! وسأقول لك لماذا؟ لأنهم لا يؤمنون بأي شيء ولأنهم لا شيء ولذلك يمكن أن يصبحوا أي شيء، لأن برغبتهم في المدرك، ومن ذلك التشريع، لأنهم ليس لديهم شيء مقدس لا مساس به، لأنهم يتمرغون في الوسخ والدنس، لأنهم لا يحترمون مسيحية المسيحي ولا تعميد اليهودي، لأنهم يفتقرون إلى التقوى وإلى الانبهار، لأن قبلة شيلر تعني بالنسبة لهم العالم ولأنهم لا يبحثون ولا يتشككون، أعني التشكك الحقيقي لأنهم لادينيون، لأنهم ليسوا واضحين كالشمس ولا غامضين كالشياطين ولأنهم لا يخافون وليست لديهم الشجاعة ولأنهم ليسوا بطوليين ودائما ساخرين، لأنهم مثل هاينه ولأنهم ليس لديهم حدود، لأنهم يقوضون الأسس، نعم إنهم يستطيعون عمل ذلك جيدا، ولأنهم لا يتشككون ولو لمرة واحدة ولأنهم غير مبدعين ولأنهم لا يستطيعون الغناء، ولأنهم لا يستطيعون شيئا ولا يتوصلون إلى فكرة ولأنهم تنقصهم الفطنة وينقصهم الحياء والكرامة والخشية لأنهم لا يندهشون ولا تهتز مشاعرهم، تهمهم فقط الماديات لأنهم يفتقرون إلى الشرف والايروتيكا ذات المغزى العميق والرحمة والحب وروح الدعابة والغناء ويفتقرون دائما إلى الإيمان وشجرة البلوط وموتيفة زيغفريد والترومبيت والوجود المباشر، أقول ذلك بغض النظر عن. . .، نعم بغض النظر، من فضلك اتركني أكمل كلامي: انتهينا انتهينا!»

ينسحب إيدي أمزل من وراء منصة الرينسانس الأصلية، ولكنه لا يغلق العمل الرئيس لأوتو فايننغر رغم أن حفل الكوكتيل بين جدران البلوط ما يزال مستمرا ويتناقش الحضور حول موضوعات أخرى مثل الألعاب الأوليمبية وتأثيراتها. إنه يأخذ فقط مسافة منه ويتأمل هياكل التماثيل التي لم تكتمل بعد والمستمرة رغم ذلك في حديثها بكل فخر. يضع يده في صناديق وراءه ولكن ليس بعشوائية ويرفض بعض الأشياء ويختار ويبدأ في تلميع ضيوف المكان الراقدين على الباركيه بالطريقة نفسها التي استعملها مع الضيوف المعلقين

بالسلاسل وخطاطيف اللحم تحت السقف البلوطي. يحشو إيدي أمزل تماثيله بورق الصحف وبقايا ورق الحائط الذي يجمعه من البيوت التي تم تجديدها حديثا وتحدد خرق الأعلام المنزوعة من المراكب ولفافات ورق التواليت وعلب المحفوظات الفارغة وأسلاك دواليب الدراجات وأغطية الأباجورات وهلاهيل الملابس وزينة شجرة عيد الميلاد موضة الملابس. كان يبدع مخلوقاته باستخدام قِدر واسع من الغراء البارد وبأشياء من المزادات وملابس أكلتها العتة وأشياء وجدها. ويقال إن هذه الفزاعات أو التماثيل كما يسميها أمزل رغم اتساقها الجمالي ودقة تفاصيلها وأناقة شكلها الخارجي كانت أقل تأثيرا من تلك الفزاعات التي صنعها التلميذ القروي إيدي أمزل لسنوات عديدة في قريته شيفنهورست والتي وضعها على سدود الفايكسل وباعها محققا منها الربح.

كان أمزل هو أول من لاحظ اختفاء هذا التأثير. وبعد ذلك نوه فالتر ماتيرن، بمجرد تركه لغرفته ونصوصه المسرحية، بمقدرة أمزل الخلاقة ولكن ما لا يمكن التغاضي عنه هو غياب ثورة أمزل الإبداعية القديمة.

ودافع أمزل عن نفسه وقدم له أحد تماثيله اللمعة الرائعة في الشرفة والتي تظللها أشجار زان غابة الياشكنتال. صحيح أن التمثال قد حقق بعض النجاح حيث إن العصافير كانت مطيعة ومخلصة ولم تنظر إلى العمل الفني وفزعت قليلا من التمثال، لكن ليس باستطاعة أحد أن يقول إن سحابة من الطير قد أصيبت بالهلع عند رؤيتها التمثال أو أنها تركت أشجارها صارخة لتعيد إلى الأذهان أحد المشاهد القروية القديمة، حينما كان أمزل صغيرا. أصيب الفن بالجمود. بقي نص فايننغر حبرا على ورق. أصيب الإتقان بالإعياء. ولم تقم العصافير بدورها. تثاءبت الغربان ووقفت حمامات الغابة على تماثيل أمزل: مشهد متناقض، تجرّعه أمزل مبتسما، ولكننا سمعناه يتنهد خلف الشجيرات.

لا تولا ولا أنا استطعنا مساعدته،

لكن الطبيعة أعانته: في أكتوبر تشاجر فالتر ماتيرن مع قائد لواء صغير من ألوية الشبيبة النازية، وكان هذا الأخير ينظم ألعاب الحرب في الغابة القريبة. واحتل عدد من الطلائع المرتدين للزي والمتقاتلين من أجل البيرق، الحديقة الواقعة خلف فيلا أمزل. من الشباك قفز فالتر ماتيرن وسط الأوراق المبللة وبالطبع كنت سأنال علقة لو حاولت مساندة قائد لوائنا هايني فاسموت.

وفي الليلة التالية كان علينا أن نرمي أحجارا على الفيلا من الغابة: سمعنا عدة مرات صوت رنين زجاج النوافذ ولو أن أمزل الذي وقف بالشرفة، اكتفى بالمشاهدة لكانت القصة قد وصلت إلى نهايتها ولكنه دون مشاهداته على ورق رخيص وبنى نماذج صغيرة في حجم صناديق السيجار: شخوص متعاركة، هرج ومرج، شجار لا ملامح له بجوارب طويلة حتى الركبة وأحزمة على الأكتاف وهلاهيل بنية مهووسة بالبيرق المطرز بالرموز الجرمانية، أحزمة منزلقة مطعمة بحقن الفوهرر، أصوات النصر المتحشرجة وفق الطبيعة، تماما بالصورة التي تصرف بها أفراد لوائنا في صراعهم من أجل البيرق. تمكن أمزل من أن يجد مدخلا إلى الطبيعة مرة أخرى. ومنذ ذاك الوقت لم يعد يصمم نماذج على الموضة أو يرسم نباتات الأتيليه وزيزفونات الحجرة بل خرج إلى الشارع.

وبدا أنه مهووس بالأزياء العسكرية، خاصة تلك السوداء أو البنية التي تغلب على الشارع في الوقت الحالي. استطاع أن يحصل على زي قديم لأفراد فرق الهجوم من أحد محلات بيع الحاجيات القديمة في حارة تاغنيت، ولكن زيا واحد لم يغط احتياجاته. وبعد لأي أستطاع أن يضع إعلانا في جريدة «فوربوستن»: «مطلوب شراء أزياء فرق الهجوم» ووقع الإعلان باسمه. وفي محلات الأزياء العسكرية كان لا يسمح ببيع زي الحزب إلا لمن يحمل بطاقة الحزب وحيث إنه لم يكن ممكنا لأمزل أن يدخل الحزب أو أي مؤسسة من مؤسساته، بدأ يحاول إقناع صديقه فالتر ماتيرن الذي برغم أنه لم يعد يوزع أية منشورات شيوعية، ما زال يحتفظ بصورة لروزا لوكسمبورغ ثبتها في غرفته، بكل الحيل أن يدخل إلى أحد مؤسسات الحزب لكي يحصل لأمزل على الزي الذي يريده بصورة ملحة ولا يستطيع الحصول عليه.

من أجل الصداقة - فمن المفترض أن الاثنين أخوان بالدم - وعلى سبيل الدعابة ومن قبيل الفضول وأيضا لكي يحصل فالتر ماتيرن لصديقه على الزي البني الغامق المطلوب الذي سيصمم أمزل على أساسه الفزاعات الجديدة، قبل فالتر ماتيرن دخول الحزب: ترك نصوصه المسرحية إلى جانب وملأ استمارة تقديم لم ينكر فيها أنه كان عضوا بالنسور الحمراء وبعد ذلك بالحزب الشيوعي.

ودخل في مجموعة فرق الهجوم بلانغفور ضاحكا رافضا وصرير أسنانه كان مكتوما. كانوا يجتمعون في حانة كلاينهامربارك: حانة كبيرة لها اسم الحديقة

نفسه وبها صالة للرقص وملعب للبولنغ ومطعم بين مصنع بيرة أكتسين ومحطة لانغفور.

وشكلت مجموعة من طلاب المعاهد التقنية العليا عصب هذه المجموعة البورجوازية الصغيرة من فرق الهجوم. وكانوا يقومون بعمل الحواجز على مرج مايو حينما يكون هناك إعلان عن تصريحات حزبية. وعلى مدار الأعوام أصبحت المهمة الرئيسية لفرق الهجوم افتعال المشاجرات في هيرسانغر بالقرب من بيت الطلبة البولندي مع أعضاء الاتحاد الطلابي البولندي «براتينا بوموك» وأن يحطموا الحانة التي يجتمع بها اتحاد الطلاب البولنديين. في البداية واجه فالتر ماتيرن صعوبات بسبب تاريخه الأحمر وكذلك بسبب توزيعه للمنشورات. ولكن لأنه لم يكن الشيوعي الوحيد في مجموعة فرق الهجوم رقم ٨٤، شمال لانغفور وحيث إن الشيوعيين القدامى كانوا يتبادلون تحية الجبهة الحمراء بمجرد سكرهم، شعر ماتيرن بالألفة، خاصة وأن رئيس المجموعة قد ضمه تحت جناحه: كان قائد المجموعة يوخن زافاتسكي قبل عام ٣٣ خطيبا كبيرا من مناضلي الجبهة الحمراء وكان يدعو عمال الترسانة البحرية بمستوطنة شيشاو للإضراب. لم يتنكر زافاتسكي لماضيه عندما قال في خطبته القصيرة المفضلة: «أحب أن أقول لكم يا إخوان، إن الشيوعي التائب الذي دخل تنظيم فرق الهجوم، أحب إلى الفوهرر من عشرة انتهازيين دخلوا الحزب لأنهم لم يجدوا لأنفسهم أي نفع، ولم يدخلوا لأنهم عرفوا أن هناك عصر جديد بدأ، أي نعم العصر الجديد بدأ، والوحيدون الذين لم يعرفوا ذلك هم الانتهازيون النائمون في العسل.»

وعندما ذهب وفد من أفراد التنظيم الأمناء في أول نوفمبر إلى ميونيخ لحضور يوم الحركة بميونيخ واحتاجوا إلى ملابس جديدة، تمكن فالتر ماتيرن من أن ينقل الملابس القديمة التي تحملت كثير من المشاجرات في الحانات إلى شتيفنسبيرغ حيث يسكن أمزل. وكان من المفترض أن ينقل ماتيرن الذي عينه زافاتسكي قائد فرقة، كل الملابس والأحزمة والأحذية القديمة إلى فرع فرق الهجوم بتيغنهوف حيث كان الفرع يعاني من ضيق مادي. ولكن إيدي أمزل أعطى لصديقه شيكا بأصفار كثيرة تكفي لكساء ٢٠ رجلا بأزياء جديدة. وتراصت في صالة أمزل البلوطية أكوام بنية رثة: وزادت بقع البيرة وبقع الدهن وبقع الدم والقطران والعرق من قيمة الأسمال في نظر أمزل. وفي الحال بدأ في

أخذ القياسات. لقد صنف وعد ورص وأخذ مسافة وحلم بطوابير تخطو المارش وتحيي ثم تكمل السير ثم تحيي ثم تكمل السير. نظر زارا عينيه: مشاجرات في صالات الحانات، حركة، ارتباك، بشر ضد بشر، عظام وحواف موائد، أعين وإبهامات، زجاجات بيرة وأسنان، صرخات وأكثر من مائتين وخمسين مطواة مجمدة، في هذه الأثناء لم يكن هناك في الصالة البلوطية بخلاف الملابس المكومة سوى فالتر ماتيرن. كان يشرب زجاجة ماء معدني ولم ير ما رآه أمزل.

بنت الخال تولا،

التي أكتب عنها والتي أكتب إليها بالرغم من أنه يجب علي وفقا لتعليمات براوكسل أن أكتب فقط عن إيدي أمزل، تمكنت من جعل هاراس يهاجم مدرس البيانو والعازف المصاحب لفرقة الباليه فيلزنر-امبس للمرة الثانية. في أحد الشوارع بطريق الكاستانيا حلت تولا رباط الكلب. كان امبس وجيني في طريق عودتهما من مدرسة الباليه حيث حملت جيني حقيبتها الرياضية وتأرجحت منها الأربطة الوردية الحريرية لحذاء الباليه المطرز بالدانتيل - ارتدت جيني معطفا من الفراء الأصفر. أطلقت تولا هاراس وسقط المطر مائلا من جميع النواحي، لأن الريح كانت تهب باستمرار. قفز هاراس فوق نقر الماء الغائرة الناثرة للماء. كان فيلزنر-امبس يحمل مظلة ليحمي نفسه وجيني من المطر. لم يتخذ هاراس طرقا ملتوية وكان يعرف الشخص الذي تقصده تولا. في هذه المرة كان على أبي أن يعوض فيلزنر - امبس عن المظلة، لأن امبس قد استخدم المظلة ليدافع بها عن نفسه عندما قفز الحيوان الأسود الأملس بفعل المطر عليه وعلى تلميذته، حيث جعل من المظلة درعا بسن بارز يصد به الكلب. وطبعا استسلمت المظلة ولم يبق منها غير الهيكل المعدني الذي له شكل النجمة. صحيح أن بعض الأسلاك قد تكسرت وقطعت قماش المظلة ولكنها أعطت هاراس عدة وخزات موجعة. لقد هب عدة مرات بحافريه الأماميين على الأسلاك المعدنية ثم أمكن كبح جماحه بواسطة المارة ولحام خرج من محله مرتديا مريلته المبقعة بالدماء. والمظلة كانت في خبر كان. لهث هاراس. لم تتركني تولا أجري إليه. تبلل اللحام وامبس. وعاد هاراس إلى رباطه. تلبد شعر عازف البيانو في شكل خصلات متفرقة: بودرة شعر مبللة تقطر على القماش الأسود. جيني السمينة ترقد على حافة الرصيف التي يزخ عليها مطر نوفمبر ويسيل ويصنع فقاعات رمادية. لم يعد اللحام إلى

دكانه بل سلمني أنا وهاراس، بهيئته نفسها التي خرج بها من الدكان إلى الأسطى النجار. لقد حكى ما حدث بصورة ليست في صالحي، لقد وصف تولا بأنها فتاة صغيرة مذعورة فرت هلعا عندما لم أتمكن أنا من إمساك هاراس جيدا من رباطه، رغم أن تولا كانت موجودة طوال الوقت هناك ولم تفر إلا عندما أخذت منها الرباط الخاوي.

انصرف اللحام ذو اليد المشعرة الكبيرة وتلقيت أنا العلقة. هذه المرة لم تكن بألواح السقف الخشبية بل بيد الأسطى النجار. وحصل فيلزنر-امبس على مظلة جديدة. وقدم الأستاذ برونيس لأبي فاتورة حساب تنظيف معطف جيني الفرو الأصفر. ولحسن الحظ لم يغرق حذاء الباليه ذو الأربطة الحريرية الوردية في مجرى المطر لأن مجرى المطر يصب في قناة الشتريس وقناة الشتريس تمر في بركة الأكتسين وتغادر بركة الأكتسين. وتمر عبر حي لانغفور كله تحت شارع الإلزن وشارع هرتا وشارع لويزة مارة بحي نويشوتلاند صاعدة إلى ليبغشتريس وتصب في طريق بروشكشن أمام مصب الفايكسل في الفايكسل الميت المختلط بماء نهر الموتلاو عبر قناة الميناء بين نويفارفاسر وفستربلاته وتختلط بماء بحر الشرق.

كنت وأنا تولا حاضرين،

عندما وقعت مشاجرة بأجمل وأكبر حدائق ضاحية لانغفور التي بها حانة «كلاينهامربارك»، شارع ماريا رقم ١٣، لمديرها أوغست كوشينسكي، فطائر طازجة كل يوم ثلاثاء. حدث ذلك في أسبوع البشارة الأول ولم تتمكن الشرطة من إنهاء المشاجرة إلا بعد ساعة ونصف من بدايتها، رغم أن الشرطة تجلس دائما في غرفة الصيد بالحديقة عند كل اجتماع للحزب تحسبا لأي شجار: طلب رئيس حراس الشرطة بالتلفون تعزيزا لقواته: ١١٨. تقدم ١٦ شرطيا بالعصي المطاطية وأعادوا النظام إلى المكان.

حضر الاجتماع الحزبي الذي عنوانه «نعم للعودة إلى أحضان الرايخ- لا لمعاهدة فرساي الغاشمة» جمهور غفير. احتوت القاعة الخضراء مائتين وخمسين شخصا. وحسب البرنامج تبدل الخطباء الواقفون بين أشجار الزينة على المنصة: في البداية تحدث قائد مجموعة فرق الهجوم يوخن زافاتسكي بمهارة واقتضاب وكان صوته أجش، ثم تحدث قائد المجموعة المحلي زيلكه عن انطباعاته عن الاجتماع الشامل للحزب في نورمبرغ. والشيء الذي أثر فيه أيما تأثير كان هو

تلك المعاول التي حملها العمال والتي قبّلت الشمسُ أنصالها: «لا بد لي أن أقول لكم يا أعزائي أهل لانغفور يا من جئتم في أعداد غفيرة، شيئا لا مثيل له، شيئا لا يُنسى، كيف لمعت هذه المعاول، يا سلام: كانت كصرخة من ألف حنجرة وألف: ذابت قلوبنا، إنه لأمر تدمع له عينا المناضل الحقيقي، لكن في مثل هذه المناسبات يجب على المرء ألا يخجل من ذلك. وقلت في نفسي يا أعزائي أهل لانغفور، عندما أعود، سأحكي لكل من لم يكونوا هناك كيف لمعت آلاف الأنصال من معاول البلاد...» ثم تحدث رئيس الدائرة كامبه عن انطباعاته عن عيد الحصاد في بوكهبورغ وعن المساكن الجديدة المخطط لها في مستوطنة ألبرت فورست. ثم دعا قائد فرق الهجوم يوخن زافاتسكي بمؤازرة ٢٥٠ من سكان لانغفور القيام بثلاث صيحات نصر «هايل هتلر» من أجل مستشار الرايخ الفوهرر، والنشيدين الوطنيين، الأول بطيء جدا والآخر سريع جدا، من النساء بصوت رفيع حاد ومن الرجال بصوت رخيم ومن الأطفال بنشاز وبلا إيقاع. وبذلك تم إنهاء الجزء الرسمي من الاجتماع وأعلن قائد المجموعة المحلي زيلكه لسكان لانغفور بداية الجزء الثاني للاجتماع اللطيف الذي حضره الجميع طواعية وهو عبارة عن سحب جوائز مجموعة من المنتجات المفيدة والجيدة لصالح معونة الشتاء. ومقدمو الجوائز هم: معمل ألبان «فالتينات» ومصنع السمن الصناعي «أمادا» ومصنع «أنغلاس» للشوكولاتة ومصنع بونبون «كانولد» وشركة تجارة النبيذ «كيزاو» وشركة تجارة الجملة «هاوبولد ولانزر» وشركة «مسطردة-كونا» ومصنع زجاج دانتسيغ ومصنع بيرة «لانغفور»، التي قدمت بالإضافة إلى صندوقي البيرة في السحب، برميلا إضافيا: «إلى فرق هجوم شمال لانغفور رقم ٨٤، لشباب المجموعة ٨٤، لرجالنا الأفذاذ الذين نفخر بهم، سلام مربع للجدعان!»

ثم حدثت تلك الفوضى التي لم تنفض إلا بعد طلب الشرطة، تليفون رقم: ١١٨ والتي أتت بعصيها المطاطية وتمكنت من فض الشغب. لم يكن الشيوعيون أو الاشتراكيون هم من أثاروا القلاقل، فلم يكن لهم وجود في ذلك الحين. كان السكر هو سبب هذه الفوضى، هذا الزيغ الذي تصاعد إلى الحدقات وصبغ الشجار بطابعه. حيث إنه كما هو معتاد بعد الخطب الطويلة التي تلقى وتُسمع: يبدأ الناس في الشرب والرشف والغرغرة وإرواء الظمأ والصب والدلق: سواء

جلوسا أو وقوفا يشرب المرء كأسا وكأسا أخرى والبعض ينتقل من مائدة إلى مائدة ويغرق أكثر وأكثر في الشراب. وكثيرون يقفون على البار ويدلقون في أجوافهم المشروبات بكلتا يديهم، وقليل منهم وقفوا دون ترنح وتغرغروا بدون رأس حيث إن سحابة من دخان عمت الصالة ذات السقف المنخفض وغطت ما فوق الكتفين. بدأ هؤلاء الذين انتشوا بالخمر في ترديد أغاني جماعية في وقت واحد: هل/ تعرف/ الغابة/ المثقوبة بالرصاص/ المنهكة من الضرب، على/ أرض/ باردة، أيها/ الرأس المليء/ بالدم/ و/ الجروح.

عيد عائلي والجميع كانوا حاضرين، الأصدقاء القدامى: ألفونس بوبيتس ولوته وفرينتسشن فولشليغر: «فاكر لما كنا في هوهبارك ومشينا بطول الراداونه على طريق أورا ومن قابلنا هناك، دولك وأخوه، ها هو واقف هناك أه وسكران طينه»

وبجانب عضو تنظيم فرق الهجوم برونو دولك وقف: أفراد التنظيم فيلي ايغرز وباول هوبه وفالتر ماتيرن وأوتو فرانكه بمؤخراتهم العريضة في صف على البار: «وفي مرة في قهوة ديرا! أنت تخرف، لقد كان ذلك في تسينغلرزهوهه، ساعة لما ضربوا بريل. وبعد ذلك ضربوه مرة ثانية. أين؟ عند السد في شتراشين-برانغنشين أنا سمعت أنهم رموه في الماء. لكنه خرج بعد ذلك ولم يكن مثل فيشمان في كلاين-كاتس، عندما رقعوه العلقة: وسع لي وسع! يهيأ لي أنه راح أسبانيا. يا ليت، لقد قصفوا رقبته وقطعوه إربا ووضعوه في زكيبة، أنا أعرفه من دار الرماة، قبل ما ينتخبوه مع وبروست وكروبكه في الاجتماع. لقد هربوا متسللين من الحدود عند غولدكروغ. أنظر إلى داو، هذا الرجل عبارة عن كنبة متحركة، ذات مرة في موغنفينكل. . . . . »

وجاء غوستاف داو مهرولا متأبطا لوتار بودشينسكي في ذراعه. وأينما حل، شرب ودعا الآخرين ليشربوا معه. جلست أنا وتولا على مائدة آل بوكريفكه. ذهب أبي إلى البيت بعد انتهاء الخطب. كثير من الأطفال كانوا قد انصرفوا. نظرت تولا ناحية المرحاض: رجال. تولا لم تشرب شيئا، لم تقل شيئا فقط كانت تنظر. كان أوغست بوكريفكه سكرانا. وكان يشرح لسيد يدعى موكوتايت خريطة السكة الحديد في الكوشنايديراي. أرادت تولا أن تثبت باب مرحاض الرجال بالنظر المجرد، لكن الباب كان يتأرجح من كثرة تفريغ المثانة.

القطار البطيء خط: برلين، شنايدهمول، ديرشاو يمر عبر الكوشنايديراي. لم تنظر تولا إلى باب مرحاض السيدات: لقد رأت فالتر ماتيرن وهو يختفي داخل مرحاض الرجال. ورغم أن السيد موكوتايت كان عاملا بالسكة الحديد فقد شرح له أوغست بوكريفكه طريق كونيتس-لاسكوفيتس. وإرنا بوكريفكه كانت تقول بعد كل خمس رشفات من البيرة: «الآن لازم تروحوا يا أولاد». لكن تولا لم ترفع عينيها عن باب المرحاض: فقد التقطت عيناها المثقوبتان كل الداخلين والخارجين. وأوغست بوكريفكه يعد الآن محطات خط السكة الحديد الكوشنيفي الثالث: ناكل-كونيتس: غيرسدورف، أوبكاس، شلانغنتين...بيعت أوراق السحب لحساب معونة الشتاء. الجائزة الرئيسية: طقم أطباق للمشهيات لاثني عشر شخصا، إلى جانب كؤوس نبيذ من الكريستال الخالص، وسُمح لتولا أن تسحب ثلاثة سحوبات، لأنها سحبت في السنة الماضية وكسبت إوزة وزنها ١١ رطلا. سحبت من طاقية تنظيم فرق الهجوم المليئة بأوراق السحب دون أن تغيب بنظرها عن باب المرحاض: في البدء كسبت قطعة شوكولاتة أنغلاس، ثم تسحب الآن باليد الصغيرة المليئة بالخدوش ورقة السحب الثانية: يا سلام! الجائزة الأولى والكريستال: يُصفع باب المرحاض الرجالي ويُرد. بدأ الشجار بالداخل، حيث يفتحون سراويلهم ويتركونها تسقط سريعا، باليد وبعد ذلك مباشرة بالمطاوي. يطعنون بعضهم بعضا ويقطعون سترات بعضهم بعضا، لأن تولا تسحب: الصين ضد اليابان، وسع لي وسع! ويركلون ويضربون ويستديرون ويسقطون على الأرض: «اخرس يا حمار يا مهبول يا مقمل، عيب يا جماعة هذا لا يجوز» وفي ذاك الحين انطلق كل السكرانين عند البار: فيلي أيغرز، وباول هوبه وألفونس بوبيتس ودولك الصغير وأوتو فرانكه وأخرجوا مطاويهم: «وسع لي وسع!»

جوقة سكرانة بأقدام كبيرة، تصنف أطباق الفاكهة، تُطير رؤوس الكؤوس تزيح وتزيت أبواب المرحاض. لأن تولا سحبت الجائزة الأولى، هاجوا وماجوا وقطعوا بعضهم بعضا بالمطاوي والسكاكين ومطاوي الجيب. الرجل والكرسي، هنا والآن، لا جبان هنا، وقع على رأسه، تتكسر الأشياء مدوية، يقف فيلي. نقطة التوازن تترنح، البيرة والعصير يطفوان خارج الفم. لأن الجميع أبطال ولا يحتاجون إلى التقاط أنفاسهم. كل يبحث عن الآخر. من يزحف هناك؟ وحبر من

ذاك الذي يسيل؟ لماذا يولول هؤلاء التعساء؟ كيف يخلع المرء باب حمام من مفاصله؟ من الذي سحب السحب؟ جائزة أولى. انقطاع التيار. شجار، بالداخل والخارج، هوس:١١٨: بوليس- وسع لي! خداع ولؤم. لا وأبدا. وجود. الصالة الخضراء. الثريات تصلصل. الزمان والوجود. سحب منصهر الأمان. لا ضوء. عتمة: حيث تبحث العصي المطاطية السوداء للرجال السود عن الرؤوس السوداء المستديرة تحت الثريات السوداء والنساء السود صرخن: «النور! أين النور! وسع وسع البوليس! وسع لي وسع!»

ولم يعد الضوء إلا بعدما سحبت تولا ورقة سحب ثالثة من طاقية فرق الهجوم ووضعتها بين ركبتيها، لم يعد إلا بعد أن فتحت تولا الورقة وكسبت دلوا من الخيار المخلل مع الشبت من شركة مسطردة كونا. تقدم رجال الشرطة الاحتياطيون الأربعة بقيادة رئيسهم بوراو ورجال شرطة الحماية الستة عشر بقيادة الملازم زاوزين: من البار ومن الباب المروحي المؤدي إلى ركن تعليق الملابس: في ثياب خضر محبوبة ومهابة. وحمل كل رجال الشرطة صفارات بين شفاههم وصفروا للمتشاجرين المتلاحمين. عملوا بالعصي المطاطية التي أُدخلت على يد رئيس الشرطة فوربس والتي تسمى في إيطاليا «مانجانيللو». ولهذه العصي فضل على العصي القديمة في أنها لا تسبب جروجا موضعية ولكن أثرها بدون دماء ويكاد يكون بدون صوت. وكل من تلقى ضربة من هذه العصي دار حول نفسه ثم سقط على الأرض وهي تدور به. وحتى أوغست بوكريفكه انصاع لضربات العصي المستوردة من إيطاليا موسوليني. دون أية جروح موضعية رقد بوكريفكه ثمانية أيام غير قادر على العمل. وبالإضافة إليه كان هناك ثلاثة أصيبوا بجروح خطيرة وسبعة عشر أصيبوا بجروح طفيفة وبينهم أربعة من شرطة الحماية. ودخل أفراد تنظيم فرق الهجوم فيلي أيغرز وفرينتسشن فولشليغر والبناء غوستاف داو وتاجر الفحم لوتار بودشينسكي الحبس لكنهم خرجوا في صباح اليوم التالي. وقال السيد كوشينسكي صاحب حانة الكلاينهامربارك للتأمين إن خسائره بلغت ١٢٠٠ غولدن: زجاج ومقاعد وثريات وأبواب الحمام المحطمة ومرايا الحمام المهشمة ونباتات الزينة ومنصة الخطب وجائزة السحب الكبرى: كريستال كريستال! إلخ إلخ.. وأسفرت تحريات الشرطة عن أن انقطاع التيار كان بفعل فاعل- أنا أعرفه.

ولكن أحدا لم يلحظ أن بنت خالي بسحبها الأول وقولها: يا سلام، قد أعطت إشارة بدء الشجار.

عزيزتي تولا،

كان كل ذلك في مقدرتك. بنظرتك وإصبعك. لكن المشاجرة التي حدثت في القاعة لم تكن هي الشيء الهام في هذه القصة، فرغم مشاركتك فيها، لم تكن تختلف عن أي مشاجرة أخرى. المهم هو أن إيدي أمزل مالك الفيلا بطريق شتيفن قد تلقى كومة ملابس ممزقة وملوثة بالدماء وغارقة في الكحول وكان فالتر ماتيرن الذي أصيب بجروح طفيفة فقط هو من تبرع له بها.

هذه المرة لم تكن مجرد ملابس فرق الهجوم فقط، بل كانت هناك ملابس أعضاء الحزب العاديين أيضا. ولكنها جميعا كانت بنية: ليس بني الأحذية الصيفية القصيرة وليس بني البندق ولا بني الساحرات الشريرات: ليس لون أفريقيا البني: ليس اللون البني لقشور الأشجار المطحونة ولا للآثاث، ليس اللون البني للشيخوخة، ليس البني الوسيط أو اللون البني للرمل ولا للفحم البني الجديد أو الفحم النباتي القديم الذي تُغرس فيه معاول الفحم النباتي: ولا بني مشروب الكاكاو الصباحي ولا قهوة الصباح التي تعلوها القشدة والتبغ بأنواعه الكثيرة لا يضاهي لونه البني اللون البني ل. . .، ولا اللون البني الخداع للغزلان ولا اللون البني للبشرة المدهونة بنيفيا بعد أسبوعين إجازة، ليس هناك خريف بإمكانه أن يبصق مثل هذا البني على لوحة الألوان: بني الخراء، بني الطين المبلول اللاصق بني الحزب بني فرق الهجوم اللون البني لكل الكتب البنية والبيوت البنية بني براوناو ايفا براون، الزي البني الذي يختلف تماما عن الزي البني الخاكي، لون بني خرج من آلاف المؤخرات ذات البثور على أطباق بيضاء، لون بني مستخلص من البازلاء والسجق: لا، لا، فأنتن يا ذوات البشرة البنية اللطيفة، بني الساحرات، وبني البندق، لم تكنَّ عرابات حينما طُبخ هذا اللون البني وحصل على لونه، حينما رقد هذا السباخ - ما زلت مهذبا - أمام إيدي أمزل.

صنف إيدي أمزل اللون البني وأخذ المقص الكبير ماركة «زولينغن» وأخذ يجرب قصات عديدة. بدأ أمزل في قص ذاك البني الذي لا مثيل له. وبجانب منصة الرينسانس الأصلية التي يوجد فوقها كتاب فايننغر المفتوح دائما، كانت هناك ماكينة عمل جديدة: حصان الخياط، أرغن الخياط، كرسي اعتراف

الخياط، ماكينة خياطة ماركة «سنغر». كانت تقرقر مثل قطيطة حين كان أمزل يخيط عليها أردية داخلية تشبه القمصان من القصاصات وزكائب البصل والمواد الأخرى المتاحة. ويزفر أمزل خلف الماكينة الهزيلة قائلا: ألم يكن كلاهما كيانا واحدا؟ ألم يكن لهما المسار الحياتي نفسه لقد ولدا في المكان نفسه وعُمدا وطُعما وذهبا إلى المدرسة فيه؟ على القمصان المصنوعة من الخيش خاط أمزل، تارة بغرز كبيرة وتارة بغرز دقيقة خرقا من هذا البني المقزز ورقع بها القماش مثل شامة تجميل، لكنه وزع أيضا اللون الأحمر لشارات الذراع ووزع كذلك وجع البطن الذي يحدثه الصليب المعقوف والذي يشبه وجع البطن الذي تحدثه ضربة شمس. وحشا الأردية بنشارة الخشب وألياف الكابوك. بحث ووجد في المجلات المصورة والكتب السنوية وجوها، مثلا كالصورة الخشنة الملمس للشاعر غيرهارت هاوبتمان أو الصورة الأبيض في أسود الملساء لممثل له شعبية كبيرة في تلك السنوات: بيرغل أو يانغ. وثبت شملنغ أو باتشيلي المصارع والزاهد تحت مظلة الطواقي البنية. لقد صنع من المفوض الأعلى لعصبة الأمم عضوا بتنظيم فرق الهجوم. ولم يكن لديه مانع بعد كل الغرز والخياطة أن يُعمل المقص الخالق في القماش مرة أخرى ويقصقص الغرز القديمة حتى يصبح بروفيل شيلر الوقور أو الوجه الداندي للشاعر الشاب غوته هو وجه أحد ضحايا الحركة النازية كهورست نوركوس مثلا أو هورست فيسل. قطع أمزل وتطلع وجمع ووفق وأعطى للقرون بماضيها وحاضرها فرصة أن تقبِّل بعضها بعضا تحت طواقي أفراد فرق الهجوم.

والصورة المأخوذة لمؤلف الكتاب الرئيس أوتو فايننغر النحيف ذي المظهر الغلامي الذي أنهى حياته بيده، هذه الصورة الموجودة على الصفحة الرابعة من كتابه وتصور جسده كله، قص أمزل منها الرأس وكبره لدى معمل زونكر للفوتوغرافيا ليصبح في الحجم الطبيعي لرأس إنسان وعمل طويلا دون أن يصل إلى نتيجة مرضية مع تمثال عضو فرق الهجوم «فايننغر».

ما نجح فيه أكثر هو بورتريهه الشخصي. بجانب منصة الرينسانس وماكينة الخياطة سنغر صنع مرآة طويلة ورفيعة تصل إلى سقف الغرفة البلوطية، مثل تلك المرايا الموجودة عند أتيليهات الخياطين ومدارس الباليه، مقتنيات أمزل. جلس أمزل أمام ذاك الزجاج الذي يعطيه الإجابة مرتديا زيا للحزب، قام بخياطته بنفسه، فبين أردية أفراد فرق الهجوم لم يجد رداء يحتويه، ثم نقل صورته المعكوسة

في المرآة على هيكل من هياكل التماثيل العارية، كان في وسطها شيء يشبه الضفيرة الشمسية، وتحتوي على ماكينة تشغيل آلي. في النهاية جلس أمزل الحقيقي مثل البوذا على مقعد الخياط وأخذ يقيّم تمثال رجل الحزب أمزل. وقف تمثال أمزل ضخما ومنفوخا بالخيش واللون البني للحزب وأحاطته أحزمة الكتف مثل أحد المدارات. وجعلت منه الرتبة الموضوعة على الياقة مديرا لأحد المصالح ولبس مدير المصلحة طاقيته المصنوعة وفقا للبورتريه من مثانة خنزير دهنت على سبيل التلميح بقليل من الأسود. وبدأت ماكينة التشغيل الآلي تعمل في داخل الضفيرة الشمسية لرجل الحزب: وقفت الأرجل في وضع انتباه. ثم تحرك القفاز المطاطي الأيمن من عند توكة الحزام باتجاه الصدر ثم إلى الكتف بواسطة التحكم عن بعد، وقام أولا بأداء تحية الحزب الممدودة ثم التحية المائلة، ثم عاد إلى موضعه على توكة الحزام، حيث توقفت الماكينة عن الحركة، وارتعش التمثال مثل رجل كبير وسكن. وقع أمزل في غرام مخلوقه الجديد. وقلد تحايا تمثاله الذي صنعه بالحجم الطبيعي أمام مرآة الأتيليه الرفيعة: رباعية أمزل. فالتر ماتيرن الذي رأى أمزل وتمثاله ورأى نفسه وصورته في المرآة ضحك أولا بصوت عال جدا ثم بحيرة. وفي النهاية تسمر محملقا في صمت إلى الفزاعة ثم انتقل بناظريه صامتا من الفزاعة إلى أمزل ومن أمزل إلى المرآة ورأى نفسه في الزي المدني بين مرتدي الزي العسكري. لحظة أعادت له صرير الأسنان الموروث. ثم قال وهو يصر بأسنانه إن التهريج له حدود، يجب على أمزل ألا يظل أسيرا لموضوع واحد، وعلى كل حال هناك بين أفراد فرق الهجوم ورجال الحزب كثير ممن لديهم هدف محدد وجاد، رجال شجعان وليسوا أوغادا.

ورد عليه أمزل قائلا إن ذلك بالضبط هو ما يقصده من عمله الفني، إنه لا يريد أن ينتقد بل يريد أن يصور الأمور كما هي في الحياة بصورة فنية، يريد أن يصور الرجال الشجعان والأوغاد معجونين وممزوجين بعضهم ببعض كما هو الأمر في الحياة. وبعد ذلك صنع أمزل من الهيكل، الذي كان مجهزا بالفعل، تمثالا لرجل شجاع ضخم: عضو تنظيم فرق الهجوم فالتر ماتيرن. تولا وأنا كنا نحدق من الحديقة المظلمة داخل الأتيليه البلوطي المضاء كهربيا ورأينا بأعين مدورة كيف كشف شبيه فالتر ماتيرن بزيه الملطخ ببقعة دم من مشاجرة القاعة بكلاينهامربارك عن أسنان الوجه المصور بالاستعانة بماكينة التشغيل الآلية المركبة

في التمثال، والتي جعلته يصر بأسنانه. لقد رأينا ذلك فعلا ولكن من يرى أسنان فالتر ماتيرن يسمعها أيضا.

أنا وتولا رأينا

كيف قام فالتر ماتيرن بمجموعة فرق الهجوم التي يتبعها بحراسة أحد التصريحات الحزبية الكبيرة بمرج مايو المفروش بالثلج. وكيف رأى إيدي أمزل مرتديا زي الحزب بين الجموع. تحدث لوبزاك، ثم تحدث غرايزر وفورستر. سقطت ندف ثلج كبيرة وهتفت الجموع باستمرار «هايل»، حتى دخلت ندف الثلج في أفواه الهاتفين. وحتى رفيق الحزب أمزل كان يريد ابتلاع ندف أكبر من الثلج أثناء ترديده الهتاف، حتى اصطاده عضو فرق الهجوم فالتر ماتيرن من بين الجموع ودفعه من المرج الموحل إلى طريق هندنبورغ. وهناك نهره وكنا نظن أنه سيضربه.

تولا وأنا رأينا

كيف جمع إيدي أمزل معونة الشتاء مرتديا زي الحزب بسوق لانغفور. كان يخشخش بعلبة معدنية ويحكي للناس نكات وجمع عملات أكثر من عضو حقيقي بالحزب وقلنا لأنفسنا: لو جاء ماتيرن الآن ورآه........

تولا وأنا، فاجأنا إيدي أمزل وابن البقال وسط عاصفة جليدية على مرج فوربل. كنا نجلس خلف إحدى عربات الملاهي كانت مركونة في الشتاء في مرج فوربل وتبينا أمزل والعفريت الصغير من ظلهما وسط العاصفة. لا يمكن أن يكون لظلين مثل هذا التباين الذي لهذين الظلين. فظل العفريت الصغير يحمل طبله الصفيح وسط الثلج وظل أمزل ينحني. ووضع الاثنان أذنيهما على الطبل وكأنهما يستمعان لصوت ثلج ديسمبر على الصفيح المدهون بالأبيض. ولأننا لم نر أبدا شيئا ساكنا كهذا من قبل، ظللنا صامتين بآذان احمرّت من الصقيع: لم نسمع سوى صوت الجليد أما الطبلة فلم نسمعها.

تولا وأنا كنا

نقوم في الفترة ما بين أعياد الميلاد والسنة الجديدة بالتلصص على إيدي أمزل أثناء قيام عائلتينا بالتنزه في غابة أوليفا، ولكنه كان في مكان آخر وليس في فرويدنتال. هناك كنا نشرب قهوة باللبن ونأكل فطائر البطاطس تحت قرون الآيل. وفي حديقة الحيوانات لم يحدث شيء مميز، لأن القرود قد أدخلوا بسبب

التقلبات الجوية إلى قبو حارس الغابة حيث الدفء. ولم نكن بحاجة إلى أن نأخذ هاراس معنا. لكن الأسطى النجار قال إن «الكلب يجب أن يحصل على قدر من الحركة».

وفرويدنتال كان مكانا مفضلا للتنزه. كنا نركب له خط ترام رقم ٢ حتى محطة فريدنشلوس ونمشي بين الأشجار ذات العلامات الحمراء عبر الغابة حتى ينفتح الوادي ونرى أمامنا مبنى حراسة الغابة وحديقة الحيوان. ولم يستطع أبي بوصفه أسطى نجار أن يكف عن تقدير ما ينتج عن كل شجرة كبيرة سواء كانت زانا أم صنوبر من أخشاب بالأمتار المكعبة ولذلك كان مزاج أمي، التي لم تر في الطبيعة والأشجار أكثر من كونها زينة للعالم، يتعكر ولا يعود إلى صفوه إلا مع القهوة وفطائر البطاطس. جلس السيد كامين مؤجر مبنى حراسة الغابة والقهوة المصاحبة له بين أوغست بوكريفكه وأمي. وكان من عادته أن يحكي للزبائن قصة إنشاء قفص الحيوانات. وبذا استمعت أنا وتولا إلى الحكاية للمرة العاشرة وهي أن سيدا يدعى بيكوريتس من تسوبوت قد حصل على ثور البيسون هدية. لكن الحديقة لم تبدأ بالبيسون بل بزوج من الظباء الحمر كان هدية من صاحب مصنع القاطرات. ثم جاءت الخنازير الوحشية والأيائل. ثم أهدى أحدهم قردا وأهدى الآخر قردين. وجلب المستشار الأعلى لشؤون الغابات ثعالب وقندسا وقدم أحد القناصل الكنديين حيواني الراكون. والذئبان؟ من جلب الذئبين؟ الذئبان اللذان هربا بعد ذلك ومزقا طفلا كان يقطف ثمار التوت إربا وكُتب عنهما في الجريدة أنهما قد قُتلا بالرصاص؟ من جلب الذئبين؟

وقبل أن يفصح لنا السيد كامين عن أن حديقة حيوان بريسلاو قد أهدت حديقة الحيوان الصغيرة بفرويدنتال هذين الذئبين، كنا قد خرجنا أنا وتولا من الحديقة بصحبة هاراس. مررنا بثور البيسون المسمى جاك ولففنا حول البركة المتجمدة وأشجار الكستناء والبلوط التي بها الخنزير البري. نباح قصير على الثعالب. كوخ الذئاب محاط بسياج. الذئبان في حركة دائبة خلف القضبان الحديدية خطواتهما أوسع من هاراس. ولكن الصدر ليس جيد البنية مثل هاراس فنهاية الجذع ليست كما هي لدى هاراس والأعين مائلة وهي أصغر ومحمية أكثر. الرأس في مجمله أضخم والجذع مثل البرميل وأكثر انخفاضا عند الكفل من هاراس. والفرو بشعر واقف لونه رمادي فاتح بنذف سوداء وتحتهما يتحول لون

الفرو إلى الأصفر. ينهنه هاراس بصوت مبحوح. ولا يكفا عن حركتهما الدائبة. في يوم من الأيام سينسى الحارس إغلاق السور ثم. . . . . .يسقط الثلج ثقيلا من أشجار التنوب. تبقى الذئاب خلف القضبان ساكنة لمدة طولها نظرة: ست أعين وشفاه مرتجفة، وثلاث أنوف تمتعض. يخرج النفس من بين الأنياب. الذئبان الرماديان وكلب الرعاة الأسود. السواد ناتج عن التهجين المستمر. يعطي إشباع الخلايا الصبغية من بركون عبر سنتا وبلوتو إلى هاراس من طاحونة لويزة لكلبنا هذا السواد ذا الشعر الواقف غير المظلل بلون آخر وغير الملطخ بأي رقع لونية أخرى. في ذاك الحين يصفر أبي ويصفق أوغست بوكريفكه بيديه. وقفت عائلة تولا وأبي وأمي مرتدين معاطف شتوية. وبقي الذئبان الهائجان في الخلفية. ولكن تمشية يوم الأحد لم تنته بالنسبة لنا ولهاراس. يبقى طعم فطائر البطاطس في كل جوف.

أخذنا أبي كلنا إلى أوليفا. وهناك أخذنا الترام إلى غليتكاو. وكان بحر الشرق متجمدا حتى الأفق الغائم. وكان لمرسى غليتكاو بريق غريب بفعل الجليد. ولذلك أخذ أبي معه آلة التصوير بغطائها الجلدي وكان علينا أن نتجمع حول هاراس وسط هذا السكر الأبيض الناصع. واحتاج أبي إلى وقت طويل لضبط الصورة. كان علينا أن نقف ست مرات في ثبات ولم يكن ذلك صعبا على هاراس لأنه كان متعودا على ذلك منذ كان مصورو الصحافة يلتقطون له الصور. ومن المفترض أن يتبين بعد ذلك أن أربعاً من تلك الصور التي التقطها أبي قد احترقت بفعل الضوء الزائد: فالجليد يعكس الضوء.

ومشينا من غليتكاو عبر البحر المتجمد ذي الحفيف إلى بروزن. نقاط سوداء صغيرة حتى نصل إلى البواخر المتجمدة على المراسي. كثير من الناس خرجوا للتنزه. لن تتضور النوارس جوعا. بعد يومين تاه أربعة تلاميذ على الجليد أرادوا أن يذهبوا على الجليد وسط الضباب إلى هيلا وضاعوا للأبد، رغم أنهم قد أرسلوا طائرات صغيرة للبحث عنهم.

وقبل أن نصل إلى مرسى بروزن المتجمد أيضا - كنا نريد أن ننحرف باتجاه قرية الصيادين ونذهب إلى محطة الترام لأن آل بوكريفكه وخاصة تولا كانوا لا يحبون الذهاب إلى مرسى بروزن لأن كونراد الأصم الأبكم كان قبل سنوات قد. . .إذن بعد أن أشار أبي بيد الأسطى النجار المسطحة إلى الاتجاه الذي

سنذهب فيه، حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر قبل رأس سنة عام سبعة وثلاثين في يوم ٢٨ ديسمبر، انفلت هاراس من يد أبي الذي أمسك برباطه لكثرة الكلاب الأخرى وقفز عشر قفزات فوق الجليد واختفى بين الجموع الصاخبة وبعد أن أعدناه، كان قد صنع من معطف متطاير صرة سوداء يتناثر منها الجليد.

دون أن تنبس تولا ببنت شفة هوجم عازف البيانو فيلزنر-امبس الذي كان يقوم مثلنا مع الأستاذ برونيس وجيني ذات السنوات العشر بجولة يوم الأحد، للمرة الثالثة. وفي هذه المرة لم يتعلق الأمر بمعطف مفروق الذيل أو بشمسية، يمكن تعويضهما. ولأبي الحق أن يسمي ما حدث ترفيها غالي الثمن. فقد مزقت أسنان هاراس فخذ فيلزنر-امبس الأيمن. وكان عليه أن يقضي ثلاثة أسابيع في مستشفى «الشماسين» وطلب إضافة إلى ذلك تعويضا عما لحق به من أضرار بدنية.

تولا،

إن الثلج يسقط. في الماضي سقط الثلج واليوم سقط الثلج وما زال يسقط. تساقط الثلج - يتساقط الثلج. الجو عاصف وما يزال يعصف. غرق يغرق. تأرجح يتأرجح. ندف يندف. انسحق ينسحق. قناطير من الثلج تهوي على غابة الياشكنتال وغابة غرونه وعلى طريق هندنبورغ وطريق كلاي، على سوق لانغفور وسوق بيركير في شمارغندورف، على بحر الشرق وبحيرات هافل على أوليفا وشبانداو على دانتسيغ شيدليتس وبرلين ليشترفيلده وايماوس ومواببيت ونويفارفاسر وجبل برينتسلاو وزاسبه وبروزن وبابلسبيرغ وشتانستوكن وعلى السور الطوبي لفستربلاته والسور الذي بني سريعا بين مدينتي برلين. سقط الجليد وبقي وما زال يسقط ويبقى.

من أجل تولا ومن أجلي

نحن اللذين انتظرناه ومعنا زحافات الجليد، سقط الثلج يومين وبقي. سقط أحيانا مائلا وشديدا، ثم سقطت ندف كبيرة لا هدف لها- في هذا الضوء الأبيض كمعجون الأسنان بحوافه المتقطعة ويقابله ضوء يتراوح ما بين الرمادي والأسود: جليد رطب ولزج يتراكم عليه الجليد المائل العاصف الذي يتناثر من الجهة الشرقية. رغم ذلك لم يكن البرد شديدا. في الليل تبقى هذه البرودة المعتدلة رمادية ومتخلخلة، بحيث تصبح أسوار الحدائق محملة بالثلج وتتكسر

فروع الأشجار لزيادة الحمولة الثلجية. وتطلب ذلك كثير من مسؤولي الصيانة وطوابير من العاطلين عن العمل والمساعدة الفنية من طوارئ إدارة نقل المدينة كلها، لتوضيح معالم الشوارع وخطوط الترام والأرصفة من جديد. غمرت جبال الجليد متكتلة ومتجمدة جانبي شارع الإلزن، وغطت هاراس كله وأبي حتى صدره. وظهر من طاقية تولا الصوفية الزرقاء عرض إصبعين عندما تهاوى القليل من الثلج الذي يغطيها. نُثرت الرمال والرماد والملح الصخري الأحمر. وأنزل الرجال الثلج من فوق أشجار الفواكه في البساتين الصغيرة الخاصة بمستوطنة الرايخ وتلك التي وراء طاحونة الدير بعصي طويلة. وأثناء جرفهم ونثرهم وتخفيفهم للحمل عن فروع الأشجار، كان هناك ثلج جديد يسقط. اندهش الأطفال وتذكر كبار السن: متى سقط ثلج كثير مثل هذا؟ وسب مسؤولو الصيانة وقالوا بعضهم لبعض: «من سيدفع ثمن كل هذا؟ فمن أين لنا بالرمل والرماد والملح الصخري الكثير؟ وماذا نفعل حينما لا يكف الثلج عن السقوط؟ وعندما يذوب الجليد ولسوف يذوب، فسيكون كل عملنا هذا هباء وسيصاب الجميع صغارا وكبارا بالأنفلونزا تماما مثلما في عام سبعة عشر.»

يمكن للمرء عندما يسقط الثلج أن ينظر من الشباك ويعد. يفعل ذلك ابن خالتك هاري يا تولا، رغم أنه لا ينبغي عليه أن يعد حبات الثلج بل أن يكتب لك. يمكن للمرء إذا ما سقطت ندف كبيرة من الثلج أن يخرج ويمشي في الثلج وفمه مفتوح لأعلى. أرغب في عمل ذلك ولكنني لا أستطيع لأن براوكسل قال لي إن علي أن أكتب إليك. يستطيع المرء لو كان كلب رعاة أسود أن يخرج من كوخه المغطى بالجليد وأن يعض في الجليد. يستطيع المرء لو كان اسمه إيدي أمزل وكان يصنع فزاعات طيور منذ الصغر في الأوقات التي يسقط فيه الثلج دون انقطاع أن يبني للطيور بيوتا وأن يبرهم بطعام الطير. يستطيع المرء أثناء سقوط الثلج على طاقية فرق الهجوم البنية أن يصر بأسنانه. يستطيع المرء لو كان اسمه تولا أن يمشي لمسافات طويلة بسهولة عبر الجليد دون أن يخلف أثرا. يستطيع المرء بطول الإجازة وما دام الثلج لم يكف عن السقوط أن يجلس في غرفة المكتب ويصنف أحجار الميكا اللامعة والصفائح المزدوجة والغرانيت اللامع والإردواز اللامع وأن يكون في الوقت نفسه مدرساً للصفوف الثانوية ويمص شيئا مسكرا. يمكن للمرء إذا كان عاملا مساعدا في ورشة نجارة في الأوقات

التي يسقط فيها الثلج فجأة أن يبحث عن عمل إضافي بأن يصنع من خشب الورشة جرافات لإزاحة الجليد. يستطيع المرء عندما يريد التبول أن يبول في الجليد وأن يحفر اسمه على الجليد بسائل أصفر يتصاعد منه البخار. لكن الاسم يجب أن يكون قصيرا: كتبت اسم هاري بهذه الطريقة على الجليد. غارت تولا ودمرت توقيعي بحذائها ذي الرباط. يستطيع المرء لو كانت لديه رموش طويلة أن يلتقط بها الثلج الساقط: لكن يجب أن تكون الرموش طويلة وثقيلة: كان لجيني في وجهها الذي يشبه وجه الدمية مثل هذه الرموش. عندما كانت تقف ساكنة وتندهش، كانت عيناها اللتان لهما زرقة الماء تنظران من تحت أسطح جليدية. يستطيع المرء عندما يقف ساكنا بلا حراك تحت الثلج المتساقط أن يغلق عينيه وأن يستمع لصوت سقوط الجليد. يستطيع المرء أن يرى الجليد على أنه كفن أبيض، لكن ذلك ليس ضروريا. يمكن للمرء لو كان طفلة لقيطة حصلت في أعياد الميلاد على زحافة هدية أن يرغب في التزلج، لكن لا أحد يريد أن يأخذ الطفلة معه. يمكن للمرء أن يبكي وسط الجليد المتساقط ولا يلحظ أحد شيئا سوى تولا التي تلمح كل شيء بثقبي أنفها الكبيرين وتقول لجيني: «تحبي تروحي تتزحلقي معنا؟»

ذهبنا جميعا للتزلج وأخذنا جيني معنا لأن الجليد كان لكل الأطفال. غطى الجليد عدة مرات على حكايات من أيام زخ فيها المطر وجلست جيني أثناءها على الرصيف. فرحت جيني جدا بعرض تولا، لدرجة تثير القلق. وتوهج وجهها بالفرحة بينما لم يكشف وجه تولا عن أي شيء. ربما لم تدعها تولا إلا لأن زحافتها جديدة وحديثة. لقد أخذ أخواها الزلاجات الحديدية الخاصة بأبيهما ولم ترد تولا أن تتزلج معي على زحافتي لأنني كنت أمسك بها دائما وكانت حينئذ لا تستطيع التزلج جيدا. ولم يكن مسموحا لهاراس أن يذهب معنا لأن الكلب كان يصاب بالهوس في الثلج، بالرغم من أنه لم يعد صغيرا: فالكلب الذي عمره عشر سنوات كإنسان عمره سبعون عاما.

جررنا زحافتنا خاوية عبر لانغفور وحتى مرج يوحنا. تولا هي الوحيدة التي طلبت مني أحيانا أو من جيني أن نجرها. لكن تولا كانت تطلب جرها حسب هواها وليس عندما يعرض أحد عليها ذلك. تزلجنا على تسنغلرزهوهه وألبريشتسهوهه وعلى طريق التزلج الكبير على جبل يوحنا الذي تشرف المدينة على

صيانته. وكان طريق التزلج هذا من الطرق الخطرة وأنا باعتباري طفلا خوافا، كنت أفضل التزلج على مرج يوحنا الذي ينحدر بسلاسة ويعتبر مخرجا لطريق التزلج الكبير. وكثيرا ما نتزلج في هذا الناحية من الغابة، عندما يكون هناك رواد كثيرون لمنطقة التزلج البلدية، كنا نتزلج في هذه الناحية من الغابة التي تبدأ على يمين طريق الباشكنتال وتمر من وراء الهوخشتريس متجهة إلى غابة أوليفا. واسم الجبل الذي نتزلج عليه هو جبل الإربس. من فوق قمته هناك طريق تزلج يفضي مباشرة إلى حديقة فيلا أمزل في طريق شتيفن. رقدنا على بطوننا فوق الزحافات وحملقنا عبر أفرع أشجار البندق المحملة بالجليد وعبر شجيرات الجولق التي تحتفظ برائحتها النفاذة حتى في الشتاء.

كثيرا ما كان أمزل يعمل في الإجازة. كان يرتدي بلوفر أحمر فاقعا. أما الجورب الطويل المشغول والأحمر أيضا فقد اختفى داخل الحذاء المطاطي الطويل الرقبة. وثبت شال التزلج المعقود على صدر بلوفره دبوس كبير يمكن رؤيته من الخلف بوضوح. وللمرة الثالثة تغطي رأسه طاقية حمراء تعلق بها كرتان من الصوف الأبيض. كنا نريد أن نضحك ولكننا لم نستطع، لأن ضحكاتنا كانت ستُسقط الثلج من فوق أغصان البندق. صنع خمسة تماثيل، بدت مثل الأطفال اليتامى بملجأ التبرعات والأيتام. وأحيانا حينما كنا نتربص خلف شجيرات الجولق الجليدية والسوداء، كان يأتي إلى حديقة أمزل بعض الأطفال اليتامى ومعهم مشرفة، يرتدون مريلات بلون رمادي في أزرق ويرتدون طواقي باللون نفسه وفي آذانهم واقيات الأذن بلون فيراني وحول أعناقهم شالات صوفية سوداء، كانوا يقفون متجمدين بلا أهل، كموديل لأمزل، حتى يعطيهم أمزل الكيس المليء بالملبس ويطلق سراحهم.

تولا وأنا كنا نعرف

أن أمزل يقوم بإنجاز طلبية. فمدير مسرح المدينة الذي قام ماتيرن بتقديمه إلى صديقه أمزل، طلب من أمزل أن يقدم له ملفا بتصميماته وسكيتشاته. نالت كواليس أمزل وتماثيله إعجاب المدير وكلفه بناء على ذلك أن يصمم ديكور المسرح والملابس لمسرحية وطنية. وحيث إنه في أثناء الفصل الأخير - تدور المسرحية في عصر نابليون: تحاصر المدينة من قبل بروسيا والروس - توجب على الأطفال اليتامى أن يتنقلوا ما بين نقاط المراقبة وأن يغنوا أمام أمير فورتمبرج، خطرت

لأمزل فكرة ألا يستخدم على المسرح أطفالا يتامى حقيقيين بل آليين، فهو يدعي أنه ليس هناك بالعالم شيء أكثر تأثيرا من الآلة التي تسير مرتعشة، يكفي فقط أن نفكر في العلب الموسيقية من الأيام الغابرة. وهكذا دعا أمزل أطفال الملجأ لكي يرسمهم مقابل هبات معقولة. كان يجعلهم يقفون في الأوضاع المناسبة ويغنون في أغاني كورالية. غنى الأطفال اليتامى البروتستانت «أيها الرب العظيم، نحن نسبحك». ضحكنا خلف الشجيرات ضحكات مكتومة وكنا جميعا سعداء أن لنا أما وأبا.

عندما كان أمزل يعمل في الأتيليه الخاص به كنا لا نتمكن من معرفة الشيء الذي يصنعه: فزجاج النوافذ خلف الشرفة ذات الأعشاش التي يأتي إليها كثير من الطيور، لا تبين سوى انعكاس غابة الياشكنتال. وظن الأطفال أنه يصنع بالتأكيد بالداخل أطفال يتامى وعرائس غريبة الشكل من القطن وورق التواليت. تولا وأنا فقط كنا نعرف أنه يصنع أفرادا بتنظيم فرق الهجوم، يستطيعون السير بخطى عسكرية ويؤدون التحية لأن لديهم ماكينة تدوير في بطنهم. وأحيانا ظننا أننا نسمع صوت الماكينة. تحسسنا بطوننا وبحثنا عن ماكينة التدوير داخلنا: تولا كان لديها واحدة.

تولا وأنا، لم نبق لفترة طويلة عند الشجيرات، أولا لأن الجو صار باردا جدا، ثانيا كان علينا أن نكتم ضحكاتنا دائما وثالثا كنا نريد التزلج. وبينما كانت إحدى طرق التزلج تقودنا إلى طريق الفلاسفة والأخرى إلى حديقة أمزل، كانت الطريق الثالثة تدفعنا إلى تمثال غوتنبرغ. ولم يكن هناك أطفال كثيرون عند هذه البقعة الخالية من الحشائش حيث كان كل الأطفال، ماعدا تولا، يرهبون غوتنبرغ. وحتى أنا لم أحب الاقتراب من تمثال غوتنبرغ. ولم يعرف أحد كيف أتى التمثال إلى الغابة، ربما لأن صانع التمثال لم يجد مكانا ملائما له في المدينة، أو أنهم اختاروا غابة ياشكنتال لأنها غابة أشجار زان وغوتنبرغ كان يستخدم قبل صبه للحروف حروفا من خشب الزان لطباعة الكتب. أرغمتنا تولا أن نتزلج من جبل الإربس إلى تمثال غوتنبرغ لأنها أرادت أن تخيفنا.

ففي وسط البقعة الخالية البيضاء كان هناك معبد أسود من الحديد الزهر، له سبعة أعمدة حديدية تحمل السقف الحديدي. وتأرجحت بين الأعمدة سلاسل حديدية باردة تمسك بها أفواه أسود مصبوبة. درجات من الغرانيت الأزرق،

خمس درجات، دارت حول التمثال وزادت من ارتفاعه وفي وسط المعبد الحديدي بين الأعمدة السبعة وقف رجل من الحديد الزهر: انسدلت اللحية الحديدية المموجة الشعر على مريلة الطباع الحديدية. كان يحمل في يسراه كتابا أسود مثبتا على اللحية والمريلة. وكان يشير بسبابته الحديدية اليمنى إلى حروف الكتاب الحديدي. وكان من الممكن قراءة النص المكتوب على الكتاب عندما يصعد المرء الدرجات الخمس ويقف أمام السلسلة الحديدية. لكن لم يجرؤ أحد منا على هذه الخطوات القليلة. كانت تولا هي الاستثناء الوحيد الخفيف خف الريشة، كانت تقفز فوق الدرجات وحتى السلسلة، بينما كنا نحن نقف بعيدا وقد كتمنا الأنفاس ترقبا. لم تلمس السلسلة، وقفت نحيفة وصغيرة أمام المعبد، وقفت بين الأعمدة الحديدية فوق الإكليل الحديدي. تأرجحت بشدة ثم بهدوء وقفزت فوق السلسلة التي استمرت في التأرجح ثم صارت الآن في المعبد ورقصت حول غوتنبرغ العابس وتسلقت فوق ركبته الحديدية اليسرى. كانت تستطيع الوقوف لأن القدم الحديدية اليسرى بصندلها ذي النعل الحديدي قد استندت إلى الحافة العليا للوحة التذكارية التي كشف نقشها عن التالي: هنا يقف يوهانس غوتنبرغ. ولكي ندرك كيف طغى سواد هذا الشخص الأسود على المعبد الأسود سواد هاراس، يجب أن نعرف أن الثلج كان يسقط في ندف كبيرة أمام وخلف وفوق المعبد: وارتدى سطح المعبد الحديدي المغطى بعش الغراب طاقية من الثلج. وبينما كان الثلج يسقط وبينما كانت السلسلة المتأرجحة تعود إلى السكون وبينما كانت تولا تجلس على فخذ الشخص الحديدي تهجت سبابة تولا البيضاء - لم ترتد تولا أبدا قفازات - الحروف الحديدية نفسها التي تشير إليها سبابة غوتنبرغ.

وعندما عادت تولا - كنا واقفين بلا حراك وقد غمرنا الثلج - سألتنا إن كنا نريد أن نعرف ما هو مكتوب في الكتاب الحديدي. قلنا إننا لا نريد أن نعرف وهززنا رأسينا بشدة رافضين. وادّعت تولا أن الحروف تتبدل كل يوم وكل يوم يمكن للواحد أن يقرأ من الكتاب الحديدي أقوالا جديدية ولكنها مخيفة. والمقولة هذه المرة مخيفة جدا: «أتريدون أن تعرفوا أم لا؟» لم نرد. ثم أراد الأخوان ايش أن يعرفا وأيضا هينسشن ماتول وورودي تسيغلر ولم يرد هاينه بيلنتس وغيورغ تسيم بعد، حتى أرادا أن يعرفا. وأخيرا أرادت جيني برونيس أن تعرف ما هو مكتوب في الكتاب الحديدي لغوتنبرغ.

رقصت تولا حولنا، نحن الذين وقفنا متسمرين. وحملت زحافاتنا وسائد سميكة من الثلج. وحول تمثال غوتنبرغ أضاءت الغابة وأتاحت الفرصة لسماء لا تكل، أن تسقط علينا الثلج بلا توقف. أشارت تولا بإصبعها العارية إلى هينسشن ماتول: «أنت» ارتعشت شفتاه. «لا أنت!» كانت إصبع تولا تعنيني أنا. وكنت بالتأكيد سأبكي لو أن إصبع تولا لم تنتقل بعد ذلك مباشرة إلى ايش وبعد ذلك غرستها في معطف جيني الفرو: «أنتِ، أنتِ أنتِ! مكتوب: لازم تروحي هناك وإلا هو سينزل ويأخذك معه فوق.»

ساح الثلج فوق طواقينا. «الغول قال إنك أنت، هو قال إنه يريد جيني فقط». وكررت تولا ذلك كثيرا وحاصرت جيني أكثر وأكثر. وبينما كانت تولا تحاوط جيني مثل الساحرة الشريرة، كان الغول الحديدي ينظر إلينا من معبده الحديدي بتجهم.

بدأنا التفاوض وأردنا أن نعرف ماذا يريد الغول من جيني، هل يريد أن يأكلها أو يحولها إلى سلسلة حديدية؟ هل يريد أن يخبئها تحت مريلته أو يكبسها في لوحه الحديدي؟ تولا كانت تعرف ماذا يريد الغول من جيني: «لا، إنه يريدها أن ترقص له لأنها دائما تروح ترقص باليه مع امبس.»

وقفت جيني متسمرة، دمية متكورة في معطف من الفراء وتشبثت بحبل زحافتها وسقطت الأسطح الجليدية من فوق رموشها الثقيلة الطويلة: همست قائلة «لالالالاأنالاأريدلاأريدلاأريدلاأريد!» وفي الغالب كانت تريد أن تصرخ. ولأنها لم تكن قادرة على الصراخ هربت بزحافتها: تخبطت وتدحرجت ثم وقفت ثانية وانزلقت في غابة الزان باتجاه مرج يوحنا.

تولا وأنا تركنا جيني تجري،

لكننا كنا نعرف أنها لن تفلت من كتاب الغول المكتوب فيه: «الدور على جيني»، وعليها إذن أن ترقص أمامه كما تعلمت في مدرسة الباليه. وفي اليوم التالي حينما تجمعنا بزحافاتنا بعد الأكل على الجليد الذي دهسته أقدام كثيرة بشارع الإلزن، لم تأت جيني معنا رغم أننا صفرنا لها من تحت نافذة منزل الأستاذ مستخدمين أصابعنا أو بدونها. ولم ننتظر طويلا: فسوف تأتي في إحدى المرات.

جاءت جيني برونيس في اليوم بعد التالي. ودخلت في صفوفنا صامتة مرتدية معطفها الفرو الأصفر كما هو معتاد.

لم يكن باستطاعة تولا ولا باستطاعتي أن نعرف

أن إيدي أمزل قد خرج في الوقت نفسه إلى الحديقة وكان ما يزال يرتدي جوربه الطويل الأحمر الفاقع. لكن بلوفره الوبري كان أحمر أيضا. وشال التزلج الأبيض الملبد مثبت بدبوس من الخلف. كل ملابسه الصوفية مصنوعة من الصوف المنسل، فهو لا يرتدي ملابس جديدة. عصرية رصاصية قارصة: توقف الثلج عن السقوط، لكن هناك رائحة ثلج يريد السقوط. يحمل أمزل تمثالا على كتفه ويضعه وسط الثلج. التمثال في طول رجل بالغ. يدخل أمزل إلى المنزل عبر الشرفة وهو يصفر بملء فمه ويعود محملا بتمثال آخر. ويزرع الثاني بجانب الأول. ويصفر نغمة مارش «نحن رجال الحرس» وهو يدخل الأتيليه ثانية ويعرق أثناء انحنائه لوضع التمثال الثالث بجانب التمثالين المنتظرين في الحديقة. لكنه لم يستطع التوقف عن التصفير بلحن المارش: ونشأ طريق وسط الثلج الذي يصل ارتفاعه إلى الركبة حتى تمكنت تسعة تماثيل كبيرة من الوقوف وسط الحديقة وانتظرت أوامر أمزل. هلاهيل مكسوة ببني جاف. أحزمة فرق الهجوم تحت ذقن مصنوعة من مثانة خنزير. مدهونة وعلى أهبة الاستعداد: تسعة اسبرطيين من آكلي اليخني، تسعة على أبواب طيبة، عند لويتن، في غابة تويتبورغ، تسعة رجال مستقيمون وأهل ثقة، تسعة من أهل شفابن، تسع بجعات، الحشد الأخير من الجيش المفقود، مقدمة الجيش، مؤخرة الجيش، تسعة أنوف بورغوندية مصفوفة بعضها بجانب بعض: هذه هي آلام النيبلونغن في حديقة إيدي كوهين الغارقة في الجليد.

تولا وأنا والآخرون

كنا قد خلفنا غابة الياشكنتال وراءنا. ونحن نسير في صف واحد: آثار الزحافات بعضها وراء بعض. جليد صحي وله صرير. خطوط في الجليد: آثار مختلفة لكعوب أحذية مطاطية ونعال مبطنة بمسامير حديدية، ربما هناك مسماران ناقصان أو خمسة مسامير ناقصة أو ليست هناك مسامير ناقصة على الإطلاق. داست جيني على آثار حذاء تولا ودهس هينسشن ماتول على آثار حذائي وتبعنا ايش الصغير والآخرون صاغرين. مشينا وراء تولا في صمت دون نداء ودون معارضة. وجلجلت أجراس الزحافات برنين عال. لم نذهب مثلا عبر مرج يوحنا إلى بداية طريق التزلج الكبير. قبل دار حراسة الغابة بقليل، انحرفت تولا

وأصبحنا ضئيلي الحجم تحت أشجار الزان. في البداية قابلنا أطفالا آخرين يجرون زحافاتهم أو ألواح البراميل الخشبية. وحيث إننا مازلنا نسير، فلا بد أن التمثال الحديدي على مقربة منا. دخلنا إلى ملكوت الغول بخطى صغيرة.
وأثناء تسللنا،

كان ايدي أمزل ما يزال يصفر بطلاقة وانسجام ويتنقل من عضو بفرق الهجوم إلى الآخر. يضع يده في الجيوب اليسرى لبنطلونات تسعة من أفراد فرق الهجوم وبذلك يشغل ماكينة التشغيل الآلي التي بداخلهم: صحيح أنهم يرتكزون على مواسير حديدية تشبه سنادات الشماسي ومثبتة بأقدام عريضة-، لكنهم مع ذلك يرفعون ثماني عشرة ساقا ملعونة ترتدي الأحذية العسكرية بمقدار شبر فوق الجليد، دون اكتساب أي حيز مكاني. تسعة مشاة من ذوي العظام الهشة، يُدربون على الخطوة المعتادة. يقوم أمزل بتدريب اثنين منهم وذلك بإدخال يده في جيب البنطلون الأيسر لكليهما: الآن تسير الأمور على ما يرام ويسيران بخطى عسكرية في ثقة وثبات وهدوء إلى الأمام قُدما عبر فوق مرورا بـ، في الأول سارا بالخطوة المعتادة، ثم بعد ذلك الخطوة الاستعراضية، كما هو الحال في العروض العسكرية: التسعة كلهم. والآن تطير مثانات الخنزير التسع المنطقة بالأحزمة تحت طواقي فرق الهجوم تقريبا في نفس واحد تجاه اليمين: تغيير اتجاه النظر وكلهم ينظرون إليه لأن ايدي أمزل قد لصق على كل مثانات الخنزير وجوها. وهذه الوجوه هي استنساخ من صور للرسام شنور فون كارولسفيلد، الذي يفترض أن يكون معروفا أنه رسم آلام النيبلونغن وتصور شخصيات الملحمة: فرد فرق الهجوم الكئيب هاغن فون ترونيه، عضوي فرق الهجوم (الأب والأبن) هيلدابرند وهادوبراند، قائد فرقة الهجوم المخلص زيغفريد فون زانتن، القائد الأعلى لفرقة الهجوم غونتر شديد الحساسية، وفولكر باومان المرح دائما وثلاثة صناديد أبطال صنعوا ثروة من آلام النيبلونغن: النبيل هيبل فون فيسلبرون وريشارد الحوذي[9] وذاك الرسام الذي صور آلام النيبلونغن بريشة فنان ناصري[10]، وبينما كان التسعة ينظرون محملقين إلى اليمين، ارتفعت أذرعهم

---

(٩) يتلاعب غراس هنا باسم فاغنر الذي يعني أيضا حوذي. (مترجم)

(١٠) المقصود هنا جماعة من الرسامين الألمان في القرن التاسع عشر أرادوا إحياء الفن المسيحي في روما واسمهم نسبة إلى يسوع الناصري هو اسم أُطلق عليهم للاستهزاء بهم. (مترجم)

التي كانت ما تزال محتفظة بإيقاع الخطوة المعتادة دفعة واحدة وبتساو إلى أعلى: ببطء ولكن دون تهاون تصعد الذراع اليمنى إلى الارتفاع القانوني للتحية العسكرية الألمانية بينما تنثني الذراع اليسرى في تشنج حتى يصل القفاز المسود إلى توكة الحزام ويثبت عند ذلك. ولكن لمن تُؤدى التحية؟ لمن تتوجه الأنظار؟ ما اسم القائد الذي عليه أن ينظر في الأعين الملصوقة؟ من الذي يشاهد العرض العسكري ويرد التحية ويصرف العرض؟

يقوم إيدي أمزل برد تحية فرقة الهجوم التي تقوم بالعرض العسكري على طريقة مستشار الرايخ، أي بذراع مثنية في بزاوية في وضع التحية. ويصفر لنفسه ولرجاله التسعة من فرق الهجوم الموسيقى الخاصة بالمارش، هذه المرة كان مارش بادنفايلر.

ما لم تعرفه تولا:

أنه بينما كان أمزل مستمرا في الصفير، أرسل غوتنبرغ نظرته الحديدية المخيفة فوق هذا الرهط من الصغار الذي كان قد دخل بزحافات مختلفة الحجم إلى ملكوته ولكن مع اتخاذ المسافة المناسبة وخرج من بينهم شخص صغير، حُكم عليه بالسمنة والانتفاخ. خطوة خطوة دبت قدما جيني برونيس على الأرض متجهتين إلى الحديد الزهر. التصق الجليد الجديد المتراكم على الجليد القديم بنعل الحذاء المطاطي: نمت جيني بمقدار ثلاثة سنتمترات. حقا: غادرت الغربان أشجار الزان البيضاء بغابة الياشكنتال. تهاوت أحمال الجليد من فوق فروع الشجر. رفع فزع خفيف يدي جيني الممتلئتين. ثم نمت مرة أخرى سنتمترا واحدا لأنها تقترب أكثر وأكثر من المعبد الحديدي. بينما نعقت الغربان بأعلى بأصوات متحشرجة تحتاج إلى التزييت، حينما مرت تسعة ثقوب سوداء عبر جبل الإربس وغاصوا في أشجار الزان التي تحد حديقة أمزل.

ما لم تستطع تولا معرفته:

عندما غادرت الغربان أماكنها، لم يكن إيدي أمزل ورجاله التسعة المستعرضون من فرقة الهجوم هم وحدهم الموجودين بالحديقة: خمسة، أو ستة تماثيل أو أكثر، لم يركب لهم أمزل ماكينة تشغيل آلي بل كان ذلك من فعل الرب الحبيب، داسوا عبر ثلج الحديقة. لم يبصقهم أتيليه أمزل، بل قفزوا من الخارج عبر السور: ملثمين مقنعين ومريبين. يبدون بطواقيهم المدنية التي شدت عبر

الوجه ومعاطفهم الشتوية الواسعة والفتحات السوداء عند العينين مثل الفزاعات، يبدون وكأنهم تماثيل مصنوعة ولكن هؤلاء الذين قفزوا عبر السور، حينما بدأت تماثيل أمزل في السير للوراء ليسوا بفزاعات، بل رجال ذوو دماء حارة: تهبط أذرع تماثيل أمزل اليمنى المؤدية للتحية وتنزلق قفازاتها المطاطية من فوق توكة الحزام، ويتبسط المارش الاستعراضي إلى مارش بالخطوة المعتادة، ثم مارش حزين، ثم مارش متباطئ ثم السكون. ينتهي عمل ماكينة التشغيل الآلي بخشخشة، يُرجع إيدي أمزل شفتيه الممدودتين للوراء، لم يعد وجه الخنزير يه فر. ينظر برأس ضخم وطاقية صوفية متأرجحة في فضول إلى الزوار الذين أتوا على حين غفلة. وبينما تقف مخلوقاته ساكنة وكأنها أمرت بذلك، وبينما تبرد ماكينة التشغيل الآلي، تتحرك تسعة شخوص ملثمة بنظام: يشكلون باقترابهم خطوة بخطوة نصف دائرة ويتنفسون بحرارة عبر الأقنعة السوداء وسط هواء يناير، وبعد هنيهة سيستطيع أن يشم رائحتهم.

استدعت تولا الغربان مرة ثانية:

نادت تولا الطيور الناعقة من فوق جبل الإربس لتحيط بتمثال غوتنبرغ. رأت الغربان أن جيني قد تسمرت أمام الدرجات الغرانيتية التي تقود إلى معبد الغول الحديدي، ثم التفتت بوجهها المستدير: نظرت جيني إلى تولا ثم إلي ثم إلى ايش الصغير وهينسشن ماتول ورودي تسيغلر. رأت الجميع بعيدين جدا. هل كانت تعُد؟ هل كانت الغربان التسعة تعد: سبعة ثمانية تسعة أطفال مجتمعين وطفلة تقف وحيدة؟ لم يكن الجو باردا. كانت هناك رائحة ثلج رطب وحديد زهر. صاحت تولا «والآن ارقصي حوله!». كان للغابة صدى. صحنا وتردد صدى صيحاتنا حتى تبدأ جيني في الرقص، وحتى تنتهي حكاية الرقص هذه. كل الغربان الواقفة على أشجار الزان والغول تحت السطح الحديدي المغطى بعش الغراب ونحن، شاهدنا جيني وهي ترفع حذاءها الأيمن ذا الرباط الذي اختفت داخله ساق الجورب التريكو الطويل، بشكل يوحي بأنها ستقوم بعمل حركة Battement développé: Passer la jambe. وأثناء ذلك سقط الثلج العالق بنعل الحذاء، قبل أن تغوص بالحذاء الأيمن ثانية في الجليد وترفع الحذاء الأيسر. عاودت صنع الزاوية الصعبة، وقفت على الساق اليمنى ورفعت اليسرى، استطاعت أن تقوم بدورة حذرة في الهواء Rond de jambe en l'air ثم انتقلت

إلى الوضع الخامس واستندت بيديها على الهواء عند حركة Port de bras وبدأت بحركة Attitude croisée devant ثم لفت بحركة Attitude effacée وبعد ذلك سقطت عندما فشلت في أداء حركة Attitude croisée derriére. ثم نهضت من على الأرض بمعطفها الفرو الذي لم يعد أصفر، بل علاه غبار أبيض. يجب أن تكتمل الرقصة على شرف الغول بقفزات صغيرة تحت طاقية صوفية منزلقة: من الوضع الخامس إلى Demi-plié: Petit changement de pieds. ومن المفترض أن يعني الشكل التالي حركة Pas assemblé ولكن جيني سقطت للمرة الثانية، وعندما أرادت أن تبرز قدرات الباليرينا بحركة Pas de chat الجريئة، سقطت مرة ثالثة، لم تظل عالقة في الهواء بل سقطت ولم تبهج الغول الحديدي بخفتها بل سقطت مثل زكيبة في الثلج وتحركت الغربان من فوق أشجار الزان وبدأت أعمال الشغب.

أطلقت تولا غربانا:

على الناحية الشمالية من جبل الإربس رأينا أن الرجال الملثمين لم يكتفوا فقط بتكوين دائرة حول أمزل بل ضيقوا الخناق عليه. تسعة معاطف مطر تريد التلاحم. يدور أمزل بوجه متوهج بين وجوههم وجها وجها. يدبدب بقدمه في موضعه. انتفش صوفه وأصبح له خطاطيف. يترك عرقه ينساب على الجبهة الملساء. يضحك بصوت عال جدا ويفكر بلسان مضطرب بين الشفتين: «ماذا يريد السادة؟» وتخطر له أفكار لا معنى لها: «هل أعد لكم قهوة؟ قد يكون لدي أيضا كاتوه بالداخل؟ أو هل تريدون أن أحكي لكم حكايات: هل تعرفون حكاية ثعابين الماء الشاربة للحليب، أو حكاية ديدان دقيق الطحان التي تتكلم أو حكاية الراهبات الاثنتي عشرة اللائي بلا رأس والفرسان الاثني عشر بدون رأس؟» لكن الخرق السوداء التسع بفتحات الأعين الثماني عشرة نذرت أنفسها للصمت. وعندما يريد أن يخرق دائرة معاطف المطر والطواقي المشدودة على الوجه مثل كرة، ليقوم غالبا بتحضير القهوة، تجيبه قبضة غير ملثمة عارية وجافة: يسقط بصوفه الملبد ويعاود النهوض سريعا ويريد أن ينفض عنه الثلج العالق، حينئذ تصيبه القبضة الثانية. وتغادر الغربان أشجار الزان.

لقد استدعتها تولا،

لم تعد جيني ترغب في الرقص. بعد السقطة الثانية والثالثة زحفت باتجاهنا

منهنهة، كرة من الثلج. لكن تولا لم تكن قد اكتفت بذلك. أثناء بقائنا في أماكننا، هرولت دون أثر فوق الجليد مواجهة كرة الثلج جيني وعندما أرادت جيني أن تقف دفعتها تولا ثانية. وما كادت جيني تقف حتى رقدت ثانية. من كان يصدق أنها كانت ترتدي معطفا منفوشا في الثلج. انسحبنا إلى طرف الغابة وشاهدنا عمل تولا من هناك. وفوقنا كانت الغربان ترقب متحمسة. كان التمثال التذكاري لغوتنبرغ شديد السواد مثلما كانت جيني شديدة البياض. ضحكت تولا مقرقرة بصدى من فوق البقعة الخالية من الحشائش وغمزت لنا. بقينا تحت أشجار الزان بينما هي تلف جيني في الثلج. كانت جيني هادئة جدا وصارت أسمن وأسمن وحينما لم يعد لجيني أية سيقان تستطيع بها الوقوف على قدميها، اكتفت الغربان بهذا القدر من التلصص وحطت على جبل الإربس.

ولعبت تولا بجيني لعبة سهلة،

أما بالنسبة لإيدي أمزل، فالغربان تشهد بأنه كلما سأل سؤالا، أُجيب عليه بالقبضة. ظلت كل القبضات التي أجابت عليه صامتة ماعدا قبضة واحدة. هذه القبضة كانت تضربه ويصدر منها صرير أسنان من خلف القماش الأسود. وصدر من فم أمزل، الذي بدأ يسيل منه سائل أحمر، سؤال: «أأنت هذا؟ ذها نتأأ؟» ولكن القبضة الصرارة لا تتكلم بل تضرب. ارتاحت القبضات الأخرى. القبضة الوحيدة التي تعمل هي القبضة الصرارة وانحنت فوق أمزل لأن أمزل لم يعد يريد النهوض. وأخذت القبضة تدك فم أمزل الذي يفور بالسائل الأحمر. غالبا ما يزال أمزل يريد طرح السؤال أأنت هذا؟ لكنه أخرج بدلا من ذلك بضعة أسنان صغيرة سليمة ولها بياض اللؤلؤ: دم دافئ على جليد بارد، طبل أطفال، بولندا، كرز فوق قشدة بيضاء، دماء في الجليد. الآن يلفونه بالثلج مثلما فعلت تولا بالطفلة جيني.

ولكن تولا انتهت من تمثالها الثلجي أولا.

لقد ثبتت كتلته بأيدٍ مسطحة ثم قامت بتثبيته في وضع الوقوف وصنعت له ببضع حركات سريعة أنفا ووجدت عندما نظرت حولها طاقية جيني الصوفية ووضعت الطاقية على رأس تمثال الثلج المستدير مثل قرعة وكحتت بطرف حذائها في الجليد حتى اصطدم حذاؤها بأوراق شجر وثمار الزان وأغصان جافة. غرست في تمثال الثلج فرعي شجر يمينا وفرعين يسارا وزرعت للتمثال

عينين من ثمار الزان ثم وقفت وراءه واتخذت منه مسافة.

كان يمكن لتولا أن تقوم بعمل مقارنات،

حيث إنه يوجد خلف جبل الإربس تمثال ثلجي أيضا. لم تقم تولا بالمقارنة ولكن الغربان قارنت. يقف التمثال الثلجي بارزا وطاغيا في وسط الحديقة، بينما تخبو الفزاعات التسع ذات الهلاهيل البنية باهتة في خلفية المشهد. ليس للتمثال الثلجي في حديقة أمزل أي أنف ولم تُركب له أية عيون من ثمار الزان ولا طاقية صوفية ولا يستطيع أن يحيّي أو يلوح أو يبدي حيرته بواسطة أغصان جافة. وفي مقابل ذلك لديه فم أحمر آخذ في الاتساع.

الرجال التسعة الذين يرتدون معاطف المطر كانوا أكثر عجالة من تولا. تسلقوا السور واختفوا داخل الغابة بينما ظللنا نحن واقفين أمام زحافاتنا مع تولا عند طرف الغابة، ،أخذنا ننظر إلى تمثال الثلج الذي يرتدي طاقية جيني الصوفية. تهبط الغربان ثانية على القطعة الخالية من الحشائش بالغابة. ولكنها لا تعشش في أشجار الزان بل تحوم مصدرة نشازا متحشرجا فوق المعبد الحديدي لغوتنبرغ ثم فوق تمثال الثلج. نفث الغول علينا هواء باردا. الغربان في الجليد عبارة عن ثقوب سوداء. يحل الظلام تدريجيا على جانبي جبل الإربس. ننصرف بزحافاتنا بعيدا قبل أن تسود الظلمة. الجو حار تحت ملابس الشتاء الثقيلة.

عزيزتي بنت الخال تولا،

لم يكن ببالك أن جو ذوبان الجليد قد أتى مصاحبا للغسق. قيل إن الثلج سيذوب. إذن لقد ذاب الثلج. أصبح الهواء مطاوعا. عرقت أشجار الزان. تخلت الأفرع عن أحمالها الثلجية. عم الغابة دوي. وأعانت ريح دافئة خفيفة الأفرع في التخفف من حملها. سقطت قطرات صنعت ثقوبا في الجليد وصنعت ثقبا في رأسي لأنني بقيت بين أشجار الزان. وحتى لو كنت قد ذهبت مع الآخرين وزحافاتهم إلى البيت، لأحدثت القطرات ثقبا في رأسي. لم ينج أحد من جو ذوبان الجليد، سواء بقي هنا أو ذهب إلى البيت.

كان تمثالا الثلج ما يزالان واقفين بلا حراك، أحدهما في ملكوت الغول والثاني في حديقة أمزل. خلّف الغسق لونا أبيض باهتا. كانت الغربان في مكان آخر وحكت ما رأته في المكان الآخر. انزلقت الطاقية الثلجية من فوق سطح التمثال التذكاري لغوتنبرغ والمغطى بعش الغراب. لم تكن أشجار الزان هي

الوحيدة التي عرقت، بل عرقت أنا أيضا. ندت عن يوهانس غوتنبرغ، الذي كان في العادة حديد زهر مُطفأ، رطوبة جعلته يلمع بين الأعمدة المتلالئة. ارتفعت السماء لعدة طوابق فوق البقعة الخالية من الحشائش وهناك عند حدود الغابة مع حدائق الفيلات وفوق لانغفور. وتحركت سحابات عجلة، تجمعت متكاسلة، تجاه البحر. وومضت سماء الليل عبر ثقوب نجمية. وأخيرا كان هناك قمر ذوبان الجليد المنفوخ الذي كان يظهر في فترات الاستراحة وقد بين لي التغير الذي حدث على البقعة الجرداء بمملكة الغول في ظل جو ذوبان الجليد، تارة وهو في شكل ثقب كبير، وتارة أخرى وهو في شكل نصف قرص وأحيانا وقد تآكل منه جزء كبير وأحيانا خلف وشاح مهلهل.

لمع غوتنبرغ بحيوية. ولكنه بقي في معبده. في البداية بدا وكأن الغابة تريد أن تتحرك خطوة للأمام، ولكنها تراجعت في ظل الضوء المنتشر وتقدمت للأمام متاخمة لحدودها عند غياب ضوء القمر، ثم تراجعت للوراء ثانية ولم تعد تعرف ما تريد وفقدت أثناء حركتها هنا وهناك كل الجليد الذي تلقفته بأغصانها طوال أيام الثلج. وهكذا بدأت الغابة بمعاونة الريح الدافئة، وبعد أن تخففت من أحمالها، في إصدار حفيف. لقد أصابتي غابة الياشكنتال المنكوشة ويوهانس غوتنبرغ الحديدي بالتحالف مع القمر المرعب بخوف مبلل. لقد هربت: الفرار من هنا! تعثرت أثناء صعودي جبل الإربس. أربعة وثمانون مترا فوق سطح البحر. انزلقتُ فوق طرق جليدية هابطا جبل الإربس وأردت الانصراف الانصراف الانصراف ولكنني وجدتني أمام حديقة أمزل. ونظرت من بين أغصان البندق التي تقطر ماء وشجيرات الجولق ذات الرائحة النفاذة أثناء غياب القمر. وأخذت بسبابتي وإبهامي، كلما أتاح القمر لي ذلك، مقاييس التمثال الثلجي في حديقة أمزل: لقد أخذ في التقلص ولكن رؤيته كانت رغم ذلك ممكنة.

وتملكتني رغبة في أخذ مقاييس التمثال الثلجي الآخر على الناحية الأخرى من جبل الإربس. صعدت الجبل ثانية وحرصت أثناء الهبوط على الناحية الأخرى على ألا تحملني كتلة ثلجية منهارة إلى البقعة الجرداء حيث ملكوت الغول. وأنقذنني من ذاك الخطر قفزة جانبية: لقد عانقت شجرة زان عرقانة. وتركت عرقها ينساب على أصابعي الملتهبة. وتنقلت ما بين يمين ويسار الجذع ناظرا إلى البقعة الجرداء وأخذت، بمجرد زيارة القمر للبقعة الجرداء، مقاييس

التمثال الثلجي أمام المعبد الصغير لغوتنبرغ، مستخدما أصابعي: صحيح أن تمثال تولا لم يتقلص بصورة أسرع من تمثال الجليد الواقف ناحية بيت أمزل عند سفح جبل الإربس، لكنه أبدى إشارات واضحة: لقد هبطت ذراعاه المصنوعتان من الأغصان الجافة وسقط أنفه. وظن هاري الواقف في الغابة أن بإمكانه أن يقيس اقتراب العينين المصنوعتين من الزان بعضهما من بعض وأنهما نظرتا إليه بخبث.

وكان علي أن أصعد جبل الإربس المتحرك، ثم أتوقف وأهبط وأقف بين شجيرات الجولق مرة أخرى، لأنني أردت أن أكون على علم بكل التطورات الجديدة: خشخشت قرون النبات الجافة. أرادت رائحة نبات الجولق أن تنال مني وتصيبني بالإعياء. لكن قرون نبات الجولق قد نبهتني وأرغمتني على البقاء بسبابتي وإبهامي مخلصا لتمثالي الجليد الآخذين في التقلص. بعد عدة مرات من الصعود والهبوط انهار كلاهما بتردد على ركبتيهما، أي أن نصفهما الأعلى قد تقلص وصار نحيفا والنصف الأسفل قد تورم وانتفخ وصار مثل المهلبية ووقف الاثنان على أقدام آخذة في التضخم.

وذات مرة وقف التمثال الموجود أمام بيت أمزل معوجا وكأن ساقه اليمنى القصيرة جدا قد جعلته معوجا. ومرة أخرى في ملكوت الغول مد التمثال الثلجي بطنه للأمام وبدا من الجانب وكأنه صليب مجوف كسيح.

ومرة أخرى - كنت أراقب حديقة أمزل - نمت الساق اليمنى للتمثال الثلجي: ولم يعد يقف معوجا ومأسوفا عليه.

وذات مرة- عدت من حديقة أمزل وتعلقت مبللا وساخنا من صوف البلوفر الملبد بشجرة الزان - وكان معبد غوتنبرغ الحديدي فارغا، حسبما بين القمر ذلك: فزع! لمع القمر برهة: المعبد فارغ! ثم أفل القمر: كان المعبد عبارة عن ظل أجرد وكان الغول في طريقه: عرقان ولامعا وحديديا بذقن مجعدة من الحديد الزهر، بكتاب حديدي مفتوح بحروف حديدية بارزة وحادة، كان يبحث عني بين أشجار الزان، كان يريد أن يمسك بي، كان يريد أن يبطططني بالكتاب الحديدي كان يريدني: هاري في الغابة. وهذا الحفيف: أكان صادرا من الغابة أم من غوتنبرغ الذي يمضي بذقنه المخشخشة بين جذوع وأغصان الزان؟ هل فتح كتابه هناك حيث وقف هاري، صيد محموم؟ الآن يريده. عم يبحث هاري؟ ألا يجب عليه أن يذهب لتناول العشاء؟ العقاب. حديد زهر. ثم يتبين لي مرة

أخرى، كيف يمكن لضوء القمر أن يكون خداعا: عندما جادت السحب على هذا القمر المخادع بثقب كبير، عاد الرجل الحديدي للوقوف في موضعه ثانية في المعبد وكأنه لم يتحرك وعاد له بريق ذوبان الجليد.

لقد كنت سعيدا جدا لأنني لم أدخل إلى ألبوم صور غوتنبرغ. انزلقت منهكا على شجرة الزان المبللة. وأرغمت عيني المتعبتين الخائفتين على البقاء متنبهتين لمراقبة الرجل الثلجي. لكنهما أخذتا تنفتحان وتنغلقان، مثل دفتي شباك غير مغلقتين في مهب الريح. وربما كانتا تقرقعان. وفي هذه الأثناء ذكرت نفسي، مولعا بواجبي: يجب عليك ألا تنام يا هاري. يجب أن تصعد جبل الإربس وتهبط جبل الإربس. تبلغ قمة الجبل أربعة وثمانين مترا فوق سطح البحر. يجب أن تدخل بين أغصان الجولق وبين قرونه الجافة. ويجب أن تسجل ما طرأ من تغيرات على تمثال الجليد في حديقة أمزل. قم يا هاري، اصعد!

لكنني بقيت ملتصقا بشجرة الزان المبللة وكان من الممكن طبعا أن تفوتني لحظة انهيار تمثال الثلج في ملكوت غوتنبرغ لو لم تكن هناك غربان ناعقة. أظهرت في المساء أيضا سلوكا غير طبيعي، تماما مثلما فعلت بعد الظهيرة، حيث أقلعت فجأة وأخذت في النعيق بأصوات متحشرجة. تهاوى ثلج التمثال بسرعة بعضه فوق بعض. تحركت الغربان وكأن لا هدف لها سوى أن تطير عبر جبل الإربس ناحية أمزل: وبالتأكيد انهار الثلج هناك أيضا بسرعة.

من ذا الذي لا يفرك عينيه عند رؤيته للتحولات، ولا يريد رغم ذلك أن يصدق عينيه ولا أن يؤمن بالمعجزة الثلجية؟ هل تدق الأجراس دائما عند انهيار التماثيل الثلجية: أولا دقت أجراس كنيسة قلب يسوع ثم كنيسة لوتر الواقعة في طريق هرمانسهوفر؟ سبع دقات. كان طعام العشاء قد وُضع على مائدتنا. ونظر والداي الجالسان بين قطع الآثاث الثقيلة الملمعة - الخوان والبوفيه والخزانة الطولية - إلى مكاني على كرسي المائدة الخالي: أين أنت يا هاري؟ ماذا تفعل؟ ماذا ترى؟ سوف تجرح عينيك من كثرة فركهما! حينئذ لم تقف جيني برونيس وسط الجليد الموحل الرمادي ذي الثقوب، لم تكن هناك كتلة سمينة متجمدة أو كبيبة من الثلج أو بودنغ واقفا على ساقين، هناك وقفت عصا متكسرة، تعلق بمعطف جيني الفرو الأصفر وكأنها قد انكمشت بعد الغسيل بطريقة خاطئة. وكان لهذه العصا وجه دقيق ومطاطي كدمية، مثلما كان وجه جيني في الماضي مطاطيا أيضا.

عادت الغربان مرة أخرى ناعقة وسقطت في الغابة السوداء. وبالتأكيد كان عليها أيضا أن تفرك أعينها خلف جبل الإربس. وبالتأكيد قفز صوف من التمثال الثلجي. وجُذبت لصعود جبل الإربس. غمرني إحساس بالطمأنينة ورغم أنني ترنحت أثناء الصعود إلا أنني لم أنزلق. من الذي نصب لي حبلا جافا ليجذبني لأعلى؟ من الذي جرني دون أن يجعلني أسقط؟

بذراعين معقودتين على الصدر وساق واقفة وأخرى عالقة وقف شاب في الثلج المتسخ. والتصق بجسده بلوفر تريكو من الصوف: وردي اللون، وربما كان لونه قبل عدة غسلات أحمر فاقعا. وشال ترلج أبيض محيك بخيوط سميكة، مثل الذي كان لدى إيدي أمزل من قبل. ارتدى الشاب الشال على الكتف اليسرى بغير عناية وقد ثُبت من الخلف بدبوس. عادة يرتدي الرجال في مجلات الأزياء شالاتهم بهذه الطريقة غير السيمترية. هاملت ودوريان غراي تجسدا في شخصه في وقت واحد، اختلطت رائحة القرنفل برائحة نبات الست المستحية. وجعل المنظر المؤلم حول الفم المشهد أكثر تأثيرا، لقد عمل على إبرازه وزاد من قيمته. ومن ثم كان الفم المتألم هو أول شيء قام الشاب بتحريكه. صعدت يد الشاب اليمنى فجأة لأعلى وكأنها تستجيب لماكينة تشغيل آلي مزيتة بصورة سيئة ولمس شفته المهدلة بإصبعه وتبعتها اليد اليسرى وأخذت تنخر في داخل الفم. هل لدى الشاب ألياف من لحم البقر؟

ماذا فعل بعد أن كف عن النخر والانحناء بركبتين مفرودتين؟ بحث الشاب بأصابعه الطويلة عن شيء في الجليد؟ ثمار الزان مثلا؟ عملة معدنية من فئة الخمسة غولدن؟ مفتاح البيت؟ هيل يبحث عن ممتلكات غير عينية تخص الغير؟ الماضي في الجليد؟ الحظ في الجليد؟ هل يبحث عن معنى الوجود، انتصار الجحيم، عن شوكة الموت في الجليد؟ هل يبحث عن الرب في حديقة أمزل التي يذوب فيها الجليد؟

لقد وجد الشاب ذو الفم المتألم شيئا، ووجد شيئا آخر، أربع مرات، سبع مرات، وجد وراءه وأمامه وبجانبه. وكان بمجرد أن يجد شيئا، كان يضعه بإصبعيه الطويلتين تحت ضوء القمر: لمع الشيء وكان بلوريا وأبيض مثل زبد البحر. وجُذبت لصعود جبل الإربس ثانية. بينما كان الشاب يبحث ويجد ويضع الأشياء في ضوء القمر، انزلقت أنا بطمأنينة هابطا الجبل ووجدت شجرة الزان

التي علقت بها من قبل وأملت أن أجد جيني السمينة التي أعرفها. ولكن العصا المتطايرة كانت ما تزال هناك وقد علق عليها معطف جيني الفرو الذي ألقى بظل نحيف بمجرد سقوط أشعة القمر عليه. كانت العصا قد حركت ذراعيها في هذه الأثناء إلى جانب وألصقت كاحليها بعضهما ببعض وأصابع قدميه موجهة للداخل: وقفت العصا في وضع الباليه الأول وبدأت في الحال حتى ولو لم تكن هناك قضبان تدريب مرئية بتدريبات قاسية على قضبان التدريب: Grand plié- Demie pointe- Equilibre, Bras en couronne وكل تمرين منهم قامت بعمله مرتين من الوضع الأول والثاني والخامس وبعد ذلك ثماني حركات Dégagés ممدودة وثماني حركات Dégagés en l'air مختومة بـ Plié. وأصبحت العصا أكثر خفة من خلال ١٦ حركة Battements dégagés. وكشفت حركة الدوران Rond de jambes. la seconde التي يُختم بها التوازن Equilibre في وضع الثبات وحركة Grand port de bras en avant, puis en arrière عن مرونة العصا. ازدادت ليونة العصا أكثر فأكثر. صارت الأذرع التي تتحرك مثل أذرع عرائس ماريونيت تتحرك بسلاسة وانسيابية: انزلق معطف جيني الفرو من على الكتفين اللتين لا يزيد عرضهما عن شبر. تمرين في الضوء الجانبي المناسب: ثماني حركات Grand Battements en croix: سيقان عالية، مشدودة عن آخرها ولكنها مستقيمة، وكأن فيكتور غوفسكي قد حلم بالعصا وباستقامتها: Finir en arabesque croisée!

وعندما جُذبتُ مرة أخرى لصعود جبل الإربس، دارت العصا المجتهدة صانعة حركة Petit battement sur la cou-de-pied: تحريك جميل للذراعين وقد رسمت كثير من النقاط الكلاسيكية في الهواء الناعم لذوبان الجليد.

وماذا عن الناحية الأخرى لجبل الإربس؟ عند إطلال القمر اعتقدت أن الشاب لا يرتدي فقط شال أمزل الأبيض بل وله أيضا شعر أمزل الأحمر ولكنه لم يكن واقفا خشنا بل رقد مفرودا على فروة رأسه. وقف الشاب الآن بجانب كومة الجليد التي خرج منها. وأعطى ظهره لمجموعة الفزاعات التي وقفت بالهلاهيل والخرق البنية في ظل الغابة. كتفان عريضتان وخصر نحيل. من الذي مكنه من النمو بهذا الشكل النموذجي؟ وضع في تجويف يده اليمنى شيئا جديرا بالتأمل وقد مال به إلى جانب. الساق التي يقف عليها مائلة والساق العالقة متراخية.

خط القفا محني، فرق الشعر، وخط منقط بين العين وتجويف اليد: مسحور مُغيّب مُصور: نارسيسوس! أردت أن أصعد الجبل مرة أخرى وأن أنتبه لحركات Pliés المنخفضة للعصا المجتهدة، لأنني لم أر شيئا جديرا بالتأمل في تجويف اليد، لأن الشاب قد قام بعمل شيء: ما ألقاه وراءه لمع حوالي عشرين أو اثنين وثلاثين مرة في ضوء القمر، قبل أن يتساقط وسط شجيرات البندق وشجيرات الجولق التي أقف فيها. تحسست باحثا عن هذه الأشياء وخاصة وأنها قد أصابتني مثل حصيات صغيرة. وجدت سنّين صغيرتين، معتنى بهما بجذور سليمة: يجدر الاحتفاظ بهما. أسنان بشرية تم رفضها بحركة واحدة. لم ينظر الشاب بعد ذلك خلفه بل تحرك خفيفا عبر الحديقة. وعبر الدرج المؤدي إلى الشرفة بقفزة واحدة: اختفى القمر واختفى هو أيضا. لكن سرعان ما أظهره ضوء كهربي ضعيف مغُطى في الغالب بأقمشة وهو يقوم بعمل ما داخل فيلا أمزل. شعاع ضوئي من هذه النافذة ثم من النافذة الأخرى. حركة دائبة سريعة هنا وهناك. يحمل شيئا ثم شيئا آخر: يعد الشاب حقيبة سفر أمزل وهو في عجلة من أمره.

وأنا أيضا صعدت جبل الإربس لآخر مرة وأنا في عجلة من أمري. أيتها الأمتار الأربعة والثمانون الخالدة! لأنني حتى يومنا هذا، حين آكل أكلة ثقيلة قبل النوم، أحلم كثيرا بالصعود المتكرر لجبل الإربس: أصعد وأهبط بمشقة دون توقف حتى صحوي، لمرات عديدة وللأبد...

من شجرة الزان رأيت العصا ترقص. لم تعد تقوم بتدريبات القضبان، بل بأداجيو صامت: تتحرك الأيدي باحتفالية وتستند على الهواء خطوات واثقة على أرضية غير ثابتة. تكفي ساق واحدة والأخرى هدية. ميزان. ترجح إحدى كفتيه بخفة وتعود ثانية للتعادل بدون أثقال. دوران ولكن غير سريع، تردد، من أجل المشاركة في الكتابة. لا تدور البقعة الجرداء، بل العصا هي التي تدور دورتي Piroutte نظيفتين. ليست هناك رفعات ورحلات بالبالون عبر الهواء. لا بد لغوتنبرغ أن يخرج من هيكله ويقلد شريكته، لكنه مثلي متفرج. بينما تمسح العصا بخفة البقعة الجرداء طولا وعرضا. بُهتت الغربان. وبكت أشجار الزان. Pas de bourrée, Pas de bourrée. أقدام صغيرة تتبدل. الآن حركة موسيقية سريعة، أليغرو، حيث يتبع الأداجيو دائما أليغرو. أقدام صغيرة سريعة. Echappé Echappé ومن حركة Demie-plié إلى Pas assemblés. ما لم تنجح فيه جيني

كانت حركة Pas de chat المضحكة، لكن العصا لا تتوقف عن أداء هذه الحركة وتقفز وتبقى عالقة في الهواء وتستطيع أثناء تعلقها بخفة في الجو أن تلامس طرفي قدميها وساقاها مائلتان. هل كان غوتنبرغ هو الذي صفر لها من أجل الانتقال من الأليغرو الصحو إلى الأداجيو إيذانا بالنهاية؟ يا لها من عصا رقيقة. عصا لها دلال. العصا تنصت دائما. بإمكانها أن تصغر وتكبر. عصا الحكيم. مرسومة بخط واحد. عصا بإمكانها الانحناء. تصفيق. الجمهور هو الغربان وأشجار الزان والريح الدافئة.

وبعد إنزال الستار لآخر مرة، قام القمر بإنزاله، بدأت العصا بخطوات صغيرة في البحث عن شيء ما على بقعة الرقص الجرداء، ولكن العصا لم تكن تبحث عن أسنان مفقودة مثل الشاب على الناحية الأخرى من جبل الإربس، حيث يسكن أمزل ولم يكن لدى العصا ألم بالفم، بل احتفظت بابتسامة متجمدة لم تزدد ولم تصبح أكثر دفئا، حينما وجدت العصا ما تبحث عنه: تحركت العصا بزحافة جيني الجديدة ولكن بدون خطوات راقصة، لقد سارت بخوف طفولي فوق البقعة الجرداء وأخذت معطف جيني الفرو الذي سقط على الأرض ووضعته على كتفيها واختفت في الغابة بتجاه طريق الياشكنتال دون أن يبدي غوتنبرغ أي اعتراض.

وفي الحال ونظرا لخلاء البقعة الجرداء تلبسني الخوف ثانية من جراء الحديد الزهر ومن حفيف الغابة. أسرعت مخلفا ورائي البقعة الجرداء وجريت بين أشجار الزان ولم أتوقف عن الجري والقفز بوصولي إلى طريق الياشكنتال المدجج بأعمدة الإضاءة. ولم أتوقف إلا عند الشارع الرئيسي أمام متجر شتيرنفيلد.

وعلى الناحية الأخرى للميدان أشارت الساعة الموجودة أمام محل البصريات إلى الثامنة وبضع دقائق. ضج الشارع بالحياة. أسرع رواد السينما إلى الدخول إلى مبنى السينما. أعتقد أن الفيلم المعروض كان للويس-ترنكر. وبعد أن بدأ الفيلم، جاء الشاب متباطئا ولكن بقامة ممشوقة حاملا حقيبة السفر. ليس من الممكن أن يكون بالحقيبة أشياء كثيرة. فماذا يمكن لهذا الشاب أن يأخذ من ملابس أمزل؟ أتى الترام من أوليفا وأراد أن يكمل طريقه باتجاه المحطة الرئيسية. صعد الشاب في مقطورة الترام وظل واقفا على السلم وعندما تحرك الترام أشعل الشاب سيجارة. وأمسكت شفاه متهدلة أسيانة بالسيجارة. لم أر إيدي أمزل أبدا وهو يدخن.

وما إن ذهب، حتى جاءت العصا بهدوء خطوة خطوة وهي تسحب معها زحافة جيني. وتبعتها عبر طريق الباومباخ. لقد اتخذت نفس طريقي. ووراء كنيسة قلب يسوع أسرعتُ الخطى حتى لحقت بخطى العصا وقلت شيئا مثل: «مساء الخير يا جيني.»

لم تُفاجأ العصا: «مساء الخير يا هاري.»

ولكي أقول أي شيء سألتها: «هل كنت تتزلجين؟»

أومأت العصا وقالت: «ولو أردت، بإمكانك أن تجر زحافتي.»

«ولكنك تأخرت كثيرا»

«إنني متعبة جدا أيضا»

«هل رأيت تولا؟»

«تولا والآخرون ذهبوا قبل السابعة.»

كان لجيني الجديدة الرموش الطويلة نفسها التي كانت لجيني القديمة: «لقد ذهبت قبل السابعة بقليل ولكني لم أرك»

أوضحت لي جيني الجديدة بلطف: «أنا أتفهم ذلك جيدا، فأنت لم تكن لتراني لأنني كنت داخل تمثال ثلجي.»

صار شارع الإلزن أقصر وأقصر: «وكيف كان الحال داخل التمثال؟»

قالت جيني الجديدة ونحن نعبر الجسر فوق قناة الشتريس: «كانت الحرارة شديدة جدا بالداخل.»

وكانت مخاوفي، حسبما أظن، حقيقية: «أتمنى ألا تكوني قد أصبت ببرد.»

قالت جيني الجديدة أمام مبنى الأكتسينهاوس حيث سكن الأستاذ أوزفالد برونيس مع جيني القديمة: «سأتناول من باب الاحتياط ليمونا ساخنا قبل أن أذهب إلى النوم.»

وخطرت لي أسئلة كثيرة: «وكيف خرجت من تمثال الثلج؟»

ودعتني جيني الجديدة أمام باب البيت: «لقد بدأ الجليد في الذوبان. ولكنني الآن متعبة، لأنني رقصت قليلا. لأول مرة أتمكن من عمل دورتين Pirouette، أقسم لك إني فعلتها. تصبح على خير يا هاري.»

وانغلق الباب. كنت جائعا. تمنيت أن يكون هناك طعام باق بالمطبخ.

بالمناسبة، من المفترض أن يكون الشاب قد أخذ قطار العاشرة مساءً. لقد رحل مع حقيبة سفر أمزل ومن المفترض أنهما قد عبرا الحدود بأمان.

عزيزتي تولا،

لم تصب جيني بالبرد داخل تمثال الجليد، ولكن في طريقها إلى البيت: فمن المفترض أن رقص الباليه على البقعة الجرداء قد أصابتها بالحمى. وكان عليها أن تبقى أسبوعا كاملا في السرير.

عزيزتي تولا،

الآن تعرفين أن الشاب قد خرج من جسد أمزل السمين. لقد أسرع بخطى خفيفة حاملا حقيبة سفر أمزل الصغيرة إلى المحطة وأخذ من هناك القطار إلى برلين. ما لم تعرفينه بعد: كان الشاب ذو الخطى الخفيفة يحمل معه جواز سفر وهذا الجواز مزور. قام بعمل هذا الجواز رجل مهنته الأساسية صانع لآلات البيانو واسم شهرته «هوتشن»، وقد قام بذلك قبل معجزة الثلج المزدوجة بأسابيع. فكرت يدا المزور في كل شيء، حيث إن الصورة التي تزين الجواز تصور الملامح المتماسكة والجامدة بعض الشيء للشاب الذي يعاني من آلام بالفم. ولم يصدر السيد هوت الجواز باسم إدوارد أمزل، لقد نعت اسم صاحب الجواز: هيرمان هازيلوف، مولود في ريغا في الرابع والعشرين من فبراير عام ألف وتسعمائة وسبعة عشر.

عزيزتي تولا،

عندما تعافت جيني، أريتها السنّين اللتين طوحهما الشاب بين أغصان الجولق أثناء وقوفي هناك. «ياه!» فرحت جيني وقالت «هل هاتان سنا السيد أمزل، هل يمكن أن تهديني واحدة منهما؟» احتفظت بالسن الأخرى وما زلت أحملها معي، لأن السيد براوكسل الذي يمكنه المطالبة بالسن، قد تركها في محفظتي.

عزيزتي تولا،

ماذا فعل السيد هازيلوف عند وصوله إلى محطة شتيتين؟ أخذ غرفة في فندق وذهب في اليوم التالي إلى عيادة أسنان حشا فمه الخالي من الأسنان، بأموال أمزل أو حاليا بأموال هازيلوف، بالذهب. توجب على السيد هوت أن يكتب في الجواز الجديد أمام عبارة: ملامح مميزة: «طقم أسنان، بتيجان ذهبية». وفي

الحال عندما يضحك السيد هازيلوف يراه المرء يضحك باثنتين وثلاثين سنا ذهبية، لكنه من النادر أن يضحك هازيلوف.

عزيزتي تولا،

لقد صارت هذه الأسنان الذهبية ذات أهمية وما تزال تحتفظ بأهميتها حتى الآن. عندما كنت بالأمس جالسا في مقهى «باول» ببرلين، قمت بتجربة لأبرهن على أن أسنان هازيلوف الذهبية ليست مجرد خيال، فرواد هذا المقهى في شارع أوغسبورغ هم من المصارعين وأصحاب شركات النقل والسيدات العازبات. أتاحت الكنبة الدائرية حول مائدة زبائن المقهى المعتادين، إمكانية الجدل الحاد على أساس وثير. كنا نتحدث عن الأشياء يتحدث الناس عنها في برلين وكان الحائط الذي وراءنا مزينا في غير ترتيب بصور لملاكمين مشهورين وللمشاركين في سباق الدراجات الذي يدوم ستة أيام ومشاهير قصر الرياضة. كانت الإمضاءات والإهداءات جديرة بالقراءة، لكننا لم نقرأ، بل فكرنا كما هو معتاد ما بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة مساء، أين نذهب بعد ذلك إذا كان علينا أن نغادر المكان. وبعد ذلك استهزأنا بالرابع من فبراير الذي قرب مجيؤه. أحاديث عن نهاية العالم مع البيرة والجين. حكيت عن الرجل غريب الأطوار الذي أعمل عنده، هذا السيد براوكسل: وعندئذ تحدثنا عن هازيلوف وأسنانه الذهبية التي أقول عنها أنها حقيقية بينما يعتبرها زملائي مجرد خيال.

عندئذ ناديت على البار: «يا هانشن، هل رأيت السيد هازيلوف في الآونة الأخيرة؟»

ورد هانشن أثناء غسله للأكواب: «أبدا! الفم الذهبي، يذهب هذه الأيام إلى مكان آخر عندما يأتي إلى برلين، يذهب إلى قهوة «دينر».»

عزيزتي تولا،

إذن فموضوع طقم الأسنان صحيح. سُمي هازيلوف الفم الذهبي، وحصلت جيني الجديدة، عندما أصبح بإمكانها أن تقوم من السرير بعد البرد الشديد، على زوج أحذية باليه من الدانتيل وكان قماشه الحريري يبرق فضيا كهدية. وعلى الفور رقصت جيني في صالة باليه مدام لارا: بجعات صغيرات. وتبرع عازف البيانو فيلزنر-امبس الذي شُفي من عضة الكلب، بمقطوعة لشوبان. سأترك بناء على رغبة السيد براوكسل الفم الذهبي وأتنصت إلى حفيف

خُف الباليه الفضي أثناء التدريب: تقف جيني على قضبان التدريب وتبدأ في صنع مستقبلها.

عزيزتي تولا،

ثم نُقلنا بعد ذلك من مدارسنا: ذهبت أنا إلى ثانوية كونراد، وأنتما، أنتِ وجيني أصبحتما تلميذتين بمدرسة هيلينا لانغه التي سرعان ما تغير اسمها إلى مدرسة غودرون. اقترح أبي أن يرسلك إلى الليسيه: «الطفلة موهوبة جدا ولكنها ضعيفة. يجب أن نحاول معها.»

بداية من الصف الأول الثانوي وقع الأستاذ أوزفالد برونيس شهاداتنا. كان يدرسنا اللغة الألمانية والتاريخ. ومن البداية كنت مجتهدا ولكن لم أكن منكبا طوال الوقت على الدروس ومع ذلك كنت أفضل تلميذ بالفصل: وكان بإمكان آخرين أن ينقلوا مني. والأستاذ برونيس كان أستاذا طيبا. وكنا نستطيع أن نحول انتباهه عن صرامة الدرس بسهولة: فلا نحتاج إلا لأن يحضر أحدنا حجرا من النايس اللامع وأن يطلب منه أن يتحدث عن هذا الحجر أو عن أحجار أخرى أو عن مجموعة أحجار النايس اللامعة التي يمتلكها، وفي الحال يترك برونيس الكمبرن والتويتونيون إلى جانب ويلقي الدرس في تخصصه المفضل، لكنه لم يتحدث فقط عن أشيائه المفضلة: النايس اللامع والغرانيت اللامع، بل تحدث عن كل المعادن: بلوتونيت وفولكانيت، أحجار غير متبلورة وأخرى متبلورة. تعلمت منه كلمات مثل: متعدد السطوح، ذي طبقة عريضة ومدبب وتعلمت منه الألوان: خضار الكرات، زرقة السماء، صفار البازلاء، بياض الفضة، بني القرنفل، رمادي الدخان، سواد الحديد، وحمرة الصباح، كل هذه الألوان خرجت من جعبته. لقد علمني كلمات رقيقة: وردي الكوارتز، حجر القمر، واللازورد، ونقلت عنه بعض الشتائم اللطيفة مثل «يا بو راس من الطّفل، يا هورنبلند أو يا برغوث الظفر!»، لكنني لا أستطيع حتى يومنا هذا أن أفرق بين: العقيق اليماني والأوبال- الملكيت واللبرادوريت- البيوتيت والموسكوفيت.

وإذا لم نحول انتباهه عن الدرس الأساسي بالمعادن، تقوم ابنته بالتبني جيني بعمل ذلك. يطلب عريف الفصل من الأستاذ برونيس في تأدب أن يتحدث عن التقدم الذي أحرزته جيني كباليرينا ذات مستقبل. ويقول إن الفصل يريد أن يسمع ذلك. فالجميع يريدون معرفة ما حدث في صالة الباليه منذ أمس الأول.

وبالطريقة نفسها يمكن إغواء الأستاذ برونيس باسم «جيني»، كما تم إغواؤه بكلمة «النايس اللامع» من قبل. توقف عن الحكي عن هجرات الشعوب، وترك القوط الغربيين والشرقيين يتعفنون على ضفاف البحر الأسود وانتقل إلى موضوع جديد. لم يعد يتكور محنيا خلف منصته بلا حراك، بل تقافز راقصا مثل دب بين خزانة الفصل والسبورة وأمسك بالإسفنجة ومحى كذلك تجوال القوطيين المرسوم على السبورة. ترك الطباشير ينسحق بصفير على الأرضية التي كانت ما تزال مبللة. وبعد دقيقة كاملة بينما هو يكتب في الركن السفلي الأيسر ويجفف البلل في الركن العلوي الأيمن: على سبورة المدرسة السوداء كان ما يلي مكتوبا: «الوضع الأول، الوضع الثاني، الوضع الثالث والوضع الرابع والخامس». وكان أوزفالد برونيس يبدأ درس الباليه النظري بالكلمات التالية: «كما هو معتاد ومنتشر في العالم كله نبدأ من الوضع الأساسي وبعد ذلك تأتي التدريبات على القضبان» كان الأستاذ يستند في كلامه إلى منظر الباليه الأول آربو. ووفقا لآربو وبرونيس هناك خمسة أوضاع أساسية تستند جميعها إلى مبدأ توجيه القدم نحو الداخل. وكان لتلك الكلمة «نحو الداخل» أهمية أكبر من مصطلح «التدقيق الإملائي» في مرحلة دراستي الثانوية. وحتى اليوم أستطيع أن أقرأ حركة أي باليرينا من قدميها، وما إذا كانت أصابع القدم موجهة للداخل بصورة كافية أم لا. ولكنني مازلت أعاني من صعوبات في التدقيق الإملائي.

نحن المدققين اللغويين قليلو الثقة بأنفسهم، خمسة أو ستة من المهووسين بالباليه، شاهدنا بعين ناقدة في كاليري مسرح المدينة، عند تقديم معلم الباليه بمساعدة مدام لارا، أمسية مع فن الباليه. ذات مرة كُتب في برنامج العرض: الرقصات البولوفية، باليه «الجمال النائم» وفقا لنموذج بيتيباس المعقد والفالس الحزين الذي قامت مدام لارا بالتدرب عليه.

ورأيت أن: «بيتريش كان لديها حضور قوي أثناء الأداجيو ولكن قدميها لم تكونا خارجتين بصورة كافية»

وقال بيوش الصغير لاعنا: «شوف رانيرل، كل بيرويتاتها مهزوزة، وقدمها ليست موجهة نحو الداخل على الإطلاق.» ويهز هربرت بينتسولت رأسه «لو لم تعمل ايرما لويفايت على تحسين فرد مشط القدم، فلن تبقى لفترة طويلة كراقصة منفردة، حتى لو كانت تحسن إخراج قدميها للخارج.»

وإلى جانب كلمة مفرود وكلمة للخارج، أصبح لكلمة «حضور» أهمية كبيرة. فبعضهم «ليس لديه رغم كل فنية الأداء، أي حضور» أو أن نقول عن راقص مسرح المدينة الطاعن في السن الذي يبدأ قفزات Grand jeté من وراء الكواليس ثم يكملها بعد ذلك بعمل دورات جميلة بطيئة: «إن باركه يستطيع أن يعمل ما يحلو له بسبب حضوره القوي، أنه لا يدور سوى ثلاث دورات ولكنها كلها متميزة.»

والكلمة الرابعة التي أصبحت منتشرة أيام كنت بالصف الأول الثانوي هي كلمة «Ballon». فكنا نقول إن للراقصين والراقصات «بالون» أو ليس لديهم «بالون» أثناء حركات Entre-chat six de volée و Grand jeté وأثناء كل القفزات. ويعني ذلك أن لديهم أو لديهن القدرة على البقاء لوهلة في الهواء أثناء القفز بخفة البالون، أو أنهم لم يتمكنوا من التشكيك في قانون الجاذبية الأرضية. وعندما كنت في الصف الثاني الثانوي، نحت تعبيرا خاصا بي ألا وهو: «أن الراقص المنفرد يرقص ببطء لدرجة أن الواحد يمكن أن يخط معه قفزاته»، وما زلت حتى اليوم أطلق ذلك التعبير على القفزات التي يتم تأخيرها بمهارة: قفزات مثل الكتابة على السبورة يمكن للقلم أن يتابعها. آه لو كان ذلك بإمكاني: أن أتابع القفزات الراقصة بقلمي!

عزيزتي بنت الخال،

ولم يقتصر رائد فصلنا الأستاذ برونيس على تدريسنا ألف باء الباليه كبديل عن بالاده مهزوزة مكونة سبعة عشر مقطعا، بل لقد علمنا أيضا على أي الأطراف تقف الباليرينا عندما تتمكن من أداء دورة بيرويت كاملة دون خطأ أو جهد.

وفي أحد الأيام - لا أعرف بالضبط، إن كنا ساعتها عند القوط الشرقيين، أم كان الهمجيون في طريقهم إلى روما؟ - حمل الأستاذ برونيس خفي الباليه الخاصين بجيني إلى فصلنا. في البدء تصرف بسرية، وقبع خلف المنصة وأخفى رأسه المكور بكل تجاعيده خلف زوج الحذاء الفضي. ثم أوقف زوج الأحذية على طرفيهما دون أن يُظهر يديه. ونغم صوت الرجل الكبير جزء من لحن «كسارة البندق» وجعل الحذاء الدانتيل يتدرب على كل الأوضاع فوق المنصة ما بين دواة الحبر والعلبة الصفيح التي يضع بها شطائره: Petits battement sur le coup de pieds.

وعندما انتهى العرض همس قائلا وقد رفرف بزوج الأحذية الفضي، بأن الحذاء الدانتيل ما يزال يعد أداة تعذيب حديثة، هذا من ناحية ولكن من ناحية أخرى يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار أن الحذاء الدانتيل هو الحذاء الوحيد الذي يمكّن أي فتاة من أن تصل إلى ملكوت السماء وهي ما تزال في الدنيا.

ثم جعل أكبر تلميذ في الفصل يمرر خف جيني الدانتيل على مقاعد الفصل مقعدا مقعد. وكان لحذاء جيني الفضي أهمية لدينا. ليس للدرجة التي تجعلنا نُقبّله. لم نتحسس ملمسه إلا قليلا، رأينا بريقه الفضي الصاخب، وربتنا على طرفه الصلب الذي فقد فضيته وعبثنا شاردين بالأربطة الفضية ونسب جميعنا إلى الحذاء قوة سحرية: فلقد كان له القدرة على تحويل الكرة السمينة المسكينة إلى شيء خفيف الوزن وأن الحذاء الدانتيل قادر يوميا على الوصول إلى ملكوت السماء سيرا على الأقدام. حلمنا كثيرا بالحذاء الدانتيل ومن كان يفرط في حب أمه، كان يراها تدخل عليه حجرة نومه راقصة على أطراف الأصابع. ومن أحب ملصقا لعرض سينمائي، كان يأمل في أن يرى فيلما لليل داغوفر وهي ترقص على أطراف أصابعها. ووقف الكاثوليكيون منا أمام مذبح العذراء مريم وتساءلوا، إن كان بود العذراء أن تستبدل صندلها البسيط بأحذية جيني الفضية.

أنا الوحيد الذي كان يعرف أن الأحذية الدانتيل لم تكن سببا في تحول جيني. كنت شاهدا: بمعونة معجزة ثلجية بسيطة تحررت جيني برونيس من أدرانها وكذلك إيدي أمزل. عملية غسيل!

عزيزتي بنت الخال،

صحيح أن عائلتينا وكل الجيران قد تعجبوا من التحول الملحوظ للفتاة التي لم يتعدى عمرها ١١ عاما، ولكنهم جميعا قد أجمعوا بإيماءات الرؤوس على استحسان هذا التحول الذي أحدثه الثلج وكأن جميع الناس كانوا يعرفون مسبقا بما سيحدث لجيني وصلوا جماعة لتحقيق هذه المعجزة. كانت جيني تغادر الأكتسينهاوس، المنزل المقابل لنا، عصر كل يوم في الساعة الرابعة والربع بالضبط وتمشي في تهذب برأس صغير ورقبة طويلة في شارع الإلزن. كانت تسير مؤرجحة ساقيها أثناء السير ولم تحرك جذعها إلا قليلا. التصق كثير من الجيران يوميا في هذا التوقيت خلف زجاج النوافذ ناظرين إلى الشارع وبمجرد خروج

جيني إلى الشارع، كانوا يرددون من وراء نباتات مسك الغرب والصبار: «الآن جيني رايحة تلعب باليه.»

وعندما يتعذر على أمي، بسبب أعمال المنزل أو لأنها كانت تثرثر في الردهة، رؤية جيني وهي تخرج إلى الشارع، كنت أسمعها تزعق: «فاتني أن أرى جيني بنت برونيس. غداً سأضبط المنبه على أربعة وربع أو قبل ذلك بقليل.»

كانت رؤية جيني تؤثر في أمي: «أصبحت ولا غصن البان». وتولا كانت أيضا نحيفة كغصن ولكن نحافتها مختلفة. فهيئة تولا الممصوصة كانت مخيفة، أما نحافة جيني فكانت تدعو للتأمل.

عزيزتي بنت الخال،

تحول طريق المدرسة إلى موكب غريب الشكل. فكنت أشارك تلميذات مدرسة هيلينه-لانغ الطريق نفسه حتى نويشوتلند. وكنت أنحرف يمينا عند ميدان ماكس هالبه بينما تقطع الفتيات في طريق البيرين، باتجاه كنيسة المسيح. ولأن تولا كانت تنتظرني في المدخل شبه المعتم لمنزلنا وترغمني على أن أنتظر معها، حتى تغادر جيني الأكتسينهاوس. كانت جيني تتقدمنا: كانت تسبقنا بخمس عشرة وأحيانا بعشر خطوات. واجتهد ثلاثتنا في الحفاظ على المسافة. وعندما كان رباط حذاء جيني ينفك، كان على تولا أيضا أن تعقد رباط حذائها من جديد. وقبل أن أنحرف يمينا، كنت أختبئ وراء أحد أعمدة الإعلانات وأتابع الاثنتين بعيني: بقيت تولا وراء جيني، ولكن ذلك لم يبدُ أبدا في صورة مطاردة مستمرة، بالأحرى قد أصبح واضحا أن تولا كانت تتبع جيني دون أن تحاول اللحاق بالفتيات اللائي يمشين بصرامة وتصنُّع. وفي الأوقات التي كانت فيها شمس الصباح على ارتفاع متوسط وسقطت ظلال جيني خلفها طويلة وعريضة، كانت تولا التي كانت تطيل ظل جيني بظلها تقوم بدهس ظل رأس تولا خطوة بخطوة.

ولقد عهدت تولا لنفسها بمهمة السير وراء جيني، ليس فقط في طريق المدرسة، بل أيضا في الساعة الرابعة والربع، عندما يقول الجيران: «جيني رايحة تلعب باليه»، كانت تختبئ في بئر السلم ثم تتبع جيني.

في البداية كانت تولا تسير حتى محطة الترام محافظة على المسافة، ثم تعود بمجرد أن يصفر الترام معلنا توجهه إلى أوليفا. ثم صرفت نقودا في الترام

واشترت تذكرة، أخذت ثمنها من مصروفي. لم تستلف تولا أية نقود. كانت تأخذها. كانت الأبنة بوكريفكه تدس يدها في خزانة المطبخ وتأخذ ما تريد دون استئذان الأم بوكريفكه. كانت تركب في مقطورة الترام نفسها التي تركبها جيني، لكن تولا كانت تقف عند السلم الخلفي بينما تقف جيني عند السلم الأمامي. وسارتا في حديقة قصر أوليفا إحداهما وراء الأخرى مع المحافظة على المسافة المعتادة التي تقل بدرجة طفيفة عند عند حارة الروزن. وعند اللوحة المعدنية المطلية: «لارا بوك- فيدوروفا- معلمة باليه» كانت تولا تقف ساعة كاملة ولم يكن أحد ليحركها ولا حتى القطط المارة التي تتمسح بها. وبعد حصة الباليه، تنتظر بوجه ممتقع، حتى يمر من أمامها قطيع من جرذات الباليه المثرثرات اللائي يحملن شنطة التدريب التي تتأرجح على ظهورهن. كانت كل البنات تسير بأقدام موجهة نحو الداخل قليلا ورؤوسهن كانت صغيرة جدا محمولة على رقاب مثل أعواد البوص: يحتجن لمن يسندهن. وكان لحارة الروزن أثناء مرورهن رائحة الطباشير والملابس الرياضية العرقانة. ولم تتحرك تولا من مكانها إلا عندما خرجت جيني بصحبة عازف البيانو فيلزنر-امبس من باب الحديقة وكانا على البعد المطلوب.

يا له من ثلاثي: امبس المنحني مرتديا طماقا فوق حذائه والطفلة ذات الجديلة الشقراء الفاتحة المنسدلة على القفا، وتولا تسير وراءهما متخذة مسافة. في إحدى المرات يلتفت فيلزنر-امبس. لا تنظر جيني وراءها. تتحمل تولا نظرة عازف البيانو.

وفي مرة أخري يؤخر امبس خطوته ويقطف أثناء المشي غصن زعرور بري، ويعطيه لجيني، فتكسر تولا أيضا غصن زعرور بري ولا تحتفظ به بل ترميه، بعد أن تستعيد المسافة السابقة بخطوات سريعة داخل حديقة، لا ينمو فيها الزعرور البري.

وفي مرة أخرى يظل فيلزنر-امبس واقفا: تظل جيني واقفة: تظل تولا واقفة. وبينما تظل كلا من جيني وتولا في مكانيهما، يرجع عازف البيانو بخطوات جريئة مخيفة إلى الوراء، ويخطو عشر خطوات تجاه تولا وعندما يصل عندها يرفع ذراعه اليمنى لأعلى ويهز خصلات الفنان ويشير بإصبع عازف البيانو تجاه حديقة القصر «ألا يمكن تتركي الآخرين في حالهم؟ أليس عندك واجبات

مدرسية؟ إذهبي الآن، نحن لا نريد أن نراك بعد ذلك.»، ثم يعود يائسا لأن تولا لا تجبه ولا تطع إصبعه التي تشير إلى حديقة القصر. يعود امبس إلى يمين جيني. ولكنهما لا يتحركا لأن شعر عازف البيانو قد صار أشعث أثناء تلقين تولا درسا في الأخلاق ولا بد من تسريحه. والآن أصبح شعره مرتبا. يتحرك فيلزنر-امبس وتتحرك جيني بخطوات رقيقة وأصابع قدميها موجهة نحو الداخل وتحافظ تولا على المسافة. ويقترب الثلاثة من محطة الترام أمام مدخل حديقة القصر.

عزيزتي بنت الخال،

صارت طريقة سيركما شيئا معتادا. بل وحافظ المارة على عدم اختراق المسافة بين جيني وتولا. وبدا منظر الفتاتين في الشوارع الحيوية عجيبا، فقد تمكنتا فقط من خلال السير وراء بعضهما مع الحفاظ على مسافة كبيرة من صنع ثقب في زحام أحد الشوارع التجارية. لم تأخذ جيني هاراس أبدا معها أثناء سيرها وراء جيني. ولكنني لحقت بكلتيهما. غادرت المنزل مع تولا، كما أفعل عند الذهاب للمدرسة، وسرت بجانبها بطول شارع الإلزن. كانت جديلة موتسارت التي أمامنا خاصة بجيني. سطعت شمس يونيو متألقة بين البيوت القديمة. عند الجسر فوق قناة الشتريس، تركت تولا وأسرعت الخطى لأسير إلى جانب جيني الأيسر. انتشرت خنفساء المزارع في هذه السنة. وأثناء سيري إلى جانب جيني، التي حاولت ألا تطأ أي من الخنافس، طلبت منها أن أحمل لها حقيبتها وأعطتني أياها: قطعة من القماش الأزرق السماوي، يبرز من خلالها طرف الحذاء الدانتيل. وعندما كنا خلف حديقة كلاينهامربارك أخرت خطوتي - طنت خنافس مزارع العنب بين أشجار الكستناء - حتى سرت مع تولا حاملا حقيبة جيني. خلف نفق القطار، بين أكشاك السوق الأسبوعي الخاوية على الأرضية المبلطة المبلل وبين مقشات الكناسين المغردة، طلبت تولا مني أن أعطيها حقيبة جيني ولأن جيني لن تلتفت أبدا، سمحت لتولا أن تحمل حقيبة جيني. تفرجت جيني على الصور المعروضة أمام السينما، وكان عليها صورة لممثلة عظم خدها عريض وقد ارتدت معطف طبيبة أبيض. تفرجنا على الصور. نافذة عرض أخرى. برنامج العروض القادمة: ابتسم ممثل صغير ست مرات. قبل أن نصل إلى محطة الترام أخذت حقيبة تدريب جيني من تولا ثانية وركبت الترام مع جيني

وحقيبتها في مقطورة الترام المتجه إلى أوليفا. وأثناء حركة الترام ارتطمت خنافس المزارع بنوافذ الباب الأمامي للعربة وقبل محطة «الحمل الأبيض»، تركت جيني وذهبت بالحقيبة لزيارة تولا عند الباب الخلفي. لم أعطها الحقيبة. دفعت لها ثمن التذكرة، لأنه كان بإمكاني في الماضي أن أتحصل على بعض العملات من بيع حطب من ورشة النجارة الخاصة بأبي. وقبل محطة فريدنسشلوس، رجعت لزيارة جيني وأردت أن أدفع لها، لكن جيني كان عندها اشتراك شهري.

عزيزتي بنت الخال،

لقد ذاع الخبر في أثناء الإجازة الصيفية بأن السيد شتيرنيك، معلم الباليه بمسرح المدينة قد ضم جيني إلى فرقة باليه الأطفال. وسترقص في عرض حدوتة «عيد الميلاد»، وقد بدأت البروفات بالفعل. واسم العرض هذا العام هو «ملكة الثلج» وقد كتبت جريدتا «فوربوستن» و«نويسته ناخريشتن» أن جيني ستلعب دور ملكة الثلج، لأن دور ملكة الثلج ليس دورا ناطقا بل دور راقص.

ولم تعد جيني تركب الترام رقم ٢ فقط إلى أوليفا، بل ركبت أيضا الترام رقم ٥ إلى كولنماركت، وهناك كان مسرح المدينة كما ورد وصفه من برج الشتوكتورم في كتاب السيد ماتسرات(١١).

كان علي أن أقطع كثيرا من الحطب وأبيعه سرا حتى أتمكن من الحصول على تذاكر الترام لتولا ولي. لقد حرم علي أبي هذه التجارة ولكن أسطى الماكينات كان يساندني. ذات مرة تأخرت وجريت مقرقعا بحذائي فوق الأرضية المبلطة لطريق اللاب ولحقت بالفتاتين قبل ميدان ماكس هالبه. كان هناك من يزاحمني: ابن البقال، ضئيلا ومتينا، كان يتناوب السير بجانب تولا وجيني. وأحيانا كان يفعل شيئا لم يجرؤ عليه أحد. كان يدخل في المنطقة المنطقة الخالية من البشر بين الاثنتين. سواء مشى بجانب تولا أو بجانب جيني أو بين الاثنتين: كان يحمل أمام بطنه طبلة أطفال من الصفيح. وكان يُحدث على هذا الصفيح ضجيجا يفوق إيقاع المارش المطلوب لفتاتين نحيفتين كهاتين. قالوا إن أمه قد ماتت منذ فترة قصيرة، إثر تناولها سمك مسمم. امرأة جميلة.

---

(١١) إشارة إلى رواية الطبل الصفيح.

عزيزتي بنت الخال،

لم أسمعك تتحدثين مع جيني إلا في آخر الصيف. طوال ربيع وصيف كامل حل تبادل حمل حقيبة تدريب جيني التي تناقلتها الأيدي محل الحوار. أو تم الحوار من خلال خنافس المزارع التي تجنبتها جيني ودهستها أنت. وطبعا عن طريقي أنا وفيلزنر-امبس.

عندما غادرت جيني الأكتسينهاوس، وقفت تولا في طريقها وقالت: «ممكن أحمل حقيبتك التي بداخلها الحذاء الفضي؟» أعطت جيني تولا الحقيبة دون أن تنبس بكلمة ولكنها نظرت إلى تولا مثلما نظرت تولا إليها. حملت تولا الحقيبة. لكن ذلك لم يعن أنها ستسير بجانب جيني وتحمل الحقيبة. لقد استمرت في الحفاظ على المسافة أثناء السير وأثناء ركوبنا الترام رقم ٢ إلى أوليفا كانت حقيبة جيني عند الباب الخلفي. كان علي أن أدفع وكان وجودي رغم ذلك غير ضروري. ولم تعد تولا الحقيبة إلى جيني إلا قبل مدرسة الباليه عندة حارة الروزن، وتقول لها «شكرا!».

وبقينا على هذا الحال حتى دخل الخريف. لم أرها أبدا وهي تحمل حقيبة جيني المدرسية، دائما كانت تحمل حقيبة التدريب هذه. كانت تقف كل عصر مستعدة ومرتدية جوارب تصل لركبتها. عرفت عن طريقي مواعيد بروفات جيني ومواعيد تدريبها. كانت تقف أمام الأكتسينهاوس ولم تعد في حاجة إلى سؤالي، تمد يدها إلى جيني وتمسك برباط الحقيبة وتحملها على كتفها وتحافظ على بقاء المسافة.

امتلكت جيني عدة حقائب تدريب: واحدة بلون أخضر كراتي وأخرى بلون أحمر شفقي وثالثة بلون أزرق سماوي ورابعة بلون القرنفل وخامسة لها صفار البازلاء. وكانت تبدل الألوان في غير نظام. وحين غادرت جيني مدرسة الباليه في أحد عصاري أكتوبر قالت تولا لجيني دون أن تنظر إليها «أريد أن أتفرج على الحذاء وأن أرى ما إذا كان فعلا من الفضة.» عارض فيلزنر-امبس ذلك، لكن جيني أومأت موافقة وضغطت على يد عازف البيانو ناظرة إليه بحنو. سحبت تولا الأربطة الحريرية للحذاء الدانتيل المربوط بعناية مثل هدية ملفوفة من الحقيبة الصفراء. لم تفك الرباط لقد أمسكت بالحذاء في راحتي يديها ووضعته أمام محجري عينيها وتركت عينيها الضيقتين تتجولان فوق الحذاء من كعبه حتى طرفه،

وبرغم من أنه قديم وبال، فقد كان بالنسبة لها فضيا بقدر كاف.

تحدثت جيني مع تولا في نهاية نوفمبر أي قبل ثلاثة أيام من العرض الأول للمسرحية الراقصة. لقد خرجت من مدخل مسرح المدينة مرتدية معطفا رماديا من الجوخ ولم يصطحبها امبس. اقتربت جدا من تولا ظلت واقفة وقالت لها أثناء إعطاء الحقيبة لها ودون أن تبعد بنظرتها كثيرا عن تولا: «أنا اعرف الآن ما اسم الرجل الحديدي في غابة الياشكنتال»

«وفي كتابه كان هناك كلام مختلف عن الذي قلته»

تريد جيني أن تقول ما تعرفه: «واسمه ليس الغول، بل اسمه يوهانس غوتنبرغ»

«في الكتاب كان مكتوباً أنك سترقصين رقصا جميلا أمام كل الناس»

تومأ جيني «قد يحدث ذلك، ولكن يوهانس غوتنبرغ هو الذي اخترع فن طباعة الكتب»

«نعم هذا ما أقوله. إنه يعرف كل شيء.»

جيني تعرف أكثر «وهو مات سنة ألف وأربعمائة وثماني وثمانين»

تولا تريد أن تعرف «كم وزنكِ؟»

تجيب جيني بدقة: «قبل يومين كان وزني سبعة وستين رطلا ومائتين وثلاثين غراما وكم وزنك أنت؟»

تكذب تولا: «ستة وستين رطلا وتسعمائة وتسعين غراما.»

جيني: «بالحذاء؟»

تولا: «بالحذاء الرياضي»

جيني: «هذا وزني بدون حذاء، فقط بملابس التدريب»

تولا: «إذن وزننا واحد»

تبتهج جيني لذلك: «تقريبا. وأنا لم أعد أخاف من غوتنبرغ. هاتان تذكرتان لك ولهاري لعرض الافتتاح، إذا أردتم المجيء.»

تأخذ تولا التذكرتين. يأتي الترام. تركب جيني كالعادة في الأمام وتصعد تولا من الخلف وأنا أيضا. عند ميدان ماكس هالبه تنزل جيني أولا، تتبعها تولا ثم أنا. وفي طريق اللاب، لا تتخذ الفتاتان مسافة بينهما بل تسيران جنبا إلى جنب وتبدوان مثل صديقتين وتسمحان لي بحمل حقيبة التدريب الخضراء.

عزيزتي بنت الخال،

لا بد أن تعترفي أن جيني كانت رائعة في عرض الافتتاح. لقد قامت بعمل بيرويتاتين لا تشوبهما شائبة وتجرأت على القيام بحركة Grand Pas de Basque التي ترتعد لها أوصال الباليرينات الحاذقات. كانت أصابع قدميها «موجهة نحو الداخل» بشكل رائع. وكان «حضورها» على خشبة المسرح رائعا للدرجة التي جعلت خشبة المسرح تبدو ضيقة. وعندما قفزت، كانت قفزتها بطيئة ويمكن للقلم أن يتابعها، أي كان لقفزاتها «بالون». وكان من الصعب ملاحظة أن مشط قدم جيني لم يكن مفرودا بصورة كافية.

لكونها تلعب دور ملكة الثلج ارتدت زيا فضيا وتاجا فضيا ناصعا وغلالة تجسد الصقيع: وأي شيء لمسته جيني كان يتجمد على الفور. معها جاء الشتاء وأعلنت موسيقى تجمد المياه عن ظهورها على خشبة المسرح. وأطاع فريق الباليه وندف الثلج وتماثيل الثلج الثلاثة ذات الشكل الغريب أوامرها ذات الرنين الثلجي.

لا أستطيع أن أتذكر الحبكة، ولكن في الفصول الثلاثة كان هناك حيوان رنة متكلم وكان عليه أن يجر زحافات مزودة بمرآة، كانت تجلس فوقها ملكة الثلج على وسائد ثلجية. جاء حديث حيوان الرنة في أبيات شعرية وكان بإمكانه أن يسابق الريح ورنت أجراسه الفضية خلف الكواليس، معلنة عن قدوم ملكة الثلج.

ولعب دور حيوان الرنة، وفقا لما هو مكتوب في برنامج العرض، فالتر ماتيرن. وكان هذا هو أول دور كبير يلعبه. وقيل إنه حصل بعد ذلك بوقت قليل على عمل بمسرح مدينة شفيرين. لقد أجاد أداء دور حيوان الرنة وحصل على تعليقات صحفية لطيفة. ولكن صحيفتي دانتسيغ قد اعتبرتا أن جيني هي الاكتشاف الحقيقي. ورأى أحد النقاد أنه لو أرادت جيني، لكان بإمكانها تجميد جمهور الصالة والبلكون لألف عام.

التهبت يداي من كثرة التصفيق. ولم تصفق تولا عند نهاية العرض. وطوت برنامج العرض ليصبح صغيرا وأكلته أثناء الفصل الأخير. ومص الأستاذ برونيس الذي جلس بيني وبين مهووسي الباليه أثناء الفصول الثلاثة والراحة بعد الفصل الثاني، كيسا كاملا من ملبس السعال.

بعد انسدال الستار سبع عشرة مرة، انتظرت مع فيلزنر-امبس والأستاذ برونيس أمام غرفة تغيير الملابس الخاصة بجيني. وكانت تولا قد ذهبت.

عزيزتي تولا،

هذا الممثل الذي لعب دور حيوان الرنة وتميز في الكرات العالية في لعبة كرة المضرب الجلدية والضربات المرتدة الخبيثة في لعبة كرة القبضة، هذا الممثل والرياضي الذي مارس رياضة الهوكي واستطاع أن يبقى لمدة اثنتي عشرة دقيقة في الجو أثناء الطيران الشراعي، ذاك الممثل الذي كان يصطحب معه دائما نساء عديدات وكلهن بدت علي وجوههن اللوعة والأسى، هذا الممثل والعاشق الذي وزع منشورات حمراء وقرأ كتب الجيب والروايات البوليسية ومقدمة في الميتافيزيقا خالطا باستمرار بين كل هذه الكتب، والذي كان أبوه طحانا قادرا على التنبؤ وكان اسم أسلافه ماتيرنا وكانوا متمردين مخيفين، هذا الممثل وعضو فرق الهجوم الضخم، المزاجي، متين البنيان، المأساوي، قصير الشعر، غير الموهوب في الموسيقى، المحب للشعر، الوحيد والسليم بدنيا، قائد مجموعة فرق الهجوم الذي أصبح في يناير بعد إحدى العمليات قائدا لفصيل من فرق الهجوم، هذا الممثل والرياضي والعاشق والميتافيزيقي وقائد الفصيل الذي استطاع أن يصر بأسنانه بسبب وبدون سبب، الذي يسأل بوضوح وبشكل مسموع عن آخر الأنباء، هذا الصرار الذي رغب في تمثيل دور عطيل ولكنه لم يحصل سوى على دور حيوان الرنة حين رقصت جيني في دور ملكة الثلج، عضو فرق الهجوم، الصرار، والممثل سقط في أسر الخمر لأسباب عديدة، حتى قبل أن يذهب إلى مسرح شفيرين، ليلعب دور «البطل الشاب».

أما إيدي أمزل الذي دخل في تمثال الثلج وغادره بوصفه هيرمان هازيلوف، لم يصبح مدمنا للكحول بل صار مدخنا.

هل تعرفين لماذا سمى نفسه هازيلوف ولم يسم نفسه دروسل (سمنة) أو فينك (شرشور) أو ستار (زرزور)؟ لقد انشغلت بهذا السؤال وأقلق نومي أثناء سيركما أنت وجيني وراء بعضكما متخذتين المسافة طوال عام كامل. قبل أن أدرك أن أمزل له اسم آخر، قمت بزيارة متخيلة لفيلا أمزل الخاوية في طريق شتيفن والتي قد تكون ما زالت مؤجرة لأمزل نظرا لعقد الإيجار طويل المدة. من المحتمل أن فالتر ماتيرن، المستأجر من الباطن والمخلص، قد خرج لتوه من

المنزل، لنفترض ذلك، لأن عنده عرض مسرحي، ودخلت أنا، فرضا، من الحديقة إلى الشرفة ثم إلى أتيليه أمزل. دفعت بيدي زجاج نافذتين. وأغلب الظن أنه كان معي بطارية جيب. وما أبحث عنه لم أكن لأعثر عليه إلا في درج منصة الرينسانس، وعثرت عليه أيضا، أو كان بإمكاني أن أجده، أوراق مهمة. وفوقي تعلقت منتجات أمزل من الفزاعات التي صنعها في السنوات الماضية. وحسب معرفتي بنفسي فلم أكن لأخاف من الأشكال الغريبة أو كان خوفي منها خوف يمكن تحمله. وكانت الأوراق عبارة عن مسودات لخواطر متفرقة وأسماء مكتوبة بخط كبير وكأنها قد وضعت هنا من أجلي. على إحدى الأوراق حاول أمزل أن يخلق لنفسه اسما من شتبنهون (ديك البراري): شتيبون، شتيبوون، شتبوتات، شتيبيوس، شتيبات، شتيبوتايت، شتيبانوفسكي، شتبكا، شتيفن. وعندما وصل مع الشتيبنهون إلى اسم طريق شتيفن الذي قد يفصح عن هويته، تركه وحاول أن يخلق اسما من أسماء الطيور الثلاثة شبيرلنغ (عصفور) شبيشت (نقار الخشب) وشبيربر (باشق) في الوقت نفسه: شبيرلا، شبيرلينسكي، شبيكا، شبيرلوخ، شبيكون، شبيربالا، شبيرشيرلنغ، شبيشلنغ. وبعد هذه السلسلة الفاشلة من الأسماء حدث تقدم لا مثيل له ليصل إلى يوم الأحد «زونتاغ»: زونتاو، زونتوفسكي، زوناتوفسكي، زوبالا، زوراو، زوزات، زوفرت، زورغه. ثم ترك ذلك. ولم يكمل سلسلة الأسماء روزين، روسينا، روزنوت. ويحتمل أنه أراد أن يجد مقابلا لأمزل-أ، عندما بدأ بتسوخ ثم تسوخول بعد تسوخل، وتوصل إلى تسوفات من خلال تسوبر وفقد الرغبة عند وصوله إلى الاسم المضحك تيلينسكي، حيث إن مقولات مثل «الأسماء والأسنان الجديدة قيمتها ذهب!» أو «إذا كان لي اسم، كانت لي أسنان» أخبرتني، أنا الجاسوس المتخيل، كيف كان من الصعب عليه أن يتخذ اسما مختلفا وصحيحا في الوقت نفسه. أخيرا، بين صفين من الأسماء المتراوحة بين كريزون- كريزين وكروبات- كروبكات والتي لم تكتمل لنهايتها وجدت اسما منفردا وتحته خط. لم يكن نتاجا عن تسلسل من الأسماء. كان بلا معنى وكان طبيعيا. أصيل ولكن يمكن أن تجده في دليل التليفونات. وتتيح الفاء الموجودة في آخر الاسم غنة روسية وفي أسوأ الأحوال بلطيقية. اسم فني. اسم عميل. اسم حركي. تثبيت الأسماء. أسماء يحملها المرء، كل إنسان له اسم.

ثم تركت أتيليه أمزل البلوطي وقد حفظت اسم هازيلوف في قلبي. لا بد أن أقسم إن أحدا لم يقم بتهوية الغرفة حتى جئت وفتحت زجاج النوافذ. من المفترض أن تكون هناك حبات نفتالين في جيوب الفزاعات الموجودة تحت السقف. هل لعب فالتر ماتيرن دور ربة المنزل وحاول إنقاذ ميراث أمزل من الهلاك؟

كان علي أن آخذ الأوراق معي كإثبات لما بعد ذلك.

عزيزتي تولا،

ذاك الممثل، الذي أُطلق عليه في المدرسة «الصرار» والتصق به الاسم بعد ذلك في فرقة الهجوم «هل جاء الصرار؟ على الصرار أن يؤمن مع ثلاثة رجال محطة شارع فيلد، بينما سنقوم نحن بتمشيط طريق ميرشاو بعد الكنيس. على الصرار أن يصر ثلاث مرات بأسنانه قبل أن يغادر مبنى الطائفة»- هذا الصرار كثير المشاغل قد درب أسنانه على الصرير بصورة ملحوظة، من خلال تعاطيه المستمر للكحول. ولم يضيع وقتا في صب المشروبات، كان يتناولها مباشرة من الزجاجة. وكان إفطاره شراب العرعر.

ثم طردوه من تنظيم فرق الهجوم. ولكنهم لم يطردوه لسكره - فكلهم سكيرون - لقد طردوه لأنه سرق أثناء سكره. في البداية قام قائد المجموعة يوخن زافاتسكي بتغطيته لأنهما كانا صديقين حميمين، وكانا يقفان على البار كتفا لكتف ويشربان سويا. ولم يقم زافاتسكي بعقد محكمة شرفية إلا بعد أن ساد الاضطراب في مجموعة فرق الهجوم ٨٤ بلانغفور. وأثبت الرجال السبعة وكلهم من القادة الأكفاء، اختلاس ماتيرن. وقال الشهود إنه قد تباهى بذلك في حانة «دوناس». كان المبلغ عبارة عن ٥٣ غولدنا، استثمرها ماتيرن في شراب العرعر. قال زافاتسكي إن ما يقوله المرء وهو سكران لا يُعتد به كدليل. ورد ماتيرن محتدا، إن كانوا غير راضين عنه - «لولاي لما استطعتم أن تمسكوا ببريل في كالبوده»- على أي حال لقد تحمل مسئولية كل ما فعله - «لقد شربتم كلكم معي، أنا لم أسرق، لقد حاولت أن أهيئ جوا طيبا داخل الفرقة!»

والآن كان على يوخن زافاتسكي أن يلقي إحدى خطبه القصيرة. يقال إنه بكى أثناء تأنيبه لفالتر ماتيرن، ووسط كلامه تحدث عن الصداقة: «لكني لا أريد

أوغادا في فرقتي. وليس هناك منا من يريد أن يتخلى عن أعز أصحابه، لكن سرقة الرفاق هي أسوأ شيء، هذه قذارة ما لا ينظفها بيرسيل ولا أومو!». ويقال إنه وضع يده على كتف فالتر ماتيرن ونصحه بصوت مبحوح أن ينصرف في هدوء. بإمكانه الذهاب إلى الرايخ ويدخل في تنظيم فرق الحماية SS أخرى «سنعتبر أنك خرجت رسميا من فرقتنا، لكن ما بيننا شيء آخر!»

يقال إنه بعد ذلك قام تسعة رجال يرتدون الزي المدني بزيارة حانة الكلاينهامربارك وجلسوا على البار بدون لثام وبدون معاطف مطر. شربوا البيرة والعرق وأكلوا معها سجق الدم مقطعا. وغنوا جميعا أغنية «كان لي رفيق..» ويقال إن ماتيرن قد زام بقصائد بالية ونقنق بكلمات عن جوهر الوجود. واحد من التسعة دخل إلى الحمام. لكن لم تكن هناك تولا تجلس على كرسي البار العالي وتأخذ في التضاؤل مثل وريقات التقويم السنوي. لم تكن هناك تولا تثبت عينيها على باب الحمام: لم تكن هناك مشاجرة في صالة الحانة.

عزيزتي تولا،

لم يذهب فالتر ماتيرن إلى الرايخ: فمدة عرض «ملكة الثلج» امتدت حتى فبراير. ولابد أن يشارك حيوان الرنة ملكة الثلج في العرض. كذلك لم يصبح فالتر ماتيرن عضوا بتنظيم فرق الحماية، لقد أصبح، ما كان عليه منذ تعميده ونسيه، أي أصبح كاثوليكيا. أعانته الخمر على ذلك. في مايو عام ١٩٣٨ مثّل في مسرحية «العملاق». وفُرضت على ماتيرن الذي مثل دور ابن دوناتا أوبفركوخ عدة غرامات مالية، لأنه جاء إلى البروفة سكرانا - وبينما كان الموسم يقترب من نهايته، كان فالتر ماتيرن يتجول على الجزيرة الصغيرة، في ضاحية الميناء وفي شترودايش. من رآه، سمعه. فلم يكتف بصرير الأسنان المعتاد على المرافئ وبين المخازن، بل لقد أخذ يردد عبارات الكتب بصوت عال. الآن فقط، بعدما أصبحت قادرا على البحث والكشف في الكتب، أصبح بإمكاني التمييز بين كل ما خلطه من عبارات مقتبسة: نصوص دينية، وظاهرية فيلسوف يرتدي زعبوط، شعر دنيوي مرتبك، خلطه بسلاطة وأضاف له بهار من عرقي العرعر الرخيص. بخاصة الشعر، كنت أمشي أحيانا وراءه: أصنع كريات وأضعها في أذني واستمع: حيوانات الليمور تجلس على خشب النهر الطافي. كانت القصائد تدور حول الخراب وحفلات العربدة. كم خمنت وأنا صبي صغير بشأن تعبير

«موج المنثور». توقف ماتيرن عن الكلام. استمع عمال الميناء إليه عن طيب خاطر، عندما لم يكن عليهم أن يحمّلوا أخشاب الأبلكاش أثناء هبوب الريح: «. . .الوقت متأخر الآن» يومئ عمال الشحن. «أيها الروح التي تتحلل شيئا فشيئا. . .» كانوا يربتون على كتفه وكان يشكرهم: «أي حظ إخوة ذاك الذي لقابيل وهابيل، من أجلهما اخترق الرب السحاب- سببية نطفية، haïssable: الأنا المتأخرة.

في الماضي لم أفهم سوى ما كان مقصودا بقابيل وهابيل. جرجرت ساقي خلفه وترنح هو - وفمه مملؤ بمشهد الموتى والمقذوفية ويوم الغضب Dies irae, dies illa بين الأوناش الواقفة على الشترودايش، وهناك حين كان ظهره لترسانة كلافيتر، وتنفس هواء الموتلاو، تجلت له العذراء مريم.

يجلس على أحد أعمدة المرفأ ويأمرني لمرات عديدة بالذهاب إلى البيت ولكني لا أرغب في تناول طعام العشاء. هناك ناقلة بحرية سويدية مربوطة في العمود الذي يجلس عليه وفي بقية الأعمدة الأخرى. إنها ليلة تحت السحب المتعجلة لأن نوم الناقلة مضطرب ونهر الموتلاو في شد وجذب. تصر كل الحبال التي تثبت الناقلة السويدية بأعمدة المرفأ، لكن صريره أعلى. يبصق الأنا المتأخرة، وكل المقذوفية ومتتالية الحداد والآن يبدأ في التنافس مع الحبال. يجلس ملتصقا بالعمود وقد ارتدى بنطلون نيكرز ومعطفاً من المشمع ويصر، وقبل أن يضع الزجاجة على فمه، يستمر في الصرير مرددا لحن الأغنية نفسها وبمجرد تحرر عنق الزجاجة من يده، تصبح أسنانه ثالمة.

يجلس على الحافة الخارجية لسد شترودايش: يجلس عند المنعطف البولندي، حيث يلتقي الموتلاو مع الفايكسل الميت. مكان لصرير الأسنان. لقد قامت معدية ميلشبيتر من مرساها عند قنطرة شويتن بنقلنا، أنا وهو وعمال الترسانة، إلى هنا. لقد بدأ بصرير الأسنان فوق المعدية، لا بل قبل ذلك عند مروره بسور الفوكسفال وسور الياكوبسفال ثم بمصلحة الغاز، لكن لم ينتج عن شربه وصريره أية تجليات إلا على عمود المرفأ: "Tuba mirum spargens sonum..." تعينه الناقلة السويدية المنخفضة الارتفاع على ذلك. يقترب الموتلاو وينسحب ويختلط بالماء الراكد للفايكسل الميت. تعينه الترسانات وتقوم بعمل وردية ليل: ظهره لكلافيتر، الترسانة الكائنة خلف ميلشبيتر وبعد ذلك ترسانة شيشاو ومصنع

القاطرات. كذلك تعينه السحب التي تأكل نفسها وأنا أيضا أساعده، لأنه يحتاج إلى مستمعين.

كانت قوتي تكمن في السير وراء الآخرين والفضول والتنصت.

يتوقف دق المسامير، وتنحبس الأنفاس لبرهة على كل الترسانات في وقت واحد، ولا تتبقى سوى أسنان ماتيرن والناقلة السويدية المتبرمة، حتى تأتي الريح من اتجاه كيلغرابن. هناك على السد الإنجليزي، تُساق الماشية إلى المجزر. ويعمل مصنع غرمانيا للخبز في هدوء ولكن بانوار ساطعة من أدواره الثلاثة. ينتهي ماتيرن من شرب الزجاجة. تنزلق الناقلة مبتعدة. أنا يقظ داخل إحدى قاطرات البضائع. يمتد سد الشترودايش بمخازنه الخشبية وشونه وأرصفة شحنه وأوناشه أمام حصن براونس روس حيث ترتعش أضواء المعدية أمام رصيف تفريغ برابانك. يبقى بعض من صريره ولا يستمع إلى الحبال. ماذا يريد أن يسمع إن لم يكن يريد أن يستمع إلى دق المسامير؟ أبقار ذات خوار متحشرج وخنازير حساسة؟ هل يسمع ملائكة؟ Liber scriptus proferetur. هل يقرأ أضواء الصواري وأضواء يسار ويمين الناقلة سطرا سطرا؟ هل يخطط للعدم أو يضع نهايات: تموت آخر الوردات، الخشب الطافي لليمور، حصى الشرق، أهازيج سائق الجندول، العالم السفلي يصعد، مشهد الموتى، ألواح الإنكا، قلعة القمر؟ وهذا الأخير يدخل طبعا في اللعبة، ما يزال براقا بعد الحلاقة الثانية. من فوق الحوش الرصاصي ومحطة الضخ يقطر على مخازن الملح الخاصة بالمدينة، ويبول مائلا على الجزء الخلفي للمدينة القديمة ولبفيفرشتات ويونغ شتات، أي على كنائس القديس يوحنا - القديسة كاترينا - القديس بارتولومي - القديسة ماريا، حتى تتجلى هي مرتدية القميص الذي نفشه القمر. وطبعا جاءت بالمعدية من برابانك. وتصعد فوق سد الشترودايش متجولة بين مصابيح الإضاءة، تختبئ وراء أوناش تشبه أعناق الطيور على المرفأ، تتطاير فوق قضبان السكة الحديد وتشرق ثانية تحت أحد مصابيح الإضاءة، ويزداد صريره لها كلما اقتربت وهو جالس على عمود المرفأ: «لك السلام يا ماريا!» ولكن بينما كانت هي ترفرف أمامه وتحتفظ بمصباح تحت قميصها، لم يقف من مجلسه، بل التصق به وقال: «قولي لي، ماذا علي أن أفعل؟ هل أضناك البحث عني... اسمعي يا ماريا: أتعرفين أين هو؟ لك السلام، ولكن قولي لي، ماذا كان بإمكاني أن أفعل، كانت

سخريته هي الشيء الذي لا أحتمله. لم يكن لديه شيء مقدس وهذا هو السبب. في الحقيقة كنا تريد فقط أن نلقنه درسا: Confutatis maledictis والآن لقد رحل وترك لي ملابسه. وضعت بها حبات النفتالين، أنا فعلت ذلك، هل تتصورين، وضعت النفتالين في كل هذه الأسمال! إجلسي يا ماريا. حكاية النقود التي سرقتها من الخزينة صحيحة، ولكن أين هو؟ هل ذهب إلى السويد؟ أو إلى سويسرا حيث يحتفظ بأمواله؟ إجلسي: سيكون اليوم مليئا بالدموع. . .حتى عندما كان صغيرا - كم كان سمينا ساعتها - كان لا يكف عن هذه المبالغات: في إحدى المرات أراد أن يأخذ جمجمة ميت من تحت كنيسة الثالوث. كان يسخر من كل شيء ودائما يتحدث عن فاينغر، لذلك قمنا بـ. . .أين هو؟ لا بد أن. قولي لي. لك السلام، ولكن فقط عندما. . . . يقوم مصنع خبز غرمانيا بعمل وردية ليل. أترين؟ من سيأكل الخبز؟ قول لي. ليسوا عمال دق المسامير، إنهم. إجلسي، أين؟»

لكن القميص المنير لم يرغب في الجلوس. تقف مرتفعة قدر شبرين من الأرض وتقول عبارة جاهزة: «Dona sei requiem قريبا ستصبح على ما يرام. ستتحول إلى العقيدة الحقة وستمثل في مسرح شفيرين. ولكن قبل أن تذهب إلى شفيرين سيقف كلب في طريقك ولكن لا تخف»

وأراد أن يتأكد وهو جالس على العمود: «كلب أسود»

وتقول هي وقد تعلقت في الهواء مثل بالون: «كلب من الجحيم»

يقول وقد تسمر في العمود: «هل هو لأسطى نجار؟»

وتقول هي معلمة إياه: «كيف يمكن لمثل هذا الكلب أن يكون ملكا لنجار، إن كان قد خلق للجحيم ورباه الشيطان.»

يتذكر: «كان إيدي يسميه بلوتو ولكن من قبيل الدعابة.»

تشير هي بالسبابة: «سيقف في طريقك!»

يقول محاولا التملص من المهمة: «أرسلي له حمى الكلاب.»

تنصحه: «السم موجود في كل الصيدليات.»

يريد أن يبتزها: «ولكن يجب أن تقولي لي أولا أين إيدي. . .»

كلمتها الختامية هي: «آمين!»

أنا الواقف في عربة البضائع أعرف أكثر من الاثنين: إنه يدخن السجائر وله اسم آخر.

عزيزتي تولا،

غالبا أخذت العذراء مريم عند ذهابها إلى البيت المعدية إلى ميلشبيتر بجانب مصلحة الغاز وعبر فالتر ماتيرن معي على البرابانك. لقد أصبح بالطبع أكثر كاثوليكية من ذي قبل: بل وشرب الفرموت الرخيص لأن عرقي القمح والعرعر لم يعودا يؤثران فيه. يجوز أنه قد تحدث مرتين أو ثلاث عن قرب إلى العذراء مريم وقد تضرست أسنانه من أثر النبيذ الحلو: على الجزيرة الصغيرة وبين مغالق الخشب على جانبي جسر البرايتنباخ أو كما هو معتاد على سد الشترودايش. ولم يتحدثا عن شيء جديد. أراد أن يعرف مكان شخص ما، وحرضته هي ضد الكلب: «في الماضي كانوا يستخدمون عين الغراب، لكن الصيدلي غرونكه صاحب الصيدلية في النوين ماركت لديه الآن كل أنواع السموم، الحامضية والتخديرية والمعفنة، مثلا: $O_3 As_2$ بودرة بيضاء ناصعة مستخلصة من المعادن، أو زرنيخ، ببساطة: سم الفئران، لو لم توفر في استخدامه يمكنك أن تقتل به كلبا أيضا.»

وهكذا أتى ماتيرن بعد انقطاع طويل إلى منزلنا. هذا لا يعني أنه توجه مباشرة مترنحا إلى حوش الورشة وزعق لأعلى تجاه السطح، لقد دق على باب فيلزنر-امبس وسقط بجسده مباشرة على الكنبة المتهالكة. صب له عازف البيانو الشاي وظل صامتا عندما بدأ ماتيرن في سؤاله: «أين هو الآن؟ يا رجل لا تتصنع أنك لا تعرف مكانه، لا يمكن أن يكون قد تبخر، أنت الوحيد الذي يمكنه أن يعرف مكانه. تكلم!»

أثناء وقوفي خلف النوافذ المواربة لم أكن واثقا إن كان عازف البيانو يعرف أكثر مني. هدده ماتيرن. كان يصر بأسنانه وهو جالس على الكنبة وأمسك امبس بكومة من النوتات الموسيقية. ترنح ماتيرن في الضوء الكهربي الأخضر لغرفة الموسيقى. ثم وضع يده في حوض السمكة الذهبية ورش حفنة من الماء على ورق الحائط المزركش بالزهور ولم يلحظ أنه لم يرش سوى الماء، لكنه أصاب راقصة البورسيلين، عندما أراد تحطيم الساعة الرملية الكبيرة بغليونه. سقطت الساق الواقفة أفقيا في وضع أرابيسك بعد انكسارها على نوتات الموسيقى الناعمة.

اعتذر ماتيرن ووعد بتحمل تكلفة ما خربه، لكن امبس لصق التمثال بالصمغ الذي يلصق كل شيء. أراد ماتيرن أن يساعده، لكن عازف البيانو وقف محنيا ورافضا وسط الحجرة. صب له مزيدا من الشاي وأعطاه صورا ليشاهدها: تقف جيني في وضع الأرابيسك مرتدية تنورة باليه منشاة، مثل راقصة البورسيلين ولكن بساق سليمة. وغالبا رأى ماتيرن أكثر مما في الصورة، لأنه غمغم بأشياء ليس لها علاقة بالحذاء الفضي وصاحبته في الصورة. الأسئلة المعتادة: «أين؟ من غير الممكن أن. . . . أن يذهب ولا يقول أي شيء. يتبخر. سألت عنه في كل مكان، حتى في حارة التيشلر وفي شيفنهورست. تزوجت هيدفيغ لاو في الآونة الأخيرة وقالت إنها قطعت كل صلاتها به. . .»

فتح ماتيرن نوافذ الغرفة المواربة عن آخرها واندفع خارجا عبر حافة النافذة ودفعني لأسقط بين شجيرات الليلك. وعندما وقفت على قدمي اقترب هو من نصف الدائرة المنبوشة التي تشير إلى طول سلسلة الكلب والتي تقيد كلبنا هاراس في النهار بالمخزن الخشبي.

كان هاراس ما يزال شرسا وأسود. فقط كانت هناك جزيرتان رماديتان فوق عينيه ولم يعد الفم يغلق جيدا. وبمجرد أن غادر فالتر ماتيرن حديقة الليلك الصغيرة، خرج هاراس من كوخه وشد السلسلة عن آخرها وصار عند طرف نصف الدائرة. جرؤ ماتيرن أن يتحرك مسافة متر واحد. لهث هاراس وبحث ماتيرن عن كلمة. ولكن المنشار القرصي أو المخرطة قد قطعا عليه الكلام. قال ماتيرن لكلب الرعاة، بعد أن وجد الكلمة التي يبحث عنها بين ضجيج المنشار القرصي والمخرطة وكأنه قد أخرجها من بطنه ولاكها وكأنها بقيت غير مهضومة بين أسنانه: «نازي!» قال لكلبنا هاراس: «نازي!»

عزيزتي تولا،

استمرت هذه الزيارة لمدة أسبوع أو أكثر. جلب ماتيرن معه الكلمة، وقف هاراس مشدودا، لأنه كان مربوطا إلى المخزن الخشبي الذي اختبأنا فيه، أنتِ وأنا وأحيانا جيني التي لم تعد تحتاج إلى مكان كبير. كنا ننظر بأعين ضيقة من خلف الثقوب راكعين. وفي الخارج ركع ماتيرن على ركبتيه مثل كلب. رأس الميت مقابل جمجمة الكلب وبينهما فراغ يعادل حجم رأس طفل. من ناحية صدرت زمجرة تعلو وتهبط لكنها مكتومة، وعلى الجانب الآخر كان هناك صرير أقرب إلى

صرير رمل البحر منه إلى صرير الحصى، ثم صدرت كلمة: «نازي، نازي، نازي، نازي!» في تتابع سريع.

لحسن الحظ أن أحدا لم يسمع هذه الكلمة المضغوطة سوانا نحن المختبئون في المخزن الخشبي. لكن كانت نوافذ البيت المطلة على الحوش مليئة بالمتفرجين. تناقل الجيران من نافذة إلى نافذة خبر مجيء ماتيرن قائلين: «ها هو الممثل قد جاء ثانية». أراد أوغست بوكريفكه طرده من الحوش لكن أسطى الماكينات قال له إنه لا شأن له بذلك.

كان على أبي الأسطى النجار أن يمضي عبر الحوش. وضع إحدى يديه في جيبه وأنا واثق أنه قد خبأ في جيبه إحدى الأجنات. ظل واقفا وراء ماتيرن ووضع يده الخالية على كتفه ثم قال لماتيرن بصوت عال حتى يسمعه كل الواقفين خلف نوافذ البيت وكل العمال الواقفين خلف نوافذ الورشة: «اترك الكلب في حاله فورا واذهب. أنت مخمور، لا بد أن تخجل من نفسك»

لم يكن ماتيرن الذي أوقفه أبي على قدميه بقبضة الأسطى النجار، ليفوت فرصة النظر في عيني أبي بغموض وتهديد على طريقة الممثلين الفجة. كان لأبي عينان فاتحتان ومدورتان، انطفأت إزاءهما نظرة ماتيرن. «حملق كما تشاء، هذا هو باب الحوش!» لكن ماتيرن اتجه عبر حديقة الليلك الصغيرة إلى حجرة الموسيقى الخاصة بفيلزنر-إمبس.

وذات مرة، لم يغادر فيها ماتيرن الحوش عبر منزل عازف البيانو، قال لوالدي من خارج الحوش «كلبك مصاب بحمى الكلاب، هل لاحظت ذلك؟»

رد أبي والأجنة في جيبه: «هذا شأني أنا، والكلب ليس مصابا بالحمى، أنت سكران ولا نريد أن نراك هنا مرة أخرى.»

صاح عمال الورشة الواقفون خلف أبي مهددين بموازين الماء وآلات المثقاب اليدوي. مع ذلك طلب أبي الطبيب البيطري: هاراس لم يكن مصابا بالحمى. فليس هناك مخاط ينز من العين أو الأنف وليس هناك ما يعكر صفو نظرته. ولا يتقيأ بعد تناول الطعام، مع ذلك أعطيناه عقارا من الخميرة: «من يعرف، ربما...»

عزيزتي تولا،

انتهى الموسم المسرحي السابع والثلاثون-الثامن والثلاثون وقالت لنا جيني:

«الآن هو في مسرح شفيرين». لكنه لم يبق في شفيرين لمدة طويلة، بل ذهب أيضا إلى دوسلدورف على نهر الراين، عرفنا ذلك من جيني أيضا. ولأنهم فصلوه في شفيرين فصلا نهائيا، لم يعد بإمكانه أن يعمل في أي مسرح آخر سواء في دوسلدورف أو في أي مكان آخر. قالت جيني «إن مثل هذه الأخبار تنتشر في كل مكان». بعد ذلك كتب لها في الخطاب التالي أنه يعمل بالإذاعة كمذيع ببرامج الأطفال وأنه قد خطب فتاة، ولكن العلاقة لن تستمر طويلا. لكنه لا يعرف أين يختبأ أمزل، لكنه متأكد أنه في مكان ما. والآن لا يعاني كثيرا من إدمان الخمور، لقد عاد إلى الرياضة: يمارس الهوكي وكرة القبضة أيضا، كما كان الحال في مايو الماضي. يلتقي بأصدقاء معظمهم من. . . . السابقين الذين ضجروا. ولكنه يرى أن الكاثوليكية خراء - كما كتب لها في الخطاب - لقد تعرف على عدة وعاظ في نويس وماريا لاخ، ووجد أنهم يثيرون الغثيان في النفس، ربما ستقوم الحرب قريبا، ثم أراد ماتيرن أن يعرف ما إذا كان الكلب الأسود ما يزال على قيد الحياة - لكن فيلزنر-إمبس لم يجب عليه.

عزيزتي تولا،

ثم أتى ماتيرن شخصيا بالقطار إلى لانغفور ليتأكد ما إذا كان هاراس ما يزال حيا أم مات. فجأة وقف في حوش ورشتنا في هندام جيد بصورة طبيعية وكأن شهورا لم تمض على زيارته الأخيرة: كان يرتدي بدلة من قماش إنجليزي وقد علق قرنفلة حمراء في عروة الجاكت، بشعر قصير ومخمور. تخلص من حذره في القطار أو في أي مكان آخر. لم يركع أمام هاراس على ركبتيه، ولم يعد يغمغم أو يصرصر بالكلمة، بل زعق في الحوش. ولم يعن هاراس وحده. تحشرج الكلام في حلوق الجيران الواقفين في النافذة وفي حلوق عمال ورشتنا وأسطى الماكينات وأبي. لذلك اختفوا في شققهم المكونة من غرفتين ونصف. أغلق العمال رتاج أبواب الورشة. قام أسطى الماكينات بتشغيل المنشار القرصي. وعمل أبي على المخرطة. لم يرد أحد أن يسمع ما يقوله ماتيرن. قلب أوغست بوكريفكه غراء الخشب.

لأن ماتيرن قال لهاراس الذي ظل وحده أمامه: «أيها الخنزير الكاثوليكي الأسود!» وطفحت كلماته كنشيد وطني: «أيها الخنزير النازي الكاثوليكي! سأصنع منك كفتة كلاب. أيها الدومينيكاني، أيها الكلب المسيحي، اثنتان

وعشرين سنة من سنوات الكلاب هي عمري، ولم أفعل ما يؤهلني للخلود. . . مهلا مهلا!»

أمسك فيلزنر-إمبس بالشاب الذي أخذ يزعق في وجه المنشار القرصي والمخرطة من كمه وأخذه معه إلى حجرة الموسيقى وصب له شايا.

قام كثيرون في البيوت وفي الورشة وصالة الماكينات بصياغة بلاغات للبوليس، لكن لم يش به أحد.

عزيزتي تولا،

ظل فالتر ماتيرن محبوسا على ذمة التحقيق في قبو رئاسة شرطة دوسلدورف من مايو عام تسعة وثلاثين إلى السابع عشر من يونيو عام تسعة وثلاثين.

لم تثرثر جيني لنا بذلك من قبيل القيل والقال، بل توصلت أنا لذلك من خلال بحثي في الملفات.

ورقد لمدة أسبوعين في مستشفى ماريا بالقرب من دوسلدورف، لأن بعضا من ضلوعه قد تكسرت في رئاسة الشرطة. ولزم عليه أن يرتدي رباطا لمدة طويلة وتوجب عليه ألا يضحك ولم يكن ذلك أمرا صعبا عليه. لكنهم لم يحطموا له ولو سناً واحدة.

لم أكن بحاجة إلى التحري عن التفاصيل، فهذه التفاصيل كتبها ماتيرن - طبعا مع عدم ذكر رئاسة الشرطة - على بطاقة بريدية عليها صورة كنيسة لامبرتوس بدوسلدورف.

ولم يكن متلقي الرسالة هو عازف البيانو فيلزنر-إمبس، بل الأستاذ أوزفالد برونيس.

من هو السبب في دخول ماتيرن إلى الحبس؟

لم يقدم مدير مسرح مدينة شفيرين أي بلاغ ضده. فلم يفصله بسبب عدم الثقة السياسية، بل بسبب السكر الدائم. لم أتوصل إلى هذه المعلومات بسهولة بل كان علي التحري كثيرا لأعرفها.

لماذا بقي فالتر ماتيرن في السجن الاحتياطي لمدة خمسة أسابيع فقط، ولماذا حطموا له بعض الضلوع ولم يحطموا أسنانه؟ لو لم يتطوع للخدمة العسكرية لما خرج من سجن الاحتياط: لقد أنقذه جواز مدينة دانتسيغ الحرة الذي يحمله. لقد أرسلوه إلى مدينته بالملابس المدنية ولكن مع أمر استدعاء للخدمة العسكرية ورد

فيه أن ضلوعه ما تزال تؤلمه. وهناك قدم نفسه لوحدة شرطة لانغفور-هوخشتريس. كان على ماتيرن ومئات آخرين من المدنيين من الرايخ أن يأكلوا لمدة ثمانية أسابيع كاملة من يمك الجيش قبل أن يرتدوا الزي العسكري. لم يكن أوان الحرب قد حان بعد.

عزيزتي تولا،

في أغسطس عام ١٩٣٩ رست سفينتا القوات البحرية أمام فيستربلاته. وقامت ورشتنا بإنتاج قطع جاهزة لعنابر الجيش وأسرة متعددة الطوابق. وفي السابع والعشرين من أغسطس كانت نهاية كلبنا هاراس. لقد قام أحدهم بتسميمه: لأن هاراس لم يصب بحمى الكلاب. فالتر ماتيرن الذي قال: «إن الكلاب مصاب بحمى الكلاب» أعطاه زرنيخا: سم فئران.

عزيزتي تولا،

كان بإمكاننا، أنا وأنتِ أن نشهد ضده. كان ذلك في ليلة يوم أحد: كنا جالسين في المخزن الخشبي، مخبئك. كيف أمكنك الحفاظ على عشك رغم الخروج والدخول الدائم للألواح الخشب الطويلة والمربعة وألواح الأبلكاش؟

ربما يعرف أوغست بوكريفكه مخبأ ابنته. إنه الوحيد الذي يبقى أثناء نقل الخشب داخل المخزن ويدير عملية إدخال الأخشاب الطويلة ويعمل على عدم سد مخبأ ابنته بألواح الخشب المرصوصة بإحكام بعضها فوق بعض. ولا أحد يجرؤ أن يمس مكانها أثناء الجرد، ولا حتى هو، لا أحد يجرؤ على وضع باروكات نشارة الخشب الخاصة بها فوق رأسه أو أن ينام في سريرها المصنوع من نشارة الخشب ويغطي نفسها بها.

جلسنا بعد العشاء في المخزن الخشبي. وكنا نريد أن نأخذ جيني معنا، لكن جيني كانت متعبة ونحن نتفهم ذلك جيدا، فعليها أن تنام مبكرا بعد تدريب الباليه والبروفه في العصر، لأن لديها بروفة يوميا حتى يوم الأحد. إنهم يدرسون باليه «العروس المباعة» وفي هذا العرض هناك رقصات بوهيمية كثيرة.

نجلس إذن سويا في المخزن الخشبي ونلعب لعبة الصمت. كسبتني تولا أربع مرات. قام أوغست بوكريفكه في الخارج بفك السلسلة عن هاراس. أخذ هاراس يحك طويلا في جدار المخزن الخشبي ونهنه بصوت خفيض يريد الدخول إلينا: لكننا أردنا أن نبقى وحدنا. أشعلت تولا شمعة ووضعت باروكة من نشارة

الخشب فوق شعرها. كانت يداها المحيطتان بلهب الشمعة مصنوعتين من الرقائق الجلدية. جلست في كرسي الخياط خلف الشمعة وحركت رأسها بباروكة نشارة الخشب فوق اللهب. قلت لها عدة مرات: «كفي عن ذلك يا تولا» كي تتمكن من الاستمرار في لعبتها الملتهبة الجافة. ذات مرة طقطقت نشارة خشب هشة من أثر اللهب لكن حريقا كبيرا لم ينشب في المخزن الخشبي ليهدي خبرا للصحف المحلية بعنوان: أضرار جمة بورشة نجارة في لانغفور.

الآن تنزع تولا الباروكة عن نفسها وعلي أنا أن أرقد في سرير نشارة الخشب. وتغطيني هي بغطاء من النشارة ذات اللفات الطويلة جدا والتي نشرها له العامل فيشفينسكي من الخشب الطويل. أنا مريض وعلي أن أشعر بتوعك. في الحقيقة أنني كبرت على هذه اللعبة، لكنها تحب ممارسة دور الطبيب وأحيانا استمتع بأن أكون مريضا. أتحدث بصوت مبحوح: «يا دكتور، أنا أشعر أنني مريض.»

«لا أعتقد ذلك.»

«يا دكتور، في كل أنحاء جسمي.»

«أين؟»

«في كل جسمي، يا دكتور، في كل جسمي.»

«هل هو الطحال هذه المرة؟»

«الطحال والقلب والكلى.»

تقول تولا وقد وضعت يدها تحت غطاء نشارة الخشب: «إذن فأنت مريض بالسكر»

وعلي الآن أن أقول: «وعندي أيضا حمى القضيب.»

وحينئذ تقرصني في حمامتي: «هنا، هل الألم هنا؟»

ووفقا لقواعد اللعبة يجب علي أن أصرخ لأنني أشعر بالألم.

والآن نلعب اللعبة نفسها مع تبديل الأدوار، تزحف تولا تحت غطاء نشارة الخشب ولأنها مريضة أقيس لها الحرارة بإدخال إصبعي الصغيرة في ثقبها. الآن انتهت هذه اللعبة أيضا. ثم نلعب مرتين لعبة النظر بعضنا إلى بعض دون أن نرمش. وتكسبني تولا أيضا. والآن نعاود لعبة الصمت لأنه لم تخطر لنا أية لعبة أخرى. تكسب تولا مرتين. ثم أكسب أنا لأن تولا تخرج من صمتها: بوجه

صارم يضيئه لهب الشمعة وعشر أصابع بلون أحمر فاتح، همست قائلة «هناك من يزحف فوق السطح، هل تسمع؟»

أطفئت الشمعة. سمعت طقطقة الورق المقوى المغطي لسطح المخزن الخشبي. يخطو شخص ما، غالبا بحذاء مطاطي فوق السطح في خطوات متقطعة. يزمجر هاراس. تتبع الخطوات الغطاء القطراني حتى حافة السطح. نتقدم أنا وتولا زاحفين في الاتجاه نفسه فوق الألواح الخشبية. إنه يقف بالضبط فوق كوخ الكلب. المكان الذي لدينا تحته بين السقف والألواح المرصوصة ضيق جدا. يجلس فوق مجرى المطر ويؤرجح ساقيه من فوق السطح. يزمجر هاراس في الدور السفلي. ونحن نتلصص عبر فتحات التهوية بين السطح وحافة المخزن الخشبي. باستطاعة يد تولا الصغيرة أن تمر عبر الفتحة وتقرصه في إحدى ساقيه. الآن يغمغم: «شاطر يا هاراس شاطر» ثم «شاطر/شاطر/شاطر، هدوء/هدوء/هدوء»، ونحن لا نرى شيئا سوى بنطلونه، لكن الظل الذي ألقاه ضوء القمر من خلفه على الحوش، أراهن أنه ظل فالتر ماتيرن.

وما يلقيه فالتر ماتيرن في الحوش عبارة عن لحم. وأزفر في أذن تولا قائلا «بالتأكيد مسمم» لكن تولا لم تحرك ساكنا. الآن يدفع هاراس قطعة اللحم بفمه، بينما يقوم ماتيرن بتحفيزه من أعلى: «كل يا هاراس، كل!» يمزق هاراس قطعة اللحم ويطوحها. إنه لا يريد التهامه بل يريد اللعب، رغم أنه كلب كبير في السن: عمره ثلاث عشرة سنة من سنوات الكلاب وبضعة شهور.

قالت تولا من وراء الفتحة الموجودة بين السطح وحائط المخزن، بصوت لم يكن خفيضا بل بنبرة معتادة: «هاراس! كل يا هارس، كل!» في البداية مال هاراس برأسه ثم بدا يلتهم: قطعة وراء قطعة.

صر الحذاء المطاطي فوق السطح مهرولا باتجاه الأحواش المجاورة. أراهن أنه كان ماتيرن. اليوم أعرف: لقد كان هو الفاعل.

عزيزتي تولا،

دخلنا البيت بمفاتيحك. كان هاراس ما يزال مشغولا باللحم ولم يتقافز وراءنا كعادته. في بئر السلم نفضت عن ملابسي نشارة الخشب وثبتك: «لماذا تركت هاراس يأكل من اللحم؟ لماذا؟» صعدت السلم قبلي: «لم يكن ليسمع كلام ماتيرن، أليس كذلك؟»

قلت وأنا على بعد عشر درجات منك: «ولو كان في اللحم سم؟»
وصلت أنت لدور أعلى قلت: «سيصير كسيحا»
قلت أنا مستندا إلى درابزين السلم: «ولكن لماذا؟»
ضحكت تولا من أنفها واختفت وهي تقول «بدون لماذا!»

عزيزتي تولا،

أيقظني أبي في الصباح التالي، لقد نمت خالي البال ودون أية أحلام. كان يبكي بحق وقال: «مات كلبنا الطيب هاراس.» استطعت أنا أيضا أن أبكي وارتديت ملابسي بسرعة. أتى الطبيب البيطري وكتب شهادة: «يا للخسارة، لقد كان للكلب أن يعيش ثلاث سنوات أخرى.»

ونطقت أمي بالحقيقة: «ألا يمكن أن يكون الممثل الشيوعي الذي يأتي دائما للحوش هو الذي فعلها» وبالطبع بكت أثناء ذلك. وتشكك أحدهم في فيلزنر-إمبس.

كان قبر هاراس في مقبرة كلاب الشرطة بين بيلونكن وبرنتاو وكنا نزوره بانتظام. قدم أبي بلاغا اتهم فيه فالتر ماتيرن وعازف البيانو. تم استجواب إمبس، لكنه كان في هذا الوقت مع الأستاذ برونيس، كانا يلعبان الشطرنج ويقيمان أحجار الميكا وشربا زجاجتين من نبيذ الموزل. ولم يثبت شيء على فالتر ماتيرن الذي استطاع أيضا تقديم دليل على تواجده في مكان آخر أثناء وقوع الجريمة. وبعد ذلك بيومين بدأت الحرب في دانتسيغ ولانغفور وفي مناطق أخرى. ذهب فالتر ماتيرن مع الجيش إلى بولندا.

لم تكن لك أنت هذه الحظوة يا تولا،

بينما كنت أنا على وشك أن أرى الفوهرر عن قرب. لقد أعلنوا عن قدومه بالطبل والزمر والتهليل. انطلقت القذائف من فوهات البنادق والمدافع والدبابات في أول سبتمبر. أخذني اثنان من عمال الورشة معهم إلى سطح بيتنا. لقد استعارا من محل بصريات زيمراو منظاراً. كانت الحرب مضحكة وقد خيبت توقعاتي، فلم أر سوى سحابات قطنية من الدخان فوق غابة أوليفا ولم أر أبدا أية انفجارات. ولم أصدق أن الأمر ليس مزاحا إلا بعد ظهور الطائرات المقاتلة فوق نويفارسر وبعد أن رأيت بالمنظار سحابة دخان هائلة عند فيستربلاته. ولكن عندما

اختلس النظر إلى شارع الإلزن وأعد ربات البيوت الذاهبات للتسوق والقطط والأطفال العابثين في ضوء الشمس، أتشكك ثانية، فيجوز أنهم يلعبون وغدا ستبدأ المدرسة من جديد.

لكن الضجيج كان هائلا. ومن المؤكد أن الطائرات الاثنتي عشرة المقاتلة التي ثنت قوائمها أثناء الطيران، كان بإمكانها أن تجعل صوت كلبنا هاراس يتحشرج، لكن هاراس مات. لم يمت بحمى الكلاب، لقد أعطاه أحدهم لحما مسمما. ذرف أبي دموع الرجال وترك سيجاره ينطفئ وهو عالق بفمه. وقف تائها وقد أمسك بقلم النجار على طاولة التصميم دون أن يفعل به شيئا ولم يواسه زحف قوات الرايخ الألماني، ولا حتى خبر استيلاء الألمان على ديرشاو وكونيتس وتوخل أي الكوشنايديراي، رغم أن زوجته وآل بوكريفكه أي كل الكوشنيفيين قد زمروا وهللوا فوق سطح البيت: «الآن استولوا على بيتسين وشلانغنتين وليشتناو وغراناو وزهيرسته فريدريش ودخلوا اوسترفيك منذ بضع ساعات!»

تلقى الأسطى النجار المواساة الحقيقية في الثالث من سبتمبر في صورة سائق موتوسيكل يرتدي الزي العسكري. كان محتوى رسالة المندوب كالتالي: إن الفوهرر ومستشار الرايخ موجود حاليا في مدينة دانتسيغ المحررة ويتمنى أن يقابل مواطني المدينة المكرمين، مثل الأسطى النجار فريدريش ليبناو الذي أنجب كلبه هاراس كلب الفوهرر برينتس. كذلك فإن الكلب برينتس موجود أيضا معه في دانتسيغ. على الأسطى النجار ليبناو أن يأتي إلى المنتجع العلاجي تسوبوت في الوقت المحدد وأن يتوجه إلى معاون قائد لواء فرق الحماية المسؤول فلان الفلاني. ليس من الضروري أن يحضر الكلب معه، لكن من الممكن إحضار أحد أفراد العائلة ويفضل إحضار طفل. يلزم إحضار البطاقة الشخصية. الملابس: إما زي الحزب أو ملابس خروج نظيفة.

اختار أبي بدلة يوم الأحد وفرد العائلة الذي سيصحبه كان يرتدي زي الشبيبة منذ ثلاثة أيام، حيث كان هناك عمل كثير للشبيبة في كل مكان. قامت أمي بتمشيط شعري حتى اقشعرت فروة شعري. الأب والابن في أحسن هيئة. وعندما غادرنا المنزل احتشد الجيران في بئر السلم. الوحيدة التي لم تكن موجودة كانت تولا: كانت تجمع مخلفات القنابل اليدوية في نويفارفاسر. وفي الخارج امتلأت النوافذ بالبشر الذين غمرهم الفضول والإعجاب. في بناية

الأكتسينهاوس المقابلة كانت هناك نافذة مفتوحة في منزل برونيس: لوحت جيني النحيلة مبتهجة، في حين أن الأستاذ برونيس لم يخرج إلى النافذة. لقد افتقدت وجهه المجعد كثيرا. حينما جلسنا في السيارة الحكومية خلف السائق الذي ارتدى الزي العسكري، ووصلنا بسرعة لنهاية شارع الإلزن وخلفنا وراءنا شارع ماريا والكلاينهامربارك وطريق الكاستانيا، ثم الشارع الرئيسي وطريق تسوبوت باتجاه تسوبوت، كنت أفتقد دائما ذاك الوجه ذا التجاعيد الألف.

كانت هذه هي رحلتي الأولى بالسيارة، إذ لم نأخذ في الحسبان ركوب الباصات. مال أبي ناحيتي وزعق في أذني قائلا: «هذه لحظة عظيمة في حياتك. افتح عينيك كي ترى كل شيء وتستطيع أن تحكي للآخرين فيما بعد ما رأيت.»

ظللت طول الوقت يقظا قدر ما أستطيع، بحيث جعلتني ريح السيارة المسرعة أدمع. وحتى يومنا هذا تنفتح عيناي عن آخرهما وتتبللان لأنني أروي حسب نصيحة أبي والسيد براوكسل ما ابتلعته بعيني المفتوحتين ورتبته في ذاكرتي: في الماضي كنت أخشى أن أنظر في عيني الفوهرر بعينين أعمتهما الدموع، واليوم أحاول قدر الإمكان ألا أتأمل الماضي بحدته وأزيائه العسكرية وأعلامه وشمسه وعرقه وكل ما كان له أهمية كبرى فيه وكان حقيقيا بعينين مغرورقتين.

تضاءلت أحجامنا عند نزولنا من السيارة الحكومية أمام منتجع تسوبوت العلاجي وفندق غراند هوتل. كانت حديقة المنتجع مغلقة ووراءها وقف الجمهور! وقد تحشرجت أصواتهم من الهتاف. على جانبي الطريق الواسع المفضي إلى الباب الرئيسي كانت هناك أكشاك حراسة. توقف السائق ثلاث مرات وأبرز أوراقه من نافذة السيارة. نسيت أن أحكي عن الأعلام التي رفرفت في الشوارع: حتى عندنا في شارع الإلزن كانت هناك أعلام طويلة وقصيرة عليها الصليب المعقوف. غرس الفقراء أو المقتصدون الذين لم يستطيعوا أو لم يريدوا شراء أعلام حقيقية، أعلاما ورقية في أصص الورود. ظل أحد حوامل الأعلام خاليا وتشكك في وضعية باقي الحوامل. لقد كان ملكا للأستاذ برونيس. لكنني أظن أن كل سكان تسوبوت قد علقوا الأعلام، أو بدا الأمر كذلك على الأقل. برز من النافذة المدورة لجملون فندق غراند هوتل ساري علم على الناحية اليمنى من واجهة الفندق ومنه هبط علم طويل من علو أربعة طوابق وكاد يطول البوابة الرئيسية وعليه الصليب المعقوف. كان العلم جديدا وساكنا لأن ناحية البوابة

الرئيسية كانت محمية من الرياح. لو كان لدي قرد على كتفي، لاستطاع أن يتسلق ساري العلم بعلو أربعة طوابق حتى يصل لنهاية العلم.

في صالة الفندق استقبلنا رجل عملاق يرتدي الزي العسكري وفوق رأسه طاقية عسكرية صغيرة جدا معوجة ومضغوطة فوق رأسه. قادنا عبر الصالة فوق سجادة أضنت ركبتي، هرج ومرج: أشخاص يأتون ويذهبون، ويتبادلون المواقع، يبلغون بعضهم بعضا، يقومون بالتسليم والاستلام: انتصارات كثيرة وأسرى بالآلاف. هناك سلم يقود إلى قبو الفندق. انفتح باب حديدي على اليد اليمنى. في مخبأ الغارات الجوية بالفندق انتظر كثير من المواطنين المكرمين. فتشونا للتأكد من عدم حملنا لأسلحة، وسمحوا لي أن احتفظ بمطواة الشبيبة النازية بعد أن قاموا بإجراء اتصال هاتفي. وكان على أبي أن يسلم المطواة التي كان يقطع بها حواف سيجاره الرخيص. كل المواطنين المكرمين ومن بينهم السيد ليب من أورا الذي كان يملك الكلبة تكلا من شودلكاو التي ماتت مؤخرا كذلك، حيث إن تكلا وهاراس أنجبا برينتس، وبعض السادة الذين يرتدون شارة الحزب الذهبية وأربعة أو خمسة أولاد يرتدون زي الشبيبة ولكنهم أكبر مني، كلنا جميعا وقفنا صامتين وأعددنا أنفسنا للقاء. رن التليفون عدة مرات «تمام يا أفندم، أمرك يا سيادة القائد، عُلم وسينفذ!»وبعد مرور عشر دقائق على تسليم أبي للمطواة، أُعيدت له مرة أخرى. بدأ المعاون العملاق كلامه قائلا «اسمعوني جميعا! ليس بإمكان الفوهرر استقبال أي شخص، حيث إن عليه أن يواجه مهام كبيرة وحاسمة. ومعنى ذلك أن نقف وراءه ونصمت، حيث تتكلم الأسلحة في كل مكان لصالحنا جميعا، لصالحك أنت وأنت ولصالح الجميع!»

وفي الحال بدأ توزيع بطاقات بريدية عليها صورة القائد بصورة روتينية. وجعلت التواقيع بخط الفوهرر شخصيا للبطاقات قيمة كبيرة. لقد حصلنا من قبل على بطاقة بريدية ممهورة بتوقيع الفوهرر، لكن البطاقة البريدية الثانية التي وضعناها في إطار مثل الأولى، كانت تعرض لفوهرر أكثر جدية من الأولى: لقد ارتدى زيا عسكريا رماديا ولم يرتدِ الملابس البافارية التقليدية.

تزاحموا خارجين من مخبأ الغارات الجوية، يخامرهم شعور ما بين الارتياح وخيبة الأمل، عندئذ تحدث أبي إلى المعاون القائم بالخدمة. لقد أعجبتني شجاعته، كان مشهورا بها في طائفة النجارين وفي غرفة الحرفيين. قدم أبي

للمعاون خطاب إدارة المقاطعة الذي اصفرّت أوراقه، والذي يعود إلى الزمن الذي كان فيه هاراس ما يزال قادرا على التعشير، وأعطى المعاون محاضرة قصيرة وموضوعية عن حكاية هذا الخطاب وما حدث قبله وبعده وشجرة سلالة هاراس- بركون، وسنتا، وبلوتو، وهاراس، وبرينتس. أظهر المعاون اهتماما. وختم والدي كلامه قائلا: «وبما أن الكلب برينتس موجود حاليا في تسوبوت، فأرجو السماح لنا برؤية الكلب». لقد سمحوا لنا بذلك وكذلك سمحوا للسيد ليب الذي وقف جانبا في خجل. في صالة الفندق أشار المعاون المسؤول إلى رجل عسكري ضخم الجثة أيضا وأعطاه بعض الأوامر. كان للعملاق الثاني وجه متسلقي الجبال وقال لنا: «اتبعوني !». تبعناه. سار السيد ليب بطرف حذائه فوق السجاجيد. عبرنا صالة بها اثنتا عشرة آلة كاتبة في حركة دائبة وتليفونات عديدة مشغولة. ثم سرنا في ممر لا يريد الانتهاء: تنفتح الأبواب. يأتي آخرون من الاتجاه المقابل. يحملون ملفات تحت إبطهم. نقف إلى جانب لكي يتمكنوا من المرور. في إحدى الردهات أحاطت ستة مقاعد بيضاوية بطاولة ثقيلة من خشب البلوط. اختبر الأسطى النجار خشب الآثاث بعينيه. خشب قشرة وخشب مطعم. ثلاثة حوائط عليها لوحات مؤطرة بأطر ضخمة تعرض لقطع من الفاكهة وطبيعة صامتة للصيد ومشاهد الفلاحين. والحائط الرابع زجاجي يكشف السماء الصافية. نرى الحديقة الشتوية لغراند هوتل: نباتات مجنونة، غير معقولة، ومحرمة: قد يكون لها عطر نفاذ لكننا لا نشم شيئا عبر الزجاج. ووسط الحديقة الشتوية يجلس رجل يرتدي الزي العسكري، يبدو عليه الإعياء، غالبا من نفاذية العطر، وإذا ما قورن بالعملاق الذي يصحبنا، يعد قصيرا. وعند قدميه يعبث كلب رعاة يافع بأصيص زرع متوسط الحجم، والنبات وهو عبارة عن شيء لونه أخضر ليفي يرقد بجذوره وطينه بجانب الأصيص. يدحرج كلب الرعاة الأصيص الفارغ ونعتقد أننا نسمع صوت الدحرجة. يدق العملاق الواقف بجوارنا بأصابعه على الزجاج. ينهض الكلب في الحال. يلتفت الحارس برأسه دون أن يحرك جذعه ويبتسم لنا وكأننا نعرفه من زمن ويريد أن يأتي إلينا، لكنه يعاود الجلوس. تتيح لنا الواجهة الزجاجية المطلة على الحديقة الشتوية منظرا رائعا: شرفة حديقة المنتجع والنافورة المعطلة والمرسى الذي يبدأ عريضا ثم يصير أضيق فاضيق، ثم يتسع في نهايته: أعلام كثيرة من النوعية نفسها، ولكن بدون

ناس، عدا في كشكي الحراسة. لايستطيع بحر الشرق أن يستقر على رأي: فتارة يكون أخضر وتارة رماديا ويحاول دون جدوى أن يكتسب لمعة زرقاء. لكن الكلب أسود. يقف على أربع منكسا رأسه. هذا هو بعينه كلبنا هاراس عندما كان صغيرا.

يقول أبي: «مثل كلبنا هاراس!»

وأقول أنا: «بالضبط مثل هاراس.»

يعلق السيد ليب: «لكنني أعتقد أنه قد ورث الكفل الطويل من كلبتي تكلا.»

ونقول أنا وأبي سويا: «هاراس كان له كفلا طويلا أيضا: كفل طويل منساب»

ويتعجب السيد ليب: «الشفتان تنضمان جافة بتماسك مثل كلبتي تكلا.»

الأب والابن: «كذلك فعل كلبنا هاراس، والحوافر تنغلق جيدا أيضا. والأذنان، تبدوان وكأنهما صبّتا صبّاً!»

لا يرى السيد ليب أمامه سوى كلبته تكلا. «أنا أظن- ربما أكون مخطئا- أن لكلب الفوهرر طول ذيل كلبتي تكلا نفسه.»

أتكلم أنا نيابة عن أبي: «هل نراهن على أن طول كلب الفوهرر حتى أعلى الظهر أربعة وستون سنتمترا؟»

دقّ أبي على الزجاج. نبح كلب الفوهرر قليلا. لو نبح هاراس لكانت له النبرة نفسها.

يريد أبي أن يسأل عبر الزجاج: «لوسمحت، هل من الممكن أن تقول لنا كم يبلغ طول برينتس حتى أعلى الظهر؟ بالسنتمتر؟ نعم حتى أعلى الظهر.»

يستطيع الرجل الجالس في الحديقة الشتوية أن يبلغنا بطول هاراس حتى أعلى الظهر. يظهر أصابعه العشر ست مرات ثم يعد على يده اليمنى أربع أصابع. يربت أبي بطيبة على كتف السيد ليب: «إنه ذكر على أي حال وعادة ما تكون الذكور أطول بمقدار أربعة أو خمسة سنتمترات.»

اتفق ثلاثتنا حول شعر الكلب الموجود في الحديقة الشتوية: شعره قصير وكل شعرة مستقيمة وثابتة: سوداء وخشنة.

أنا وأبي: «مثل كلبنا هاراس.»

والسيد ليب في ثقة: «مثل كلبتي تكلا.»

قال العملاق ذو الزي العسكري: «لا تظنوا أنكم ذوو شأن. فكل كلاب الرعاة متشابهة. والفوهرر عنده حظيرة كاملة مليئة بأشباه هذه الكلاب في ضيعة الجبل. هذه المرة أخذ معه هذا الكلب. وأحيانا يأخذ كلابا أخرى، كل مرة شيء آخر.»

يريد أبي أن يلقي عليه محاضرة عن كلبنا هاراس وتاريخه وحكايته، لكن العملاق يلوح بالرفض ويشير إلى الساعة.

يعاود كلب الفوهرر العبث بأصيص الزهور الفارغ، بينما أتجرأ أنا أثناء انصرافنا على الطرق على الزجاج: لا يستجيب الكلب ولا حتى برفع رأسه. ويحبذ الرجل الجالس في الحديقة الشتوية أن ينظر تجاه بحر الشرق.

عدنا على السجاد الوثير، مارين بلوحات الفاكهة ومشاهد الفلاحين ومشاهد الصيد الصامتة: تلعق كلاب الصيد في الأرانب البرية والخنازير الوحشية الميتة. لم يكن بالصورة كلاب رعاة. تحسس أبي الأثاث. الغرفة المكدسة بالآلات الكاتبة والتليفونات. لا سبيل للمرور إلى صالة الفندق. يمسك أبي بيدي. كان جديرا به أيضا أن يأخذ السيد ليب من يده أيضا: فدائما ما يعاود المارة ضربه بأكتافهم. يترنح سائقو موتوسيكلات بمعاطف ترابية اللون وخوذات وسط الأزياء العسكرية المضبوطة. إنهم مراسلون يحملون أخبار الانتصارات في حقائبهم. هل سقطت مودلين في أيدينا؟ يسلم المراسلون ما في حقائبهم ويتهاوون على المقاعد الواسعة. يشعل لهم الضباط السجائر ويتحدثون معهم أثناء ذلك. يدفعنا العملاق عبر البوابة تحت العلم الذي له طول أربعة طوابق. ليس معي حتى الآن أي قرد يتسلق العلم. قادونا عبر كل الموانع ثم تركونا ننصرف. سألنا الناس المتجمهرون خلف الحواجز، إن كنا قد رأينا الفوهرر. هز أبي رأس الأسطى النجار بالنفي: «لا يا جماعة، لم نر الفوهرر ولكننا رأينا كلبه، إنه أسود، تماما مثلما كان كلبنا هاراس.»

عزيزتي بنت الخال تولا،

لم نعد إلى لانغفور بسيارة حكومية مكشوفة. ركبت مع أبي والسيد ليب ترام الضاحية. نزلت أنا وأبي أولا وبقي السيد ليب في الترام ووعدنا بالزيارة حينما تحين الفرصة. كان مخجلا لي أن نعود إلى شارع الإلزن سيرا على الأقدام. كان

يوما جميلا رغم ذلك: لقد عنونت موضوع التعبير الذي كتبته بناء على رغبة أبي بعد زيارة تسوبوت، وقدمته للأستاذ برونيس، بعنوان «أجمل يوم في حياتي.» وعندما صححه الأستاذ برونيس، قال لي من مكانه خلف المنصة: «رصد جيد، بل ومصيب أحيانا، ففي غراند هوتل هناك بعض اللوحات القيمة لمشاهد الصيد الصامتة والفواكه ومشاهد الفلاحين، وأغلبها من أعمال رواد هولنديين من القرن السابع عشر.»

لم يسمح لي بقراءة الموضوع أمام تلاميذ الفصل، أو بمعنى أصح ظل الأستاذ برونيس يتحدث عن مشاهد الصيد ومشاهد الفلاحين وعن تصوير مشاهد الحياة اليومية وعن فنانه المفضل بروفر. ثم عاد للحديث عن فندق غراند هوتل والمنتجع العلاجي وكازينو القمار - «والقاعة الحمراء تتميز بجمالها وطابعها الاحتفالي، وسوف ترقص جيني في هذه القاعة الحمراء.» وغمغم قائلا: «بمجرد ذهاب جماعة العسكر تلك التي تسيطر حاليا على المكان وتنتقل بضجيج أسلحتها وأهازيج نصرها إلى منتجع علاجي آخر، يريد مدير المنتجع بالتعاون مع مدير مسرح المدينة إقامة أمسية باليه قصيرة ومع ذلك متميزة.»

سأل أربعون تلميذا «هل سيسمح لنا أن نحضرها ونشاهدها؟»

قال الأستاذ برونيس حزينا من أجلنا، إن جيني سترقص أمام مجموعة محدودة من المدعوين «الأمسية لغرض خيري. وسيكون إيرادها لصالح معونة الشتاء. ستظهر جيني مرتين على المسرح، بل وستقوم بحركة Pas de Quatre الشهيرة ولكن طبعا بأسلوب مبسط للأطفال، ولكن مع ذلك فهي صعبة!»

عدت بكراسة التعبير إلى مكاني. «أجمل يوم في حياتي» صار ذكرى بعيدة جدا.

لا تولا ولا أنا،

لم يشهد أحد منا جيني وهي ترقص الباليه. ولكن لا بد أنها كانت جيدة، حيث إن شخصا جاء من برلين أراد أن يأخذها معه إلى برلين لترقص هناك. أُقيم العرض قبل أعياد الميلاد بقليل. وكان المشاهدون عبارة عن مشاهير الحزب المعتادين وقد حضر العرض كذلك علماء وفنانون ولفيف من كبار ضباط البحرية والطيران، وأيضا دبلوماسيون. قال برونيس إنه بعد نهاية التصفيق في آخر العرض أتى رجل أنيق وقبل وجنتي جيني وأراد أن يأخذها معه. قدم لبرونيس

بطاقة تعارف وقدم نفسه على أنه معلم الباليه الأول لفرقة الباليه الألماني ببرلين والتي حملت اسم «فرقة باليه القوة من خلال الفرح[١٢]» فيما سبق.

لكن الأستاذ برونيس رفض عرضه مواسيا إياه بأنه قد يقبله في وقت لاحق، فجيني ما تزال طفلة. وعليها أن تبقى في بيئتها المعتادة، المدرسة وبيت الوالد ومسرح المدينة القديم ومدام لارا، لعدة سنوات قادمة.

أقتربُ حينئذ من الأستاذ أوزفالد برونيس في حوش الفسحة. يمص هو ملبس السعال، وينقله في فمه يمينا ويسارا. أقول: «أستاذ برونيس، ما اسم معلم الباليه ذاك؟»

«لم يقل لي اسمه يا بني.»

«لكنك قلت إنه قدم لك بطاقة تعارف؟!»

يصفق الأستاذ برونيس بيديه: «صحيح، هذه البطاقة! ولكن ماذا كان مكتوبا عليها؟ نسيت يا بني، نسيت!»

وأخمن أنا: «ألم يكن اسمه مثلا شتيبهون، أو شتبوتايت، أو شتيبانوفسكي؟»

يستمر الأستاذ برونيس في مص أقراص الملبس مستمتعا: «لا يا بني، ليس شيئا من هذا القبيل!»

أحاول مستخدما أسماء طيور أخرى: «يمكن اسمه شبيرلا أو شبيرلنسكي أو شبيربالا؟»

يقهقه الأستاذ برونيس: «خالفك الصواب يا بني، خالفك الصواب!»

أشم نفسي: «إذن فاسمه زوريوس أو تسوخل أو تسوخول أو تسيلينسكي، أو لو لم يكن كذلك، ولم يكن اسمه كريزين أو كروبكات، فلم يبق سوى اسم واحد.»

يحجل الأستاذ برونيس مبدلا ساقا بأخرى ويتقافز قرص الملبس فمه: «وهذا الاسم الأخير هو؟» الآن أهمس له بالاسم في أذنه. يتبدى الخوف في عينيه المظللة بحاجبين كثيفين. الآن أهدئ من روعه: «لقد سألت موظف استقبال فندق غراند هوتل وأخبرني باسمه.» رن جرس انتهاء الفسحة. أراد الأستاذ

---

(١٢) القوة من خلال الفرح هو الشعار الذي استخدمه النظام النازي ليكون اسما جامعا لكل النشاطات الترفيهية والثقافية. (مترجم).

برونيس مص قرص الملبس لكنه لم يعد يجده في تجويف فمه. الآن يأخذ قرصا آخر من جيب الجاكت ويقول لي وهو يعطيني أنا أيضا قرص من الملبس: «إنك شديد الفضول يا بني، شديد الفضول.»

عزيزتي بنت الخال تولا،

لقد احتفلنا بعيد ميلاد جيني الثالث عشر. كان على الاستاذ برونيس أن يحدد تاريخ ميلاد الطفلة اللقيطة: احتفلنا به في الثامن عشر من يناير- في هذا اليوم تم ترسيم ملك بروسيا قيصرا لألمانيا. كان الجو شتويا باردا في الخارج، لكن جيني تمنت لنفسها قنبلة آيس كريم. طلب الأستاذ برونيس الذي كان يعد أقراص الملبس بنفسه من الخباز كوشنيك إعداد قنبلة الآيس كريم بناء على وصفة برونيس الخاصة. كانت تلك هي أمنية جيني الدائمة: فإذا سألها أحد: «هل تريدين أن تأكلي شيئا؟ هل أحضر لك شيء. ماذا تتمنين كهدية في أعياد الميلاد المجيد أو في عيد ميلادك أوفي احتفالات عروض الافتتاح؟» كانت ترغب دائما في الآيس كريم، آيس كريم تلعقه وتأكله!

صحيح أننا كنا نحب أن نلعق الآيس كريم أيضا ولكن أمنياتنا في الهدايا كانت شيئا آخر. فتولا مثلا التي تصغر جيني بنصف عام كامل بدأت تتمنى إنجاب طفل. عند غزو بولندا لم تكن أثداء جيني وتولا قد بدأت في الظهور. ولم يطرأ على أثداء البنتين أي تغير إلا بعد غزو فرنسا وبعد بضعة أسابيع من تدمير مدينة دونكيرشن البلجيكية. لقد تحسستا بعضهما في المخزن الخشبي: في البدء بدا الأمر وكأن دبورا صغيرا لسع حلماتهما، ثم تلاه بعد ذلك دبور كبير. ظلت هذه التورمات باقية وحملتها تولا بثقة وجيني بتعجب.

وشيئا فشيئا أصبح علي أن أختار. في الواقع أنني كنت أفضل البقاء مع تولا. لكن بمجرد أن نبقى وحدنا في المخزن الخشبي، ترغب تولا في أن تحمل طفلا مني. لذا بقيت مع جيني التي لا تطلب مني أكثر من كوب من الآيس كريم بعشرة بفنيغات أو بخمسة وثلاثين بفنيغا لدى حلواني توسكاني الذائع الصيت. وقد حققت لها أكبر قدر من السعادة حينما اصطحبتها إلى قبو مصنع الثلج الكائن خلف حديقة الكلاينهامربارك بجانب بركة الأكتسين والتابع لمصنع بيرة أكتسين. كان القبو خارج السور الطوبي المدجج بشظايا الزجاج والذي يحيط بمبنى المصنع.

كان القبو مربعا وبركة الأكتسين مستديرة. وقفت الصفصافات وقد وضعت أقدامها في الماء. انسابت قناة الشتريس قادمة من هوخشتريس في البركة ومرت عبرها خارجة منها لتقسم لانغفور إلى قسمين، ثم تغادر لانغفور عند ليغشتريس وتصب عند طريق بروشك في الفايكسل الميت. في عام ١٢٩١م ورد ذكر قناة الشتريس "Fluuium Strzcye" لأول مرة باعتبارها نهيرا فاصلا بين ممتلكات دير أوليفا وباقي المدينة، وكان ذلك مدعوما بالوثائق. لم تكن قناة الشتريس عريضة ولا عميقة ولكنها كانت مليئة بطفيليات العلق. وكانت بركة الأكتسين مليئة أيضا بطفيليات العلق والضفادع الصغيرة ويرقانات الضفادع. أما عن أسماك بركة الأكتسين فسيأتي الحديث عنها لاحقا. حافظ البعوض على طنينه العالي فوق سطح البركة الأملس في معظم أجزائه ووقفت فراشات شفافة يتهددها الخطر. في الأوقات التي أتت تولا معنا فيها، كان علينا أن نجمع طفيليات العلق من قناة الشتريس المنسابة في إحدى علب المحفوظات. كان هناك كوخ صغير للبجع فوق طين الشاطئ، كان معوجا وآيلا للسقوط، برائحة عفنة. قبل عدة سنوات، كانت هناك بجعات ببركة الأكتسين لمدة موسم واحد، ثم نفقت، ولم يبق سوى الكوخ. في ظل حكم كل الحكومات، طالما ثارت زوابع في الصحف بشأن بركة الاكتسين سواء كان ذلك في صورة أعمدة مقالات طويلة أو في صورة خطابات قراء منزعجة: وكلهم يرون وجوب ردم البركة بسبب البعوض والبجعات النافقة. لكن مصنع بيرة أكتسين تبرع بشيء ما لدار المسنين البلدية ولم تُردم البركة. وأثناء الحرب لم يكن هناك أي خطر على البركة. لقد حصلت البركة على اسم آخر، فلم تعد تسمى بركة الأكتسين، بل بركة الإطفاء بجانب الكلاينهامربارك. لقد اكتشفها سلاح الدفاع الجو ي ووضعها في مخططه. أما كوخ البجع فلم يكن تابعا لمصنع البيرة ولا لسلاح الجو. كان كوخ البجع الذي يزيد فيه مساحته قليلا عن كوخ هاراس ملكا لتولا. كانت تقبع به عصاري كاملة. وكنا نناولها علبة المحفوظات بطفيليات العلق من الخارج. كانت تطلق طفيليات العلق وتضعها فوق بطنها وفوق ساقيها. كانت الطفيليات تمتص دمها وتنتفخ وتصبح زرقاء مسودة مثل الكدمات، ترتعش بخفة وتأخذ في التضاؤل، ثم تلقي بها تولا بوجه شاحب، وبمجرد امتلائها بالدم وسهولة نزعها، في علبة محفوظات أخرى.

كان علي أنا وجيني أيضا أن نضع على جسمينا طفيليات العلق: أنا ثلاث علقات وجيني علقة واحدة على الساعد وليس على الساق، لأن عليها أن ترقص. طبخت تولا علقاتنا وعلقاتها مع أوراق نباتات بنات النار المفرومة والماء على نار الحطب، حتى نضجت وتمزقت وحولت الحساء رغم ورقات بنات النار إلى لون بني مسود. وكان علينا أن نشرب هذا السائل المغلي الأسود. لأن العلقات المغلية كانت شيئا مقدسا عند تولا، وعندما كنا نرفض أن نشرب، كانت تقول: «كوهين وصاحبه كانا أخوين بالدم، كوهين قال لي هذا بنفسه». فكنا نشرب حتى الثمالة ونحس جميعا أننا أقارب.

لكن في إحدى المرات، كادت تولا تفسد علينا متعتنا. فبعدما طبخت السائل الأسود، أفزعت جيني قائلة: «لو شربنا الآن من السائل، فستحصل كل واحدة منا على طفل، منه هو». لكنني لم أرد أن أصبح أبا. وقالت جيني إن الوقت لم يزل مبكرا بالنسبة لها، فهي تريد أولا أن ترقص في برلين وفي كل مكان.

وذات مرة، عندما توترت الأمور بيني وبين تولا بسبب حكاية الحصول على طفل، أرغمت تولا جيني على وضع تسع علقات على جسمها داخل كوخ البجع: «لو لم تفعلي فسينزف أخي الأكبر الذي يحارب في فرنسا على الفور.» وضعت جيني العلقات التسع على كل جسمها وشحب لونها وأُغمي عليها. تبخرت تولا ونزعت أنا العلقات التسع عن جيني بكلتا يدي. انفجرت بعض العلقات وكان علي أن أقوم بغسل جيني. عادت إلى وعيها تحت الماء وظلت شاحبة بلا لون. وأرادت أن تعرف على الفور ما إذا كان أخو تولا زيغسموند بوكريفكه قد نجا من الموت في فرنسا أم لا.

قلت لها: «أكيد أنه قد نجا بصورة مؤقتة.»

قالت جيني المستعدة للتضحية: «فعلينا إذن أن نكرر ذلك كل عدة شهور.»

قلت لجيني موعيا إياها: «لقد قرأت أن لديهم الكثير من الدم المحفوظ.»

قالت جيني بقليل من الإحباط «فعلا!». جلسنا في الشمس بجانب كوخ البجع. انعكست واجهة قبو الثلج العريضة على سطح البركة الأملس.

أقول لك أنت يا تولا،

شيئا تعرفينه: كان قبو الثلج صندوقا بسطح منبسط. وكان مغطى من كل

الجوانب بالقطران. لم يكن للمبنى أية نوافذ. كان عبارة عن قطعة نرد سوداء ليس بها أي نقاط بيضاء. كنا نحملق فيه دائما. ليست له أي علاقة بالغول، ولكن من المحتمل أن يكون الغول قد وضعه هنا، رغم أنه ليس من الحديد الزهر بل من القطران وبرغم أن جيني لم تعد تخاف من الغول وتريد دائما الدخول إلى قبو الثلج. وعندما كانت تولا تقول: «أريد الحصول على طفل في الحال»، تقول جيني: «لدي رغبة ملحة في مشاهدة قبو الثلج من الداخل، هل تأتي معي؟» لم أرد تحقيق رغبة أي منهما، وليومنا هذا احتفظ بالإحساس نفسه.

كان لقبو الثلج رائحة تشبه رائحة كوخ الكلب الفارغ في حوش ورشتنا. مع الفارق أن سطح كوخ الكلب لم يكن مسطحا. وكانت رائحته في الأصل مختلفة تماما رغم القطران. كانت له رائحة هاراس. صحيح أن أبي الأسطى النجار لم يرد أن يأتي بكلب جديد، لكنه لم يحطم الكوخ إلى قطع صغيرة من الخشب. بل وكان يترك عمله ويقف أحيانا متسمرا أمام الكوخ لخمس دقائق كاملة، بينما يقف العمال منشغلين على نضد السحج وتقضم الماكينات في ألواح الخشب.

انعكست صورة مبنى قبو الثلج في بحيرة الأكتسين وأضفت كآبة على ماء البركة. رغم ذلك كانت هناك أسماك ببركة الأكتسين. جلس رجال كبار في السن يصطادون وهم يمضغون التبغ خلف شفاه متهدلة وقرب المساء كانوا يتحصلون على أسماك روّش في حجم كف اليد. وكانوا يلقون بها ثانية في الماء أو يعطوها لنا. لأن أسماك الروش لم تكن صالحة للأكل. كانت عفنة ولم تفقد شيئا من عفنها الحي حتى في الماء الجاري النظيف. حدث مرتين أن انتشلوا جثة من البركة. أعاق سد حديدي عند المخرج المؤدي إلى قناة الشتريس الخشب الطافي. وهناك طفت الجثتان: مرة كان رجلا كبيرا في السن ومرة أخرى ربة منزل من بيلونكن. في المرتين أتيت متأخرا جدا لمشاهدة الجثث. كانت لدي رغبة ملحة في رؤية جثة حقيقية، مثلما رغبت تولا في الحصول على طفل وجيني في دخول قبو الثلج. عند موت أي من أقاربنا بالكوشنايديراي، حيث إن لأمي خالات وبنات خالات هناك، كنا نصل دائما إلى أوسترفيك بعد إغلاق النعش. تدعي تولا أن هناك أطفالا صغارا مثقلين بأحجار مدفونين بقاع بركة الأكتسين. والحقيقة هي أن البركة كانت مكانا مثاليا لإغراق القطط والكلاب الصغيرة.

وأحيانا كانت تطفو قططا كبيرة مترهلة على سطح البركة ثم تعلق أخيرا بالسد ويصطادها حارس البركة اونهزورجه، الذي له اسم وزير بريد الرايخ نفسه، بواسطة خطاف. لكن ذلك لم يكن السبب في رائحة البركة الكريهة. الرائحة الكريهة كانت ناتجة عن صرف مصنع البيرة لمخلفاته في البركة. كانت هناك لوحة خشبية مكتوباً عليها «ممنوع السباحة». ولم نستحم فيها. لم يفعل ذلك سوى الأولاد من قرية الهنود الحمر وكانت لهم رائحة بيرة «أكتسين» حتى في الشتاء.

فقد كان ذلك هو اسم الحي الممتد وراء البركة وفيه سكن عمال الميناء بأطفالهم الكثيرين وأمهات يعشن بدون أزواج وعمال البناء الذين استقروا هناك. لقد توصلت إلى سر تسمية المنطقة السكنية بقرية الهنود الحمر: في الماضي سكن كثير من الاشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين هناك، وقد يكون الاسم قد تحور من «القرية الحمراء» إلى «قرية الهنود الحمر». عموما، لقد قُتل أحد عمال ميناء شيشاو بقرية الهنود الحمر عندما كان فالتر ماتيرن ما يزال من ضمن فرق الهجوم. وكتبت صحيفة «فوربوستن»: «جريمة قتل في قرية الهنود الحمر». لكنهم لم يتمكنوا من القبض على القتلة- كانوا في الغالب تسعة من الملثمين يرتدون معاطف شتوية.

لا حكايات تولا،

ولا حكايات بركة الأكتسين التي أعرف كثيرا منها وأمنع نفسي من الاستمرار في حكيها، يمكن لها أن تفوق حكايات قبو الثلج. فيقولون إن قتلة عامل ميناء شيشاو قد اختبأوا حينئذ في القبو وأنهم ما يزالون يقبعون هناك منذ ذلك الوقت ثمانية أو تسعة قتلة مثلجين في القبو شديد البرودة. ونحن كثيرون بأن إيدي أمزل المختفي موجود في قبو الثلج، أنا طبعا لم أشاركهم هذا الرأي. وهددت الأمهات أطفالهن بوضعهم في المكعب الثلجي الأسود، إن لم يتناولوا حساءهم. ويقال إن أم الصغير ماتسرات قد حبسته لعدة ساعات في قبو الثلج لأنه لم يرد أن يأكل. ومنذ ذاك الحين لا ينمو قيد أنملة.

ففي مبنى قبو الثلج يوجد شيء غامض. كان الباب القطراني يظل مفتوحا طالما أن عربات الثلج تقف أمامه لتحمل ألواح الثلج. وعندما كنا نقفز أمام الباب المفتوح إظهارا لجسارتنا، كان القبو ينفث برودته علينا فنضطر إلى الوقوف في الشمس. وأكثرنا خوفا كانت تولا التي لم تكن لتمر على باب مفتوح مرور

الكرام، كانت تخاف من قبو الثلج وكانت تختبئ عندما ترى الرجال الضخام المترنحين الذين يرتدون مرايل سوداء جلدية وتعلو وجوههم زرقة محمرة. أثناء سحب عمال قبو الثلج للألواح من القبو بعتلة حديدة، كانت جيني تذهب إليهم وترجوهم أن يسمحوا لها بلمس أحد الألواح. أحيانا كان يسمحون لها. فكانت تضع يدها على أحد الألواح حتى يرفع رجل مربع ضخم يدها عن اللوح ويقول: «هذا يكفي، أنت تريدين أن تلتصقي بالثلج أم ما الأمر؟».

بعد ذلك كان هناك فرنسيون بين عمال القبو. كانوا يحملون الألواح بالطريقة نفسها التي يحملها بها العمال المحليون وكانوا أيضا ضخاما مربعين ولهم الوجوه الزرقاء المحمرة نفسها. كانوا يطلقون عليهم اسم العمال الأجانب ولم نعرف ما إذا كان الحديث معهم مسموح أم لا. لكن جيني التي تعلمت الفرنسية في المدرسة، تحدثت إلى الفرنسيين:

"Bonjour Monsieur!"

كان رده مهذبا جدا: "Bonjour Mademoiselle."

انحنت جيني للتحية: "Pardon Monsieur, vous permettez, Monsieur, que j'entre pour quelques minutes?"

أشار الفرنسي مرحبا: "Avec plaisir, Mademoiselle"

انحنت جيني ثانية: "Merci Monsieur" وأمسك حمال الثلج الفرنسي بيدها واختفيا داخل القبو. لقد ابتلعهما القبو. ضحك العمال الآخرون وأطلقوا نكاتا عليهما.

أما نحن فلم نضحك، بل أخذنا نعد ببطء: «أربعة وعشرين، خمسة وعشرين.... لو لم تخرج بعد مائتين سنصرخ طالبين الغوث». عادت سالمة بعد عند مائة واثنين وتسعين ويدها في يد الفرنسي. وكانت تحمل في يدها اليسرى قطعة من الثلج، انحنت جيني مرة أخرى أمام حمال الثلج وذهبت معنا إلى حيث الشمس. كانت جيني تلعق قطعة الثلج بلسان شاحب وعرضت على تولا أن تلعق معها. لكن تولا لم ترد. لعقت أنا: هكذا يكون طعم الثلج البارد.

عزيزتي بنت الخال تولا،

عندما أغمي على جيني إثر طفيليات العلق التي وضعتها لها وعندما تشاجرنا لهذا السبب ولأنك كنت تريدين الحصول على طفل مني، وعندما ندر أن تأتي

معنا إلى بركة الأكتسين وعندما لم تعد لدي أنا وجيني أي رغبة في أن نزحف داخل المخزن الخشبي حيث تقبعين، عندما انقضى الصيف وبدأت المدارس، كنت أجلس مع جيني بين نبتات الشبت أمام أسوار حدائق قرية الهنود الحمر أو بجانب كوخ البجع وقمت بمساعدة جيني في مراقبة المكعب الأسود الخالي من النوافذ. لذلك بقي مبنى قبو الثلج الأسود أكثر وضوحا في ذاكرتي من مصنع البيرة الوجود خلف أشجار الكستناء. ربما بدا مبنى مصنع البيرة الضخم مثل قلعة خلف الأسوار الحجرية القاتمة اللون. وبالتأكيد كانت نوافذ مبنى الماكينات العالية ذات الزجاج المزخرف محاطة بطوب أملس. وعلت مدخنة المصنع الضخمة حي لانغفور من جميع الجهات. ما أريد أن أؤكد عليه، هو أن المدخنة قد ارتدت خوذة فارس معقدة التركيب. تتحكم الرياح بها وتتيح لدخانها الأسود أن يخرج. يتم تنظيفها مرتين في العام. وعندما أزر بعيني يتبدى لي مبنى إدارة المصنع جديدا بطوب أحمر فاتح عبر السور المدجج بشظايا الزجاج. وأظن أنه كانت هناك عربات يجرها حصانان بعجلات مطاطية، تخرج بانتظام من حوش المصنع. كانت الأحصنة بلجيكية سمينة بذيول قصيرة. كان حوذي العربة والجالس بجانبه يرتديان المرايل الجلدية السوداء وتعلو وجهيهما زرقة محمرة والسوط كان في الجراب. يضعان دفتر التوريد ومحفظة النقود خلف المريلة. ويمضغون التبغ أثناء السير العربة. زينت ألجمة الخيل أزرار معدنية. اهتزاز وصليل صناديق البيرة عند تعثر العربة في العتبة الحديدية لبوابة المصنع. فوق الباب كتبت حروف معدنية في شكل قوس: .D.A.B. مصنع بيرة أكتسين الألمانية. ضجيج مبلل، صوت غسيل الزجاجات. تنطلق صفارة في الثانية عشرة ونصف وفي الواحدة تتكرر الصفارة، إكسيلوفون غسيل الزجاجات: انتهى هذا اللحن، لكن الرائحة ظلت باقية.

عندما تحرك ريح الشرق الخوذة الموجودة فوق مدخنة مصنع البيرة وتطوح بالدخان الأسود فوق أشجار الكستناء وبركة الأكتسين ومبنى قبو الثلج وقرية الهنود الحمر باتجاه المطار، كانت تخلف رائحة حمضية بالمنطقة: خميرة شبعت تخمرا، تخرج من قدور نحاسية: بأنواع البيرة المختلفة. بالإضافة للمجاري. رغم أنهم قالوا دائما إنهم يصرفون في مكان آخر، اختلط صرف مصنع البيرة بماء البركة حتى أصبح حامضا وله رائحة كريهة. لذلك كنا نشرب حساء بيرة مر،

عند شربنا لحساء علق تولا. ومن دهس ضفدع الطين بقدميه، كأنه قد فتح مباشرة زجاجة من البيرة الداكنة. وعندما ألقى إلي أحد ماضغي التبغ بسمكة روش بحجم كف اليد، وفتحت السمكة بجانب كوخ البجع كان كبدها وطحالها وباقي أحشائها عبارة عن ملبس سعال محروق. وعندما شويتها فوق هسيس النار، انتفخت من أجل جيني كالخميرة ونضجت واستوت وكان طعمها مثل مياه مخلل الخيار من العام الماضي. لقد حشوتها بكثير من الشبت. لم تأكل جيني من لحم السمكة إلا قليلا.

لكن عندما أتت الرياح من جهة المطار ودفعت البخار فوق البركة والدخان الخارج من المدخنة باتجاه كلاينهامربارك ومحطة سكك حديد لانغفور، وقفت جيني، حولت نظرها عن المكعب القطراني المملوء بالثلج وقامت بخفة بعمل خطوات راقصة معدودة وسط نبتات الشبت. لقد كانت تزن نصف وزنها أثناء رقص الباليه. ختمت رقصتها بقفزة وانحناءة رشيقة وكان علي أن أصفق لها كما في المسرح. وأحيانا كنت أهديها باقة من الشبت، ألف أعوادها بحلقة مطاطية من تلك المستخدمة لإحكام إغلاق زجاجات البيرة. تلك الزهور الحمراء دائما التي لا تذبل أبدا كانت تسبح فوق بركة الأكتسين صانعة جزيرة وكنا نجمعها: لقد جمعت ما بين غزو بولندا والاستيلاء على جزيرة كريت حوالي ٢٠٠٠ حلقة مطاطية وكنت أحس أثناء عدها بغناي. وفي إحدى المرات صنعت لجيني عقدا من الحلقات المطاطية، كانت ترتديه وكأنه زينة أصلية، وكنت أخجل بسبب ارتدائها له أمام الناس: «يجب ألا ترتديه في الشارع، البسيه فقط عند البركة أو في البيت.»

لكن العقد لم يكن رخيصا بالنسبة لجيني: «أنا متمسكة به لأنك صنعته بنفسك، يعني له قيمة خاصة.»

لم يكن العقد قبيحا. لقد صنعته لتولا، لكن تولا كانت سترميه. عندما ترقص جيني بين نباتات الشبت يبدو العقد أنيقا. وبعد الرقص كانت تقول دائما. «أنا الآن متعبة» وكانت تمر بنظرها على مبنى قبو الثلج: «علي أن أقوم بعمل واجباتي المدرسية وغدا عندنا بروفة وبعد غد أيضا.»

جربت أن أسأل وقد أعطيت ظهري للبركة: «هل سمعت شيئا من مدرب الباليه ببرلين؟»

أعطتني جيني معلومات: «السيد هازيلوف قد أرسل بطاقة بريدية من باريس قبل وقت قصير. وكتب لي أن علي أن أتدرب على فرد القدم.»

أردت مزيدا من المعلومات: «كيف هو ذاك السيد هازيلوف؟»

تعاتبني جيني بلطف: «ولكنك سألتني هذا السؤال أكثر من عشر مرات. إنه رشيق وأنيق ويدخن دائما سجائر طويلة- ولا يضحك أبدا، أو في أحسن الأحوال يضحك بعينيه.»

وكررت نفسي متعمدا: «وعندما يضحك بالفم أو يتحدث؟»

تقولها جيني: «يبدو ذلك غريبا وغير معتاد، لأنه حين يتحدث يظهر فمه مليئا بالأسنان الذهبية.»

وأقول أنا: «صحيح؟»

جيني: «لا أعرف.»

أنا: «اسأليه!»

جيني: «أنا سأحرج، غالبا ستكون من ذهب مزيف.»

أنا: «عقدك أيضا من حلقات المطاط»

جيني: «إذن سأكتب له وأسأله عن ذلك.»

أنا: «هل ستكتبين له اليوم؟»

جيني: «اليوم سأكون منهكة»

أنا: «إذن غدا.»

جيني: «كيف يمكن لي أن أسأل؟»

أملي عليها ما تكتبه: «اكتبي: ما أريد أن أعرفه أيضا يا سيد هازيلوف، إن كانت أسنانك الذهبية حقيقية؟ وهل كان عندك أسنان أخرى من قبل؟ ولو كانت عندك أسنان أخرى، أين ذهبت؟»

كتبت جيني هذا الخطاب وأجاب السيد هازيلوف بالبريد: الذهب أصلي وفي الماضي كان عنده أسنان بيضاء صغيرة، اثنتان وثلاثون سنّاً، رماها وراء ظهره وسط الحشائش وجلب لنفسه أسنانا جديدة من الذهب. وكان ثمنهما أغلى من ٣٢ زوجاً من أحذية الباليه.

قلت لجيني: «الآن أنظري كم هو عدد حلقات المطاط في عقدك.»

عدت جيني ولم تفهم: «يا لها من مصادفة، اثنتان وثلاثون بالضبط!»
عزيزتي تولا،
كان لا بد لك أن تقتربي مني ثانية بساقيك المخدوشتين.
في نهاية سبتمبر، برزت عشبات الشبت واصفرت وكان بالبركة أمواج قصيرة تصل إلى ضفتها برغاوي صابونية، في نهاية سبتمبر جاءت تولا.
قذفت بها قرية الهنود الحمر من وسط سبعة أو ثمانية صبية وكان أحدهم يدخن الغليون. وقف وراء تولا كحاجز للرياح وأعطاها الغليون. دخنت في صمت. اقتربوا عبر طريق ملتو ونظروا حولهم ثم نظروا إلينا أثناء مرورهم ثم استداروا واختفوا خلف أسوار وعشش قرية الهنود الحمر.
وذات مرة في إحدى الليالي - كانت الشمس وراء ظهورنا وبقيت خوذة مدخنة مصنع البيرة على الرأس الدامي لفارس ينزف - جاؤوا محاذين لمبنى قبو الثلج ومشوا وسط نباتات بنات النار مشية الإوزة بطول الحائط الأمامي المدهون بالقطران. وسط عشبات الشبت توزعوا بعض الشيء. ناولت تولا الغليون لأحدهم على يسارها وقالت للبعوض: «لقد نسوا أن يغلقوا، ألا تريدين الدخول يا جيني لكي تري المكان بالداخل؟»
جيني كانت ودودة جدا ومهذبة دائما: «لا، الوقت متأخر وأنا متعبة، غدا عندنا لغة إنجليزية وأثناء التمرين لازم أكون في صحة ونشاط.»
كان الغليون قد عاد إلى حوزة تولا: «طيب كما تريدين، إذن نروح للخفير نقول له يقفل»
لكن جيني وقفت وكان علي أن أنهض: «لن تذهبي معهم. بالإضافة إلى أنك قلت إنك متعبة.» لم تعد جيني متعبة وأرادت فقط أن تلقي نظرة سريعة على القبو من الداخل: «أرجوك يا هاري، المكان بالداخل مثير جدا.»
بقيت بجوارها ومشيت بين نباتات بنات النار. تقدمتنا تولا وجاء الآخرون وراءنا. أشارت إبهام تولا إلى الباب القطراني: كان مواربا وخرج منه قليل من الهواء. كان علي أن أقول: «لكنك لن تذهبي وحدك.» وقالت جيني بأدب وهي تقف في الشق المفتوح: «هذا لطيف جدا منك يا هاري.»
من سوى تولا،
دفعني خلف جيني عبر الشق. لقد نسيت أن آخذ منك أنت والأولاد

الآخرين عهد الأمان بكلمة شرف وسلام باليد. في الوقت الذي قد سحبتنا فيه أنفاس القبو وراءها وانعقدت بنصر جيني الصغير ببنصري وبينما ابتلعتنا رئات القبو الثلجية، كنت أعرف أن تولا وحدها أو بالاشتراك مع الأولاد الآخرين والغليون قد ذهبوا للخفير وأحضروا منه المفاتيح أو أنهم قد أحضروا الخفير بمفاتيحه، وتحدثوا جميعا، تسعة أصوات، في وقت واحد لكي لا يتمكن الخفير من سماعنا أثناء إغلاقه للباب.

لهذا السبب أو لأن جيني أمسكت بإصبعي لم أتمكن من طلب النجدة. قادتني بثقة عبر مواسير التهوية السوداء ذات الأزيز. جعلنا هواء القبو الآتي من كل اتجاه، أيضا من أعلى ومن أسفل نستشعر خفة أجسامنا، حتى لم يعد تحتنا أية أرضية. عندئذ سرنا عبر طرق وسلالم تضيئها لمبات حمراء صغيرة. قالت جيني بصوت مألوف: «انتبه من فضلك يا هاري: الآن تأتي درجات السلم، سنهبط ١٢ درجة لأسفل.»

ولكن كلما اجتهدت أن أنتقل من درجة إلى درجة، كنت أهوي، ويمتصني تيار هواء يأتي من أسفل. وعندما قالت جيني: «والآن نحن في الدور الأول للقبو، وعلينا أن نتجه يمينا حيث المدخل إلى الدور الثاني للقبو.» كنت أحبذ البقاء في الدور الأول، برغم أن حكة جلدية قد انتابتني. وفي كل اتجاه كانت هناك أصوات قرقعة، لا بل أزيز، لا بل صرير: ألواح ثلج مرصوصة، أطقم أسنان كاملة تصطك بعضها ببعض، بحيث تتناثر منها قطرات الماء الذائب وكانت رائحة الحديد متخمرة نفاذة حامضية متعفنة. يكاد لا يكون هناك أثر للقطران. انتفشت الخميرة. تبخر الخل. نبتت فطريات عش الغراب. قالت جيني «انتبه، درجة سلم». في أي حلقوم مر مرارة الشعير؟ أي جحيم بالدور الثاني للقبو ترك الخيار المخلل مفتوحا ليتعفن؟ أي شيطان ذاك الذي أدفأنا تحت الصفر؟

أردت الصراخ همست: «سيحبسوننا هنا، إذا لم. . .»

لكن جيني متزنة: «إنهم يغلقون دائما في السابعة!»

«أين نحن؟»

«نحن الآن في الطابق الثاني للقبو. هنا توجد ألواح، عمرها سنوات عديدة.»

أرادت يدي أن تعرف بالضبط: «كم سنة؟» واتجهت يسارا وبحثت عن

مقاومة ووجدتها وبقيت ملتصقة بالسن الضخمة التي تعود إلى ما قبل التاريخ: «أنا التصقت، أنا التصقت يا جيني!»

تضع جيني يدها على يدي الملتصقة: وفي الحال أستطيع أن أخلص يدي من السن الكبيرة، لكنني أظل ممسكا بذراع جيني المتوهجة. ذراع الرقص الجميلة، ذراع تستطيع الرقاد والنوم عالقة في الجو وكذلك تستطيع الذراع الأخرى أن تفعل. وكلا الذراعين ساختنان من تدليك بخار الألواح لهما. في الإبطين جو أغسطس. تقرقر جيني: «لا تدغدغني يا هاري.»

أريد فقط: «أن أمسك بك يا جيني.».

تسمح لي بذلك وتشعر ثانية بأنها: «متعبة قليلا يا هاري.»

لا أعتقد: «أن هناك دكة للجلوس يا جيني.»

إيمانها ليس ضعيفا: «لماذا لا تكون هناك دكة، يا هاري؟» ولأنها قالت ذلك، نجد دكة حديدية أمامنا. ولكن لأن جيني تجلس عليها، تصبح الدكة الحديدية مريحة مثل دكة خشبية قديمة. والآن تقول لي جيني في الدور الثاني لقبو الثلج، بفطنة واهتمام: «الآن، لن تشعر بالبرد يا هاري. أتعرف، لقد كنت ذات يوم داخل تمثال ثلجي. وعندما كنت داخله، تعلمت الكثير. وعندما يستمر إحساسك بالبرودة يجب أن تمسك بي. وعندما لا يختفي شعورك بالبرودة، لأنك لم تكن داخل تمثال ثلجي فعليك إذن أن تقبلني، سيعينك ذلك. أستطيع أيضا أن أعطيك فستاني، فأنا لست بحاجة إليه، بالتأكيد لا أحتاج إليه. لا تخجل على الإطلاق. ليس هناك أحد غيرنا هنا. وأنا أشعر هنا أنني في بيتي. تستطيع أن تتخذه كشال تدفئ به رقبتك، سأنام قليلا بعد ذلك، لأن علي أن أذهب غدا إلى مدام لارا وبعد غد عندي تدريب. بالإضافة إلى أنني متعبة قليلا.»

وهكذا بقينا جالسين طوال الليل على الدكة الحديدية. بقيت ملتصقا بجيني. كانت شفتاها الجافتان بلا طعم. ووضعت فستانها القطني قصير الأكمام والذي لم أعرف إن كان منقطا أم مخططا أم كاروه، فوق كتفي وحول عنقي. رقدت بدون فستان ولكن بالملابس الداخلية بين ذراعي اللتين لم يصبهما الإعياء لأن جيني كانت خفيفة حتى أثناء نومها. ولم أنم حتى لا تنزلق من بين يدي. ولأنني لم أكن داخل تمثال ثلجي فما كان لي أن أتحمل، لولا الشفتان الجافتان والفستان القطني والوزن الخفيف ما بين ذراعي، لولا جيني كنت سأضيع. في هذا المحيط

ذي الأزيز والزفير والصرير بين أنفاس ألواح الثلج، كان لهذه الأنفاس أن تبتلعني وأن أبقى ليومنا هذا قطعة من الثلج.

وهكذا رأينا اليوم التالي. أعلن الصباح عن نفسه بضجيج في الدور العلوي للقبو. إنهم حمالو الثلج ذوو المريلات الجلدية. قالت جيني وقد ارتدت فستانها: «هل نمت قليلا؟»

«بالطبع، لا، واحد منا يجب أن يبقى متنبها.»

«تخيل أنني حلمت أن فرد مشط القدم قد تحسن عندي وفي النهاية استطعت عمل ٢٣ دورة: وضحك السيد هازيلوف.»

«بأسنانه الذهبية؟»

«بكل أسنانه الذهبية، بينما كنت أنا أدور أدور.»

بينما كنا نتهامس ونبحث عن تفسير للحلم وجدنا طريقنا بسهولة إلى الدور الأول للقبو ثم أكملنا الصعود. بينت اللمبات الحمراء الطريق بين ألواح الثلج المتراصة، والمخرج، طاقة الضوء المربعة. لكن جيني أمسكت بي، يجب ألا يرانا أحد، «لأنهم حين يكتشفوا أمرنا، لن يسمحوا لنا بالدخول مرة ثانية.»

عندما لم يظهر أمام المربع المتوهج أي رجال يرتدون المريلات السوداء وعندما تحركت الجياد البلجيكية السمينة وانصرفت عربة الثلج ذات الإطارات المطاطية، قفزنا خارج الباب قبل أن يأتي الدور على العربة التالية. ظهرت الشمس مائلة من بين أشجار الكستناء. التصقنا بالحوائط القطرانية أثناء سيرنا. اختلفت الروائح اليوم اختلافا تاما عن الأمس. خضت بساقي مرة أخرى داخل نباتات بنات النار. وعند طريق الكلاينهامر، بينما بدأت جيني في ترديد أفعال الإنجليزية، بدأت أنا في الارتعاد خوفا من يد الأسطى النجار التي تنتظرني.

تعرفين،

أن مبيتنا في قبو الثلج كانت له عواقب:

لقد تلقيت علقة. قامت الشرطة باستجوابي، بناء على بلاغ الأستاذ برونيس. لقد كبرنا وتركنا بركة الأكتسين للأطفال في الثانية عشرة من العمر. سلمت ما جمعته من حلقات المطاط عندما بدأوا في جمع الخامات القديمة المستهلكة. ولا أعرف ما إذا كانت جيني قد خلعت عقدها أم لا. لقد صرنا نتجنب أن تتلاقى طرقنا. لقد كان وجه جيني يحمر عندما لا نستطيع تجنب رؤية بعضنا في شارع

الإلزن. وكان وجهي يحمر بمجرد أن تقابلني تولا على السلم أو في مطبخنا حينما تأتي لتأخذ بعض الملح أو لتستعير أحد قدور الطهي.

هل لك ذاكرة؟

لا أستطيع تذكر ما حدث على الأقل في خمسة أشهر تتخللها أعياد الميلاد. في هذه الأثناء، في تلك الفجوة ما بين غزو فرنسا وغزو البلقان، تم تجنيد كثير من العاملين بورشتنا وبعد ذلك، عندما امتدت الجبهة شرقا، حل محلهم عمال أوكرانيون ونجار فرنسي. سقط العامل فيشنيفسكي في اليونان ومات العامل أرتور كولايزه في بداية الحرب في ليبرغ، ثم سقط ابن خالي وأخو تولا ألكسندر بوكريفكه - لا لم يسقط، لقد غرق داخل الغواصة: بدأت معركة المحيط الأطلسي. حمل كل آل بوكريفكه وكذلك الأسطى النجار وزوجته شريط الحداد وحملته أنا أيضا وكنت فخورا بذلك. وبمجرد أن يسألني أحدهم عن السبب الذي أرتدي لأجله شريط الحداد، كنت أقول: «ابن خال لي، عزيز علي، مات في البحر الكاريبي أثناء هجوم للعدو.» رغم أنه لم تكن لي علاقة بألكسندر بوكريفكه والبحر الكاريبي كان مجرد حشو.

هل حدث شيء آخر؟

تلقى أبي طلبيات كثيرة. فقد أنتجت ورشته أبوابا ونوافذ للمعسكرات التي تقيم بها القوات البحرية في بوتسيغ. فجأة بدأ ينساق للشرب وضرب أمي في صباح يوم أحد لأنها وقفت في المكان الذي أراد أن يقف فيه. لكنه لم يهمل عمله أبدا واستمر في تدخين سيجاره الرخيص، الذي كان يشتريه في السوق السوداء في مقابل مفاصل الأبواب؟.

وماذا حدث بخلاف ذلك؟

أصبح أبوك قائد خلية بالحزب. انشغل أوغست بوكريفكه بأعماله الحزبية. كتب له طبيب الحزب شهادة مرضية - آلام غضروف الركبة المعتادة. وأراد أن يستخدم صالة ماكينات ورشتنا في عقد محاضرات الإعداد الحزبي. لكن أبي لم يسمح بذلك. وبدأ النخر في الخلافات العائلية القديمة. في الساعة الثانية صباحا كانوا يتحدثون بشأن أرض أجدادي في أوسترفيك. وعُد جهاز عرس أمي على الأصابع قطعة قطعة. قال أبي في مقابل ذلك أنه يدفع مصاريف المدرسة لتولا. ضرب أوغست بوكريفكه على المائدة بقبضته: أنه يستطيع الحصول على مصاريف

مدرسة تولا من الحزب، أينعم! وسوف يسعى هو، أوغست بوكريفكه، إلى أن تعقد محاضرات الإعداد في الورشة، حتى ولو كان ذلك بعد انتهاء العمل.

وأنت أين كنت في الصيف؟

لقد ذهبت إلى بروزن مع طلبة الصف الرابع الثانوي. ومن كان يبحث عنك، كان يجدك عند حطام سفينة بولندية كاسحة للألغام. كان طلاب الصف الثالث يغوصون ويحضرون أشياء من حطام السفينة. كنت لا أجيد العوم ولم أجرؤ على فتح عيني تحت الماء. لذلك بحثت عنك في أماكن أخرى، لكنني لم أبحث عنك أبدا فوق المركب. بالإضافة إلى أن جيني كانت معي: ولم ترغبي أنت سوى في شيء واحد. الطفل. هل حبَّلوك هناك عند حطام السفينة؟

لم يبد عليك شيء من هذا القبيل. أو هؤلاء الصبية من قرية الهنود الحمر؟ لم يتركوا لديك أية آثار. العاملان الأوكرانيان في الورشة، بوجهيهما الخائفين اللذين يشبهان البطاطس؟ لم يأخذك أي منهما إلى مخزن الخشب، ورغم ذلك عقد لهما أبوك عدة تحقيقات. بين ماكينة التشطيب والمخرطة ضرب أبوك أحدهما بميزان الماء. وكان يُدعى «لزقة» لأنه كان يشحذ الخبز دائما. حينئذ طرد أبي أباك من العمل. هدد أبوك بتقديم بلاغ، لكن أبي الذي كان يتمتع بقدر من الاحترام في غرفة الحرفيين وفي الحزب هو الذي قام بتقديم البلاغ. تم عقد ما يشبه المحكمة الشرفية. تم تسوية الأمر بين أوغست بوكريفكه والأسطى النجار ليبناو. تم استبدال العاملين الأوكرانيين، باثنين آخرين - كان هناك كثير منهم والأوكرانيين الأولين، قيل إنهم أرسلوهما إلى شتوتهوف.

بسببك أنت: ذهبا إلى شتوتهوف.

تزايدت أهمية هذه الكلمة «يبدو أن لديك شوق للذهاب إلى شتوتهوف؟»- «لو لم تسكت سيرسلوك إلى شتوتهوف.» كلمة قاتمة كانت تقطن مساكن الإيجار، تصعد السلالم وتهبطها وتبقى في حجرة السفرة على المائدة. من المفروض أنها مزحة وبعضهم كانوا يضحكون عليها أيضا: «يصنعون الآن صابونا في شتوتهوف، وهو أمر يدفعك إلى التوقف عن الاغتسال.»

كلانا لم يكن في شتوتهوف.

تولا لم تكن تعرف ولا حتى نيكلسفالده. أما أنا فقد ذهبت مع معسكر للشبيبة إلى شتيغن، لكن السيد براوكسل الذي يدفع لي مبالغ ومقدمة ويعتبر

خطاباتي إلى تولا مهمة، يعرف هذه المنطقة بين الفايكسل والفريش هاف. في أيامه كانت شتوتهوف قرية غنية، أكبر من شيفنهورست ونيكلسفالده وأصغر من مركز مدينة نويتايش. كان يسكن بها ٢٦٤٨ نسمة، جمعوا أموالا من بناء معسكر للتعذيب بالقرب من القرية بعد بداية الحرب بقليل. ومع الوقت تزايدت مساحة المعسكر، بل وتم تغيير خطوط السكة الحديد لتصل إلى المعسكر. وكانت هذه الخطوط متصلة بخط القطار الإقليمي للجزيرة الصغيرة باتجاه دانتسيغ- نيدرشتات. كان الجميع يعرفون ذلك ومن نسي، قد يذكر: شتوتهوف، تابعة لمركز دانتسيغر نيدرونغ، مديرية دانتسيغ- فيستبرويسن، المحكمة الابتدائية المختصة هي دانتسيغ، وهي معروفة بكنيستها المزينة بالعروق الخشبية ومكان محبوب للاستحمام نظرا لهدوئها، منطقة سكنها الألمان منذ زمن قديم. جفف فرسان الصليب الألماني سهلها في القرن الرابع عشر. وفي القرن السادس عشر أتى المينونيون المجتهدون من هولندا. في القرن السابع عشر دمر السويديون الجزيرة عدة مرات. وفي عام ١٨١٠ مر جيش نابليون المنسحب عبر السهل وبين عام ١٩٣٩ و١٩٤٥ مات في معسكر تعذيب شتوتهوف التابع لمركز دانتسيغر نيدرونغ بشر كثيرون، لا أعرف عددهم بالضبط.

لم تذهبي معنا،

حين ذهبنا، نحن طلبة الصف الرابع لثانوية كونراد مع المدرسة إلى نيكلسفالده بالقرب من شتوتهوف. صار نزل طلبة زاسكوشين الريفي تابعا للحزب وقد أعدها لتكون نزلا لتدريب كوادر القيادة. وهي عبارة عن قطعة من الأرض بين طاحونة لويزه وغابة الشاطئ وقد تم شراء نصفها من الطحان ماتيرن والنصف الآخر من بلدية نيكلسفالده وقد بني عليها مبنى من طابق واحد بسقف عال من الطوب. وكما كان الحال في زاسكوشين، لعبنا كرة المضرب الجلدية في نيكلسفالده. وفي كل فصل كان هناك لاعبون بارعون في الكرات العالية التي تطول السماء ولاعبون يتلقون الضرب ويحوطون ويفرمون وهم قابضون على الكرات الجلدية الصلبة. في الصباح يُرفع العلم، وفي المساء ينزل. كان الطعام سيئا. ورغم ذلك زادت أوزاننا. وكثيرا ما راقبت الطحان في فترات الراحة بين المباريات. كان يقف بين الطاحونة والبيت. وكان يحمل زكيبة من دقيق القمح إياها على أذنه اليسرى. كان يتنصت إلى ديدان الدقيق ويرى المستقبل.

فلنفترض أنني تحدثت مع الطحان الأعوج. وربما قلت له بصوت عال، لأن سمعه كان سيئا:

«هل هناك أنباء جديدة يا سيد ماتيرن؟»

وسيجيب بالتأكيد: «سيبدأ الشتاء في روسيا مبكرا.»

وغالبا كنت أريد أن أعرف منه أكثر: «هل ستصل قواتنا إلى موسكو؟»

ويتنبأ هو: «ربما يصل البعض منا إلى سيبريا.»

والآن بإمكاني تغيير الموضوع: «هل تعرف شخصا يدعى هازيلوف ويعيش أغلب الوقت في برلين؟»

بالتأكيد يتنصت الآن طويلا إلى زكيبته: «سمعت عن شخص بهذا الاسم وكان اسمه في الماضي مختلفا وكانت الطيور تخشاه.»

والآن يمكن أن يكون لدي سبب كاف لفضولي: «هل لديه ذهب في فمه ولا يضحك أبدا؟»

لم تتحدث ديدان الطحان أبدا بطريقة مباشرة: «إنه يدخن سجائر كثيرة وراء بعضها برغم أن صوته يزداد تحشرجا، لأنه أصيب ذات مرة بالبرد.»

وطبعا كنت سأنهي المحادثة: «إذن فهو الشخص الذي أعنيه.»

يرى الطحان المستقبل أمامه: «سيظل هو الشخص نفسه.»

وحيث إن تولا وجيني غير موجودتين معنا، فليس من واجبي أن أكتب عن مغامرات الصف الرابع الثانوي: على أي حال انتهى فصل الصيف.

جلب الخريف معه تغيرات في النظام المدرسي. تحولت مدرسة غودرون التي كان اسمها في السابق مدرسة هيلينا لانغه إلى وحدة لسلاح الطيران. وانتقلت كل فصول الفتيات إلى مدرسة كونراد للصبيان ذات الرائحة الكريهة. وتم تقسيم اليوم الدراسي إلى فترات: في الصباح للفتيات وبعد الظهر للأولاد. والعكس. وكان على بعض المدرسين ومن بينهم الأستاذ برونيس، كان عليهم أن يقوموا بتدريس فصول الفتيات أيضا. في فصل تولا وجيني كان يدرس مادة التاريخ.

ولم نعد نرى بعضنا. كان بإمكاننا تجنب بعضنا بعضا بسبب الفترات الدراسية ولم تعد جيني في حاجة لأن يحمر وجهها ولم أعد أنا أخجل. لكن الاستثناءات تستحق الذكر:

حيث خرجت ذات مرة مبكرا في وقت الظهيرة حاملا حقيبة المدرسية في يدي اليمنى، وعندئذ لاقيت جيني برونيس أمامي تحت أشجار البندق في طريق أوبهاغن. لقد تلقت خمس حصص تدريس وبقيت في المدرسة لأسباب لا أعلمها. لقد خرجت على أي حال من المدرسة وحملت حقيبتها أيضا في اليد اليمنى. على الأرض رقدت ثمار البندق الخضراء وبعض من الثمار بلون بني باهت، لأن الصباح كان عاصفا. كانت جيني ترتدي فستانا صوفيا بلون أزرق داكن بثنيات كم بيضاء وقبعة زرقاء داكنة، لم تكن بيريه بل بالأحرى قلنسوة صوفية. إحمر وجهها ونقلت حقيبة المدرسة من اليد اليمنى إلى اليسرى حينما كانت على مبعدة خمس أشجار بندق مني.

بدت فيلات طريق أوبهاغن المتواجدة على الناحيتين وكأنها خالية من السكان. أسقطت أشجار التنوب الفضي والصفصافات والقيقب الأحمر والبتولا أوراقها في كل مكان، ورقة وراء ورقة. كنا في الرابعة عشرة وتقابلنا. بدت جيني أكثر نحافة عن الصورة التي احتفظت بها في ذاكرتي.

كانت أصابع قدميها موجهتين للداخل من كثرة ممارستها للباليه. لماذا ارتدت الأزرق، ما دامت تعرف أن وجهها سيحمر خجلا، عندما آتي.

لأنني تقدمت نحوها أسرع ولأن حمرة علتها حتى حافة قلنسوتها الصوفية ولأنها بدلت حقيبة المدرسة من يد لأخرى، بقيت في مكاني وبدلت أيضا الحقيبة إلى اليد اليسرى ومددت لها يدي. تركت يدها الجافة تنزلق مذعورة لبرهة في يدي. وقفنا بين ثمار البندق التي لم تنضج بعد. بعضها دهسته الأقدام أو كان مصمتا. وعندما انتهى طائر من التغريد فوق شجرة قيقب، بدأت الحديث: «أهلا جيني، تأخرت في العودة إلى البيت؟ هل أكلت من ثمار البندق؟ هل تريدين أن أجمع لك بعضها؟ ليس لها طعم ولكنها أول الثمار. وما هي أخبارك الأخرى؟ أبوك ما يزال بعافيته. رأيته مؤخرا وقد امتلأ جيبه بأحجار الميكا: على الأقل خمسة أو أربعة كيلوغرامات. إنه لا يعرف الكلل رغم سنه. ما أردت أن أسألك عنه أيضا: كيف حال الباليه؟ كم بيرويتة تستطعين أن تدوري الآن؟ وكيف هو فرد مشط القدم، أهو أفضل الآن؟ لدي رغبة في الذهاب إلى مطحنة القهوة القديمة. كيف هي الراقصة الأولى التي أتت إليكم من فيينا؟ سمعت أنك ستشاركين في عرض «الحفل التنكري». أنا لم أستطع الحضور لأنني... ولكنني

سمعت أنك كنت جيدة، يسعدني ذلك. وهل دخلت مرة أخرى إلى قبو الثلج؟ لم تذهبي إذن. فقط مجرد مزاح. لكنني أذكر ذلك جيدا لأن أبي. . . بعد ذلك. هل ما زلت تحتفظين بالعقد ذي الحلقات المطاطية. وهل سمعت أخبارا من برلين؟»

تحدثت وثرثرت وكررت كلامي. وكسرت ثمار البندق بكعب حذائي وأخرجت الثمار المطحونة نوعا ما من بين قشورها بأصابع مدربة وأعطيت لجيني منها وأكلت أنا أيضا. وأكلت جيني طائعة ثمار البندق ذات الطعم الصابوني، التي تجعل الأسنان ثالمة. التصقت أصابعي بعضها ببعض. كانت جيني ما تزال واقفة وما يزال الدم يضخ في وجهها احمرارا، وردت بصوت خفيض ذي وتيرة واحدة في طاعة. كانت عيناها مشبعتين بالخوف من المكان ونظرتها عالقة بأشجار البتولا والصفصاف والتنوب الفضي: «شكرا على سؤالك، أبي في أحسن حال. ولكن عنده ساعات تدريس كثيرة. أحيانا يتوجب علي مساعدته في التصحيح. إنه يدخن رغم ذلك كثيرا. ما زلت أذهب إلى مدام لارا. إنها معلمة ممتازة وهي لذلك مشهورة. ويأتي إليها من درسدن بل وأحيانا من برلين راقصون منفردون لضبط حركاتهم على يديها. لقد تعلمت في مدرسة الباليه الروسي منذ نعومة أظافرها. لقد تعلمت كثيرا من بري-أوبرايينسكه Preobrajenska ومن ترفيلوفا Trefilova. لأنها رغم تشددها في ضبط وإتقان الحركات، لا يتعلم المرء منها التكنيك فقط بل يحتفظ الواحد بحيوية الرقص. لا بد أن تشاهد عرض «الحفل التنكري». لسنا في أفضل مستوى لنا. نعم يا هاري أنا أذكر. لكنني لم أدخل إليه مرة أخرى. لقد قرأت أن هناك بعض الأشياء التي لا يستطيع المرء أن يكررها مرة أخرى أو لا ينبغي عليه ذلك، وإلا فستختفي نهائيا. لكنني أرتدي عقدك أحيانا. أجل لقد كتب السيد هازيلوف مرة أخرى. طبعا إلى أبي. إنه شخص غريب ويكتب تفاصيل كثيرة لا يلحظها الآخرون. لكن أبي يقول إنه ناجح في برلين. إنه يقوم بعمل كل شيء حتى الديكور المسرحي. ويُقال إن تدريبه يعد حازما ولكنه جيد. إنه يسافر مع نيرودا التي تدير فعليا فرقة الباليه إلى: باريس وبلغراد وتسالونيكي. لكنهم لا يرقصون أمام الجنود وحدهم. لكن أبي يقول إن الوقت لم يحن بالنسبة لي.»

لم تعد هناك ثمار بندق بالأرض. ومر أيضا بعض التلاميذ من أمامنا.

ضحك أحدهم وكنت أعرفه. تركت جيني يدها اليمنى تختفي بسرعة في يدي اليمنى. قلبت للحظة ظهر يدها: خمس أصابع خفيفة ملساء وقد ارتدت خاتما فضيا مسودا ومسبوكا بطريقة بدائية. خلعته من إصبعها دون أن أسألها.

تشير جيني بإصبعها الخالية من الخاتم «إنه أنغوستري، هذا هو اسمه.»

فركت الخاتم بيدي: «ولماذا أنغوستري؟»

«سأقول لك ولكن هذا سر بيننا. كان موجودا في داخل وسادتي عندما عثر علي بابا برونيس»

«ومن أين لك أن تعرفي اسم الخاتم؟»

تزداد حمرة جيني ثم تأخذ في التلاشي: «الذي تركني في الماضي، نعت الخاتم بهذا الاسم.»

«هل كان غجريا؟»

«كان اسمه بيداندنجيرو»

«ربما تكونين أنت أيضا غجرية.»

«بالتأكيد لا يا هاري. عادة ما تكون شعورهم سوداء.»

وآتي لها بالدليل: «لكنهم جميعا يستطيعون الرقص!»

حكيت لتولا كل شيء،

هي وأنا وكثيرون أردنا الحصول على الخاتم. اعتقدنا في سحر الخاتم الفضي وأطلقنا على جيني حينما يدور عنها الحديث اسم أنغوستري. وبالتأكيد أصيب التلاميذ الذين كانوا مهووسين بحذاء جيني، بهوس جديد بأنغوستري؟ أنا الوحيد الذي ظل اهتمامه بجيني وأنغوستري يتراوح بين الهدوء والفضول. صحيح أنه تجمعنا ذكريات مشتركة كثيرة، لكن تولا أفسدتني من البداية. لقد ظلت محتفظة برائحة غرائها حتى وهي طالبة بالثانوي رغم ارتدائها لزي المدرسة النظيف وبقيت ملتصقا بها ولم أحاول المقاومة.

وعندما قالت لي تولا: «في المرة القادمة، أسرق منها الخاتم.» رفضت ثم تربصت بجيني في طريق أوبهاغن ونويت أن أسحب الخاتم الفضي من إصبعها. احمر وجهها مرتين في أسبوع واحد لأنني اعترضت طريقها. وفي كل مرة لم يكن أنغوستري في إصبعها، بل ارتدت ذاك العقد الكريه ذا الحلقات المطاطية.

لكن تولا التي ارتدت لباس الحداد على أخيها الكسندر، لم تأل جهدا في

جعل تولا ترتدي ملابس الحداد بعد ذلك بوقت قصير. في آخر خريف عام واحد وأربعين انقطعت أخبار الانتصارات في الشرق وأعلنت مدرسة كونرادي الثانوية عن سقوط ٢٢ من خريجيها في المعارك. وتعلقت اللوحة الرخامية بالأسماء والتواريخ والرتب على البوابة الرئيسية ما بين شوبنهاور وكوبرنيكوس. ومن بين الين سقطوا كان هناك أحد الحاصلين على وسام صليب الفرسان. وبقي اثنان من حاملي صليب الفرسان على قيد الحياة وزارا مدرستهم القديمة بانتظام في إجازاتهما. وأحيانا كانا يلقيان بعض المحاضرات القصيرة أو المسهبة في قاعة الاحتفالات. كنا نجلس في مقاعدنا بلا حراك وكان المدرسون يومئون برؤوسهم موافقين. وكان بإمكاننا طرح الأسئلة بعد المحاضرات. أراد التلاميذ معرفة عدد الطلقات المدفعية التي يمكن إطلاقها وكم هي السعة الإجمالية للسفن التي يجب إغراقها. لأنه كانت لدينا جميعا رغبة في الحصول على صليب الفرسان فيما بعد. طرح الأساتذة أسئلة موضوعية- عما إذا كانت الإمدادات كافية دائما - أم أنهم كانوا يغرقون في عبارات رنانة عن الصمود والنصر النهائي. سأل الأستاذ برونيس أحد حاملي صليب الفرسان - أعتقد أنه كان من أفراد سلاح الطيران - عما دار برأسه عندما رأى لأول مرة إنسانا ميتا، سواء كان صديقا أو عدوا. لم يحر الطيار القناص جوابا.

وطرح الأستاذ برونيس السؤال نفسه على الجاويش فالتر ماتيرن الذي ألقى محاضرة عن «سلاح الدفاع الجوي في الشرق». واقتصرت محاضرة ماتيرن على فصلنا حيث إنه لم يكن من الحاصلين على صليب الفرسان. لقد نسيت أيضا إجابة الجاويش الحاصل على وسامي الصليب الحديدي من الطبقة الأولى والثانية. أراه فقط يقف وراء المنصة متشبثا بها وقد علاه غبار المعارك وبدا هزيلا ومتينا في ذات الوقت. تمر نظرته فوق رؤوسنا محملقة في لوحة زيتية على الحائط الخلفي للفصل. لوحة المنظر الطبيعي لتوما التي لها خضار السبانخ. حيثما يتنفس، يصبح الهواء شحيحا. نريد أن نسمع شيئا عن القوقاز وهو يتحدث بلا انقطاع عن العدم.

وبعد أيام من المحاضرة ذهب فالتر ماتيرن ثانية إلى الجبهة في روسيا وأصيب بجرح أعاقه عن الاستمرار في الخدمة بسلاح الدفاع الجوي: نقلوه إلى وحدة السلاح الجوي داخل البلاد وقد أصيب بعرج خفيف، خدم أولا في كونيغسبيرغ

ثم في دانتسيغ. كان يقوم بإعداد متطوعي سلاح الجو في بطاريتي الدفاع الجوي بروزن-غليتكاو وكايزرهافن.

كان محبوبا ومهابا من الجميع وقد أصبح لنا مثلا أعلى. كان الأستاذ برونيس هو الوحيد الذي يحرج الجاويش فالتر ماتيرن كلما زار فصلنا ووقف خلف المنصة ليلقي محاضراته، حيث كان يطلب منه ساخرا أن يلقي قصيدة لأيشندورف بدلا من الحديث عن معارك أورل.

لا أذكر أن الأستاذ برونيس قد درسنا يوما ما بجدية. تخطر ببالي بعض عناوين موضوعات التعبير: «تحضيرات العرس لدى قبائل الزولو» أو «مصير علبة محفوظات» أو «عندما كنت قرصا من ملبس السعال وأخذت أتضاءل شيئا فشيئا في فم فتاة صغيرة» كان الأستاذ برونيس يهتم بتغذية خيالنا وحيث إن من بين الأربعين تلميذا لا يوجد عادة سوى تلميذين يتمتعان بالخيال، أنا وتلميذ آخر فقد غفى ثمانية وثلاثون تلميذا بالصف الرابع الثانوي، بينما كتبت أنا والآخر عن مصير علبة المحفوظات وعددنا تقاليد الزواج الأصيلة لدى قبائل الزولو وتجسسنا على قرص الملبس عند تضاؤله في فم الفتاة الصغيرة.

شغل هذا الموضوعي اهتمامي واهتمام زميلي والأستاذ برونيس معنا لمدة أسبوعين أو أكثر. قبع متكورا وجلديا خلف خشب المنصة القديم وأخذ يقلد حركات مص الملبس واستحلابه. ونقل قرص الملبس المتخيل ما بين جانبي الفك وكاد يبلعه وأخذ يقلصه بعينين مغلقتين، وجعله يتكلم ويحكي. باختصار لقد أصبح الأستاذ برونيس أكثر إدمانا لملبس السعال في الوقت الذي أصبح فيه الملبس سلعة نادرة: وحينما لم يجد بعضا منه في جيبه، كان يخترع بعضا منها. وما زلنا نكتب عن الموضوع نفسه.

بدءا من خريف عام واحد وأربعين تقريبا، وُزع على التلاميذ أقراص فيتامين. وكان اسمها أقراص «سيبيون» وكانت تُحفظ في برطمانات الصيادلة المصنوعة من الزجاج البني. كانت البرطمانات موجودة في حجرة الاجتماعات بجوار دائرة معارف «ماير» وقد كُتب على البرطمانات أسماء الفصول من الفصل الأول إلى السادس الثانوي وكان الأساتذة المسؤولون عن الفصول يحملونها كل يوم إلى الفصول، حيث طلبة الثانوي الذين يعانون من نقص الفيتامينات في سنة الحرب الثالثة.

بالطبع كان واضحا أن الأستاذ برونيس كان يمص من هذه الأقراص، وقد علِق بفم الشيخ شيئا من هذه المادة الحلوة عند دخوله إلى الفصل. كان توزيع هذه الأقراص يستغرق نصف وقت الحصة، لأن برونيس لم يترك البرطمان يتنقل بين التلاميذ، بل كان ينادي على التلاميذ تبعا للترتيب الأبجدي ثم يدخل يده بصعوبة في البرطمان الزجاجي ويتصرف وكأنه يصطاد لكل تلميذ شيئا فريدا. ثم يُخرج منتصرا وبجبين متغضن قرصا من واحدا من الأقراص التي قد يبلغ عددها خمسمائة قرص. ويظهرها وكأنها نتيجة عمل سحري صعب ويقدمها للتلميذ.

كنا نعرف أن جيبَي الأستاذ برونيس مليئان بأقراص السيبيون. كان للأقراص طعم يجمع بين الحموضة والحلاوة، وفيها شيء من طعم الليمون وشيء من سكر النبات وشيء من المستشفى. ولأننا كنا نحب مص أقراص السيبيون، كان الأستاذ برونيس المهووس بكل ما هو حلو، يملأ جيبي سترته بها. وفي طريقه من حجرة الاجتماع إلى الفصل كان يذهب بالبرطمان الزجاجي البني إلى حمام المعلمين ثم يخرج بعد دقيقة إلى الممر وهو يمص الأقراص. وحول جيبي المعطف كان هناك غبار أقراص السيبيون.

ما أريد قوله هو أن برونيس كان يعرف أننا نعرف. كثيرا ما كان يختبأ خلف السبورة ويغذي نفسه بالزاد الحلو. ثم يقف أمام الفصل ونرى فمه المنهمك: «أظن أنكم لم تروا شيئا، وإذا كنتم قد رأيتم شيئا فقد أخطأت أبصاركم»

وكان على الأستاذ برونيس، مثله مثل أساتذة آخرين، أن يعطس بصوت عال. ومثل زملائه كان يخرج حينئذ منديلا كبيرا، لكنه على خلاف زملائه قد أخرج مع منديله أقراص سيبيون سليمة وأخرى مفتتة. لقد أنقذنا الأقراص التي دارت على الأرضية المزيتة. أعطى الأستاذ برونيس لمجموعة من التلاميذ الذين انحنوا وجمعوا الأقراص بهمة نصف أو ربع قرص من الفيتامين. واعتدنا على ترديد العبارة التي أصبحت مقولة شائعة: «أستاذ برونيس لقد فقدت بعضا من أحجار الميكا.»

وكان الأستاذ برونيس يقول: «حينما تجدون أحجار نايس عادية، تستطيعون الاحتفاظ بها ولكن حينما تجدون واحدة أو أكثر من أحجار الصفاح فأرجوكم أن تعيدوها إلي.»

ونحن كنا نجد دائما أحجار الصفاح وكان برونيس يختبرها دائما بين أسنانه البنية الثالمة ويتركها تختفي داخل فمه ويتركها تتنقل بين جانبي الفك ثم يقول: «لقد وجدتم أحجار صفاح ذات قيمة عالية جدا ونادرة، كم أنا سعيد بما وجدتم.»

وبعد ذلك تخلى الأستاذ برونيس عن كل الحيل التي يقوم بها للحصول على الأقراص، فلم يعد يذهب وراء السبورة ولم يعد يتحدث عن الأحجار المفقودة. وفي طريقه من حجرة الاجتماع إلى الفصل لم يعد يذهب بالبرطمان إلى حمام المعلمين، بل كان يغرف بنهم وعلى الملأ أثناء الحصة من الأقراص المخصصة لنا. وكنا نلحظ ارتعاش يديه بصورة محرجة. وفي وسط الجملة، أو ما بين مقطعين من قصيدة أيشندورف، كان لا يكتفي بأخذ قرص واحد من الفيتامين بل كان يغرف بثلاث أصابع ضخمة خمسة أقراص ويقذف بها جميعا في فمه الذي لا يشبع ويتمطق بها، وكان علينا ألا ننظر إليه.

تولا هي التي فعلت،

نحن لم نقدم بلاغا ضده. كانت هناك عدة بلاغات. ولكن فصلنا لم يقدم أي بلاغ. صحيح أنه كان علينا بعد ذلك أن ندلي بشهاداتنا في حجرة الاجتماع، لكننا امتنعنا عن الشهادة ضده وقلنا إن الأستاذ برونيس كان يتناول الحلوى أثناء الحصة، لكنه لم يتناول أقراص سيبيون بل تناول أقراص ملبس السعال المعتادة. لقد كانت تلك عادة لدى الأستاذ برونيس، حتى عندما كنا لا نزال في الصف الأول والثاني الثانوي. وفي السابق لم تكن هناك أقراص سيبيون.

لم تنفع شهادتنا كثيرا، فحينما قبضوا على برونيس وجدوا غبار السيبيون داخل جيوبه.

في البدء قالوا إن الأستاذ كلوزه، مدير المدرسة، هو الذي قدم البلاغ، ثم قال البعض إنه مدرس الرياضيات لنغنبرغ، ثم ذاع أن تلميذات من مدرسة غودرون للبنات، من الفصل الذي يدرس به برونيس مادة التاريخ، هن اللائي فضحن أمره، وقبل أن يخامرني الظن بأن تولا هي التي فعلت ذلك، كانوا يتحدثون عن تولا بوكريفكه.

أنت التي فعلتها!

لماذا؟ هكذا! بعد أربعة عشر يوما كان على الأستاذ برونيس أن يسلم فصلنا

إلى الأستاذ هوفمان، لم يدرس بعد ذلك، ولم يكن محبوسا، بل بقي بمنزله بين أحجاره - وبعد أربعة عشر يوما رأينا الأستاذ الكبير ثانية. تم استدعائي أنا واثنين من من فصلي إلى حجرة الاجتماع. وهناك انتظر اثنان من تلاميذ التوجيهي وخمس تلميذات وتولا من بينهم. ابتسمنا بصعوبة وغطت الشمس كل البرطمانات الموجودة على الرف. وقفنا على السجادة الناعمة ولم يسمح لنا بالجلوس. نظر الرواد الكلاسيكيون المعلقون على الحائط بعضهم إلى بعض باحتقار. غمر الضوء طاولة الاجتماعات المغطاة بالقطيفة الخضراء وكشف عن الغبار العالق في الجو. كان الباب مزيتا: ساق الأستاذ برونيس إلى الغرفة رجل يرتدي ملابس مدنية، لم يكن مدرسا بل شرطي بالمباحث الجنائية. ودخل وراء الاثنين الأستاذ كلوزه. أومأ برونيس لنا بود وشرود وفرك يديه الضخمة البنية ذات التجاعيد ونظر ساخرا، وكأنه يريد تخطي الموضوع للحديث عن التحضير للزواج عند قبائل الزولو ومصير علبة محفوظات وحكاية قرص الملبس داخل فم الفتاة الصغيرة. لكن الرجل ذا الملابس المدنية هو الذي تحدث. لقد قال بأن هذا اللقاء في حجرة الاجتماع يعد مواجهة ضرورية. وجه الأسئلة المعروفة إلى الأستاذ برونيس ببطء. كانت الأسئلة تدور حول أقراص سيبيون وعن أخذه لأقراص سيبيون من البرطمانات. نفى الأستاذ برونيس كل الاتهامات هازا رأسه. تم استجواب الطالب بالتوجيهي ثم استجوبنا نحن أيضا. وتضاربت الأقوال ما بين كون الأستاذ برونيس مذنباً أو غير مذنب. كانت أقوال متلعثمة متضاربة: «لا لم أره بنفسي، لكنهم كانوا يقولون. كنا نظن دائما... فقط لأنه كان يحب أكل الملبس، ظننا أن... لم أره يفعل ذلك أمامي. لكن صحيح أنه...»

لا أعتقد أنني قلت في النهاية: «لقد تذوق الأستاذ برونيس بالتأكيد ثلاث أو أربع مرات على الأكثر من الملبس. لكننا سعدنا بذلك لأننا نعرف من زمان أنه يحب أكل الحلوى.»

وقد لاحظت أثناء الاستجواب كيف كان الأستاذ برونيس يقلب بغباء وقلة حيلة في جيبيه الأيمن والأيسر باحثا عن الأقراص. وقام في هذه الأثناء بتبليل شفتيه. لم يعر السيد ذو الملابس المدنية تقليب برونيس لجيبيه ولا تبليله لشفتيه أي اهتمام. في البدء تحدث مع الأستاذ كلوزه بالقرب من النافذة العالية، ثم أشار إلى تولا. كانت ترتدي تنورة سوداء بكسرات. لو كان لدى برونيس غليونه على

الأقل، لكنه ترك غليونه بالمعطف. همس الشرطي ذو الملابس المدنية بشيء قبيح في أذني تولا. التهب باطن قدمي فوق السجادة الوثيرة. لم تكل يدا الأستاذ برونيس الحائرتان ولا فمه. الآن تخطو تولا بتنورتها ذات الكسرات. يرفل قماش التنورة حتى تتوقف تولا. ثم تمسك بكلتا يديها البرطمان البني المملوء لنصفه بأقراص السيبيون. تأخذه من الرف ولا يقول لها أحد شيئا. تدور حول طاولة الاجتماع الخضراء الطويلة الخالية خطوة خطوة بتنورتها ذات الكسرات وعينيها الصغيرتين الآخذتين في الضيق. الجميع ينظرون إليها وبرونيس يراها قادمة. تقف على مبعدة ذراع من الأستاذ برونيس، وتلصق البرطمان بصدرها وتمسكه بيدها اليسرى، ثم ترفع بيدها اليمنى الغطاء الزجاجي. يمسح الأستاذ برونيس يده في سترته. تضع الغطاء على الطاولة الخضراء ويغمره ضوء الشمس. لم يعد لسان الأستاذ يتنقل، لكنه بقي بالخارج. أمسكت تولا بالبرطمان بكلتا يديها ثانية ورفعته ثم مشت بتنورتها على أطراف الأصابع وقالت: «تفضل، يا أستاذ!»

لم يقاوم برونيس. لم يخبئ يديه في جيوب بنطلونه. لم يُدر وجهه ولا فمه بأسنانه البنية الثالمة إلى ناحية أخرى. لم تسمع أي أذن: «ما هذا الهراء؟» مد الأستاذ برونيس يده بسرعة ليغرف من البرطمان. وعندما خرجت ثلاث أصابع من البرطمان، رفعت معها ستة أو سبعة أقراص: سقط قرصان منهما في البرطمان ثانية وسقط قرص على السجادة الفيلور ذات اللون البني الفاتح ثم جرت تحت طاولة الاجتماعات. وما استطاع أن يحتفظ به في يديه، دفسه في فمه. لكنه حزن على القرص الذي سقط منه تحت الطاولة. نزل على ركبتيه وسار عليهما أمامنا وأمام المدير والشرطي ذي الملابس المدنية وأمام تولا وتحسس بيديه باحثا عن القرص وكاد يجده ويضعه في الفم المدمن للحلوى، لولا أنهما قد جاءا إليه: المدير والشرطي ذو الملابس المدنية، وعقدا ذراعيه وراء ظهره ثم أوقفاه على ساقيه. فتح تلميذ من التوجيهي الباب المزيت. قال الأستاذ كلوزه «والآن أرجوك أيها الزميل». انحنت تولا باحثة عن القرص تحت طاولة الاجتماعات. استجوبونا مرة آخرى. دخلنا حجرة الاجتماعات واحدا تلو الآخر. لم تكن حكاية أقراص الفيتامين كافية. لقد دون تلاميذ التوجيهي أقوال الأستاذ برونيس واعتبرت هذه الأقوال هدامة وسلبية. وفجأة قال الجميع بأنه ماسوني، رغم أن أحدا لا يعرف ماذا يعني ذلك. تحفظت في أقوالي بناء على نصيحة أبي الأسطى

النجار. ربما لم يتوجب علي أن أقول شيئا عن حامل العلم الخالي دائما على نافذة الأستاذ برونيس لكنه كان جارنا وقد رأى الجميع أنه لم يعلق أي علم حين يعلق الآخرون أعلامهم. لقد علم الشرطي ذو الزي المدني بذلك وأومأ وقد نفذ صبره عندما قلت: «مثلا في عيد ميلاد الفوهرر، علق الجميع أعلامهم بينما لم يعلق الأستاذ برونيس أي علم رغم أن لديه واحدا.»

دخل أبو جيني بالتبني سجن التحقيقات. وقيل إنهم سيعيدونه إلى بيته ثانية لأيام قلائل ثم يعودون ليأخذوه بصورة نهائية. قال عازف البيانو فيلزنر-امبس الذي كان يذهب إلى المنزل المقابل دائما لزيارة جيني التي بقيت وحيدة، لأبي: «الآن نقلوا الرجل الكبير إلى شتوتهوف. ترى هل سيتحمل الإقامة هناك؟»

آل بوكريفكه وآل ليبناو،

عائلتك وعائلتي خلعا ملابس الحداد بمناسبة مرور عام على وفاة أخيك ألكسندر بوكريفكه، حينئذ صبغت جيني ملابسها. قامت إحدى مشرفات الرعاية الاجتماعية بزيارة المنزل المقابل مرة في الأسبوع: استقبلتها جيني مرتدية السواد. في البداية قالوا إن جيني ستدخل إلى دار لرعاية الشباب وأنهم سيقومون بإخلاء الأستاذ برونيس. لكن جيني المتشحة بالسواد وجدت من يساندها. كتب فيلزنر-امبس رسائل وقدمت مديرة مدرسة غودرون التماسا وتحدث مدير مسرح المدينة مع إدارة الإقليم وكان لمدام لارا بوك-فيدوروفا علاقات كثيرة. وهكذا استمرت جيني في الذهاب إلى المدرسة وإلى تدريب الباليه وإلى البروفات ولكن في ملابس سوداء. ولم يعن ذلك أنها سارت في الشارع تحت قلنسوة سوداء ناعمة في معطف أسود واسع وتحركت خطوة خطوة داخل جوارب صوفية سوداء بوجه باك، بل كان وجهها شاحبا بعض الشيء وقد يكون ذلك من أثر سواد الحداد وجذعها كان متصلبا وحذاؤها كان موجها للداخل كما في الباليه وحملت عند ذهابها للمدرسة حقيبة المدرسة وكانت بنية من الجلد الصناعي وعند ذهابها إلى أوليفا أو إلى المسرح كانت تحمل شنطة التدريب الخضراء بلون الكُرّات أو الحمراء بلون الغسق أو الزرقاء بلون السماء وقد صبغتها جميعا بالأسود. وكانت تعود إلى شارع الإلزن في موعدها، طيعة أكثر من كونها متمردة وأصابع قدميها موجهة نحو الداخل.

ورغم ذلك هناك من اعتبر أن السواد الذي تتشح به جيني برونيس يوميا هو

رمز للعناد. ففي هذه السنوات كان الناس يرتدون الأسود فقط عندما تكون حالة الوفاة مثبتة بشهادة وفاة موثقة. كان الحزن على الأبناء الذين سقطوا في الحرب أو الجدات اللائي توفين مسموحا. لكن البلاغ الموجز من مكتب المباحث الجنائية دانتسيغ- نويغارتن بأنه قد تم القبض على الأستاذ أوزفالد برونيس بسبب السلوك المخل بالشرف إزاء الصالح العام، لم يمكن اعتباره وثيقة يمكن تقديمها إلى مكتب التموين، فلم يمكن الحصول على بطاقات التموين المخصصة لملابس الحداد عند حالات الوفاة إلا من قسم صرف الملابس هناك.

«ماذا بها، إنه ما يزال على قيد الحياة. بالتأكيد لن. . .الرجل الكبير. بطريقتها تلك لن تساعده بل بالعكس. يجب أن يقول لها أحد إن ما تفعله لن يجدي، وإنها لا تريد بذلك سوى لفت الانتباه.»

تحدث الجيران والأخصائية الاجتماعية مع فيلزنر-امبس. أراد عازف البيانو أن يدفع جيني إلى خلع ملابس الحداد، قائلا لها بأن المظهر لا يهم، ويكفيها أن تخفي حزنها في القلب، فحزنه يكاد لا يقلّ عن حزنها حيث إنهم أخذوا منه صديقه الوحيد.

لكن جيني برونيس أصرت على الاحتفاظ بمظهر الحداد الأسود واستمرت في ارتدائه عبر حي لانغفور وفي شارع الإلزن كنوع من الاتهام. تحدثت إليها ذات مرة عند محطة ترام رقم ٢ المتجه إلى أوليفا. وطبعا احمرّ وجهها مغلفا بالسواد. لو كان لي أن أرسمها من الذاكرة فستكون لها عينان بلون رمادي فاتح ورموش ذات ظلال وشعر بني مفروق عند منتصفه ينسدل عند الجبين ناعما دون لمعان في قوسين منهكين فوق الخدين والأذنين وتنعقد خصلاته في الخلف في ضفيرة مستقيمة. سأرسم وجهها النحيل الطويل بلون عاجي شاحب، حيث كان احمرار الوجه شيئا نادرا. وجه مخلوق للحزن: غيزيلا في مشهد المدافن. لم يصدر عن فمها الصغير أي كلام إلا عند سؤالها.

قلت لها عند محطة الترام: «جيني، أتعتقدين حقا بضرورة استمرار لبسك لملابس الحداد؟ بالرغم من أنه من الممكن أن يعود بابا برونيس اليوم أو غدا.»

«لقد مات بالنسبة لي، حتى لو أنهم لم يبلغوني بذلك.»

بحثت عن موضوع لأن الترام لم يأت: «هل تبقين دائما وحدك بالبيت في المساء؟»

«السيد امبس يأتي دائما، ثم نصنف الأحجار ونكتب عليها أنواعها. لقد ترك أشياء كثيرة دون تصنيف.»

أرادت الانصراف لكن الترام لم يأت: «أظن أنك لا تذهبين أبدا إلى السينما أم تراك تفعلين؟»

«عندما كان بابا على قيد الحياة، كنا نذهب أحيانا صباح يوم الأحد إلى سينما أوفا-بالاست. كان يحب مشاهدة الأفلام الثقافية.»

زاد اهتمامي بالفيلم الرئيسي: «هل لديك رغبة أن تذهبي معي إلى السينما؟»

جاء ترام جيني أصفر بلون القش: «نعم أحب أن أذهب معك إن كنت ترغب في ذلك.»

نزل من الترام أناس يرتدون معاطف مطر: «ليس بالضرورة أن يكون فيلما كوميديا، نستطيع أن نشاهد فيلما جادا.»

صعدت جيني: «يعرضون في قصر السينما فيلم «الأيدي المحررة» وهو مجاني للشباب فوق ستة عشر عاما.»

لو قالت تولا:

«كرسي درجة أولى في الصف الثاني» لسألتها محصلة تذاكر السينما عن بطاقتها الشخصية، أما نحن فلم نحتج إلى إظهار بطاقتنا لأن جيني كانت ترتدي ملابس الحداد السوداء. جلسنا بمعاطفنا داخل السينما لأن التدفئة كانت سيئة. ولم يكن حولنا أي من معارفنا. ولم نحتج لأن نتحدث لأن المنوعات الغنائية لم تتوقف. وفي الوقت نفسه انفتح الستار وسبق نفير البوق نشرة أخبار الأسبوع وأظلمت قاعة السينما. وعندئذ وضعت يدي على كتف جيني. لكنه لم يبق طويلا على كتفها حيث دوت المدفعية الثقيلة في لينينغراد لمدة ثلاثين دقيقة على الأقل. وعندما قصف قناصتنا قاذفة قنابل إنجليزية لم ترغب جيني في أن ترى أي شيء وأخفت جبينها في معطفي. تركت ذراعي تتجول وظلت عيناي تتابعان الطائرات القناصة وعددت دبابات روميل أثناء زحفها إلى برقة وتابعت مسار طوربيد في الماء ورأيت السفينة تتأرجح في العدسة التي تستهدفها وارتعشت عندما أصابها الطوربيد ونقلت التوهج والارتعاش الناتجين عن انفجار السفينة إلى جيني. وعندما زارت كاميرا نشرة أخبار الأسبوع مقر قيادة الفوهرر، همست لجيني: «انتبهي يا جيني، الآن سيأتي الفوهرر وربما يكون الكلب معه.» ولكن

أملنا خاب حيث لم يكن حول الفوهرر سوى كايتل ويودل وآخرين وكانوا يقفون على الحصى بين الأشجار.

وعندما أضاء نور الصالة مرة أخرى، خلعت جيني معطفها، أما أنا فلم أفعل. كان الفيلم الثقافي يعرض للظباء والأيائل التي يتوجب إطعامها في الشتاء، لأنها عرضة للتضور جوعا، ما لم يقم الناس بتغذيتها. كانت جيني أكثر نحافة بدون المعطف. لم تكن الظباء خجولة. وقفت أشجار التنوب فوق الجبال محملة بالثلج. كانت كل الملابس في السينما سوداء، وليس فقط بلوفر جيني.

أردت أن أفعلها أثناء الفيلم الثقافي ولكنني فعلتها أثناء الفيلم الرئيسي. لم يكن فيلم «الأيدي المتحررة» فيلما بوليسيا بطلقات رصاص كثيرة وأيد مغلولة. كانت الأيدي لنحاتة وقعت في غرام أستاذها واسمها الحقيقي بريغيته هورني. وفي كل مرة كانت تفعلها على الشاشة كنت أفعلها أنا أيضا مع جيني في السينما. أغلقت عينيها ورأيت ذلك. وعاودت الأيدي على الشاشة عجن كتل من الفخار وتحويلها إلى تماثيل عارية أو خيول صغيرة عابثة. كانت بشرة جيني باردة وجافة. ولأنها قد ضمت فخذيها ليلتصقا ببعضهما، رأيت أنا أن عليها أن تفرجهما، وقد فعلت على الفور لكن عينيها ظلتا مثبتتين على الفيلم الرئيسي. كان ثقبها أصغر من ثقب تولا. كان لا بد لي أن أعرف ذلك. وعندما أدخلت الإصبع الثانية أيضا، حولت جيني انتباهها عن الفيلم الرئيسي إلي: «من فضلك يا هاري، كف عن ذلك، إنك تؤلمني.» وتوقفت على الفور، لكنني تركت ذراعي الآخرى تطوقها. ملأ صوت هورني العميق المتحشرج قاعة السينما التي لا يشغلها سوى عدد قليل من الزوار. قبل نهاية العرض شممت رائحة إصبعي وكان لها رائحة ثمار البندق غير الناضجة في طريق المدرسة: مُرة وصابونية وبلا طعم.

وفي طريق العودة إلى المنزل عدت إلى الحياد. تحدثت في شارع المحطة عن أن الفيلم كان ممتازا، لكن نشرة أخبار الأسبوع تعرض دائما للأشياء نفسها. وحكاية الظباء كانت مملة. وفي الصباح سنذهب ثانية إلى المدرسة الغبية، وبالتأكيد ستتحسن الأحوال بالنسبة لبابا برونيس: «ما رأي الناس في برلين عن هذا الأمر؟ هل كتبت للسيد هازيلوف وحكيت له القصة؟» وجدت جيني أيضا أن الفيلم الرئيسي جيد، هورني فنانة كبيرة فعلا. وتأمل هي أيضا أن تتحسن الأحوال بشأن

بابا برونيس، بالرغم من أن لديها أحاسيس أكيدة أنه. . . لكن السيد هازيلوف قد كتب إليها مرتين منذ ذلك الحين وسيأتي في الأيام القادمة ويأخذها معه: «إنه يقول إن لانغفور لم يعد المكان المناسب بالنسبة لي. والسيد امبس له الرأي نفسه. هل ستكتب إلي أحيانا عندما أذهب إلى فريق الباليه ببرلين؟»

شجعتني معلومات جيني. لقد ساعدتني معرفتي بذهابها هي وفستان حدادها على إيجاد كلمات لطيفة أقولها لها. ضممتها تحت ذراعي بحنان وأخذت طرقا ملتوية عبر شوارع جانبية وظللت واقفا معها في مارس أو فبراير تحت مصابيح الدفاع الجوي الزرقاء، وجذبتها إلى أقرب عمود إنارة وضغطتها على السور المعدني لحديقة منزل وتحدثت إليها مشجعا إياها أن تذهب إلى برلين مع هازيلوف. ووعدتها مرارا بأنني لن أكتف بالكتابة لها بين الحين والحين فقط بل بانتظام. وأخيرا، أمرتها أن تغادر لانغفور لأن جيني حملتني المسؤولية كاملة: «لو أنك لا تريدني أن أتركك فسأبقى معك، ولكن إذا رأيت أن السيد هازيلوف على حق، فسأذهب معه.»

ثم استشهدت في كلامي بشخص أرسلوه إلى شتوتهوف: «أنا أراهن أن لو بابا برونيس هنا لقال لك مثلي تماما: إذهبي إلى برلين! فلن يحدث لك شيء أفضل من ذلك.»

في شارع الإلزن شكرت جيني على ذهابها معي إلى السينما. قبلتها قبلة جافة سريعة وكانت جملتها الأخيرة كالمعتاد: «الآن أنا متعبة قليلا، ويجب علي علاوة على ذلك أن أستذكر دروس اللغة الإنجليزية من أجل الغد.» وسعدت لأنها لم تأخذني معها إلى المنزل الخالي للأستاذ برونيس. ماذا كان يمكن لي أن أفعل معها وسط الصناديق المليئة بأحجار الميكا والغلايين غير المنظفة ورغبات في رأسي لا تنشد شيئا من جيني وتريد الكثير من تولا.

عزيزتي بنت الخال،

ثم سقط الثلج قبل عيد الفصح بقليل وذاب سريعا. وفي الوقت نفسه بدأت حكاياتك مع القادمين من الجبهة لقضاء الإجازات، لكنك لم تحصلي على طفل. وبعد عيد الفصح بقليل كان هناك إنذار بغارات جوية ولكن لم تسقط عندنا أية قنابل. وفي بداية مايو أتى هازيلوف وأخذ جيني معه.

جاء في سيارة مرسيدس سوداء، كان جالسا وراء السائق، وهبط من

السيارة: نحيفا قليلا غريبا. وقد وارتدى فوق كتفيه معطفا واسعا جدا بكاروهات عريضة ملفتة للانتباه. فرك يديه ذات القفافيز البيضاء وتأمل واجهة مبنى الأكتسينهاوس وتحسس بعينيه بيتنا طابقا طابقا: وقفت بنصف جسدي وراء الستار ثم تراجعت إلى الحجرة ووقفت عند حافة السجادة. نادتني أمي لآتي إلى النافذة: «أنظر إلى هذا الرجل!»

أنا أعرفه. أنا أول من رآه، عندما كان جديدا. لقد ألقى لي بإحدى أسنانه وسط شجيرات البندق. ثم ذهب بعد ذلك بالقطار بعد فترة وجيزة من ميلاده الجديد. لقد بدأ يدخن وما يزال يدخن، مرتديا قفازه الأبيض. ما زلت أحتفظ بسنته في محفظتي. عندما رحل كان فمه متهدلا. والآن يعود وقد امتلأ فمه بالذهب: لأنه يضحك ويسير عبر شارع الإلزن صعودا وهبوطا ويضحك ويسير ويتأمل كل شيء بعناية. المنازل على الجانبين، أرقام البيوت الفردية والزوجية، حدائق المنازل العريضة التي يمكن البصق عليها وزهور البنسيه. لا يشبع من النظر ويغرق في ضحكات مكشوفة: ويظهر لكل النوافذ فم هازيلوف المليء بالذهب. يبصق ضحكات بلا صوت وكأنه ليس هناك في هذا العالم البيضاوي الشكل شيئا مثيرا للضحك والكشف عن الأسنان أكثر من شارعنا شارع الإلزن. لكن فيلزنر-امبس يخرج من بيتنا في احترام. ويُسدل الستار على الذهب الكثير في جو مايو المشمس. من وراء الستار أرى الرجلين أقصر قامة وهما يحييان بعضهما بأربعة أياد وكأنهما يحتفلان بلقاء بعد غيبة طويلة. يقف السائق مادا ساقيه بجانب المرسيدس ولا يكترث بما حوله. لكن كل النوافذ قد تحولت إلى مقصورات. يشكل الملاعين الصغار الذين لا يكبرون أبدا دائرة حول مشهد اللقاء. أدرك أنا والعصافير في مجاري الأمطار على الأسطح، بأنه قد عاد، يتأبط ذراع عازف البيانو ويخترق دائرة الملاعين الصغار الذين لا يكبرون. يجذب عازف البيانو إلى مبنى الأكتسينهاوس ويمسك له الباب باحترام ويتبعه، دون أن ينظر وراءه.

كانت جيني قد جمعت أغراضها في حقيبتين، حيث لم يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة وبعدها خرج فيلزنر-امبس وهازيلوف من مبنى الأكتسينهاوس. وغادرت المنزل في ملابس الحداد. غادرته مرتدية أنغوستري في إصبعها دون عقدي ذي الحلقات المطاطية، لقد وضعته بين ملابسها في واحدة من الحقيبتين اللتين أعطاهما فيلزنر-امبس وهازيلوف للسائق. رسم الملاعين الصغار في التراب

المتراكم على السيارة المرسيدس السوداء رجالا صغارا. وقفت جيني حائرة. ارتدى السائق طاقيته. أراد هازيلوف أن يزج جيني بلطف داخل العربة. رفع ياقة معطفه عاليا ولم يدر وجهه ثانية لشارع الإلزن. لقد كان في عجلة من أمره. لكن جيني لم ترد بعد أن تركب العربة. أشارت إلى ستائرنا واختفت داخل منزلنا قبل أن يتمكن هازيلوف أو امبس من منعها من ذلك.

من وراء الستائر قلت لأمي التي تفعل كل ما أطلبه منها: «لا تفتحي الباب عندما يدق الجرس. ماذا تريد مني؟»

دق الجرس أربع مرات. لم يكن جرسنا من النوع الذي يضغط عليه، بل من النوع الذي يدار مفتاحه. لم يصرخ جرسنا فقط، بل أز أربع مرات، دون أن نفارق أنا وأمي مكاننا خلف الستائر. سيظل ذاك الأزيز الذي كرره جرسنا أربع مرات في أذني. قالت أمي «الآن ذهبوا»، لكنني كنت أنظر إلى قطع الأثاث المصنوعة من خشب البندق والكمثرى والبلوط في حجرة الطعام.

كذلك ظلت أذناي محتفظتين بصوت موتور السيارة المنطلقة الذي يأخذ في الانخفاض والبعد، وغالبا ستظل محتفظتين به.

عزيزتي بنت الخال،

وبعد أسبوع جاء خطاب من برلين. كتبته جيني بقلمها الحبر. سعدت بالخطاب وكأن تولا قد كتبت لي بخط يدها. لكن تولا كانت تكتب بخط يدها لأحد جنود البحرية. طفت بخطاب جيني في كل مكان وقلت إن صديقتي البرلينية قد كتبت لي: جيني برونيس أو جيني أنغوستري، كما أطلقت على نفسها حاليا. إذ إن هازيلوف، معلم الباليه، ومدام نيرودا، مستشارة الدولة التي تدير فرقة الباليه الألماني التي كانت تحمل سابقا اسم فرقة باليه القوة من خلال الفرح، قد نصحاها بأن تتخذ لها اسما فنيا. بدأ التدريب بالفعل وكانوا يتدربون أيضا على رقصات شعبية بموسيقى ألمانية قديمة، وقد قامت مدام نيرودا الإنجليزية الأصل بالبحث والتنقيب عن هذه الرقصات. ومدام نيرودا هذه غريبة الأطوار، فمثلا: «عندما تخرج أو تذهب إلى حفل استقبال كبير ترتدي معطفا من الفراء ولا ترتدي تحته فستان بل ترتدي زي التدريب. لكنها تستطيع عمل ذلك وتمتلك كلبا اسكوتلنديا له عيناها نفسهما. يعتقد البعض بأنها جاسوسة، لكنني أنا وصديقتي لا نعتقد ذلك.»

وبعد عدة أيام كتبت لجيني سلسلة من الخطابات الغرامية مليئة بالتكرارات والأمنيات المباشرة. كنت أكتب كل خطاب مرتين حيث إن الصيغة الأولى للخطاب كانت مليئة بعبارات غير حذرة. كثيرا ما كتبت: «صدقيني يا تولا!» أو «لماذا يا تولا؟ اليوم في البكور يا تولا. لو أردت يا تولا. أرغب فيك يا تولا. حلمت يا تولا. أريد أن ألتهم تولا أن أضمها أحبها وأنجب منها طفلا.»

ردت جيني في موعدها بانتظام بخط منمق ونظيف. كانت تكتب بشكل منسق وتحافظ على الهامش وتملأ صفحتين من ورق الخطابات الأزرق على الوجهين برد على عروضي ووصف لبيئتها الجديدة. لقد أجابت جيني على كل ما أردته من تولا بنعم، ما عدا إنجاب الطفل فقد كان ذلك مبكرا بعض الشيء بالنسبة لها وكذلك بالنسبة لي، يجب علينا أولا أن ننجز شيئا كل في مهنته، هي على خشبة المسرح وأنا كمؤرخ، كنت أريد أن أصبح مؤرخا.

وحكت عن تلك السيدة الغريبة الأطوار مدام نيرودا قائلة بأنها تمتلك أكبر مكتبة للباليه في العالم، بل ولديها نسخة أصلية بخط نوفيرا العظيم Noverre. وكانت تقول عن السيد هازيلوف إنه شخص غريب وفريد، وبمجرد انتهائه من التدريب القاسي، المبهر في ذات الوقت، يذهب إلى الأتيليه الخاص به ويصنع ماكينات تشبه البشر. كتبت جيني: «إنه لا يحفل كثيرا بالباليه الكلاسيكي، حيث إنه كثيرا ما يسخر سابا الراقصين والراقصين أثناء التدريب، عندما لا تسير الأمور على ما يرام ويقول «سأقوم برفت هؤلاء الدمى غدا. لا بد أن يضعوكم في مصنع للذخيرة. هناك تستطيعون لف القنابل اليدوية ما دمتم غير قادرين على عمل بيرويتة واحدة نظيفة مثلما تفعل ماكيناتي!» إنه يدعي أن تماثيله الموجودة في القبو قادرة على عمل اتيتود جميل يدعو للورع: «ستشحب وجوهكم من الغيرة وستعرفون معنى الباليه الكلاسيكي الحق أيتها السدادات والثقوب.»

هكذا كان السيد هازيلوف يسمي الراقصين والراقصات. في إحدى الخطابات التالية التي أرسلتها لي جيني إلى عنواني بشارع الإلزن وجدت وصفا لأحد هذه التماثيل ورسما كروكيا له في ذيل الخطاب. كان التمثال يقف مستندا على إحدى عوارض التدريب الأفقية ويوضح للسدادات والثقوب حركة Port de bras وفقا للقواعد المقررة.

كتبت جيني: «ولن تصدقني إن قلت لك إنني قد تعلمت كثيرا من تلك

التماثيل الميكانيكية، التي لا تنتمي بالمناسبة لا إلى السدادات ولا إلى الثقوب. لقد اتضحت لي بخاصة جوانب ضبط استقامة الظهر والنقاط الصغيرة عند حمل وتحريك الذراع، حيث أهملت مدام لارا ذاك الجانب. وحيثما أقف أو أذهب، سواء كنت ألمع حذائي أو أرفع كوبا من الحليب، أرى دائما نقاط صغيرة أمامي في الهواء. وحتى عندما أتثاءب - ففي المساء يحل التعب بنا جميعا - أحرص أثناء وضعي ليدي أمام فمي على رؤية تلك النقاط. الآن أريد أن أختم الخطاب، أحبك جدا وأعانقك عند نعاسي وفي البكور أيضا عندما أصحو. وأرجوك لا تقرأ كثيرا وإلا فستهلك عينيك - المخلصة لك دائما جيني.»

عزيزتي تولا،

حاولت بهذا الخطاب أن أمد جسرا إليك. لم نتجنب بعضنا في بئر سلم بيتنا ولم أحاول أن أقي نفسي من احمرار الوجه: «أنظري، جيني كتبت لي مرة أخرى. هل يعنيك ذلك؟ إنها تكتب أشياء غريبة عن الحب وما إلى ذلك. لو أردت أن تضحكي، فما عليك إلا أن تقرأي الخطاب وترين ما كتبت. إن اسمها الآن أنغوستري، مثل خاتمها وستقوم قريبا بجولة مع فريق المسرح.»

عرضت عليها الخطاب المفتوح وكأنه شيء غير مهم ولكنه مسلّ بعض الشيء. ضربت تولا بإحدى أصابعها على الورق: «لا بد أن تفكر في أشياء أخرى وألا تأتي إلي طوال الوقت بهراء الباليه والكلام الفارغ.»

كان شعر تولا طليقا وبنيا كالخردل، يصل إلى كتفيها وينساب في خصلات كثيرة. كان ما يزال ممكنا رؤية شيء من تصفيفة التجعيد الدائم التي دفع جندي البحرية من بوتسيغ ثمنها لها. علقت خصلة شعر فوق عينها اليسرى. بحركة آلية تفوق في آليتها تماثيل هازيلوف، أرجعت خصلتها للوراء مصحوبة في الوقت نفسه بزفرة مستهينة، وبهزة من كتفها العظمية أعادت الخصلة لتعلق فوق العين نفسها. لكنها لم تكن تزينت بالماكياج بعد. ولكن عندما قبضت دورية شبيبة هتلر عليها بعد منتصف الليل على المحطة وبعد ذلك على إحدى الدكك بحديقة أوبهاغن مع أحد طلاب مدرسة الملازمين البحريين بنويشوتلاند، كانت تولا في كامل زينتها.

لقد طردوها من المدرسة. قال أبي بأنه أنفق ماله بلا فائدة. ويقال إن تولا قد قالت لمديرة مدرسة غودرون التي أرادت رغم بلاغ الدورية أن تعطي لها

فرصة أخرى: «اطرديني يا سيادة المديرة. أنا على أي حال لم أعد أحتمل المكان. أنا أفضل أن أنجب طفلا من أي شخص، حتى يحدث شيء ما هنا في لانغفور وعامة.»

لماذا أردت إنجاب طفل؟ هكذا! طُردت تولا من المدرسة، لكنها لم تحصل على طفل. أثناء النهار كانت تجلس بالبيت وتسمع الراديو وبعد العشاء تخرج. جلبت لأمها ذات مرة ستة أمتار من أفضل أنواع قماش البحرية. وذات مرة جاءت مرتدية فرو ثعلب من جبهة القطب الشمالي. ومرة أخرى حصلت على كرة من حرير المظلات. كانت ترتدي هي وأمها ملابس داخلية من كل أنحاء أوروبا. وعندما جاء مسؤولون من مكتب العمل وأرادوا أن يضعوها في مصلحة الكهرباء، حصلت على إجازة مرضية من د. هولاتس: فقر دم وتلوث بالرئة. حصلت تولا على حصص إضافية من التموين ودعم مادي نتيجة لمرضها لكن ذلك لم يكن مالا كثيرا.

وعندما انتقل فيلزنر-امبس بساعته الرملية الكبيرة والباليرينا المصنوعة من البورسيلين والسمكة الذهبية وجبل النوتات الموسيقية والصورة المصفرة إلى برلين. لقد طلبه هازيلوف ليعمل عازفا لفرقة الباليه، أرسلت تولا معه خطابا: لجيني. ولم أستطع أبدا معرفة ما كتبته تولا بقلمها الحبر لجيني، لأن جيني لم تذكر في الخطاب بعد التالي سوى أن فيلزنر-امبس قد وصل بالسلامة وأن تولا قد كتبت لها خطابا لطيفا وأنها تبعث بتحياتها لتولا.

وهكذا وقفت أنا على الهامش مرة أخرى وصار بين الفتاتين شيئا مشتركا. لم يعد وجهي يحمر عند رؤيتي لتولا بل صار يشحب كالطباشير. صحيح أنني ظللت ملتصقا بك، لكنني تعلمت تدريجيا أن أكرهك أنت وغراءك. وقد يسرت لي الكراهية وهي مرض بالنفس قد يسبب الشيب المبكر، التعامل مع تولا: كنت أسدي لها نصائح طيبة ببرود واستعلاء. لكنني لم أترك للكراهية أن تتجسد في صورة فعل، أولا لأنني كنت أراقب نفسي من صحوي لغفوتي وثانيا لأنني كنت أقرأ كثيرا وثالثا لأنني كنت تلميذا مجتهدا، وكدت أصبح تلميذا لا يعرف غير المذاكرة ولا وقت لديه لممارسة كراهيته، رابعا لأنني بنيت لنفسي محرابا، وقفت فيه جيني ضامة أصابع قدميها ومرتدية جوبة الباليه المنفوشة (التاتو) وذراعاها عالقتان بالهواء: بمعنى أصح: لقد جمعت رسائل جيني وأردت أن أخطبها.

محبوبتي تولا،

رغم أن جيني كانت مهذبة ومملة عندما تجلسين بجانبها أو أمامها، لكنها كانت قادرة على كتابة الرسائل بشكل مشوق وبأسلوب ساخر وقح. وكان لعينيها التي تبدو من الخارج مثقلة بالرموش وحزينة وغبية، ملكة تفحص الأشياء واختبارها بحدة وجفاف، حتى عندما تقف هذه الأشياء على أطراف الأصابع تحت أضواء خشبة المسرح وتعبر عن بجعة محتضرة.

وهكذا وصفت لي أحد دروس الباليه التي أعطاها هازيلوف لسداداته وثقوبه. كان عليهم دراسة باليه يفترض أن اسمه: «فزاعات طيور» أو «فزاعات الطيور» أو «البستاني وفزاعات الطيور».

ولم ينجح التدريب لا على عوارض التدريب الأفقية ولا في الخلاء. جلس فيلزنر-امبس بظهره المحني تماما وأعاد مقطوعة شوبان دون جدوى. في الخارج وقفت أشجار الصنوبر أمام النوافذ في المطر وقد امتلأت بالسناجب والماضي البروسي. في الصباح كان هناك إنذار بغارة جوية. وأجري التدريب في قبو التدفئة. ذوت الثقوب اللائي ارتدين زيا أسود على قضيب الباليه الطويل. ورمشت عيون السدادات محقونة بالنعاس، حتى قفز هازيلوف بركبتين مفرودتين على البيانو، وهو أمر قد تعود عليه فيلزنر-امبس ولا يلحق ضررا بالبيانو، حيث إن هازيلوف كان قادرا من وضع الوقوف على عمل قفزات عالية وبطيئة وطويلة وأن يهبط بحذر على غطاء البيانو البني دون أن يهز أحشاء الآلة المضبوطة بعناية. عندئذ توجب على السدادات والثقوب أن تفيق، حيث إنها كانت جميعها تعرف معنى قفزة هازيلوف الغاضبة على البيانو والآثار المترتبة عليها.

تحدث هازيلوف محذرا السدادات والثقوب من أعلى ولكنه لم يتحدث إليها مباشرة ولكن عبر مرآة الباليه التي جعلت من واجهة الصالة عينا سحرية: «هل يتوجب علي أن أخرج فرشاتي الصغيرة؟ هل تنقصك الرغبة في الحياة؟ هل ينبغي على الفئران أن تقرض البجعات من أسفل؟ هل يتوجب على هازيلوف أن يخرج قرطاسه الصغير؟»

وأعاد تمرينات العوارض الأفقية: Grand plié مرتين في الوضع الأول والثاني والخامس. ثماني حركات Dégagé ممدودة وست عشرة حركة سريعة في الوضع الثاني، ثماني حركات Petit battements dégagé مع ملامسة الأرض

بخفة والتركيز على توجيه القدم للداخل. لكن الثقوب كانت هي وحدها القادرة على ملامسة النقطة على الأرض والتوجه نحو الداخل، أما السدادات فلم يستطع الكيس الذي هددها به أمزل ولا شوبان أن يبعث فيها الرغبة في الحياة أو يجعلها قادرة على عمل Plié نظيفة: مثل عجين بالملعقة، أو زيت سلاطة مخفوق بعض الشيء، أو عسل تركي تسيل خيوطه، هكذا فرد الصبيان أو السدادات أجسامهم- فولفشن ومارسيل وشميتشن وسيرغى وغوتي وايبرهارد وباستيان- ورمشت أجفانهم وتنهدوا قليلا ما بين حركات Battements fondus على نصف طرف الأصابع وأداروا رؤوسهم عند Rond de jambes . la seconde مثل طيور البجع قبل حصولها على طعامها بقليل وانتظرت السدادات السبع الغافية في استسلام قفزة هازيلوف الثانية ولم تتأخر تلك الأخيرة فجاءت أثناء أدائهم حركة .Grand Battements

عاود هازيلوف قفزته من وضع الوقوف. ومن فوق البيانو قفز عابرا فوق شعر عازف البيانو الناصع البياض إلى وسط الصالة مواجها للمرآة بركبة ممدودة وظاهر قدمه مفرود بصورة مدهشة. ودون أن يخفي شيئا عن المرآة أخرج مثل الحاوي القرطاس الذي سبق الإعلان عنه من قبل. القرطاس المدبب، القرطاس المخروطي، القرطاس المشهور المهاب المحبوب جدا، القرطاس ذو البودرة البيضاء الذي يعطي إحساسا بالراحة ولكن بقدر، أخرج القرطاس الذي يزن ثُمن رطل من جيب الصديري وأمر كل الفتيات أو الثقوب أن تترك عارض الرقص. وأرسلهن إلى الركن بجانب المدفأة الضخمة الذات اللظى والخدود المتوهجة. وهناك تزاحمن هامسات وأدرن وجوههن للحائط وأغشين أعينهن علاوة على ذلك بأصابعهن الشاحبة. وحتى فيلزنر-امبس غطى رأسه الذي يشبه لبدة الأسد بشال حريري.

في تلك الأثناء بينما كانت العيون مغطاة والرأس مغطى بخجل، أمر هازيلوف: "Face à la barre!" نزع سبعة صبيان وسدادات زي التدريب الصوفي بألوانه السوداء والوردية والصفراء وذات الخضار الربيعي عن لحم الصبيان. ثم طقطق بأصابعه الجافة "Préparation": واصطفوا ووجوههم للحائط برموشهم التي لا تكل على عارض الرقص وأمسكت أياديهم الأربع عشرة العارض الخشبي. تنحني سبعة جذوع مع فرد الأذرع، مدعومة بمقطوعة شوبان

المعزوفة بأصابع عمياء، وتضغط الركبة وتتيح لمؤخرات الغلمان ذات البشرة الناعمة أن تظهر سبع مرات في صالة التدريب ذات التدفئة الجيدة.

اتخذ هازيلوف وضع الاستعداد بجانب المؤخرة الأولى، وأمسك في يسراه القرطاس المدبب وفي يمناه ظهرت بين إصبعيه فجأة فرشاة صغيرة، غمس الفرشاة الغالية التي تعمر طويلا والمصنوعة من شعر حيوان الغُرير في القرطاس وبدأ مستعينا بفيلزنر-امبس يصفر مع نفسه مقطوعة Polonaise العريقة. وكان يتنقل دائما بخفة من مؤخرة صبي إلى مؤخرة سدادة معتمدا على صدق المرآة.

وأثناء ذلك كان يخرج الفرشاة المصنوعة من فرو الغُرير من الكيس سبع مرات ويغرسها ويتركها تختفي سبع مرات في ثقب الصبيان، في مؤخرة السدادات، وهذا هو الهدف من كل هذه الغلبة. إظهر وبان عليك الأمان.

لم يكن ذلك مسحوقا للأقدام، أو منوم. لم يكن مسحوقا للتخسيس ولا ضد الأسود ولا مسحوق الخبيز ولا د.د.ت.، لم يكن حليبا مجففا ولا كاكاو ولا سكر بودرة، لم يكن دقيقا لخبز أرغفة الخبز الصغيرة ولا مسحوقا لتنظيف الأسنان. الشيء الذي لم يكل هازيلوف عن تحميل فرشاته به سبع مرات كان عبارة عن فلفل أسود ناعم. أخيرا أنهى عرضه التربوي بدورة بيرويت بطيئة بالقرب من المرآة، ثم وقف مواجها الصالة بفمه ذي الأسنان الذهبية وصاح: «Alors mes enfants!، أولا السدادات وبعد ذلك الثقوب، الوضع الأول: Grand plié, bras en couronne!»

وما كاد امبس، الذي لم يعد أعمى، يضع أصابعه على البيانو محملة بشوبان حتى دارت من تلقاء نفسها سبعة أجسام ملونة بسرعة البرق فوق مؤخرات الصبيان السبعة المفلفلة: حدث تقدم بالتمرين، أصبحت الأقدام أسرع والسيقان أعلى ودوران واسع للأذرع. تكف الرموش عن الارتعاش. تستفيق الخطوط ويعرق الجمال. ثم يخفي هازيلوف الفرشاة المصنوعة من فراء الغُرير في مكان ما.

وهكذا استمر تأثير الفلفل حتى بعد التمرين الناجع للثقوب والذي تم دون فلفل، حتى أن السدادات التي أنعشها الفلفل قد دعت الثقوب إلى عمل بروفة لباليه فزاعات الطيور: الفصل الثالث، تدمير حشود الفزاعات للحديقة حتى حركة Pas de deux.

ونظرا لنجاح العرض الكبير للموسيقى البروسية العسكرية بعد ذلك في تحقيق فوضى دقيقة على أطراف الأصابع، أمر هازيلوف بفمه الذهبي بإنهاء التدريب ولوح بمنشفته وأمر فيلزنر-امبس أن يغلق البيانو وأن يدفن شوبان والمارشات العسكرية البروسية في حقيبة مستنداته. ثم وزع الدرجات على الراقصين والراقصات: «برافو فولفشن، برافو شميتشن، برافو لكل السدادات والثقوب، وبخاصة برافو لجيني ومارسيل. ستبقيان معي بعض الوقت. سنقوم بالتدريب على مشهد ابنة البستاني والأمير، الفصل الأول بدون موسيقى بـ demie-pointe. والآخرون يذهبون للنوم في موعدهم بالضبط ولا يتلكأون. في الصباح الباكر: تجتمع الفرقة بأكملها، اختطاف ابنة البستاني والنهاية الكبرى.»

عزيزتي تولا،

كتبت لي جيني في خطابها هذا الذي حاولت أن أعرض لمحتواه هنا، كما في خطاباتها الأخرى أنها تحبني وستظل تحبني دائما، برغم أن هازيلوف يعرض عليها حبه بتحفظ وبسخرية شديدة. لكنها تقول إن علي ألا أخشى شيئا. بالمناسبة، لقد قالت إنها ستأتي إلى لانغفور ولو ليومين: «يجب إخلاء المنزل الآن. لذلك نريد أن ننقل الأثاث ومجموعة الأحجار إلى مكان آمن. لا يمكن لك أن تتخيل كم المكاتبات التي أجريناها للحصول على تصريح بنقل الأشياء. لكن هازيلوف قادر على التعامل مع هؤلاء الناس. إنه يرى على أي حال أن الأثاث سيكون في مأمن بلانغفور عنه في برلين حيث إن القصف يتزايد علي برلين. إنه يريد نقل الأحجار إلى الريف بسكسونيا السفلى. إنه يعرف فلاحين ومديرا لأحد المناجم.»

عزيزتي تولا،

في البدء وقفت عربة أثاث أمام المنزل المقابل. وقف في نوافذ منزلنا خمسة عشر من المستأجرين. ثم صفت السيارة المرسيدس بلا صوت وراء عربة الأثاث لكنها تركت مكانا للتحميل. وقف السائق مرتديا قبعته في الوقت المناسب أمام باب السيارة. خرجت جيني مرتدية معطفا من الفراء، غالبا من فراء حيوان الخلد ووقفت على الرصيف، كان رأسها بين ياقة مرفوعة. واتجهت بنظرها تجاه نوافذنا: سيدة لا ينبغي لها أن تصاب بالبرد. تأبط هازيلوف ذراع جيني وكان يرتدي معطفا فضفاضا من البوليستر الأسود بياقة بنية من الفراء. ممهد الطريق،

الوكيل الفني الكبير الذي تقصر قامته عن جيني بمقدار رأس: هيرمان هازيلوف بفمه المليء بالأسنان الذهبية. لكنه لم يضحك ولم يتأمل منزلنا. شارع الإلزن لم يكن موجودا. قال أبي من وراء الجريدة التي يقرأها: «بإمكانك أن تذهب لتساعدها في النقل، بما أنكما تتراسلان كثيرا.»

كدت لا أجد يدي جيني وسط المعطف الفرو الفضفاض. لم يتبق لدى هازيلوف سوى نظرة خاطفة ثم أعقب قائلا «هكذا الأمر إذن، سدادة رائعة»، ثم وجه أوامره لعمال نقل الأثاث وكأنه يقود فرقة باليه. لم يسمح لي بالمساعدة ولا بالصعود إلى بيت جيني. كان تحميل الأثاث شيئا مثيرا فقطع الأثاث معظمها ثقيلة من البلوط البني الغامق، لكن بفضل تعليمات هازيلوف أصبح تحميل خزانة كتب ثقيلة بعرض الحائط شيئا يسيرا جدا. وعندما غادرت غرفة نوم جيني الأكتسينهاوس وكانت الغرفة مصنوعة من خشب البتولا الفاتح على طراز البيدرماير من القرن التاسع عشر، تهادت قطع الموبيليا فوق رؤوس الرجال الضخام وصنعت «بالونا» مثل راقصي الباليه. أثناء نقل مشاجب المعاطف والكومودينو، التفت هازيلوف إلي، ودون أن يدع الحمالين يتركون أحمالهم، دعاني أنا وجيني إلى العشاء بفندق عدن عند محطة القطار، حيث يسكن الاثنان. على الرصيف رُصت صناديق ثقيلة مفتوحة بين آخر كراسي المطبخ. قبلت الدعوة «الساعة السابعة والنصف.» وفجأة وكأن هازيلوف قد دبر ذلك، سطعت الشمس وكشفت عن اللمعان داخل الصناديق، بل وانتعشت رائحة الأستاذ الغائب معها: خرجت رائحة الغليون البارد. لكن بعضا من صناديق أحجار النايس اللامعة لا بد أن يبقى. أحاطت ثمانية أو تسعة صناديق عربة الأثاث من الداخل وبقي صندوقان. هنا جاء دوري في باليه هازيلوف عن حمالي الأثاث، حيث عرضت إيجاد مكان لأحجار النايس والغرانيت اللامعة وللأحجار البيوتيت والموسكوفيت في قبو بيتنا.

سألت أبي الإذن وهو في صالة الماكينات وفاجأتني موافقته الهادئة «أجل يا بني، في القبو الثاني بجانب أفاريز النوافذ ما يزال هناك مكان. ضع صندوقي الأستاذ هناك. لا بد أن لتجميعه الأحجار طوال حياته معنى ما.»

عزيزتي تولا،

وُضعت الصناديق في قبونا. وفي المساء جلست بجانب جيني وأمام

هازيلوف في صالة الطعام الصغيرة بفندق عدن. يحتمل أنك قد تقابلت مع جيني وحدها في العصر. لماذا؟ هكذا دون سبب! لم نتحدث إلا قليلا وأخذ هازيلوف ينظر عبر المسافة الموجودة بيني وبين جيني. قيل إنكما تواعدتما في مقهى فايتسكه في حارة فولفيير. عما تحدثتما؟ في كل شيء! تعلقت خنصر جيني بخنصر تحت المائدة. أنا متأكد من أن هازيلوف قد لاحظ ذلك. ما الذي يقدمه مقهى «فايتسكه»؟ الكاتوه السيئ والآيس كريم كثير الماء لجيني. في مطعم «عدن» أكلنا حساء السلحفاة وشرائح لحم الخنزير المقلية الطريقة الفييناوية وكشك ألماز من العلب المحفوظة والحلو كان بودنغ مجمداً بناء على رغبة جيني. ربما تبعتكما أنا حتى كولنماركت ورأيتكما وأنتما تجلسان في مقهى فايتسكه وتتحدثان وتتضحكان وتصمتان وتبكيان لماذا؟ هكذا دون سبب! بعد الأكل لاحظت في وجه هازيلوف المشدود أو الجامد ألفا أو أكثر من نقاط النمش الرمادية بلون الجليد. كان بوجه إيدي أمزل الممتلئ، حينما كان ما يزال حيا، نقاط نمش أقل ولكنها كانت أكبر بلون بني حقيقي. ثرثرتما لساعتين على الأقل بمقهى «فايتسكه». في الساعة التاسعة والنصف مساء كان علي أن أبدأ الحديث: «كنت أعرف شخصا ما يشبهك، لكن كان له اسم آخر.»

أشار هازيلوف للنادل: «كوب من الليمون الساخن من فضلك.»

كنت أحتفظ في ذاكرتي بكامل النص: «كان يدعى في البداية شتبنهون ثم أصبح يدعى شبيربالا ثم شبيرلنسكي. هل تعرف هذا الشخص؟»

حصل هازيلوف المصاب بالبرد على الليمون الساخن.

«شكرا، الحساب من فضلك.»

أعد النادل الحساب وهو يقف ورائي. أكملت «وبل وصار اسم الرجل الذي عرفته لعدة دقائق تسوخول، ثم صار اسمه تسيلينسكي. ثم وجد اسما ما يزال يدعى به ليومنا هذا. هل تريد أن تعرف اسمه، أو هل تريدين ذلك يا جيني؟»

وضع هازيلوف قرصين أبيضين من الدواء على ملعقة الشاي بالليمون ودفع الحساب بعملات ورقية وأخفى وجهه وراء الحساب وقال «الحساب مضبوط!»

وعندما أردت أن أنطق باسم الرجل، تناول هازيلوف القرصين وأطال في شرب الليمون الساخن. ضاعت الفرصة وأصبحت جيني متعبة. ولم يتحدث

هازيلوف إلي إلا في صالة الفندق، بعد أن أمكن لجيني أن تعطني قبلتها. أظهر بعض أسنانه الذهبية وتحدث بصوت أجش: «أنت موهوب وتعرف أسماء كثيرة. سأقوم بدعمك اليوم أو بعد غد وأذكر لك اسما آخر: براوكسل Brauxel بحرف X أو براوكسل Brauksel وتكتب مثل كلمة هيكسل Häksel أو مثل فايكسل Brauchsel. انتبه جيدا لهذه الأسماء وطريقة كتابتها.»

ثم صعد الاثنان الدرج بأناقة وتلقائية. نظرت جيني حولها عدة مرات حتى بعد مغادرتي لصالة الفندق وفي رأسي أسماء براوكسل الثلاثة.

عزيزتي تولا،

هذا السيد براوكسل موجود، لقد وجدته حينما بحثت عنك. لقد أرشدني إلى الطريقة التي أكتب بها عندما أكتب إليك وحول لي نقودا كي أستطيع الكتابة إليك وأنا خالي البال. وهو يمتلك منجما بين هيلدسهايم وزارشتيت. أو يديره فقط أو له النصيب الأكبر من الأسهم فيه. أو أن كل ذلك ليس سوى نوع من النصب والخداع. تمويه للطابور الخامس، حتى ولو كان اسمه براوكسل ويكتب بثلاث طرق Brauxel Brauksel Brauchsel. منجم براوكسل لا ينتج معادن ولا ملحا ولا فحما. منجم براوكسل ينتج شيئا آخر. لا يجوز لي أن أذكره. لكنني أستطيع ويتحتم علي ذكر اسم تولا دائما. وعلي أن ألتزم بالرابع من فبراير كموعد للانتهاء من الكتابة. وعلي أن أرص جبل العظام وأنهيه بالحدوتة الختامية، حيث إن براوكسل يرسل برقياته معجلا وملحا: «يقترب اقتران كواكب برج الدلو، رُص جبل العظام، توقف، التمهيد للإجهاض، توقف، دع الكلب يهرب، وانته في الوقت المناسب.»

كان يا ما كان، كان هناك بنت اسمها تولا

وكان لها جبين طفلة نقي، لكن ليس هناك شيء نقي ولا حتى الجليد نقي، ولا العذارى وحتى الخنزير ليس نقيا. لا يعلو صوت نقي. كل آلات الكمان تعرف ذلك. وكل نجم يرن معلنا ذلك. كل سكين تقشرها: حتى البطاطس ليست نقية، فبها عيون ويجب تقويرها.

ولكن ماذا عن الملح؟ الملح نقي! لا شيء نقي، حتى الملح ليس نقيا. يكتبون ذلك فقط على العبوات: ملح نقي. لكنه يترسب. وماذا يترسب معه؟

لكنه يُغسل. لا شيء يستحيل بغسله نقيا. ولكن العناصر الأساسية نقية. قد تكون معقمة ولكنها ليست نقية. والفكرة، ألا تظل نقية؟ حتى بدايتها ليست نقية. والمسيح يسوع ليس نقيا. ماركس وإنغلز ليسا نقيين. والرماد ليس نقيا والقرابين ليست نقية. لا توجد فكرة نقية وحتى الفن لا يزدهر نقيا. والشمس بها بقع معتمة. كل الملائكة الحارسة تحيض. فوق الألم تسبح الضحكات. وفي عمق الصراخ يقبع الصمت. وفي داخل المربعات ترتكز سنون الفرجار. - لكن الدائرة نقية!

لكن لا توجد دائرة تنغلق نقية، لأنه حين تكون الدائرة نقية، يصبح الجليد نقيا وتصبح العذراء نقية والخنازير ويسوع المسيح وماركس وإنغلز والرماد الخفيف وكل الآلام والصراخ يسارا والصمت يمينا والأفكار لا شيء فيها والقرابين لا تعد دموية وتصير الملائكة الحارسة جافة، وتظل المربعات مربعات محضة وترسم آلات الفرجار الدوائر بإخلاص: نقية وإنسانية، قذرة ومالحة، شيطانية ومسيحية وماركسية، ضاحكة وصارخة، مجترة وصامتة ومقدسة، مستديرة نقية مربعة. والعظام، الجبال البيضاء، التي رُصت مؤخرا ونمت نظيفة دون غربان: بهاء الأهرام. لكن الغربان غير النقية نعقت بالأمس بصوت متحشرج: لا شيء نقي، لا الدائرة ولا العظام. والجبال المصنوعة ليتراص عليها النقاء، ستذوب وتغلي وتفور، حتى يبقى الصابون نقيا ورخيصا، لكن حتى الصابون لم يعد يغسل نقيا.

كان يا ما كان، كان هناك بنت اسمها تولا

أتاحت لكثير من البثور الصغيرة والكبيرة أن تزدهر وتذبل على جبينها الطفولي. قاوم ابن عمتها هاري بثوره طويلا. لم تلجأ تولا أبدا إلى الصبغات أو وسائل علاج البثور. لم تضع اللوز المطحون أو الكبريت ذي الرائحة الكريهة أو مستحلب الخيار ولا دهان الزنك على جبينها. لقد حملت بثورها بهدوء، حيث ظلت تحتفظ بذاك الجبين الطفولي وذهبت مع ضباط الصف وتلاميذ مدرسة القادة في ليل الحدائق الأسود، لأنها كانت تريد إنجاب طفل لكنها لم تنجب.

وعندما حاولت تولا مع كل أسلحة الجيش وكل الرتب دون جدوى، نصحها هاري أن تجرب مع تلاميذ الثانوي الذين يرتدون الزي العسكري، فقد ارتدى هو في الآونة الأخيرة ملابس سلاح الطيران الزرقاء ولم يعد يسكن شارع

الإلزن، بل صار يقطن في إحدى ثكنات بطارية الدفاع الجوي على شاطئ غليتكاو-بروزن وذلك في أجمل الأوقات الصيفية الملائمة للاستحمام. كانت البطارية مزودة باثني عشر مدفعا عيار ٨٨ مليمترا، وكثير من مدافع الدفاع الجوي عيار ٤٠ مليمترا.

في البداية حمل هاري رقم ٦ وكان تابعا لطاقم مدفعية يعمل على مدفع عيار ٨٨ مليمترا على حامل دوار. وكان على رقم ٦ أن يشغل ماكينة الإطلاق من خلال تحريكه لذراعي إدارة الماكينة. قام هاري بعمل ذلك طوال خدمته كمساعد بسلاح الطيران. وكان ذلك مكانا محببا، حيث إنه كان الوحيد من بين أفراد الطاقم التسعة الذي يستطيع الجلوس على مقعد صغير مثبت بالمدفع وكان يدور مع المدفع ولا يحتاج إلى تكسير قصبة ساقه على حامل المدفع الحديدي. جلس هاري أثناء التدريب على المدفع موليا ظهره لفوهة المدفع وغرق في أفكاره أثناء تحريكه للذراع بمؤشرين ميكانيكيين يتلوهما بسرعة مؤشران كهربيان، موزعا بين تولا وجيني. وكان يصنع ذلك بمهارة، كان المؤشران الميكانيكيان يستثيران المؤشرين الكهربيين، تولا تستثير جيني، وقد ساعد ذلك على حسن أداء تشغيل ماكينة الإطلاق والحصول على رضا الجاويش القائم بالتدريب.

كان يا ما كان، كان هناك جاويش،

يستطيع الصر بأسنانه عاليا. وقد حمل قلادة مصابي الحرب الفضية إلى جانب أوسمة أخرى. لذلك كان يعرج قليلا، لكن عرجه كان يتضح أكثر للعيان بين ثكنات بطارية الدفاع الجوي على شاطئ غليتكاو-بروزن. كان يعرف الحزم والعدل، وكان مثارا للإعجاب وقد قلده البعض بشكل سطحي. وكان عند ذهابه إلى كثبان الشاطئ لصيد الأرانب، يأخذ معه أحد المساعدين بسلاح الطيران كمرافق وقد أطلق الآخرون على هذا الشخص اسم شتورتبكر. كان الجاويش لا يتحدث إطلاقا أثناء صيد الأرانب أو كان يقتبس عبارات للفيلسوف نفسه مع وقفات ثقيلة. وردد شتورتبكر وراءه وصنع بذلك لغة فلسفية خاصة بطلبة الثانوي وتداولها الآخرون ورددوها بدرجات متفاوتة من التمكن.

وقد بدأ شتورتبكر دائما جمله بمقدمة هي: «أنا بوصفي ما قبل سقراطي». ومن يراقبه أثناء خدمات الحراسة كان يرى أنه قد أمسك بعصا في يديه وبدأ يخط

شيئا في الأرض. كان يخطط بعصاه المتأملة قدوم الجوهر الذي لم يُنطق بعد للتجلي، أي الطريق الرشيق للوجود. وحينما يقول هاري «الوجود Das Sein» يصحح شتورتبكر كلامه في غير صبر قائلا: «أنت تقصد الكائن Das Seiende ثانية!»

وحتى في الحديث اليومي العادي كانت الألسن المتفلسفة تطلق عبارات ما قبل سقراطية، مقيّمة كل حدث عادي وكل شيء بمعارف الجاويش التي اكتسبها بشق الأنفس. فكانوا يقولون عن البطاطس غير المطهية جيدا إنها بطاطس منسية الوجود، حيث كان المطبخ غير مزود بطعام كاف وكانت الإدارة به سيئة. وإذا قال أحدهم شيئا مقتبسا أو سبق الوعد به أو مزعوم، كانت الإجابة المطلقة تأتي في الحال: «من ذا الذي يفكر في شيء سبق التفكير فيه Gedachtes!» أي شيء مقتبس أو سبق الوعد به أو مزعوم. وأصبح التعبير عن الحقائق اليومية للحياة في بطارية الدفاع الجوي كالتدريبات العقابية شبه الحازمة وتجارب الإنذار المزعجة وتنظيف الأسلحة الذي يجعل رائحة الأصابع كريهة، بعبارة سمعوها من الجاويش: «جوهر الوجود المتعين يكمن الآن في وجوده.»

وكان استخدام كلمة الوجود في كل موضع مناسبا: «وجد لي سيجارة. من يأتي معنا للوجود في السينما؟ لو لم تخرس سأوجد لك لكمة.»

ومن كان يحصل على إجازة مرضية كانوا يقولون عنه إن له وجود زكيبة القش. وإجازة نهاية الأسبوع كانت تسمى راحة الوجود. وإذا ما علق أحدهم فتاة، مثلما علق شتورتبكر تولا ابنة خال هاري، كان يتفاخر بعد نوبة الرجوع بعدد المرات التي أصاب فيها وجود الفتاة.

وقد حاول شتورتبكر أن يرسم الوجود ذاته بعصا في الرمل وفي كل مرة كان منظره يبدو مختلفا.

كان يا ما كان، كان هناك مساعد بسلاح الطيران،

وكان اسمه شتورتبكر، وكان من المفترض أن يحبّل ابنة خال هاري وقد حاول أن يفعل. في يوم الأحد حينما كانت بطارية بروزن-غليتكاو مفتوحة للزيارة، كانت تولا تأتي بحذاء بكعب عال وكانت تتجول بفتحتي أنفها وجبينها ذي البثور بين المدافع من عيار ٨٨ مليمترا. أو كانت تتبختر ما بين الجاويش

ومساعد سلاح الطيران شتورتبكر على الكثبان، كي ينجب الاثنان منها طفلا. لكن الجاويش ومساعد سلاح الطيران شتورتبكر قدما لها دلائل وجودية أخرى: لقد اصطادوا أرانب الشاطئ.

كان يا ما كان، كان هناك ابن عمة،

كان اسمه ليبناو ولا يصلح إلا للحملقة وترديد الكلام. استلقى مسطحا بعينين نصف مفتوحتين على رمال الشاطئ وسط أشجار شوفان الشاطئ التي قلمتها الرياح وقد تسطح أكثر، عندما مر ثلاثة أشخاص على قمة الكثيب: الجاويش المربع والشمس على ظهره، يحمل تولا بصعوبة وحذر على كتفه وتولا تحمل حذاءها ذا الكعب العالي في يدها اليمنى وتمسك باليد اليسرى الأرجل الخلفية لأرنب ينزف دما. وشتورتبكر على يمين تولا ولكنه لا يلمسها، ويمسك بالبندقية وفوهتها موجهة لأسفل. لم يلحظ الأشخاص الثلاثة وجود هاري. وقفوا دهرا بلا حراك، لأن الشمس ما زالت على ظهورهم وهم على قمة الكثيب. كان طول تولا يبلغ صدر الجاويش وكان يحملها على ذراعه التي تشبه كمرا خرسانيا. وشتورتبكر غائب عنهما لكنه تابع للمشهد، كان متسمرا ومتربصا بالوجود. تلك صورة جميلة ودقيقة، حيث إن هاري الراقد مسطحا بين أشجار شوفان الشاطئ قد تألم لأن مشاركته للأشخاص الثلاثة الواقفين أمام الشمس الغارقة أقل من مشاركة الأرنب النازف لهم.

كان يا ما كان، كان هناك صورة صغيرة

ومؤلمة وقت غروب الشمس ومن المفترض أن مساعد سلاح الطيران هاري ليبناو لن يراها مرة أخرى، حيث إن ميعاد ترحيله قد يأتي في أي وقت. وقد توصل أحد المجالس العسكرية إلى قرار غير مدروس بنقله هو وشتورتبكر والجاويش إلى بطارية أخرى. لم يكن بها كثبان تتلوى ناعمة وليس هناك بحر الشرق بنعومته العذرية. ولا شوفان الشاطئ المتمايل بموسيقية. ولم تعد تبرز المدافع الاثني عشر عيار ٨٨ مليمترا مواجهة سماء نوبة الرجوع. ولم تعد تتبدى في الخلفية كنيسة بروزن الخشبية ولا أبقار الصيادين ذات اللون الأبيض في أسود ولا شباك الصيادين المعلقة على القضبان الحديدية، لتجفيفها ومن أجل التصوير

ولم تعد الشمس تغرب وراء أرانب الشاطئ التي كانت تقف على قمة الكثيب على سيقانها الخلفية وتتعبد للشمس المغادرة.

لم يكن ببطارية كايزرهافن مثل هذه الحيوانات الورعة، لم يكن هناك سوى الجرذان. والجرذان تعبد النجوم الثابتة. كان الطريق إلى البطارية يمر بداية من ترويل وهو حي تابع للميناء ما بين نيدرشتات وهولم، بطريق رملي نسير فيه لمدة ثلاثة أرباع ساعة عبر غابة من علامات الطريق الخشبية باتجاه فايكسلموندة. ونخلف وراءنا ورش الإصلاح المتناثرة الخاصة بسكك حديد الرايخ. والغرف الخشبية خلف ترسانة فويان. وفي المنطقة ما بين محطة ترام ترويل وبطارية كايزرهافن كانت جرذان الماء هي حارسة المكان المفترضة.

لكن الرائحة التي علقت فوق البطارية ولم تتزحزح حتى مع حركة الرياح الغربية الشديدة، لم تكن رائحة الجرذان.

وعندما انتقل هاري إلى البطارية، قرضت الجرذان زوج حذائه الرياضي في الليلة الأولى. وكانت التعليمات تحظر مغادرة السرير بأقدام حافية. انتشرت الجرذان في كل مكان وسمنت. مم يا ترى؟ وكنا نسبها قائلين أنها أُس الأسس، لكنها لم تكن تسمع لهذه النعوت. جُهزت البطارية بخزانات من الصفيح حتى لا تتمكن الفئران من التهام الأغراض. وقُتل عدد غفير منها. لكن ذلك لم يُجدِ كثيرا. ثم أصدر الجاويش الذي كان حازما مع أفراد بطاريته وكان يبلغ الرائد هوفناغل بعدد الأونباشية وضباط الصف ومساعدي سلاح الطيران والمتطوعين الأوكرانيين الذي بدأوا الخدمة، أمرا يوميا، قلل عدد جرذان الماء بدرجة كبيرة. لكن الرائحة التي علقت فوق البطارية بقيت كما هي، لأن مصدرها لم يكن أس الأسس.

كان يا ما كان، كان هناك أمر يومي،

كان يعِد بمكافآت على قتل الجرذان، فكان العرفاء والأونباشية وهم رجال خط رأسهم المشيب يحصلون على سيجارة مقابل ثلاثة جرذان وكان المتطوع الأوكراني يحصل على علبة سجائر «ماخوركا» عندما يصطاد ثمانية عشر جرذا. وكان مساعدو سلاح الطيران يحصلون على لفافة من حبات الملبس لكل خمسة فئران. لكن كان هناك من الأونباشية من يعطينا ثلاث سجائر مقابل لفافتين من

الملبس. لم نكن ندخن «ماخوركا». وتبعا للأمر اليومي انقسمت البطارية إلى مجموعات للصيد. وكان هاري ينتمي إلى جماعة تصطاد الفئران في غرفة غسيل لها مدخل واحد وبدون شبابيك. في البداية كنا نضع بقايا طعام في مجاري الغسيل وباب الغرفة كان مفتوحا. ثم تنسد البالوعتان، وننتظر نحن خلف نافذة ثكنة التعليم حتى الغسق. وعلى الفور كنا نرى الظلال الممتدة بطول الثكنة بصفير موحد وهي تتدافع إلى باب غرفة الغسيل. لم يجذبها صفير الناي، بل جذبها الباب المفتوح، رغم أنه لم يكن هناك من طعام سوى فريك بارد وسيقان اللفت. قدم المطبخ عظام لحم بقري تم غليها عشر مرات وملء كفين من حبوب الشوفان الجافة لنثرها على عتبة الباب كطعم للجرذان. كانت الجرذان ستأتي أيضا ولو لم تكن هناك حبوب الشوفان.

وعندما امتلأت غرفة الغسيل بغنيمة كافية بصقت ثكنة التعليم خمسة صبية يرتدون أحذية مطاطية مخصصة للخوض في المياه ومدججين بعصي رُبطت على طرفها خطاطيف. ابتلعت غرفة الغسيل الصبيان الخمسة. أغلق الأخير الباب. في الخارج تبقت: جرذان تأخرت، وجود منسي، الرائحة تتأسس فوق البطارية، والقمر إذا انعدم، والنجوم ما دامت بعيدة وصوت الراديو زاعقا من ثكنة ضباط الصف. الأصوات الوجودية للسفن. طغت بالداخل الموسيقى الخاصة. لم تعد موحدة، بل تحولت إلى قفزات على السلم الموسيقي، خشونة الفريك وطراوة اللفت، مصمصة العظام، صلصلة الصاج، صفير أنفي غير حقيقي. وفجأة يضيء المكان: خمس بطاريات جيب طويلة محمولة في الأيدي اليسرى تشارك بعضها بعضا في العتمة. زفرتان وسكون طويل. الآن. الآن يتمايل لون رصاصي في الضوء، ينزلق على البطن، فوق مجاري الغسيل المصنوعة من الصاج ويرتطم بثقل نصف رطل على القيشاني، يتزاحم عند البالوعات، مسدودة، يريد أن يتسلق القاعدة الخرسانية ويقرض الخشب البني. يتشبث بمخالبه ويخمش. لا يريد ترك الفريك وجذوع اللفت. يريد أن ينقذ عظام اللحم البقري ولا يريد أن ينجو بجلده. دون أي وقار تتهاوى الخطاطيف الآن على هذا الجلد الأملس الشمعي الذي لا يتأثر بالماء، ذاك الجلد السليم الجميل الغالي المعرض للتساقط والمصفف شعره منذ آلاف السنين. لا ليس دم جرذان أخضر، بل. . . . تدهسها الأحذية، ولا شيء غير ذلك. ويعلق كل زوج منها في خطاف: الوجود

بجانب- الوجود مع. . . . يتم صيدها وهي تطير في الهواء: موسيقى! وهذه الأغنية من أيام نوح. حكايات الجرذان الحقيقية والخيالية. الصلة بالعالم، الموقف، الاقتحام: سفن الحبوب التي التُهمت عن آخرها. شونات الغلال التي فُرغت. الاعتراف بالعدم. سنوات مصر العجاف. وحينما حوصرت باريس. وحينما جلس الجرذ في قبة العهد وحينما غادرت الجرذان ظهر السفينة. وحينما عادت مرة أخرى وحينما هاجمت أطفالا صغارا وشيوخا يجلسون في مقاعدهم بلا حراك. وحينما نفت الرضيع عن صدر الأم الشابة. وعندما هاجمت القطط ولم يتبق من آكلي الجرذان سوى أسنان بيضاء، تلمع حتى يومنا هذا مصفوفة في المتاحف. وعندما حملت الطاعون إلى كل مكان وأودعته في لحم الخنازير الوردي. وعندما قرضت الكتاب المقدس وتكاثرت حسبما جاء فيه. وعندما بقرت بطون الساعات وعارضت الزمن. وحينما تحدثت بقدسية في هاملين مدينة صائد الجرذان. وحينما صُنع السم الذي أحبت طعمه. ذيل الجرذ معقود بذيل الجرذ يصنع حبلا يمكن به سبر غور بئر. وعندما أصبحت حكيمة، كتبت قصائد طويلة ومثلت في عروض مسرحية. وعندما أرادت التسامي وخرجت متزاحمة إلى الضوء. وعندما أخذت تقضم في قوس قزح. وحينما أعلنت بداية العالم وفتحت أبواب الجحيم. وحينما دخلت الجرذان إلى الجنة ولطفت أرغن القديسة الحارسة للموسيقى سيسيلي. وحينما صفرت الجرذان في الأثير وانتقلت إلى النجوم، التي ليس بها جرذان. حينما تواجدت الجرذان من أجل نفسها. وعندما صدر أمر يومي، يعد بمكافأة على الجرذان المقتولة مكونة من تبغ خشن، سجائر ملفوفة، وأقراص ملبس التوت ذات الطعم الحلو اللاذع. حكايات الجرذان. حكايات الجرذان: تذهب إلى الأركان، لكن الضربة لا تصيبها، بل تصيب الحائط الخرساني. لا تتكدس بعضها فوق بعض. ذيول مثل خيوط الدوبارة. وأنوف منبعجة. تهرب إلى الأمام وتهاجم وهي عرضة للضرب. لا بد للعصا أن تساعد العصا. تسقط بطاريات الجيب بنعومة وتدور على الأرض بخشونة، لكنها ما تزال تلمع بوهج. وعندما تختفي في حفرة على شكل صليب تكشف عما يقفز من جبال الجرذان الميتة التي قد احتفظت بالصمت. وكل عصا تحسب: سبعة عشر، ثمانية عشر، واحد وثلاثين، لكن الثاني والثلاثين يهرب ثم يعود، ضربتي خطاف متأخرتين، وضربة مبكرة، يقضم الجرذ ويقضم في حذاء هاري المطاطي

حتى يسقط هاري: انزلق نعل حذائه المطاطي على القيشاني المبلل من الرعب. يسقط على ظهره بنعومة ويصرخ عاليا، بينما تضحك العصي الأخرى بتحفظ. يسقط هاري على جلد الجرذان الدامي على غنيمة الصيد، على الطبقات المرتعشة، على الأجيال الناهشة، على حكايات الجرذان التي لا تريد أن تنتهي، على الفريك واللفت ويصرخ: «لقد عضتني الجرذان، عضتني، عضتني...» لكن لم يعضه أي جرذ، لقد عضه الفزع، عندما سقط بنعومة، لا بخشونة.

ساد الهدوء بين جدران غرفة الغسيل. من له أذن باقية، فليسمع الراديو المتصل بالعالم من ثكنة ضباط الصف. صوبت بعض العصي بلا رغبة وأصابت كل ما كان يرتعش. ربما لم تستطع العصي أن تكف عن الوجود فجأة لمجرد أن السكون قد حل. بعض العصي أرادت الخروج والوجود في راحة. ولكن حينما خيم الصمت وتبعه سكون العصي أيضا، لم يكن ذلك يعني انتهاء العمل: لأنه حتى تلك الراحة الوجودية لم تكن فارغة، فلأنه سقط على الجلد الناعم للجرذان، كان عليه أن يتقيأ في وعاء فريك فارغ. فلم يكن مسموحا له أن يفرغ معدته وسط الجرذان، فلا بد من حصر عددها وصفها لتربط من ذيولها بسلك. وقت طابور الصباح عد الجاويش بمساعدة ضابط الصف المسؤول عن القيد أربعة أسلاك مدججة بالغنيمة: مائة وثمانية وخمسين جرذا، وبتصحيح الكسور لأعلى ينتج عن ذلك اثنان وثلاثون لفافة ملبس، بدلت مجموعة هاري نصفها مقابل السجائر.

كان عليهم أن يدفنوا الجرذان المصفوفة وراء المرحاض، كانت رائحتها رطبة وأرضية ولاذعة مثل حفرة مفتوحة لتخزين البطاطس. كان للرائحة العالقة فوق البطارية كثافة أخرى، لا يمكن أن تكون هذه الرائحة من زفير الجرذان.

كان يا ما كان، كان هناك بطارية،

بالقرب من ميناء كايزرهافن ولهذا سميت بطارية كايزرهافن. وكانت وظيفة هذه البطارية بالاشتراك مع بطارية بروزن-غليتكاو وبطارية هويبوده وبيلونكن وتسيغانكنبيرغ ونارفيك-لاغر وألتشوتلاند، هي حماية سماء مدينة دانتسيغ.

وأثناء خدمة هاري ببطارية كايزرهافن، لم تنطلق صفارات إنذار الغارات إلا مرتين، لكن صيد الجرذان كان عملا يوميا. وعندما قُصفت قاذفة قنابل فوق غابة

أوليفا، كان لبطاريتي الدفاع الجوي بيلونكن وألتشوتلاند نصيبا في إطلاق القذائف، بينما اكتفت بطارية كايزرهافن بالإشارة إلى النجاح الذي حققته في تخليص المكان من جرذان الماء.

ياه، لقد صار لهذا الوجود وسط الحدث تصورا للعالم! وعُدَّت مجموعة صيد الجرذان التي ينتمي إليها هاري من أنجح المجموعات. لكن شتورتبكر الذي لم ينضم إلى أي مجموعة قد تفوق على كل المجموعات التي كانت تعمل خلف المرحاض، بمن فيهم المتطوعون.

لقد اصطاد جرذانا في وضح النهار وكان له دائما جمهور من المتفرجين. كان يرقد في معظم الأحيان على بطنه أمام ثكنة المطبخ بالقرب من غطاء البالوعة، وكان يستند بذراعه الطويلة داخل بالوعة تتيح له أن يسحب منها جرذانا تسبح في قناة المجاري ما بين ترويل ومصارف تنقية المياه.

ياه لهذه التساؤلات المتعددة عن السبب، لماذا! لماذا يكون الأمر كذا وليس كذا؟ لماذا جرذان الماء وليس كائنا شبيها؟ لماذا نتحدث عن شيء ولا نتحدث عن اللاشيء؟ تضمنت التساؤلات الإجابة الأصلية الأولى والأخيرة لكل الأسئلة: «جوهر الجرذ هو التبعثر الترنسندنتالي المتفتق الثلاثي البعد للجرذ في مخطط العالم أو في قناة المجاري»

كان لا بد من الإعجاب بشتورتبكر، رغم أنه كان يحمي يده المفتوحة المترقبة داخل البالوعة بقفاز جلدي ثقيل كالذي يرتديه عمال اللحام. وفي الواقع كان الجميع يترقبون أن تقوم أربعة أو خمسة جرذان بتمزيق قفازه، ثم افتراس يده العارية. لكن شتورتبكر كان يرقد مرتاحا، ولا يفتح عينيه إلا قليلا ويمص أقراص ملبس التوت، فلم يكن مدخنا، وكان يضرب كل دقيقتين بقفازه الخارج من البالوعة رأس الجرذ الذي اصطاده بطرف غطاء البالوعة. وكان يردد بين موت جرذ والآخر بلغته الخاصة ولكن متأثرا بلغة الجاويش القائمة، جملا جرذية وحقائق جرذية وجودية، وكان الجميع يعتقدون أن هذه الجمل كانت تجذب الفريسة إليه وتتيح له التفوق على الجميع في صيد الجرذان. وأثناء حصاده للجرذان بأسفل وتكويمه لها بأعلى، كان يردد بلا انقطاع العبارة التالية: «يتهرب الجرذ من ذاته بكشفه عن جرذنته وهكذا يخلط الجرذ بوضوح بين الجرذنة وبين التيه. حيث وقعت الجرذنة في التيه الذي يتيه فيه الجرذ

ويؤسس بذلك للتيه، وهذا هو المجال الجوهري للتاريخ بأكمله»

وأحيانا كان يسمي الجرذان التي لم يسحبها بعد: المتأخرة. والجرذان المكومة كان يسميها السابقة أو الكائنة. وإذا ما تأمل شتورتبكر عمله المنجز والغنيمة المرصوصة بعناية، كان غالبا يتحدث واعظا بلطف ووداعة: «قد يكون الجرذ دون الجرذنة، لكن الجرذنة لا تكون أبدا بدون الجرذ.» لقد اصطاد خمسة وعشرين جرذا مائيا في ساعة واحدة وكان بإمكانه أن يصطاد أكثر لو أراد. وقد استخدم شتورتبكر نوع السلك نفسه الذي كنا نعلق فيه الجرذان. وكان يسمي هذا الاستعراض اليومي للذيول المعقودة في السلك والقابلة للحصر صلته بالوجود المتعين Daseinsbezug. لقد اكتسب به كمية كبيرة من ملبس التوت. وأحيانا كان يهدي ابنة خال هاري لفة من لفات الملبس. وكثيرا ما ألقى باحتفالية ثلاث حبات من الملبس في البالوعة المفتوحة أمام ثكنة المطبخ. ونشب خلاف بين طلبة الثانوي حول المفاهيم، فلم نكن نعرف ما إذا كانت قناة المجاري هي مخطط العالم Weltentwurf أم هي التيه.

لكن الرائحة التي علقت قابعة فوق البطارية لم تكن تنتمي لا إلى مخطط العالم ولا إلى التيه وهما الاسمان اللذان أطلقهما شتورتبكر على بالوعته ذات الصلات الوفيرة.

كان يا ما كان، كان هناك بطارية،

حامت فوقها الغربان من أول النهار الرمادي لآخره مشغولة وفي غير راحة: غربان. لم تكن نوارس بل غربان. النوارس كانت موجودة فوق ميناء كايزرهافن الأصلي، فوق الغرف الخشبية وليس فوق بطارية الدفاع الجوي. وإذا حدث وجاءت نوارس إلى المكان، تسود سحابة غاضبة هذا الحدث القصير الأجل، فالغربان لا تطيق النوارس.

لكن الرائحة العالقة فوق البطارية لم تأت من الغربان ولا من النوارس الغائبة. وبينما كان العرفاء والأونباشية والمتطوعون يصرعون الجرذان مقابل مكافآت، كان للرتب الأعلى بداية من ضباط الصف ووصولا إلى الرائد هوفناغل مزاج آخر، كانوا يصطادون غربانا منفردة من بين جماعات الغربان المحلقة فوق البطارية ولم يكن ذلك رغبة في مكافأة ما ولكن من أجل التدريب على الرماية

وإصابة الهدف. ورغم ذلك بقيت الغربان ولم تنقص.

لكن تلك الرائحة القابعة فوق البطارية، تلك الرائحة التي وقفت بين الثكنات والمدافع وجهاز القيادة والخنادق وندر أن تبدل الساق التي تقف عليها، تلك الرائحة التي يعرف هاري والآخرون أنها ليست من صنع الجرذان ولا الغربان وأنها لم تخرج من بالوعة ولا من أي متاهة. كان مصدرها جبل أبيض ينفثها مهما قامت الريح بعملها قادمة من بوتسيغ أو ديرشاو أو من اللسان النهري أو من البحر المفتوح، كان الجبل يقع خلف سلك شائك جنوب البطارية أمام مصنع مبني بالطوب الأحمر. كان المصنع الذي كان نصفه غير مرئي يطلق دخانا أسود كثيفا من مدخنة خارجة منه وكان لغباره أن يترسب على أرض ترويل أو نيدرشتات. وما بين الجبل والمصنع كانت نهاية خط السك الحديد المؤدي إلى محطة الجزيرة. وفوق الجبل النظيف المخروطي المتراص كان هناك مجرى صدئ منزلق لدلق النفايات وكان يعلو الجبل بقليل، كذلك المجرى الذي يستخدم في مناجم الفحم والبوتاس لتكويم البقايا الزائدة. وعند سفح الجبل وقفت بلا حراك عربات نقل صغيرة على قضبان حديدية يمكن تغيير مسارها. وكان للجبل لمعة باهتة عند سطوع الشمس فوقه، لكنه كان يبرز متوهجا عندما تكون السماء دانية وممطرة. وإذا ما غض المرء بصره عن الغربان التي تسكنه بدا الجبل نقيا، لكننا قلنا في بداية هذه الحدوتة الختامية إن لا شيء نقي. وهكذا لم يكن الجبل الكائن بجانب بطارية كايزرهافن نقيا رغم بياضه، لقد كان جبلا من العظام ومكوناته كانت تبقى مكسوة بالمخلفات حتى بعد عملية التصنيع، لأن الغربان لم تستطع الكف عن سكناه، بقيت به وهي سوداء هائجة. وهكذا قبعت رائحة فوق البطارية مثل جرس لا يتحرك وتركت في فم الجميع، حتى فم هاري، طعما لا تفنى حلاوته الثقيلة حتى بعد امتصاص كم غير عادي من الملبس ذي الطعم اللاذع.

لم يتحدث أحد عن جبل العظام لكن الجميع رأوه وشموه واستطعموه. وكل من غادر الثكنات التي ينفتح بابها جهة الجنوب، كان يجد الجبل أمام عينيه. ومن جلس أثناء التدريبات مثل هاري كفرد رقم ٦ من طاقم المدفع بجانب المدفع ودار معه تبعا لأوامر جهاز القيادة، كان يبدو شيئا فشيئا وكأن جهاز القيادة وجبل العظام يتهامسان سويا أمام صورة تعرض لجبل أبيض بمصنع كثير الدخان ومجرى منزلق ساكن وعربات نقل صغيرة ساكنة وغطاء متحرك من الغربان. لم يتحدث

أحد عن هذه الصورة. ومن حلم كثيرا بالجبل، كان يقول وقت قهوة الصباح إنه حلم بشيء مضحك، كأن يحلم بصعود الدرج أو بالمدرسة. على أية حال اكتسب مفهوم، كنا نستخدمه حتى هذا الوقت في المحادثات المعتادة مفرغا من معناه، ثقلا غامضا نابعا من الجبل المسكوت عنه. تخطر لهاري بعض الكلمات: المكان- الإلحاح- العدم. حيث لم يحرك أي عمال عربات النقل على القضبان أثناء النهار ولم ينقصوا شيئا من المكان بالرغم من أن المصنع كان لا يكف عن العمل. ولم يأت أي قطار بضائع من محطة الجزيرة ولم يقدم مجرى النفايات المنزلق شيئا للإلحاح ليأكله. ولكن أثناء تدريب ليلي كان على مواسير المدافع عيار ٨٨ مم أن تلاحق فيه طائرة تدريب كشفت عنها أربعة كشافات ضوئية لمدة ساعة كاملة، أمكن لهاري وللجميع سماع أصوات العمل بالمصنع للمرة الأولى. صحيح أن المصنع بقي معتما، لكن على قضبان السكة الحديد ارتعشت لمبات حمراء وبيضاء. اصطدمت عربات البضائع بعضها ببعض، زادت أصوات الخشخشة: كانت صادرة من المجرى المنزلق. صدأ يحتك بصدأ: عربات النقل الصغيرة. أصوات آمرة وضحكات: استمر العمل على أرض العدم لمدة ساعة، فيما كانت طائرة التدريب تحلق فوق المدينة مرة أخرى من جهة البحر وتزوغ من كشافات الإضاءة ثم تقع في أسرها ثانية وتصبح هدفا أفلاطونيا. يعمل الفرد رقم ٦ على ماكينة الإطلاق محاولا تحريك مؤشرين كهربيين ومؤشرين ميكانيكيين من خلال تحريكه للذراعين وإفنائه للمتواجد المارق برباطة جأش.

في اليوم التالي صار المكان بالنسبة لكل من غضوا النظر عن الجبل ومن بينهم هاري شيئا هاما. استقبلت الغربان ضيوفا. ظلت الرائحة كما هي، لكن أحدا لم يسأل عن مصدرها بالرغم من أن الجميع وهاري معهم كانوا على وشك النطق به.

كان يا ما كان، كان هناك جبل عظام،

وقد سُمي هكذا منذ أن بصقت تولا ابنة خال هاري بهذه الكلمة تجاه الجبل.

قالت «هذا جبل عظام!» وأشارت بإبهامها إليه. عارضها كثيرون ومن بينهم هاري دون أن يتفوهوا بشيء عن ذاك الكيان المتكوم جنوب البطارية.

عرضت تولا على شتورتبكر وعلى ابن عمتها رهانا «تراهنوا أن هذا جبل عظام؟ بل وعظام آدميين؟ كل الناس تعرف ذلك.» كان ثلاثتهم ومعهم آخرون يمصون حبات الملبس.

كانت إجابة شتورتبكر جاهزة منذ أسابيع رغم أنه نطقها لتوه. «يجب أن نتأمل التكوم في عرى الوجود وتكشف الهم والدوام حتى الموت على أنه الجوهر الكامل للوجود.»

أرادت تولا أن تعرف بدقة أكثر: «أتعرف، لقد جئت لتوي من شتوتهوف، تراهنوني؟»

لم يستطع شتورتبكر أن يربط نفسه بمكان جغرافي. لوح بيديه وقد نفد صبره: «لا تثرثروا كثيرا بتعبيراتكم العلمية. على أي حال يمكننا أن نقول: هذا هو الوجود في عريه.»

وعندما أصرت تولا على شتوتهوف وأن تسمي العري باسمه، انسحب شتورتبكر من الرهان المعروض عليه، بإيماءة تبارك البطارية وجبل العظام: «هذا هو المجال الجوهري للتاريخ بأكمله.»

استمر صرع الجرذان بعد نهاية الخدمة وكذلك أثناء ساعات النظافة وترقيع الملابس. واستمرت الرتب الأعلى بداية من ضباط الصف في قنص الغربان. بقيت الرائحة عالقة فوق البطارية ولم تحل محلها رائحة أخرى. لم تتحدث تولا إلى شتورتبكر الذي كان يرسم أشكالا في الرمل بالخارج، بل للجاويش الذي أفرغ مخزن بندقيته مرتين: «تراهني أن هذه عظام آدميين حقيقة؟ بل وبكميات كبيرة؟»

كان اليوم هو الأحد المخصص للزيارة. ولم يكن هناك زوار كثيرون والغالبية من أولياء الأمور وقد وقفوا غرباء في زيهم المدني بجانب أبنائهم الذين صاروا كبارا. لم يأت أهل هاري. طال شهر نوفمبر وتعلق المطر دائما بين السحب الدانية والأرض والثكنات. كان هاري واقفا مع المجموعة التي بها تولا والجاويش الذي عمر مخزن بندقيته للمرة الثالثة. «تراهني...» ومدت تولا يدها الصغيرة للمصافحة. لم يرد أحد مراهنتها. بقيت يدها وحيدة منفردة. خطط شتورتبكر العالم على الرمل. تقشرت بثور على جبين تولا. عبثت يدا هاري بقطع الغراء في جيب بنطلونه. قال الجاويش مصافحا يد تولا دون أن ينظر إليها: «تراهنيني أنه ليس كذلك...»

وفي الحال وكأنها خططت لذلك مسبقا، استدارت تولا واتخذت طريقها على الحشائش النابتة ما بين مدفعين. لم تلبس رغم البرودة المصحوبة برطوبة سوى بلوفر وتنورة بكُسر. . سارت على ساقيها العارتين الرفيعتين وذراعاها معقودتان خلف ظهرها وشعرها منسدلا في خصلات دون لون وقد فقد كل صلة بالتجعيد الدائم. سارت وتضاءل حجمها كلما ابتعدت، لكنها بقيت واضحة وسط الأجواء الرطبة.

في البداية ظن هاري والآخرون أنها ستعبر السلك الشائك لأنها سارت للأمام مباشرة دون أن تنحرف، لكن قبل السلك الشائك بقليل، نزلت على الأرض ورفعت السلك السفلي ما بين البطارية والمصنع عاليا وزحفت دون عناء تحته إلى الناحية الأخرى ثم وقفت على ركبتيها وسط الحشائش البنية الذابلة، ثم سارت الآن وكأنها تواجه مقاومة تجاه ذاك الجبل الذي تسكنه الغربان.

تابع الجميع ومعهم هاري تولا بأنظارهم ونسوا حبات ملبس التوت عالقة في حلوقهم. ارتعشت عصا شتورتبكر في الرمل. علا صوت صرير أسنان: أحدهم كان يطحن حبوبا جافة بين أسنانه، ولم يخفت صرير أسنان الجاويش إلا عندما وقفت تولا ضئيلة أمام الجبل وانزاحت بعض الغربان بتراخ وانحنت تولا- وانحنت في المنتصف- وعندما استدارت وعادت بسرعة تفوق السرعة التي كان الآخرون وهاري يهابون عودتها بها، حيث دقت طبول الصمت واشرأبت الآذان، فصارت كالملاعق.

لم تعد بخفّي حُنين. ما حملته بين يديها، دحرجته تحت السلك الشائك على أرض البطارية. كبرت تولا مرة أخرى بين ماسورتين لمدفعين من عيار ٨٨ مم، توجها وفقا للأمر الأخير مثلهما مثل باقي مدافع البطارية إلى الزاوية الشمالية الغربية. الوقت الذي استغرقه ذهاب تولا وإيابها يعادل فسحة مدرسية قصيرة جدا. ففي خلال خمس دقائق تقلصت لتصبح في حجم لعبة أطفال، ثم عادت إلى حجمها الطبيعي: وكادت تبدو وكأنها قد صارت أكثر نضجا. كان جبينها بدون بثور ولكن ما حملته كان له معنى. بدأ شتورتبكر في رسم مخطط آخر للعالم. ثم عاود الجاويش الصر بأسنانه وكان ما يطحنه هذه المرة حصى غليظا. زينت بعض الأصوات هذا الصمت المخيم.

وعندما وقفت تولا بالهدية أمام الجميع وبجانب ابن عمتها، قالت دون أن

تريد التأكيد على شيء معين: «ألم أقل لكم؟ هل كسبت أم لم أكسب؟»

صفعتها كف الجاويش على كل خدها الأيسر من الصدغ إلى الأذن إلى الذقن. لم تتهدل أذنها ولم يتخاذل رأسها، لكنها تركت الجمجمة التي جلبتها تسقط، حيث كانت واقفة.

دعكت تولا خدها المصفوع بيدين صفراوين متجمدتين، لكنها لم تذهب. تقشرت على جبينها كثير من البثور مثلما كان الحال في السابق. كانت الجمجمة جمجمة آدمية ولم تتكسر عندما سقطت من يد تولا، بل تقافزت عدة مرات في الحشائش. وبدا أن الجاويش لم ير الجمجمة وحدها. نظر كثيرون عبر سطوح الثكنات إلى المدى. لم يحول هاري بصره عن المشهد. الجمجمة كان ينقصها الفك السفلي. أخذ مستر ودرشر الصغير يمزحان. ضحك كثيرون بعرفان في المواضع المناسبة. بدأ شتورتبكر يخط في الرمل ملامح العالم الذي أتي Angekommenes. رأت عيناه الملتصقتان ببعضهما الكائن الذي يرتبط به مصيره والذي يتحقق العالم فجأة ومن حيث لا يدري من خلاله، حيث إن الجاويش قد صرخ ممسكا ببندقية مؤمنة «يا خنازير! إذهبوا جميعا إلى نزلكم، ساعة تنظيف وترقيع».

نكس الجميع رؤوسهم وذهبوا عبر طرق ملتوية إلى نزل ثكناتهم مكملين مزاحهم. بين الثكنات التفت هاري برأسه من فوق كتفيه اللتين لم تريدا الالتفاف معه: وقف الجاويش متسمرا ومربعا ببندقية تعلقت في الهواء، كان يعي بذلك تماما مثلما في المسرح. وخلفه حقق المكان، الإلحاح، العدم صمتا هندسيا، المجال الجوهري لكل العالم، الفارق بين الكينونة والكائن. الاختلاف الوجودي.

لكن المتطوعين في ثكنة المطبخ كانوا يتحدثون عن قشر البطاطس. وكان راديو ضباط الصف يذيع حفلات موسيقية حسب رغبة الجماهير. ودع زوار الأحد ذويهم بأصوات متوسطة العلو. وقفت تولا خفيفة بجانب ابن عمتها ودعكت خدها المصفوع. نطقت بفمها المعوج من أثر التدليك قائلة لهاري: «كل هذا وأنا حامل.»

وبالطبع كان لا بد لهاري أن يسألها: «مِمَّن؟»

لكن ذلك لم يكن ذا أهمية بالنسبة لها: «تراهني أنه مني؟»

لكن هاري لم يرد أن يدخل معها في رهان لأنها تكسب كل الرهانات. أمام

غرفة الغسيل أشار لها بإبهامه إلى الباب الموارب: «عليك إذن أن تغسلي يديك فورا بالصابون.»
سمعت تولا الكلام- لا شيء نقي.

كان يا ما كان، كان هناك مدينة،

كان بها إلى جانب ضواحي أورا وشيدليتس وأوليفا وايماوس وبراوست وسانت ألبرشت وشلمول وضاحية الميناء نويفارفاسر، ضاحية تسمى لانغفور. لانغفور كانت كبيرة جدا وصغيرة جدا، بحيث إن كل ما يحدث في هذا العالم أو ما يمكن حدوثه فيه، يحدث أيضا في لانغفور أو يمكن له أن يحدث فيها.

في هذه الضاحية بين البساتين العائلية الصغيرة وميادين التدريب ومسطحات تنقية المياه والمقابر المرتفعة قليلا والترسانات والملاعب الرياضية وبلوكات الوحدات العسكرية، في هذه الضاحية التي سكنها ما يقرب من مائتين وسبعين ألف نسمة والتي ضمت ثلاث كنائس ومصلى صغير ومدرستين ثانويتين وليسيه للبنات ومدرسة متوسطة ومدرسة مهنية ومدرسة للتدبير المنزلي، وكان بها دائما قليل من المدارس الشعبية ولكن كان فيها مصنع للبيرة وبركة الأكتسين وقبو الثلج، في لانغفور التي اشتهرت بمصنع الشوكولاتة «بلطيق» ومطار المدينة والمعهد الفني المشهور ودارين كبيرتين للسينما، ومستودع للسكة الحديد وكنيس محترق، في هذه الضاحية المعروفة التي تقوم إدارتها بالإشراف على ملجأ للأيتام وصندوق للتبرعات ومصحة للعميان في منطقة هايليغنبرون ذات الموقع الخلاب، في لانغفور التي حصلت على حقوق البلدية منذ عام ١٨٥٤ والتي امتدت لتشمل موقعا سكنيا جيدا وسط غابة الياشكنتال التي بها تمثال غوتنبرغ، في لانغفور التي مرت خطوط ترامها بالقرب من شاطئ بروزن ومقر الأسقف بأوليفا ومدينة دانتسيغ، في ضاحية دانتسيغ-لانغفور، أي الحي الذي اكتسب شهرته من خلال فرسان الهوصار وولي العهد السابق والتي انسابت فيها قناة الشتريس في أقصى اتساع لها، في هذه الضاحية سكنت فتاة اسمها تولا وكانت حبلى ولم تعرف مِمّن.

في الضاحية نفسها، بل وفي المنزل نفسه بشارع الإلزن الذي يربط شارع هيرتا وشارع لويزة وطريق اللاب بشارع ماريا، سكن ابن عمة تولا، كان اسمه

هاري وقام بالخدمة كمساعد في سلاح الطيران في بطارية الدفاع الجوي كايزرهافن ولم يكن من بين محبلي تولا المحتملين، حيث إن هاري اكتفى بتخيل ما قام آخرون بعمله في الواقع. صبي في السادسة عشرة من عمره كان يعاني من برودة قدميه ويقف دائما على الهامش. كثير الاطلاع، كان يخلط في قراءاته الكتب التاريخية والفلسفية، ويعتني بشعره البني الملفلف الجميل. فضولي تعكس عيناه الرماديتان - لم يكن لونهما الرمادي باردا - كل شيء. كان يستشعر أن جسده الأملس - رغم أنه لم يكن ضعيفا - واهن وكثير المسام. هاري شديد الحذر. كان لا يؤمن دائما بالله بل بالعدم، ورغم ذلك لم يرد أن تُستأصل لوزتاه. شخص يميل في طبعه إلى الحزن ويحب أكل فطائر العسل وكاتوه بذور الخشخاش ورقائق جوز الهند. تطوع للذهاب إلى سلاح البحرية رغم أنه لا يستطيع السباحة جيدا. شخص بريء حاول قتل أباه الأسطى النجار ليبناو من خلال عدة قصائد كتبها في كراريس المدرسة ووصف أمه بأنها طباخة. صبي شديد الحساسية كان يغرق في عرقه وقوفا وجلوسا بسبب ابنة خاله ويفكر باستمرار ولكن بشكل سري في كلب رعاة أسود. شخص مريض بالفتشية احتفظ لأسباب معينة بسن لها بياض اللؤلؤ في محفظته. شخص خصب الخيال، كان يكذب كثيرا ويتحدث بصوت خفيض ويحمر وجهه عند. . .، ويعتقد في أن الحرب الدائرة عبارة عن مكمل لدروس المدرسة. صبي، غلام، طالب ثانوي بالزي العسكري، كان يقدس الفوهرر وأولريش فون هوتن والجنرال روميل والمؤرخ هاينريش فون تريتشكه، وقدس للحظات طويلة نابليون والممثل هاينريش غيورغه ذا الأنفاس اللاهثة وأحيانا سافونا رولا ثم مارتن لوتر مرة أخرى ومنذ فترة الفيلسوف مارتن هايدغر. ومن خلال هذه الشخصيات التي اعتبرها مثلا أعلى له، تمكن من أن يغطي جبلا مصنوعا من عظام البشر الحقيقية بكثير من الصور البلاغية. فقد أطلق في يومياته على جبل العظام الذي يصرخ تجاه السماء ما بين ترويل وكايزرهافن اسم أرض التضحية، التي تأسست من أجل أن يتم النقاء في النور من خلال انعكاس نور النقاء وبهذا يتأسس النور.

وإلى جانب يومياته قام هاري ليبناو بمراسلة مع صديقة تعمل بفرقة الباليه الألماني في برلين واسمها الفني جيني انغوستري. كانت هذه المراسلات في البداية خاملة متكاسلة ثم دب فيها النشاط من بعد. وقد ظهرت جيني في العروض

التي قدمتها الفرقة في عاصمة الرايخ أو في الجولات بالمناطق المحتلة أولا كأحد أفراد فريق الباليه، ثم كراقصة منفردة.

وعندما كان مساعد سلاح الطيران هاري ليبناو يحصل على تصريح خروج من المعسكر، كان يذهب إلى السينما وكان يأخذ معه تولا الحبلى. في الوقت الذي كانت فيه تولا حبلى حاول هاري عدة مرات أن يأخذها معه إلى السينما ولكن دون جدوى. والآن، لأنها قالت للجميع في لانغفور: «قام أحدهم بنفخي»، مع أنه لم يكن ممكنا ملاحظة أي تغير طرأ عليها، فقد أصبحت أكثر استسلاما وقالت لهاري: «لو على حسابك، لا مانع.»

رأيا أفلاما كثيرة بداري السينما بلانغفور. عرضت سينما الفنون دائما في البداية النشرة الأسبوعية، ثم الفيلم الثقافي وفي النهاية الفيلم الأساسي. ارتدى هاري زيه العسكري وجلست تولا مرتدية معطفا فضفاضا من قماش البحرية، طلبت تفصيله خصيصا لوضعها الحالي. أثناء حصاد العنب على الشاشة الممطرة حيث ابتسمت حاصدات العنب محملات بالعنب على ظهورهن وقد كلل رؤوسهن قمل العنب وضغط الكورسيه على بطونهن، حاول هاري لمس يد ابنة خاله. لكن تولا سحبت يدها بعتاب خفيض الصوت: «دع ذلك يا هاري. لا جدوى من ذلك الآن، كان عليك أن تأتي إليّ قبل ذلك.»

كان هاري ما يزال يحتفظ بمخزون من الملبس اللاذع الطعم الذي كانوا يقبضونه ثمنا لصرعهم عددا معينا من جرذان الماء. ولذلك سميت أقراص الملبس ملبس الجرذان. قشر هاري في الظلام أثناء عرض النشرة الأسبوعية مصحوبة بضجيجها، الورق والورق الفضي المغلف للفافة الملبس، ثم وضع ظفر إبهامه ما بين قطعة الملبس الأولى والقطعة الثانية وقدم قطعة لتولا. رفعت تولا قطعة الملبس بإصبعين والتصقت عيناها بالنشرة الأسبوعية ومصت قطعة الملبس بصوت مسموع وهمست أثناء عرض الموسم الغريني في قطاعه الأوسط: «كل شيء لديكم له رائحة كريهة، حتى الملبس، رائحة ذاك الشيء خلف سور البطارية، عليكم أن تطلبوا الانتقال إلى بطارية جديدة.»

لكن هاري كان يرغب في أشياء أخرى وقد تحققت رغباته في السينما. بعد الموسم الغريني، لم تعد هناك أية استعدادات لأعياد الميلاد على جبهة المحيط المتجمد. تم إحصاء دبابات ت٣٤ المحترقة. إصابة غواصة للعدو بعد طلعة

استكشافية ناجحة. انطلقت طائراتنا لقصف مدافع العدو الإرهابية. موسيقى جديدة. مصور آخر، مكان هادىء مفروش بالحصى، تتخلل أشعة الشمس أوراق الخريف، الوقت بعد الظهر. مركز القيادة الرئيسي للفوهرر. «شوف، أنظر يا أخي. ها هو يجري ويقف ويهز ذيله. واقف بينه وبين الطيار. طبعا هو بعينه، كلبنا، قصدي كلب كلبنا: برينتس، هذا هو برينتس، هاراس هو...»

مرت دقيقة كاملة كان الفوهرر ومستشار الرايخ يتحدث فيها إلى أحد ضباط سلاح الطيران ويتجولان بين أشجار مركز القيادة وقد عقد ذراعيه على صدره وارتدى قبعة غاصت في رأسه - هل كان الضابط الذي يتحدث إليه هو رودل؟ في هذه الأثناء كان من الواضح أن هناك كلب رعاة أسود يمشي بجانب الفوهرر ويتمسح بحذائه ويدع الفوهرر يربت على رقبته، حيث إن الفوهرر قد فك ذات مرة ذراعيه المعقودتين لعمل ذلك، وبعد أن بينت النشرة الأسبوعية العلاقة بين السيد والكلب، أعاد الفوهرر في الحال عقد ذراعيه على صدره.

وقبل أن يركب هاري الترام الأخير إلى ترويل، حيث كان عليه أن يتخذ الترام المتجه إلى ترويل من المحطة الرئيسية، اصطحب تولا إلى البيت. تحدث كلاهما بالتبادل دون أن يستمعا أحدهما للآخر: تحدثت هي عن الفيلم الأساسي وتحدث هو عن النشرة الأسبوعية. في فيلم تولا هُتك عرض فلاحة شابة أثناء جمع فطريات عش الغراب ولهذا السبب أغرقت الفتاة نفسها وهو أمر لم تستطع تولا فهمه. حاول هاري أن يعطي لحدث النشرة الأسبوعية طابعا حيويا بلغة شتورتبكر الفلسفية: «الوجود الكلبي، ذاك- إنه هو- يعني كينونة الطرح للكلب الكائن في الوجود، على هذا النحو فإن الوجود، الوجود في العالم، هو تعين وجود الكلب، سواء كان الوجود المتعين في حوش ورشة النجارة أم في مركز قيادة الفوهرر، أو في الزمن الحقير: لأن مستقبل الوجود الكلبي لا يتقدم على التعين الكلبي للكينونة السابقة وهذه ليست سابقة على الوجود داخل الآنية الكلبية.»

رغم ذلك قالت تولا أمام شقة آل بوكريفكه: «بداية من الأسبوع القادم سأكون في شهري الثاني وفي أعياد الميلاد سيمكن ملاحظة انتفاخ بطني.»

مر هاري لمدة ربع ساعة بمنزل والديه. أراد أن يحضر بعض الملابس النظيفة وشيئا للأكل. كانت قدما أبيه الأسطى النجار متورمتين، لأنه ظل واقفا عليهما

طوال النهار وتنقل من منطقة عمل إلى أخرى. لذلك غسل قدميه في المطبخ. تحركت قدماه الكبيرتان ذات التجاعيد بحزن في وعاء الغسيل. لم يكن واضحا، إن كانت تنهداته ناجمة عن الراحة التي يشعر بها نتيجة لحمام القدم أم أنها الذكريات التي تمر برأسه. كانت أم هاري تمسك بالفوطة في يدها. كانت راكعة ووضعت نظارة القراءة إلى جانب. سحب هاري كرسيا من جانب المائدة وجلس بين أبيه وأمه: «هل أحكي لكم حكاية حلوة؟»

وحيث إن أبا هاري كان يسحب قدمه من الماء وأمه تمسك القدم بمهارة بالفوطة، بدأ هاري يحكي: «كان يا ما كان، كان هناك كلب وكان اسمه بركون. هذا الكلب أنجب الكلبة سنتا، وولدت سنتا هاراس وأنجب كلب التعشير هاراس الكلب برينتس. وهل تعرفون أين رأيت كلبنا برينتس منذ قليل؟ في النشرة الأسبوعية. بين الفوهرر ورودل. كان واضحا أنهم كانوا يتجولون في الخلاء. كان من الممكن الظن أيضا بأنه كلبنا هاراس. لا بد أن تشاهده يا أبي، وتستطيع الخروج قبل الفيلم الأساسي، لو شعرت بالضيق. سأشاهده بالتأكيد مرة أخرى، أو مرتين.»

أومأ الأسطى النجار شاردا محركا قدمه المجففة والتي كانت ما تزال تخرج بعض البخار رغم ذلك. قال إنه سيسعد بالطبع لذلك وعندما يجد وقتا سيذهب لرؤية النشرة. كان منهكا جدا بحيث لم يتمكن من أن يعبر عن فرحته بصوت عال برغم أنه قد حاول وبعد ذلك قال بصوت عال بعد أن جفت قدماه «هكذا إذن، برينتس ابن كلبنا هاراس. والفوهرر ربت عليه في النشرة الأسبوعية، ورودل كان معه أيضا، يا سلام!»

كان يا ما كان، كان هناك نشرة أسبوعية،

كانت تعرض للموسم الغريني واستعدادات أعياد الميلاد على جبهة المحيط المتجمد ونتائج معارك الدبابات وعمال ضاحكين في مصنع للمعدات الحربية وإوزات برية في النرويج والشبيبة الهتلرية تجمع المواد المستهلكة ونقاط الحراسة على حائط الأطلنطي وزيارة إلى مقر القيادة الرئيسي للفوهرر. ولم يقتصر عرض هذه الأشياء وأشياء أخرى على داري عرض لانغفور، بل تم عرضها أيضا في تسالونيكي. حيث جاء خطاب من هناك، أرسلته جيني برونيس التي قدمت

عروضها أمام الجنود الألمان والإيطاليين باسم جيني أنغوستري، إلى هاري ليبناو.

كتبت جيني «تخيل، كم صغير هو العالم؟ مساء أمس ذهبت مع هازيلوف إلى السينما، حيث لم يكن لدينا عرض. وترى من رأيت في النشرة الأسبوعية؟ أنا متأكدة أنني على صواب. كذلك أيدني هازيلوف في رأيي بأن كلب الرعاة الأسود الذي ظهر لمدة دقيقة كاملة في مشهد مركز القيادة الرئيسي هو برينتس، برينتس ابن كلبكم هاراس!

بالرغم من أن السيد هازيلوف لم ير كلبكم هاراس إلا في الصور التي عرضتها عليه، فإن لديه قدرة هائلة على التخيل ولا يقتصر ذلك على المجال الفني فقط. بالإضافة إلى أنه يريد دائما أن يعرف كل شيء بالتفصيل. وأعتقد أنه قد قدم لذلك طلبا لدى شركة الدعاية المختصة. إنه يريد أن يحصل على نسخة من هذه النشرة كمادة للفرجة. وغالبا سيحصل على نسخة، لأن لديه علاقات في كل مكان، ولا يرفض أحد له طلبا أبدا. إذن سنستطيع في وقت لاحق بعد الحرب مشاهدة النشرة. سنشاهدها كثيرا كما يحلو لنا، وعندما ننجب أطفالا سيمكن لنا أن نحكي لهم كيف كانت الأمور في الماضي.

الوضع هنا سخيف. لا أرى من اليونان شيئا سوى المطر. لقد تركنا فيلزنر-امبس الطيب في برلين. مدرسة الباليه ستستمر في عملها، حتى رغم قيامنا بجولة.

لكن تصور - أنت تعرف ذلك بالتأكيد - تولا تنتظر طفلا. لقد كتبت لي ذلك على بطاقة بريدية مفتوحة. أنا سعيدة من أجلها ولكنني أعتقد أن الأمر لن يكون سهلا بالنسبة لها، بلا رجل يعتني بها وبدون وظيفة محددة...»

لم تختم جيني هذا الخطاب دون أن تشير إلى أن هذا الجو غير المعتاد يتعبها وكيف أنها تحب هاري، حتى من تسالونيكي البعيدة. وفي الختام طلبت من هاري أن يعتني كثيرا وجيدا بابنة خاله. «إنها تحتاج في هذا الوضع إلى من يشد أزرها وخاصة أن الأوضاع في بيت والديها ليست على ما يرام. سوف أرسل لها بالبريد طردا بريديا به عسل يوناني. بخلاف ذلك لففت في الطرد بلوفرين جديدين تقريبا اشتريتهما من أمستردام، واحد أزرق فاتح والآخر وردي باهت. إضافة إلى ذلك يمكنني أن أحيك لها أربعة بنطلونات وسترتين للرضيع. لدينا وقت كثير ما بين البروفات وحتى أثناء العرض.»

كان يا ما كان، كان هناك طفل،

من المفترض أنه لن يأتي إلى العالم برغم من أن هناك من يحيك له بنطلونات. وليس ذلك لأن تولا لا ترغب فيه، صحيح أن حملها لم يصبح بعد ظاهرا للعيان، لكنها كانت تقدم نفسها بنعومة قد تثير البكاء على أنها أم منتظرة. ولم يكن هناك أب يقول مشيحا بوجهه: لا أريد طفلا! لأن كل الأباء المحتملين كانوا مشغولين بأنفسهم من البكور إلى المساء. نذكر على سبيل المثال جاويش بطارية كايزرهافن ومساعد سلاح الطيران شتورتبكر. اصطاد الجاويش غربانا ببندقيته وصر بأسنانه وشتورتبكر رسم في صمت ما لهج به لسانه في الرمل: التيه، الفارق الأونطولوجي، مخطط العالم بصيغه المختلفة. كيف يمكن إذن لكليهما بانشغالاتهما الوجودية أن يجدا الوقت ليفكرا في طفل غمر تولا بوكريفكه بالوداعة، ولكنه لم يشغل بعد الحيز الفضفاض للمعطف الذي فصلته خصيصا لذلك.

الوحيد الذي كان لديه وقت لها هو هاري، متلقي الخطابات، كاتب الخطابات، كان يقول لها: «كيف حالك؟ هل ما زلت تشعرين بالغثيان عند الإفطار؟ ماذ يقول الدكتور هولاتس؟ لا تتحركي كثيرا. عليك ألا تدخني. هل يجب علي أن أحضر لك مشروب الشعير. البقال ماتسرات عنده خيار مخلل، يمكن الحصول عليه مقابل بونات التغذية. هدئي من روعك. سأقوم أنا برعاية الطفل بعد ذلك.»

وأحيانا يتصرف وكأنه يريد أن يعوضها عن الأبوين المحتملين الغائبين، فيحملق بقتامة في نقاط متخيلة ويصر بأسنان غير مدربة على طريقة الجاويش ويرسم بعصا رفيعة رموز شتورتبكر في الرمل وينطق بلسان شتورتبكر المتفلسف عبارات يمكن لها بتحويرات طفيفة أن تكون عبارات الجاويش: «انتبهي يا تولا، سأوضح لك الأمر، إن المتوسط اليومي لكينونة الطفل يمكن تحديدها على أنها الوجود المتصور للطفل في العالم مع الآخرين، حتى يمكن تحقيق كينونة الطفل نفسها. مفهوم؟ لا؟ مرة أخرى...»

ولكن هاري لم ينطق بهذه العبارات لمجرد رغبته الفطرية في التقليد، فأحيانا كان يقف في وسط مطبخ آل بوكريفكه ويلقي محاضرات واعية على أبي تولا المشاكس، ذاك الرجل الكوشنيفي المولع بالشجار والذي يعود أصله إلى منطقتي

كونيتس وتوخل. ودون أن يعترف هاري بأبوته للطفل، عرض أن يكون زوجا مستقبليا لابنة خاله الحبلى تولا، قال «إنه يعرف واجباته!»، وفرح بأن أوغست بوكريفكه لم يأخذ كلماته جديا، لكن أوغست بوكريفكه وجد فيها سببا لاجترار همه الشخصي. فلقد ألحقوه بالجيش. وكان عليه أن يحرس الوحدات العسكرية بالقرب من أوكسهوفت حيث لم يكن صالحا للخدمة خارج حدود الوطن. وقد أتاح له ذلك أن يحكي في راحات نهاية الأسبوع الممتدة أمام العائلة الكبيرة. الأسطى النجار وزوجته كان عليهما أيضا أن يستمعا له، حكايات لا نهاية لها عن الفدائيين، حيث إن البولنديين قد بدأوا في شتاء عام ثلاثة وأربعين توسيع مجال عملياتهم. ففي السابق كانت عملياتهم قاصرة على مراعي توخل والآن ترددت الأنباء عن عمليات فدائية في الكوشنايديراي وكذلك عن هجمات في الغابات التي وراء خليج دانتسيغ وحتى مطلع جزيرة هيلا وأصبحت هذه الهجمات تهدد أوغست بوكريفكه نفسه.

لكن تولا بيدها المسطحة على جسمها المسطح، لم تفكر أبدا في القناصة والجماعات القتالية والقتل خفية ومن الظهر. وكثيرا ما كانت تقوم وسط القصف الليلي غرب هايسترنست وتغادر المطبخ بشكل محسوس جدا بحيث لا يمكن لأوغست بوكريفكه أن يقبض على أسيريه ولا أن ينقذ مستودع السيارات الذي يحرسه من النهب.

وعندما كانت تولا تغادر المطبخ كانت تذهب إلى مخزن الخشب. وما الذي كان يمكن لابن عمتها أن يفعله سوى أن يتبعها إلى هناك مثلما كان يفعل في السنوات التي كان يحمل فيها حقيبته المدرسية على ظهره. ما زال مخبأ تولا هناك بين الخشب الطويل. ما زال هناك لوحان خشبيان موضوعان بالمخزن كي يبقى هناك مكان كاف لتولا وهاري.

هناك تجلس أم منتظَرة في السادسة عشرة من عمرها ومساعد بسلاح الطيران ومتطوع في الحرب ينظر في مخبأ أطفال إلى خبر استدعائه. يتعين على هاري أن يضع يده على بطن تولا ويقول: «أنا استشعر شيئا ما. هذا واضح جدا. إنه يتحرك ثانية.» صنعت تولا باروكة صغيرة من نشارة الخشب وجدلت عرائس من حلقات النشارة من خشب الزيزفون الناعم ونشرت ثانية بخار غرائها العظمي. بالتأكيد سيكون للطفل بعد ولادته مباشرة رائحة أمه نفسها التي لا تزول. ولكن

بعد أشهر عندما تكون له أسنان لبنية وبعد ذلك عندما يكون في عمر اللعب في الرمل سيتبين بوضوح ما إذا كان الطفل يفضل أن يصر بأسنانه أو أن يرسم في الرمل رسوما خطية للبشر ولمخططات العالم.

لا بخار الغراء العظمي ولا الجاويش الصرار ولا شتورتبكر الرسام! لم يرغب الطفل في أي شيء، فبمناسبة تمشية تبعت فيها تولا هاري الذي قال لها بتعبيرات وجه أب، أن على الأم المنتظرة أن تقوم دائما بشم الهواء النقي تحت السماء الصافية، أظهر الطفل أنه لا يريد أن يكون له بخار غراء الأم ولا العادات الأبوية الخاصة بصرير الأسنان أو تخطيط العالم.

كان هاري في إجازة نهاية الأسبوع. راحة الوجود. أراد ابن العمة وابنة الخال أن يذهبا إلى غابة أوليفا حيث إن الجو كان ديسمبريا صحوا وأن يسيرا حتى شفيدينشانتسه إن لم يكن ذلك مرهقا لتولا. كان الترام رقم ٢ ممتلئا وتضايقت تولا لأن أحدا لم يُخلِ لها مكانا. لقد وخزت هاري عدة مرات، لكن مساعد سلاح الطيران الخجول لم يرد أن يرفع صوته مطالبا بمكان لها. أمامها جلس صف ضابط غاف من فرق المشاة بركبتين مدورتين. وبّخته تولا قائلة إن كان لا يرى أنها تنتظر حادثا سعيدا. ففرد ضابط الصف على الفور ركبتيه المدورتين واقفا. جلست تولا وتبادلت عيون الناس التي كانت غريبة بعضها عن بعض نظرات متآلفة. خجل هاري من عدم مطالبته بمكان لتولا وخجل مرة أخرى لأن تولا قد طالبت بالمكان بهذا الصوت العالي.

خلّف الترام وراءه منعطفا كبيرا عند طريق هوهينفريدبرغ ثم تأرجح على الطريق المستقيم الضيق متنقلا من محطة إلى أخرى. ما كان متفقا عليه هو أن يهبط كلاهما عند محطة «الحمل الأبيض». وقبل محطة فريدنسشلوس بقليل وقفت تولا ومرت مزاحمة بين المعاطف الشتوية تابعة هاري إلى الباب الخلفي. لم تكن قاطرة العربة الخلفية قد وصلت بعد إلى جزيرة الشارع الخاصة بمحطة «الحمل الأبيض» - والاسم لمطعم محبوب بالقرب من المحطة - عندئذ وقفت تولا على الدرجة السفلية للعربة وضيقت عينيها مواجهة الريح الناتجة عن حركة العربة.

قال هاري لها «كفي عن هذا السفه»

تولا كانت تحب دائما القفز من الترامات

كان على هاري أن يقول لها من عل «انتظري حتى يقف»

القفز في الترامات صعودا وهبوطا كان متعة تولا الصغيرة منذ أيامها الأولى. منذ عامها الثامن تقريبا بدأت تولا القفز من الترامات. ولم تسقط أبدا. ولم تقفز أبدا مثل الأغبياء والبلهاء عكس اتجاه الترام، تولا كانت تقفز دائما وحتى من قاطرة الترام رقم ٢ الذي يقطع المسافة من المحطة الرئيسية وحتى ضاحية أوليفا منذ منعطف القرن، من بابها الخلفي لا من الباب الأمامي. كانت تقفز في اتجاه سير الترام في خفة وحذق وتلمس الأرض بكعبين يصطكان بالحصى في يسر ومرونة.

قالت تولا لهاري الذي قفز وراءها مباشرة: «لازم دائما تنق، أتظن أني عبيطة»

اتخذت طريق المزارع الذي يتفرع يمينا من خط الترام المستقيم الضيق بجانب مطعم «الحمل الأبيض» والذي يفضي إلى الغابة المظلمة القابعة فوق التلال. سطعت الشمس بحذر امرأة عانس. عند زاسبه تقريبا صنعت تدريبات ضرب النار نقاطا جافة غير منتظمة في هواء العصر. كان مطعم «الحمل الأبيض» مغلقا موصدا ومسمرا. قيل إنهم سجنوا صاحبه بسبب مخالفة تجارية، حيث كان يتاجر بالأسماك المحفوظة في السوق السوداء. يحط الثلج المتطاير في شقوق الأرض الزراعية وفي الخطوط التي تخلفها العربات. تنتقل أمامهم غربان الضباب من حجر إلى آخر على طرف الحقول. تحت السماء العالية جدا والزرقاء جدا بدت تولا صغيرة وأمسكت بطنها، في البدء من فوق المعطف ثم من تحته. ورغم هواء ديسمبر النقي لم يُرد وجهها أن يكتسب لونا ينم عن صحة وعافية: تتسع فتحتا أنف بفزع وسط سحنة طباشيرية منكمشة. لحسن الحظ ارتدت تولا سراول تزلج.

«في شيء حصل لي الآن»

«ماذا حدث؟ أنا لا أفهم شيئا؟ أتريدين أن تجلسي؟ أو ممكن نمشي لغاية الغابة؟ تكلمي!»

كان هاري منفعلا ولم يعرف ولم يفهم شيئا وأحس شيئا، لكنه لم يرد أن يعرف. انبعجت أنف تولا ونتحت عند منبت أنفها كرية من العرق لم ترد أن تسقط. جرها إلى أقرب حجر من أحجار الحقل - تنازلت الغربان عن الحجر - ثم إلى زحافة يخترق عريشها هواء ديسمبر. ولكن عند طرف الغابة وبعد أن

اضطرت الغربان إلى الترحال عدة مرات أسند هاري ابنة خاله إلى جذع شجرة زان. تطايرت أنفاسها بيضاء. وكذلك خرجت أنفاس هاري مثل دخان أبيض. ما زالت تمرينات ضرب النار البعيدة تصنع نقاطا سوداء بسن قلم رصاص أسود على ورق أبيض قريب. حملقت الغربان برؤوس معوجة من بين الحقول المتفرقة وحتى تلك الملتصقة بالغابة. «لحسن الحظ أنني أرتدي السروال وإلا لما كان في استطاعتي الوصول إلى هنا. سيسقط كل شيء!»

زفرا عند طرف الغابة وذهب زفيرهما مع الريح. حيرة. «هل ينبغي علي أن؟» خلعت تولا معطفها المصنوع من قماش البحرية أولا. طبقه هاري بعناية. فتحت رباط سروالها بنفسها وقام هاري بالباقي بحذر وفزع وفضول. رقد الجنين ذو الشهرين والذي بلغ طوله قدر إصبعين في سروالها الداخلي. هناك، كان واضحا للعيان. هناك، اسفنجة في مادة هلامية. هناك، في سوائل دموية وسوائل أخرى لا لون لها. هناك عبر مدخل العالم. كان هناك ملء قبضة صغيرة: شيء غير محفوظ، ما قبلي، جزئي. شيء منكمش في هواء ديسمبر القاسي. أخرج الأساس بخاره ثم برد سريعا. التأسيس بوصفه اتخاذ أرضية ومعه منديل تولا أيضا. تكشف ماذا؟ من يحدد ذلك؟ أخذ حيز مكاني، ولكن ليس بدون تكشف العالم؟ لذلك تخلع السروال الداخلي، وسروال التزلج. لم يكن طفلا لكن. يا له من عرض للجوهر! رقد هناك دافئا ثم باردا. يتيح الانسحاب لارتباط النموذج المتبقي حفرة في طرف غابة أوليفا: «لا تقف هكذا! ابدأ، احفر حفرة! ليس هنا، أفضل هناك.» آه، هل كان لنا نحن أنفسنا أن، لي أنا، الآن لم يتجمد في الأوراق والتربة. لأن الإمكانية أعلى من الواقع: من الواضح أنها تلك التي لا تبين نفسها مباشرة أغلب الأحوال في البداية، في البداية تكون خفية لكنها في الوقت نفسه تكون شيئا جوهريا لما يظهر في أغلب الأحوال وفي البداية، بحيث يكون لها معنى وسبب غير متجمد بل يمكن دهسه بيسر بكعوب أحذية خارجة من غرفة كساء سلاح الطيران، حتى يصبح الطفل في وجوده هناك. هناك في وجوده هناك. مجرد مخطط هناك. وقد فُرغ من جوهره: هناك. مجرد شيء محايد، مجرد ضمير محايد والضمير المحايد ليس هناك في معناه العام. وحدوث الوجود المتعين يواجه الوجود هناك مع إمكانية الوجود هنا دون تقزز وبإصبعين فقط، دون وجود أي واقٍ للأيدي: البنية الأفقية المنتشية! هناك فقط

للموت، ذلك يعني وضع كل الأشياء بعضها فوق بعض في طبقات وشيئا من أوراق الشجر وبعض ثمار الزان المصمتة فوقها، حتى لا. . . الغربان أو في حالة إذا أتت الثعالب أو أتى حراس الغابة أو قصاصو الأثر أو النسور أو الباحثون عن الكنوز أو الساحرات الشريرات، إن وُجدت أي منهن، سيجمعن أجنة ويصنعن منها شموعا دهنية أو مساحيق، تُرش على عتبات الأبواب، مراهم ودهانات لكل شيء وللاشيء. لذلك: يُوضع فوقه حجر من أحجار الحقول. التأسيس في الأساس. مكان وجنين مجهض. المادة والعمل. الأم والطفل. الوجود والزمان. تولا وهاري. تقفز من الترام في هناكها، دون أن تتعثر. تقفز قبل أعياد الميلاد، صحيح أنها تقفز بحذق لكن بدفعة شديدة: دخل قبل قمرين وخرج من الثقب نفسه. إفلاس! عدم لا نهاية له. خراء عظيم! حدث في التيه. فرج باصق! لم يتمكن حتى أن يكون متجاوزا، بل بذيء أونطي مكشوف بلا صرير أسنان بلا شتورتبكر. نهاية العمل. تأسيس التيه. بيضة الريح. لم يكن ما قبل سقراطي. شيء من الهم. ما لا تشتهي السفن. كان متأخرا. مخففا متبخرا موضحا. «أنت واقف تتفرج يا للخيبة! أن يحدث لي شيئا كهذا، يا للهم! كان من المفروض أن اسمه سيكون كونراد. على اسم من؟ على اسمه. يللا يا تولا خلينا نمشي.»

وذهب ابن العمة وابنة الخال بعدما أمنا المكان بحجر كبير من أحجار الحقول وكثير من الأحجار الصغيرة وذلك ضد الغربان وحراس الغابة والثعالب والباحثين عن الكنوز والساحرات الشريرات.

ذهبا وقد ارتاحا قليلا، كان على هاري أن يسند تولا. كانت طلقات الرماة المتدربين ما تزال تصنع نقاطا غير منتظمة في العصرية التي انصرمت. أحسا بطعم الغثيان في فمهما. لكن هاري كان يحتفظ في جيب سترته بلفافة من الملبس اللاذع الطعم.

عندما وقفا على محطة «الحمل الأبيض» وأصبح الترام القادم من أوليفا أصفر وأكبر حجما، قالت تولا بوجه رمادي في وجهه النضر: «سننتظر حتى يتحرك الترام، ثم تقفز أنت من الباب الأمامي وأنا من الباب الخلفي.»

كان يا ما كان، كان هناك جنين مجهض،

كان اسمه كونراد، لم يعرف عنه أحد شيئا ولا حتى جيني برونيس التي

كانت ترقص باسم جيني أنغوستري أمام الجنود الأصحاء والمتماثلين للشفاء في تسالونيكي وأثينا وبلغراد وبودابست مرتدية خف الباليه وكانت تحيك من الصوف المنفوش أشياء صغيرة وردية وزرقاء لطفل إحدى صديقاتها، الذي كان سيدعى كونراد. هكذا كان اسم أخي الصديقة قبل أن يغرق أثناء الاستحمام.

في كل خطاب يصل إلى هاري في بيته، جاءت أربعة خطابات في يناير وفي فبراير ثلاثة فقط، كتبت جيني عن الأشياء الصوفية التي تتزايد تدريجيا: «لقد كنت مجتهدة في الفترة الماضية. كانت البروفات تأخذ وقتا طويلا بسبب الإضاءة والعمال المختصون كانوا يتصرفون وكأنهم لا يفهمون ولا كلمة واحدة. أحيانا عندما يأخذ تجهيز المسرح وقتا طويلا، كنا نفكر أنهم يرغبون في تخريب العرض. على أي حال، أصبح عندي وقت كاف للحياكة بفضل هذه الفوضى. انتهيت من حياكة سروال صغير وما يزال أمامي تطريز أسنان الفأر عند ياقة السترة. لا يمكن لك أن تتصور كم يسعدني ذلك. وعندما فاجأني السيد هازيلوف ذات مرة في غرفة الملابس وبيدي السروال الصغير، فزع فزعا عظيما، خاصة أنني تركته على حيرته ولم أقل له لمن أحيك.»

ومنذ ذلك الحين يظن أنني أنتظر طفلا صغيرا. فمثلا أثناء التدريبات يحملق فيّ أحيانا لعدة دقائق بطريقة غريبة، لكن بخلاف ذلك فهو لطيف ويحرص على مراعاة الآخرين. أهداني قفازا مبطنا بالفرو كهدية في عيد ميلادي، بالرغم من أنني لا أرتدي في أصابعي أي شيء مهما كان الجو باردا. وبخلاف ذلك فإنه يحاول أن يساعدني، فكثيرا ما يتحدث مثلا عن بابا برونيس بسلاسة شديدة وكأن عودته ممكنة في كل ساعة، بالرغم من أن كلانا يعرف تماما أنه لن يعود أبدا.»

وهكذا كانت جيني تثرثر أسبوعيا خطابا كاملا. وفي وسط فبراير كتبت بالإضافة إلى حياكتها للسروال الثالث والسترة الثانية عن وفاة بابا برونيس. بحياد ودون أن تبدأ فقرة جديدة أبلغتني التالي: «أخيرا جاء الخبر الرسمي. لقد مات في الثاني عشر من نوفمبر عام ١٩٤٣ في معسكر شتوتهوف. وسبب الوفاة المذكور كان ضعف القلب.»

وتبع توقيعها المعتاد: «المخلصة لك دائما والمتعبة قليلا جيني» ملحوظة جديدة لهاري: «بالمناسبة الفيلم الخاص بالنشرة الأسبوعية عن مقر قيادة الفوهرر وكلب كلبكم هاراس وصل. السيد هازيلوف شاهده عشر مرات على الأقل،

وأحيانا بالحركة البطيئة أيضا كي يستطيع عمل بعض الاسكتشات للكلب. لقد تحملت رؤية الفيلم مرتين، لا تغضب مني لذلك، حيث إن خبر موت بابا قد أحزنني كثيرا، لقد كان مكتوبا بطريقة رسمية مفزعة. أحيانا كثيرة كنت على استعداد للبكاء لكنني لم أستطع.»

كان يا ما كان، كان هناك كلب،

اسمه بركون وكان ملكا لعامل طاحونة ليتواني وجد عملا عند مصب الفايكسل. عاش بركون بعد عامل الطاحونة وأنجب سنتا. والكلبة سنتا التي كانت ملكا لطحان في نيكلسفالده أنجبت هاراس. وكلب التعشير الذي كان ملكا لأسطى نجار بضاحية دانتسيغ-لانغفور عشر الكلبة تكلا التي كانت ملكا لسيد يدعى ليب مات في بداية عام اثنين وأربعين. أما الكلب برينتس الذي أنجبه كلب الرعاة هاراس من كلبة الرعاة تكلا صنع تاريخا: لقد أُهدي إلى الفوهرر ومستشار الرايخ في عيد ميلاده وظهر في النشرة الأسبوعية بوصفه كلب الفوهرر المفضل.

وعندما دُفن مربي الكلاب ليب شارك الأسطى النجار في الجنازة. عندما مات بركون تم قيد مرض من أمراض الكلاب العادية كسبب للوفاة. وتم قتل سنتا بالرصاص لأنها أصبحت هيستيرية وسببت كثيرا من الأضرار. وماتت الكلبة تكلا، حسب ما هو مقيد في سجلها، نتيجة للشيخوخة. لكن هاراس الذي أنجب كلب الفوهرر المفضل برينتس، مات مسموما بلحم مسمم لأسباب سياسية ودُفن في مدفن الكلاب.

لم يخلف سوى كوخ للكلاب.

كان يا ما كان، كان هناك كوخ كلب،

سكن به كلب رعاة أسود اسمه هاراس حتى سُمم في يوم من الأيام. ومنذ ذاك الوقت بقي الكوخ الموجود في حوش الورشة فارغا. لأن الأسطى النجار لم يرغب في إحضار كلب جديد، حيث إن هاراس لم يكن له مثيل.

كثيرا ما كان الرجل الضخم يقف مترددا أمام كوخ الكلب أثناء انتقاله من صالة الماكينات إلى الورشة لفترة قدرها عدة أنفاس من سيجاره أو ما يزيد على

ذلك. ساوى المطر بمعونة قباقيب العمال الخشبية الحائط الترابي الذي صنعه هاراس بقدميه الأماميتين وهو مربوط بالسلسلة. لكن الكوخ المفتوح ما زال يزفر رائحة كلب كان يعشق رائحته ويترك آثاره في حوش الورشة وفي كل مكان بلانغفور. كانت رائحة هاراس تطغى على الكوخ بشدة خصوصا تحت شمس أغسطس الحارقة أو في الجو الرطب لبداية العام وتجذب الذباب. ليس الكوخ بقطعة أثاث تزين حوش الورشة الذي يعج بالحياة. تفسخ الغطاء القطراني الذي كان يغطي سطح الكوخ عند المسامير التي أرادت أيضا أن تنفك. منظر حزين، فارغ ومليء بالذكريات: ذات مرة حينما كان هاراس ما يزال شرسا ومربوطا بالسلسلة، سكنت ابنة أخي زوجة الأسطى النجار مع هاراس أسبوعا كاملا مع الكلب في الكوخ. وبعد ذلك جاء مصورون وصحافيون والتقطوا صورا للكلب ووصفوه. اعتبرت صحف عديدة حوش الورشة مكانا تاريخيا بسبب كوخ الكلب المشهور. جاء أناس معروفون، بل وأجانب وتسمروا لخمس دقائق أمام البقعة الهامة. وبعد ذلك رسم جوال سمين يدعى أمزل الكلب بالفرشاة والريشة وذلك لساعات طويلة. ولم يكن يناد هاراس باسمه، بل كان يناديه بلوتو ولم تناد ابنة أخي زوجة الأسطى النجار الصغيرة أمزل باسمه بل سبّته قائلة كوهين. وحينئذ طُرد أمزل من حوش الورشة. وذات مرة كادت حادثة تقع، لكن الأمر اقتصر على تمزيق معطف مدرس بيانو يسكن في شقة الدور الأرضي وكان لا بد أن يدفع له تعويض عن ثمن المعطف. وذات مرة، بل عدة مرات جاء شخص سكران مترنح وسب هاراس بشتائم سياسية بصوت فاق في علوه المنشار القرصي والمخرطة. وذات مرة ألقى شخص يصر بأسنانه لحما مسموما من فوق سطح مخزن الخشب أمام الكوخ مباشرة. لم يبق اللحم في مكانه.

ذكريات. رغم ذلك لا ينبغي لأحد أن يحاول قراءة ما يدور في رأس أسطى نجار يقف مترددا أمام كوخ كلب خاو ولا يتحرك. من المحتمل أنه يسترجع ذكرياته. من المحتمل أنه يفكر في أسعار الخشب. يحتمل أنه لا يفكر في شيء، بل ينسى نفسه وهو يدخن سيجاره الرخيص بين الذكريات وأسعار الخشب. وقف هكذا لنصف ساعة كاملة حتى نادى عليه أسطى الماكينات بحذر. لا بد من تقطيع الأجزاء الجاهزة لثكنات البحرية. لن يفلت كوخ الكلب الخاوي المليء بالذكريات من هذا المصير.

لا، لم يكن مريضا أبدا، كان الكلب أسود دائما: فروه وجلده. شعره واقف، مثل إخوته الذين ولدوا معه من البطن نفسه والذين بقوا في رئاسة الشرطة. كانت شفتاه تنغلقان بجفاف. العنق الممشوق دون لغد. والكفل الطويل الساقط بانسيابية. والأذنان الواقفتان دائما والمائلتان قليلا. ومرة أخرى: كل شعرة من شعرات هاراس مستقيمة وثابتة، خشنة وسوداء.

يجد الأسطى النجار بين ألواح خشب أرضية الكوخ شعرات منفردة، صارت الآن هشة لا تلمع. بعد نهاية العمل، كان ينحني أحيانا أمام الكوخ وينبش في حفرته الدافئة، دون أن يلقي بالا إلى المستأجرين الذين علقوا بالنوافذ.

عندما فقد الأسطى النجار ذات مرة حافظة نقوده التي لم يكن بها بخلاف بعض الفكة سوى حفنة من شعر كلب ميت، وعندما أراد الأسطى النجار أن يرى كلب الفوهرر المفضل الذي أنجبه هاراس في النشرة الأسبوعية، ودارت أمامه النشرة الأسبوعية الجديدة دون كلب الفوهرر المفضل، وعندما جاء خبر موت رابع جندي من عمال الورشة السابقين، وعندما لم تعد ورشة الأسطى النجار تصنع بوفيهات من خشب البلوط الثقيل ولا كومودينوهات من خشب البندق ولا موائد طعام قابلة للتوسيع تقف على أقدام حسنة التزيين، بل تسمر فقط ألواحا مرقمة بعضها مع بعض: أجزاء مفردة لثكنات الجيش، وعندما كان عام أربعة وأربعين في شهره الرابع، وعندما قالوا: «نقلوا السيد برونيس العجوز إلى مثواه الأخير.» وعندما تم إخلاء مدينة أوديسا ولم يعد من الممكن الإبقاء على مدينة تارنوبول التي قد سبق ضمها، وعندما دق الجرس ليعلن عن الجولة الأخيرة، وعندما لم تعد بونات الطعام تفي بما تعد به وعندما علم الأسطى النجار أن ابنه الوحيد قد تطوع بسلاح البحرية، عند جمع كل هذه الأشياء بعضها مع بعض: حافظة النقود الضائعة والنشرة الأسبوعية المتوهجة والنجار الذي مات في الحرب وقطع الثكنات البائسة وأوديسا التي أُخليت وبونات الطعام الكاذبة والسيد برونيس العجوز والابن المتطوع للحرب - عندما أصبح حاصل جمع هذه الأشياء رقما صحيحا يجب خصمه، غادر الأسطى النجار مكتبه وأمسك ببلطة خشبية جديدة ومشحمة وعبر في العشرين من أبريل عام ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين في الساعة الثانية ظهرا حوش الورشة وغرس نفسه أمام كوخ الكلب المسموم هاراس فاردا ساقيه وحوّل، وحيدا في

صمت، الكوخ بضربات دورية متساوية إلى قطع خشبية صغيرة.

وحيث إن العشرين من أبريل كان موعد الاحتفال بالعيد الخامس والخمسين لميلاد الفوهرر نفسه ومستشار الرايخ الذي أُهدي إليه قبل عشرة أعوام كلب الرعاة الصغير برينتس من نسل هاراس،•فقد فهم كل الواقفين خلف نوافذ المنزل وخلف نضد السحج بالورشة أن ما حُطم لم يكن مجرد خشب عطن وغطاء قطراني مليء بالثقوب.

بعد هذه الفعلة رقد الأسطى النجار في سريره أسبوعين كاملين. لقد أجهد نفسه أكثر من اللازم.

كان يا ما كان، كان هناك أسطى نجار

حطم بضربات دورية مدربة كوخا للكلاب محولا إياه إلى قطع خشبية صغيرة.

كان يا ما كان، كان هناك قاتل، خبأ قنبلة على سبيل التجربة في حقيبة مستنداته.

كان يا ما كان، كان هناك مساعد بسلاح الطيران، كان ينتظر بفارغ الصبر استدعاءه إلى البحرية، كان يريد الغوص في قاع البحر وإغراق سفن العدو.

كان يا ما كان، كان هناك باليرينا، كانت تحيك في بودابست وفيينا وكوبنهاغن سراويل لطفل رضيع، رقد منذ زمن طويل مدفونا عند طرف غابة أوليفا وقد أثقلته أحجار الحقل.

كان يا ما كان، كانت هناك أم منتظرة، تحب القفز من الترامات وفقدت رغم قفزها بحذق ومع اتجاه حركة الترام، طفلها الذي حملته لمدة شهرين، حينئذ قبلت الأم المنتظرة التي أصبحت الآن فتاة مسطحة، ممارسة عمل ما. لقد أصبحت تولا بوكريفكه - كان ذلك متوقعا - محصلة تذاكر بخطوط الترام.

كان يا ما كان، كان هناك، رئيس للشرطة، كان الجميع يسمون ابنه شتورتبكر، كان شتورتبكر يريد أن يصبح فيما بعد فيلسوفا وكاد يصبح أبا وأسس بعد تخطيطه للعالم في الرمل عصابة من الشبان عرفوا فيما بعد باسم عصابة النافِضين. لم يعد يرسم رموزا في الرمل، بل صار يرسم مصلحة

التموين، كنيسة قلب يسوع والإدارة العليا للبريد، وكلها مبان حادة الزوايا، صار بعد ذلك يقود إليها عصابة النافضين في الليل. كانت محصلة تذاكر الترام تولا بوكريفكه تنتمي إلى العصابة أحيانا. لم يكن ابن عمتها من أفراد العصابة. لكنه كان يقف كبصاص عند اجتماع العصابة داخل مخزن مصنع شوكولاتة «بلطيق». أحد الممتلكات الثابتة للعصابة، تعويذتهم كانت طفل في الثالثة من عمره كانوا يسمونه يسوع وقد بقي بعد فناء العصابة.

كان يا ما كان، كان هناك جاويش، كان يدرب مساعدين بسلاح الطيران على مدافع الدفاع الجوي ويعدهم ليكونوا شبه فلاسفة، كان يعرج عرجا خفيفا ويستطيع أن يصر بأسنانه وكاد يكون أبا، لكنه حوكم أمام محكمة خاصة ثم أمام محكمة الحرب وتم تجريده في الحال من رتبته وأُلحق بفرقة تأديبية لأنه أساء أثناء سكره بين ثكنات بطارية كايزرهافن إلى الفوهرر ومستشار الرايخ بتعبيرات وردت فيها كلمات مثل: منسي الوجود، جبل العظام، تركيب القلق، توتناو ومعسكر التعذيب. وعندما رحلوه في وضح النهار، زعق بعبارات غامضة: «أيها الكلب الأونطي، أيها الكلب الألماني، أيها الكلب أبو زعبوط وصندل! ماذا فعلت بهوسرل؟ وماذا فعلت بأمزل السمين؟ أيها الكلب النازي ما قبل السقراطي؟» بسبب هذا النشيد غير المقفى أرسلوه، رغم ساقه العرجاء، لينقب عن الألغام أولا على الجبهة الشرقية التي تزحف مقتربة أكثر فأكثر، ثم بعد ذلك في الغرب بعد نجاح الغزو. لكن الجاويش المجرد من رتبته لم يسقط في مصائد الألغام وينفجر.

كان يا ما كان، كان هناك كلب رعاة أسود، كان اسمه برينتس، انتقل مع المقر المركزي للفوهرر إلى راستنبورغ في شرق بروسيا. ولحسن حظه لم يمش فوق لغم، لكن الأرنب البري الذي كان يجرى وراءه انفجر فيه لغم ولم يتبق منه سوى أشلاء.

يوجد على حدود مقر القيادة المركزي للفوهرر بشرق بروسيا غابات ملغمة كما هو الحال في معسكر «فيرفولف» بشمال فينتسا. عاش الفوهرر وكلبه المفضل معزولين في المنطقة المحظورة أ من خندق «فولف». وكي يستطيع برينتس الخروج للهواء الطلق وقضاء الحاجة، قام قائد مجموعة من فرق الحماية، كان يمتلك قبل الحرب معسكرا شهيرا لتدريب الكلاب، باصطحابه للتجوال في المناطق المحظورة

ا و٢، لكن الفوهرر لم يغادر المنطقة المحظورة الضيقة أ حيث إن عليه أن يعقد باستمرار محادثات حول الوضع الحالي.

كانت الحياة في المقر المركزي للفوهرر مملة. دائما الثكنات نفسها التي تسكنها الفرقة العسكرية المصاحبة للفوهرر وقيادة أركان القوات المسلحة ويسكنها الضيوف المدعوون لمناقشة الأوضاع. كانت الحركة على بوابة المنطقة المحظورة ٢ تكسر نوعا ما هذه الرتابة.

حدث هناك أن أرنبا قد خرج عن المنطقة المحظورة بين نقاط الحراسة وأفزعته ضحكات الحراس، وقد جعل ذلك كلب رعاة أسود ينسى ما تعلمه في معسكر تعليم الكلاب: انطلق برينتس مارقا بين أفراد الحراسة الضاحكين عبر الباب وعبر برباطه الذي يسحبه وراءه مدخل المعسكر - تحرك الأرانب أنوفها والكلاب لا تطيق شيئا مثل هذا. أراد أن يطارد الأرنب الذي يهز أنفه والذي قام لحسن الحظ بقفزة طويلة متقدمة، حيث إنه عندما دخل إلى الغابة الملغمة وتشتت أشلاؤه بفعل اللغم المتفجر، لم يصب الكلب بأي ضرر يذكر، بالرغم من أنه قد قفز عدة قفزات في عمق الأرض الملغمة. وخطوة خطوة أعاده مدرب الكلاب بحذر إلى المعسكر.

وعندما كُتب تقرير بذلك واتخذ مساره الإداري، وذيل كبير قواد فرق الحماية فيغلاين التقرير ببعض الملاحظات، ثم وصل التقرير إلى أيدي الفوهرر، تم تجريد مدرب الكلاب من رتبته وإرساله إلى الفرقة التأديبية نفسها التي أُرسل إليها الجاويش المجرد من رتبته لينقب عن الألغام.

أخطأت خطى مدرب الكلاب في منطقة ألغام بشرق موغليف، أما الجاويش فهرب بساق عرجاء لكنها محظوظة إلى الحلفاء.، أثناء انتقال فرقته إلى الغرب وتنقل بين معسكرات الأسرى ووجد راحته أخيرا في المعسكر الإنجليزي لأسرى الحرب المناهضين للفاشية، لأنه استطاع أن يظهر هويته من خلال دفتر حالة مسجل به العقوبات المعتادة التي وقعت عليه وتسببت في تجريده من رتبته. وبعد ذلك مباشرة، أثناء دوران إسطوانة موسيقى «غروب الآلهة» لفاغنر أسس مع مجموعة من أقرانه مسرح المعسكر. قام بتمثيل أدوار رئيسية من المسرح الألماني الكلاسيكي على خشبة المسرح المرتجلة، حيث إن مهنته الأساسية هي التمثيل.

كان يلعب دور ناتان الحكيم بعرج خفيف ويلعب دور غوتس Götz الذي يصر بأسنانه.

لكن القاتل[١٣] الذي حاول اغتيال الفوهرر بالقنبلة داخل حقيبة المستندات، لم يتمكن من الوصول إلى معسكر أسرى الحرب المعادين للفاشية. وفشلت محاولة الاغتيال التي قام بها حيث إن القتل لم يكن حرفته، وإنه لعدم خبرته لم يفجر كل المكان ووضع يده على الزر الخاطئ قبل أن تقول له القنبلة بوضوح نعم، ولأنه أراد أن يحفظ نفسه لمهام عظمى بعد نجاح عملية الاغتيال.

كان يقف بين الجنرال فارليمونت وجنرال البحرية أسمان، بينما استغرقت محادثات الفوهرر وقتا طويلا ولم يعد هو يعرف أين يذهب بحقيبة مستنداته. أنهى ضابط اتصال من مصلحة تموين الحرب محاضرته عن مشكلة الوقود. وأحصى النقص في خامات مثل المطاط والنيكل والبوكسيت والمنغنيز والتنغستين. هناك نقص عام في مخزون الذخيرة. قام أحد مسؤولي وزارة الخارجية - هل هو المبعوث هيفيل؟- بطرح سؤال حول الوضع بعد استقالة حكومة تويو في اليابان. لم تجد حقيبة المستندات حتى الآن مكانا ثابتا. الآن يتحدثون عن إعادة تشكيل الجيش العاشر بعد إخلاء أنكونا وقوة الجيش الرابع عشر بعد سقوط ليفورنوس. يطلب الجنرال شمونت الكلمة، لكن هناك واحد فقط هو الذي يتحدث الآن. أين يذهب بحقيبة المستندات؟ يدفع خبر جديد بالمجموعة إلى مائدة الخرائط: اقتحم الأمريكيون سانت لو! لا بد من التحرك بسرعة حتى لا يتدهور الوضع على الجبهة الشرقية، مثلا في جنوب غرب بايلستوك. يضع القاتل حقيبة المستندات بمحتواها بصورة اعتباطية تحت مائدة الخرائط التي يوجد فوقها خرائط معقدة لقيادة أركان الجيش والتي يقف حولها السادة يودل وشيرف وشموندت وفارليمونت في سكون أو يتأرجحون على أطراف أحذيتهم العسكرية، والتي يحوم حولها كلب الفوهرر الأسود مضطربا، لأن سيده مضطرب أيضا، ويتحرك هنا وهناك ويرفض ذاك الأمر ويطلب الأمر الآخر بحزم، ويتحدث باستمرار عن مدافع عيار ١٥٢ السيئة وعن مدافع سكودا عيار ٢١٠ الممتازة: «لها القدرة على

(١٣) يعني غراس الضابط كلاوس غراف فون شتاوفنبرغ من حركة المقاومة المحافظة وقد قام في ٢٠ يوليو ١٩٤٤ بمحاولة فاشلة لاغتيال هتلر.

إطلاق النار في كل اتجاه، بدون مسند خلفي، مثل هذه المدافع كانت ستكون ملائمة لتحصين السواحل في سانت لو مثلا.» تلك الذاكرة! أسماء وأرقام مسافات، خليط من الأشياء. يتجول دائما والكلب عند قدمه ولكن ليس بالقرب من حقيبة المستندات تحت أقدام الجنرالين شموندت وفارليمونت.

الخلاصة أن القاتل قد فشل، لكن القنبلة لم تفشل، لقد انفجرت في الميعاد المضبوط، وأنهت مستقبل بعض الضباط لكنها لم تأخذ معها الفوهرر ولا كلبه المفضل. لأن برينتس الذي كانت منطقته الخاصة تحت المائدة قد تشمم الحقيبة المنفردة هناك وسمع غالبا شيئا له تكات غريبة. على أي حال أمره التشمم العابر بقضاء حاجته في الخلاء لأنه كلب ذو تربية حسنة.

لاحظ معاون نبيه كان يقف بجوار باب الثكنة حاجة الكلب وفتح الباب بمقدار شق كان كافيا لخروج برينتس، ثم أغلق الباب في هدوء ولم يلق مع ذلك مكافأة لحرصه، فحينما قالت القنبلة: الآن! حينما قالت انتهى، خلاويص، خلاص، عندما قالت القنبلة الموجودة داخل حقيبة مستندات القاتل الذي فر في هذه الأثناء: آمين، أصابت من بين مَن أصابت ذاك المعاون ولم تصب مطلقا الفوهرر وكلبه المفضل.

لكي نعود من عالم القتلة وخرائط قيادة الأركان والقائد الذي نجا سليما من الحادثة إلى حي لانغفور، نقول إن مساعد سلاح الطيران هاري ليبناو قد سمع عن الهجوم الفاشل من جهاز الراديو العالي الصوت. وقد ذُكر اسم القاتل والمتآمرين معه. وكان هاري قلقا على مصير الكلب برينتس ابن هاراس، حيث لم يأت أي خبر خاص بشأنه ولا حتى سطر في جريدة ولا حتى همسة تنبأ عما إذا كان من ضمن ضحايا الحادث أم أن العناية الآلهية قد أنقذته مثل سيده.

حمل هاري أمر استدعائه في جيبه ولم يعد يرتدي زي مساعدي سلاح الطيران، وقام بعمل بعض الزيارات للوداع، حيث كان لديه سبعة أيام باقية يستطيع أن يقضيها بالطول والعرض، فكان يذهب كثيرا إلى السينما. وفي نشرة أسبوعية لاحقة جاء خبر هامشي عن الكلب برينتس في النشرة الخاصة بألمانيا.

فقد أظهرت النشرة المقر المركزي للفوهرر بثكنته المدمرة وظهر الفوهرر الحي من بعيد على الشاشة وقد تمسح بحذاء القائد الذي بدا وجهه مبلوعا تحت القبعة الغائصة في رأسه دون أن يطرأ عليه أي تغير، كلب رعاة أسود بأذنين واقفتين.

واستطاع هاري في الحال أن يتعرف عليه، إنه الكلب ابن كلب الأسطى النجار.
لكن القاتل غير الحصيف قد أُعدم.

كان يا ما كان، كانت هناك بنت صغيرة
أعطاها غجريو الغابة لمدرس، كان يصنف أحجار النايس اللامعة في مصنع لا حياة فيه وكان اسمه أوزفالد برونيس. سميت الطفلة جيني برونيس، وقد نمت جيني وصارت أسمن وأسمن. كانت تبدو مكورة بصورة غير طبيعية وعانت كثيرا. وأعطى مدرس البيانو فيلزنر-امبس للفتاة السمينة دروسا في البيانو. كان لامبس شعر مموج ناصع البياض كان يحتاج يوميا لساعة من التمشيط بالفرشاة. وبناء على نصيحة امبس تلقت جيني دروس باليه في مدرسة باليه حقيقية وذلك للتغلب على سمنتها.

لكن جيني استمرت في سمنتها ووعدت بأن تصبح سمينة مثل إيدي أمزل، الطالب المحبب إلى قلب الأستاذ برونيس. كثيرا ما ذهب أمزل وصديقه لمشاهدة مجموعة أحجار النايس اللامعة التي يمتلكها الأستاذ برونيس وكان أيضا حاضرا عندما كانت جيني تدقدق على أصابع البيانو. كان أمزل كثير النمش، وكان يزن مائتين وثلاثة أرطال وكانت له القدرة على قول أشياء مضحكة والرسم بسرعة ودقة، إضافة إلى أنه يغني بصوت صاف كاللجين، بل وكان يغني في الكنائس أيضا.

في عصر يوم شتوي غمر فيه الثلج كل شيء، وسقط فوقه دائما ثلج جديد، حوّل بعض الأطفال العابثين جيني خلف جبل الإربس بالقرب من التمثال الكابي لغوتنبرغ إلى تمثال ثلجي.

وأرادت الصدفة أن يتحول أمزل السمين المضحك أيضا على الناحية الأخرى لجبل الإربس إلى تمثال ثلجي، لكن الذين قاموا بتحويله لم يكونوا أطفالا عابثين.

ثم حل جو ذوبان الجليد من جميع النواحي. ذاب تمثالا الجليد حينئذ وخرج منهما: بالقرب من تمثال غوتنبرغ عصا راقصة وعلى الناحية الأخرى من جبل الإربس شاب نحيل كان يبحث عن أسنانه في الثلج ووجدها. ثم بدأ بعد ذلك في تطويحها بين الحشائش.

ذهبت العصا الراقصة إلى البيت وادعت أنها جيني برونيس ومرضت، ثم

عادت لها عافيتها بسرعة وشرعت تمضي بنجاح في الطريق الشاق لراقصة الباليه.

أخذ الفتى الرشيق حقيبة سفر إيدي أمزل وسافر بوصفه السيد هازيلوف بالقطار من دانتسيغ مارا بشنايدهمول إلى برلين. وهناك حشا فمه بأسنان جديدة وحاول أن يتعافى من نزلة البرد الحادة التي أصابته داخل التمثال الثلجي، لكن حشرجة صوته المزمنة ظلت معه ولم تغادره.

كان على العصا الراقصة أن تستمر في الذهاب إلى المدرسة وأن تجتهد في تدريبات الباليه. حينما شارك باليه أطفال مسرح المدينة بالتمثيل في حدوتة أعياد الميلاد المسماة «ملكة الثلج»، لعبت جيني دور ملكة الثلج ومدحها النقاد.

ثم جاءت الحرب. لكن شيئا لم يتغير، ربما تغير جمهور الباليه. أمكن لجيني أن ترقص في الصالة الحمراء لمنتجع تسوبوت العلاجي أمام ضباط كبار وقيادات حزبية وفنانين وعلماء. وهذا السيد هازيلوف ذو الحشرجة المزمنة الذي تسرب من تمثال أمزل الثلجي أصبح معلما للباليه في برلين، ولذلك جلس بين مشاهير المدعوين في الصالة الحمراء وقال لنفسه معلقا على التصفيق الختامي الذي دام طويلا: «حضورها مدهش جدا. تحريكها لذراعها رائع، وهذا الخط أثناء الأداجيو. بارد بعض الشيء لكنه كلاسيكي. تكنيك لا عيب فيه بأداء واع جدا. فرد مشط القدم منخفض جدا. بالتأكيد شيء وراثي. لا بد من تدريب الطفلة جديا، حتى يمكن الحصول منها على كل ما تستطيع أن تقدمه»

ولم يجد معلم الباليه هازيلوف أي فرصة سانحة لخطف جيني إلى برلين، إلا بعد أن استجوبت المباحث الجنائية الأستاذ برونيس وقبض الغستابو عليه وأرسله إلى معسكر تعذيب شتوتهوف بسبب حكاية محرجة، حيث كان يتناول أقراص الفيتامين المخصصة لتلاميذه.

كانت مغادرة ضاحية لانغفور أمرا صعبا بالنسبة لها. ارتدت سواد الحداد ووقعت في غرام طالب ثانوي اسمه هاري ليبناو. ثم كتبت خطابات كثيرة. حكى خطها النظيف عن سيدة غامضة اسمها مدام نيرودا، تدير فرقة الباليه وعن عازف البيانو فيلزنر-امبس الذي انتقل معها إلى برلين وعن فينشل الصغير زميلها في حركة Pas de deux وعن معلم الباليه هازيلوف ذي الحشرجة المزمنة في صوته والذي يدير التدريب والبروفات بطريقة غريبة. تحدثت جيني عن تحسنات

وانتكاسات قليلة. عموما كانت أمورها تمضي إلى الأفضل. إنها تتعثر في موضع واحد ولا تحرز فيه أي تقدم. فبقدر ما امتُدحت به حركات Enterchats التي تقوم بها جيني، كان فردها لمشط القدم بائسا ومسطحا وسبب ذلك كثيرا من الألم لمعلم الباليه وللراقصة، حيث إنه يتوجب على الباليرينا الحقة أن تمتلك فردا عاليا جميلا لمشط القدم وذلك منذ عصر لويس الرابع عشر.

كانوا يقومون بدراسة عروض باليه مختلفة، من بينها رقصات ألمانية قديمة والمقطوعات المتميزة من برنامج الأستاذ القديم بيتيبا ويعرضونها أمام الجنود الذين احتلوا نصف أوروبا. جعلت الرحلات الطويلة جيني تذهب إلى أماكن كثيرة. ومن كل مكان كتبت جيني إلى صديقها هاري، الذي كان يرد على خطاباتها بين الآونة والأخرى. ما بين البروفات والعروض لم تجلس جيني في بلاهة وتقلب في المجلات المصورة، بل كانت تحيك بدأب ملابس أطفال لصديقة تنتظر مولودا.

وعندما عادت فرقة الباليه من فرنسا في صيف أربعة وأربعين - حيث فاجأهم الغزو وفقدوا الكثير من ديكوراتهم وجزءاً من الملابس - أراد معلم الباليه هازيلوف أن يدرس باليه مكون من ثلاثة فصول، كان يعمل على تصميمه منذ صغره. والآن بعد الإفلاس في فرنسا، تعجل تحقيق حلم طفولته، حيث إنه كان من المفترض تقديم العرض الأول للباليه في أغسطس بعنوان «فزاعات الطيور» أو «ثورة فزاعات الطيور» أو «ابنة البستاني وفزاعات الطيور».

وحيث إنه يفتقر إلى مؤلفين موسيقيين ملائمين، فقد كلف فيلزنر-امبس أن يقوم بعمل توليفة من أعمال سكارلاتي وهاندل. وبالطبع وجدت الملابس التي تلفت وتمزقت في فرنسا استعمالا لها في العرض. وفي الوقت نفسه ضُم باقي فرقة من الأقزام، كانت ضمن فريق الحملات الدعائية لهازيلوف وتكبدت خسائر عند بداية الغزو، إلى العرض بوصفهم كومبارس أكروباتي. ومن المفترض أن يكون باليه ذا حبكة بأقنعة وأجهزة تقلد أصوات تغريد الطيور وشخوص آلية على خشبة مسرح كبيرة وسحرية.

كتبت جيني إلى هاري: «يعرض الفصل الأول حديقة البستاني العجوز الشرير التي تنهبها الطيور الراقصة. ولأن ابنة البستاني- أنا - تتحالف نوعا ما مع الطيور، تضايق البستاني الشرير. يرقص محاطا بالطيور رقصة منفردة غاضبة

وغريبة ويثبت لافتة على سور الحديقة كُتب عليها: «مطلوب فزاعات طيور!».
وعلى الفور يأتي شاب عابرا السور بحركة Grand jeté في ملابس مهلهلة ويعرض خدماته كفزاعة طيور. وبعد بعض الرقصات هنا وهناك- Pas battus, Entrechats, Brisés dessus dessous - يعلن البستاني الشرير عن موافقته ويخرج من الناحية اليسرى للكواليس ويقوم الشاب الآن بإفزاع كل الطيور بحركات Pas chassé وGlissades في كل اتجاه وبخاصة شحرور وقح يفزعه بحركة دوران في الهواء Tours en l'air. وبالطبع تقع ابنة البستاني الشابة الجميلة - أي أنا - في حب فزاعة الطيور الشابة ذات الوثبات القوية: Pas de deux بين سيقان نبات الرواند بحديقة البستاني العجوز الشرير- أداجيو حلو، وتحريك مدروس للذراعين: Attitude en promenade. خجل مصطنع، هروب، إذعان، اختطاف ابنة البستاني عبر السور، مرة أخرى Grand jeté. يخرج كلانا من الناحية اليمنى للكواليس. بالمناسبة فينشل الصغير يلعب دور الشاب.

في الفصل الثاني ستنكشف، كما سترى حالا، حقيقة الشاب. إنه حاكم رئيس كل فزاعات الطيور ويحكم مملكة سفلية، تدور حولها فزاعات الطيور بأنواعها المختلفة بلا كلل. هنا يقومون بعمل مواكب للقفز وهناك يجتمعون في قداس لفزاعات الطيور ويقدمون طاقية قديمة كقربان. ويشكل أقزامنا وفي مقدمتهم بيبرا العجوز معا فزاعة قزمية متشابكة بعضها ببعض تتراوح ما بين الطول والقصر. الآن تتغير أشكالهم حسب تطور القصة: جرمان بشعر كثيف، عساكر بسراويل فضفاضة، رسل للقيصر، ورهبان متسولون بملابس أكلتها العثة، فرسان آليون بدون رأس وراهبات منتفخات تملكهن الصرع. يخرج الجنرال تسيتن من بين الشجيرات وفرقة لوتسوف الجسورة. تتجول مشاجب ملابس كثيرة فقيرة. تقذف خزانات الملابس بأسر الحكام مع أقزام البلاط الملكي. يتحول الجميع إلى طواحين هواء: الرهبان والفرسان والراهبات والرسل والعسكر وجنود المشاة البروسيون. وفرسان الأولان البولنديون من ناتسمار والميروفنغر والكارولينغر وبينهم تتقافز أقزامنا مثل الشياطين. وسيتم تحريك الهواء بمراوح رائعة، ومع ذلك لن يكون هناك حب يطحن. مع ذلك سيمتلئ صندوق الطحين بهلاليل وقصاصات وسلاطة أعلام. تتكوم أهرام من القبعات وعجين من

السراويل وتصنع كعكة، تأكل منها كل الفزاعات. قرقعة ودبدبة وعويل. صفير على مفاتيح. تختنق النهنهات. يتكرع عشرة رؤساء أديرة. الراهبات تضرط. تتبرم العنزات والأقزام. قرقعات، خشخشة، رشف، صهيل. الحرير يغني. والقطيفة تدندن على ساق واحدة، اثنان في تنورة، زوجان في سروال، يبحرون في القبعة. ويسقطون من الحقائب. ويتكاثرون في أجولة البطاطس. أغاني أوبرالية ملفوفة في الستائر. ينكسر ضوء أصفر عبر الخيوط. الأدمغة المستقلة. والزر المضيء القافز. عماد الطفل المتحرك. وهناك آلهة: بوتريمبوس وبيكولوس وبيركونوس وبينهم الكلب الأسود. لكن في وسط الفوضى المنظمة المعقدة، حيث إن هناك كثيرا من الاهتزازات غير الكلاسيكية تتناوب الحركة مع تنوع غني لحركات Pas de bourrée، يقوم رئيس الفزاعات، فينشل الصغير، بإنزال ابنة البستاني المخطوفة على الأرض وأكون أنا، أي ابنة البستاني خائفة وأمشي على أطراف حذائي المرتعدة. رغم كل الحب الذي أكنه للشاب الحاكم - أقصد على خشبة المسرح طبعا - أخاف كثيرا وأرقص رقصة ملكية منفردة، بعد أن تغطيني الفزاعات الكريهة بثياب العروس التي تتطاير حولها سحب من العث ويتوجوني بتاج من قشور البندق، مصحوبة بموسيقى ملكية احتفالية ذات صليل ويجر الأقزام ذيل الفستان، أستطيع برقصي أنا، ابنة البستاني المتوجة، أن أنوِّم كل الفزاعات، سواء من وقف منهم فرادى أو في جماعات، واحدة تلو الأخرى وآخرهم هو فينشل الصغير، حاكمهم، لكن هذا الكلب الأسود المنفوش الذي يعد التابع الأقرب للحاكم ينقض هائجا على الأقزام المنتشرين، لكنه لا يستطيع الوقوف على أقدامه الاثنتي عشرة الجحيمية. ثم أنحني بوصفي ابنة البستاني بحركة أرابيسك كامل فوق الحاكم النائم، وأنفث له قبلة الباليرينا المتألمة - برغم أنني لا أمس فينشل مطلقا - وأهرب. يعوي الكلب الأسود بعد فوات الأوان. يصرصع الأقزام بعد فوات الأوان. تتحرك آلة الفزاعات بعد فوات الأوان. ويصحو الحاكم بعد ذلك بكثير. وتكون نهاية الفصل الثاني غاضبة: قفزات وأكروبات، موسيقى حربية بها من القوة ما يكفي لمحاربة جيوش الترك. تنطلق الفزاعات التي تزايد هرجها ويتوعدون بالشر في الفصل الثالث.

ويعرض الفصل الثالث لحديقة البستاني العجوز الشرير. يدور البستاني في الحديقة بلا جدوى حزينا ومستسلما للطيور. ثم تعود ابنة البستاني العجوز الشرير

خجلة - لا بد أن أظهر شيئا من الندم وشيئا من العناد - مرتدية ثياب العروس وتركع عند قدمَي أبيها البستاني. تلتصق بركبتيه وتريده أن يرفعها: Pas de deux: الأب والبنت. صراع راقص برفعات ودورانات. في النهاية تظهر الطبيعة الشرير للرجل العجوز: يطردني، أنا ابنته. لا أريد أن أعيش ولا أستطيع الموت. تهدر أصوات من الخلف: فزاعات الطيور والطيور معا في تحالف نادر. وحش مرفرف مصرصر براق مقرقع ذو فحيح يتدحرج على خشبة المسرح ويحمل فوقه قفص طيور فارغا وكبير الحجم وتسنده الفزاعات من مقابضه. ويسوي الحديقة بالأرض ويمسك ابنة البستاني بمعونة الأقزام خفيفي الحركة. ويزعق الحاكم عندما يراني داخل القفص: «تحركوا!» يدور الكلب الأسود المنفوش في دوائر سريعة. شاعرا بالنصر في كل مفاصله يقرقع ويصرصر الوحش بألف صوت وينطلق بي. وتبقى الحديقة المدمرة ويبقى البستاني العجوز الشرير في صورة شخص أعرج في أسمال بالية. وتعود الطيور العابثة مرة أخرى - Pas de Chat, Pas de basque - ويتحلقون بالرجل العجوز. الآن يرفع ذراعه الملفوفة بالخرق الممزقة متعبا وكأنه يدافع عن نفسه وبمجرد أن يقوم بالحركة الأولى يفزع ويخيف الطيور. لقد تحول هو ذاته إلى فزاعة ويصبح في الحال بستانياً وفزاعة طيور. ويسقط ستار نهاية العرض على رقصة الفزاعة المنفردة المرعبة، يفكر السيد هازيلوف في أداء هذا الدور.»

هذا الباليه الذي وصفته جيني لصديقها هاري بكل إحساسها والذي تمت دراسته بعناية وتميزت تجهيزاته بالغنى، حيث قام هازيلوف بنفسه بصناعة آلات ميكانيكية وأجهزة أوتوماتيكية بأزرار قافزة، لم يعرض أبدا. فقد رأى سيدان من وزارة الدعاية الألمانية حضرا البروفة الرئيسية أن الفصل الأول جميل ومنبئ ثم تنحنحا أثناء الفصل الثاني ووقفا بعد نهاية الفصل الثالث مباشرة. وعامة رأيا أن تطور الحبكة كئيب وبه بعض التلميح. يفتقر العرض إلى حب الحياة، حيث إن السيدان قالا: «يريد الجنود على الجبهة مشاهدة شيء مضحك، إنهم لا يرغبون في مشاهدة عالم سفلي كئيب ومتمرد.»

تفاوضوا كثيرا وحاولت مدام نيرودا استغلال اتصالاتها ومعارفها. لكن تبين أن القيادة العليا ترغب في الحصول على صياغة جديدة للباليه، حينئذ دمر هجوم بالقنابل ملابس وديكورات الباليه قبل أن يتمكن هازيلوف من ترقيع نهاية الباليه

لتكون مضحكة وملائمة للوضع على الجبهة. وتكبد فريق الباليه أيضا بعض الخسائر.

فبرغم أنه كان من المحتم إيقاف البروفة عند سماع إنذار الغارة الجوية إلا أنهم قد استمروا في التدريب: رقصت ابنة البستاني وأنامت الفزاعات وكلب الجحيم وكل الأقزام والحاكم - كانت جيني تؤدي ذلك بتميز لكن فرد مشط قدمها كان ما يزال منخفضا لكنه بدا على أنه عيب خلقي جمالي - كان هازيلوف على وشك ترتيب الحبكة الإيجابية - كان من المفترض أن تقوم جيني بتكبيل كل الفزاعات وحاكمهم وتصعد بهم إلى العالم العلوي، لتجعلهم في خدمة البستاني الذي كان في السابق شريرا وأصبح الآن شخصا طيبا - في اللحظة التي وقفت فيها جيني على خشبة المسرح محملة بالقيود الثقيلة بثقة مهزوزة بسبب تغيير الحبكة انفجر اللغم الجوي في صالة العرض المجهزة للبروفات ببرج الإشارة.

تهاوى المخزن بآلاته الميكانيكية الحساسة وأزيائه وكواليسه القابلة للتغيير على ركبتيه ولم يقم ثانية. ضرب عازف البيانو والفنان فيلزنر-امبس الذي صاحب كل البروفات كلها بأصابعه العشر، ضرباته الأخيرة على البيانو. جُرحت أربع راقصات وراقصين والقزمة كيتي، ولكن إصاباتهم كانت والحمد لله طفيفة. لكن معلم الباليه هازيلوف لم يصب بأذى وبدأ في الحال بعد أن هدأت سحب الدخان والغبار في البحث عن جيني مناديا عليها بصوته المتحشرج.

وجدها راقدة وكان عليه أن يسحب قدميها من تحت أحد الأعمدة المتهاوية. في البدء تخوف من المصيبة الكبرى: موت الباليرينا. ولكن ما حدث هو أن العمود قد دهس قدميها. الآن نظرا لأن خفي الباليه قد صارا ضيقين بالنسبة للقدم المتورمة، تولد انطباع بأن جيني أنغوستري قد حققت أخيرا هذا الفرد المرتفع المثالي لمشط القدم - خُمن فوقها أيتها الجنيات الهامسة! يا غيزيلا وكوبيليا! إظهرا في زي العرس أو ابكين من عيون ذات ميناء أبيض. لغريزي وتاليوني ولوتشيلا غران وفاني تيرتو أن ينسجن حركات Pas de Quatre وأن ينثرن الزهور على القدمين البائستين. لا بد أن تشتعل الأنوار في قصر غارنيه Palais Garnier حتى تشارك أحجار الأهرام في العرض الكبير، الرباعي الأول والثاني، قادة الجوقات ذوو الأمال العظيمة، Petits Sujets وGrands Sujets والراقصون الأول حين أصابتهم الحسرة لأنهم لم يتوصلوا إلى النجوم Les

Etoiles! اقفز يا غايتانو فيستريس! كامارغو الشهير ما زال ممسكا بناصية الـ Entrechats huit . يا فاسلاف نيينسكي أيها الرب القافز ببطء وروح الورود، دعك من الفراشات والعناكب السوداء يا نوفيره الثائر اقطع رحلتك وانزل هنا. أغلق آلة التحليق حتى يحل ضوء القمر بخفة الجنيات ويبرد. يا دايغليف الشرير ضع يدك السحرية عليها يا آنا بافلوفا إنسي ملايينك من أجل هذا الوقت الأليم. يا شوبان ابصق دمك مرة أخرى على أصابع البيانو تحت أضواء الشموع. التفتا يا بيلاستريغا أنت وأرشيبوزا. حركي جناحك مرة أخرى أيتها البجعة المحتضرة. والآن ارقدي إلى جانبها يا بتروشكا. الوضع الأخير. Grand-plié.

رغم ذلك فقد بقيت جيني على قيد الحياة، لكن بعناء ولم تعد تقف على أطراف قدميها.

كان لا بد من. . .- آه يصعب علي كتابة ذلك - بتر أصابع قدميها. أعطوها حذاء ضخما لباقي القدم. وتلقى هاري ليبناو الذي أحبته جيني حتى هذه اللحظة خطابا باردا مكتوبا بالآلة الكاتبة، كان الخطاب الأخير. لقد رجته جيني ألا يكتب لها ثانية. لقد انتهت العلاقة بينهما. لا بد أن يحاول نسيان كل شيء، كل شيء تقريبا. «وسأحاول أنا أيضا ألا أفكر فينا.»

وبعد بضعة أيام أثناء تجهيز هاري ليبناو لأغراضه حيث أراد أن يكون بين الجنود، وصل طرد صغير بمحتوى حزين للغاية. كانت بداخله خطابات هاري شبه الحقيقية مربوطة ومعقودة بشريط من حرير، وسترات من التريكو وسراويل أطفال بلونين أزرق ووردي. ووجد في الطرد أيضا عقدا من الحلقات المطاطية، أهداه هاري لجيني عندما كانا طفلين يلعبان عند بركة الأكتسين التي كانت تسبح على سطحها الحلقات المطاطية لزجاجات البيرة بدلا من زهور اللوتس.

كان يا ما كان، كان هناك ترام،

يسير خطه من هيرزانغر بلانغفور إلى حارة فايدن بنيدرشتات ويتبع لخط رقم ٥. وككل خطوط الترام التي تتحرك ما بين دانتسيغ ولانغفور، يمر خط ٥ أيضا على المحطة الرئيسية. وكان اسم سائق هذا الترام المميز الذي نتحدث عنه، هو ليمكه ومحصل عربة القيادة كان اسمه ايريش فيتسك ومحصلة العربة المقطورة

اسمها تولا بوكريفكه. لم تعد تعمل بخط رقم ٢ المتجه إلى أوليفا. تعمل على خط رقم ٥ تسع ساعات ذهابا وإيابا. خفيفة الحركة وكأنها خُلقت لهذه المهنة، جريئة بعض الشيء، فحين تزدحم العربة وقت خروج الموظفين، تقفز تولا من السلم الأمامي للعربة عندما يسير الترام بسرعة متوسطة وتقفز راكبة من الباب الخلفي. وعندما تقوم تولا بتحصيل ثمن التذاكر لا بد أن يدفع كل من يركبوا عندها ثمن التذاكر، حتى ولو كان ابن خالتها هاري.

وعندما دقت تولا بوكريفكه جرس ذاك الترام الذي نتحدث عنه عند محطة هيرزانغر معلنة نهاية الخط، ذاك الترام الذي يبدأ خطه الساعة العاشرة وخمس دقائق مساء ويصل لمحطة قطار دانتسيغ في العاشرة وسبع عشرة دقيقة، عندما دقت تولا هذا الجرس، صعد بعد ذلك بدقيقتين في محطة ميدان ماكس هالبه شابا في السابعة عشرة من عمره ودفع حقيبة سفر كرتونية مقواة بالجلد من السلم الخلفي لمقطورة الترام وركب هو أيضا وأشعل سيجارة.

كان الترام خاليا وبقي شبه خال. صعد زوجان كبيران في السن في محطة مستوطنة الرايخ ونزلا في محطة الصالة الرياضية. في محطة طريق هالبه جلست أربع ممرضات من الصليب الأحمر في مقطورة الترام وقطعن تذاكر لتغيير الترام في اتجاه هويبوده. في عربة القيادة كانت هناك حركة أكثر.

وبينما كانت محصلة تذاكر الترام تولا بوكريفكه تسجل بجانب الباب الخلفي لمقطورة الترام بعض الأشياء في دفتر الحركة، دخن الشاب ذو السبعة عشر عاما بلا ذوق بجانب حقيبته الكرتونية المهزوزة. فقط لمجرد أن الشخصين، هي بدفتر الحركة وهو بالسيجارة غير المعتادة، يعرفان بعضهما، بل وبينهما صلة قرابة- ابن عمة وابنة خال- وفقط لمجرد أن كليهما على وشك الوداع إلى الأبد، كان هذا الخط رقم ٥، تراما مميزا: فيما عدا ذلك كان خطا عاديا منتظما.

وعندما دقت تولا الجرس عند محطة «العيادة النسائية»، قالت له وقد أغلقت دفترها «هل تريد السفر؟» وأجاب هاري ليناو الذي حمل أمر استدعائه في جيب الجاكت، بما يلائم مشهد الوداع غير المعتاد: «إلى أبعد مكان ممكن.»

كان دفتر تولا محشورا بين غطائين خشبيين متهالكين كإكسسوار حقيقي: «لم يعد يعجبك الحال عندنا؟»

لأن هاري قد عرف أن تولا لم تعد تعمل على خط رقم ٢، قرر ركوب خط رقم ٥: «يجب أن أذهب إلى البروسيين. فلن يتمكنوا من النصر بدوني.»

أخذت تولا تغلق وتفتح الغطاء الخشبي: «أظن أنك كنت تريد الذهاب للبحرية؟»

قدم هاري لتولا سيجارة: «لم يعد لديهم عمل كثير هذه الأيام.»

وضعت تولا السيجارة ماركة «يونو» في علبة الدفتر: «انتبه حتى لا يأخذونك في فرق المشاة. وهم لا يرحمون.»

قطع هاري المحادثة الغارقة في أجواء الوداع: «ممكن طبعا، لكن ذلك لا يهمني، أهم شيء هو أغادر هذا المكان.»

تراقص الترام المميز بمقطورته عبر الطريق الواسع. مرت العربات الآتية من الاتجاه المعاكس مسرعة. لم يستطع أي منهما أن ينظر إلى الخارج حيث كانت نوافذ العربة مغطاة باللون الأزرق للواقي من الهجمات الجوية ولم يكن أمامهما إلا مواجهة بعضهما بعضا. لكن لن يعرف أحد أبدا كيف نظرت تولا إلى ابن عمتها هاري، عندما تأملها هو وكأنه يتخذ من تأمله لها زادا لرحلته: تولا تولا تولا! كانت البثور على جبهتها قد جفت. في مقابل ذلك قامت بعمل تسريحة التمويج الدائم، هذه المرة على حسابها. فحينما لا يكون المرء جميلا فعليه أن يقوم بعمل شيء يحسن به صورته. ولكن رائحة الغراء ما زالت تصحبها وللمرة الأخيرة في رحلاتها ذهابا وإيابا ما بين هيرزانغر وحارة فايدن. تحدثت الممرضات الأربع في الوقت نفسه بصوت شبه مرتفع. كان فم هاري ممتلئا بكلمات معدة بذوق ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة البداية. بعد محطة «الفصول الأربعة» نطق معذبا نفسه: «كيف حال أبيك؟» أجابت تولا بهز كتفيها وبالسؤال المقابل المعتاد: «وأبيك؟»

لم يتبق لهاري أيضا سوى هز كتفيه، بالرغم من أن حال أبيه لم تكن على ما يرام: لم يصطحب الأسطى النجار ابنه إلى المحطة نظرا لتورم قدميه. وأم هاري لم تخرج أبدا دون أبيه.

على الأقل كان هناك شخص من العائلة موجودا حينما ودع هاري المدينة: بدا زي محصلة الترام لائقا بابنة الخال. وفوق تسريحة التمويج الدائم كانت هناك قبعة المكملة للزي على شكل مركب صغير. وقبل الوصول إلى محطة بوابة أوليفا،

نزعت تولا بلوكين من بلوكات التذاكر الفارغة في الصندوق وقالت له: «هل تريد بلوكا؟»

هدية الوداع! أخذ هاري غطاءين ورقيين عليهما مشاجب معدنية تمسك بالأطراف الباقية من التذاكر المقطوعة. صارت أصابعه طفولية وفرت البلوكين الورقيين. ضحكت تولا مقرقرة وكادت تكون طيبة. ثم لاحظت أنها قد نسيت شيئا في غمار لحظات الوداع: ابن عمتها لم يدفع ثمن تذكرته. كان هاري يلعب بأوراق التذاكر الفارغة ولم يقطع تذكرة حقيقية. أشارت تولا إلى أصابع هاري المستمتعة وقالت: «تستطيع أن تحتفظ بها ولكن لا بد لك أن تدفع. مرة تذكرة عادية ومرة للحقيبة.»

وبعد أن أعاد هاري حافظة نقوده إلى جيبه الخلفي مرة أخرى، وجد في طلاء واقي الدفاع الجوي على الزجاج فتحة يمكن الرؤية من خلالها، لقد كحتها شخص ما بإصبعه، حتى لا تظل نظرات هاري مسلطة على ابنة خاله ويستطيع بعين واحدة رؤية بانوراما للمدينة التي تقترب. القمر ساطع خصيصا من أجله. يعد الأبراج. لم ينقص أي منها. نمت كلها مواجهة إياه. يا لها من مقاطع مصورة! أجهد الطوب القوطي عينيه حتى تخطاه: دموع؟ دمعة واحدة. حيث إن تولا نادت محطته «المحطة الرئيسية» وترك هاري بلوكين من أوراق التذاكر الفارغة ينزلقان في جيبه.

وعندما أمسك بحقيبته الكرتونية من مقبضها، مدت له تولا يدها الصغيرة التي يغطي إبهامها غطاء مطاطي أحمر يحمي إبهامها ويساعدها على التأكد من سلامة حساباتها. ويدها الأخرى كانت تنتظر عند حبل الجرس: «انتبه لحالك كي لا يطيروا لك أنفك. سامع!»

أومأ ابن عمة تولا مرارا وتكرارا بالسمع والطاعة حتى بعد أن رنت تولا الجرس إيذانا بالحركة وتباعدا عن بعضهما وصارا أصغر وأصغر، هو في ميدان المحطة وهي في ترام رقم ٥ المنطلق.

لا عجب أن هاري ليبناو قد أخذ يعبث بالبلوكيين الورقيين الفارغين عند جلوسه فوق حقيبته في قطار النوم المتجه من دانتسيغ إلى برلين وفي أذنه أغنية كوشنيفية، كان إيقاعها مع اصطكاك العجلات بقضبان السكة كالتالي: «دولر دولر، تولا. دول دول، تولا تولا. تولا تولا. دول.»

كان يا ما كان، كان هناك أغنية،

كانت عن الحب وكانت قصيرة يسهل حفظها وإيقاعها كان مؤثرا جدا، بحيث إن فرد مشاة المدرعات هاري ليبناو الذي رحل ليتعلم الخوف ومعه بلوكين من ورق التذاكر المفرفر، قد احتفظ بالأغنية بين أسنانه وهو راكع واقف راقد، فوق صحن حساء البازلاء وعند تنظيف السلاح، زاحفا وقافزا ونائما، تحت القناع الواقي من الغازات وعند سحب فتيل قنبلة يدوية حقيقية، وعند مجيء دوره في الحراسة، باكيا غارقا في عرقه بائسا، واقفا على ثؤلول القدم، تحت الخوذة الحديدية، جالسا بمؤخرته على المرحاض، عند قسم العلم في فالينغبوستل، عند الركوع بيدين طليقتين، باحثا عن مؤشر الهدف في منظار البندقية، إذن غائطا حالفا اليمين وقاذفا، والشيء نفسه عند تلميعه للحذاء وعند إمساكه بفنجان القهوة. كانت الأغنية لزجة جدا وتصلح لكل شيء. فحين دق هاري مسمارا في خزانته ليعلق صورة - صورة الفوهرر مع الكلب الأسود - ردد كل من الحائط الذي دق عليه ورأس المسمار ما يلي: دول دول، تولا! وعند التدريب على تركيب سنكي البندقية لأول مرة كانت الخطوات الثلاث هي: تولا تولا، دول! حينما كان عليه أن يقوم بالحراسة خلف مستودع اللحوم رقم ٢ ولطمه النعاس على حنجرته وأيقظه على الإيقاع: دولر دولر، تولا! وفي كل أغنية من أغاني الجبهة سواء كانت تحكي عن اريكا أو روزماري أو عن ثمار البندق البنية، كان هاري يدخل فيها نص تولا المناسب دائما. وعندما كان يطارد القمل ويبحث عنه ليلة بليلة بين خيوط لباسه الداخلي وسترته الداخلية بأظافر قاصفة للقمل - في هذه الأثناء تخلصت الفرقة بمونستر من القمل - لا يطرقع اثنتين وثلاثين قملة، بل يتغلب على اثنتين وثلاثين تولا. حتى حينما سنحت له الفرصة للخروج حتى موعد الاستيقاظ، وأن يضع عضوه للمرة الأولى بسرعة في فتاة حقيقية، لم يختر مساعدة بالدفاع الجوي ولا ممرضة، بل ضاجع في حدائق لونهبرغ الخريفية محصلة تذاكر بترام لونهبرغ واسمها أورترود، لكنه كان يناديها وسط المضاجعة تولا تولا تولا! ولم يعجبها ذلك جدا.

وانصب كل ذلك - أغنية تولا وقسم العلم والقمل ولونهبرغ - في خطابات غرامية إلى تولا، ثلاثة خطابات كل أسبوع. حدثت القصة في يناير وفبراير ومارس. لكنه يبحث عن كلمات لا زمن لها من أجل تولا. بين بحيرة بلاتن

ونهر الدانوب، قاومت الفرقة الرابعة للفرسان الهجمات المضادة، لكنه يصف لابنة خاله جماليات المناظر الطبيعية لمروج لونهبرغ. لم تتمكن قوات الإمداد المنتظرة من الوصول إلى بودابست وبقيت وراء بريسبورغ، في هذه الأثناء كان هاري يقارن مروج لونهبرغ بمروج توخل. تم الاستحواذ على بعض الأراضي القليلة في منطقة باستوني: حينئذ أرسل لتولا زكيبة صغيرة مليئة بثمار توت العرعر مغلفة بتحايا بنفسجية. لا تستطيع فرقة المشاة ٣٢٦ أن ترد هجمات الدبابات في بولونيا إلا من خلال تراجع خط القتال الأساسي، لكنه يكتب قصيدة - لمن يا ترى؟ في الوقت الذي ما زالت تنبت فيه أعشاب المروج، في بداية يناير، بنفسجية بنفسجية! أثناء النهار تقصف القاذفات الأمريكية أهدافا في بادربورن وبيليفلد وكوبلينتس ومانهايم، لكنه، غير آبه بما حوله، يقرأ لونس الذي أثر في أسلوب خطاباته وصبغ قصيدة تولا التي بدأها باللون البنفسجي. هجوم كبير في بارانوف، يرسم هاري بقلمه المدرسي ودون أن ينظر، الكلمة التي لم تكن زرقاء ولا حمراء. تم إخلاء رأس جسر تارنوف - اختراقات حتى انستر، لكن فرد مشاة المدرعات المدرب هاري ليبناو يبحث عن قافية لاسم تولا. هجمات عبر كوتنو ضد ليسلاو - اختراق في هوهنسالتسه، لكن فرد مشاة المدرعات في فرقة المشاة بشمال مونستر لا يجد حتى الآن قافية مناسبة لابنة خاله. مقدمة دبابات العدو في غومبينن عابرة برومينته، يتحرك فرد مشاة المدرعات هاري ليبناو إلى كاتوفيتس ومعه أمر الزحف ومخصصاته دون الكلمة اللازمة للحياة، حيث يتوجب عليه الاتصال بفرقة المدرعات الثامنة عشرة التي نُقلت حاليا من شمال جبهة الدانوب إلى أوبرشليزين. سقطت غلايفيتس وأوبلن في أيدي العدو- لم يصلوا إلى كاتوفيتس، حيث أتى أمر جديد يحتم على فرد مشاة المدرعات هاري ليبناو أن يتوجه بمخصصاته إلى فيينا، وهناك توجد إمكانية بالفرقة الحادية عشرة لسلاح الطيران المنسحبة من الجنوب الشرقي، وكذلك أيضا إمكانية وجود غطاء يناسب قدر تولا الصغير. يبعد خط القتال الأساسي عشرين كيلومترا شرق كونيغسبرغ. في فيينا يصعد فرد مشاة المدرعات هاري ليبناو كاتدرائية القديس شتيفان ويلقي نظرة من عل تحت سماء شبه غائمة. إلام ينظر؟ تصل مقدمة دبابات العدو نهر الأودر ويبني العدو جسرا في شتايناو. يرسل هاري الآن بطاقات بريدية غير مقفاة ولا يجد مكتب التسجيل المختص بفرقة سلاح الطيران

التي وعدوه بالانتقال إليها. انتهت معركة اردين. ما زالت بودابست صامتة. وفي إيطاليا هناك أنشطة قتالية محدودة. يتولى الجنرال شورنر القطاع الأوسط. تم تفجير المانع الموجود عند لوتسن. نجاحات دفاعية عند غولغاو. رؤوس هجومية هولندا البروسية. جغرافيا! بيليتس- بليس- راتيبور. من يعرف أين تقع تسيلينتسيغ؟ حيث نقل أمر جديد فرد مشاة المدرعات هاري ليبناو إلى هناك في الشمال الغربي لكوسترين. سيأخذونه من بيرنا ويُلحقونه بسرية احتياطية لا اسم لها، وعلى السرية أن تنتظر في إحدى المدارس الشعبية حتى تنتقل فرقة المدرعات الحادية والعشرون من كوسترين إلى منطقة شمال بريسلاو. المقاتلون الاحتياطيون. يجد هاري معجما بقبو المدرسة، لكنه يرفض أن يجد قافية لتولا مع أسماء لا تعطي أي معنى مثل زولا وعبدوله. لا تأتي فرقة المدرعات الموعودة. لكن بودابست تسقط وتصبح غولغاو معزولة. تتحرك فرقة القتال الاحتياطية ومعها هاري ليبناو بصورة اعتباطية. وكل يوم في الموعد نفسه بالضبط توجد ملعقة صغيرة من المربى بأربع فواكه وثلث من خبز الجيش وواحد على ستة عشر من كيلو اللحم المعلب وثلاث سجائر. أوامر شورنر: إعداد قوات قتالية جديدة. يدخل الربيع. تتفجر براعم الزهر بين تروباو وليوبشوتس. تبنثق أربع قصائد ربيعية عن شفارتسفاسر. في زاجان يتعرف فرد مشاة المدرعات هاري ليبناو على فتاة اسمها أولا قبل تخطي الحدود شمال مدينة بوبر بقليل وترقع له زوجين من الجوارب. وفي لاوبان تبتلعه فرقة المدرعات الخامسة والعشرون المنسحبة من الغرب والمنتقلة إلى شليزين.

الآن يعرف مكانه. لم تعد هناك أوامر بالزحف لأي من الفرق القتالية التي لا يمكن العثور عليها. مثرثرا مع نفسه وباحثا عن القافية، يقبع مع خمسة أفراد آخرين هم طاقم مشاة المدرعات حول مدفع دبابة بين لاوبان وزاجان والمدفع يتزحزح دائما هنا وهناك وراء الخطوط القتالية، لكن ذلك لا يعوق هاري عن الكتابة إلى ابنة خاله التي تجلس في دانتسيغ- لانغفور معزولة مع بعض أجزاء من الجيش أو تقوم بعملها كمحصلة تذاكر بالترام، لأن الترام استمر في سيره حتى نهاية الحرب.

كان يا ما كان، كان هناك مدفع دبابة،

الدبابة رقم ٤، موديل قديم كان من المفترض أن تتخذ موضعها خلف

خطوط القتال في منطقة شليزين الجبلية. ولحمايتها من عيون الطيارين تزحزحت للخلف بأطنانها الأربعين زاحفة على سيورها داخلة في مخزن خشبي لا يحميه سوى ستار. ولأن هذا المخزن تابع لصانع زجاج فقد تواجد به على الرفوف وفوق القش خمسمائة منتج زجاجي أو يزيد.

أسفر تلاقي الدبابة الراجعة للخلف على سلاسلها المعدنية والزجاج الشليزي عن نتيجتين. أولا تسببت الدبابة في خسائر زجاجية كبيرة وثانيا تسببت الأصوات المختلفة الناتجة عن تهشم الزجاج في توصل فرد مشاة المدرعات هاري ليبناو الملحق بالدبابة بوصفه مرافقاً من المشاة والذي وقف بجانب وفوق مخزن الزجاج الصارخ، إلى لغة جديدة. من الآن ليست هناك كآبة بنفسجية. ولم يعد يبحث عن قافية على وزن تولا ولم يعد يكتب قصائد بالحيوانات المنوية لطالب الثانوي ودم القلب. منذ تلك الساعة التي استقر فيه صراخ زجاج المخزن في أذنه مثل الرصاصة، لم يعد يكتب سوى جمل بسيطة في دفتر يومياته: تتحرك الدبابة للخلف في مخزن الزجاج. الحرب أكثر مللا من المدرسة. الجميع ينتظرون أسلحة ذات مفعول سحري. بعد الحرب سأذهب كثيرا إلى السينما. بالأمس رأيت أول قتيل لي. ملأت القناع الواقي من الغاز بمربى الفراولة. من المفترض نقل فرقتنا. حتى الآن لم أر أي روسي. أحيانا لا أعود أفكر في تولا. لم يعد لدى فرقتنا مطبخ. ما زلت أقرأ الشيء نفسه. يسد اللاجئون الشوارع ولا يؤمنون بشيء. أخطأ كل من هايدغر ولونس في كثير من الأشياء. في بونتسلاو تعلق خمسة جنود وضابطان على سبع أشجار. اليوم في الصباح أطلقنا نيراننا على جزء من الغابة. لم استطع أن أكتب شيئا ليومين كاملين لأننا كنا في مواجهة مع العدو. مات أناس كثيرون. بعد الحرب سأؤلف كتابا. علينا أن ننتقل إلى برلين، حيث يقاتل الفوهرر. والآن أنتمي أنا إلى مجموعة القتال المسماة فينك. علينا أن ننقذ عاصمة الرايخ. غدا هو عيد ميلاد الفوهرر.

كان يا ما كان، كان هناك فوهرر ومستشار للرايخ،

احتفل في العشرين من أبريل من عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين بعيد ميلاده السادس والخمسين. ونظرا لأن مركز عاصمة الرايخ، أي حي الحكومة والمستشارية كان يرزح تحت قصف المدافع، فقد كان الاحتفال البسيط في مخبأ

الفوهرر. أسماء شهيرة، حتى هؤلاء الذين يجتمعون دائما لمناقشة الأوضاع - الأوضاع المسائية والأوضاع ظهرا - أتوا ليقدموا تهانيهم. الفيلدمارشال كايتل والعميد فون يون وقائد الفرقاطات لوده نويرات والأميرالان فوس وفاغنر والجنرالين كريبس وبورغدورف والعقيد فون بيلوف ومدير الرايخ بورمان والمبعوث هيفيل من وزارة الخارجية والآنسة براون وموظف الاختزال بمركز قيادة الفوهرر د. هيرغيزل وقائد الفرقة الرئيسية لفرق الحماية غونشه وقائد مجموعات فرق الحماية فيغلاين والسيد والسيدة غوبلز بأطفالهما الستة.

وعندما انتهى المهنئون من التعبير عن تهانيهم القلبية نظر الفوهرر ومستشار الرايخ باحثا وكأن هناك مهنئ أخيراً وهاماً ناقص: «أين الكلب؟»

وفي الحال بدأ ضيوف حفل عيد الميلاد بالبحث عن كلب الفوهرر المفضل منادين «برينتس! تعال يا برينتس!»، ومشط معاون الفوهرر الرئيسي وقائد الفرقة الرئيسية لفرق الحماية غونشه حديقة مستشارية الرايخ، بالرغم من أن هذه المنطقة لم تتعرض لقليل من القصف. وفي الخندق تواردت ظنون كثيرة لا معنى لها. والجميع قدموا اقتراحاتهم. والوحيد الذي أمسك بزمام الموقف، كان قائد مجموعات فرق الحماية فيغلاين. لقد اتصل تليفونيا بكل الأركان وفرق الحراسة المرتبطة بخندق القائد والمحيطة بالمستشارية وعاونه في الحال العميد فون بيلوف: «إلى الجميع! إلى الجميع! كلب الفوهرر مفقود. انتبهوا لاسم برينتس. كلب ذكر، كلب رعاة ألماني أسود. أوصلوني بتسوسن. تعليمات إلى الجميع: كلب الفوهرر مفقود!»

وأثناء مناقشة الوضع التالي - جاء تأكيد للخبر: مقدمة دبابات العدو اقتحمت جنوب كوتبوس ودخلت كالاو - تم تنسيق كل الخطط المتعلقة بالدفاع عن عاصمة الرايخ من خلال العملية المسماة «خندق الذئب». وبهذا أجل جيش الدبابات الرابع الكائن جنوب شبرمبيرغ الهجوم المضاد إلى أجل غير مسمى، وأمنت طريق شبرمبيرغ-زينفتنبيرغ ضد عبور كلب الفوهرر إلى جبهة العدو. وكذلك غيرت مجموعة شتاينر اتجاه زحفها من ايبرسفالده للمساعدة في الإمدادات بالجنوب إلى الكردون المخصص للقبض على الكلب. وفي إطار العملية المخططة ستخرج كل الطائرات المتاحة بالأسطول الجوي السادس للاستطلاع بغرض الإبلاغ عن طريق هروب كلب الفوهرر «برينتس»، إضافة إلى

ذلك سيتم نقل جبهة القتال الرئيسية خلف هافل وذلك حسب ما ورد في عملية «خندق الذئب». سيتم تكوين فرق للبحث عن كلب الفوهرر من القوات الهجومية الاحتياطية، بعضهم بموتوسيكلات وبعضهم بدراجات ويتصلون ببعضهم بواسطة أجهزة لاسلكي. يحفر فيلق هولسته، بينما يتقدم الجيش الثاني عشر بقيادة الجنرال فينك لعمل الإمدادات اللازمة بالجنوب الغربي ويقطع طريق هروب كلب الفوهرر، حيث إنه من المرجح أن كلب الفوهرر يريد العبور إلى العدو الغربي. ومن إجل إنجاح عملية «خندق الذئب» لا بد أن يتخلص الجيش السابع من الجيشين التاسع والأول الأمريكيين وأن يسد الجبهة الغربية في المنطقة ما بين نهري الإلبه والمولده. وعلى خط يوتبورغ-تورغاو تم استبدال الخنادق المضادة للدبابات بفخاخ محفورة للإيقاع بكلب الفوهرر. أصبح الجيش الثاني عشر وفرقة الجيش بلومنتريت وفيلق الدبابات الثامن والثلاثون تحت إمرة القيادة العليا للجيش مباشرة. وقد انتقلت القيادة العليا للجيش من تسوسن إلى فانزيه وشكلت بقيادة الجنرال بورغدورف «قيادة أركان عملية خندق الذئب».

ولكن بالرغم من عمليات إعادة التشكيل المستمرة لم تصل بخلاف الأنباء المعتادة عن الوضع (وصلت فيالق الهجوم الروسية إلى خط ترويبنبيريتسن-كونيغسفوسترهاوزن) أية أنباء بخصوص هروب كلب الفوهرر.

في الساعة السابعة وأربعين دقيقة مساء، أثناء مناقشة الوضع مساء، اتصل الفيلدمارشال كايتل هاتفيا بمدير أركان مجموعة شتاينر: «تبعا لأوامر الفوهرر يُنتظر أن تغلق فرقة الدبابات الخامسة والعشرون ثغرة الجبهة عند كوتبوس وتؤمنها ضد هروب الكلب.»

وردا على ذلك تجيء إجابة مجموعة الأركان شتاينر: «إن فرقة المشاة المدرعة الخامسة والعشرين قد تحركت في السابع عشر من أبريل تبعا للتعليمات من منطقة باوتسن والتحقت بالجيش الثاني عشر. ستقوم القوات المتبقية بمنع الكلب من الهرب.»

أخيرا جاء نبأ في الساعات الأولى من صباح الحادي عشر من أبريل بأنه قد تمت إصابة كلب رعاة أسود بالقرب من جبهة القتال المستميتة فورستنفالده-شتراوسبيرغ-بيرناو، لكن تبينت عدم صحة الخبر بعد وصوله إلى المقر الرئيسي للفوهرر حيث أكدت تحريات د. موريل ذلك.

وبعد ذلك وبناء على تعليمات قيادة الجيش العليا، تم إبلاغ كل الوحدات في نطاق برلين الكبرى بمواصفات كلب الفوهرر.

وقد دعم وجود مقدمة دبابات العدو السوفياتي على خط الجبهة ما بين لوبن وباروت الهدف نفسه الذي تركزت من أجله القوات الألمانية على هذه الجبهة. تتزايد حرائق الغابات بالرغم من الأمطار الثقيلة وتشكل عائقا طبيعيا لهروب الكلب.

في الثاني عشر من أبريل تتخطى دبابات العدو خط القتال ليشتنبرغ-نيدرشونهاوزن-فروناو إلى منطقة الدفاع الخارجية لعاصمة الرايخ. يأتي خبران عن القبض على كلب الفوهرر في منطقة كونيغسفوسترهاوزن ويثبت أنهما غير صحيحين، حيث إن الكلبين اللذين عُثر عليهما لم يكونا ذكورا.

تضيع ديساو وبيترفيلد. تحاول دبابات العدو الأمريكي عبور نهر الإلبه عند فيتنبيرغه.

في الثالث عشر من أبريل يصرح د. غوبلز قائد المنطقة والمسؤول عن قوات الدفاع عن الرايخ بالبيان التالي: «يقيم الفوهرر حاليا في عاصمة الرايخ وقد تولى قيادة كل القوات المشاركة في المعركة النهائية بنفسه. على مجموعة البحث عن كلب الفوهرر والقوات الاحتياطية أن تتلقى تعليماتها من الفوهرر مباشرة.»

أبلغت قيادة أركان عملية «خندق الذئب» ما يلي: «في هجوم مضاد، تمت استعادة محطة قطارات كوبنيك التي استولى عليها الأعداء. منعت الفرقة العاشرة والمجموعة الحادية والعشرون المخصصتان للبحث عن كلب الفوهرر، واللتان أمنتا طريق برينتسلاو، العدو من اختراق هذه الجبهة. كذلك تم اغتنام جهازين روسيين للبحث عن الكلب. ومن هنا يتبين أن العدو على الجبهة الشرقية على علم بعملية «خندق الذئب».»

ونظرا لأن إذاعات العدو وصحافته تذيع وتنشر أنباء مشوهة ومحرضة عن فقدان كلب الفوهرر، فقد أذاعت قيادة أركان عملية «خندق الذئب» تعليمات الفوهرر اعتبارا من الرابع والعشرين من أبريل بشفرة جديدة قام د. هيرغيزل بتسجيلها: «من خلال أي شيء يتحدد تجلي كلب الفوهرر؟»

«يتحدد التجلي الأصلي لكلب الفوهرر من خلال البعد.»

«وماذا يُطلق على كلب الفوهرر المحدد بالبعد؟»

«يُطلق على كلب الفوهرر المحدد بالبعد العدم.»

وبعد ذلك يجيء تصريح منطوق إلى الجميع: «ماذا يُطلق على العدم المحدد بالبعد؟»

وتجيب مجموعة أركان شتاينر من موقع قتال ليبنفيردا: «العدم المحدد بالبعد يُطلق عليه في نطاق مجموعة شتاينر عدما.»

«هل يعد العدم المحدد بالبعد شيئا وهل هو كائن على الإطلاق؟»

عن هذا السؤال تأتي إجابة من قيادة أركان المجموعة فينك: «العدم المحدد بالبعد عبارة عن ثقب. العدم عبارة عن ثقب في الجيش الثاني عشر. العدم عبارة عن ثقب أسود، يمرق عابرا على هيئته هذه. العدم هو ثقب أسود يمرق عبر الجيش الثاني عشر.»

وبناء على ذلك يأتي تصريح القائد المنطوق إلى الجميع: «العدم المحدد بالبعد يمرق. العدم عبارة عن ثقب محدد بالبعد. إنه معروف ويمكن استجوابه. الثقب الأسود المارق والمحدد بالبعد يكشف عن العدم في تجليه الأصلي.»

وبعد ذلك يجيء تصريح منطوق إضافي: «في البدء يجب التقصي عن أنواع المواجهات بين العدم المحدد بالبعد والجيش الثاني عشر بناء على بنية المواجهة. بادئ ذي بدء وقبل كل شيء لا بد من التقصي عن مجالات الاختراق في نطاق كونيغسفوسترهاوزن والسؤال عن ماهيتها.

يجب الاستخدام المتواصل لجهاز اتصال مجموعة الذئب رقم واحد وجهاز اتصال نقطة الذئب الملحقة من أجل ظهور العدم المحدد بالبعد. إن الحضور غير المباشر لغير المتوافر سيظهر مؤقتا بوضوح بسبب توافر كلبات ساخنات، حيث إن العدم المحدد بالبعد على استعداد للتعشير من الأصل وما زال يفعل.»

بناء على تنبيه جاء من جبهة القتال نويبابلسبيرغ-تسليندورف-نويكولن: «العدم يتشكل ما بين دبابات العدو ومقدمة دباباتنا. العدم يجري على أربع.»، جاء تصريح الفوهرر المنطوق مباشرة: «استيعاب العدم. لا بد من تجسيد كل وأي نشاط يقوم به العدم المحدد بالبعد وربطه بالنصر النهائي، بحيث يمكن أن تتوافر هذه النشاطات في حالة الكينونة من خلال ظهورها للعيان منحوتة من الرخام أو الصدف.»

ولا يأتي رد الجنرال فينك من الجيش الثاني عشر إلا في الخامس والعشرين من أبريل من منطقة ناون-كيتسين: «ينشر العدم المحدد بالبعد الرعب على كل قطاعات الجبهة. الخوف موجود. الخوف يمنعنا من الكلام. انتهى.»

بناء على تعليمات الفوهرر، تبع وصول التقارير التنفيذية للمجموعتين القتاليتين هولسته وشتاينر، تصريح منطوق إلى الجميع بتاريخ السادس والعشرين من أبريل ونصه كالتالي: «بما أن الخوف لا يتيح الإمساك بالعدم فيجب التغلب على الخوف من خلال الخطب والأغاني. لا يجب نفي العدم المحدد بالبعد. يجب ألا تصبح عاصمة الرايخ بكل حيزها المكاني فريسة للخوف.»

بما أن كل التقارير التنفيذية للمجموعات القتالية ما تزال مليئة بالمخاوف، ترد إضافة لتعليمات الفوهرر إلى الجميع في السادس والعشرين من أبريل التعليمات التالية: «يجب أن يظهر الجيش الثاني عشر إحساسا مضادا للشعور بالخوف المسيطر على عاصمة الرايخ. على إمدادته في شتيغليتس والطرف الجنوبي لمطار تمبلهوف أن تخطط لنقاط ذاتية متزحزحة. سيتحقق النصر النهائي للشعب الألماني من خلال العدم المحدد بالبعد.»

بناء على تعليمات إضافية من قيادة أركان بورغدورف، قيادة أركان عملية «خندق الذئب» إلى أسطول الطيران السادس: «استطلاع ما إذا كان العدم يجري بين تيغل وزيمنسشتات أمام مقدمة دبابات العدو.»، ويجيء رد الأسطول السادس: «تمت رؤية العدم يجري بين محطتي شليزين وغورليتسر. العدم ليس شيئا ولا حتى كائنا، فهو إذن ليس كلبا.»

بعد ذلك تأتي تعليمات الفوهرر بإقرار قواعد لغوية جديدة، وذلك في تصريح منطوق له إلى أسطول الطيران السادس مباشرة، موقعا من العميد بيلوف: «باحتواء الذات داخل العدم يصبح الكلب بناء على ذلك فوق الكائن ويدعى في الحال متجاوزا!»

في السابع والعشرين تسقط براندنبورغ. ويصل الجيش الثاني عشر إلى بيليتس. بعد تراكم الإخباريات من كل القطاعات عن النفي المتزايد لكلب الفوهرر «برينتس» واسمه الحركي «العدم» أو «التجاوز»، يصدر في الساعة الثانية واثنتي عشرة دقيقة ظهرا أمر الفوهرر إلى الجميع: «أي سلوك عدمي تجاه التجاوز العابر سيكون عرضة للملاحقة القضائية.»

ونظرا لغياب التقارير التنفيذية وتلمس التوجهات الخائفة في حي الحكومة تُتخذ إجراءات مشددة ويأتي التصريح التالي: «السلوك القيادي العدمي تجاه التجاوز المحدد بالبعد يكشف أولا وبشكل حاسم الكينونية السابقة للضباط التاليين.» (يتبع ذلك أسماء ورتب.) والآن بعد أن كرر الفوهرر سؤاله: «أين قيادات فينك؟ أين فينك؟» تجيب قيادة أركان فينك من الجيش الثاني عشر في الثامن والعشرين من أبريل: «نحن في جنوب بحيرة شفيلوف. كانت نتيجة التعاون مع أسطول الطيران السادس غير مثمرة حيث تعذرت رؤية التجاوز لسوء الأحوال الجوية. انتهى.»

تمر الإخباريات النافية ما بين محطة بوابة هاله ومحطة شليزين ومطار تمبلهوف. تم تقسيم المكان إلى مواقع. زعم موقع حراسة ميدان ألكسندر المكلف بالقبض على الكلب بأنه استجوب تجاوزا باثنتي عشرة ساقا أمام مقدمة دبابات العدو. ويعارض ذلك إخبارية أخرى تقول برؤية تجاوز برؤوس ثلاث في نطاق برينتسلاو. وفي الوقت نفسه تصل إخبارية من الجيش الثاني عشر إلى المقر الرئيسي للفوهرر: «يدعي فرد من مشاة المدرعات مصاب إصابة طفيفة أنه رأى بحديقة إحدى الفيلات على بحيرة شفيلوف كلبا غير متجاوز وقد أطعمه وتحدث إليه مخاطبا إياه باسم برينتس.»

يرد الفوهرر على الفور: «ما اسم فرد مشاة المدرعات؟»

يرد الجيش الثاني عشر: «فرد مشاة المدرعات هاري ليبناو، إصابة طفيفة أثناء تناول الطعام.»

يجيب الفوهرر مباشرة: «أين فرد مشاة المدرعات ليبناو الآن؟»

يرد الجيش الثاني عشر: «فرد مشاة المدرعات ليبناو نُقل إلى المستشفى في الغرب.»

يرد القائد: «إنهاء الحصار. يجب نقل فرد مشاة المدرعات بطائرات الأسطول السادس إلى حديقة المستشارية.»

ويجيب الجنرال فينك من الجيش الثاني عشر متحدثا إلى القائد مباشرة: «ستؤدي الإحالة الهروبية على المساحة المتقلصة لبرلين الكبرى حتى نهاية الاستعمال المتجاوز إلى الوصول لبنية النهاية.»

بعد ذلك تأتي عبارة الفوهرر: «إن مسألة الكلب مسألة ميتافيزيقية وتجعل

الشعب الألماني برمته موضعا للمساءلة.» ويعقبها بأمر الفوهرر الشهير: «ستبقى برلين ألمانية. وستعود فيينا ألمانية. ولن يتمكن أحد من بعد أن ينفي وجود الكلب.»

وبعد ذلك يأتي تحذير: «اقتحمت دبابات العدو مالخين.» ثم بعد ذلك إخبارية عبر اللاسلكي، غير مشفرة إلى مستشارية الرايخ: «تشيع إذاعات العدو أن الكلب قد شوهد على الضفة الشرقية لنهر الإلبه.»

وبعد ذلك أكدت منشورات سوفياتية، وُزعت في أحياء كرويتسببيرغ وشونهبرغ التي يدور فيها القتال، حرفيا بأن العدو الشرقي قد استحوذ على كلب الفوهرر الهارب.

وبعد ذلك تطورات الأوضاع في التاسع والعشرين من أبريل. نتيجة للقتال المستميت الدائر في البيوت بطول شارع بوتسدام وميدان بيل أليانس، تنحل فرق البحث عن كلب الفوهرر من نفسها. يزداد تأثير دعايات القوات السوفياتية بالميكروفونات التي تُذيع نباح كلب حقيقي عالي الصوت، بحيث تنحل فرق البحث. تضيع بيليتس ثانية. ليست هناك أية إشارة من الجيش التاسع. وما يزال الجيش الثاني عشر يحاول الضغط على بوتسدام، حيث دارت شائعات بخصوص موت الكلب في تلك المنطقة التاريخية. لم تتأكد الإخباريات المتعلقة بنقاط تفتيش إنجليزية للقبض على الكلب في بروكنكوبف لاونبورغ على نهر الإلبه وكذلك تلك المتعلقة بقبض الأمريكيين على الكلب في جبال فيشتل. لذلك جاء الأمر الأخير للفوهرر إلى الجميع كالتالي: «الكلب ذاته – من حيث كونه كلبا – كان موجودا وهو موجود وسيظل موجودا.»

وبعد ذلك يوجه الجنرال كريبس نداءه إلى الكولونيل جنرال يودل: «أود أن تحيطوني علما بخليفة الفوهرر، في حالة سقوط الفوهرر الحالي.»

بعد ذلك، تنحل حسب تقرير الوضع عملية «خندق الذئب». تسحب القيادة العليا للجيش الجيش الثاني عشر من منطقة بوتسدام-بيليتس بعد عدم التوصل إلى نتيجة في عملية القبض على الكلب المتجاوز في المنطقة التاريخية. تخترق دبابات العدو شونهبرغ.

بعد ذلك يأتي خبر باللاسلكي وقعه بورمان موجها إلى الأميرال الكبير

دونيتس: «يا سيادة الأميرال، لقد عينكم الفوهرر خلفا له بدلا من غورينغ الذي شغل حتى الآن منصب مارشال الرايخ. التفويض الكتابي وشجرة سلالة كلب الفوهرر في الطريق إليكم.»

وبعد ذلك يصبح مخطط الفوهرر أهلا للتخطي. وبعد ذلك جاءت إخبارية سويدية غير رسمية بأن كلب الفوهرر قد هرب بالغواصة إلى الأرجنتين ولم يأت تكذيب لهذا الخبر. بيان سوفياتي معاد: «تم العثور على جلد كلب أسود باثنتي عشرة ساقا بمخزن باليه مدمر.» وعارضها بيان تنفيذي من لجنة التحرير البافارية عبر محطة إردنغ الإذاعية: «حيث تم تأكيد العثور على جثة كلب أسود أمام قاعة فيلدهر بميونيخ.» وفي الوقت نفسه دارت أنباء عن طفو كلب الفوهرر: أولا في خليج بوثنيا وثانيا عند الساحل الشرقي لإيرلندا وثالثا على الساحل الأطلنطي لإسبانيا. يرد التالي في آخر تخمينات الفوهرر، التي تمسك بها الجنرال بورغدورف ودونت في وصية الفوهرر: «سيحاول الكلب برينتس الوصول إلى دولة الفاتيكان. وفي حالة تقدم باتشيلي بمطالب، احتج على الفور مشيرا إلى ملحق الوصية.»

بعد ذلك غسق العالم. يتسلق زمن العالم فوق أطلال العالم المصنوع. تطور الوضع في واحد مايو: «دافعت فرقة جسورة عن نفسها في نطاق ضيق بقلب عاصمة الرايخ معززة بمجموعات البحث عن كلب الفوهرر.»

وبعد ذلك يرحل التوافر دون لفت الانتباه بأنه لا حاجة إليه الآن ويفشي مدير الرايخ بورمان سر القيادة متوجها بحديثه إلى الأميرال الكبير دونيتس: «مات الفوهرر بالأمس في الساعة الخامسة والنصف صباحا. الوصية سارية وفي الطريق إليكم. يعد كلب الفوهرر المفضل «برينتس»، بناء على تعليماته الواردة بتاريخ التاسع والعاشرين من أبريل، هدية من الفوهرر إلى الشعب الألماني. عُلم بالاستلام.»

بعد ذلك تقدم المحطات الإذاعية الأخيرة موسيقى «غروب الآلهة لفاغنر» من أجله. لكن لا يبقى وقت لدقيقة حداد لأجله. بعد ذلك تحاول بقايا فرقة الجيش المسماة فايكسل وبقايا الجيش الثاني عشر والتاسع وبقايا مجموعات هولسته وشتاينر غرب خط دوميتس-فيسمار الوصول إلى مناطق القوات الإنجليزية والأمريكية. بعد ذلك يسود صمت إذاعي في حي الحكومة بعاصمة الرايخ.

كمال المكان، العدم، مهيأ للخوف وقابل للتشظي. العظمة. الشمول. صنعة برلين. الإنهاء. النهاية.

لكن السماء فوق بنية النهاية لم تسود بعد ذلك.

كان يا ما كان، كان هناك كلب

كان ملكا للفوهرر ومستشار الرايخ وكان كلبه المفضل. ذات يوم هرب هذا الكلب من الفوهرر. لماذا يا ترى؟

عامة لم يستطع الكلب الحديث، لكنه سيتحدث هنا، بعد أن طرحنا عليه هذا التساؤل الكبير وسيقول لنا لماذا: لأنني سئمت التنقل هنا وهناك. لأنه لم يعد لم يعد هناك مكان ثابت للكلب-هنا والكلب-هناك والكلب-الآن. ولأنني خبأت عظاما بالحفر في كل مكان ولم أجدها بعد ذلك. غير مسموح لي بأن أتحرك طليقا. ودائما في حجرة الحبس. حيث كنت أتحرك منذ سنوات كلاب عديدة من عملية إلى عملية وكل عملية لي فيها اسم حركي: عملية «أبيض» استغرقت ثمانية عشر يوما. وعندما أجريت التدريبات على نهر الفيزر في الشمال، كان من الضروري القيام بعملية هارتموت لحماية تدريبات الفيزر. وتكشف عن عملية «أصفر» الموجهة ضد الدول الصغيرة المحايدة، امتداد عملية «أحمر» إلى حدود أسبانيا. وقد كانت رحلة الخريف مخططة لإنجاز عملية سبع البحر لإذلال ألبيون (إنجلترا) الخائنة. لكنها فشلت. وبدلا من ذلك يقوم ماريتا بضم البلقان. آه أي شاعر يدفع له؟ من الذي يكتب من أجله؟ شجرة عيد الميلاد ضد السويسريين. لن ينتج عن ذلك أي شيء. بارباروسا والثعلب الفضي ضد غير الآريين، نتج شيء عن ذلك، زحف زيغفريد فون خاركوف إلى ستالينغراد. ولم تكن ضربات الرعد ولا التقلبات الجوية الشتوية بمعينة للجيش السادس هناك. والآن يجب على فريدريكوس الأول والثاني أن يحاولا مرة أخرى. وعلى الفور يزدهر الخريف اللازمني. ينهار الجسر المؤدي إلى ديميانسك. تسوي دوامات الرياح خطوط الجبهات. حركة الجاموس برائحة الزريبة. العودة إلى البيت! إلى البيت! فحتى الكلب يسأم، لكنه ينتظر وفيا مثل كلب، إن كانت القلعة الجديدة المخطط بنائها بالقرب من كورسك ستصمد أم لا، وماذا سيتمخض عن تكتيك قفزة الحصان ضد القافلة البحرية المتوجهة إلى مورمانسك. لكن يا للحسرة! لقد ولت الأيام

الجميلة التي نقلت فيها زراعة زهور عباد الشمس في شمال أفريقيا، حيث كان زحل يمارس تجارته في جزيرة كريت، حيث كان الفأر ينبش في عمق جبال القوقاز، لم تكن هناك سوى تقلبات مايو الجوية والبرق الدوار وكعك القوالب ضد فدائيي تيتو. من المفترض أن تضع شجرة البلوط الدوتشي على حصانه مرة أخرى. لكن الأعداء الغربيين: غوستاف ولودفيغ وماردر الثاني يصلون إلى البر ويحدثون في شروق الشمس عند نتونو. وتزدهر بنورماندي زهرة معادية. لا يستطيع أي شيء أن ينال منها في جبال الأردان، لا الطيور الجارحة ولا ضباب الربيع ولا الخفر. انفجرت القنبلة قبل ذلك في خندق الذئب الخالي من الأرانب، صحيح أن الكلب لم يحدث له شيء، لكنه أحبط: كفى! كفى! يسحبني وراءه هنا وهناك. قطارات خاصة رعاية خاصة، لا خروج، رغم أن الطبيعة حولي في كامل تجليها.

أيها الكلب الذي شاخ كثيرا! من بيرغهوف إلى فيلزنيست. من حدائق تسوبوت الشتوية إلى تاننبورغ. من الغابة السوداء إلى وكر الذئب. لم أر شيئا من فرنسا ومن بيرغدورف لم أر سوى السحب. وفي شمال شرق فينتسيا في الغابة التي يقال عنها إنها غنية بالثعالب، كان معسكر فيرفولف. تنقل متواصل بين أوكرانيا وشرق بروسيا. الهروب من وكر الذئب إلى خندق الذئب الثاني. وبعد إقامة لمدة يوم في أدلرهورست، للوصول في النهاية إلى الحفرة: إلى داخل مخبأ الفوهرر. يوما وراء يوم ولا شيء سوى مخبأ الفوهرر! وبعد النسر ذئب وذئب مرة ثانية: يوميا في المخابئ، بعد رؤية السحب وفيلزنيست، بعد تاننبورغ وهواء الغابة السوداء لم يتبق سوى الهواء العفن للمخابئ!

عندئذ يفيض الكيل بالكلب. يريد بعد فشل طبيب الأسنان والقاعدة الأرضية الفاشلة أن يشارك في تنقل القوطيين الغربيين المنظم. الهروب. الوجود في المكان. الوجود دون أن تكون وفيا ككلب. حينئذ يقول الكلب الذي لم يستطع أن يتكلم في البدء: «سأحل نفسي من أي رباط!»

أثناء إعدادات حفل عيد الميلاد في مخبأ الفوهرر، اندفع خارجا وعابرا في وداعة الفناء الداخلي لمستشارية الرايخ. وعندما مر مارشال الرايخ داخلا بسيارته، مر الكلب على نقطة الحراسة المزدوجة وتوجه ناحية الجنوب الغرب. لأنه قد استمع إلى تقرير الوضع الحالي وعرف أن هناك ثغرة بالجبهة عند كوتبوس. ولكن

بالرغم من أن الثغرة كانت جميلة وعريضة فقد استدار الكلب شرق يوتربورغ بسبب مقدمة الدبابات السوفياتية، لقد تخلى إذن عن تنقلات القوط الشرقيين وجرى تجاه العدو الغربي: عبر خرائب المدينة القديمة وحي الحكومة وكاد يقترب من ميدان ألكسندر وقد جعلته كلبتان يمر عبر تيرغارتن وكادوا يمسكون به عند خندق الدفاع الجوي بتسولوغيشر غارتن: انتظرته هناك مصايد فئران كبيرة، لكنه تردد سبع مرات ودار حول عمود النصر، ثم مر مندفعا كالسهم عبر طريق النصر والتحق مستعينا بشيء قديم، بالغريزة الكلبية، بمجموعة من المدنيين المتنقلين الذين كانوا ينقلون أغراضا مسرحية من أرض المعارض ببرج الإذاعة إلى نيكولاوسزيه. لكن الميكروفونات الألمانية وميكروفونات العدو الشرقي - الأصوات المغرية التي وعدته بالأرانب - جعلته يتشكك في أماكن مثل ضواحي الفيلات مثل فانزيه ونيكولاوسزيه. وبناء على ذلك فقد جعل جسر نهر الإلبه عند ماغدبورغ-بورغ هدفا للمرحلة الأولى.

عبر في سلام أمام مقدمة دبابات الجيش الثاني عشر جنوب بحيرة شفيلوف والتي يفترض أنها تقوم بإمداد الجنوب الغربي لعاصمة الرايخ. وبعد راحة قصيرة في حديقة فيلا مهجورة، أطعمه جندي من مشاة المدرعات بحساء البازلاء الذي ظل ساخنا. وسماه باسمه ودون أن يتصرف معه بشكل رسمي. وبعد ذلك مباشرة أضرمت مدافع العدو حديقة الفيلا بنيرانها للتحرش بالقوات الألمانية وأصيب جندي مشاة المدرعات إصابة طفيفة ونجا الكلب من تلك النيران، حيث إن ما تراه يجري على أربع سيقان متساوية ويمكن الاعتماد عليها، متبعا حركة القوط الغربيين المخطط مسبقا، هو ذاته كلب الرعاة الألماني الأسود نفسه.

اللهاث ما بين البحيرات الملتهبة في يوم عاصف بشهر مايو. يحمل الأثير في طياته أحداثا جساما. مدركا لهدفه، يتحرك غربا على رمال بروسية تتشبث بها أشجار الصنوبر. ذيل أفقي، ناب، ممتد للأمام، يقصر مع اللسان المتحرك طريق الهروب إلى ست عشرة مرة مضروبة في أربع سيقان: قفزة الكلب والحركات التي تتبعها. وكل شيء ست عشرة مرة: الطبيعة والربيع والحرية والأشجار المرسومة بالفرشاة والسحب الجميلة والفراشات وغناء الطير. طنين الطيور والحدائق الصغيرة المخضرة. والأسوار الخشبية الموهوبة موسيقيا، تبصق الحقول أرانب ويخرج دجاج الحقول للهواء الطلق. طبيعة لا مقاييس لها، لم يعد هناك

صندوق رملي، بل أفاق، دهان الروائح على الخبز وتدريجيا مغارب جافة، غسق بلا عظام، ومن حين لآخر يبدو حطام الدبابات رومانتيكيا تحت سماء الساعة الخامسة صباحا. القمر والكلب والكلب والقمر، الكلب يبتلع القمر، شمولية الكلب، الكلب المتبخر، خطط الكلب، الكلب العابر، انصرف يا كلب، بدوني يا كلب يا مقذوف الكلب، سلالته: وولد بركون سنتا وسنتا أنجبت هاراس وهاراس ولد برينتس... عظمة الكلب، أونطيا وعلميا، كلب هارب والريح تؤازره، لأن الريح تريد أيضا أن تذهب إلى الغرب، مثل الجميع، الجيش الثاني عشر وبقايا الجيش التاسع وما تبقى من مجموعات شتاينر وهولسته ومجموعات الجيش المنهكة في لور وشورنر وريندوليك وتحاول مجموعة جيش شرق بروسيا وكورلاند من ميناءي ليباو وفينداو وكذلك الفرقة الموجودة بجزيرة روغن ذلك أيضا، ولكن بلا جدوى، من ذا الذي يستطيع أن يخرج من هيلا ودلتا الفايكسل، أي بقايا الجيش الثاني. كل من له أنف يشم بها، سيجري أو يعوم أو يجر نفسه جرا، من العدو الشرقي إلى العدو الغربي والمدنيون على أرجلهم وعلى الأحصنة أو ينحشرون في البواخر التي كانت في يوم من الأيام سياحية، يعرجون هاربين، يغرقون وقد لفوا أنفسهم بالعملات الورقية. يزحفون بناقلاتهم ببنزين قليل جدا وأحمال ثقيلة، أنظروا الطحان، بزكيبة دقيقه التي تزن عشرين رطلا والنجار بمفاصل الأبواب وغراء العظم، الأقارب والأصهار، أعضاء الحزب الفاعلون وغير الفاعلين، أطفال ودمى، جدات وألبومات صور، مزيفة وحقيقية، وكلهم كلهم يرون الشمس تشرق في الغرب ويتبعون الكلب.

تتبقى جبال العظام والمقابر الجماعية وصناديق الملفات وسواري الأعلام وكتب الحزب وخطابات الغرام والبيوت ومقاعد الكنائس وآلات البيانو التي يصعب نقلها.

ما لن يُدفع بعد ذلك: الضرائب المستحقة، الأقساط المستحقة للبنوك العقارية، تأمينات الإيجار والفواتير والديون والذنب.

الجميع يريدون أن يبدأوا حياة جديدة مستعينين بالتوفير وكتابة الخطابات على مقاعد الكنائس وآلات البيانو وصناديق الملفات وفي البيوت.

الجميع يردون أن ينسوا جبال العظام والمقابر الجماعية وصواري الأعلام وكتب الحزب والديون والذنب.

كان يا ما كان، كان هناك كلب،

غادر صاحبه وخلف وراءه طريقا طويلة. الأرانب وحدها هي التي تهز أنوفها، لكن أحدا ممن يستطيعوا القراءة، لن يصدق أن الكلب لم يصل بعد.

في الثامن من مايو عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين في الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة خاض الكلب مياه نهر الإلبه بالقرب من ماغدبورغ عابرا الناحية الأخرى، ولم يكد أحد يراه، وأخذ يبحث غرب النهر عن سيد جديد.

الكتاب الثالث

ماتيرنيادات



الماتيرنياده الأولى

يقف الكلب في المركز. بينه وبين الكلب يمر من ركن المعسكر إلى ركنه الآخر سلك شائك قديم وجديد. وبينما يقف الكلب، يكحت ماتيرن الصفيح الأبيض لعلبة المحفوظات الفارغة. لديه ملعقة ولكن ليست لديه ذاكرة. الجميع يريدون مساعدته: الكلب المتمركز وعلبة المحفوظات المملوءة بالهواء، واستمارة الاستبيان الإنجليزية والآن يرسل له براوكسل دفعات مقدمة ويحدد مواعيد ترتبط بظهور واختفاء كواكب معينة. لا بد لماتيرن أن يثرثر عن الماضي.

البداية تعني الاختيار. السلك الشائك المزدوج بين الكلب وعلبة المحفوظات يتيح فرصة للتذكر: مثلا التمرد داخل المعسكر والحرمان من الحرية. كل الأسلاك أصبحت خطية فقط ولم تعد مكهربة بعد. أو قف بجانب الكلب تصبح في المركز. صب له الحساء في الصفيح الأبيض وغمسه بالأسماء واطرد الهواء من العلبة. هناك نفايات في كل مكان، طعام كلاب: تسعة وعشرون عاما من سنوات البطاطس. المرق ذكرى. كبيبة البطاطس، هل ما زلت تذكر. كل ما ليس به بهارات يكذب. أدوار مسرحية وحياة. خضراوات ماتيرن الجافة. الذنب ذو الحبيبات: الملح.

الطبخ يعني الاختيار. أي الأغذية يحتاج إلى مدة أطول في الطهي، الفريك أم السلك الشائك؟ الفريك يؤكل بالملعقة لكن السلك الشائك الذي لم يطه جيدا يسبب صرير الأسنان. لم يحتمل ماتيرن أبدا الجمع بين السلك والأسنان. فقد أتى سلفه، الذي كان يدعى ماتيرنا أيضا، بصرير أسنان لا مثيل له في برج الشتوكتورم الخالي من النوافذ.

التذكر يعني الاختيار. هذا الكلب أو ذاك؟ كل كلب يقف في المركز. ما الذي يبعد أي كلب؟ لا توجد بالعالم أحجار كافية. ومعسكر مونستر - من ذا الذي لم يعرفه من قبل؟ لقد بني على الرمل ولم يتغير إلا قليلا. احترقت الثكنات وبنيت مكانها أكواخ من الصفيح. سينما المعسكر وأشجار صنوبر منفردة، مطبخ المعسكر الأبدي، يحيطه سلك قديم ويزيد عليه سلك جديد. يلعق ماتيرن الفريك أمام السلك الإضافي لمعسكر تسريح، بعد أن لفظه معسكر إنجليزي للمعادين للفاشية.

يلعق حسائه مرتين يوميا من العلبة الصفيح ذات الصليل ويتبع آثار قدميه في الرمل وراء السور السلكي المزدوج. لا تلتفتوا وراءكم فالصرار وراءكم. الكلب نفسه، يتلقى الحجارة مرتين يوميا ولا يريد أن يبلعها: «إذهب! أرني ظهرك! ارجع من حيث جئت!»

غدا أو بعد غد ستكون الأوراق جاهزة لشخص ما يريد أن يكون وحده دون كلب.

«ستخرج، إلى أين تذهب؟»

«سأرى يا مستر بروكس، يمكن إلى كولونيا أو نويس.»

«مولود، متى وأين؟»

«في السابع عشر من أبريل. لحظة: بالضبط في التاسع عشر بنيكلسفالده، مركز دانتسيغ نيدرونغ.»

«المدرسة أو المسار التعليمي؟»

«في البداية التعليم المدرسي المعتاد: المدرسة الشعبية في القرية ثم المدرسة الثانوية لغاية الشهادة، ثم كان من المفروض أن أدرس الاقتصاد، لكنني تلقيت دروسا في التمثيل على يد الممثل الكبير الطيب غوستاف نورد، ممثل لا يضاهيه أحد في أدوار مسرحيات شكسبير ولكنه مثّل أيضا في مسرحيات شو، وفي القديسة يوحنا...»

«إذن وظيفتك ممثل؟»

«نعم يا مستر بروكس. مثلت كل الأدوار التي كانت متاحة لي: كارل وفرانتس مور: حكمة الدهماء خشية الدهماء! وذات مرة مثلت في مطحنة القهوة

القديمة الجميلة دور حيوان رنة وكنت ساعتها ما أزال مبتدئا. كان وقتا رائعا يا مستر...»

«كنتَ عضوا بالحزب الشيوعي، منذ متى وحتى متى؟»

«لقد حصلت على شهادة الثانوية في عام خمسة وثلاثين، لكنني بدأت أعمل مع الصقور الحمراء من الصف السادس الثانوي، ثم بعد ذلك مباشرة، أصبحت عضوا مسجلا بالحزب الشيوعي حتى أوقفوا نشاطه في نهاية عام أربعة وثلاثين. لكنني واصلت العمل بشكل غير مشروع ووزعت منشورات وملصقات، لكن ذلك كله لم يجد.»

«عضوية حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني (النازي) أو أي من منظماته؟»

«بضعة أشهر بفرق الهجوم، على سبيل المزاح وكجاسوس تقريبا لمعرفة ما الذي يحدث عندهم لأن صديق لي...»

«منذ متى وحتى متى؟»

«قلت لك يا مستر بروكس، بضعة أشهر: من آخر صيف سبعة وثلاثين إلى بداية ثمانية وثلاثين. ثم طردوني، وعقدوا لي محاكمة عاجلة داخل مجموعة فرق الهجوم بسبب عدم الطاعة.»

«أية مجموعة؟»

«لو كان لي أن أعرف ذلك! كنت لوقت قصير بها وكل ذلك لأن أحد أصدقائي المقربين كان نصف يهودي وحاولت أن أحميه منهم. بالإضافة لأن صديقي قد رأى...على كل حال لقد كانت مجموعة أربعة وثمانين شمال لانغفور. وتتبع للواء رقم مائة وثمانية وعشرين التابع لفرقة الهجوم رقم ٦ بدانتسيغ»

«ما اسم صديقك؟»

«أمزل، إدوارد أمزل، كان فنانا. يمكن أن تقول إننا نشأنا سويا. وكان يتصرف أحيانا تصرفات غريبة جدا. كان يصنع ديكورات للمسرح، ديكورات ميكانيكية. وكان يرتدي مثلا دائما ملابس وأحذية ملبوسة. كان سمينا جدا، لكنه كان يجيد الغناء. رجل همام بحق!»

«وماذا حدث لأمزل؟»

«لا أعرف! لا بد أنه رحل، لأنهم طردوني من فرق الهجوم. لقد بحثت عنه في كل مكان وتقصيت أخباره، سألت عنه برونيس مثلا، الذي كان يدرسنا اللغة الألمانية. . »

«المقر الحالي لإقامة المدرس؟»

«برونيس؟ لا بد أنه مات. لقد دخل عام ثلاثة وأربعين إلى معسكر التعذيب. »

«أي معسكر تعذيب؟»

«شتوتهوف، بالقرب من دانتسيغ. »

«وحدة الجيش الأخيرة وما قبل الأخيرة؟»

«حتى نوفمبر ثلاثة وأربعين: كتيبة الدفاع الجوي الثانية والعشرون، بطارية كايزرهافن. ثم حُكم علي بسبب إهانة الفوهرر والنشاط الهدام ضد القوات المسلحة. جُردت من رتبة جاويش وأصبحت قناصا عاديا بالفرقة الرابعة لكسح الألغام. وهربت في الثالث والعشرين من يناير عام خمسة وأربعين في فوغيزين إلى فرقة المشاة الأمريكية رقم ثمانية وعشرين. »

«هل هناك عقوبات أخرى؟»

«عقوبات عديدة يا مستر بروكس. أولا حكاية فرق الهجوم، وبعدها بما لا يزيد على عام – ذهبت إلى شفيرين للعمل بالمسرح، وتم فصلي نهائيا بسبب إهانة الفوهرر إلخ، ثم انتقلت إلى دوسلدورف وعملت أحيانا بالإذاعة وبرامج الأطفال ولعبت إلى جانب ذلك رياضة كرة القبضة مع اتحاد أصدقاء الرياضة في اونترات، ثم وشى بي بعض أصدقاء الرياضة: دخلت سجن التحقيقات ورئاسة البوليس في شارع كافاليري، لو كنت تسمع به. لقد أشبعوني ضربا يكفيني لدخول المستشفى ولو لم تأت الحرب في الوقت المناسب لكانوا. . .آه لقد كدت أنسى حكاية الكلب. كان ذلك وسط صيف تسعة وثلاثين. . . »

«في دوسلدورف؟»

«لا في دانتسيغ مرة أخرى يا مستر بروكس. لقد تقدمت بنفسي للخدمة العسكرية وإلا فكانوا. . .

وهكذا بقيت في وحدة البوليس السابقة بهوخشتريس، ومن غضبي ولأنني كنت ضدهم سممت ساعتها كلب رعاة. »

«اسم كلب الرعاة؟»

«كان اسمه هاراس وصاحبه أسطى نجار.»

«الملامح المميزة للكلب؟»

«كان كلب تدريب، كما يقولون. وهذا الكلب المسمى هاراس ولد في عام خمسة وثلاثين أو ستة وثلاثين كلبا اسمه برينتس وهذا الكلب - هذا الكلام حقيقي، حقيقة وقوفي أمامك - قد أهدي إلى هتلر في عيد ميلاده ومن المفترض أن يكون كلبه المفضل وهناك شهود على ذلك. هذا بالإضافة إلى أن سنتا - الموضوع سيصبح الآن شخصيا يا مستر براوكس - كلبتنا سنتا هي أم هاراس. لقد أنجبت هاراس وبعض الجراء الأخرى تحت منصب طاحونتنا بنيكلسفالده على مصب الفايكسل وكنت ساعتها لم أتعد العاشرة من عمري. ثم احترقت الطاحونة بعد ذلك، كانت طاحونة مميزة، طاحونة الرياح التي نمتلكها.»

«وما وجه تميزها؟»

«يقولون عنها أيضا الطاحونة التاريخية بنيكلسفالده، لأن الملكة لويزه، ملكة بروسيا قد باتت في طاحونتنا أثناء هروبها من نابليون. كانت طاحونة منصبية ألمانية جميلة. بناها جدي الأكبر: أوغست ماتيرن. ويرجع نسبه مباشرة إلى المناضل زيمون ماتيرنا الذي قبض عليه حاكم المدينة هانس نيمتش عام ١٥١٦ وأعدمه ببرج الشتوكتورم بدانتسيغ. لكن ابن عمه الحلاق غريغور ماتيرنا قد أشعل نار الثورة في عام ١٥٢٤ مرة أخرى وفي الرابع عشر من أغسطس عندما أقيم سوق الدومينيك، لاقى المصير نفسه، لأن هذه طبيعتنا نحن آل ماتيرن، لا نستطيع أن نظل صامتين. دائما نتكلم على سجيتنا، حتى أبي الطحان أنتون ماتيرن الذي يستطيع قراءة المستقبل، لأن سوس الدقيق...»

«شكرا يا سيد ماتيرن. هذه المعلومات كافية. غدا في الصباح الباكر ستتسلم أوراق إطلاق سراحك. هذه هي استمارة إخلاء سبيلك. تستطيع أن تذهب.»

عبرَ هذا الباب ذي المفصلين، ولكي تنجح الشمس في الخارج في أداء دورها، تُلقي الثكنات والأكواخ الصفيح وأشجار الصنوبر المتبقية ولوحة الإعلانات والسلك الشائك المزدوج والكلب الصبور على الناحية الأخرى من السور بالظل على أسير الحرب ماتيرن في اتجاه واحد: تذكر! كم من الأنهار تصب في الفايكسل؟ ما هو عدد الأسنان التي يمتلكها الإنسان؟ ما هي أسماء

الآلهة البروسية؟ كم عدد الكلاب؟ ثمانية أم تسعة ملثمين؟ كم سنة جلست جدتك ملتصقة بكرسيها؟ بماذا همس سوس الدقيق لأبيك، عندما سأله ابنه عن حال شخص ما وماذا يفعل؟ لقد همس قائلا تذكر أن هذا الشخص له صوت متحشرج ويدخن رغم ذلك طوال اليوم العزيز سجائر طويلة، واحدة تلو الأخرى. ومتى مثلنا مسرحية بيلينغر «العملاق» في مسرح المدينة؟ وما هي وظيفة دوناتا أوبفركوخ ومن كان ابنها؟ وماذا كتب الناقد شترومنغر في جريدة «فوربوستن»؟ كتب، تذكر: «تميز الشاب الموهوب ماتيرن في دور ابن دوناتا أوبفركوخ التي قامت ماريا بارغهير بتمثيل دورها بفظاظة قديرة. الأم والابن في شخصيتين مثيرتين ومتناقضتين...» Chien- Canis- Dog- Kyon!، يا كلب لقد أطلقوا سراحي. وفي معطفي الشتوي بعض الأوراق، ستمائة من ماركات الرايخ وبعض بطاقات الطعام وبطاقات السفر! وتحتوي مخلتي على لباسين داخليين وثلاث فانلات داخلية، بعض الأحذية العسكرية الأمريكية بنعل مطاطي، وقميصين أمريكيين شبه جديدين، مصبوغين بالأسود، ومعطف ضابط ألماني، غير مصبوغ، وطاقية مدنية ماركة كورنوال وحصتين من تبغ المضغ لزوم السفر وعلبة وزنها رطل من تبغ الغليون وأربع عشرة علبة سجائر ماركة «كاميل» وحوالي عشرين كتيبا بأغلفة ورقية - معظمها مسرحيات لشكسبير وغرابه وشيلر - وطبعة كاملة من كتاب «الوجود والزمان» ما زالت تحمل إهداء إلى هوسرل - خمس قطع من الصابون الممتاز وثلاث علب من اللحم المحفوظ... Chien أيها الكلب، أنا غني! Canis أين انتصارك! Go ahead Dog! أيها الـ Kyon الطري!

يخطو ماتيرن بمخلته على كتفه فوق رمل لم تدهسه أقدام كثيرة، إذا ما قورن برمل المعسكر. من الآن فصاعدا لا للروابط الاجتماعية! ولذلك فالترحال لذة الطحان[1]، بدون قطار، على الأقل مؤقتا! يتراجع الكلب للوراء ولا يريد أن يفهم. تقوده ضربات الحجارة الحقيقية والمهددة إلى الحقول المحروثة وإلى الطريق في الأمام. الضربات المائعة تشد من أزره، الحجارة الحقيقية تجعله يسترجع كلمة: زلاكن.

---

(١) أغنية شعبية معروفة اسمها الترحال لذة الطحان.

يقطع ماتيرن أربعة كيلومترات رملية باتجاه فالينغبوستل مع الكلب الذي لا مفر منه. وحيث إن الطريق وسط الحقول لا يتجه حسب رغبته إلى الجنوب الغربي، يقطع الحقل بالعرض جارا الكلب معه. من تنبه إلى أن ماتيرن يمشي بشكل طبيعي على ساقه اليمنى، فإن عليه أن يعترف بأنه يعرج على الساق اليسرى بصورة غير ملحوظة. كانت تلك المنطقة كلها ميدانا لتدريب قوات الجيش وستبقى كذلك للأبد: خسائر بالمحصول، تبدأ مروج بنية وتتحول تدريجيا إلى غابات شابة. تهديه إحدى الخرابات عصا: «امش يا كلب! يا من لا اسم له. وفي/ مثل/ كلب. أيها الكلب الملعون الساقط. اذهب!»

لا يستطيع أن يأخذه معه. يريد أن يعيش لمرة واحدة بدون معجبين. لقد حرضوني بكل الوسائل. ماذا أفعل بالكلب؟ أنشط به ذاكرتي؟ سم الفئران؟ ساعات العصافير، حمامات السلام، الحداءات الناهبة. كلاب مسيحية، خنازير اليهود، حيوانات منزلية حيوانات منزلية. . .امش يا كلب!

حتى المساء وحتى كاد صوته يتحشرج. ما بين أوستنهولتس وايسل ظل فمه مملوءا بدفاعات عن نفسه بألقاب لا تعني الكلب وحده ولكنها تشمل العالم بأكمله. حينما كانوا يريدون رجم شخص ما في قريته الباردة، كانوا يلتقطون زلاكن من الأرض، ولا يلتقطون أحجارا من الحقل. من المفترض أن تصيب تلك الأحجار والكتل الطينية والعصي الكلب وأي شخص آخر. لا يتسنى أبدا لكلب آخر ملتصق بسيده مثل بلوتو، أن يتعلم شيئا عن دور الكلب في الميثولوجيا: لا يوجد عالم سفلي لا يحرسه الكلب، لا يوجد نهر للأموات لا يلعق الكلب من مائه! ليثا ليثا نهر الموت والنسيان، كيف يتخلص المرء من الذكرى؟ لا يوجد جحيم بدون كلب الجحيم!

لم يحدث قط أن أُرسل كلب لا يريد ترك سيده الذي اختاره بنفسه إلى كثير من البلدان والمدن في الوقت ذاته: إلى حيث ينمو الفلفل. إلى بوكتسهوده إلى يريشو وتوتناو. من ذا الذي لم يلعق له الكلب كل شيء؟ أسماء أسماء - إنه لا يسافر إلى الجحيم، ولا يذهب إلى مدينة الفلفل (بفيفرشتات)، لا يلعق الغرباء، لكنه يتبع سيده وفي/ مثل/ كلب، السيد الذي اختاره بنفسه.

لا تلتفت وراءك فالكلب يتبعك في صمت.

يتشاور ماتيرن مع فلاح في ماندلسلوه - لقد ساروا بمحاذاة نهير صغير -

فلاح من سكسونيا السفلى، قدم له سريرا حقيقيا للنوم مقابل أربع علب سجائر «كاميل». سأله ماتيرن وهما جالسان أمام بخار البطاطس المحمرة: «ألا تحتاج إلى كلب؟ إنه يحوم بالخارج ويتبعني منذ الصباح. لن أتخلص منه. ليس بالحيوان السيئ، ضامر بعض الشيء.»

لكن في اليوم التالي لم يمش ماتيرن خطوة من ماندلسلوه حتى روتنوفلن إلا والكلب معه، برغم أن الفلاح قال إن الحيوان ليس سيئا، ربما قد توحش بعض الشيء، لكنه سيفكر في الأمر وسيقول له في الصباح إن كان يريده أم لا. في الصباح يريد الفلاح الكلب لكن الكلب لا يريده وقد اتخذ قراره.

يراهما بحر شتاينهودر[٢] كزوجين: راحة من المشي ما بين روتنوفلن وبراكفيده، حيث حملته عربة كارو بثلاث عجلات، بينما كان على الكلب أن يمد الخطى حتى يتمكن من... وكذلك عندما وصلوا إلى مكان اسمه رينكروده بمنطقة وستفاليا، كانا الزوجين نفسيهما، لم يزد كلب ولم ينقص كلب. أثناء ترحالهما من رينكروده مارين بأوتمارسبوخولت حتى إيرمن، تقاسم مع الكلب خبز الجيش واللحم المعلب. لكن أثناء ابتلاع الكلب لفتات الخبز، كانت هناك عصا، أتت معهم من سكسونيا السفلى، تضرب بقتامة على الفرو الملبد.

لذلك يفرك له فروه في اليوم التالي، حيث إن كليهما قد سارا معا متخذين مسافة مناسبة من بعضهما بدءا من إرمن عبر أولفن وحتى ايفيزوم ونزل الكلب في النهير المسمى شتيفر حتى لمع سواده: شعر فروه والجلد الموجود تحت الشعر. يقايض غليونا بمشط للكلاب. يشهد له المقايض: «أن هذا الكلب من سلالة أصيلة». يرى ذلك بنفسه، رغم أنه لا علم له بالكلاب: «أنا أعرف ذلك يا رجل. لقد نشأت منذ صغري ومعي كلب. انظر إلى سيقانه. لا يقف بسيقان برميلية ولا معوجة كالبقر. والخط من الكفل حتى أعلى الظهر. لا أثر لمقاييس زائدة، ما يعيبه أنه لم يعد صغيرا، تستطيع أن تلمح ذلك على الشفاه، فلم تعد تنغلق جيدا. وتلك البقع الرمادية الصغيرة أعلى الظهر. لكن الفك ما يزال في حالة جيدة.»

يقيمانه ويتحدثان عن الصفقة أثناء تدخين تبغ الغليون الإنجليزي:

---

(٢) بحر صغير في ولاية سكسونيا السفلى بالقرب من هانوفر. (مترجم)

«كم عمره يا ترى: أظن أن عمره عشر سنوات.»

لكن ماتيرن أدق: «إن لم يكن أحد عشر عاما، لكن هذه السلالة تظل نشطة حتى سبعة عشر عاما، طبعا عندما تتلقى الرعاية الجيدة.»

وبعد الطعام يتحدثان عن أوضاع العالم والقنبلة الذرية، ثم عن قصص الكلاب الوستفالية: «ذات مرة في بشتروب، كان هناك كلب رعاة ذكر قبل الحرب وصل عمره عشرين سنة، يعني حوالي مائة وأربعين سنة من عمر البشر. وأبي قد حكى عن كلب من ريشيده وصل عمره اثنين وعشرين سنة يعني حوالي مائة وأربعة وخمسين سنة، لكنه كانت تربية معسكر دولم وأصبح في النهاية شبه أعمى. وبما أن عمر كلبك إحدى عشرة سنة من سنوات الكلاب، فيقدر عمره بسبعة وسبعين سنة من عمر البشر، يعني ما يزال صبيا بالمقارنة بالاثنين الآخرين.»

كلبه الذي لا يبعده بالحجارة ولا بصوته المبحوح، بل يحافظ عليه بحزم كملكية لا اسم لها. «ما اسم كلبك إذن؟»

«لا تبحث عن الأسماء وإلا فستجد أسماء.»

«فلتسميه غرايف أو لوكس أو فالكو أو هاسو أو كاستور أو فوتان... لن تصدقني إن قلت لك إنني قد عرفت كلب رعاة اسمه يازومير.»

يا للخراء البائس! من ذا الذي يتقرفص في الحقل الخالي وينزل قطعة سجق جافة ثم يقف ليتأمل إخراجاته؟ شخص لا يريد التهامها ولكنه يتعرف على نفسه فيها: ماتيرن، فالتر ماتيرن الذي يصر بأسنانه، حصى وخراء، الذي يبحث دائما عن الرب ولا يجد سوى الخراء، الذي يركل كلبه: خراء! لكنه يعود ذليلا فوق الحقل نفسه وفوق الشقوق بلا اسم. خراء خراء! هل يسمي ماتيرن كلبه خراء؟

يعبران قناة ليبه-زايتن في هارد، وهي غابة بها بعض التلال. إنه يريد أن يقطع بالكلب الذي لا اسم له الغابة المختلطة حتى مارل - هل يسمي الكلب كونو أو ثور؟ لكنهما ينحرفان يسارا- أوديفاكس؟ - حتى يصبحا خارج الغابة فوق قضبان السكة الحديد على طريق دولمن-هالترن- ريكلنغهاوزن. هنا توجد أسماء لبعض المناجم التي تصلح أيضا أسماء لكلاب: هانيبال، ريغنيت وبروسبر؟ في شبيكهورن يجد السيد والكلب الذي لا اسم له سريرا للنوم.

ابحث، وعدِّد. أسماء أسماء. محفورة في الغرانيت والرخام. التاريخ عبارة

عن أسماء. هل من الممكن، هل ينبغي، أيجوز أن يسمي المرء كلبه توتيلا أو إتسل أو كاسبار هاوزن؟ ما هو الاسم الأول في هذه السلسلة الطويلة؟ بركون. ربما ينبغي على الآلهة الأخرى أن تتبرع بأسماء: بوتريمب أو بيكول؟

من ذا الذي يتقلب ولا ينام، لأن أسماء تخصه، لا تصلح لأن يحملها كلب، وتؤرق مضجعه؟ يقفان في الصباح الباكر عند سد السكة الحديد أثناء الضباب الأرضي، يدوسان على الحصى ويمران على ملامح صباحية متخمة. مقاطع من خراب: هذه ريكلنغهاوزن أو هيرنه، على اليمين فانّه وعلى اليسار أيكل. جسور مؤقتة تقود عبر قناة ايمشر وقناة راين-هيرنه. بلا أسماء يجمعون الفحم وسط الضباب. في أبراج استخراج الفحم تصمت أو تدور بكرات الحبال فوق المناجم التي لا اسم لها. لا ضجيج. كل الأشياء موضوعة فوق قطن. لكن الحصى أو الغربان ينطقون ولكن كالمعتاد: بلا اسم. حتى يتفرع شيء يمينا وله اسم. قضبان، بخط واحد، قادمة من أيكل ولا تريد التوجه إلى هولن. هكذا يستطيع المرء أن يقرأ على لافتة نالت منها التقلبات الجوية عند مدخل المحطة المفتوح: **تفريعة بلوتو**.

ونادى الكلب لذلك قائلا: «تعال هنا يا بلوتو. مكانك يا بلوتو. امش بجانبي يا بلوتو. امسك يا بلوتو. كن مهذبا يا بلوتو. أهدأ يا بلوتو، كل يا بلوتو. هوب يا بلوتو. ابحث يا بلوتو. غليوني يا بلوتو!» وأب العماد هو بلوتون، الذي يجمع ويكنز المحاصيل والأموال والذي يشبه هادس أو بيكولوس القديم - اللذين يقومان بالأعمال السفلية: أعمال سوداء، أعمال بلا معبد، أعمال غير مرئية، أعمال تحت الأرض، المعاش الكبير، رحلة بالمصعد إلى قاع المنجم، تستطيع الدخول ولا تستطيع الخروج، عنده تكون إقامتك الدائمة، لا يمكنك أن ترشوه، الجميع يذهبون إلى بلوتو الذي لا يقدسه أحد. لكن ماتيرن وأتباع إيليا هم الوحيدون الذين يتكدسون أمام المحراب: القلب والطحال والكلى من أجل بلوتو!

يتبعان التفريعة. تنمو أعشاب برية بين القضبان، لم يسر قطار فوق هذه القضبان منذ زمن طويل. تعلو القضبان طبقة من الصدأ. يجرب ماتيرن الاسم الجديد، تارة بصوت وعال وتارة بصوت خفيض. ومنذ أن أصبح الكلب ملك يديه، خفت حشرجة صوته. نفع الاسم. في البدء اندهش الكلب ثم أطاع

بحماس. لقد تلقى الكلب تدريبا من قبل، ليس كلبا عاديا. إنه يقف ويرقد وسط مراجل الفحم تبعا لصفير ماتيرن. يُظهر بلوتو في منتصف المسافة بين دورتموند وأوبرهاوزن فنونا تعلمها ولم ينسها، ربما يكون قد أخفاها بعض الشيء حيث كانت تلك الأوقات مضطربة وبلا رب. يجري الضباب ويبتلع نفسه بنفسه. حتى هنا أيضا توجد شمس في الرابعة والنصف صباحا.

هذا الهوس المرضي، التحقق اليومي من مكانك في العالم: أين نحن؟ منطقة ذات أهمية! على اليسار شالكه-نورد مع فيلهلمينه-فكتوريا وعلى اليمين فانّه بدون أيكل. بعد ثنية إمشر تنتهي غيلزنكيرشن، وهناك في الاتجاه الذي تسعى إليه القضبان الصدئة والأعشاب البرية يوجد برج استخراج قديم الطراز بساق مثنية، شبه مدمر ومتوقف عن العمل، هذا هو منجم بلوتو الذي وهب كلب الرعاة الأسود بلوتو اسمه.

عجيب ما فعلته الحرب: انتهى العمل في كل مكان. تنمو نباتات بنات النار والزهور الصفراء بسرعة لا يتخيلها العالم. ملابس منكمشة، ظن المرء أنها ستعيش أبدا. حامل على شكل حرفT ودفايات بعمودين معوجين بصورة تشبه تلبك الأمعاء. يجب على المرء ألا يصف الخرائب، بل أن يستخدمها: لذلك سيأتي تجار الخردة ويعيدون علامات الاستفهام الحديدية إلى وضع الاستقامة. وكما تعلن أجراس الجليد عن قدوم الربيع، سيدق التجار على الخردة بعض الأنغام السلمية إيذانا بالانصهار الكبير. آه يا ملائكة السلام بذقون غير حليقة، وسِّعوا رفارف السيارات المنبعجة، اهبطوا على أماكن كتلك: منجم بلوتو بين شالكه وفانّه!

يستحوذ هذا المكان على إعجاب الاثنين: ماتيرن وصاحبه الذي يمشي على أربع. في الحال يقوم ببعض التدريبات للكلب. ظلت هناك بقايا سور جميل طوله حوالي متر وثلاثين سنتمترا. هوب يا بلوتو! بالطبع ليست قفزة صعبة، حينما يكون ميل الساقين الأماميتين مثاليا وأعلى الظهر له الطول المناسب وحينما يكون للظهر الطول المعقول والقوة المناسبة ويكون للساقين الخلفيتين الكفاءة المناسبة. اقفز يا بلوتو! نباح أسود، بدون علامات أو خطوط على الظهر المستقيم: السرعة والقدرة على الوقوف والاستعداد للقفز. اقفز يا كُليبي، سأزيد شيئا فوق السور. تحققت الدفعة من خلال الساقين الخلفيتين. مغادرة الأرض والقيام برحلة قصيرة

في الأجواء الراينية الوستفالية والهبوط بنعومة، فذاك أفضل للمفاصل. كلب جيد، كلب مثالي: بلوتو أيها الكلب الأنيق.

يلهث هنا وينبش هناك. أنف عميق يستجمع آثار الروائح: حاجيات قديمة. في غرفة تغيير الملابس المحترقة ينبح الكلب على سلاسل أوناوش وخطاطيف تتدلى متمايلة، برغم أنه من الممكن رؤية ملابس الوردية الصباحية الأخيرة. صدى. إنها الرغبة في الإعلان عن الذات بصوت عال وسط الخراب الخالي. لكن السيد ينبح للكلب باتجاه الشمس، يأمره بأن يأتي لمكان التجمع، داخل قطار التحويلة يجدون طاقية وقّاد. يستطيع أن يطيرها في الهواء ويتركها تسقط على رأسه. ماتيرن الوقاد: كل هذا المكان ملك لنا. لقد أخذنا غرفة تغيير الملابس والآن نريد أن نحتل الإدارة. «الشعب يمتلك أدوات الإنتاج!»

لكن لم يبق ختم واحد في حجرات المكاتب ذات التهوية الجيدة. ولو لم تكن «هنالك حفرة في الأرضية»، لكان لديهم أسباب كافية للعودة إلى مكان التجمع المشمس. «يمكن للمرء أن يهبط» على سلم قبو درجاته كاملة تقريبا. ولكن «بحذر!» فقد يكون هناك لغم من الأيام الماضية. لم تكن هناك ألغام في قبو التدفئة: «نريد أن نتفرج عليه.» خطوة خطوة «أين شمعتي وقداحتي القديمة، وجدتها في دونكيرشن، وشهدت معارك بيريوس وأدويسا ونوفوغورد، لقد أضاءت لي دائما طريقي إلى البيت وأطلقت شرارتها، لماذا لا تريد أن تشتعل الآن!.»

كل الظلمات تعرف لماذا. كل سر يغوي بالبوح. وكل باحث عن الكنز توقع أكثر مما وجد. يقفان على ست أقدام في القبو الممتلئ حتى الانفجار. لم تكن هناك صناديق تحتاج لفتحها ولا زجاجات لشربها عن آخرها ولا سجاجيد إيرانية مخزنة ولا ملاعق فضية ولا كنوز كنسية ولا مقتنيات قصر غالية: مجرد ورق. لم يكن ورق أبيض عار وإلا لكانت صفقة مربحة، ولا مراسلات بين شخصيتين عظيمتين على ورق فاخر مصنوع يدويا. ورق مطبوع، بأربعة ألوان: أربعون ألف ملصق، ما تزال رائحتها جديدة وكل واحدة منها أنعم في ملمسها من الأخرى. وعلى كل واحدة صورة الفوهرر بالطاقية الغائصة في رأسه والنظرة الجامدة الجادة. من الآن في الساعة الرابعة وخمس وأربعين صباحا. العناية الآلهية... عندما... في الماضي، قررت أن. بلا عدد. بسباب بائس. عند

الضرورة. بالإضافة إلى أن. في النهاية. سيبقى، سيعود، أبدا. الخونة. في هذه اللحظة نظر. . سيكون التحول. . . إنني أهيب بكم. . . سنصل إلى مناصب. . . كنت. . . سوف. . . أنا. . .

وكل ملصق يزيحه ماتيرن بزوج من أصابعه من فوق الكومة ينزلق، يتطاير لبرهة ثم يسقط أمام ساقي بلوتو الأماميتين. قليل من النسخ تسقط على وجهها. في معظم الأحيان ينظر الفوهرر من الأرض إلى مواسير التدفئة بالسقف: نظرة الفوهرر الجادة الجامدة. تعمل إصبعا ماتيرن بلا كلل، وكأنه يتوقع رؤية نظرة جديدة لشخص آخر على الملصق التالي أو الثالث الأكبر حجما. وللإنسان أن يأمل ما دام. . .

وبدأ صفير يغشى سكون القبو. لقد تسببت نظرة الفوهرر في هذا اللحن الأوبرالي المنطلق من صدر الكلب. الآن يصدر الكلب ألحانه ولا يستطيع ماتيرن إسكاته. «اسكت يا بلوتو! اهدأ يا بلوتو!»

لكن الكلب المنهنه يُسقط أذنيه الواقفتين ويثني سيقانه ويتهدل ذيله. يتسرب صوته تجاه السقف الخرساني ليدخل في ماسورة التدفئة المكسورة. ويعطي ذلك فرصة لماتيرن أن يصر صريرا جافا بأسنانه. لكنه يتوقف بلا جدوى ويبصق: بلغما على صورة البورتريه التي أُخذت للفوهرر قبل محاولة الاغتيال. زبد الرئة بين نظرته الجادة الجامدة. مخاط الحلق يتقافز ويصيبه: هو هو هو. ولا يبقى على الأرض لأن للكلب لسان طويل يلعق وجه الفوهرر الملون المسطح، يلعق المخاط من فوق خده. لم يعد بإمكان البصاق أن يعوق نظرة الفوهرر. يلعق اللعاب من على الشارب المربع: وفي/ مثل/ كلب.

وهذا هو رد الفعل. لماتيرن عشر أصابع لتكوير وتمزيق كل ما هو أملس ويحمل صورة وجه بأربعة ألوان، كل ما وقع على الأرض، كل ما هو مكوم وكل ما ينظر إلى السقف مخترقا إياه: هو هو هو. لكن الكلب يقول: لا!. تزداد الزمجرة. أنياب بلوتو الحادة. يعترض الكلب: كف عن ذلك، توقف في الحال! ترتاح القبضة فوق رأس ماتيرن: «طيب يا بلوتو. مكانك يا بلوتو. طيب طيب. لم أكن أقصد ذلك يا بلوتو! تحب نروح ننام قليلا ونوفر بعضا من ضوء الشمعة؟ ننام ونبقى أصحاب؟ بلوتو يسمع الكلام بلوتو مطيع.»

يطفئ ماتيرن الشمعة. ينام الكلب وصاحبه فوق صور الفوهرر المكومة.

يخرج شخيرهما ثقيلا في الظلام. كل منهما يتنفس لنفسه والرب الحبيب يتفرج.

الماتيرنياده الثانية

لم يعودا يمشيان على ست أقدام، منها واحدة تبدو معطوبة ويجب جرها، بل سافرا بالقطار الممتلئ من إسن عبر دويسبورغ إلى نويس، حيث لا بد للإنسان من هدف يبتغيه: قبعة الطبيب أو قلادة القناصة الفضية أو ملكوت السماء أو بيت الإنسان، أو الوصول إلى جزيرة روبنسون كروزو أو تحقيق رقم قياسي عالمي أو كولونيا/ على/ الراين.

الرحلة صعبة وطويلة. كثيرون، إن لم يكن الجميع، يرتحلون ومعهم زكائب البطاطس أو البنجر. بناء على ذلك، وإذا اعتبرنا محصول البنجر محل ثقة، فسندرك أننا لسنا داخلين على الربيع ولكن مولد القديس مارتين يقترب. ولذلك فنوفمبر يعد لأسباب عدة أكثر احتمالا في السفر، رغم المعاطف التي تنتشر رائحتها في الزحام وفي داخل العربة المكتظ، من السفر على الأسطح الدائرية للقطار أو على المصدات المترنحة أو على درجات العربات التي يتقاتل الناس من أجلها في كل محطة. لا يقصد كل المسافرين المكان نفسه.

يؤمن ماتيرن مكانا لبلوتو في القطار قبل أن يتحرك من إسن. في داخل العربة تختلط رائحته النفاذة مع روائح البطاطس والبنجر المبلل والبشر المتصببين عرقا. مع ريح القطار المتحرك لا يشم ماتيرن سوى القاطرات المحركة. بالتحالف مع مخلته، يتمسك بدرجة سلم القطار مقاوما الهجوم الذي يحدث في محطتي غروسباوم وكالكوم. من العبث أن يصر بأسنانه في وجه ريح القطار المتحرك. في الماضي، أيام كان يصر بأسنانه متحديا المنشار القرصي، قالوا عنه إنه يستطيع أن يصر بأسنانه تحت الماء، وفي الماضي كان بإمكانه أن يصر صريرا عاليا في وجه ريح القطار المتحرك. إذن يبقى صامتا، لكن رأسه مليء بالأدوار المسرحية، ويمر في عجالة عبر المناظر الطبيعية الساكنة. عند ديريندورف يفسح ماتيرن مكانا على سلم العربة لساعاتي متذمر، يمكن من هيئته أن يبدو أيضا كأستاذ جامعي. وذلك بأن يوقف مخلته بالطول. يريد الساعاتي أن يوّصل ثمانية قوالب فحم إلى كوبرشتيغ. يستطيع ماتيرن أن ينقذ الرجل في محطة دوسلدورف الرئيسية ولكن في بينرات تبتلع الدهماء هذا الأستاذ بقوالب فحمه. من أجل العدالة ولا شيء

غير ذلك، يرغم ماتيرن ذاك الرجل الذي أخذ محل الساعاتي وأراد أن يوّصل ميزان مطبخه إلى كولونيا على النزول في ليفركوزن وتغيير القطار. تؤكد النظرات المتأففة أن هناك كلبا ما يزال يقف على أربع داخل العربة وينظر من نافذة العربة وفيا/مثل/كلب إلى سيده: «حاضر حاضر يا بلوتو. فترة وجيزة فقط. أكوام الطوب هذه تشير مثلا إلى أننا نقترب من مولهايم. لن يقف القطار في كالك. ولكن عند دويتس نرى الناب المزدوج، قرني الشيطان القوطيين: الكاتدرائية وحيث تقع الكاتدرائية، يوجد أيضا مقابلها الدنيوي غير بعيد عنها: المحطة الرئيسية. كلاهما مقترنان ببعضهما مثل سكيلا وخاريبديس، العرش والمحراب، الوجود والزمان، الكلب وصاحبه.»

أهذا هو الراين! نشأ ماتيرن على ضفاف الفايكسل. أي فايكسل أوسع بكثير في الذاكرة من أي راين. ولمجرد أن آل ماتيرن تعودوا العيش دائما على ضفاف الأنهار - حيث يهب الانسياب الدائم للمياه شعورا بالحياة - يقوم ماتيرن بحملة صليبية على كولونيا. وهناك سبب آخر أيضا وهو أنه كان هنا من قبل، وقد عاد أسلافه الأخوين زيمون وغريغور ماتيرنا وابن عمهم الحلاق ماتيرنا دائما إلى الأماكن التي تركوها، أغلب الأحيان لينتقموا بالنار والسيف: هكذا اشتعلت الحرائق في حارة دريهر وحارة البقدونس واشتعلت حديقة لانغ وكنيسة باربارا مع هبوب ريح الشرق. إذن هناك من يستطيع تجريب قداحته في هذا المكان. لكن لم يعد بها وقود كاف. بالإضافة إلى أن ثأر ماتيرن ليس مدربا على الحرائق: «أنا قادم لأحاكم بصحبة الكلب الأسود وقائمة من الأسماء محفورة على القلب والطحال والكلى، **ولا بد من شطب هذه الأسماء!**»

آه يا محطة كولونيا الرئيسية الكاثوليكية المقدسة المنزوعة الزجاج بتيار هوائك البغيض! أقوام بحقائب سفر وحقائب ظهر يأتون إليكِ ويرونك ويشمون رائحتك، ثم يتجهون بعد ذلك إلى كل أنحاء العالم ولا يستطيعون نسيانك، لا أنت ولا ذاك المسخ الحجري المزدوج على الجهة المقابلة. من يريد أن يفهم البشر، لا بد له أن يركع وسط صالات انتظارِك، لأن الجميع هنا أتقياء ويقدمون اعترافاتهم بعضهم لبعض مع البيرة الخفيفة. وكل ما يقومون به سواء ناموا بحلوق مفتوحة أو احتضنوا متاعهم البائس أو ذكروا أسعارا أرضية لأحجار قداحات أو سجائر سماوية، ما يسقطونه من كلامهم وما يكتمونه أو يضيفونه أو

يكرورنه، كل ذلك يعد جزءا من طقس الاعتراف الكبير. أمام شبابيك التذاكر في القاعة التي تتطاير فيها الأوراق - معطفان يعدان مؤامرة، ثلاثة معاطف ملفوفة عبارة عن تظاهر! وأيضا بأسفل في المراحيض القيشاني التي تسيل فيها البيرة مرة أخرى دافئة. يفك رجال أزرار سراويلهم ويقفون ساكنين، يكادون يغرقون في التأمل أمام تلك الخلجان ذات الميناء الأبيض، يتهامسون مع ذكورهم التي تجهزت لعملها مبكرا، نادرا ما يخرج البول في خط مستقيم ولكن بزاوية محسوبة. يتواجد البول. فحول متبولة تقف دهورا بظهور مستقيمة على ساقين داخل بنطلون، ويسترونه باليد اليمنى، معظمهم متزوجون ويضعون اليد اليسرى على الخصر، ينظرون أمامهم بأعين حزينة ويحاولون قراءة المنقوشات والإهداءات والاعترافات والصلوات والصرخات والعبارات المقفاة والأسماء المنقوشة بأقلام زرقاء أو محفورة بمقص تقليم الأظافر أو بشوكة أو بمسمار.

وكذلك ماتيرن. لكنه لا يستند بيسراه على الخصر بل يمسك وراء ظهره رباطا جلديا، اشتراه في إسن مقابل علبتين «كاميل» وأصبح هو الرباط الذي بينه وبين بلوتو في كولونيا. يقف كل الرجال دهورا لكن دهر ماتيرن يدوم أطول، حتى عندما يكف ماؤه عن ملامسة الميناء الأبيض للمبولة. يغلق ماتيرن أزرار بنطلونه زرا زرا ويتخذ بينهما راحات بطول صلوات أبانا/ الذي/ في/ السماء حتى يصل إلى الفتحة المناسبة. لا يعود ظهره مستقيما بل محنيا للقراءة. هكذا يلصق قصيرو النظر أعينهم بالكتابة المطبوعة والمكتوبة. التعطش للمعرفة. أجواء قاعات القراءة. عالم النقوش. لا تزعج القارئ! المعرفة سلطة. ملاك يمرق عبر مرحاض الرجال الكاثوليكي المقدس المبلط الدافئ ذي الرائحة الحلوة النفاذة بالمحطة الرئيسية بكولونيا.

وهناك كان مكتوبا: «أيتها العين الخشبية فلتكوني يقظة.» في كل الأوقات لا بد من تذكر «دوبشه دوبشه ترالا لا لا، العرقي جيد للكوليرا.» ثم يحفر مسمار لوثري: «وحتى ولو كان العالم مليئا بالشياطين...» وبصعوبة يمكن قراءة: «قومي يا ألمانيا!» وبحروف كبيرة تخلدت الكلمات التالية: «كل النساء خنزيرات» وكتب شاعر: «في الحر في البرد - سنبقى نحن أهل النرد.» وكتب أحدهم كلمات مقتضبة: «الفوهرر ما زال حيا» وأضاف آخر يعرف أكثر: «نعم في الأرجنتين.» وتتكرر نداءات قصيرة مثل «لا! ليس معي! ارفع رأسك يا أخي!»

وكذلك تلك الرسومات التي لا تنتهي والتي صورت السمسم المقشور المشعر وكذلك رسومات لنساء راقدات بنظرة تشبه نظرة المسيح الراقد كما في لوحة مانتينيا[٣]، أي أن نظرتهن موجهة إلى أخمص أقدامهن. وفي النهاية يقرأ ماتيرن ما بين صيحة الفرح: «في صحة العام الجديد ستة وأربعين» والتحذير المتقادم: «احترس، العدو يتنصت!» - وقد أغلق الأزرار السفلى لبنطلونه وما زالت الأزرار العليا مفتوحة - اسما وعنوانا بدون تعليق مقفى أو منثور: «يوخن زافاتسكي-فليشتيدن- شارع بيرغهايمر رقم ٣٢.»

وفي الحال يتوجه ماتيرن بقلبه وطحاله وكليته إلى فليشتيدن وفي جيبه مسمار، يريد أن يكتب به. يحفر المسمار فوق الإهداءات والاعترافات والصلوات ورسومات السمسم المقشور المشعرة الغريبة ونساء مانتينيا الراقدات بشكل واضح عبارة ذات سجع طفولي: «لا تلتفتوا وراءكم، فالصرار وراءكم.»

إنها قرية على الاوتوستراد تقع ما بين كولونيا وإرفت. هناك يتوقف الباص المنطلق من مكتب البريد العمومي مارا بمونغرسدورف ولوفنيش وبراوفايلر متجها إلى غريفنبرويش، قبل أن ينعطف خلف بوسدورف متجها إلى شتوملن. يصل ماتيرن إلى العنوان دون أن يسأل. يفتح له زافاتسكي مرتديا حذاء من المطاط: «فالتر! غير معقول! ما زلت على قيد الحياة، هذه مفاجأة، إدخل أم أنك لا ترغب في زيارتنا؟»

بالداخل رائحة بنجر مطبوخ. من القبو تأتي دمية ترتدي على رأسها إيشاربا، ورائحتها ليست أفضل. «إننا نصنع شراب البنجر ثم نبيعه. صحيح شغل كتير، لكنه يجلب عائدا. هذه زوجتي واسمها إنغه وهي من المنطقة هنا من فريشن. اسمعي يا إنغه هذا صديقي، كنا معا في فرقة الهجوم نفسها. يا ربنا! لقد خوزقونا: وسع لي وسع! فاكر لما كنا في كلاينهامربارك، وانطفأ النور وخرجت المطاوي! ودخلنا في العاركة. أما زلت تذكر غوستاف داو ولوتار بودشينسكي؟ فرانتشن فولشليغر والأخوين دولك؟ وفيلي ايغرز وأوتو فرانكه وهوبه العفريت وبوبليتس الصغير؟ كلهم أجلاف لكن وفاءهم من ذهب، مشكلتهم أنهم كانوا

(٣) أندريه مانتينيا رسام إيطالي (١٤٣١- ١٥٠٤) له رسوم جدارية بمدن بادوا وفيرونا ومانتوا. (مترجم)

دائما سكرانين ولم يكن ذلك بالشيء الهين. والآن أنت معنا. هذا الكلب نحيف، ممكن تحبسه في الغرفة الأخرى؟ ليست هناك مشكلة، يبقى هنا. إحك لي إذن، أين رحت من ساعتها؟ بعدما مشيت أنت من الفرقة، كان على الفرقة السلام. بعد ذلك قلنا جميعا: كنا أغبياء لأننا طردناك من الفرقة من غير سبب. شيء لا قيمة له. لكنهم أرادوا أن يعرفوا، خاصة الأخوين دولك وكمان فولشليغر. محكمة شرف! رجل فرق الهجوم لا يسرق! سرقة الزملاء! أنا بكيت بحق - تصدقي يا إنغه - وكأني أنا الذي كان عليه أن يغادر الفرقة. لكنك الآن معنا. استرح لك شوية أو تعال معنا تحت لغرفة الغسيل، نحن نطبخ البنجر. ممكن تقعد على كرسي البحر وتتفرج، آه منك يا عربيد! أنا دائما أقول لإنغه عمر الشقي بقي، أليس كذلك يا إنغه؟ أنا مبسوط جدا.»

يغلي البنجر في غرفة الغسيل المريحة مسكرا ومانحا شرابه المركز. استرخى ماتيرن على كرسي البحر وبين أسنانه شيء لا يستطيع الخروج، لأن الاثنين فرحان ويعملان بأربع أيدي على طهي الشراب المركز. هي تقلب في القدر بعصا طويلة: بقوة، بقوة ورغم ذلك بيد واحدة. وهو يعتني بأن تكون الحرارة متساوية من كل الجوانب: لديهما أكوام مصفوفة من قوالب الفحم، الذهب الأسود. هي راينية أصيلة: دمية بعينين واسعتين وتحملق دائما. هو لم يتغير، فقط صار أعرض قليلا. هي تحملق ولا يصدر عنها ولا همسة واحدة. وهو يثرثر عن الأيام الخوالي: «فاكر، فاكر لما فرق الهجوم تحركت... ولا وسع لي وسع؟» ليس عليها إلا أن تنظر لأن المسألة بيني وبينه وليس بيني وبين الزوجة إنغه. فليطهيا البنجر. لديهما مشاغل. الذهاب إلى الحقل ليلا وسرقة البنجر وتقشيره وتقطيعه إلى قطع صغيرة إلخ... لكنكما لن تتخلصا من ماتيرن بهذه السرعة لأن ماتيرن قد أتى ليحاكم بكلب أسود وقائمة أسماء محفورة في القلب والطحال والكلى، ومن بين هذه الأسماء، كان هناك اسم مكتوب في محطة كولونيا الرئيسية، في المكان الدافئ بالبول ذي الأرضية المبلطة والمبولات ذات الميناء الأبيض: قاد يوخن زافاتسكي مجموعة الهجوم رقم ٨٤ شمال لانغفور المحبوبة وذات السمعة السيئة في الخير والشر. خطبه المقتضبة والمشجعة في ذات الوقت. جاذبيته الشابة، حينما كان يتحدث عن الفوهرر ومستقبل ألمانيا. أغانيه ومشروباته الكحولية المفضلة: «أرغونرفالد» في منتصف الليل ودائما عرقي

العرعر بنقطة وبدون نقطة. ومع ذلك فهو شاب عملي. ثابت وشريف. لقد أحبطته الخلية الشيوعية ولذلك كان مؤمنا إيمانا لا يتزحزح بالفكرة الجديدة. نشاطاته ضد الاشتراكيين بريل وفيشمان والمشاجرات في المقهى البولندي فويكا، وعملية الرجال الثمانية في طريق شيفن بالجبل. . .

يقول ماتيرن من مكانه على كرسي البحر عبر الكلب الراقد بالعرض وبخار البنجر«قل لي، ماذا حدث لأمزل؟ أنت تعرفه، هذا الشخص الذي كان يصنع التماثيل الغريبة والذي ضربتموه في طريق شتيفن، حيث كان يسكن.»

لم يعن ذلك شيئا للكلب ولكن بخار البنجر قد توقف لبرهة. يقول زافاتسكي مندهشا وممسكا بماشة النار: «يا رجل، لا تسألني أنا، لقد كانت فكرتك، أن نقوم بزيارة قصيرة له، أنا عمري ما فهمت هذه الحكاية، خاصة أنكم كنتم أصحاب ولا لا؟»

أجاب كرسي البحر بلا دخان «كان فيه أسباب معينة، أسباب شخصية، لا أريد أن أتحدث عنها، ولكن ما أريد أن أعرفه، ماذا فعلتم به بعد ذلك، أقصد بعدما ذهبتم أنتم الثمانية إلى طريق شتيفن بالجبل. . .»

تنظر الزوجة إنغه وتقلب. زافاتسكي لا ينسى وضع قوالب الفحم: «نحن؟ ما هذا الذي تقوله، إحنا لم نكن ثمانية، كنا تسعة، بك أنت كنا تسعة، أنت بنفسك قضيت عليه حتى لم يعد ينطق. كان هناك حاجات أسوأ من ذلك. للأسف لم نلحق دكتور سيترون. كان راح السويد. ماذا يعني للأسف؟ حسن أن هذه الأيام راحت، أيام الخلاص النهائي والنصر النهائي. اسكت وكفاية كلام في هذا الموضوع. نام على الموضوع وكفى عتابا. وإلا سأغضب، أنا وأنت يا صديقي العزيز في الهوا سوا وليس هناك من هو أنظف من أخيه، أليس كذلك؟»

يضج كرسي البحر وينظر الكلب بلوتو وفيا/ مثل/ كلب. تغلي شرائح البنجر غير مبالية: لا تطه البنجر وإلا ستكون لك رائحة البنجر. فات الأوان. الآن لهم جميعا الرائحة نفسها. الوقّاد زافاتسكي وزوجته إنغه وماتيرن العاطل، حتى الكلب لا تفوح منه رائحة الكلاب وحدها. يقرقر قدر الغسيل: شراب شراب لساعات طوال - تموت الذبابات بمرض السكر. تقلب الزوجة إنغه عصاها ضد مقاومة السائل: لا يجوز لأحد أن يقلب مواجع الماضي أثناء تقليب شراب البنجر

المركز. يضع زافاتسكي قوالب الفحم الأخيرة: يحتاج البنجر إلى العناية- لدى الرب سكر في بوله!

انتهت عملية الطهي. يحدد زافاتسكي ذلك ويعد زجاجات ضخمة سعتها لترين في صفين. يريد ماتيرن مساعدته ولكنه لا يسمح له: «لا يا عزيزي، بعد ذلك عندما نملأ الزجاجات، نطلع فوق ونشرب في صحتك. بعد هذه الغيبة الطويلة لازم طبعا نشرب حاجة، أليس كذلك يا إنغه؟»

يشربان عرق البطاطس. وتشرب إنغه الصغيرة ليكير البيض. يعد بيت عائلة زافاتسكي جيد التأثيث مقارنة بأحوالهم المادية. لوحة زيتية كبيرة «ماعز»، ساعتان قائمتان وثلاثة مقاعد وثيرة وسجادة أصلية تحت الأقدام، راديو بصوت خافت وخزانة كتب من البلوط الثقيل مؤطرة بالزجاج بها موسوعة مكونة من ٣٢ جزءا: (أ) مثل «اهدأ»، لا بد لمرجل البخار ماتيرن أن يفرغ بخاره. (ب) مثل «باخوس»، فليطيب لنا المرح والمجون. (ج) مثل «جميل»، فلنفتح زجاجة أخرى. (د) مثل «دانتسيغ» في الشرق كانت الحياة أجمل ولكنها في الغرب أفضل. (هـ) مثل «هواء وماء كولونيا»، صدقني الروسي ممكن يشرب مياه الكولونيا وكأنها مياه صافية. (و) مثل «وغد»، ضغطت على الزناد وأخذت أضرب أضرب حتى قتلته. (ز) مثل «زانتيبه»، زوجة سقراط، تستطيع معها أن تخوض كل الأهوال. (ح) مثل «حاخام»، كنت كتبت على ورقة إني كان مفروض أؤدبه مضبوط، كان اسمه دكتور فايس وكان ساكن في شارع ماتنبودن رقم خمسة وعشرين. ط مثل «طحال» ما تفتحش المواجع مرة تانية. (ي) مثل «يا إنغه، ارقصي لنا شوية شرقي». (ك) مثل «كأس»، في صحتك. (ل) مثل سجائر «لاكي سترايك»، اشترينا طقم الأطباق والفناجين باثنتي عشرة علبة «لاكي سترايك». (م) مثل من نهر «ماس»، حتى ميمل[٤]. (ن) مثل «نم معنا»، فليس للغيرة وجود بيننا. (س) مثل «ساعة الضرب»، فاكر مشاجرات الصالات، شاركت في ١٥مشاجرة منها عشر مشاجرات للخلية الشيوعية وحوالي عشرين للنازيين، لكن الآن أقدر أفتكر الأماكن فقط: حلبة سباق_أورا، مقهى ديرا،

(٤) ماس نهر يمر بفرنسا وبلجيكا وميمل مدينة ليتوانية وقد ورد في النشيد الوطني الألماني أيام النازية للتعبير عن مدى اتساع الرايخ الألماني

بورغرفيزن وكلاينهامربارك. (ع) مثل «عرص»، صدقني ثلاثة في السرير أحسن من أربعة. (ف) مثل «فالتر»، اقعدي يا إنغه على حجره، هل ستظلين تحملقين له هكذا! (ص) مثل «صاحب»، صاحبنا ممثل، مثل لنا شيئا من «الخديعة والحب»(٥). (ق) مثل «قرقرة»، كفي عن الضحك يا إنغه، إنه يمثل فرانتس مور. (ر) مثل «رجل»، أبي مات غرقانا وسط غوستلوف وأبوك؟. (ث) مثل «ثلاثة»، ثلاثتنا نذهب للنوم. (ش) مثل «شيوعي»، فين أيام الخلية. (ت) مثل «تعال ننام»، أنا على اليسار وأنت على اليمين وإنغه في النص والكلب يبقى في المطبخ. سنعطيه شيئا يأكله. ولو تريد تغتسل يا فالتر، الصابون موجود.»

بعد شربهم عرق البطاطس وليكير البيض في فناجين القهوة، بعدما رقصت إنغه منفردة ومثل ماتيرن منفردا وبعد أن حكى زافاتسكي لنفسه ولهما قصصا من الأيام الماضية والحاضرة، وبعد أن جهزوا مكانا لنوم الكلب بالمطبخ واغتسلوا، يرقد ثلاثة من البشر في سرير الزوجية الواسع المتموج الذي تسميه عائلة زافاتسكي قلعة الزوجية والذي اشترته العائلة بسبع زجاجات من شراب البنجر المركز سعة اللترين. **لا تناموا أبدا ثلاثة، وإلا صحوتم ثلاثة.**

يفضل ماتيرن أن يرقد ناحية اليسار. يرضى زافاتسكي بوصفه مضيفا بالناحية اليمنى. وإنغه في الوسط. ياه يعود الدفء لتلك الصداقة القديمة، التي بردت بعد اثنتين وثلاثين مشاجرة، في قلعة الزوجية المتأرجحة. يتحسس ماتيرن، الذي أتى ليحاكم بصحبة الكلب الأسود، ثقب إنغه بإصبع رقيقة. وهناك تتلاقى إصبعه مع إصبع الزوج الطيب، كلاهما ساذجان طيبان، تماما كما في الماضي بالبورغرفيزن أو في حلبة سباق أورا أو على بار كلاينهامربارك، يتضامنان معا ويحسان بالراحة. يتناوبان الأدوار. ويعجبها ذلك جدا، اختيارات كثيرة وتغيير. وينشط الصديقان على إثر ذلك، بعد أن جعلهما عرق البطاطس ناعسين. يقام سباق للعدو. رأسا برأس. يا ليلة الباب المفتوح التي ترقد فيها إنغه على جنبها كي تتيح للصديق أن يدخلها من الأمام ولرجلها أن يدخلها بعده بأدب من الخلف. فرغم أنه رقيق وغض غضاضة فتاة راينية، يتيح ثقب إنغه سكنا رحبا ومريحا. لو لم يكن الاضطراب. آه أيتها الصداقة المشتبكة. يشبه

---

(٥) مسرحية لشيلر. (مترجم)

الجميع بعضهم بعضا. النوايا واللازمات المتكررة ودوافع القتل، مسارات التعليم المختلفة والرغبة في تناغم معقد: أعضاء كثيرة! من يقبِّل من؟ هل فعلت أنت - هل فعلت أنا؟ من ذا الذي يستطيع الآن أن يتحدث عن الملكية؟ من يقرص نفسه ويجعل خصمه يصرخ؟ من يريد هنا أن يحاكم بأسماء محفورة على القلب والطحال والكلى؟ فلنكن عادلين! كلنا يريد أن يزحف ناحية الشمس وكلنا يريد أن يرقد ناحية الزبد. كل سرير بثلاثة أشخاص يحتاج إلى حكم. ياه الحياة غنية جدا: أبدعت السماء تسعة وستين وضعا. ومنحنا الجحيم أوضاع العقدة والحلقة والمتوازي والأرجوحة والسندان ورقصة الروندو المحمومة والميزان والقفزة الثلاثية والركوب. تلتهب الأسماء عند ثقب إنغه: ركبتك يا إنغه - مصي يا إنغه - اصرخي يا إنغه - تلقميه يا إنغه، نعم يا إنغه، عضي يا إنغه انفخي يا إنغه - تعبت إنغه - إنغه أغلقت ثقبها - إنغه ترتاح. اصحي يا إنغه، افتحي يا إنغه، عندنا ضيف يا إنغه أحضر معه كبد سمك القد يا إنغه، صديقان يا إنغه أين ساقك أين ذراعي يا إنغه، أين ذراعه أين ساقك يا إنغه - ثلاثي إنغه - ثالوث إنغه - من فضلك لا تنامي يا إنغه، استديري من فضلك يا إنغه - كانت ليلة جميلة يا إنغه، الوقت متأخر يا إنغه، إنغه عملت اليوم كثيرا - شراب البنجر يا إنغه- إنغه ميتة من التعب - تصبحين على خير يا إنغه - يرانا الرب الحبيب يا إنغه!

الآن يرقدون في الغرفة السوداء التي كانت من قبل مربعة ويتنفسون بغير انتظام. لم يخسر أحد شيئا. كسب الجميع: ثلاثة منتصرين في سرير واحد. تحتضن إنغه الوسادة. ينام الرجلان بفم مفتوح: ينشران أشجارا. ينشران غابة الياشكنتال الجميلة بأكملها، ويسقطان أشجار الزان من حول تمثال غوتنبرغ شجرة وراء شجرة. وهكذا يصير جبل الإربس عاريا ويستطيع المرء رؤية طريق شتيفن: فيلا بجوار فيلا. وفي واحدة من هذه الفيلات يسكن إيدي أمزل في حجرات مبطنة بالبلوط ويبني فزاعات بالحجم الطبيعي: إحداها تصور أحد رجال فرق الهجوم وهو نائم والأخرى تصور قائد مجموعة فرق الهجوم والثالثة تصور فتاة مدهونة بشراب البنجر المركز من رأسها لأخمص قدمها وذلك يجلب النمل. وبينما يصر رجل فرق الهجوم البسيط بأسنانه أثناء نومه يصدر قائد الفرقة شخيرا عاديا. لا يصدر عن فتاة شراب البنجر أي همس، لكن كل أعضائها

ترتعد بسبب النمل المنتشر على جسدها. وأثناء سقوط أشجار الزان بالخارج شجرة وراء شجرة - رغم أنها كانت ستكون سنة غنية بثمار الزان - يبني إيدي أمزل فزاعته الرابعة بالحجم الطبيعي: عبارة عن كلب متحرك أسود له ١٢ ساقا. ولكي يستطيع الكلب النباح، يركب له إيدي أمزل آلة للنباح. والآن ينبح الكلب ويوقظ الرجل ذا الشخير والصرار وفتاة شراب البنجر.

إنه بلوتو في المطبخ. يريد أن يسمعه الآخرون. كل يمضغ لنفسه. كل واحد كل واحدة كل شيء. كل شراب مركز شديد الحلاوة. كل سحابة أمطرت ذات مرة. كل غرفة مربعة. كل جبهة تعارض. لكل طفل أبوان. كل رأس في ناحية مختلفة. كل ساحرة شريرة تحترق بصورة أفضل. طوال ثلاثة أسابيع، إفطار وراء إفطار: كل يمضغ لنفسه. تنشأ عن ذلك مسرحية من ثلاثة أشخاص. تتفتق نوايا خبيئة أو شبه مكشوفة لتقسيم الهزلية إلى مسرحية لشخص واحد: يصنع يوخن زافاتسكي مونولوجا أثناء طهي البنجر، ويتهامس شخصان: فالترشن وإنغه يبيعان الكلب ويصيران غنيين وسعيدين. لكن ماتيرن لا يريد بيع الكلب ولا يريد أن يتهامس معها. إنه يفضل البقاء وحيدا مع كلبه. لا للروابط الاجتماعية.

في هذه الأثناء ساد شتاء ما بعد الحرب القارص خارج حجرتي النوم والمعيشة المربعتين، أي ما بين فليشتيدن وبوسدورف وأيضا ما بين إنغندورف وغلسن وكذلك مابين رومرسكيرشن وكفادرات إيشندورف. لقد تساقط الثلج لأسباب تتعلق بالتطهير من النازية: كل شخص يضع أشياء وحقائق بالخارج وسط الطبيعة الشتوية القارصة ليهطل عليها الثلج ويغمرها.

صنع ماتيرن وزافاتسكي بيتا صغيرا للطيور، لتلك المخلوقات المسكينة، التي لا حول لها. يريدان وضعه في الحديقة ومراقبته من نافذة المطبخ. يتذكر زافاتسكي: «عمري ما شفت ثلج كثير بهذا الشكل غير مرة واحدة، في سنة سبع وثلاثين لما زرنا السمين في طريق شتيفن. ساعتها كان الثلج يهطل طوال الوقت طوال الوقت.»

بعد ذلك في غرفة الغسيل: تُسد الزجاجات سعة اللترين بسدادات من الفلين. في هذه الأثناء يعد المحبان القابعان بالمنزل كل العصافير بالخارج. لهذا السبب لا بد أن يخرج حبهما بعض الوقت للتمشية. يمشيان بصحبة الكلب في

المثلث الشهير: فليشتيدن-بوسدورف-شتوملن، لكنهما لا يريان أيا من هذه المناطق حيث كان الجو عاصفا وغائما ببخار الجليد. لكن أعمدة التلغراف الممتدة بطول طريق بودسورف-شتوملن، والآتية من برغهايم متجهة إلى فورينغن على نهر الراين، تُذكِّر فالترشن وإنغه الصغيرة بأن أيام هذا الشتاء معدودة وأن هذا الثلج فان وتحته نما من قبل البنجر الذي يشكل شرابه المفضل مصدر رزق لأربعتهم، حيث إن الكلب محسوب أيضا. قال ماتيرن إن العناية بالكلب واجبة، في حين أنها رأت ضرورة بيعه، فهي تكره الكلب ولا تحب أحدا سوى ماتيرن ماتيرن ماتيرن: «لو لم يكن الجو باردا لمارسنا الحب هنا في الخلاء وقوفا أو رقودا، تحت السماء، وسط الطبيعة، لكن الكلب يجب أن يرحل، أتسمع؟ إنه يربكني!»

يظل بلوتو أسود. ويبدو منظره جميلا بالثلج الذي يكسيه. تريد إنغه الصغيرة أن تبكي لكن الجو بارد. يحاول ماتيرن أن يطيب بخاطرها ويتحدث أثناء السير وسط أعمدة التلغراف التي غطاها الثلج من جانب واحد عن الوداع الذي سيأتي عاجلا أو آجلا. ويعقب ذلك بأبيات لشاعره المفضل: يتحدث المغادر عن الخلود الذاتي وآخر الوردة. لكنه لا يغرق في السببية الجينية بل يغادرها في الوقت المناسب إلى الاونطية. وتحب إنغه الصغيرة ذلك، تحب أن تراه وهو يزعق ويصر بأسنانه ويهسهس بكلمات غريبة، مبتلعا ندف الجليد: «أنا متواجد لأجلي! العالم لا يتواجد بل يتعولم. الحرية هي حرية الأنا. أنا الكائن. الأنا المخططة كمخطط في وسط. أنا، موجود ومتشكل. أنا مخطط العالم! أنا أس الأسس. أنا الإمكانية- الأرض- تحديد الهوية! أنا الأساس، المؤسس في الهاوية!»

ولا تفهم إنغه الصغيرة معنى هذه الكلمات القاتمة إلا قبل أعياد الميلاد بقليل. وبرغم أنها قد جمعت لمائدة الهدايا أشياء كثيرة ومفيدة، فقد ذهب ماتيرن. لقد ابتعد- «خذني معك!»- لكنه يريد أن يحتفل بأعياد الميلاد مع أنا أنا أنا وحدها والكلب- «خذني معك!» لذلك تبعته تلك الولولة حتى قبل شتوملن بمسافة قصيرة: «معك معك!». لكن صوتها يتسلل نحيفا كجسدها في أذن الرجل المشعرة. لكل قطار أن ينطلق لكل قطار أن يطلق بخاره ولإنغه أن تبقى.

يغادر من أتى ليحاكم بكلب أسود وأسماء محفورة على القلب والطحال والكلى حياة البنجر ويسافر بالقطار إلى كولونيا على الراين، بعد أن شطب اسم

يوخن زافاتسكي وزوجته. في محطة القطار الرئيسية المقدسة يقف الكلب وصاحبه على ست أقدام في المركز مواجهين للكاتدرائية التي تشبه إصبعين متوعدين بالثأر.

الماتيرنياده الثالثة حتى الماتيرنياده الرابعة والثمانين

وقال ماتيرن لنفسه: نحن، أنا وبلوتو سنحتفل بأعياد الميلاد وحدنا مع السجق والبيرة في صالة انتظار محطة كولونيا الكاثوليكية المقدسة الكبيرة الهادئة بتياراتها الهوائية الشديدة. وسنفكر وحيدين بين البشر في إنغه الصغيرة وثقبها وسنفكر في أنفسنا وفي المهمة السعيدة: على المبولة السادسة ذات الميناء الأبيض داخل مرحاض الرجال المبلط بمحطة كولونيا، كان هناك خبر محفور. يقرأ ماتيرن الرسالة الهامة وسط الصرخات والأمثال التافهة المعتادة، بعد أن أغلق أزرار سرواله: الرائد هوفناغل، ألتينا، طريق لين رقم ٤.

وبناء على ذلك لا يحتفلان بليلة العيد بمحطة كولونيا الرئيسية بل يسافران إلى زاورلاند بقطار العائلات. منطقة مرتفعة وسط الغابات تناسب جو أعياد الميلاد ويسودها جو ممطر في باقي أوقات السنة: مناخ حامض، يسبب أمراضا خاصة بمنطقة زاورلاند: يغرق أهالي منطقة فالد-ويستفاليا التي تعاني من فقر العلاقات الاجتماعية في حالات الاكتئاب، يعملون ويشربون كثيرا، بسرعة وبثمن بخس.

ولكي لا يجلسان مرة أخرى لوقت طويل، ينزل الكلب وصاحبه في محطة هوهنليمبورغ ويتسلقان في أول ليلة العيد جبلا. كان الصعود مضنيا لأن الثلج كثير وبلا مقابل. يردد ماتيرن ومعه كلبه عبر الغابة التي توحي بجو اللصوصية والقرصنة الحقيقي عبارات من مسرحية «اللصوص» لشيلر: يتناوب كارل وفرانتس مور مناداة القدر وأماليا والآلهة: «شكوى أخرى ضد الآلهة!- أكمل.» خطوة خطوة يصر الجليد وتصر النجوم ويصر فرانتس مور وتصر الطبيعة: «هل اسمع فحيحكن يا حيات الهاوية؟»- لكن من وسط وادي لين البراق تدق أجراس كنائس ألتينا التي لم يذب الثلج من فوقها، معلنة عن أعياد ميلاد السنة الثانية بعد الحرب.

تقود طريق لين من بيت مِلك إلى بيت ملك آخر. وقد حول كل بيت ملك شجرته المضيئة إلى شعلة صغيرة. كل ملاك لديه لثغة. وكل باب قابل للفتح. يفتح الرائد هوفناغل بنفسه مرتديا حذاء منزليا.

هذه المرة لا يشم ماتيرن رائحة البنجر بل يشم في الحال رائحة كعك أعياد الميلاد. كان الحذاء المنزلي جديدا. قامت عائلة هوفناغل بتبادل الهدايا. يدعى الكلب وصاحبه إلى وطأ سجادة البيت على ست أقدام.

يمكن بسهولة التعرف على الهدايا: سعدت دوروتيا هوفناغل بغلاية كهربية. والصبي هانس أولريش ذو السنوات الثلاث عشرة كان يطالع كتاب لوكنر «شيطان البحر» وتجرب الابنة الجميلة إلكه خط قلم حبر ماركة «بيليكان» على ورق هدايا عيد الميلاد، الذي أعادت الأم فرده لاستخدامه في عيد الميلاد القادم. كتبت بخط واضح: إلكه إلكه إلكه.

يتأمل ماتيرن ما حوله دون أن يحرك جذعه. الجو العائلي المعتاد. ها نحن هنا. لا داعي للتعب. سنبقى وقتا قصيرا. أي زيارة تسبب إزعاجا، ولا سيما حينما يأتي الزائر ليلة العيد ليحاكم: «ما رأيك أيها الرائد هوفناغل في تنشيط قصير للذاكرة؟ إنك تبدو تائها، سأحاول أن أساعدك: كتيبة الدفاع الجوي الثانية والعشرون، بطارية كايزرهافن. منطقة رائعة: أكوام من الحطب، جرذان الماء، مساعدو سلاح الطيران والمتطوعون، صيد الغربان، جبل العظام على الجهة المقابلة، كانت رائحته الكريهة تفوح مع كل ريح، قمت ببدء عملية أقراص الملبس اللاذعة، كنت ذراعك اليمنى: ماتيرن. هتفت ذات مرة ببطاريتك الرائعة بشيء عن الرايخ، الشعب، الفوهرر، جبل العظام. ولم تعجبك قصيدتي للأسف. لكنك كتبتها رغم ذلك بقلم حبر جديد. كان أيضا ماركة «بيليكان» مثل الذي في يد الآنسة ابنتك. وبعد ذلك قمت بعمل بلاغ: محكمة الحرب، تجريد من الرتبة، فرقة عقابية، كسح الألغام، الفرقة الانتحارية. وكل ذلك بسبب ما كتبته أنت بحبر ماركة «بيليكان»...»

لكن ماتيرن لا يحطم قلم الحرب المتهم بل يخطف قلم ما بعد الحرب من بين أصابع إلكه الدافئة ويحطمه، ويوسخ أصابعه بالحبر: يا للقذارة!

وفي الحال يتفهم الرائد هوفناغل الموقف. لكن زوجته لا تفهم شيئا وتقوم بما يجب عمله: فظنا منها أنها تأوي عاملا متشردا من الشرق في غرفة العيد التي يسهل تحطيم أشيائها، قدمت لهذا الدخيل بيدين شجاعتين مرتعشتين الغلاية الكهربية الجديدة ليحطمها حتى تبرد أعصابه. لكن ماتيرن الذي أعطت عنه إصبعه المحبرة فكرة خاطئة، لم يقبل بأي شيء يقدم إليه، ربما راقت له شجرة

العيد أو الكراسي أو أطقم الكراسي: لكن لكل استراحة أوان تنتهي فيه!

لحسن الحظ أن للرائد هوفناغل، الذي يعمل في الإدارة المدنية لقوات الاحتلال الكندية والذي يستطيع لذلك أن يشارك أسرته عيد ميلاد هادئ- والذي استطاع حتى أن يحصل على زبدة الفول السوداني -، رأي متحضر آخر: «من ناحية- من ناحية أخرى. عامة لكل شيء جانبان. اجلس يا ماتيرن، أو ابق واقفا إن أردت! من ناحية فلك طبعا كل. . .، لكن من ناحية أخرى- حتى ولو أنه وقع عليك ظلم كبير فقد كنت أنا الذي أنقذك من. . .ألا تعرف أن في حالتك كان الحكم هو الإعدام ولو لم تدفع شهادتي محكمة الحرب إلى سحب أوراق القضية من المحكمة الخاصة لـ. . . لا بأس أنت لا تريد أن تصدقني، لقد مرت بك أهوال كثيرة. لا أطلب منك ذلك أيضا - لكن مع ذلك - وأنا أقول لك هذا في ليلة العيد وأنا في كامل وعيي - بدوني أنا لم تكن أنت لتقف أمامي هنا وتمثل دور بيكمان[٦] الجامح المنفعل. على فكرة مسرحية ممتازة. رأيتها أنا والعائلة في هاغن بمسرح غرفة صغير بائس. مسرحية تنكأ الجراح. ألم تكن مهنتك هي التمثيل؟ إذن فهذا دور يمكنك أن تلعبه. بورشرت هذا يعرف كيف يضع يده على الوجع. أليس لدينا جميعا هذا الشعور نفسه وأنا أحس بذلك أيضا؟ ألم نقف جميعا بالخارج وصرنا غرباء عن أنفسنا وعن ذوينا. لقد عدت قبل أربعة شهور. كنت في معسكر الأسر الفرنسي. اسمعها مني! لقد كنت في بادكرويتسناخ لو كنت تسمع بهذا الاسم. ولكنه على كل حال أفضل من. . .لقد كان من الممكن أن يطيحوا بنا لو لم نخل قطاع الفايكسل في الوقت المناسب. على العموم لقد وقفت بعد ذلك خالي الوفاض، وقفت أمام اللاشيء ذهبت شركتي والبيت احتله الكنديون ونقلت زوجتي والأولاد إلى ايشباي في منطقة ايبه الجبلية، بدون فحم، لم أجد سوى مشاكل مع السلطات، باختصار موقف بيكمان نفسه، كما في الكتاب: في الخارج أمام الباب! لذلك يا عزيزي ماتيرن - تفضل بالجلوس - فإن بي مثل ما بك وربما ضعف أو ثلاثة أضعاف ما بك. على كل حال لقد كان عهدي بك في كتيبة الدفاع الجوي الثانية والعشرين إنك إنسان جاد يتقصى أسباب الأمور ويأخذ بالنواصي. أعتقد وآمل أنك لم تتغير!

---

(٦) بطل مسرحية فولغانغ بورشرت الوحيدة «في الخارج أمام الباب».

فلنكن من أتباع المسيح ونعطي لليلة العيد ما لها من كرامة. عزيزي السيد ماتيرن إنني أتمنى لك من خالص فؤادي وباسم عائلتي العزيزة عيد ميلاد سعيدا مباركا.»

وعلى هذا الأساس تنقضي الليلة: ينظف ماتيرن أصابعه من الحبر في المطبخ بحجر التنظيف ويجلس على مائدة العائلة بعد أن مشط شعره من جديد ويسمح لهانس أولريش أن يربت على ظهر بلوتو ويكسر بيديه ثمرات الجوز لعائلة هوفناغل حيث لم تكن هناك كسارة بندق ويحصل من السيدة دوروتيا على بضعة جوارب لم تغسل سوى مرة واحدة كهدية ويعد الابنة إلكه الجميلة بقلم حبر جديد ماركة بيليكان ويحكي قصصا عن أسلافه الذين يعودون للقرون الوسطى، هؤلاء اللصوص وأبطال التحرير، حتى يسقط من التعب وينام مع الكلب في غرفة السطح ويأكل مع العائلة في اليوم الأول لإجازة عيد الميلاد لحم خنزير محمراً مع بطاطس مهروسة ويشتري في يوم الإجازة مقابل علبتي سجائر ماركة «كاميل» من سوق ألتينا السوداء قلم حبر شبه جديد ماركة «مونت بلان» ويحكي في المساء للعائلة المجتمعة باقي قصص مصب الفايكسل وأبطال التحرير زيمون وغريغور ماتيرنا، وينوي بعد ذلك بعد أن ترقد كل رأس متعبة في مكانها، أن يسير على أطراف أصابعه ويضع قلم الحبر ماركة «مونت بلان» أمام باب غرفة نوم إلكه، لكن الأرضية لا تساعده على ذلك، بل تصدر صريراً وبعدها يتسرب صوت خافت عبر ثقب الباب مناديا «ادخل». ليست كل الغرف مغلقة. وهكذا يدخل على أطراف أصابعه إلى جناح إلكه لكي يعطيها القلم. لكنها ترحب به ويستطيع من خلالها أن يثأر من الأب: يسيل دم إلكه دليلا على. . . : «أنت أول شخص، من أول ما رأيتك عندما دخلت من الباب ولم ترد أن تخلع قبعتك. هل تظن بي سوءاً الآن؟ عادة أنا لست كذلك وصديقتي تقول دائما. . . هل أنت سعيد الآن، وليست لديك رغبات أخرى أو تريد. . . حينما أحصل على الثانوية أريد أن أرحل أن أسافر دائما! ما هذا الذي لديك؟ هل هذه ندبات؟ هنا وهناك أيضا؟ آه من هذه الحرب، لقد نالت من الجميع. هل ستبقى هنا؟ المكان هنا جميل لو لم تمطر: الغابة والحيوانات وطريق لين ومنطقة زوندرن العالية والسدود الكثيرة، لودنشايد موقعها جميل وفي كل مكان بها غابات وجبال وبحيرات وأنهار وأيائل وغزلان وسدود وغابات وجبال، ابق هنا!»

لكن ماتيرن يهرب على أطراف أصابعه ومعه الكلب، بل ويأخذ قلم الحبر شبه الجديد ماركة «مونت بلان» معه، لأنه لم يذهب إلى زاورلاند ليقدم الهدايا، بل ليحاكم الأب عن طريق. . . الابنة: لم يرهما أحد سوى الرب الحبيب، هذه المرة كان ينظر من فوق رف الكتب من وراء إطار زجاجي. وهكذا تستمر العدالة في أخذ مجراها. مرحاض محطة كولونيا، هذا المكان الكاثوليكي الدافئ، يحكي عن صف الضابط ليبليش، مقر الإقامة بيليفيلد حيث تزدهر صناعة الملابس الداخلية ويغني كورال الأطفال. لذلك يسير فترة طويلة على القضبان وتذكرة الرجوع في جيبه، يصعد ثلاث درجات يدخل في الباب الثاني على اليمين ليصبح داخل المكان دون أن يدق على الباب: لكن إرفين ليبليش وقعت له إصابة عمل لا ذنب له فيها ويرقد حاليا في السرير بساق مجبرة مرفوعة لأعلى وذراع مائلة ملفوفة بالجبس، لكن فمه ليس عاطلا عن العمل: «اعمل في ما تريد ودع كلبك يأكل الجبيرة. أنا أعترف أنني زحَّفتك وجعلتك تقوم بتمارين الضغط أثناء ارتدائك واقي الغاز لكن قبل ذلك بعامين جعلني أحدهم أزحف وأؤدي تمارين الضغط بواقي الغاز والشيء نفسه حدث له، تمارين الضغط والغناء مع واقي الغاز. ماذا تريد إذن!»

وبعد سؤال ماتيرن عن رغباته، نظر حوله ورغب في امرأة ليبليش، لكن فرونيكا ليبليش ماتت في مارس أربعة وأربعين في مخبأ الغارات الجوية. يطلب ماتيرن ابنة ليبليش، لكن الطفلة ذات السنوات الست تذهب في الآونة الأخير إلى المدرسة وتعيش منذ ذاك الوقت لدى جدتها في ليمغو. يريد ماتيرن أن يترك أثرا لانتقامه، فيقتل عندئذ عصفور الكناري الذي يمتلكه ليبليش، ذلك العصفور الذي نجا من الحرب رغم وابل القنابل والهجمات الجوية المنخفضة.

لأن إرفن ليبليش قد رجاه أن يحضر له كوبا من الماء من المطبخ، يغادر غرفة المريض ويمسك بيده اليسرى كوبا ويملأه من الصنبور ويدخل في طريق عودته يده اليمنى في قفص الطائر، لم يره أحد سوى الصنبور الذي يقطر والرب الحبيب.

والمشاهد نفسها يرى ماتيرن في غوتنغن، حيث خنق هناك دجاجات لساعي البريد الأعزب فيسلنغ- خمس دجاجات- لأن باول فيسلنغ حين كان جنديا بالشرطة العسكرية قد قبض على ماتيرن في إحدى المشاجرات في لوهافر.

وكانت العاقبة هي ثلاثة أيام حبس مشدد! أثناء غزو فرنسا كان من المفترض مكافأة ماتيرن لحسمه وصرامته وترقيته إلى رتبة ملازم، لكن هذا الحبس أعاق ترقيته.

وقد باع الدجاجات المخنوقة بريشها في اليوم التالي ما بين كاتدرائية كولونيا ومحطة كولونيا بمبلغ مائتين وثمانين ماركا من ماركات الرايخ. تحتاج خزينة سفره إلى أموال جديدة لأن سفره إلى كولن-شتاده بالقرب من هامبورغ مع الكلب في الدرجة الأولى قد كلفه مبلغا وقدره.

هناك خلف سد الإلبه، يسكن فيلهلم ديمكه مع زوجته غير الجميلة وأبيه الأصم. كان ديمكه مستشارا قضائيا عندما جرت محاكمة ماتيرن في محكمة دانتسيغ-نويغارتن الخاصة بتهمة النشاط الهدام ضد القوات المسلحة والإساءة للفوهرر - كان ماتيرن مهددا بعقوبة الإعدام، حتى قبلت محكمة الحرب المختصة بناء على مشورة رائده السابق تولي القضية، تمكن المستشار ديمكه أن ينقذ مجموعة الطوابع الضخمة أحضرها من ستارغراد حيث عمل كمستشار في محكمة خاصة أيضا ويبدو أن لها قيمة كبيرة. كانت مجلدات الطوابع موضوعة بين فناجين القهوة نصف المملوءة على الطاولة، وبعضها كان مفتوحا: كان آل ديمكه يقومون في هذه الأثناء بتصنيف ممتلكاتهم. الوصف الروائي للأجواء؟ لا يجد ماتيرن وقتا لذلك. ولأن ديمكه يتذكر قضايا كثيرة تناولها، ماعدا قضية ماتيرن، يلقي ماتيرن بمجلدات الطوابع، مجلدا وراء الآخر في المدفأة المتأججة، لكي يعينه على التذكر. ويلقي في النهاية طوابع المستعمرات الغريبة الملونة. وتبتهج المدفأة لذلك ويتوزع الدفء في غرفة اللاجئين المزدحمة. ويلقي ماتيرن أيضا بالأطراف البيضاء التي تحيط بالطوابع وبالملاقط في المدفأة، لكن ديمكه لا يستطيع أن يتذكر حتى الآن. تبكي زوجته الدميمة ويقول أبوه الأصم «همجية». فوق الخزانة توجد بعض التفاحات الشتوية المنكمشة. لا يقدمون له شيئا منها. يشعر ماتيرن الذي جاء ليحاكم، بأنهم تجاهلوه ويغادر عائلة ديمكه مع الكلب الذي لم يشارك في شيء تقريبا، دون وداع.

آه يا مرحاض الرجال المبلط الأرضية بالمحطة الرئيسية في كولونيا! لهذا المرحاض ذاكرة. لا يضيع منها اسم، لأنه مثلما كُتب اسم جندي الشرطة العسكرية والمستشار في المبولتين التاسعة والثانية عشرة، يمكن الآن قراءة اسم

قاضي المحكمة الخاصة السابق ألفرد لوكسنيش محفورا في ميناء المبولة الثانية من ناحية اليسار: آخن، شارع كارولينغر رقم مائة واثنا عشر.

هناك يتورط ماتيرن في رحلة موسيقية، حيث إن مستشار المحكمة الابتدائية لوكسنيش يرى أن الموسيقى هي السلوان الأكبر وأن بإمكانها أن تساعد على تخطي الأوقات السيئة والمرتبكة. ولذا فإنه ينصح ماتيرن الذي جاء ليحاكم، بأن يجلس ليستمع إلى الحركة الثانية لثلاثي شوبرت: يجيد لوكسنيش العزف على الكمان، ويعزف على البيانو، عزفا لا بأس به، سيد يدعى بيترسن، وتتمكن الآنسة أولينغ من آلة التشيلو وماتيرن ينصت ممسكا بكلبه الهائج وقد تمالك أعصابه، رغم أن قلبه وطحاله وكليتيه قد سئمت وبدأت تعبّر عن ذلك بطريقتها الداخلية. بعد ذلك يتلقى كلب ماتيرن وأعضاء ماتيرن الحساسة الحركة الثالثة للثلاثي نفسه. بعدها لم يكن مستشار المحكمة الابتدائية لوكسنيش راضيا عن أدائه وأداء الآنسة أولينغ: «من فضلك نعيد الحركة الثالثة مرة أخرى وبعد ذلك سيعزف لك السيد بيترسن، وهو بالمناسبة أستاذ رياضيات بمدرسة كارل الثانوية، سوناتا «كرويتس» وأنا من ناحيتي أريد أن أختم الليلة بسوناته الكمان لباخ قبل أن نحتسي كأسا من نبيذ الموزل. إنها حقا قطعة للعارفين بالموسيقى.»

لكل موسيقى أن تبدأ. يسقط ماتيرن بنصفه الأعلى غير الموسيقي في أسر الموسيقى الكلاسيكية. لكل موسيقى أن تثير مقارنات. بينه وبين التشيلو بين ساقي الآنسة أولينغ. كل الموسيقى تكشف عن هوات. تجذب وتشد وتجلب معها أفلاما صامتة في الخلفية. الأساتذة العظام. تراث لا يزول. لوازم متكررة ودوافع للقتل. منشد الرب التقي. ربما يكون بيتهوفن. ماتيرن ضحية التناغم الموسيقي. لكم هو حسن أنهم لا يغنون، لأنه غنى بصوت لجيني متدفق: حين يغني دونا نوبيس Dona nobis كان صوته يصل دائما للغرفة العلوية. كان يغني ترنيمة كيريليسون Kyrie فيشد معها أسنانك، وحمل الرب Agnus Dei تذوب كالزبد على لسانه. صوت حاد كمقص الحديد الكهربي: سوبران غلامي يكمن داخل أي شخص سمين شيء رشيق يريد الخروج والغناء بصوت يفوق المنشار القرصي والمنشار الآلي علوا. اليهود لا يغنون وكان يغني. تتكور الدموع ثقيلة على ميزان الخطابات. الذين يفتقرون فعلا إلى الموهبة الموسيقية هم الوحيدون الذين يستطيعون البكاء أثناء سماع الموسيقى الألمانية الكلاسيكية الجادة. بكى

هتلر عند موت أمه وفي عام ثمانية عشر عندما انهارت ألمانيا، وماتيرن الذي جاء ليحاكم بكلب أسود، بكى أثناء عزف الأستاذ بيترسن لسوناته البيانو للموسيقار العبقري بيتهوفن. ولم يستطع أن يوقف فيضان المشاعر الجياشة في صدره أثناء عزف مستشار المحكمة الابتدائية لوكنيش لسوناته الكمان لباخ على الآلة التي نجت سليمة من أهوال الحرب.

من ذا الذي يخجل من دموع الرجال؟ هل يبقى مكان للكراهية في القلب، عندما تمرق القديسة سيسليا عبر الحجرة الموسيقية؟ ومن ذا الذي لا يدين للآنسة أولينغ بالفضل والعرفان لأنها اقتربت من ماتيرن متفهمة لمشاعره، وأتاحت للنظرة الأنثوية أن تقوم بدورها، ووضعت أصابع عازفة التشيلو القوية والمعتنى بها على يده لتحرث روحه بكلمات هامسة؟ «تكلم أيها الصديق، أرجوك! لا بد أن ألما عظيما يتأجج في صدرك. هل يمكن لنا أن نشاركك؟ آه، ترى ما الذي يلعج بصدرك؟ عندما دخلت بهذا الكلب، ظننتُ أن العالم قد انهار علي، وقد مزقته الآلام وجلدته العواصف، عالم مليء بالكآبة. ولكنني أرى الآن إنسانا، أتفهمني إنسانا- غريب ولكنه قريب - وقد استطعنا أن نساعده بوسيلتنا المتواضعة، وهذا يزيد إيماني وشجاعتي. وأنت أيضا يجب أن تتشجع، لأنه يجب عليك أيضا يا صديقي أن. . . ما الذي يعلج بصدرك بهذه القوة؟ أهي الذكريات؟ هل ترى أياما سوداء أمام عينيك؟ هل تعود إليك ذكرى إنسان عزيز، مات منذ زمن بعيد؟»

ويتحدث ماتيرن بشكل متقطع، يضع أحجار البناء بعضها فوق بعض. لكن المبنى الذي يبنيه لم يكن المحكمة العليا في دانتسيغ-نويغارتن التي بها المحكمة العليا في الدور الثالث، بل كنيسة ماريا الضخمة بحجارتها القوطية. وفي داخل هذه الكنيسة ذات البهو المميز التي تأسست في ٢٨ مارس عام ١٣٤٣، يغني غلام سمين بمساندة الأرغن الأساسي وأرغن الصدى صلاة كنسية سلسة. «نعم لقد أحببته. وقد أخذوه مني. عندما كنت صبيا كنت أحميه من الآخرين لأننا نحن آل ماتيرن دائما مع الضعفاء. لكن الآخرين كانوا أقوى، ولم يكن بإمكاني سوى أن أتفرج بلا حول ولا قوة حينما حطم الإرهاب هذا الصوت. إيدي إيدي حبيبي! منذ ذاك الحين انكسر شيء بداخلي: نشاز، محكمة الشظايا، حطامي الذي لم يعد من الممكن إصلاحه ثانية.»

حينئذ تعارضه السيدة أولينغ ويؤيد رأيها السيدان لوكسنيش وبيترسن أثناء تناول نبيذ الموزل بلمعته المتوهجة: «أيها الصديق، لم يفت الأوان بعد. الوقت يشفي الجراح. الموسيقى تشفي الجراح. الإيمان يشفي الجراح. الفن يشفي الجراح. والحب بالأخص يشفي الجراح!» - لاصق لكل شيء. صمغ عربي. لاصق البورسيلين. بصاق.

ما يزال ماتيرن غير مؤمن، ويريد أن يقوم بمحاولة. بعد ذلك في وقت لاحق عندما توهج الرجلان بفعل نبيذ الموزل، عرض ماتيرن على الآنسة أولينغ أن يصطحبها إلى البيت عبر شوارع آخن الليلية حاميا إياها بذراعه القوية وفك بلوتو المخيف. ولأن الطريق إلى البيت لم يمر عبر حديقة أو مروج على ضفة النهر، يضع ماتيرن الآنسة أولينغ - وهي أثقل مما يوحي به اسمها - فوق حاوية نفايات. لم يكن لديها أي اعتراض على النفايات أو الروائح الكريهة. لقد قالت نعم للنفايات المتخمرة وطلبت من الحب أن يكون أقوى من قبح هذا العالم: «اذهب بي إلى حيث تشاء، إلى البالوعة، ألقني في القبو المصمت، اقلبني، ادفعني، احملني، ما دمت الوحيد الذي يفعل ذلك.» ولم يكن هناك شك في ذلك. تمتطي حاوية النفايات ولا تتزحزح عن مكانها، لأن ماتيرن قد أتى ليحاكم واقفا بسيقان ثلاث: وضع مريح، لا يستطيع الإبقاء عليه والاستفادة منه طويلا سوى اليائسين من البشر.

هذه المرة - لم تسقط الأمطار ولا الثلوج ولم يسطع القمر - كان هناك متفرج آخر بخلاف الرب الحبيب: بلوتو يقف على أربع أرجل. يحرس بلوتو حصان حاوية النفايات وراكبة حاوية النفايات ومدرب الحصان وهذا التشيلو الممتلئ بالموسيقية الشافية لكل الجراح.

يقضي ماتيرن ستة أسابيع لدى مصحة الآنسة أولينغ. ويعرف أن اسمها الأول كريستينه ولا تحب أن يناديها أحد بكريستل. يسكنون في حجرتها الكائنة بسطح المنزل في المكان الذي تفوح فيه رائحة الراتينغ والصمغ العربي. وهذا في غير صالح السيدين لوكسنيش وبيترسن، حيث إن مستشار المحكمة الابتدائية وزميله قد حرما من العزف الثلاثي. يعاقب ماتيرن قاضي المحكمة الخاصة السابق بإرغامه على العزف الثنائي من فبراير حتى بداية أبريل: وعندما يغادر ماتيرن آخن بكلبه وثلاثة قمصان مكوية - حيث تناديه كولونيا ويلبى نداءها- يتوجب على

المستشار والأستاذ أن يجدا الكلمات المناسبة لمواساة الآنسة أولينغ وتضميد جراحها وتعضيد إيمانها، حتى تتمكن أن تشاركهما بعزفها شبه المتقن على التشيلو.

لكل موسيقى أن تتوقف يوما ما، لكن مرحاض الرجال المبلط بمحطة كولونيا الرئيسية لن يكف أبدا عن الهمس بالأسماء المحفورة داخل أحشاء المسافر بالقطار فالتر ماتيرن: الآن عليه أن يزور مدير الدائرة الأسبق زيلكه بأولدنبورغ. يكتشف فجأة أن ألمانيا ما تزال واسعة، حيث إن عليه أن يتجه من أولدنبورغ التي ما يزال بها حلاقو البلاط الملكي ومخابز البلاط الملكي، إلى كولونيا ومنها إلى ميونيخ حيث يقطن الصديق القديم أوتو فرانكه الذي كان عليه أن ينتهي من نقاش بدأه معه على البار في كلاينهامربارك. يقضي يومين تقريبا خائب الرجا بالمدينة الواقعة على نهر الإيزار، لكنه يتعرف بعد ذلك على منطقة نهر الفيزر الجبلية، حيث يختبأ هناك، حسب المعلومات التي تلقاها ماتيرن في كولونيا، برونو وايغون دولك، الأخوان دولك. يلعب مع الاثنين لعبة الورق «سكات» لمدة أسبوعين حيث استنفدوا الحديث في كل الموضوعات، وبعد ذلك يرحل ليبحث عن شخص آخر. هذه المرة كان الدور على مدينة ساربروكن، حيث يدخل في دائرة فيلي إيغرز، ويحكي له ماتيرن عن يوخن زافاتسكي وأوتو فرانكه وبرونو وايغون دولك وكثير من الأصدقاء القدامى: وبفضل وساطة ماتيرن يتبادل هؤلاء البطاقات البريدية وتحيات الأصدقاء.

ومع ذلك فماتيرن لا يرتحل بلا مقابل. فعلى سبيل الذكرى أو كغنيمة صيد - حيث إن ماتيرن يسافر بالكلب ليحاكم - يجلب معه عند عودته إلى كولونيا: شالا شتويا ثقيلا، أهدته له سكرتيرة مدير الدائرة زيلكه ومعطف بافاري، حيث إن لدى خادمة أوتو فرانكه معاطف شتوية ثقيلة وفي ساربروكن يريه فيلي إيغرز المعبر الحدودي الصغير ما بين غروس-روسلن وكلاينروسلن، ومن هناك يحضر معه من منطقة الاحتلال الفرنسي ذكرا مصابا بالسيلان في حجم قبضة اليد. لم يكن بإمكان الأخوين دولك أن يقدما له سوى لعبة الورق «سكات» وهواء الجبل.

لا تلتفتوا وراءكم فالسيلان وراءكم. بمثل هذا المسدس المحشو، بكرباج الحب المنتصب ذاك، بتلك الحقنة المترعة بالمصل يزور ماتيرن مع كلبه مدن بوكنبورغ وتسيله وهونسروك الوحيدة ومنطقة بيرغشتراسه اللطيفة الواقعة بين

هايدلبيرغ ودارمشتات ومنطقة فرانكونيا العليا بما في ذلك منطقة جبال فيشتل، بل ويزور فايمار بمنطقة الاحتلال السوفياتي، حيث ينزل هناك بفندق «ايلفانت»- وغابة بافاريا وهي منطقة متخلفة.

وأينما يحل الاثنان، الكلب وصاحبه، وأينما يضعا أقدامهما الست، سواء كان ذلك في منطقة ألب الجبلية الوعرة أو في أرض مارشلاند بشرق فريزن أو في قرى فيسترفالد المقفرة، يكون للسيلان اسم آخر: هنا يسمونه هانزل المدلدل وهناك يحذرون من بربور الحب، هنا يعدون قطرات الشموع وهناك يتحدثون عن رشح العسل، عن خرطوش الذهب أو القطرات الثمينة، دموع الأرامل، زيت القضيب، وتسميات كثيرة حسب اللهجات، وكذلك مُعلم الركوب والعداء وماتيرن يسمي سيلانه: «الحليب المنتقم.»

محملا بذاك المنتج يمضي عبر مناطق الاحتلال الأربع ويذهب إلى الجزء المتبقي من عاصمة الرايخ القديمة المقسمة إلى أربع مناطق. هناك تنتاب بلوتو حالة عصبية مرضية ولا تهدأ حالته إلا بعد عبورهما إلى غرب نهر الإلبه ونشرهما للحليب المنتقم الذي لم يكن في الحقيقة سوى عرق متقطر على جبين ربة العدالة العمياء يوستيتسيا.

لا تلتفتوا وراءكم فالسيلان وراءكم! لقد صار أسرع وأسرع لأن آلة ماتيرن المنتقمة لم تعط للمنتقم أية راحة، بل بمجرد انتهائه من انتقام ما يستعد على الفور لانتقام جديد: إلى فرويدنشتات، ثم فركة كعب إلى ريندسبورغ، ومن باساو إلى كليفه. لا يبالي ماتيرن بتغيير القطارات أربع مرات ويسير على قدميه بساقين منفرجتين.

من يقرأ الآن الإحصائيات الطبية للسنوات الأولى ما بعد الحرب سيلحظ أن منحنى هذا المرض الجنسي غير الضار والمجهد في ذات الوقت قد بدأ في الارتفاع بداية من مايو عام سبعة وأربعين ووصل إلى ذروته في نهاية شهر أكتوبر من العام نفسه، ثم هبط المنحنى بسرعة وعاد ليستقر عند معدله السابق في ربيع العام الماضي. والسبب في ذلك هو التنقلات الداخلية التي عمت ألمانيا وتنقل قوات الاحتلال، وليس ماتيرن الذي كان يتنقل بشكل شخصي وبدون تصريح عبر البلاد ومعه حقنة محملة بالسيلان لكي يمحو بعض الأسماء ويطهر بعضا من معارفه المتناثرين من النازية. لذلك فعندما يحكي ماتيرن لأصدقائه عن مغامرات

ما بعد الحرب، كان يطلق على مرضه الذي دام نصف عام، سيلانا معاديا للفاشية، وفي الحقيقة استطاع ماتيرن أن يمارس تأثيرا على نساء أعضاء الحزب السابقين ذوي النفوذ المتوسط، يمكن القول عن هذا التأثير بأنه تأثير شاف.

ومن يشفيه هو؟ من يبتر هذا الألم، هذه اللعنة التي تدفعه دائما إلى الاستمرار في السير من جذورها؟ كن طبيب نفسك!

ثم يجد نفسه بعد جولاته عبر غابة تويتوبورغ وبعد إقامة قصيرة في ديتمولد، في قرية صغيرة بالقرب من معسكر مونستر، حيث بدأت رحلته. يعيد حساباته ويقارنها بمفكرته: فحوله مروج زاهرة وكذلك خراطيش ذهب، لأن ماتيرن قد وجد بين خراف المروج وفلاحيها كثيراً من معارفه القدامى، من بينهم قائد اللواء الأساسي اولي غوبفرت الذي كان يفتتح سنويا مع قائد لواء الشبيبة فيندت المخيم المحبوب في غابة بوغنكروغ بالقرب من أوليفا. إنه يسكن هنا في إلمكه بدون أوتو فيندت، لكنه مربوط إلى جديلة من الشعر الطويل كانت في الماضي قائدة للشابات الألمانيات. يسكنان في غرفتين بهما ضوء كهربي.

يقضي بلوتو وقتا طويلا بالخارج. بينما يجلس غوبفرت ملتصقا بالموقد، ويضمد قضيبه بفحم نباتي كان قد قطعه في مطلع العام، ويتشاجر مع نفسه ومع العالم ويلعن هؤلاء الخنازير الذين لا يذكرهم بأسمائهم أبدا، ويفكر فيما يتوجب عليه فعله؟ هل يتوجب عليه الرحيل؟ أو هل يذهب إلى الديمقراطيين المسيحيين أو الاشتراكيين الديمقراطيين أو إلى القطيع التائه من الزمن الغابر؟ بعد ذلك، سيلتحق بعد لف ودوران طويل بالليبراليين وسيكون له مستقبل سياسي كديمقراطي حر في ولاية وستفاليا شمال الراين. لكن عليه في الوقت الحالي، هنا في إلمكه، أن يداوي سيلان قناة البول بلا جدوى، جلب إليه المرض أحد معارفه القدامى، كان قد أتى إليه مريضا بكلب سليم.

أحيانا حينما تكون السيدة فيرا غوبفرت بالمدرسة ولا تسمح جديلتها لهانزل المدلدل أن يفرج عن كربته، يجلس غوبفرت وماتيرن متآلفين أمام الموقد ويعدان لنفسيهما كمادات الفحم النباتي المسكنة، ويطببان نفسيهما على طريقة فلاحي المروج من الداء نفسه ويلعنون الخنازير بأسماء وبغير أسماء.

يشكو قائد اللواء السابق قائلا «ماذا فعل بنا هؤلاء الحثالة! لقد صدقناهم ووضعنا آمالنا فيهم وشاركناهم في عماء والآن ماذا جرى لنا، ماذا نفعل الآن.»

يسبّح ماتيرن بأسماء بدءا من زافاتسكي ووصولا إلى غوبفرت. لقد استطاع حتى الآن أن يشطب ثمانين اسما كانت محفورة على قلبه وطحاله وكليتيه. كثير من المعارف المشتركة. يتذكر غوبفرت مثلا القائد الموسيقي لفرقة الهجوم رقم ٦، كان اسمه إرفن بوكولت «هذا الكلام يا صديقي لم يكن في عام ستة وثلاثين، بل بالضبط في العشرين من أبريل ثمانية وثلاثين، لأنك أنت سواء صدقت هذا الكلام أم لم تصدقه، كنت تعمل معنا في الحراسة وعمل الحواجز البشرية. غابة الياشكنتال في الساعة العاشرة صباحا. جو الفوهرر. خشبة مسرح وسط الغابة. عيد شباب الشرق مصحوب بأغنية باومان: «نداء من الشرق» مائة وعشرون شابا ومائة وثمانون فتاة شاركوا في الغناء، أصوات منتقاة، موكب يملأ ثلاثة مدرجات. خطوات منظمة تخرج من الغابة عابرة فوق ثمار زان السنة الماضية. كل الفتيات المشاركات كن من الخدمة الفلاحية. ما زلت أراهن أمام عيني: بلوزات بأكمام، مع المريلات وأغطية الرأس الحمراء والزرقاء. هذا التدفق والخطو المنظم إيقاعيا. انصهار أصوات الجوقات. في الشارع الرئيسي يقف كورال للصبيان ويطرح الأسئلة المصيرية، بعد أن قمت أنا بالتقديم للحفل. ويجيب عليه كلمة بكلمة وببطء كورالان كبيران للصبيان وكورالان كبيران للفتيات. في هذه الأثناء – هل تتذكر؟ صاح طائر القوق من بقعة غوتنبرغ الجرداء، كان يصيح دائما في الوقفات ما بين الأسئلة المصيرية والإجابات: قوق قوق! لكن ذلك لم يربك الشبان الأربعة من المدرج الثاني الذين وقفوا كمتحدثين منفردين على المنصة الرئيسية. وعلى المدرج الثالث عزفت آلات النفخ النحاسية. وأنتم، مجموعة فرقة الهجوم شمال لانغفور، بقيتم وراء موكب بوكولت الموسيقي على أهبة الاستعداد، لأن عليكم بعد ذلك تنظيم المسيرة. وقد تم ذلك بنجاح، صدى غابة الياشكنتال رائع. وهذا الصدى يرتد من بقعة غوتنبرغ الجرداء، حيث لم يرد طائر القوق أن يتوقف عن الصياح، ومن جبل الإربس ومن فريدنسهوهه. تتناول الأغنية مصير الشرق. يمضي فارس عبر الأراضي الألمانية ويتحدث: «الرايخ أكبر من الحدود الموضوعة له!» يجيب الفارس على أسئلة الجوقات والشبان الأربعة الذين يطرحون الأسئلة الرئيسية، كما لو أنه يطرق على الحديد: «يجب أن تحافظوا على القلعة والبوابة جهة الشرق!» وببطء تنساب أسئلة وأجوبة لتصل إلى شهادة وحيدة ساخنة. وفي النهاية تختتم الأغنية

بقوة بنشيد عن ألمانيا الكبرى. رجع الصدى. كانت غابة زان. أصوات رائعة. ولكن ذلك لم يمنع طائر القوق من الصياح. جو الفوهرر. كان الضيوف المدعوون من الرايخ منبهرين. لقد كنت معنا أيضا يا عزيزي. لا تحاول أن تخدع نفسك. عام ثمانية وثلاثين. في العشرين من أبريل. اللعنة. كنا نريد أن نذهب إلى الشرق حاملين معنا هولدرلين وهايدغر في حقيبة المدرسة. والآن نجلس في الغرب ونعاني من السيلان.»

عندئذ يصر ماتيرن بأسنانه، ويحك الشرق بالغرب. لقد سئم عصارة بنات النار المنتقمة والحليب المنتقم ولآلئ الحب وخرطوش الذهب. هذا البيت الريفي الذي يقف فيه منفرج الساقين بعد أربع وثمانين ماتيرنياده يتسم بالانخفاض والدفء. يصرخ العضو المسكون بالألم: كفى كفى!

بلغ السيل الزبى! تذكر بقية الأسماء المحفورة على القلب والطحال والكليتين.

يشكو قائد اللواء السابق اولي غوبفرت: «حقنتان من الأسمنت، وضمادة جديدة من الفحم النباتي كل ساعة. ومع ذلك ليس هناك أي تحسن، والبنسلين غال ونبتة ست الحسن نادرة جدا.»

يخطو ماتيرن ببنطلونه المفتوح تجاه الحائط المطلي بالجير الأبيض والذي يحد البيت الريفي من جهة الشرق. هذه الساعة الاحتفالية ستتم بدون طائر القوق وآلات النفخ النحاسية. لكنه يوجه قضيبه المتصبب عسلا نحو الشرق. «الرايخ أوسع من الحدود الموضوعة» تتكوم تسعة ملايين بطاقة من بطاقات اللاجئين غرب ماتيرن: «يجب أن تحافظوا على القلعة والبوابة الشرقية!» يمضي فارس عبر الأراضي الألمانية، لكنه لا يبحث عن باب بل عن مقبس كهربي عادي. ينشأ اتصال بين قضيبه وبين المقبس. كي نقولها بصورة لا تحتمل تفسير آخر، يتبول ماتيرن في المقبس ويتلقى نتيجة لتيار البول غير المنقطع صدمة كهربية قوية صارعة وشافية، حيث إنه بمجرد وقوفه مرة أخرى شاحبا مرتعشا أشعث، يسيل منه كل العسل. يجري تيار الحليب المنتقم. تتدحرج لآلئ الحب وتختفي في شقوق الأرضية. ينصهر خرطوش الذهب. يتنفس هانزل المدلدل الصعداء. تجف دموع الأرامل. يشفى رشح العسل بفعل الصدمة الكهربية. أعان الطبيب نفسه. كان بلوتو شاهدا وكذلك قائد اللواء السابق غوبفرت وطبعا الرب الحبيب. الوحيدة

التي لا ترى شيئا هي السيدة فيرا غوبفرت، لأنها عند عودتها بجدائل شعرها الغزيرة من المدرسة، لا تجد من ماتيرن سوى بضع إشاعات وجوارب صوفية غير مرقعة: يغادر الكلب وصاحبه مروج لونهبرغ المزدهرة وقد شفي ولكن لم يتم خلاصه بعد. منذ هذه اللحظة يبدأ السيلان في التراجع في ألمانيا. كل طاعون يطهر. كل وباء يأتي مرة واحدة. وكل رغبة هي الأخيرة.

الماتيرنياده الفلسفية الخامسة والثمانون
والماتيرنياده الاعترافية السادسة والثمانون

ماذا يريد براوكسل؟ إنه يمطر ماتيرن بوابل من الأسئلة. أليس كافيا أن عليه أن يتقيأ صفحات طوال مقابل بعض الدفعات النقدية المقدمة، بل وعليه الآن أن يقدم لبراوكسل تقريرا أسبوعيا «كم صفحة أنجزت اليوم وكم صفحة ستنجز غدا؟ هل سيكون لفصل زافاتسكي وزوجته آثار لاحقة؟ هل تساقط الثلج أثناء التنقل الدائم ما بين مدينة فرايبورغ ومنطقة الرياضات الشتوية توتناو؟ في أي مبولة من مبولات المرحاض الرجالي لمحطة كولونيا الرئيسية جاء أمر الزحف إلى الغابة السوداء؟ هل كان ذلك مكتوبا أم محفورا؟»

اسمع يا براوكسل. مقدار إخراجات ماتيرن هي كما يلي: اليوم سبع صفحات، غدا سبع صفحات. بالأمس سبع صفحات. كل يوم سبع صفحات. ولكل فصل آثار لاحقة. لم يسقط ثلج ما بين توتناو وفرايبورغ، بل إنه يسقط. ولم يكن مكتوبا في المبولة الثانية عشرة، بل ما يزال مكتوبا. ماتيرن يكتب في الزمن المضارع: كل طريق زراعي هو طريق خاطئ!

زحام أمام كل المبولات. يسود جو بارد مبلل في مرحاض الرجال، حيث إن الكاتدرائية ليس بها تدفئة، ماتيرن لا يتزاحم ولكن عندما يحتل أخيرا مبولته الثانية عشرة من اليسار، لا يريد مغادرتها: للإنسان حق السكنى على الأرض. ها هم يتزاحمون وراءه: غالبا ليس لديه حق السكنى. «خلص يا عم! نحن نريد أيضا. لقد كف عن التبول إنه يحملق فقط؟ فيم تحملق يا رجل؟ إحك لنا!»

لحسن الحظ يتمكن الكلب بلوتو من أن يضمن للقارئ الوقت الكافي للقراءة وبُعد الآخرين. يستطيع ماتيرن أن يلتهم الكلام المحفور، الذي يبدو وكأنه مكتوب بقلم فضي، سبع مرات. بعد الكثير من المتعة الحسية والوباء،

تثلج صدره أخيرا متعة روحية. يتصاعد بخار الماء المتدفق من كل رجال هذا العالم، لكن ماتيرن مستغرق مع نفسه وينسخ الاسم المكتوب بالقلم الفضي الرقيق على قلبه وطحاله وكليتيه. مرحاض الرجال الكاثوليكي المليء بالبخار عبارة عن مطبخ كاثوليكي مليء بالبخار. خلف ماتيرن يقف طهاة ويريدون أن ينهوا طهي طعامهم: «خلص يا عم! أنت لست الوحيد! أحب قريبك يا رجل!»

لكن ماتيرن يقف في المركز. يمضغ المجتر الكبير كل كلمة منقوشة على المبولة الثانية عشرة من جهة اليسار: «الزعبوط الألماني موجود ما بين توتناو وفرايبورغ.»

يلتفت ماتيرن وقد امتلأ حكمة: «أخيرا!». يُبقي بلوتو بجانب قدمه «فكر يا كلب ولكن بدون تعقل!

لقد صاحبني أثناء الطيران الشراعي ولعب الشطرنج. ذهبت معه متأبطا إياه تحت ذراعي وروحانا متلاصقتان صاعدا إلى مرافئ الميناء وهابطا حارة لانغ. أهداني إيدي إياه على سبيل المزاح. التهمته بسرعة. كان جيدا ضد الصداع وكان يساعد ضد التفكير، حينما كان إيدي يفكر في العصافير. تذكر أيها الكلب ولكن بدون تعقل! لقد قرأته بصوت عال أمام مجموعة فرق الهجوم رقم ٨٤. عندئذ انحنوا على البار ولم يفعلوا شيئا سوى النهيق بالزمان والوجود. يرتدي زعبوط يمتد طرفه ليفوق كل طرق الغزو وشوارع الانسحاب. أخذته معي في كيس الخبز من وارسو إلى دونكيرشن من تسالونيكي إلى أوديسا، من جبهة ميوس إلى بطارية كايزرهافن. من سجن التحقيقات إلى كورلاند ومن هناك - وتلك مسافة طويلة - إلى جبال الأردان، وبه عبرت منطقة الزودنغلاند، وأخذته معي إلى معسكر مونستر، اشتراه إيدي من حارة التاغنيت على أنه كتاب قديم: نسخة من الطبعة الأولى عام سبعة وعشرين، وكان الإهداء فيها ما يزال لهوسرل الصغير، الذي... بعد ذلك. اسمعني جيدا أيها الكلب: لقد ولد في ميسكيرش بالقرب من براوناو الواقعة على نهر الإن. لقد ولد هو والآخر في سنة الزعبوط نفسها. لقد قام هو والآخر بخلق شخصية بعضهما بعضا. هو والآخر سيوضعان يوما ما على قاعدة التمثال التذكاري نفسها. إنه يناديني دائما. فكر في ذلك أيها الكلب ولكن بدون تعقل! أين سيذهب بنا القطار اليوم؟»

ينزلان في فرايبورغ ويدقان أبواب الجامعة. صحيح أن أصداء خطبته

العظيمة التي ألقاها عام ثلاثة وثلاثين ما زالت تدوي في المكان: «هدفنا هو أنفسنا!»، لكن لا يوجد زعبوط بأي قاعة، «غير مسموح له بالتدريس لأنه. . . .»

يسأل الكلب وصاحبه ويجدان فيلا باب حديقتها من الحديد. يزعقان وينبحان في حي الفيلات الهادئ: «افتح أيها الزعبوط! ماتيرن هنا متجليا في صورة نداء العناية. افتح!»

تبقى الفيلا هادئة وشتوية. لا يحول الضوء الكهربي أي من غرفها إلى اللون الأصفر. لكن هناك وريقة ملصوقة على صندوق البريد بجانب الباب الحديدي، تفيد بأن الزعبوط يتراقص متزحلقا على الجليد. وهكذا يكون على الكلب وصاحبه أن يصعدا على ست أقدام إلى ظل جبل فيلدبيرغ. تتكور العاصفة الثلجية فوق توتناو. جو الفلاسفة - جو المعرفة! عاصفة تتأسس فوق عاصفة. لا تنبئ أي من أشجار التنوب بالغابة السوداء عن أخبار جديدة. لو ظل الكلب بدون عقل لظلا تائهين. يصل بأنفه لكوخ تزلج ومكان بعيد عن الرياح. وفي الحال تصفف العواصف كلمات كبيرة ونباح كلب: «افتح الباب يا زعبوط، ماتيرن هنا معلنا الانتقام. لقد جئنا إلى هنا لنتجلى في الماتيرنيادات ولنجعل بطل التحرير زيمون ماتيرنا مرئيا.

لقد أرغم مدن دانتسيغ وديرشاو وإلبينغ على الإذعان وأشعل النار في حارتي دريهر والبقدونس وهذا ما سيحدث لزعبوطك أيها العدم المتزلج- افتح!»

ورغم أن الكوخ يظل مسدودا ومسمرا وخاليا من الشقوق وغير مضياف، إلا أن هناك وريقة ملصوقة على باب الكوخ المصنوع من خشب الغابة السوداء الخالي من القشور وقد غمرها الثلج وأصبحت غير مقروءة: «الزعبوط يقرأ أفلاطون في الوادي.»

هبوط الجبل. ليس هذا بجبل الإربس، بل الفيلدبيرغ. بدون خريطة وبدون عقل عبر توتناو ونوتشراي (صرخة النجدة) إلى زورغه (القلق)- هكذا تدعى الأماكن في هذه المنطقة - وأوبرشتيغ (المعبر) ونيشتونغ (العدم). لهذا السبب كان أفلاطون يتيه. ولم لا يتيه هو أيضا؟ سرقوسة أفلاطون مثل الخطاب الافتتاحي لرئيس الجامعة. لذلك يستحسن البقاء دائما في الريف. لماذا نبقى في الريف؟ لأن الزعبوط لا يغادره. إما أنه يتزلج على الجليد بأعلى الجبل أو يقرا

أفلاطون بأسفل. هذا هو الاختلاف الريفي الضئيل. لعبة بين الفلاسفة. كوكو كو، ها أنا ذا. لا، كوكو كو ها أنا ذا: فوق تحت - تحت فوق، خبأ ذيلك يا عصفور بين القمحة وبين الفول! ماتيرن يصعد ويهبط الفيلدبيرغ دون أن يلحق حتى بنفسه! زعبوط، تزعبَط، تزعبُط، زعبطة، فارق الزعبطة، الزعبوطية. أمامك دائما...، ولا تكون أبدا عند...، وليس الوجود فعلا في...، وليست هناك معية قائمة...، فقط منك تجاه...، ليس بقابل للشفاء ولا غير قابل للشفاء، بين أشجار تنوب المنطقة.... بدون استثناء. يعاود ماتيرن الانزلاق من التناغم العالي إلى الوضعية السفلية المتردية دون تواجد الزعبوط: ففي الوادي بجانب باب الحديقة همست وريقة مربعة بخط الزعبوط المألوف: «الزعبوط يقف مثل كل الأشياء وسط العاصفة» وبأعلى الجبل يقرأ وسط العاصفة: «الزعبوط يسوي الطريق الزراعي.»

تنفيذ الانتقام، يا له من عمل شاق! يلاحق الغضب ندف الثلج. تصنع الكراهية من قطرات الجليد المتجمدة أنصال رماح. لكن أشجار التنوب تُفني وتحمي لغز الباقي: إن لم يته بأسفل، فهو يتجوهر بأعلى وإذا لم يحدث بأعلى، فهو يؤسس على الوريقة بجانب الباب الحديدي: «المدى المتسع لكل أشجار التنوب بالغابة السوداء المحيطة بالزعبوط، تمنح العالم ثلجا ناعما كالبودرة.» جو تزلج! جو تزلج! يا ماتيرن، ماذا ستفعل لو لم تلحق بنفسك سبع مرات صعودا وهبوطا، لو لم تقرأ سبع مرات بأسفل: «بأسفل يعلن الزعبوط عن العدم.»

يلهث الكلب وصاحبه أمام فيلا بعينها في حي الفيلات الهادئ: مجهدا ممسوسا بالجنون مهووسا بالتنوب. يحاول كل من الانتقام والكراهية والغضب التبول في صندوق البريد. تتسلق الصرخة فوق السور الحديدي مطعمة بوقفات: «قل لي أين أجدك أيها الزعبوط؟ في أي كتاب وضعت طرف زعبوطك كعلامة للقراءة؟ في أي طاقية أخفيت منسي الوجود المغمور بالكلور؟ ما هو طول الزعبوط الذي خنقت به هوسرل الصغير؟ كم من الأسنان يجب أن أخلع حتى يصير مقذوف الوجود الكائن مغطى بالزعابيط؟»

لا تكترث بالأسئلة الكثيرة، فماتيرن سيجيب عنها بنفسه. إنه معتاد على ذلك. من يقف دائما في المركز - كنمط ظاهري، مهووسا بنقطة الذات والذي لا تحتاج أسئلته إلى غلبة في الرد عليها. لا يكوّن ماتيرن جملا بل يتصرف

مستخدما حافريه. في البدء يهز السور الحديدي لحديقة الفيلا ويسب. لكن بدون لغة الزعبوط الألمانية. يبصق ماتيرن بلغة شعبية، بلغة منطقته: «اخرج لي بره يا قملة أنا سأريك يا زبالة! يا حثالة! يا معفن! أخرج لي بره وأنا سأرميك في البالوعة، سأفرمك كفتة وأرميك للكلب. سأمزقك مثل الجورب. خلاص كفانا مقذوفية ودائما غير موجود. ماتيرن مغتاظ منك. ماتيرن محروق منك. اخرج لي يا فيلسوف! ماتيرن هو أيضا فيلسوف: وسع لي وسع!»

ولا تنجح هذه الكلمات وقبضتا ماتيرن مثلا في جعل الفيلسوف يظهر على إثر النداءات الودودة مرتديا زعبوطه وحذاء بأبازيم ويقف بأدب أمام باب الفيلا، لكنها تنجح في خلع باب الحديقة الحديدي من مفاصله، يرفعه عاليا ويجعل بلوتو يقف مذهولا، لأنه يستطيع أن يعاود رفعه عدة مرات باتجاه السماء. ولأن السماء الليلية ذات الرائحة الثلجية لم تقبل أن تأخذ منه الباب الحديدي، يلقي به داخل الحديقة: والمدهش أنه يقع على بعد كبير.

ينفض عامل البناء يديه: «انتهينا!» ينظر المجرم حوله باحثا عن شهود: «هل رأيتم؟ هكذا يعمل ماتيرن وليس بأي شكل آخر. نمط ظاهري!» يتلذذ المنتقم بطعم الانتقام المنجز: «لقد تلقى جزاءه. والآن نحن متساويان!» لكن أحدا سوى الكلب لا يستطيع أن يشهد أن الأمور قد جرت بهذا الشكل وليس بشكل آخر، اللهم إلا إذا كان الرب الحبيب قد تجسس، برغم هطول الثلج من أعلى لأسفل، عدميا كائنا مصابا بالرشح.

لا تعترض أية شرطة على مغادرة ماتيرن وكلبه لمدينة فرايبورغ ببرايسغاو. عليه أن يركب قطار الدرجة الثالثة لأن صعود الجبل وهبوطه قد أفرغا خزينة النقود الخاصة بأسفاره: كان عليه أن يبيت مرة في توتناو ومرتين في نوتشراي (صيحة النجدة) ومرة في كل من نيشتونغ (العدم) وأوبرشتيغ (المعبر)، تسوية الأمر مع الفيلسوف مكلف جدا- ولو لم تكن هناك نساء حانيات وفتيات ناعمات، لكان على الكلب وصاحبه أن يتضورا جوعا وعطشا.

لكنهن يرحلن وراءه ويردن أن يبردن الجبهة التي ألهبها الصراع الفلسفي، يردن رجلا يستطيع نوعا ما أن يطوع التسامي وأن يستعيد الأرض والسرير المخصص لاثنين: عازفة التشيلو الآنسة أولينغ وبنية الرائد هوفناغل الجميلة والسكرتيرة ذات الشعر البني من أولدنبورغ وعاملة النظافة ذات الشعر الأسود

المجعد التي تعمل لدى فرانكه وأيضا غيردا التي أهدته سيلان هانزل المدلدل ما بين فولكينغن وساربروكن، كلهن، كل من أثراهن بخرطوشه الذهبي أو بدونه لا يردن سواه هو هو: زوجة ابن ايبلينغ من سيل وغريته ديرينغ من بوكبورغ، تغادر أخت بودشينسكي منطقة هونسروك المقطوعة وتغادر إيرما إيغرز منطقة بيرغشتراسه المزدحمة، وكريستا وغيزلا بنتا كلينغنبيرغ من فرانكونيا العليا، ومن المنطقة السوفياتية تأتي هيلدشن فولشليغر دون فرانتسشن فولشليغر، لا تريد يوهانه تييتس أن تعيش مع زوجها في الغابة البافارية، تبحث عنه أميرة من ليبه وصديقتها وابنة صاحب فندق في شرق فريزن وفتيات برلينيات وبنات من منطقة الراين. تتعقب نساء ألمانيات آثار ماتيرن بإعلانات في الصحف والاستفسارات. يسألن عنه لدى الصليب الأحمر. يقدمن مكافأة لمن يجده. إرادة لا تتزعزع بهدف ذي حدين. يطاردنه، يجدنه، يضيقن عليه الخناق، يردن أن يخنقنه بشعر فيرا غوبفرت الغزير. يسعين للإيقاع به بحفر إيرما ومصايد غريته وطرق عاملات النظافة الملتوية وأغطية حاويات النفايات ونقوش إلكه وحقائب ربات البيوت وأرغفة الخبز البرليني وأبازيم النبيلات وفطائر السمك ومملكة السماء الشليزية. ولأجل ذلك يحضرن معهن: التبغ والجوارب والملاعق الفضية وخواتم الزواج وساعة جيب فولشليغر وأزرار معطف بودشينسكي الذهبية وكريم الحلاقة الخاصة بأوتو فرانكه وميكروسكوب زوج الأخت ومدخرات الزوج وكمان قاضي المحكمة الخاصة وعملات الرائد الكندية وقلوب وأرواح وحب.

لا يستطيع ماتيرن دائما أن يفوت على نفسه فرصة الاستفادة من هذه الثروات. ينتظرن ما بين محطة كولونيا الرئيسية والكاتدرائية التي لا تتزحزح، ويبدو منظرهن مؤثرا. تريد الكنوز من ينبهر بها في فنادق مخابئ الغارات والفنادق الرخيصة وعلى مروج الراين وفوق أشواك التنوب. لقد فكرن في الكلب أيضا وأحضرن معهن قشور السجق في مقابل ألا يزعجهن أنف الكلب المطالب: لا تفعل الشيء نفسه مرتين وإلا سيحدث لك الشيء نفسه!

ولكن دائما عندما يريد الذهاب منفردا مع كلبه إلى مرحاض الرجال الهادئ ليفكر في أحواله ويتخذ مسافة من العالم، تلمسه في صالة المحطة أصابع فتيات وأصابع ربات بيوت وأصابع أميرات مطالبة إياه: «تعال معنا. أنا أعرف أين. أعرف مسؤولا للصيانة يؤجر شققا. لي صديقة مسافرة لبضعة أيام. أعرف محجر

زلط معطل. حجزت لنا... في دويتس. ساعة على الأقل. كلمني فقط. أرسلني فولشليغر. ليس لدي اختيار آخر. بعد ذلك سأنصرف، وعد شرف. تعال معي!»

أزرت العناية حال ماتيرن وجعلت الكلب سمينا. يا للانتقام المردود! الغضب يعض على القطن. والكراهية تتبرز حبا. البومرنغ الذي ظن أنه أصاب به خمس وثمانين مرة يعاود فيصيبه هو: **لا تفعل الشيء نفسه مرتين - فلن يكون ذلك أبدا الشيء نفسه!** فوزنه ينقص رغم التغذية الممتازة: أصبحت قمصان غوبفرت على مقاسه، ورغم شعوره بأن فروة رأسه تنتعش بشامبو البتولا الخاص بأوتو فرانكه، فإن شعر ماتيرن يتساقط. يظهر هانزل المدلدل العائد في صورة وكيل التفليسة، حيث إن ما ظن ماتيرن أنه قد خبأه في في الغابة البافارية أو في حي أوريش الحكومي، يصيبه من جديد في فرانكونيا العليا والمنطقة السوفياتية ووراء الغابات. لوازم متكررة ودوافع قتل، بسبب هانزل المدلدل، عليه أن يتبول ست مرات في المقبس. يهده ذلك. يطرحه أرضا. يداويه طب الخيول، وتصيبه المصابات بالسيلان بالعدوى من جديد. تصرعه الكهرباء بالضربة القاضية. وتحوله الأسرة المزدوجة إلى رحال منتقم، دون خوان متجول. أصبحت لديه نظرة المتشبع. الآن يثرثر عن ظهر قلب بأسلوب مؤثر عن الحب والموت. بإمكانه أن يصير رقيقا، حتى دون أن ينظر. ها هو يهدهد شهوته الناشرة للوباء، كما يهدهد العبقري طفله المحبب. الجنون الصغير يقدم بطاقة تعارف. سيريد خصي نفسه بعد الحلاقة وأن يلقي بنمطه الظاهري إلى الكلب.

من ينقذ ماتيرن؟ فماذا بإمكان الفلسفة المدعية أن تفعل إزاء رجل بسبع أرواح، وحيد بلا عقل! ماذا يعني صعود الفيلدبيرغ سبع مرات هوسا بالزعبوط، إزاء الاتصال المحموم بالمقبس لست مرات! إضافة إلى الثرثرة: «أريد طفلا منك. أسقطه. انفخني. حذار أن يعلق شيء بالداخل. ابصق كل ما عندك. اكحتني. ادخل، اخرج، مبايض!» من ينقذ ماتيرن ويمشط له شعره الميت ويغلق له أزرار بنطلونه إلى حين؟ من يحبه ويضحي من أجله؟ من يقف بينه وبين السمسم المقشور المشعر المبلل؟

الكلب يفعل ذلك عند الضرورة. يستطيع بلوتو أن يمنع وقوع الكوارث: لقد طارد عاملة النظافة التي تعمل لدى أوتو فرانكه وفيرا غوبفرت، الأولى في

أبريل والثانية في مايو، على مروج الراين، بعد أن طردهما من أحد محاجر الزلط، حيث أرادتا امتصاص صلب ماتيرن وقضم خصيتيه. وأصبح بإمكان بلوتو مع مرور الوقت أن يحدث جلبة معلنا عن قدوم واحدة ممن يحملن قطرات هانزل المدلدل معهن. ينبح وينهنه ويقف بينهما ويشير بأنفه ضاربا موقد الوباء الخبيث. وبفضل كشفه لحقيقة هيلدشن فولشليغر وصديقة الأميرة، يوفر الخادم على سيده صعقتين بالتيار الكهربي، لكنه لا يستطيع أن ينقذ ماتيرن. هكذا يراه نابا كولونيا المزدوجين: كسيرا، أعمش العينين، حاسر الفودين، يتقافز حوله بلوتو وفيا/ مثل/كلب. يسير مثل شخصية مسرحية بائسة، مرة أخرى يريد أن يعبر صالة المحطة المليئة بالحركة ويريد أن يهبط إلى مناطق هادئة مبلطة الأرضية وكاثوليكية وهامسة، حيث إن ماتيرن ما يزال يستشعر أسماء محفورة بألم فوق أحشائه وتريد أن تشطب ولو بيد مرتعشة.

يكاد يصل إلى هدفه خطوة بخطوة ممسكا بعصا. وتراه هي: رجل بعصا في يده وكلب. تؤثر فيها هذه الصورة. بلا تردد تتجه امرأة البنجر، التي بدأت رحلة الانتقام عندها، إليه بتعاطف ولطف وأمومة. تدفع إنغه زافاتسكي أمامها عربة أطفال ترقد فيها ثمرة بنجر زُرعت في نوفمبر وأبصرت نور العالم حلوة كشراب البنجر في يوليو الماضي وتدعى منذ ذلك الحين فالي وهو اسم مشتق من فالبورغا. وإنغه زافاتسكي متأكدة من أن اسم أبي إنغه يبدأ بحرف ف، مثل فالتر ولكن أيضا مثل فيليبالد وفونيبالد، الأخوين القديسين اللذين صنعا زيت فالبورغا المحبب ليومنا هذا، وهما أقرب إلى فالي من وجهة النظر الكاثوليكة من فالتر.

يثبت ماتيرن نظرته بكآبة داخل عربة الأطفال. توفر عليه إنغه زافاتسكي وقت التأملات الصامتة: «طفلة جميلة، أليس كذلك؟ منظرك لا يبدو على ما يرام. قريبا ستستطيع الطفلة المشي. لا تخف، أنا لا أريد منك شيئا. لكن يوخن سيسعد برؤيتك. تبدو ذاهلا. كلانا يحبك. بالإضافة إلى أنه يعتني بالطفلة. كانت ولادة سهلة. كنا محظوظين. كان من المفروض أن تولد في برج السرطان لكنها صارت فتاة برج الأسد والبرج القرين هو الميزان. صاحبات هذا البرج تكون حياتهن سهلة فيما بعد: عادة ما يكن جميلات، يحببن البقاء في البيت، قادرات على التكيف، بأوجه عديدة، شديدات التعلق بالآخر ولكن لهن إرادة قوية. نحن نسكن الآن في مولهايم على الناحية الأخرى. لو كانت عندك رغبة،

من الممكن أن نأخذ المركب. أنت تحتاج إلى الراحة والعناية. يوخن يعمل في ليفركوزن. لقد نصحته ألا يفعل، لكنه مصر على العمل بالسياسة مرة أخرى ويقسم بريمان[٧]. يا إلهي، كم تبدو منهكا. يمكننا أن نأخذ القطار أيضا، لكنني أحب دائما ركوب المركب. لا شك أن يوخن يعرف جيدا ما يفعله. إنه يقول إن على المرء أن يُظهر لونه. لقد كنت أنت معهم أيضا في الماضي. هل تعرفتم على بعضكما هناك أم بعد ذلك في مجموعة فرق الهجوم؟ إنك لا تتحدث مطلقا. صدقني، أنا لا أريد منك شيئا. لو كانت لك رغبة، نستطيع أن نعتني بك وننعشك لعدة أسابيع. لا بد أن ترتاح. البيت بيتك، لدينا غرفتان ونصف. سنعطيك الغرفة التي تحت السطح لك وحدك. لن أزعجك، كن على ثقة. أنا أحبك ولكن بطريقة هادئة جدا. لقد ضحكت لك فالي منذ هنيهة. آرأيت؟ والآن تضحك مرة أخرى. أحبك وأحب الكلب. في الماضي كنت أريد بيعه، كنت غبية. لا بد أن تفعل شيئا ضد تساقط الشعر.»

يركبون على سطح المركب: الأم والأبنة والكلب وصاحبه. تطهي الشمس الشبعى أطلال مولهايم ومتلقي المواد الغذائية ذوي التغذية السيئة من أهل مولهايم في قدر واحد. لم يكن لألمانيا قط مثل هذا الجمال. لم تكن ألمانيا قط بمثل هذه الصحة. لم يكن بألمانيا قط مثل هذه العقول المعبرة مثلما في عصر السعرات الحرارية الألف واثنين وثلاثين. لكن إنغه زافاتسكي تقول له أثناء رسو المركب: «قريبا سنحصل على نقود جديدة. بل إن الفم الذهبي يعرف متى سيحدث ذلك. ماذا ألا تعرفه؟ كل من له دراية بالأمور هنا، يعرفه. إن له يداً في كل المجالات. كل سوق المنطقة بداية من حارة ترانك وحتى الأمريكيين في بريمرهافن يصغون لكلام الفم الذهبي. وهو يقول إن وقت الانحسار سيأتي قريبا ويجب أن نستعد له. لن تكون النقود الجديدة من الورق وستكون غالية ونادرة، وعلى المرء أن يفعل شيئا من أجل ذلك. بالمناسبة لقد حضر عماد الطفلة. لا يعرف اسمه الحقيقي إلا قلة. يوخن يقول إنه ليس نقيا، لكن بالنسبة لي لا يعني ذلك شيئا. لم يدخل الكنيسة، لكنه أهدى طقمين من ملابس الأطفال وكمية كبيرة من الجين. صحيح أنه لا يشرب ولا قطرة واحدة، لكنه يدخن. لن

(٧) ماكس ريمان، زعيم الحزب الشيوعي في ألمانيا ما بعد الحرب (مترجم).

تصدقني لو قلت لك إنه لا يدخن السجائر بل يأكلها. حاليا هو غير موجود. هذا يعني أن مقره الرئيسي حاليا بالقرب من دورن، وآخرون يقولون في هانوفر. لكن لا أحد يستطيع أن يعرف بالضبط شيئا عن الفم الذهبي. نحن هنا عند البيت. ستتعود على منظره.»

يعرف ماتيرن لدى المعارف القدامى الطيبين الموعد الهام، موعد تغيير العملة. حان الوقت للتعرف على الوضع. زافاتسكي ينسحب مباشرة من الحزب الشيوعي. لقد سئمهم على كل حال. سيحصل كل شخص على مبلغ من النقود الجديدة ولا يجب إضاعته بل: «هذا هو رأس مالنا الأساسي. نحن نعيش من المخزون. شراب البنجر يكفينا على الأقل أحد عشر شهرا وعندما نكون قد استهلكنا الفانلات والسراويل الداخلية تكون فالي دخلت المدرسة. عندنا مخزون كثير. عملنا حسابنا جيدا. هذا ما نصحنا به الفم الذهبي. رجل مثقاله ذهب. قال لإنغه عن مكان تشتري منه أدوات العناية بالجسم، بدون أي مقابل، مجرد أنه يحبنا. دائما يسأل عنك، لأننا كلمناه عنك. أين اختفيت طوال هذه المدة؟»

يعدد ماتيرن الذي بدأ يتعافى من جديد البقاع الألمانية التي زارها مع وقفات ثقيلة: أراضي شرق فريزن ومنطقة الألب الوعرة وفرانكونيا العليا ومنطقة بيرغشتراسه اللطيفة وزاورلاند وهونسروك والأيفل ومنطقة السار ومروج لونهبورغ وتورينغن أو قلب ألمانيا الأخضر، يصف الغابة السوداء بأنها أعلى المناطق التي زارها وأكثرها سوادا. كما يذكر أثناء درس الجغرافيا الاستعراضي أسماء المدن: «عندما سافرت من سيل إلى بوكوبورغ. آخن المدينة القديمة التي بناها الرومان كمدينة لاحتفالات التتويج. باساو التي يصب فيها نهيرا الإن والإيلتس في نهر الدانوب. وطبعا شاهدت في فايمار منزل غوته. خيبت ميونيخ آمالي ولكن شتاده الواقعة خلف سدود نهر الإلبه تعد منطقة متطورة جدا في زراعة الفاكهة.»

يمكن لسؤال زافاتسكي «وماذا ستفعل الآن؟» أن يُطرَّز كزينة للكنبة. يريد ماتيرن النوم والأكل وقراءة الصحف والنوم والنظر من النافذة، أن يرتاح ويتأمل نفسه في مرآة الحلاقة. ذهب عمش العينين. وامتلأت التجاويف الغائرة تحت عظام الخدين. لكن الشعر لم يعد من الممكن إيقافه ومنعه من السقوط. تنمو جبهته وتساهم في تشكيل رأس عمره إحدى وثلاثون سنة من سنوات الكلاب.

«والآن، ماذا ستفعل؟» التواضع؟ الذهاب بدون كلب للعمل بالتجارة التي بدأت في النمو؟ التمثيل بالمسرح وترك الكلب في غرفة الملابس؟ الصرير بالأسنان، لا على الطرق الموحشة، بل على المسرح فقط؟ فرانتس مور؟ دانتون؟ فاوست في أوبرهاوزن؟ صف الضابط بيكمان في ترير؟ هاملت في مسرح الغرفة؟ لا، لا يمكن أبدا! لم يحن الوقت بعد. بقيت بعض الأشياء. يوم ماتيرن الموعود لم يبدأ بعد. يريد ماتيرن أن يرد دينه بعملات قديمة، لذلك يثير الشغب في بيت زافاتسكي ذي الغرفتين ونصف. يهشم ماتيرن خشخيشة الطفلة البلاستيكية ويتشكك في أن تكون الطفلة من صلبه. ويزيح ماتيرن أيضا كل نصائح الفم الذهبي مع علبة السكر من فوق مائدة الإفطار. لا يريد أن يستمع إلا لنفسه، لقلبه وطحاله وكليتيه. هو وزافاتسكي لم يعودا يناديا بعضهما بالأسماء الأولى، بل يسبان بعضهما حسب المزاج والتوقيت: «تروتسكي، نازي، خائن، تابع وضيع وسخ!»

لكن عندما يصفع ماتيرن إنغه وسط غرفة المعيشة - قد يكون ماتيرن قد دفن السبب في غرفة السطح - يطرد زافاتسكي حينئذ الكلب وصاحبه من البيت ذي الغرفتين ونصف. وتريد إنغه في الحال أن تُطرد أيضا مع طفلتها. لكن زافاتسكي يضرب بيده على المائدة المغطاة بالمفرش المشمع قائلا: «البنت ستبقى معي هنا! لا يمكن أن أتركها تضيع مني. اذهبا إلى حيثما تريدان، روحوا في داهية، لكن البنت ستبقى هنا.»

إذن بدون البنت، لكن مع الكلب وبعض من النقود الجديدة. يمتلك ماتيرن أيضا ساعة جيب فولشليغر، وأزرار بودشينسكي الذهبية ودولارين كنديين. ينفقان ثمن الساعة ما بين كاتدرائية كولونيا ومحطتها الرئيسية. والباقي يكفي للإقامة لمدة أسبوع بفندق في بينرات يطل على بركة دائرية وحديقة مربعة.

تقول: «والآن؟»

يمسد فروة رأسه أمام مرآة الخزانة.

تشير بإبهامها تجاه الستائر: «أقصد إذا كنت تريد العمل، على الناحية المقابلة هناك عمل لدى مصانع هنكل وعلى اليمين تبدأ مصانع ديماغ في العمل مرة أخرى. نستطيع أن نبحث عن منزل في فريستن أو في دوسلدورف نفسها.»

واقفا أمام المرآة وبعد ذلك متجولا وسط الطبيعة المبللة، لا يريد ماتيرن أن يعمل بل أن يتجول. فأصله من عائلة طحانين. إضافة إلى أن الكلب يحتاج إلى الخروج. وقبل أن يحرك إصبعا في خدمة هؤلاء الخنازير الرأسماليين، يفضل أن. . . «هنكل، ديماغ، مانسمان! ولا تريدينني أن أضحك!»

يسيران سويا مع الكلب بطول جبل تريبل، عبر مروج الراين حتى هيملغايست. هناك فندق، به غرفة خالية ولا يسأل أصحابه عن قسيمة الزواج والزوج والزوجة. ليلة مضطربة، لأن إنغه زافاتسكي لم تحضر معها حذاء التجوال، بل أحضرت معها المفرش المطرز بالسؤال «ماذا ستفعل الآن؟». لا تدعه ينام. دائما النغمة نفسها. هسيس الوسادات: «افعل شيئا. أي شيء. الفم الذهبي يقول: استثمر استثمر ثم استثمر، والربح سيأتي بعد ثلاث سنوات على الأكثر. لذلك يريد زافاتسكي أن ينهي أعماله في ليفركوزن ويقوم بالأعمال الحرة في إحدى المدن الصغيرة. اقترح عليه الفم الذهبي المتاجرة في الملابس الرجالية. ألا تريد أن تبدأ في عمل شيء، أي شيء. إنك تقول دائما أنك قد درست. افتح مثلا مكتب استشارات أو مجلة لأبراج الحظ، أي شيء جاد. الفم الذهبي يقول إن مثل هذه الأشياء لها مستقبل. الناس لم يعودوا يصدقون الخداع القديم. يريدون أن تصل إليهم المعلومات بشكل آخر وبطريقة أفضل: ماذا تقول النجوم، أنت مثلا من مواليد برج الحمل وأنا من برج السرطان. تستطيع أن تفعل بي ما تشاء.»

وهذا هو ما يفعله بها ماتيرن في اليوم التالي. تكفي النقود بالكاد لأخذ مركب الراين من هيملغايست إلى أودسهايم. يحصلان على الأمطار مجانا. يا للهوس المبلل البارد! يسيران وراء بعضهما في أحذية غرقى والكلب في المقدمة، حتى غريملسهاوزن. يأتيهما الجوع ولا يحصلان شيئا يأكلانه. ولا يستطيعان أن يذهبا إلى الضفة اليمنى بالمعدية إلى فولرسفيرت. يفعل بها ما يشاء على الضفة اليسرى للنهر تحت أعين القديس كورينيوس الذي أُحرق في روسيا باسم كولمان والذي لم يستطع أن يحمي مدينة نويس من وابل القنابل.

أين يمكنك أن تنام بدون نقود في يديك ولكن بقلب ورع مذنب؟ يمكنك أن تغلق على نفسك أبواب كنيسة، بمعنى أدق: كنيسة يتحقق فيها خلاصك الأوحد دون تدفئة، أي كنيسة كاثوليكية. مكان مألوف. ليلة مضطربة. يرقدان

لمدة طويلة كل على دكته، حتى تصير هي وحدها راقدة وهو يتجول مع الكلب وساقه المجرورة عبر صحن الكنيسة. سقالات بناء منتشرة في كل مكان ودلاء جير. كل الأشياء معوجة. خليط من كل شيء. طراز العصور الانتقالية: بدأ بناؤها على الطراز الروماني، وعندما فات أوانه لضّموها من بعد بطراز الباروك، القبة مثلا. يُخرج الملاط، الذي ما يزال مبللا، بخاره. تختلط رائحة المكاتب الكنسية التي ترجع إلى الثلاثينات من سنوات الكلاب مع غبار الجبس. ما يزال يتجول حيرانا ولا يريد أن يعاود الرقاد. كان ماتيرن هنا ذات مرة، أيام كان يتحدث مع السيدة العذراء. واليوم تثرثر السيدة إنغه. «والآن؟» هذا هو السؤال الدائم الجاهز. تقول «برد، اجلس، هل نحضر سجادة، لو لم نكن في الكنيسة، لوافقت، أليست لديك رغبة أيضا؟» وبعد ذلك وسط العتمة التي يتخللها بصيص من الضوء: «انظر! هناك كرسي اعتراف. هل هو مغلق؟»

لم يكن مغلقا، بل جاهزا في كل وقت. يفعل ماتيرن بها ما يشاء على كرسي الاعتراف. هذه تجربة جديدة. بالتأكيد لم يفعل أحد ذلك من قبل. إذن على الكلب أن يدخل في الموضع الذي يضع الكاهن فيه أذنه. ولأن بلوتو يشارك في اللعبة، يدخل ماتيرن معها الكابينة المقابلة وبينما هي تنحني يأخذها من الخلف بطريقة غير مريحة، بينما تثرثر هي أمام الشبكة الحاجزة التي يقف وراءها بلوتو ممثلا دور أب الاعتراف. وماتيرن يضغط وجه الدمية المنكوح على الشبكة الخشبية المليئة بالذنوب: الخشب المصمم على طراز الباروك، صناعة أهل الراين الفنانين، تمضي عليه العقود ولا يتحطم، بينما تتهشم عليه أنف الدمية. كل ذنب محسوب. وهذا هو العقاب. الرجاء. لا تستعين بالقديس كورينيوس، بل تنادي: «زافاتسكي، تعال، أنقذني، يا إلهي!»

لا ينكسر كرسي الاعتراف بعد ذلك، لكنها ترقد مسطحة على البلاط البارد لكي لا تنزف أنفها في العتمة. أما هو فيتجول من جديد مع الكلب في صمت. وعندما يقف أمام الكرسي الذي لا ينهار بعد أن دار دورتين بحذائه المقرقع، يقوم بإخراج قداحته القديمة لإشعال غليون يهدئ أعصابه. لكن لهب القداحة يتخطى الدور المحدد له: فبالإضافة إلى إشعاله للغليون، يثبت أن لون دم أنف إنغه أحمر، ثانيا يوضح اللهب وجود لوحة معلقة على كرسي الاعتراف، مكتوب عليها اسم: يوزف كنوبف - بدون عنوان قريب. لأن هذا الاسم يسكن حاليا

هنا، وليس من الضروري أن يظهر في مرحاض كولونيا الرجالي المقدس مع اسم الشارع ورقمه. هذا الرجل كنوبف يشغل يوميا كرسي الاعتراف الذي لا يقهر من الساعة العاشرة إلا ربع حتى الساعة العاشرة والربع صباحا وتصغي أذنه الخبيرة لكل إنسان. يا للوازم المتكررة ودوافع القتل! يا للانتقام الحلو كالعسل! يا للعدالة المسافرة بالقطار بطول البلاد وعرضها. يا للأسماء المشطوبة والتي ستشطب من بعد: يوزف كنوبف- أو الماتيرنياده السادسة والثمانون!

هذا الاسم يشطبه ماتيرن منفردا وبشكل شخصي. لقد ربط الكلب بلوتو - رغم أن الفراق صعب - بين خرائب مدينة نويس لدى موقف باق من مواقف الدراجات. تنسحب إنغه الباكية دائما في صمت بعد قداس الصباح بأنفها المهشم عائدة إلى كولونيا. ستأخذها إحدى سيارات النقل - لكنه يبقى ولا يبحث، بل يجد في شارع باتاري وبالضبط بين ميدان مونستر والميناء الصناعي عشرة بفينغات. ثروة! لقد وهب القديس كورينيوس هذه العملة له وحده. يمكن أن يشتري بها سيجارة أو جريدة «راينيشه بوست» وهذا هو ثمن علبة كبريت، أو علكة. وتلك العملة يمكن أن يضعها في فتحة، ثم يقف على الميزان وبعد ذلك تخرج بطاقة إلى العالم مكتوب عليها: وزنك! لكن ماتيرن يدخن الغليون، ومعه ولاعته التي تخرج حسب الحاجة إليها، يقرأ ماتيرن الصحف في نوافذ العرض. ولدى ماتيرن أشياء كثيرة يمضغها. ماتيرن ليس قابلا للوزن. يشتري ماتيرن بالبفينغات العشرة التي عثر عليها، إبرة تريكو طويلة لامعة عفيفة. لماذا؟

لا تلتفتوا وراءكم فإبرة التريكو وراءكم.

إنها معدة لأذن الكاهن ويجب أن تدخل في أذن يوزف كنوبف. يذهب ماتيرن في العاشرة إلا عشرة بعزم إلى كنيسة القديس كورينيوس ذات الطراز غير المتناسق، لكي يحاكم بإبرة التريكو الطويلة المستخدمة في غير غرضها.

قبله تعترف امرأتان عجوزان بسرعة واقتضاب. الآن يركع ماتيرن في المكان الذي أرادت فيه إنغه وسط ليل الكنيسة المدلهم أن تعترف للكلب. من يبحث عن دلائل، قد يجد آثار دم إنغه على الشبكة الخشبية، ذاك الدم الذي يعد دليلا على استشهادها. يهمس ماتيرن بهدف محدد. أذن يوزف كنوبف كبيرة ولحيمة، ولا تهتز. تدور أحداث الاعتراف ضمن قصة قديمة دارت في الثلاثينات من سنوات الكلاب بين رجل كان ينتمي في السابق إلى فرق الهجوم ثم تحول إلى

الكاثوليكية الجديدة[8]، وبين قس كاثوليكي قديم، حيث نصحه الأخير استنادا إلى قرارات دير ماريا لاخ أن يعود للانضمام إلى فرق الهجوم الكافرة ليدعم الجناح الكاثوليكي بها مستعينا بالعذراء. قصة معقدة تدور فوق إسفلت ساخن. لكن أذن الكاهن لا تهتز. يهمس ماتيرن بأسماء وتواريخ وعبارات مقتبسة. يهسهس قائلا: كان اسمه كذا والآخر كذا. لا تهتز أذن الكاهن. يبقى أمزل دؤوبا، وفلان كان اسمه كذا وقد قال للآخرين في ليلة مايو من عام الرب كذا... تبقى أذن الكاهن مسدودة. ومن حين لآخر تأتي كلمات من الناحية الأخرى: «يا بني، هل تندم من صميم قلبك؟ أنت تعرف أن يسوع المسيح الذي مات من أجلنا على الصليب، يعرف أصغر الذنوب ويطلع دائما على أفئدتنا. اسبر غور نفسك ولا تكتم شيئا يا بني.»

وهذا بالضبط ما ينويه ماتيرن. يعيد عليه القصة من جديد. يخرج شخوص القصة من علبة موسيقية رائعة التصميم. الحبر كاس وسفير البابا باتشيلي ورجل فرق الهجوم الكاثوليكي الجديد التائب والكاثوليكي القديم الماكر، ممثل الجناح الكاثوليكي بفرق الهجوم. يؤدي الجميع رقصاتهم يخرجون وتأتي السيدة العذراء المعينة في الختام. لكن ماتيرن لم يستنفد كل ما عنده: «ولقد كنت أنت، بالضبط أنت الذي قال لي، عد إلى فرق الهجوم. دائما هذا الكلام الفارغ عن الاتفاقية مع الفاتيكان وأقاصيص قرارات دير ماريا لاخ. بل إنك قد صليت وباركت الفوهرر سرا. أيها الدومينيكاني! يا جوال الخراء الأسود! لقد قلت لماتيرن: ارتد يا بني الزي البني المشرف. إن يسوع المسيح الذي مات من أجلنا على الصليب والذي يرى كل أعمالنا قد أرسل لنا الفوهرر، كي يسحق باسمي وباسمك بذرة الكفرة، أتفهم، يسحقها!». تبقى أذن الكاهن الذي نودي باسمه عدة مرات تمثالا حجريا من صنع نحات قوطي. وحتى عندما كانت إبرة التريكو ذات البفينغات العشرة في وضع الهجوم، أي عندما استقرت آلة تنفيذ العقوبة على شبكة الاعتراف وتوجه سن الإبرة إلى أذن الكاهن، لم يهتز شيء حول طبلة الأذن، فقط يجيء صوت الشيخ متعبا وروتينيا، حيث ظن أن المعترف قد انتهى

(٨) المقصود بها الكاثوليكية المناهضة للنازية، حيث إن هتلر قد قام في بداية عهده بإعطاء الأمان للكنيسة الكاثوليكية عن طريق اتفاقية مع الفاتيكان. (مترجم)

من كلامه مرددا الصلوات اللاتينية: "Ego te absolvo a peccatis tuis in nomine Patris et Filii et spiritus Sancti. Amen" العقوبة الموقعة هي: تسع مرات أبانا الذي في السماء واثنتان وثلاثون مرة سلام عليك يا ماريا.

يسحب ماتيرن الذي جاء ليحاكم بالإبرة التي ثمنها عشرة بفينغات، آلته. هذا الكاهن يضع أذنه فقط بشكل رمزي. لا يمكنك إصابته. تستطيع أن تقول له الشيء نفسه كل يوم مرتين، لكنه لا يسمع سوى حفيف الغابة وربما لا يمكن له حتى أن يسمع هذا الحفيف. يوزف كنوبف. كنوبف الزر الأصم. الكاهن كنوبف الأصم. يتحدث كنوبف الكاهن الأصم إلي باسم كذا وكذا وباسم الحمامة. يشير الكاهن كنوبف شديد الصمم إلي بيديه من خلف الشبكة كي أنصرف. اذهب يا ماتيرن! هناك آخرون يريدون دخول الأذن الصماء. قم فلم تعد لديك ذنوب باقية. اذهب فلا يمكن أن تتطهر أكثر من ذلك! اختلط بالمذنبين: دير ماريا لاخ بالقرب من كنيسة الزيارة نيفيغس. فلتقم برحلة توبة وخنوع. أعد إبرة التريكو إلى محل البضائع الصغيرة، ربما يأخذونها منك ويعطونك البفينغات العشرة ثانية أو أن تقايض في مقابلها علكة أو أعواد ثقاب. إنه ثمن جريدة «راينيشه بوست» نفسه. تستطيع بعشرة بفينغات أن تزن نفسك بعد أن تخلصت من الاعترافات الثقيلة. أو اشتر لكلبك بعض قشور السجق. لا بد لبلوتو أن يظل بصحته.

الماتيرنياده المسوسة السابعة والثامنون

لكل شخص أبوان على الأقل. ليس من الضروري أن يعرفا بعضهما. بعض الآباء ليس لديهم علم بذلك. عادة ما يضيع الآباء. وإذا لم نكن بصدد الحديث عن أب معين، فلماتيرن أب يستحق أن يُبنى له تمثال تذكاري. ماتيرن لا يعرف مكانه ولا يعرف أي شيء عنه، ويأمل في أن.. .لكنه لا يبحث عنه.

أو أنه كان يبحث عن الفم الذهبي الذي سمع عنه كلاما غامضا في كل مكان، وكان يبحث عنه حتى في أحلامه التي كان يقطع فيها أشجار غابة زان جزعا جزعا، وبرغم بحثه الدقيق في كل مبولات مرحاض الرجال، لم يجد مؤشرا واحدا يحركه. لكنه يقرأ حكمة حياتية نُقشت لتوها على ميناء المبولة الخرب ويتعلم منها تقصي آثار أبيه: «لا تنصتوا إلى السوسة، فداخل السوسة سوسة!»

ينطلق ماتيرن للذهاب إلى أبيه دون أن يشطب من برنامجه خطة البحث عن الفم الذهبي وتقطيع غابة الزان في أحلامه.

وقف الطحان ذو الأذن المفلطحة بجانب الطاحونة المنصبية التاريخية التي تقع شرق مصب الفايكسل وسط زراعات قمح أورتوبا السيبيري المتحمل لقسوة الشتاء، وحمل على كتفه زكيبة وزنها قنطار، حتى احترقت الطاحونة من رأسها لأخمصها أثناء دوران مراوحها. عندئذ هرب الطحان من قبضة الحرب الزاحفة من تيغنهوف عبر شارباو. محملا بزكيبة دقيق من القمح الأيبي وزنها عشرون رطلا، ووجد مع زوجته وأخته مكانا على ظهر معدية طالما ربطت لعقود بين قريتي نيكلسفالده وشيفنهورست الواقعتين على نهر الفايكسل. في الموكب نفسه كانت هناك المعدية المسماة «روتبوده» ومعدية قطارات السكة الحديد «أينلاغه» والمركب القاطرة «تسوكونفت» وكذلك قارب صيد. وكان من الضرروي تفريغ العبارة «شيفنهورست» من حمولتها نتيجة لأعطال بالموتور وقامت معدية روتبوده- كيزهمارك بعملية النقل. وتمكن الطحان وعائلته من ركوب طراد بحري. عج الطراد بصراخ الأطفال ودوار البحر واصطدم الطراد غرب بورنهولم بلغم بحري وغرق بسرعة وأخذ معه الصراخ والغثيان وزوجة وأخت الطحان، لكنه تمكن من النجاة وحصل على مكان للوقوف على الباخرة «شفان» التي خرجت عن خطها واتجهت من دانتسيغ-نويفارفاسر إلى لوبيك. ودون أن يحتاج إلى تغيير السفينة وصل الطحان أنطون ماتيرن بأذنه المفلطحة وزكيبة دقيقه الجافة ذات العشرين رطلا إلى ميناء ترافهموندء أي إلى البر، إلى القارة.

وأثناء الشهور التالية - يكرر التاريخ نفسه دائما: اندلع السلام!- يكون على الطحان أن يحمي زكيبته ويدافع عنها بدهاء وحيلة، لأن حوله كثيرين ممن يريدون أكل الكاتو ولكن ليس لديهم دقيق. بل إنه نفسه عرضة للإغواء، يفكر في إنقاص العشرين رطلا بمقدار قبضة وأن يطبخ لنفسه حساء ثخينا. ولكن كلما صارعته معدته، ضربت يده اليسرى إصبع يده اليمنى التي يريد أن تنخر الزكيبة. هكذا يصوره الوصف الواقعي للبؤس الزاحف: معوجا، صامتا ومتحفظا في صالات الانتظار، في ثكنات اللاجئين والعشش الصفيح. تقف إحدى أذنيه شامخة، بينما تبقى الأخرى المفلطحة مضغوطة بالزكيبة التي لم ينقص وزنها عن العشرين رطلا. تبقى الزكيبة آمنة، ويبدو للرائي أنها صامتة تماما.

عندما يقع الطحان أنطون ماتيرن في أيدي إحدى حملات البوليس ما بين محطة هانوفر وتمثال الفرسان الذي ظلت ذيول أحصنته طويلة رغم كثرة الثقوب به، لا ينزل مثلا الملك ارنست أوغست من على حصانه لينقذ الطحان، بل ينحاز موظف من سلطات الاحتلال إلى صفه، ويدافع عنه وعن الزكيبة ذات العشرين رطلا بخطبة عصماء، مرافعة دامت نصف ساعة، وتدريجيا بدأت اثنتان وثلاثون سِنة ذهبية في اللمعان: يقوم الفم الذهبي بضمان الطحان ماتيرن، ويأخذ الرجل المعوج وزكبيته في حمايته، وفوق ذلك، يقيّم قدرات الطحان الوظيفية ويشتري له في المنطقة الواقعة ما بين دورن وكريفلد أي على أرض سهلة، طاحونة منصبية بها أعطال بسيطة، يقوم بترقيع سقفها لكنه لا يقوم بإصلاح مراوحها الناقصة ولا يريد لها أن تدور مع الريح.

لأن على الطحان أن يعيش، بناء على طلب الفم الذهبي، عيشة هادئة في طابقين: ينام في الطابق الأعلى تحت عامود المراوح وتروس الطحن المغبرة، أي في السقيفة. وبالرغم من أن حجر الطحين الكبير والقادوس وصاري المروحة المخترق للسقف يزحمون المكان، فما يزال هناك في المكان المخصص لغلة الطحين، مساحة مربعة غير ضئيلة تصلح لسرير يشبه الأسرة الهولندية، حيث إن الحدود ليست ببعيدة. يستخدم الحجر كمائدة ويمتلأ قدم القادوس بممتلكات الطحان وملابسه. تُخلي الخفافيش الأوتاد والمزالج والدعامات والأعمدة لتفسح مكانا لهدايا الفم الذهبي الصغيرة: الراديو والمصباح - حيث أدخل له التيار الكهربي - والصحف المصورة وبعض الأطباق والمواعين القليلة لرجل كبير يستطيع رغم الموقد الكحولي، أن يحصل على الطعم الأصلي للبطاطس المحمرة. يتم تجديد إفريز السلم. حيث إن غرفة الطحين التي تحدد شجرة البيت منتصفها تصلح غرفة جيدة للطحان وستصبح عن قريب حجرة الاستشارة الخاصة به. يضع الفم الذهبي، الذي يحول رغبات الطحان إلى اقتراحات خاصة به، تحت العمود الحديدي للطاحونة وتحت الحوض المعلق وفي المكان الفوضوي الذي كان مخصصا ذات يوم لوضع حجر الطحين، مقعدا فخما بمساند جانبية للرأس، لكن لأن أحد مساند الرأس الجانبية قد وقف حائلا بين أذن الطحان وزكيبته ذات العشرين رطلا، كان من الضروري استبدال المقعد بمقعد آخر بدون مساند جانبية للرأس. تقرقع الطاحونة حتى وقت سكون الرياح. وإذا ما هبت الريح بالخارج

تتكور دائما سحب من غبار وتدخل من فتحة الطاحونة عبر الزلاقة إلى المنخل العالق بإعوجاج على الحوامل. عند هبوب الرياح الشرقية يخرج دخان الموقد. لكن غالبا ما تنزلق السحب القادمة من القناة مسطحة فوق أراضي الراين المنخفضة. بمجرد انتقاله إلى الطاحونة مباشرة، يقوم الطحان بتزييت المسامير المثبتة للرافعة البلوطية ويقرط على براغي التروس وذلك بما يليق بالموقف، حيث إن طحانا قد انتقل إلى الطاحونة. وبعد ذلك صار يعيش في الطاحونة مرتديا حذاء منزليا وملابس داكنة، يصحو في التاسعة صباحا ويفطر وحيدا أو مع الفم الذهبي لو زاره هذا الأخير ويتصفح أعدادا من مجلة «لايف» الأمريكية المصورة من زمن الحرب وما بعدها. وقع العقد بعد أن قام بالقرط ذي الدلالة على البراغي. لا يطلب الفم الذهبي منه الكثير: فيما عدا صباح يوم الخميس، يقوم الطحان كل يوم من العاشرة صباحا حتى الثانية عشرة ظهرا بعقد جلساته الاستشارية مستخدما أذنه المفلطحة. وفيما عدا يوم الخميس الذي ينهمك فيه في العمل ما بين الساعة الثالثة والخامسة بعد الظهر، ينتهي من عمله كل يوم بعد الظهر. ثم يقبع بجوار الراديو بأذنه الناتئة أو يذهب إلى فيرزن لدخول السينما أو يلعب الورق مع اثنين من مسؤولي «حزب اللاجئين» الذي ينتخبه، لأنه حسبما يقول الطحان إن المدافن التي تغلفها نباتات البللاب على يمين ويسار مصب الفايكسل وخاصة في شتيغن قد صارت أكثر كثافة من كل المدافن الواقعة بين كريفلد واركيلينتس.

لكن من ذا الذي يزور الطحان المعوج ذا الأذن المفلطحة أثناء جلساته الاستشارية في الصباح ويوم الخميس بعد الظهر؟ في البداية يجيء مزارعو المنطقة ويدفعون ثمن الاستشارة بمنتجات طبيعية مثل الزبد وعيدان وسيقان الهليون، ثم يأتي أصحاب الصناعات الصغيرة من منطقتي دورن وغلادباخ ويدفعون الثمن بمواد مصنعة. وفي بداية عام ستة وأربعين تكتشفه الصحافة. ما الذي يجذب هؤلاء الزوار الذين كانوا قلة في البداية ثم تزايد تدفقهم حتى صار من الصعب التحكم فيه؟ لمن لا يعرف حتى الآن: الطحان أنطون ماتيرن يتنصت إلى المستقبل بأذن مفلطحة. يعرف الطحان المعوج معلومات هامة مسبقا. تستمع أذنه المتكئة والتي تبدو صماء إزاء ضجيج الحياة اليومية إلى تعليمات يمكن توجيه المستقبل من خلالها. رغم أنه لا يقوم بفتح المندل أو قراءة ورق اللعب أو بقراءة

الفنجان. ولا يقوم مثلا بمراقبة النجوم عبر منظار في حجرة الطحين. ولا يقوم بتفسير خطوط الكف التي تبوح بالكثير. ولا يقوم بوخز قلب قنفذ أو طحال ثعلب أو كلية العجل ذي البقعة الحمراء. لمن لا يعرف حتى الآن: زكيبة الدقيق ذات العشرين رطلا تعرف كل شيء. بمعنى أدق، فإن سوس الدقيق المطحون من القمح الإيبي الذي نجا على ظهر المعدية ونجت من غرق الطراد، باختصار، هذا السوس الذي نجا أولا بمعونة الرب وأخيرا بمعونة الفم الذهبي من أهوال الحرب وما بعد الحرب، يهمس مسبقا لأذن الطحان المفلطحة - لقد تسببت زكائب تزيد عن عشرة آلاف قنطار وأكثر من قمح أوروتوبا والقمح الإيبي ودقيق القمح المطحون رقم ٥ من شليبهاكس في تفلطح الأذن وجعلها صماء وذات سمع مرهف - وتسمع أذن الطحان ما يخبئه المستقبل وينقل التعليمات التي يبلغه السوس بها إلى طالبي المشورة. يقوم الطحان بالاستعانة بالسوس الألماني الشرقي بتوجيه المصائر الألمانية الغربية بشكل جوهري وذلك في مقابل أجر يتناسب مع هذا الجهد. حيث إنه بعد المزارعين وأصحاب الصناعات الصغيرة، أتى من سيصبحون مستقبلا لوردات الصحافة في هامبورغ وجلسوا مقابل مقعد الطحان وكتبوا رغباتهم على سبورة معوجة، ثم بدأ تأثير الطحان: محددا للاتجاه الصحفي ومكونا للرأي وذا مكانة عالمية مستخدما الصورة وعاكسا للعالم كما المرآة.

بعدما قضى الطحان عقودا يعطي فيها تنبؤاته في نيكلسفالده وبعدما أثّر في زراعة القمح المحلي وجعله مربحا في المنطقة الواقعة ما بين نويتايش وبونزاك وبعد أن تنبأ بأذنه المفلطحة المتكئة على زكيبة القمح ذات السوس بهجوم الفئران ونزول البرد ونقصان قيمة غولدن مدينة دانتسيغ الحرة وانهيار الأسعار في بورصة الحبوب وساعة وفاة رئيس الرايخ والفرقاطة التي جاءت إلى ميناء دانتسيغ محملة بالخراب، تمكن بمعاونة الفم الذهبي أن يخرج من النطاق المحلي الريفي إلى عالمية غرب ألمانيا: يأتي ثلاثة سادة في عربة جيب من عربات قوات الاحتلال. ولأنهم شباب وأصحاء يصعدون سلم غرفة الطحان في قفزتين ونصف ويأتون بضجيج وموهبة وجهل ويدقون بأيديهم على شجرة المنزل وبالاستعانة بحبل يريدون الصعود إلى السقيفة حيث ينام الطحان، وأن يوسخوا أصابعهم بموتور الزلاقة لكن لافتة كتب عليها «خاص» على إفريز السلم المؤدي إلى السقيفة تجعلهم يلتزمون الأدب. وهكذا يصبحون هادئين مثل تلاميذ المدارس أمام الطحان الذي

يشير إلى السبورة والقلم حتى يكتبوا أمنياتهم ولكي تصبح ممكنة.

قد يبدو ما قاله السوس للسادة الثلاثة ساذجا: لقد طلبت من أكثرهم وسامة أن يصر على الحصول على رخصة الصحافة رقم سبعة وستين حتى تصدر مجلة باسم «هور تسو» (اسمع) وتحقق مبيعات كثيرة. ملحوظة جانبية: سيحصل الطحان على اشتراك مجاني حيث إنه مولع بالمجلات المصورة ويحب سماع الراديو. والرخصة رقم ستة ستعطى حسبما يقول السوس لصحيفة تسمى «دي تسايت»وقد نصح السوس بها لأنشط هؤلاء السادة. أما أقصرهم وأكثرهم دماثة والذي كان يقرض أظافره خجلا، فقد همس له السوس من خلال الطحان أن يحاول مع الرخصة رقم مائة وثلاثة وعشرين وأن يدع تجربته الفاشلة مع جريدة «دي فوخه» (الأسبوع) جانبا.

يربت شبرنغر[٩] الناعم على كتف رودي أوغشتاين[١٠] الغريب الأطوار ويقول له: «اسأل هذا الشيخ، عن اسم طفلتك.»

وفي الحال يبلغ السوس الأعمى الطحان المعوج بالخبر اليقين: مجلة «دير شبيغل» (المرآة) التي لا تفوتها صغيرة ولا كبيرة، هي مرآة كل بيت عصري، بشرط أن تكون مقعرة، ما تسهل قراءته يسهل نسيانه أيضا ورغم ذلك يمكن اقتباسه، ليست الحقيقة هي المهمة، المهم أن يكون رقم البيت صحيحا. باختصار يجب أن يكون هناك أرشيف جيد، عشرة آلاف ملف مملوء تغني عن التفكير. «لم يعد الناس يرغبون في التفكير وشغل البال، يريدون فقط الحصول على المعلومات» هكذا يقول السوس.

لقد انتهى وقت الجلسة الاستشارية لكن شبرنغر يتفوه ويحتج ضد تنبؤات السوس لأنه لا يريد أن يؤسس صحيفة إذاعية للجماهير العريضة بل يريد بالأحرى أن يؤسس جريدة أسبوعية تدعو للسلام. «أريد أن أهز الناس ليفيقوا! أريد أن أهزهم!» ويواسيه السوس من خلال الطحان متنبئا له بالساعة التي يولد

---

(٩) أكسل شبرنغر أحد لوردات الصحافة الصفراء، كانت مجلته «هور تسو» المتخصصة في برامج الراديو والتلفزيون هي أكثر المجلات الألمانية مبيعا وجريدة «بيلدتسايتونغ» التابعة لدار النشر نفسها هي أكثر الصحف مبيعا في ألمانيا.

(١٠) مؤسس مجلة «دير شبيغل» الألمانية المعروفة.

فيها عمل خيري نافع للجميع، وذلك في يونيو عام اثنين وخمسين: «ثلاثة ملايين قارئ من الأميين سيتناولون إفطارهم مع صحيفة «بيلد». »

وبسرعة قبل أن يفتح الطحان ساعة جيبه للمرة الثانية يعلن ذاك السيد، الذي كان منذ برهة متماسكا كشيخ وقور والذي يحاول شبرنغر وأوغشتاين تقليده في سلوكه الرفيع، عن حيرته وقلة حيلته طالبا الغوث، فحسب اعترافاته على السبورة المعوجة، يحلم ليلا بالاشتراكية الديمقراطية وفي النهار يأكل مع أصحاب الصناعات الثقيلة من الحزب المسيحي ولكن قلبه أميل للأدب الطليعي، باختصار، إنه لا يستطيع أن يقرر. لكن السوس يأتيه بالخبر اليقين، فذاك هو المزيج الحقيقي لجريدة «دي تسايت» (الزمن): سهلة الهضم، جديرة بالاحترام، ليبرالية، جريئة باعتدال، تربوية ومدرة للربح.

والآن تنهال أسئلة حول «أسعار الإعلانات؟ ومن سيملك الأقلية المانعة في أسهم دار نشر أولشتاين؟» -، لكن سوس الدقيق التي ينوب عنها الطحان ترفض الرد. قبل أن يغادر السادة الثلاثة مودعين الطحان، عليهم أن ينقشوا أسماءهم على شجرة المنزل - ما يزال الطحان يعرضها للضيوف ليومنا هذا: شبرنغر الوسيم وورودي الذي نجا من آلام العالم والسيد بوسيريوس الذي تعود جذور سلالته إلى القرون الوسطى المتنورة.

بعد أسبوع من الهدوء - يحصل الطحان في هذه الأثناء على سجادة تُفرش تحت قدميه - تجد صورة صورة مؤطرة بالزجاج لرئيس الرايخ الهرم هندنبورغ مكانها على الذراع التي كانت تحرك في السابق قادوس الطاحونة. وبعد أسبوع من التغييرات المنزلية الطفيفة والمبادرات التنظيمية- يقوم الفم الذهبي بتوسيع الطريق الزراعي المؤدي إلى الطاحونة المعطلة ويضع بالشارع الواسع المؤدي من فيرزن إلى دولكن لافتة تبين الطريق إليها: إذن بعد أسبوع من الإعداد والتجهيز يقطع الطريق الجديد أصحاب الشركات الكبرى ووكلاؤهم ومعهم مخاوف تفكيك الكارتلات، لكن السوس الذي ارتاح أسبوعا كاملا وزادت رغبته في البوح، قد هدأ من روع مجموعة شركات «فليك» التي لا تحصى. يجلس أوتو-إرنست-فليك شخصيا على مقعد صغير ممثلا لأبيه وطالبا المشورة. لم يعرف الطحان من هو ذاك الشخص الذي يجلس أمامه ويبدل دوما وضع ساقيه فوق بعضهما، يجلس الطحان بود وصمت ويقلب مجلاته المصورة الممزقة، بينما تمتلئ السبورة بأسئلة

كثيرة. يطالب قانون تفكيك الكارتلات الذي وضعه الحلفاء الأب فليك بأن يتخلى إما عن الحديد أو عن الفحم. وينادي السوس «اترك مناجم الفحم!»- وبذلك تحصل الشركة القابضة التي انفصلت عن شركة «مانسمان» على أغلبية الأسهم في شركة إسن للفحم الحجري، شركة مساهمة. سيعود السوس للتنبؤ بشأن «مانسمان» من جديد. سيستطيع فليك الأكبر أن يتقرب من جديد من شركة «هاربنر» للفحم التي استولت عليها مجموعة شركات فرنسية بعد تسع سنوات، أي بعد خمس سنوات من خروجه المبكر من السجن وقد حدد سوس الدقيق موعده خروجه: هذه المرة سيكون من كبار المساهمين في الشركة.

وبالمناسبة، في العام نفسه يشترك د. ارنست شنايدر الذي زار الطاحونة بعد فليك الأصغر بقليل، في بنك «ترينكاوس» وتشارك معه مجموعة شركات ميشيل بأكملها- فحم بني فحم بني!- وفي صناعة ثاني أكسيد الكربون والتي يرأس مجلس رقابتها الأعلى بفضل السوس، حيث قام الطحان بلسان عريض كالفايكسل بتوزيع المناصب التي شغلها سوس الدقيق من قبل. وهكذا يوعد مدرب فروسية متقاعد - يعد من الشخصيات المحركة للاقتصاد النامي - بالإشراف على اثنين وعشرين مقعدا بمجلس الرقابة الأعلى من بينها ستة مقاعد رئاسية، حيث يتحتم على السيد فون بيلوف-شفانته للبقاء فوق حصانه أن يتخطى الكثير من الحواجز المعقدة المتجاورة التي وضعها الحلفاء.

خروج ودخول. يحيي السادة بعضهم بعضا على الدرج المؤدي إلى غرفة الطحان ماتيرن. بدأت شجرة الدار تمتلئ بالأسماء المشرفة، حيث يريد أغلب الزائرين تخليد أسمائهم في هذا المكان المعروف، شركة هوش أو اتحاد بوخوم. ترسل شركة «كروب» شركة «بايتس» نيابة عنها. وتعرف شركة «بايتس» كيف تعمل لصالح «كروب» في الظروف الاقتصادية المتقلبة وتتجنب تفكيك الكارتل. كذلك تبدأ المحادثات المصيرية بين السيد بايتس ونائب الوزير الأمريكي السيد ر. ميرفي مبكرا عن موعدها بفضل السوس: يتحدث سوس الدقيق عن محادثات السيدين بايتس وميرفي بشأن القروض طويلة الأجل للدول المتخلفة، لكنها ليست للدول، بل يتوجب على «كروب» أن توزع حصص القروض على القطاع الخاص بصورة هادفة. يتنبأ السوس بمشروع مصانع الحديد في الهند، كان من الممكن إقامة هذا المشروع في نيكلسفالده على الضفة اليمنى لنهر الفايكسل في

جمهورية بولندا الشعبية، لكن بولندا لم تقبل نصح السوس الألماني الشرقي.

كذلك شركات «زيمنس وهالسكه»، «كلوكنر وهومبولت»، النفط والبوتاس، حيثما يوجد الملح الصخري. نال الطحان ماتيرن هذا الشرف في صباح يوم أربعاء مطير. يأتي د. كفاندت شخصيا ويعرف كيفية حصول شركة فينترهال المساهمة على الأغلبية في مصانع بورباخ للبوتاس. يتم الترتيب لصفقة مستقبلية يشارك فيها الفم الذهبي الذي لديه رغبة في امتلاك منجم للبوتاس ما بين زارشتيت وهيلدسهايم.

في الوقت الذي يقضي فيه الطحان استراحته صباح يوم الخميس في تجريب تعليق لوحة رئيس الرايخ الهرم هندنبورغ على إحدى الدعامات- كان الجو ما يزال ممطرا - يكون الفم الذهبي الذي أتى بالأساس ليعطي الطحان كومة المجلات المصورة قد غادر المكان من جديد. في اليوم التالي يأتي خلفاء كارتل IG، حيث لم يمنعهم الهطول المستمر للأمطار عن المجيء. برغم تفكيك الكارتل تأتي شركات باسف وشركة باير وهوكست معا وتحدد مصائرها وفقا لما يقوله السوس: «لا توزيع للأرباح، بل الاستمرار في زيادة رأس المال». لكن كلمات السوس هذه ليست قاصرة فقط على شركات الكيماويات، بل كل من يأتي إليها سواء كانت شركة «فيلدموله» أو «إسو»، «هانيلس» أو «نورددويتشه لويد»، كل البنوك الغنية أو شركات التأمين - يعيد السوس الكلمات نفسها بإلحاح: «استغنوا عن الأرباح لزيادة رأس المال!» إضافة إلى المسائل الصغيرة: كيفية ربط مؤسسة «هيرتي» القديمة مع شركة «تيتس» الأقدم تحت إطار مؤسسة عائلة كارغ؟ هل ينبغي منح مؤسسة «برنينكماير» قروضا؟ ما هو الشكل المستقبلي لبدل الرجال - المقصود هو البدل الرجالي بصفين من الأزرار لإنعاش رغبات المشترين من جديد - والتي ستعرضها شركة «بييك وكلوبنبورغ» للملابس قريبا؟

يجيب السوس على الأسئلة بعد الدفع المقدم وتحصيل المصروفات الأساسية ويُلَمِّع نجمة «مرسيدس» ويتنبأ لشركة «بورغفارد» بالازدهار والبؤس ويعرف أخبار نقود خطة مارشال ويشارك في اجتماعات منطقة الرور ويصدر القانون الأساسي للبلاد قبل أن يقوم المجلس البرلماني بالمصادقة عليه ويحدد تاريخ إصلاح العملة ويعد الأصوات قبل بدء الانتخابات الأولى للبوندستاغ ويخطط برنامج بناء السفن بميناءي هامبورغ وكيل ويتنبأ بالأزمة الكورية القادمة ويؤثر في اتفاقية

بطرسبيرغ ويعلن اسم شخص يدعى د. نوردهوف محركا مستقبليا عن سياسة الأسعار وعندما يروق له الحال، يمارس ضغطا مخيفا على سوق الأسهم.

بخلاف ذلك، يبقى الاتجاه معتدلا، رغم أن سيدات شركة «تيسن» للحديد لم يهبن من الذهاب إلى الطاحونة المعطلة. هل هذه الطاحونة شابة؟ هل نُعمت تجاعيدها وبُطنت سمانتها؟ هل يقوم سوس الدقيق بدور الخاطبة؟ يُنصح أحد مرتدي الخوذات القيصرية المتقاعدين والذي يحيي صورة رئيس الرايخ الهرم منتصبا بود، أن يقيم علاقات عائلية مع الشخصية الرئيسية الفاعلة في الاقتصاد السيد فون بيلوف- شفانته، حتى تزدهر صناعة البناء: «أيها الإسمنت البورتلندي المحظوظ، تزوج!»، حيث إن السوس يفضل المشروعات الاقتصادية العائلية.

طبعا لا بد لمن يريد مقابلة سوس الدقيق أن يأتي حاملا في جعبته الخنوع وقوة الإيمان الطفولية. وهذا شيء لا يدخل عقل داهية الاقتصاد الذي لا يقهر هيالمار شاخت[١١] ذو الياقات الواقفة، برغم أنه يتفق في رأيه مع السوس. فكلاهما يحذر من الإفراط في التصدير ومن تراكم العملة الصعبة والتضخم في تداول النقد وزيادة الأسعار. لكن السوس يبوح بحل المشكلات القادمة. حينما يتصرف كل من وزير المالية شيفر ورئيس بنوك الولايات الألمانية فوكه - وكلاهما سيدخل التاريخ - كل بطريقته، ينصحهما سوس الدقيق بفتح الاحتياطات المستقبلية: لا بد أن يقوم الوزير باستخدام فائض الضريبة ولا يحتفظ بها كاحتياطي وعلى رئيس البنك أن يخرج الذهب المكوم للأسواق. والشعار هنا يشبه شعار محادثات كروب-بايتس-ميرفي أي: «معونات للدول المتخلفة!»

منطقة الجذب القوية الأولى. مشتريات أمريكا اللاتينية تدعم سوق الصوف. ينتعش سوق الجوت البريمي. تحذير من الدولار الكندي المتقلقل. تؤدي فترة معقولة من الاستقرار إلى عدم هروب الأسواق. يبقى الاتجاه العام معتدلا. يأمر الفم الذهبي بتعبيد الطريق المؤدي إلى الطاحونة بالأسفلت. خطط زواج مجنونة - يريد الطحان أن يتزوج من أرملة من فيزن - لكن المشروع يفشل لأن عليها أن تتنازل عن معاشها. يستمر الطحان في العيش وحده دون أن يشعر بالوحدة:

---

(١١) هيالمار شاخت (١٨٧٧-١٩٧٠) اقتصادي ألماني قام بالإصلاح النقدي عام ١٩٢٣ وكان وزيرا للاقتصاد في عهد هتلر (١٩٣٤-١٩٣٧). كان من ضمن المتهمين في محاكمات نورمبرغ وقد حكمت المحكمة ببراءته. (مترجم)

يقلب مجلاته المصورة: «كويك» و«كريستال» و«شتيرن» و«ريفو» ومجلتي ميونيخ وفرانكفورت المصورتين وهما الآن في عامهما الثالث وكلها يحصل عليها بالمجان مع الشكر والعرفان. وكل هؤلاء الذين وثقوا به من البداية أو الذين اهتدوا إلى طريق الصواب متأخرين، يعاودون المجيء إليه أو يأتون إليه للمرة الأولى خجلين، يحفرون أسماءهم أو يؤكدون عليها فوق شجرة المنزل. يأتون بهدايا صغيرة ويسعلون عندما يخرج دخان المدفأة بفعل رياح الشرق. جاء السادة الذين بدأوا من الصفر: مونمان وشليكر ونيكرمان وغرونديج: والثعلبين العجوزين ريمتسما وبرينكمان وقيادات كبيرة مثل آبس وفوربيرغ وبفيردمنغس وجاء ايرهارد صانع المعجزة الاقتصادية بانتظام وسُمح له بابتلاع سوسة دقيق زائدة. ما زالت السوسة تعيش للآن بأعجوبة، صانعة للمعجزات في جسد الرجل القدوة. التوسع التوسع! ينقذ سوس الدقيق اقتصاد السوق الحر. منذ البداية كان السر في بطن أبي المعجزة الاقتصادية «لا تنصتوا للسوسة، فداخل السوسة سوسة!»

وهكذا تصدر المعارضة نقيقها ولا تأتي للطحان ولا تدفع ولا تسعل عند هبوب رياح الشرق ولا تتشاور معه. إنها ترفض، وفقا لقرار الجناح البرلماني للحزب، أن تشارك في شعوذات العصور الوسطى. عرف بعض مسؤولي النقابات طريقهم سرا إلى الطاحونة ولكن رغم وضعهم للخطوط العامة لعمل النقابات وفقا لنصائح السوس فسيتم إبعادهم آجلا أو عاجلا - فلنتذكر مصير فيكتور أغارتس. يعتبر كل الاشتراكيين الديمقراطيين الطحان وزبائنه هراطقة. لم يحصد المحامي ارنت شيئا سوى السخرية، عندما اعتبر استشارة سوس الدقيق أمرا يخالف القانون الأساسي، مادة رقم ٢، لأن تقليد استشارة السوس يعوق التكوين الحر لشخصية الفرد. نشأت نكات ساخرة داخل حزب الاشتراكيين الديمقراطيين في بون ولما انتشرت كشعارات انتخابية، أفقدت الحزب كثيرا من الأصوات الضرورية. ولم تخل أية خطبة انتخابية لزعيم الحزب السيد شوماخر، أو بداية من أغسطس عام ١٩٥٢، للسيد أولنهاور من السخرية والتندر على الاستشارات داخل الطاحونة المعطلة. يتحدث قياديو الحزب عن «علاج السوس الرأسمالي» ويظلون - ولا عجب - في مقاعد المعارضة.

لكن رجال الدين يأتون. لا يأتون في مقدمة موكب مرتدين قلنسوات الكرادلة، غالبا ما يأتي رجال من طائفة الدومينيكان سيرا على الأقدام أو

بدراجات، فنادرا ما يركب هؤلاء موتوسيكلات أو سيارات.

ليسوا من الزبائن المفضلين، بل من المقبولين على مضض. يجلسون وقد فتحوا كتبهم تحت منصب الطاحونة وينتظرون في خشوع حتى يعرف د. أوتكر القادم من بيليفيلد أن الوقت الحالي يتطلب منه التالي: «اخبزي بمسحوق خبيز د. أوتكر أسطولا من السفن. حركي مسحوق بودنغ د. أوتكر، واتركيه يغلي ثم يبرد، ألقيه بحذر في بحار العالم السبعة. انظري: سفن د. أوتكر تسبح!» وبعدما خلد د. أوتكر اسمه على شجرة المنزل وانصرف، كان على الأب روخوس أن يمسح نظارتيه بشيء من التعجب، لأنه بمجرد كتابته لعبارة من كتاب تعاليم الدين المسيحي على السبورة المعوجة: «يا رب! أرسل لنا روحك، وسيعاد خلق كل شيء من جديد» يتحدث السوس بالنيابة: تطمح كنيسة الخلاص الأوحد من خلال الحزب المسيحي الحاكم إلى العودة إلى الزمن القوطي والروماني المتأخر. لا بد من إعادة بناء مملكة شارلمان الكبير من جديد حتى ولو لزم الأمر الاستعانة بقوى أجنبية. مؤقتا ليس من الضروري البدء بالتعذيب وحرق الساحرات، لأن هراطقة مثل غيرستنماير(١٢) وديبيليوس(١٣) سينهلون البركة من يد العذراء دون أن يطلب أحد منهم ذلك: «ماريا يا أم الطفل يسوع، امنحينا بركتك.» يعود الآباء الورعون سيرا على الأقدام محملين بهدايا السوس. في إحدى المرات تلقي الرياح بست راهبات فرنسيسكانيات من دير راهبات آخن أمام الطاحونة. وبالرغم من أن الأخت ألفونس-ماريا رئيسة الراهبات الجديدات قد بقيت لدى الطحان نصف ساعة كاملة طلبا للمعلومات، فإن ما سيقوله السوس للراهبات يجب أن يظل سرا، المؤكد هو: أن السوس الكاثوليكي-الطحان كاثوليكي مؤمن - قد أعد رسائل كنسية لكل الأحوال والمناسبات. همس السوس باسم وزير قادم اسمه فورملينغ (أي سُويِّسة) سيقوم بمعونة العائلات الكاثوليكية بتأسيس دولة داخل الدولة. يضع سوس الدقيق مشروعات قوانين، يصر سوس الدقيق على اتخاذ إجراءات لصالح المدارس الطائفية. يرفض سوس الدقيق الكاثوليكي إعادة توحيد ألمانيا وذلك لأسباب دينية. يحكم سوس الدقيق

---

(١٢) عالم لاهوت بروتستاني وعضو في حركة المقاومة الألمانية في ظل النازية. (مترجم)

(١٣) أسقف برلين منذ عام ١٩٤٥ ورئيس مجلس الكنائس البروتستانتية في الفترة من ١٩٥٤ حتى ١٩٦١. (مترجم)

غرب ألمانيا لأن نصف الدولة الألمانية الشرقية قد أرسلت واضع خططها إلى الطاحونة بعد فوات الأوان.

قبل أن يهرب الطحان بزكيبة الدقيق ذات العشرين رطلا، والتي تحتوي بالمناسبة على بضعة أرطال من الدقيق الإيبي، من دلتا الفايكسل البولندية، أي قبل أن يتمكن من المشاركة مع سوس دقيقه المغذى جيدا في تخطيط مجمع الحديد والصلب بمدينة ستالنشتات في منطقة أودربروخ وبناء مجمع الطاقة شفارتسه بومبه وفي استخراج اليورانيوم والتنغستين مع شركة فيسموت المساهمة ذات السمعة السيئة وفي تشكيل الألوية الاشتراكية، قام موظفون يرتدون الملابس المدنية بتأمين المنطقة المحيطة بالسوس المتكلم، فلو تمكن السيدان لويشنر(١٤) وميفيس(١٥) في الماضي- بل لقد أرسل أولبرشت(١٦) نوشكه(١٧) أيضا - من اختراق هذا النطاق الحاجز الذي وضعه جنرال بمعونة رجاله، لبدا شكل جمهورية ألمانيا الشرقية اليوم مختلفا ولكان لديها كم كبير من محصول البطاطس وفائض في دبابيس المكتب. ولكن على هذا النحو لا تملك جمهورية ألمانيا الشرقية أي شيء ولا حتى القدر الكافي من السلك الشائك.

ونتيجة لتلكؤ مشابه لا يتمكن منتقدو المعجزة الاقتصادية، الذين هاجموا شخص إرهارد الرمزي، من اللحاق بالعربة المتجهة إلى دولكن حيث الطاحونة. ولو ذهب السيد كوبي وكل فناني الكباريه السياسي الساخر إلى الطحان لامتلكوا الحجج والوسائل التي يتمكنون بها من تقويض دعائم الامبراطورية الرأسمالية. فمن الخطأ القول إن السوس المتحيز، لم يفكر إلا في كونراد أديناور فقط. بالعكس! سيؤكد رجال الصحافة وهؤلاء الذين أتوا بهموم تفكيك الكارتلات أنه قد شاع داخل زكيبة الدقيق جو من العداء لأديناور منذ البداية. لم يقترح السوس عمدة برلين عديم النفع والذي لم يأت إليه إلا أربع مرات فقط طلبا للمشورة في أمور السياسة الخارجية، مستشارا اتحاديا. لم يكن تصويت السوس لأديناور. لقد

---

(١٤) نائب رئيس مجلس الوزراء بجمهورية ألمانيا الديمقراطية عام ١٩٥٥.

(١٥) أول رئيس للجنة العامة للتخطيط بجمهورية ألمانيا الديمقراطية.

(١٦) أول رئيس لجمهورية ألمانيا الديمقراطية.

(١٧) أول رئيس للحزب الشيوعي في جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

صوت بالإجماع لصالح «هانس غلوبكه[١٨]، رجل المقاومة الصامت الواقف دائما وراء الكواليس.»

لكن ما حدث كان شيئا آخر ولو لم يعمل مؤيدو رأي السوس على جعل د. غلوبكه مستشارا في الظل، أي لو لم يستمع كثير من ممثلي حزب السوس في البرلمان وعدد من وكلاء الوزارات لمشورة د. غلوبكه، لتدهورت الأوضاع كثيرا.

والطحان ماتيرن؟ أي شرف ناله؟ هل كانت الاشتراكات المجانية للمجلات المصورة وهدايا رأس السنة كالتقاويم هي مكسبه الوحيد؟ هل حصل على أية مناصب أو أوسمة أو مجموعة من الأسهم؟ هل صار غنيا؟

في بادئ الأمر لم يحصل ابنه، الذي جاء لزيارته في مارس عام ٤٩ مصطحبا كلب رعاة أسود، ولا على بفنيغ واحد. في الخارج تهز الرياح الغربية المراوح المعطَلة. انصرف أصحاب شركة نيكرس-اولم للمحركات وشركة المراجل المتحدة. انتهت الاستشارة. تقبع زكيبة الدقيق في خزانة حديدية من إهداء شركة كراوس-مافاي المساهمة التي تمتلك فيها شركة بيدروس أغلبية الأسهم والتي تتبع شركة فليك. وقد ارتأى الفم الذهبي وضع الزكيبة بالخزانة لدواعي الأمان. كذلك هناك بعض الممتلكات الجديدة التي ليس لها وظيفة نفعية، كقفص الطيور - هدية من شركة فنترهال المساهمة - وبه عصفوران ملونان - هدية مؤسسة غيرلنغ. لكن الأب والابن يجلسان صامتين أمام بعضهما وبين الفينة والأخرى تصدر عنهما بعض كلمات ليس لها وزن مثل «أي نعم»، و«هذا هو حال الدنيا!» إلخ. . .ثم يفتتح الابن الحديث: «ويا ترى السوس ماذا يقول السوس يا أبي؟»

ويلوح الأب مشيحا بيده: «ماذا يقول؟ لا شيء، حكايات في حكايات.»

عندئذ يسأل الابن عن الأم والعمة: «وأمي؟ وعمتي لورشن؟ هل تركتهما وحدهما؟»

يشير الطحان بإبهامه إلى الأرض: «كلاهما غرقا في الطريق»

ثم يخطر ببال الابن أن يسأل عن معارف أبيه: «وكريفه ولورمان وكارفايزه

---

(١٨) أحد رجال القانون الذين وضعوا قوانين حرمان اليهود من المواطنة في عهد النازية. وصار بعد الحرب كبير معاوني المستشار أديناور.

وآل كابرون وفولشرت الكبير ولاو وبنته هيدفيغ من ناحية شيفنهورست؟»

يشير الطحان بإبهامه إلى الأرض مرة ثانية: «غرقوا! كلهم غرقوا في الطريق!»

وطالما أن الأم والعمة وكل الجيران قد غرقوا في بحر الشرق، فلا بد من السؤال عن طاحونة الأب. ويعاود الأب الإعلان عن خسارة جديدة: «احترقت في عز الظهر». كان على الابن أن يصرخ دائما لكي يحصل من أبيه على المعلومات. كان يصرخ في البداية بحذر، ثم تحرر من حذره مصرحا برغباته. لكن الأب لم يفهم لا بالأذن المفلطحة ولا بالأذن الواقفة. لذلك بدأ الابن يكتب له رغباته بالقلم على السبورة المعوجة: إنه يطلب مالا «فلوس، فلوس!»، إنه مفلس: «حظ سيئ وفلس!». يومئ الأب الطحان برأسه وينصح الابن إما أن يعمل في منجم الفحم أو يعمل عنده: «اليد البطاله نجسه، شوف لك حاجة تعملها هنا، أكيد سنكمل البناء هنا قريبا.»

لكن قبل أن يقرر الابن ماتيرن بكلبه الأسود مساعدة أبيه، يريد أن يسأله عما إذا كان يعرف شخصا يدخن كثيرا وينادونه الفم الذهبي وعما إذا كان السوس قادرا على مساعدته في العثور على هذا الرجل: «اسأله لي يا أبي.»

يتحجر الطحان وتصمت الديدان داخل خزانتها الحديدية ماركة كراوس مافاي. لكن العصافير الملونة تثرثر في قفصها. ورغم ذلك يبقى ماتيرن الابن ويبني لبلوتو في الطاحونة المعطلة كوخا خشبيا. لو مر الفايكسل من هنا ولو امتدت سدوده من أفق إلى أفق لكانت القرية الواقعة على الجهة المقابلة هي شيفنهورست، ولسُمي هذا المكان الذي يأتي إليه أباطرة المال ووكلاؤهم نيكلسفالده. ولذلك سيسمى المكان عن قريب نيكلسفالده الجديدة.

يهيئ الابن ماتيرن مكان إقامته. يوقع الأب والابن عقد عمل قانونياً. وعلى الفور يكون على الكلب بلوتو حراسة الطاحونة بما فيها وأن يعلن عن قدوم الزائرين بنباحه. ومهام الابن هي التنظيم الخارجي لمشروع السوس الاقتصادي. يعمل الابن بوصفه مسؤولا عن الصيانة، يزيد أجره عن التعرفة المقررة بتخطيط ساحة انتظار لصف السيارات ولكنه يرفض مشروع بناء محطة بنزين تابعة لشركة اسو. وفي حين أن محطة البنزين قد أُنشأت عند منعطف الطريق المؤدي إلى طريق دولكن، يسمح ماتيرن للبريد الاتحادي ومؤسسة بلاتسهايم أن يبنيا مبانيهما حول

ساحة الانتظار لكن المباني يجب ألا تزيد في النواحي الثلاث على دور واحد، كي تفوق الطاحونة في علوها التجارة المنتعشة تحتها، حيث أصبحت الطاحونة شعارا قوميا ويمكن تعليقه كدبوس بالملابس. يقوم كل من سنترال التليفون والمكتب بنقل وصياغة تعليمات السوس. يأوي المبنى الرئيسي مطعما بسيطا واثنتي عشرة غرفة مفردة وست غرف مزدوجة، حتى تنال أفكار السوس قسطا من الراحة والنوم. وفي القبو هناك بار، يجلس فيه عصرا المتخصصون من زوار السوس وهم من يسمونهم اليوم القيادات. يطورون أثناء تناولهم للمشروبات المثلجة وأكلهم للوز المملح رغبة السوس في تشكيل احتكارات ويتناقشون بشأن نظام المنافسة الذي نخره السوس، ويبيعون ويوزعون الأرباح ويدعمون مؤقتا. . .، ويتجهون بهدوء إلى. . .، ويتصرفون بطريقة غير موحدة ويمارسون ضغطا على. . . ويخصمون من. . .وينجذبون بقوة لـ. . . وينظرون مبتسمين إلى لافتة علقها مسؤول الصيانة ماتيرن في داخل البار وقد كُتبت بحروف بيضاء على خلفية حمراء: «بدون السوس، تقف التروس.»

لأن ماتيرن الابن يتحدث مع الزوار. وكثير من جمله تبدأ بالصيغة نفسها: «لقد أثبتت الماركسية اللينينية. . .» أو «كذا وكذا سيتحقق على أجنحة الاشتراكية»

ينقبض زوار السوس المتخصصون - حيث إنهم لم يصيروا قيادات بعد وهم جالسون على مقاعد البار، عندما يشير مسؤول الصيانة ماتيرن بحركة لينين الشهيرة مشيرا إلى اللافتة ذات اللونين الأحمر في أبيض ويتحدث عن جماعة السوس وعن البنية السوسية للاشتراكية الظافرة وعن التاريخ بوصفه عملية جدل سوسي. بينما يسهم الطحان الأعوج بزكيبة دقيقه في الغرفة العلوية في بلوغ الاقتصاد الألماني مكانة عالمية متميزة - في هذا الإطار ندين بالشكر أيضا لكتاب المنظر الاقتصادي أويكن: «مهام سوس الدقيق العام في ظل دولة القانون»-، يسب ابنه سوس الدقيق المستغل المحتكر. عبارات مقتبسة مليئة بالسوس. هناك سوس ذو وعي طبقي وسوس خالي من الطبقات. البعض يتدربون على التعليم الذاتي الجماعي والآخرون يكتبون يوميات الألوية. رواد السوس يبنون للاشتراكية بيتا. عند تغير الأوضاع الاجتماعية يمكن للسوس الرأسمالي أن يهتدي إلى. . . يطهرون أنفسهم، ينفصلون وينتصرون. أثناء أحاديث البار التي لا تنتهي - الأب ماتيرن في سابع نوم ويحلم بالمقابر التي يظللها اللبلاب على

يمين ويسار مصب الفايكسل - يقوم ماتيرن منحنيا على كؤوس الويسكي والجين بنشر أساطير السوس المطعمة بالماركسية والتي تدعم مقولة حتمية كل التطورات: «لأن هناك سوساً مخططاً وألوية سوس تخطو طريق الأنا والنحن على جناح الاشتراكية.»

يتحدث مسؤول الصيانة ماتيرن حديثا لا بأس به. تحيط يديه فوق البار المعبق بالدخان بكأس الويسكي، وتظهر صلعته تحت ضوء السقف، يلوح بالمشروب ذي الرنين الثلجي ويشير بإصبع لينين إلى المستقبل ويمثل أدوارا تعليمية أمام جمهور محب للمسرح. لأن الجالسين هنا هم زوار السوس المتخصصون آبس وبفردهمنغيس والسيدات تيسين وأكسيل شبرنغر والإداري القائد بلسنغ والنقابي شتاين والشركاء الضامنون والأعضاء في سبعة مجالس رقابية بالشركات - كلهم يشاركون في اللعبة، لأن لكل واحد منهم رأيه ويريد أن يعبر عنه، إضافة إلى أن لكل واحد منهم لحظات يسارية في الماضي. ليس بيننا غرباء: «كراوس-مافاي وبيدروس!» أيها المحاربون القدامى: «لوبرت وبيلوف-شفانته، أبناء ألفرد وورثة هوغو». عادة ما يجد ماتيرن بعد منتصف الليل أناسا يتحدث إليهم. ليس هناك منهم من هو هانئ البال. الجميع حتى الأرملة زيمنس تحمل آلامهما، حتى شركة فونيكس-راينرور لم تقف على قدميها بين يوم وليلة. «لكن يا شركات إعادة التأمين ويا شركات التأمين ضد الصقيع ويا مستخدمي القطران ومصنعي الحديد الصلب ويا شركات كروب وفليك وشتوم وشتينيس ذات الفروع العديدة والمتشابكة: الاشتراكية ستنتظر، فلنقرع الأنخاب! هذه إرادة سوس الدقيق! في صحتكم! الاتجاه العام معتدل! أنت رائع أيها الفتى رغم أنك كنت من قواد فرق الحماية، ما فات مات. لقد كنا جميعا. . . . كل على طريقته. يمكنك أن تناديني فالتر!»

لكن هذه الأخوة أسفل الطاحونة المعطلة لا تظهر إلا بعد منتصف الليل. أثناء النهار، عندما تكون ساحة الانتظار مكتظة ويكون الضغط على خطوط التليفون فوق المحتمل والمقابلات في ذروتها، تدور حروب عقائدية صغيرة. ليس هناك ممولون غامضون لمسؤول الصيانة، إنه يطبع المنشورات على حسابه. لكنها منشورات فريدة من نوعها لأن لها غرضا وظيفيا.

فعلى اليسار يحل تاريخ عائلة ماتيرن محل عبارات ماركس وعلى اليمين تسجل

أقلام تحسن التصرف السريع، السعة السنوية المتوقعة لمصنع روكليا المخطط إنشاؤه في أوريسا بالهند.

على اليسار يتعجب كل من ليبكنيشت وروزا لوكسمبورغ من الأوضاع وعلى اليمين يعلن أن أسهم روسلسهايم ستجلب أرباحا متميزة مقدارها ٦٦٪ بعد أعوام قليلة.

على اليسار يؤسس زعيما العصابة زيمون وغريغور ماتيرنا في بداية القرن السادس عشر ألوية ذات وعي جماعي، وعلى اليمين اتحاد «مونتان»[١٩].

على اليسار يقرأ كل من يحلو له أن يقرأ، عن إيمان جد مسؤول الصيانة بنابليون وبيعه رغم ذلك سلالم الهجوم للروس، وكيف صنع من خلال ذلك ثروة من أموال العسكريين والرأسماليين. وعلى اليمين تدون الاستثمارات والديون الساقطة عن شركة بادن للأنولين والصوديوم (BASF) في عام ٥٥ الذي ما يزال بعيدا.

الخلاصة: بينما يدعي مسؤول الصيانة ماتيرن على الناحية اليسرى من الورقة الحمراء أنه يريد الإسراع بتقويض دعائم المجتمع الرأسمالي الغربي الآيل للسقوط، تملأ الناحية اليمنى غير المطبوعة من المنشور نفسه: منحنيات الأسعار وسجلات البورصة وتعليمات الكارتلات - يا له من تطبيق رائد ومجسد لمفهوم التعايش!

ويا لها من متعة مجانية لو تتخلل هذه القصة التي تقترب من نهايتها حكايات أخرى، فمن ذا الذي لا يستطيع أن يروي حكايات في هذا الزمن. مثلا أقصوصة شركة «أوفا» التي أرسلت وكلاءها إلى نيكلسفالده الجديدة في وقت متأخر. في استطاعة الجميع الآن أن يلقوا مرثياتهم. مثلا موال الإهمال الكبير في مجال الزراعة، برغم أن سوس الدقيق قد أعلن دون إهمال من داخل زكيبته عن الأزمات الزراعية القادمة. كان باستطاعة الجميع أن يطرحوا موضوعات للثرثرة والنميمة. مثلا تحالفات هامبورغ: بين داري نشر روزنتال وروفولت. أسباب طلاق شبرنغر، والانتقادات المملة للمجتمع. دعونا من ذلك ولنوجز القول: منذ مارس ١٩٤٩ وحتى صيف عام ٥٣ عمل فالتر ماتيرن الذي أتى ليحاكم بكلب أسود، كمسؤول صيانة وابن مقيم لدى أبيه أنطون ماتيرن الذي أتى ليعطي

---

(١٩) هو المجموعة الأوروبية لتعدين الفحم وصناعة الحديد والصلب.

المشورة بزكيبته الهامسة ذات العشرين رطلا. والاسم الشائع لهذه الفترة هو الفترة الأولى للمعجزة الاقتصادية. ونيكلسفالده الجديدة هي بمثابة المنشأ لهذه الحقبة. ستبقى أشياء كثيرة غامضة (إشاعات عن مؤمرات وتورطات دولية). مثلا لا يرى ماتيرن الفم الذهبي أبدا، رغم أن الجميع يعرفون أنه...، لا يعرف أحد أين هو، ولا حتى سوس الدقيق. لكن السوس يبوح بموت ستالين قبل إعلان الوفاة رسميا. وبعد أسابيع قليلة ينبه كلب الحراسة الطليق بلوتو في الليل إلى نشوب حريق أسفل الطاحونة ! يتم إطفاء الحريق بسرعة. فقط سيتم تغيير أربعة من الحبال المثبتة للمنصب. لم يلحق بالسقف أو بدعائم السقيفة أية أضرار تذكر. يأتي رئيس شرطة دوسلدورف. حريق بفعل فاعل! لكن محاولات الربط بين الحريق والهجوم الناجح على الطاحونة بعد ذلك، تتحول إلى مجرد خرافة، حيث لا توجد ليومنا هذا أية دلائل تربط بين الواقعتين. كذلك لا يمكن التحقق من التكهنات التي تربط بين موت ستالين والحريق الفاشل من ناحية وبين الهجوم الناجح على الطاحونة وثورات العمال في منطقة الاحتلال السوفياتي من ناحية أخرى. ورغم ذلك فإن الشيوعيين هم المتهمون بإشعال الحريق والخطف.

وهكذا يُستجوب ابن الطحان ماتيرن لأسابيع كاملة. لكنه ليس حديث العهد بالاستجوابات. فقد كان يسعد دائما بلعبة السؤال والجواب. قال لنفسه إن كل إجابة يقدمها تستحق تصفيق الجمهور.

«المهنة التي تعلمتها؟»

«ممثل.»

«المهنة التي تمارسها حاليا؟»

«كنت أعمل مسؤولا عن أعمال الصيانة في طاحونة أبي حتى يوم الهجوم على أرض الطاحونة.»

«أين كنت في الليلة المذكورة؟»

«في بار القبو.»

«من يشهد بذلك؟»

«السيد فيكو فون بيلوف-شفانته، وهو مدير مجلس الرقابة بمؤسسة شتوم والسيد لوبيرت، الشريك الضامن لشركة ديكرهوف وفيدمان، والسيد غوستاف شتاين وهو أحد المديرين باتحاد الصناعات الألمانية.»

«عم تحدث الشهود؟»

«في البدء تحدثوا عن تقاليد فرقة الفرسان التي خدم بها السيد فون بيلوف-شفانته ثم عن مساهمة شركتي لينتس-باو المساهمة وفايس وفرايتاغ في إعادة بناء غرب ألمانيا وفي النهاية أوضح لي السيد شتاين أن هناك كثيراً من الأشياء المشتركة بين المثقفين القياديين والقياديين في مجال الاقتصاد والأعمال.»

ومهما أصر الجناة الحقيقيون على البقاء وراء الكواليس، فإن الحقيقة هي كما يلي: رغم مؤسسة غيلن[٢٠] والنطاقات الأمنية الثلاثة الحاجزة، تمكن مجهول في ليلة السادس عشر من يونيه عام ٥٣ من اختطاف الطحان أنطون ماتيرن القاطن بالطاحونة المعطلة في نيكلسفالده الجديدة. وبخلاف الطحان اختفت الأشياء التالية من الطاحونة في صباح السادس عشر من يونيه، اختفت من السقيفة صورة مؤطرة بالزجاج لرئيس الرايخ الألماني السابق هندنبورغ وجهاز راديو ماركة غروند يج. وفي الغرفة السفلية أعداد مجلة «هور تسو» على مدى خمس سنوات وعصفورين ملونين بقفصهم وزكيبة دقيق وزنها عشرون رطلا كانت محفوظة داخل خزانة حديدية، استطاع الجناة (تفترض أن الشرطة أنهم عدة أشخاص) فتحها دون استخدام العنف. أثار اختفاء زكيبة الدقيق والطحان ذعرا في الأوساط الألمانية الغربية، نظرا لأن بداخل الزكيبة المسروقة سوس دقيق ألماني شرقي استطاع من خلال التوجيه المركزي أن يقود إلى ازدهار الاقتصاد الألماني الغربي الذي ظل منشطا لحركة الاقتصاد رغم أن نهاية هذا الازدهار قد لاحت في الأفق. مثلا في بار القبو وفي ساحات انتظار السيارات يتناقش السادة الذين لم يسمح لهم بمغادرة نيكلسفالده الجديدة طوال فترة التحريات عن كوارث مشابهة في التاريخ الألماني وتاريخ الغرب. يتفوهون بكلمات مثل كانيا، وترلوو أو ستالينغراد. ويتذكرون الكاريكاتير الإنجليزي الذي صور إقالة بسمارك من منصبه في ذاك الوقت معلقا عليها بالتحذير التالي «القبطان يغادر السفينة»، وهناك من وجد أن التعليق لا يعبر عن الموقف بصورة كافية فأضاف إليه صفة أكثر إيحاء: «القبطان يغادر السفينة الغارقة!»

مع ذلك لا يُسمح للرأي العام بمشاركة الشخصيات القيادية القيادية فزعها.

(٢٠) راينارد غيلن رئيس المخابرات الألمانية الغربية سابقا.

ورغم عدم وجود أي حظر لنشر أخبار بهذا الخصوص، لا تتصدر عناوين مثل «سوس الدقيق يغادر ألمانيا» أو «هجوم سوفياتي على على مركز الاقتصاد الغربي الألماني» أو «نجم ألمانيا يأفل» الصفحات الأولى للصحف، حتى صحيفة «بيلد» تتكتم الخبر.

ولا تنطق صحيفة «دي فيلت» بكلمة واحدة عن الموضوع. يكتفي كل ما يسمي نفسه صحيفة ما بين هامبورغ وميونيخ بالكتابة عن انتفاضة عمال البناء في شارع ستالين ببرلين الشرقية، لكن أولبرشت يبقى مدعوما بضجيج الدبابات، بينما يختفى الطحان أنطون ماتيرن دون أية موسيقى مصاحبة.

وبعد ذلك ينكر جميع من يعيشون بفضل أقوال الطحان المحلاة بلهجته المحلية مثل كروب وفليك وستينه وكل من يسيرون على النهج الذي نصحت به الديدان مثل بنك الولايات الألمانية وكعك بالزن، وكل من وقفوا طوابير أمام الطاحونة المعطلة مثل الشركات القابضة والغرف التجارية والبنوك والاتحادات الفيدرالية، كل هؤلاء ينكرون الاستشارات التي حصلوا عليها من الطحان. ومنذ هذه اللحظة لم يعودوا يقولون في الخطب الاحتفالية وعند افتتاح الجسور الجديدة وتدشين السفن: «إن سوس الدقيق قد همس لنا بالرخاء، يرجع الفضل فيما نملك للطحان وزكيبته ذات العشرين رطلا. يعيش الطحان أنطون ماتيرن!» بل صار زوار السوس المتخصصون يتحدثون كل على حدة في الأجواء العاصفة والهادئة على السواء عن: الدأب الألماني وعن اجتهاد الشعب الألماني وعن طائر العنقاء الذي قام من وسط الرماد وعن معجزة ميلاد ألمانيا من جديد، وعامة عن رحمة الرب التي لا يتم شيء بدونها.

الوحيد الذي تسبب اختفاء الطحان في عدم استقراره هو ماتيرن الذي كان في السابق مسؤول صيانة الطاحونة. يجوب البلاد عاطلا عن العمل مصطحبا معه كلبه الأسود ويصر بأسنانه. لكل رخاء أوان أن ينتهي. لكل معجزة سبب. وقبل كل كارثة كان هناك تحذير: «لا تنصتوا إلى السوسة فداخل السوسة سوسة.»

الماتيرنياده المعقمة الثامنة والثمانون:

الاتجاه العام سقيم. صار الرأس أصلع. يسير عابسا متجهما لكنه حازم مع الكلب. وبلوتو يتبع الأوامر، فقد راحت أيام الشقاوة. كبر السن أمر مضن،

لأن كل محطة لا تتحدث عن التالية عليها إلا بالسوء. وفي كل مرعى يرعى آخرون. وفي كل كنيسة الرب نفسه: ها هو الإنسان! أنظروا إلي: أصلع حتى من الداخل. خزانة فارغة مليئة بالملابس الرسمية لكل الاتجاهات. كنت أحمر ولبست البني وسرت مرتديا الأسود ولونت نفسي بالأحمر. ابصقوا علي. ملابس لكل الأغراض، حمالات بنطلونات قابلة للتعديل، قط بسبع أرواح يمشي مرتديا حذاء من رصاص، أصلع الرأس، مجوف الداخل والخارج مغطى بهلاهيل القماش الحمراء والبنية والسوداء - ابصقوا! لكن براوكسل لا يبصق بل يبعث بدفعاته المقدمة ويقدم له نصائح ويتحدث عرضا عن الاستيراد والتصدير وقرب نهاية العالم، بينما أصر أنا بأسناني: الأصلع يريد الانتقام. موضوعنا هنا هو الأسنان. اثنتان وثلاثون سنا. حتى الآن لم يضع أي طبيب أسنان آلته في فمي. كل سن محسوبة.

الاتجاه العام سقيم. حتى محطة كولونيا الرئيسية، لم تعد كما كانت عليه من قبل. فلقد غلف يسوع المسيح الذي يستطيع مضاعفة الخبز وإيقاف تيارات الهواء أبواب ونوافذ المحطة بالزجاج. قام المسيح الذي غفر لنا جميعا بطلاء ميناء مبولات مرحاض كولونيا الرجالي من جديد. لم تعد هناك أسماء محملة بالذنوب ولا عناوين خائنة. الجميع يريدون أن يعيشوا في سلام وأن يأكلوا البطاطس الطازجة كل يوم، ماتيرن هو الوحيد الذي ما يزال يستشعر تيار الهواء والأسماء المؤلمة المنقوشة على القلب والطحال والكلى. لا بد من شطبها جميعا. كأس من البيرة في صالة الانتظار. دورة مع الكلب حول الكاتدرائية لكي يبول على أركانها الاثنين وثلاثين وبعد ذلك كأس آخر من البيرة على الجهة المقابلة. حديث مع الصعاليك الذين يعتبرون ماتيرن صعلوكا. وبعد ذلك المحاولة الأخيرة مع مرحاض الرجال. الرائحة نفسها، رغم أن البيرة كانت في السابق أسوأ وأخف. شراء الواقي الذكري أمر لا معنى له. يقف بظهر محنيّ وقضيب فحل ويبول في المبولات الاثنتين وثلاثين التي لا يجد فيها أي اسم. يريد ماتيرن زيارة معارف قدامى في مولهايم. «آل زافاتسكي؟ لم يعودوا يسكنون هنا. لقد بدأوا بمحل صغير لملابس الرجال ثم اشتروا خطوط إنتاج ويقال إنهم افتتحوا محلا كبيرا ذا طابقين في دوسلدورف.»

لقد استطاع حتى الآن أن يتجنب هذه المنطقة الموبوءة. مر دائما بها، لكنه لم

ينزل فيها. هل نزل بكولونيا؟ نعم وأيضا في نويس حاملا إبرة التريكو. قضى أسبوعا في بينرات. وزار المنطقة الواقعة ما بين دورتموند ودويسبورغ. وقضى ذات مرة يومين في كايزرفيرت. بات في بوديريش، لكن ليس في لوكاندة هانزن الرخيصة. احتفل بأعياد الميلاد في زاورلاند لكن ليس مع لاعبي الأكروبات. زار كريفلد ودورن وغلادباخ والمنطقة الواقعة ما بين فيرزن ودولكن حيث أحدث أبوه المعجزات بسوس دقيقه، كل ذلك سيئ جدا ولكن ما هو أسوأ هو هذا الورم الطاعوني الذي لُصقت عليه الشبابيك الدائرية. هذه الإهانة لرب غير موجود. هذه القطعة من الخردل التي جفت ما بين دوسل والراين، هذه البيرة المتخمرة الراكدة التي يصل علوها عدة طوابق، هذا الجنين المجهض الذي جاء إلى العالم بعد أن ضاجع يان فيليم جنية النهر «لوريلاي». تسمى الآن مدينة الفن، مدينة المعارض الفنية ومدينة الحدائق. بابل البورجوازية الصغيرة. قلعة التلوث بمنطقة الراين السفلى وعاصمة الولاية، أم المعمودية لمدينة دانتسيغ. هنا عانى وتشاجر كريستيان ديتريش غرابه[٢١]، لكنه فضل أن يموت في دتمولت لا هنا. ضحكات غرابه: «تمكنت من أسخر من روما فلم لا أستطيع أن أسخر من دوسلدورف؟» دموع غرابه، معاناة عيني هانيبال العجوزين: «ابكوا جيدا يا أصدقاء الرياضة! ابكوا في الأوقات المريحة بعد أن تكونوا قد فزتم بكل شيء.» لكن ماتيرن يأتي بدون باعث على الضحك أو دموع في العينين. يأتي يقظا مع كلب أسود عند قدمه لينتقم من مدينة دوسلدورف الجميلة التي يحكمها أيام الكرنفال حرس الأمير الذين يرتدون أبيض في أزرق والتي ينتعش فيها المال وتزدهر فيها البيرة ويزبد الفن فيها. دوسلدورف التي تستمر الحياة فيها: مرحة مرحة!

لكن الاتجاه العام سقيم أيضا لدى آل زافاتسكي. تقول إنغه: «لقد غزا الصلع رأسك يا رجل.» يسكنون في شارع شادو فوق المحل، في منزل مكون من خمس غرف بأثاث ممتاز. يتحدث يوخن الجالس بجانب حوض السمك المتوسط الحجم المثبت داخل الحائط بألمانية فصحى، أليس ذلك غريبا؟ «هل تتذكر يا فالتر؟» هذه الموسوعة المكونة من اثنين وثلاثين جزءا من أيام مولهايم الخوالي والتي لم يمل ثلاثتنا من تقليب صفحاتها في فليشتيدن أ مثل أكل «هل تريد أن

(٢١) مسرحي ألماني (١٨٠١-١٨٣٦) اشتهر بثوريته.

تتعشى معنا، سنأكل معلبات محفوظة؟»، ب مثل بيت «اشترينا قطعة أرض بها هكتارين غابة وبركة بط»، (ت) مثل تأمين «نحن مؤمنون ضد كل شيء»، (ث) مثل ثوري «أنت واحد منهم، ما كان منهم نفع أبدا»، (ج مثل جيش «لا يريدونكم الآن»، (ح) مثل حياة «الإنسان يعيش مرة واحدة»، (خ) مثل خمر «هذا النبيذ الإيطالي اشتريناه من أمستردام»، (د) مثل دانتسيغ «بالمناسبة كان فيه مؤخرا لقاء مع اللاجئين لكن يوخن لم يذهب»، (ذ) مثل ذهب «لقد أهداني يوخن هدية من الذهب بمناسبة الزواج!»، (ر) مثل رحلة «في العام الماضي كنا في النمسا وبورغنلاند، نحب أن نرى شيئا جديدا» (ز) مثل زواج «منذ زواجنا وسعر المارك لا يتجاوز خمسين بفنيغا» (س) مثل سنوات «تخيل أن فالي ستدخل في عيد الفصح القادم إلى المدرسة. هل رأيت كم فات من الوقت.» (ش) مثل شغالة «الفتاة التي كانت عندنا قبل هذه، لم يمض عليها أسبوعين إلا وبدأت في التبجح.»، (ص) مثل صناعة النسيج «الفم الذهبي هو الذي نصحنا بها»، (ض) مثل ضاع «لقد اختفى الفم الذهبي، لكنه ربما يظهر مرة أخرى»، (ع) مثل عازف «أوسكار عازف الطبل الصفيح من بلدتكما، يعمل في حانة قبو البصل»، (غ) مثل غرفة التجارة «في البداية وضعوا لنا المعوقات لكن يوخن ذهب إليهم وقدم لهم الخطابات الرسمية» (ف) مثل فالي «إنها ابنتنا يا فالتر وليس لك أي حق فيها» (ق) مثل قبو البصل «هناك يعزف أوسكار»، (ك) مثل كاتو «نفطر حاليا بالكاتو»، (ل) مثل لا، «لا إذا خرجنا فأنت مدعو، يوخن سيدفع!»، (م) مثل المشرحة «إنه مطعم جديد، لا بد أن تلقي نظرة على المكان هناك: كل الأشياء معدة بشكل واع لتحدث ذعرا في النفس، مكان رائع ولا مثيل له، وقح وجريء ومجنون للغاية. على أية حال غريب. سوف تموت على نفسك من الضحك. يمكن أن تقول إنه طبي. طبعا ليسوا عراة، النصف العلوي فقط. مع ذلك راق جدا. قطاع عرضي في الجثث. يمكن أن تصاب هناك بالغثيان. سادي حيواني غير عادي. كان من المفروض إغلاقه. لكنهم لم يفعلوا. ذهبنا إلى هناك مرات عديدة لأكل جذور البطاطا الحلوة»، (ن) مثل نسيج «ليس هذا نسيجا اسكوتلانديا بل نحن صنعناه هنا»، (هـ) مثل هل «هل تريد الخروج؟»، (و) مثل وقت «متى نذهب؟» (ي) مثل يوكاتان «إنها حانة جديدة تم افتتاحها مؤخرا، لكننا سنذهب إلى المشرحة.»

كان من المفترض أن يبقى الكلب بلوتو في المنزل ذي الغرف الخمس لدى الشغالة وأن يحرس الطفلة فالي النائمة، لكن ماتيرن يصر على اصطحاب بلوتو معه إلى مطعم «المشرحة». قال زافاتسكي «أليس من الأفضل أن نذهب إلى حانة تشيكوس؟» لكن إنغه تصمم على الذهاب إلى «المشرحة». يخرجون بثلاثتهم مصطحبين الكلب. يصعدون شارع فلينغر ويهبطون شارع بولكرت. ومن الطبيعي أن يكون موقع مطعم «المشرحة» مثل كل المطاعم الأخرى الجديدة في المدينة القديمة. لا أحد يعرف بالضبط من هو مالك المحل. البعض يقولون إنه شمو صاحب حانة «قبو البصل» وكذلك فكر البعض في صاحب حانة «تشيكوس» أوتو شوستر. أما فيلم-ماتنر الذي يمتلك حاليا حانتي «تاف تاف» و«داتشا» التي كانوا سيسمونها في البداية «ترويكا» والذي سيفتتح قريبا محل «سوق البراغيت»، فكان في الوقت الذي يتمشى فيه ماتيرن مع آل زافاتسكي، ما يزال تاجرا صغيرا وآخذا في الصعود. بطول حارة ميرتن وقبل أن يدخلوا إلى «المشرحة»، تثرثر وجه الدمية انغه زافاتسكي، التي كبرت خمسة أعوام: «بودّي أن أعرف من الذي خطرت له هذه الفكرة؟ مثل هذه الفكرة لا تخطر إلا لواحد فقط، أليس كذلك؟ أعني الفم الذهبي فهو يقول أحيانا أشياء غريبة. ونحن طبعا لم نصدق ما يهذي به. لا تستطيع الاعتماد عليه إلا في أمور العمل، أما ما عدا ذلك. مثلا حاول أن يقنعنا أنه كان يمتلك فرقة باليه، وأنه كان في الحرب مع مسرح الجبهة وأشياء من هذا القبيل. رغم أنه من الواضح أنه ليس نقيا. من المؤكد أن شيئا مثل هذا لم يكن ليفوت عليهم في الماضي. لقد سألته عدة مرات: قل لي أيها الفم الذهبي من أين أنت؟ مرة يقول من ريغا ومرة يقول إن مدينته اسمها حاليا سفيينو، لكنه لم يقل اسمها القديم. لكن لا بد أن شيئا ما في حكاية الباليه تلك صحيحة. يجوز أننا لم نلاحظ شيئا في الماضي. شمو أيضا واحد منهم. إنه مالك حانة «قبو البصل». يقال إنه كان طوال الحرب مسؤولا عن الحماية من الغارات الجوية. لكن الاثنين من الصنف نفسه الذي لن أذكر اسمه. والاثنان نموذجان ممثلان لهذا النوع من الناس. لذلك أقول إنه لا يمكن لأحد أن يفكر في مثل هذه الفكرة إلا إذا كان مثل الفم الذهبي. سترى، فأنا لم أبالغ. ألا توافقني يا يوخن؟ إنه خلف حارة أندريا مقابل المحكمة الابتدائية.»

الاسم مكتوب بحروف بيضاء على لافتة سوداء: «المشرحة» ويمكنك لو لم

تدقق النظر أن تظن أنه دكان بسيط لبيع النعوش. بنافذة العرض هناك نعش طفل فارغ عاجي اللون، إضافة إلى اللوازم المعتادة: زهور بنفسج من الشمع وأقفال نعوش جميلة ومختارة. حوامل مغطاة بقطيفة سوداء وعليها صور لجنازات متميزة. أكاليل على شكل أطواق نجاة تستند إلى حائط النافذة. في مقدمة النافذة هناك وعاء حجري لحفظ رماد الجثث من العصر البرونزي وقد وُضعت تحته لافتة تشير إلى المكان الذي عثر عليه فيه: كوزهفلد في مونسترلاند.

كذلك يذكّر داخل المحل زواره بعناية بفناء الإنسان. برغم أن زافاتسكي لم يحجز مسبقا، يحصلون على مائدة بجانب الممثلة السويدية التي ماتت في حادث سيارة والمسجاة تحت الزجاج داخل المطعم. إنها طبعا مجرد تمثال شمعي. يغطي مفرش أبيض مشغول، تلطف سحب من الدانتيل من نصاعة أطرافه، جسد الممثلة حتى السرة: أما الجانب الأيسر من نصفها العلوي بدءا من الشعر الناعم المموج مرورا بالخد والذقن والرقبة التي تبدأ برقة وعظمة الترقوة التي لا تكاد تظهر والنهد النافر وحتى الوسط، كلها من لحم شمعي أصفر مزرق. أما على الناحية اليمنى، أي على يمين ماتيرن وزافاتسكي يتولد انطباع خادع بأن مشرط تشريح قد عرى دواخلها، تقليد مطابق للواقع: القلب والطحال والكلية اليسرى. تكمن الخدعة في أن القلب يدق فعلا ودائما ما يقف زوار مطعم «المشرحة» حول الصندوق الزجاجي ويريدون أن يروا القلب وهو يدق.

يجلسون بعد تردد. إنغه زافاتسكي هي آخر من يجلس. تقع عين الرائي المتجولة في أنحاء المكان على أجزاء عديدة من الهيكل العظمي الإنساني موضوعة على أرفف على الحائط بإضاءة غير مباشرة: الذراع بما فيها عظام المرفق والكعبرة وجمجمة الميت المعتادة ولكن هناك أيضا فص من الرئتين موضوع في برطمان زجاجي كتب عليه محتواه أو مخ لشخص صغير أو كبير أو مشيمة. وكأن المطعم يريد أن يقدم درسا في التشريح. هناك أيضا مكتبة في متناول الأيدي وبها صفوف عديدة من الكتب وليست خلف زجاج. كتب متخصصة مزودة بالصور التوضيحية وكذلك كتب متعمقة للمتخصصين، مثلا كتب عن تجارب زرع الأعضاء أو كتاب مكون من مجلدين عن الغدة النخامية. وبين أرفف الحائط المختلفة هناك صور أو نقوش من القطع نفسها معلقة بصورة أنيقة وهي تعرض لأطباء مشاهير: باراسيلسوس فيرشوف زاوربروخ وإلّه الطب الروماني المستند على

عصا الحكمة التي يلتف حولها الثعبان وهم يتفرجون على الناس أثناء الطعام.

ليس هناك طعام غير مألوف هنا. شرائح لحم الخنزير على الطريقة الفيناوية، صدر ثور مع فجل البحر، شطيرة مخ بقري، لسان بقري في مرق نبيذ حلو، كلي خروف محمرة، هناك لحم خنزير عادي ودجاج محمر مع بطاطس. على أية حال تحتاج المائدة التي يجلسون عليها إلى وصف أقرب: يأكل ماتيرن وزافاتسكي فخذ عجل بأدوات تشريح معقمة. يحيط بالأطباق نقش محتواه «الأكاديمية الطبية-المشرحة». بيرة دوسل العادية تقدم في قوارير ايرلنماير، بخلاف ذلك ليس هناك شيء غير مألوف. أي من أصحاب المطاعم متوسطي الحال أو من أتباع الطراز المتأخر في حانات دوسلدورف مثل فيلم-ماتنر كانوا سيكملون هذا العمل الفني أي المشرحة بأصوات حقيقية مسجلة من غرف العمليات: العد البطيء اللزج حتى يفعل المخدر مفعوله، تعليمات بصوت شبه مرتفع أو تعليمات أكيدة، تلامس الأدوات المعدنية، المنشار ينشر العظام، صوت أزيز وصوت نفخ يتباطأ ثم يسرع من جديد، تعليمات أقصر، دقات قلب، دقات قلب... لا شيء من هذا القبيل، بل ليست هناك أية موسيقى ترويحية ولا حتى خفيضة، تشيع في «المشرحة» أصوات لا علاقة لها بالمكان. تصدر أصوات أدوات المشرحة المستخدمة لتناول الطعام أصواتا خفيضة فوق الأطباق الرئيسية. وكذلك تدور المحادثات المتفرقة على كل الموائد بصوت خفيض. لكن الموائد، بغض النظر عن مفارشها المصنوعة من الدمقس، عبارة عن موائد عمليات حقيقية، طويلة وقابلة للتعديل، لكنها لا تضاء بمصابيح العمليات القوية بلا رحمة، بل تضاء بمصابيح قديمة الطراز تظلها أباجورات تشع ضوءا دافئا. وزوار المطعم ليسوا من الأطباء المرتدين للملابس المدنية بل رجال مثل زافاتسكي وماتيرن، رجال أعمال وأصدقائهم، وأحيانا نوابا في مجلس الولاية وأحيانا أجانب، حينما يحبون مشاهدة شيء فريد. نادرا ما يأتي أزواج من الشباب إلى هنا. عادة ما يأتي مستهلكون، يريدون أن يتذوقوا طعاما جيدا في المساء، لأن مطعم «المشرحة» ليس رخيصا لكنه جذاب. فلا تجلس على البار مثلا فتيات تعين على زيادة الاستهلاك، ليست هناك محفزات جنسية مثلما في محلات ريفيفي أو تابو، هناك رجال في ملابس محترمة، باختصار هناك أطباء مساعدون جاهزون للقيام بعمل تشخيص طبي للزبائن أثناء شرب كأس من الشمبانيا، صحيح أن تشخيصهم

ليس نهائيا لكنه عام ومفهوم. فمثلا يتضح لأحد الزبائن هنا، بعيدا عن طبيبه الخاص، لأول مرة طبيعة مرضه، فلنقل مثلا تصلب شرايين. لقد أدى تراكم المواد شبه الدهنية، الكولسترول مثلا إلى تصلب الأوعية الدموية. يشير الطبيب الموظف لدى مطعم «المشرحة» بود، ولكن بدون تلك الألفة المعتادة في أحاديث البارات، إلى عواقب هذا المرض كالأزمة القلبية والسكتة القلبية ثم يلوح لزميله الذي جلس ليرتاح بعض الشيء ليأتي: اختصاصي في مجال استقلاب الدهون، متخصص في الكيمياء الحيوية يحدث الزبون عن الدهون الحيوانية والدهون النباتية: «لذلك يمكنك أن تطمئن، فنحن لا نستخدم في مطعمنا سوى دهون تعمل أحماضها على تقليل الكولسترول: فمخ العجل المقدم كشطيرة لا يعد إلا بزيت الذرة. إضافة إلى أننا نستخدم زيت بذور عباد الشمس وستعجب إن قلت لك إننا نستخدم زيت الحوت أيضا، لكننا لا نستخدم الزبد أو السمن إطلاقا.»

يدفع آل زافاتسكي وبخاصة إنغه ماتيرن إلى الذهاب إلى طبيب البار، حيث إنه يشكو من وجود حصى في كليتيه. ولأن ماتيرن يخشى من الحركة داخل المحل. يلوح زافاتسكي إلى أحدهم على البار فيأتي ويقدم نفسه على أنه اختصاصي مسالك بولية. وبمجرد سماعه لكلمة حصى في الكلى، يأمر الشاب في الحال لماتيرن بعصير ليمونتين ويقول «في الماضي كان الناس يفرحون بعد الشفاء من حصى الكلى بعد علاجات مرهقة، لكن علاج الليمون الذي نقدمه أكثر نجاحا وأرخص. يتخلص زبائننا من حصى البول بعد شهرين من العلاج. بعد ذلك يصبح تبول زبائننا عادة طبيعيا. ولكن للأسف بشرط: الابتعاد عن المشروبات الكحولية!»

يضع ماتيرن البيرة التي في يده على المائدة. اختصاصي المسالك البولية الذي درس على أيدي أساتذة كبار في برلين وفيينا لا يريد أن يزعج الزبائن أكثر من ذلك ويودعهم قائلا: «لكننا ما زلنا غير قادرين على علاج الرواسب الحمضية - أنظر إلى الفترينة الثانية على اليسار - لكن علاج الليمون أمر بسيط، ربما أترك لك هذا المنشور: لقد تحدث هيرودوت عن الليمون الذي كان البابليون يستخدمونه لعلاج حصى الكلى. أما عن حديثه عن حصوات بحجم رأس لطفل، فنحن نعلم أن هيرودوت كان يحب التهويل.»

يعذب ماتيرن نفسه بعصير الليمونتين. مزاح زافاتسكي الطيب. تصفح

مطوية مطعم «المشرحة». ما كل هذه الخدمات التي يقدمونها: لديهم اختصاصيون في أمراض الصدر والغدة الدرقية. واختصاصي أعصاب وواحد آخر لحالات البروستاتا. يجلس بلوتو هادئا تحت مائدة العمليات. يحيي زافاتسكي أحد تجار أجهزة الراديو المشهورين ورفقته. هناك عمل كثير على البار. لا يبخل أطباء البار بعلمهم على المرضى. كان فخذ العجل ممتازا. ماذا تأكل الآن؟ جبناً أم شيئاً حلواً؟ يأتي النادل دون أن يناديه أحد.

أما عن النُدل فيتلاءمون أيضا مع طبيعة المكان، ويرتدون رداء كتانيا أبيض مقفول حتى الرقبة ويوحي باقتضاب بجو العيادات، إضافة إلى أغطية رأس وكمامات واقية على الفم والأنف، تجعلهم مجهولين ومعقمين وصامتين. وطبعا لا يقدمون أطباق صدور اللحم البقري والرقاق بلحم الخنزير المشفى، بأيد عارية بل يرتدون القفازات المطاطية المعتادة في المستشفيات. إنهم يبالغون. لا ترى إنغه زافاتسكي في القفازات أية مبالغة، بينما يرى ماتيرن ذلك: «للمزاح حدود. لكن هذا ما يتميزون به. دائما من تطرف إلى آخر، دائما يستجيرون من الرمضاء بالنار. قد يكونون سماسرة أمناء ولكن لديهم قليل من الفهم وكثير من الرضا عن الذات. إضافة إلى أنهم لا يتعلمون من تاريخهم: يفكرون دائما أن الآخرين. . . . دائما قانعون ولا يسيرون ضد التيار. وأينما أمكن لأصواتهم أن تسمع، يريدون مداواة الجوهر والعالم. سالومى العدم. يسيرون فوق أشلاء الموتى للوصول إلى غايتهم. يختارون دائما المهنة الخاطئة. يريدون دائما أن يتآخى الجميع وأن يعانقوا الملايين من الناس. ثم يأتون خفية بتصنيفاتهم. يفزعون من أي تغيير. لم يحالفهم أي حظ. أية حرية تعيش فوق جبال شاهقة، من الناحية الجغرافية طبعا. محصورون في أماكن ضيقة. ثورات فقط في مجال الموسيقى ولكن ليس في مجتمعاتهم. أفضل أفراد المشاة، بينما لدى الفرنسيين أفضل أفراد المدفعية. كثير من الموسيقيين الكبار والمخترعين. فكوبرنيكوس لم يكن بولنديا بل. . . وحتى ماركس كان يحس بأنه. . . ولكن هل علينا أن ننظر حتى تصل الأشياء إلى نهايتها. مثلا هذه القفازات المطاطية. لا بد أن لها معنى. أريد أن أعرف ما غرض صاحب المطعم من ذلك. بشرط أن يكون واحدا منهم. ففي الوقت الحالي تظهر مطاعم إيطالية ويونانية وإسبانية ومجرية من لا شيء. وفي كل جحر يفكر شخص ما في شيء له خصوصيته. تقطيع البصل في قبو البصل،

غاز الضحك في حانة غرابه - وهنا تلك القفازات في يد النادل. إنك تعرفه! أليس هو. . .! لو يخلع هذه الخرقة البيضاء عن وجهه، لـ. . .كان اسمه، ماذا كان اسمه، تذكر تذكر، أسماء، أسماء، في القلب والطحال و. . . «جاء ماتيرن ليحاكم بكلب أسود.»

لكن النادل- الجراح لا يزيل الكمامة عن أنفه وفمه. بعينين منكستين بحذر وبلا اسم، يرفع أطباق فخذ العجل من فوق مفرش مائدة العمليات المصنوع من الدمقس. سيأتي من جديد ويقدم لنا الحلو بهذه القفازات المطاطية نفسها. في هذه الأثناء يمكن للمرء أن يمد يده في الأوعية التي على شكل كلية ويمضغ جذور البطاطا الحلوة. فمن المفترض أنها تنشط الذاكرة. يعطي ماتيرن لنفسه مهلة ويقرض في الجذور المعوجة: لقد كان هذا هو. . . . لو لم يكن هو هذا الخنزير الذي عرفته في الماضي. بفضله وبفضل الآخرين استطعت أنت أن. . .ما يزال لدي حساب معه. لقد كان رقم أربعة عندما قمنا نحن التسعة بعبور سور حديقة في الغابة. لقد ساعدني في القفز. هل أن زافاتسكي لم يلمح شيئا؟ أم أنه لا يعرف شيئا. لكنني سأصفي حسابي معه وحيدا. يأتي هنا بقفازاته المطاطية وكمامة بيضاء على الوجه. لو ارتدى السواد مثل «زورو» أو مثلما كنا نلبس في الماضي عندما كنا. . .في الأصل كان ستارا أسود. قمنا بتقطيعه إلى قطع قماش مثلثة: قطعة لفيلي أيغرز وقطعة لأوتو فرانكه وقطعتان للأخوين دوليك وقطعة لباول هوبه وقطعة لشخص آخر وقطعة لفولشليغر وقطعة لزافاتسكي، الذي يجلس هنا متظاهرا بالوداعة ولا يلمح شيئا، والقطعة التاسعة لهذا الشخص. وهكذا قفزنا فوق سور الفيلا بطريق شتيفن. منذ سنوات كلاب نقفز فوق السور نفسه، متلفحين بتسعة أثواب سوداء، لكنهم جميعا ربطوا أوشحتهم بطريقة مختلفة عنه. ربطوها حتى العينين مع فتحات ينظرون منها. لكنني أعرف عينيه. قناطير من الثلج كانت متراكمة. كان يعمل نادلا في الماضي، في البدء في مقهى تسوبوت ثم في مقهى عدن. الآن يأتي بالبودنغ. إنه بوبليتس طبعا. سأخلع كمامته عن وجهه. ألفونس بوبليتس. صبرا يا صديقي!

لكن ماتيرن الذي أتى ليحاكم ولينزع كمامة الوجه، لا ينزع شيئا ولا يحاكم بل يحملق عندما يقدم له البودنغ في أوعية كالتي يستخدمها أطباء الأسنان. قام طاهي الحلو بصنع بودنغ على شكل طقم أسنان ذي لونين: اللثة لونها وردي

وتعلق بها أسنان لامعة متلألئة وقوية ومستوية. ينهار طقم الأسنان إلى اثنتين وثلاثين قطعة، أي على كل ناحية فوق وتحت: قاطعان وناب وخمسة ضروس ملتحمة ببعضها. في البدء أراد ماتيرن أن ينفجر ضحكا مستعينا بغرابه الذي استهزأ بروما، وأن يقوم ويدمر المحل، لكن عندما يبدأ كل من إنغه ويوخن زافاتسكي على يمين ويسار ماتيرن بالانهماك في أكل البودنغ بأدوات تشبه عدة طبيب الأسنان، تتداعى في داخل ماتيرن ضحكات غرابه ولا يحول روما ومطعم «المشرحة» إلى أطلال، لكنه، هو الذي حبس أنفاسه لمشهد مسرحي نادر، يمتنع عن تناول الحلو بعد أن قبل تشريح فخذ العجل. تدريجيا يبدأ في الابتعاد عن المائدة بكرسيه المدور. وبجهد يبتعد عن مائدة العمليات. يتكأ على الصندوق الزجاجي الذي يدق داخله قلب الممثلة السويدية بانتظام. يتخذ طريقه، بلا قبطان، بين الموائد التي تشغلها بدل السهرة وحلي كثير وتلتهم أسياخ الكبد وريش العجل المحمرة. أصوات في الضباب. أطباء البار. أضواء مثبتة على البار. يسير متأرجحا عابرا بين صور أصدقاء البشرية اسكولابيوس وزاووربروخ وبارسيليوس وفيرشوف، يتبعه بلوتو. ثم يصل إلى مرفئه الأخير الذي يمكن وصفه بدون تقليد لوحة درس التشريح لرامبرانت، بأنه مرحاض عادي جدا. يتقيأ كل ما في جوفه لسنوات طوال. ليس هناك شاهد عليه سوى الرب الحبيب. بلوتو يبقى مع عاملة المرحاض. لم يكن لدى ماتيرن عملات صغيرة ولذلك يعطي لعاملة المرحاض عملة مقدارها ماركين. تقول له «ليس الأمر بهذا السوء. يحدث ذلك لكل من يجيئون هنا للمرة الأولى. فلتشرب قهوة مركزة وبعدها عرقي، بعد ذلك سيصير كل شيء على ما يرام.»

ويتبع ماتيرن نصيحتها: يشرب ماتيرن قهوة يونانية في فنجان من البورسيلين الطبي ثم يشرب في أنبوب اختبار عرقي التوت الشوكي- اشرب مرة أخرى وإلا ستحتاج إلى مرة أخرى- إذن يشرب كأسا آخر من العرقي.

تقول له إنغه زافاتسكي قلقة: «ماذا بك؟ لم تعد تتحمل الكحول؟ هل ننادي اختصاصي المسالك البولية مرة أخرى أو أي طبيب آخر متخصص؟»

إنه النادل نفسه الذي قدم القهوة والعرقي بعد فخذ العجل وبودنغ طقم الأسنان. لكن ماتيرن لم يعد راغبا في شطب اسم شخص يتخفى معقما وراء كمامة بيضاء.

وبعد برهة من الصمت يقول زافاتسكي: «الحساب من فضلك أيها النادل أو ماذا يقول عادة: أيها البروفسور، يا كبير الأطباء، ها هاها!» يقدم الملثم الحساب مكتوبا على«شهادة الوفاة» المطبوعة، ومذيلا بالتاريخ والختم وإمضاء غير مقروء- شخبطة الأطباء. يقول زافاتسكي: «من أجل الضرائب، يمكن خصمها من الضرائب باعتبارها نفقات عمل. أين كنا سنذهب من الضرائب لو أننا لم نقم دائما بـ. . . . لو تركوا الأمر بيدي جباة الضرائب لـ. . . لا تقلق، الدولة لن تجوع.»

يعبر النادل المتنكر عن شكره بحركة إيمائية ويصطحب آل زافاتسكي وضيفهم مع الكلب الأسود إلى باب المطعم. عند الباب تلتفت إنغه زافاتسكي، وليس ماتيرن، مرة أخرى للخلف. تلوح لواحد من أطباء البار، غالبا اختصاصي الكيمياء الحيوية قائلة «إلى اللقاء!»، ولكن ذلك لم يكن مناسبا، خاصة وأن الباب عبارة عن باب مستشفى حقيقي مزدوج. الأول من الجلد والثاني مطلي بالأبيض على قضيب جرار. لكنه لا يجر بل يتحرك بالضغط الكهربي. يضغط النادل المعقم على الزر.

عند ركن تعليق المعاطف ينظرون خلفهم وهم يساعدون بعضهم بعضا على ارتداء المعاطف. يضيء الضوء الأحمر فوق الباب المزدوج: **الرجاء عدم الإزعاج أثناء إجراء العملية.**

يقول زافاتسكي وقد تنفس الصعداء: «لا، لا أريد أن آكل هنا كل مساء. ربما كل أسبوعين، أو»

يأخذ ماتيرن نفسا عميقا وكأنه يشفط معه مدينة دوسلدورف بنوافذها المستديرة وأدوات المائدة القصديرية التي تشتهر بها وبرج القديس لامبرت المائل وفن الحدادة الألماني القديم قطعة قطعة. كل نفس يمكن أن يكون الأخير.

يقلق آل زافاتسكي على صديقهم: «لا بد أن تمارس أية رياضة يا فالتر وإلا فستنهار يوما ما.»

الماتيرنياده الرياضية التاسعة والثمانون والماتيرنياده المتخمرة التسعون

كنت مريضا، ما زلت مريضا. كانت عندي إنفلونزا، لكنني لم أرقد بحمتي في السرير بل حملتها معي إلى محل «تاف تاف» واستندت بها إلى البار. يا له من

مكان! المحل مصمم على الطراز الحديث لسكك حديد منطقة الراين السفلية، عربة صالون مصنوعة من النحاس الأصفر والماهوغني. جلست بين هذا وذاك حتى الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحا وأمسكت بين يدي نوع الويسكي نفسه. وتأملت ذوبان قطع الثلج في الكأس وتحدثت مع عاملي البار السبعة. أحاديث مع الخلعاء الجالسين على البار عن نادي كولونيا الأول لكرة القدم وعن تحديد السرعة في المناطق المفتوحة وعن نهاية العالم في الرابع من نوفمبر القادم ومزحنا أثناء الحديث عن المفاوضات في برلين وتشاجرت فجأة مع ماتنر صاحب المحل لأنني خدشت بمنظف الغليون كسوة الحائط ذات الذوق المتكلف. كلها تقليد! كنت أريد أن أعرف ماذا يوجد وراءها. إضافة إلى هذا التزاحم في عربة صالون القطار الضيقة. معبؤون في بدل السموكنغ التي تغمرها قطع من السلولويد: شياكة، أناقة، هندام. ولكن ليس هناك مجال لعمل شيء محترم. أكثر ما أستطيعه هو أن أمارس ألعابي الذكورية: حل الأزرار ببطء ثم الإغلاق بسرعة. عندئذ أتت موسيقى ليلية صغيرة. في النهاية كنت ممتلئا وثقيلا. ولأن ماتنر قد قدم لكل الجالسين مشروبا على حسابه، فمن المفترض أنني جعجعت بدور فراتس مور الفصل الخامس، المشهد الأول: «حكمة الدهماء، خشية الدهماء! لا أعرف بعد ما إذا كان ما مضى قد مضى أم أن هناك عيناً تراقبني- هم هم!- ما هذا الصوت الذي يهمس؟ هل هناك منتقم يراقبني؟ لا، لا! نعم، نعم! أصوات مخيفة من حولي! هناك شخص ما بأعلى، فلأذهب إليه، الليلة، لا! يالها من حيلة بائسة أختبئ وراءها، لا شيء بأعلى مكان أجرد أصم، حتى لو كان هناك أحد فإنني آمر ليس هناك أحد!»

يصفقون بأيدي عريضة كالملفات الورقية ويتهافتون على ماتيرن بعلب البودرة طالبين منه الإعادة: «آمر، ليس هناك أحد!»

ماذا يفعل المنتقم عندما يربت ضحاياه على كتفه قائلين: «برافو أيها الشاب، لقد فهمنا أنه عندما تأمر بألا يكون هناك شيء فلن يكون. انس هذا الأمر. انتهينا من هذه الأسطوانة فلتبحث لنا عن أسطوانة جديدة. ألم تكن طيارا شراعيا؟ بلى، بلى! عندك كل الحق: أنت الوحيد المعادي للفاشية ونحن كلنا نازيون صغار أشرار. اتفقنا؟ ألم تكن يوما، ألم تقم يوما. . .، أحدهم حكى لي أنك كنت في يوم من الأيام من لاعبي كرة القبضة، وكنت صانع ألعاب. . .»

برونز، فضة، ذهب. كل رياضي يقوم بتلميع ماضيه. كل رياضي كان في الماضي أفضل. يقول له آل زافاتسكي يوميا قبل وبعد الطعام: «يجب أن تحرك جسمك يا فالتر. إجر في الغابة أو اسبح في الراين. فكر في حصى الكلى. يجب أن تقاومه. خذ الدراجة من القبو أو اشتر لنفسك جوال ملاكمة، على حسابي.»

لا يمكن زحزحة ماتيرن من مكانه. يجلس مثبتا يديه على ركبتيه، يلتحم مع الكرسي، وكأنه يريد أن يبقى ملتصقا به لتسع سنوات مثل جدته التي لم تحرك سوى بؤبؤي عينيها. رغم أن لدى دوسلدورف والعالم الكثير من العروض: اثنتان وثلاثون دار سينما، مسرح غوستاف غروندنغ، شارع كونيغ صعودا وهبوطا، والبيرة المتخمرة، والراين المحبوب والمدينة القديمة التي أعيد بناؤها، وحديقة القصر ببجعاتها، جمعية باخ الموسيقية، الجمعية الفنية، قاعة شومان، معارض لأزياء الرجال. يوم ١١/١١ الساعة ١١، ملاعب الرياضة، ملاعب الرياضة. يعدد له آل زافاتسكي الملاعب الموجودة: «اذهب إلى فلينغرن، ولتر استاد فورتونا، يقدمون أشياء أخرى غير كرة القدم.» لكن لا يمكن لملاعب الرياضة أن تحركه عن كرسيه، رغم أن زافاتسكي قد عدد له أسماء ملاعب تفوق عدد أصابعه. وبعد أن فقد الأصدقاء الأمل في تحريكه، جاءت كلمة كرة القبضة في معرض الحديث. لا يهم من الذي همس بها، إن كان يوخن أو إنغه أو الصغيرة فالي. يقف بمجرد سماع الكلمة ويتحرك خطوة فوق السجادة السميكة سمك محفظة الجيب. حركات قليلة لتليين الجسم. قرقعة مفاصل مذهلة. الآن يصيح في فضاء الغرفة: «منذ زمن لم أمارسها يا أولاد، كرة القبضة! منذ عام ٣٥ و٣٦ في ملعب هاينريش ايلرز. على الناحية اليمنى المدرسة الفنية ومن الناحية اليسرى محرقة الجثث. لقد فزنا بكل الدورات. هزمنا كل الفرق: فريق الجمباز وفريق المبارزة، فريق ت.س.د. وفريق شيلمول ٩٨ وحتى فريق الشرطة. وكنت لاعب خط بفريق يونغبرويسن. وكان لدينا لاعب خط وسط ممتاز. كان يُنطِق الكرات عالية في الهواء ثم يرسلها لي في هدوء مكين. صدقوني كان يجرف بذراعه الكرات ببراعة ممرا لي إياها بعلو الخط وأنا في كامل استعدادي أسدد ضربات قوية للفريق الخصم. وقبل بداية الحرب بقليل مارست الرياضة هنا لفترة عند أصدقاء رياضيين في اونترات، حتى.... من الأفضل ألا تحدث عن ذلك.»

ليس المكان بعيدا عن هنا، أركب ترام رقم ١٢ إلى راتينغن، يسير عبر شارع غرافنبيرغر حتى موقع شركة هانيل ولويغ ثم ينحني على اليد اليسرى بين الحدائق الصغيرة، عبر موررزنبرويش وغابة المدينة، مارا بسكن الكاريتاس وراتربرويش، حتى استاد راتر، ملعب متوسط الحجم عند مطلع غابة آب. الملعب وسط الغابة النضرة المنتعشة التي تكشف وسط الشبورة المائية الحدائق القريبة حتى المدينة: تبرز كنائس ومصانع في واجهة المنظر. حفر بناء وأسوار وفي مواجهتها المبنى الضخم لشركة مانسمان. هنا وهناك: نشاط في كل الملاعب. دائما ما يعتنون بالمضمار في الملاعب. ناشئو فريق كرة اليد يلعبون بدون التزام بقواعد اللعبة. يريد عداؤو الثلاثة آلاف متر أن يكسروا أرقامهم القياسية. وعند طرف الاستاد على ملعب إضافي صغير محاط بأشجار الحور يلعب فريق قدامى رياضيي اونترات ضد قدامى رياضيي ديرندورف. غالبا أنها مباراة ودية. الملعب في مكان محمي من الرياح، لكن فريق اونترات يخسر. يلمح ماتيرن الذي أتى بكلبه ذلك في الحال. إنه يرى أيضا سبب الهزيمة: لاعب الخط سيئ ولا يتفاهم مع لاعب الوسط، الذي لم يكن سيئا.

لا بد أن يتدرب لاعبو خط الظهر، وليس لاعب الخط، على الضربات المرتدة التي تمرر فوق الرأس. المهاجم الأيسر ليس في المستوى المطلوب، وهم على أية حال لا يستفيدون منه جيدا. يفتقر الفريق إلى صانع ألعاب، لأن رجل خط الوسط- يبدو أن ماتيرن يعرفه، ربما بسبب الزي الرياضي، يبدو أن ماتيرن يعرف الكثيرين منهم - يكتفي بضرب الكرة عاليا وليجري وراءها أي شخص سواء لاعبا خط الظهر أو لاعب الخط. لا عجب أن فريق ديرندورف، وهو فريق غير متميز، يجمع كل هذه النقاط من خلال ضرب الكرات الخاطفة عبر ثغرات فريق اونترات. المهاجم الأيسر هو الوحيد الذي يتمكن من إنقاذ سمعة فريق اونترات بالكرات التي يسددها أغلب الأحيان بظهر اليد - يظن ماتيرن أنه رآه من قبل. تنتهي مباراة العودة أيضا بهزيمة الفريق المضيف. صحيح أنهم قد استبدلوا لاعب الخط بالظهير الأيمن، لكن حتى صفارة النهاية، لا يتمكن لاعب الخط الجديد من عمل أي شيء ينقذ فريقه.

يقف ماتيرن مع كلبه عند مدخل اللاعبين: وكل من يريد أن يذهب إلى غرفة تغيير الملابس، لا بد أن يمر تحت عينيه الفاحصتين. يتأكد عندما يراهم

قادمين واضعين سترة التدريب على أكتافهم. يتقافز قلبه. هناك شيء يضغط على الطحال. تؤلمه الكليتين. نعم هما هما. كانا يوما في فريق شباب اونترات، إنهما فريتس أنكنريب وهايني تولكسدورف. ويضيف قبل كذا وكذا سنة من سنوات الكلاب كان فريتس لاعب خط وسط وهاينه مهاجما أيسر وماتيرن كان لاعب خط. يا له من فريق مهاجم! يا له من فريق كامل، حيث إن لاعبي خط الظهر كانا متميزين أيضا، ماذا كان اسماهما؟ لقد هزمنا فريق طلاب كولونيا وشباب لواء فرق الحماية بدوسلدورف. ثم تداعى كل شيء فجأة لأنني . . . فلتسألوا هؤلاء الشباب، إن كانوا يتذكرون، لماذا . . . ومن قام بالوشاية بي؟ ألم يكن اسمه أنكنريب، ألم يكن لهايني تولكسدورف الرأي نفسه كذلك. . .

ولكن قبل أن يتحدث ماتيرن إلى الاثنين ويقول: لقد جئت بالكلب الأسود. . . يثرثر أنكنريب من الجنب: «غير معقول! هل هذا هو أنت؟. . . هايني أنظر من كان يشاهد مباراتنا البائسة؟ لقد قلت أثناء تغيير المرمى أنني أعرف هذا الشخص. أنظر كيف يقف؟ إنه هو، ماتيرن الذي نعرفه، فقط شعره راح. على العموم لم يصبح أي منا أجمل. في يوم من الأيام كنا أمل فريق اونترات واليوم نلملم هزيمة وراء أخرى. يا إلهي، لقد كانت لنا أيام في أعياد الشرطة الرياضية في فوبرتال. وكنت أنت لاعب الخط. كان لاعبو شرطة هرنه دائما يتابعون حركتك. لا بد أن تأتي معنا إلى حانتنا. هناك بعض الصور والشهادات. طوال لعبك معنا لم يستطع أحد أن يهزمنا، لكن بعد ذلك تدهورت أحوال الفريق بسرعة. ولم نستعد قوتنا بعد ذلك أبدا. لا بد أن هذه هي العقوبة. إنها السياسة القذرة!»

مجموعة تتكون من ثلاثة أشخاص يتقافز حولهم كلب. سارا معه واحد عن يمينه والآخر عن يساره وأخذا يحكيان له عن الهزائم والانتصارات ويعترفان بصراحة بأنهما اللذان وشيا به لدى إدارة الاتحاد، حتى يمنع من اللعب. «لم تستطع أن تغلق فمك وكان عندك حق طبعا في كثير من الأشياء.» كانت بعض الملاحظات التي قلتها في كابينة الملابس كافية. «لو قلت ذلك عندي في المنزل أو في أي مكان آخر، لأغلقت أذني أو وافقتك، لكن الوضع كان كما تعرف: الرياضة والسياسة أمران لا يمكن الجمع بينهما، ولا حتى في الوقت الحالي.»

ويقول ماتيرن مقتبسا: «لقد قلت يا أنكنريب: إننا لسنا في حاجة إلى لاعب

ينشر عبارات يهودية بلشفية! أليس كذلك؟»

هنا يتطوع تولكسدورف لإنقاذ صديقه: «لقد كنا جميعا محرضين يا صديقي العزيز. حتى أنت نفسك، كنت تتحدث أحيانا بهذه الشعارات وتارة أخرى بشعارات النازي. لقد ذروا الرماد في أعيننا لسنوات طوال. وعلينا أن ندفع الثمن. أتذكر لاعبَي خط الظهر، ريلينغر القصير وفولفشن شملتر، لم يعودا من روسيا، يا إلهي، ولم كان كل ذلك؟»

حانة الفريق ما زالت في مكانها في فلينغرن بميدان دوروتيا. وسط أربعة أو خمسة من المعارف القدامى يضطر ماتيرن إلى تذكر مباراة غلادباخ ومباراة التصفية الرباعية في فاتنشايد والمباراة النهائية التي لا تنسى في دورتموند. ركن مائدة أصدقاء الرياضة لا يخلو من الزينة: يستطيع ماتيرن أن يتباهى بنفسه كلاعب خط وسط للفريق، عندما يتأمل صور الفريق الاثنتي عشرة المؤطرة معلقة في الركن. لعب ماتيرن دورا مؤثرا بالفريق منذ آخر خريف عام ٣٨ وحتى بداية صيف ٣٩. تركت الشهور السبعة التي قضاها معهم هذه الآثار الظافرة. كان شعره غزيرا ومهوشا! كان دائما جادا. وكان دائما مركز اهتمام الآخرين، حتى عندما يقف خارج الملعب. والدبلومات الرياضية: مكتوبة بخط بني تحت النسر الملكي القديم. «كان عليكم أن تلصقوا فوق هذا النسر أي شيء، لا أستطيع أن أرى هذا الكائن، الذكريات شيء جيد ولكن ليس في ظل هذه الحدأة المهلكة المميتة!»

اقتراح يمكن التناقش بشأنه. في وقت لاحق أثناء شربهم البيرة وعرقي دورنكات، يصلون إلى حل وسط، مثلا: يستعير هاينه تولكسدورف أنبوب «أوهو» من صاحب الحانة ويلصقون فوق النسر الملكي غطاء بيرة بسيطا ماركة شفابن-بروي على كل الشهادات. وفي مقابل ذلك يعد ماتيرن بألا يتحدث عن الماضي اللعين من جديد وأن يعاود اللعب مع فريق قدامى لاعبي اونترات كلاعب خط. يقف كل أصدقاء الرياضة ويصافحون بعضهم بعضا.

«أهم شيء هو الإرادة القوية. علينا أن ننظم أنفسنا. يجب أن ننسى ما يفرقنا وأن نحفظ ما يربطنا. لو تنازل كل منا قليلا لما عرف الشجار والنزاع إلينا سبيلا. لأنه لا يمكن تصور الديمقراطية الحقيقية بدون الاستعداد للحلول الوسط. كلنا خطّاؤون، جميعنا بلا استثناء. من يريد منا أن يلقي بالحجر الأول؟ من يستطيع أن يقول إنني بلا خطية؟ من يريد أن يقول هنا إنه معصوم؟ لذلك

دعونا. . . لقد كنا دائما. . .لذلك نريد أن نقف حدادا على رفاقنا الذين واراهم التراب في روسيا. ثم فلنشرب في صحة صديقنا القديم الذي شرفنا اليوم. وأخيرا في صحة الصداقة الرياضية القديمة والجديدة. في صحتكم!» كل نخب هو قبل الأخير والمشروبات لا تنتهي. وكل رجل هو أكثر الرجال فرحا بين الرجال- تحت المائدة يلعق الكلب بلوتو البيرة المدلوقة على الأرض.

وهكذا تصير الأمور على ما يرام. يفرح كل من إنغه ويوخن زافاتسكي عندما يريهما ماتيرن زيه الرياضي الجديد: «يا سلام، قوامك رائع!» لكن القوام خداع. طبعا لا بد له أن يتمرن على اللعب. فمن العبث أن يتخذ مكانه مباشرة كلاعب خط. لكنه بطيء كظهير، ومن المفترض أن تكون بدايته سريعة، وكلاعب خط وسط لا يتمكن من أداء دوره لأن عليه أن يسيطر على الملعب وليست لديه موهبة نقل الكرات الهادفة من الخلف إلى الخط الأمامي. لا يستطيع أن يعين المهاجم الأيسر ولا لاعب الخط. ويأخذ من لاعبي الظهيرة كراتهم ويفسد ألعابهم دون أن يحقق بالكرات التي يخطفها شيئا. لاعب منفرد فنان يحول الضربات العادية للفريق الخصم إلى نقاط لفريقه. أين يمكن أن يضعوه لو كان الوقت مبكرا لمركز لاعب الخط؟

«يجب أن يتخذ مكانه كلاعب خط.»

«لكنني أقول لكم، لا بد أن يعود أولا إلى لياقته»

«مثل هذا الرجل مكانه على الخط»

«إذن فعليه أن يتصرف بشكل أسرع»

«على أية حال لديه الطول المطلوب للاعب الخط»

«لا بد أن يشقى في التدريب أولا، حينئذ سيعود إلى نشاطه»

«طموحه أكثر من لاعب خط وسط»

«إذن فلنضعه في الأمام ولنَرَ.»

ولكن حتى كمهاجم أيمن لم يتمكن إلا من تسديد بعض الكرات تحت أقدام الفريق الخصم. ولم يفاجئ فريق قدامى لاعبي أوبركاسل أو ديريندورف إلا ببعض الضربات المرتدة النادرة. لكن عندما تقفز الكرة مسطحة قوية وغادرة في ملعب الخصم، يمكن للمرء أن يدرك أي لاعب خط كان ماتيرن في الماضي. يومئ أنكنريب لتولكسدورف: «لقد كان مندفعا في الماضي، يا للخسارة»

ويظلان صابرين عليه. يعتنيان به، ويرفعان له الكرات ويضيعها هو. يا له من لاعب بائس: «رغم ذلك فلنحتفظ بالروح الرياضية. ليس الجميع بقادرين على الحفاظ على لياقتهم عبر السنين. إضافة إلى أنه مصاب في ساقه. صحيح يصعب ملاحظة الإصابة، لكنها تؤثر. فلنقترح عليه اقتراحا معقولا يا هايني. مثلا: «أظن يا ماتيرن أنك قد فقدت الرغبة في اللعب بعض الشيء. أستطيع أن أتفهم ذلك، هناك طبعا أشياء أهم من أن تكون لاعب خط بفريق أصدقاء الرياضة في اونترات، هل من الممكن في المرة القادمة أو بعد القادمة أن تقف حكما كي تستطيع أن تتخذ بعض المسافة من اللعب؟»

يريد أصدقاء الرياضة أن يهونوا الأمر على ماتيرن. وماتيرن يقول «طبعا، طبعا ولم لا؟ وهل هناك شيء يمكن أن أفعله أفضل من ذلك. يجب عليّ أن أفرح لأنكم ما زلتم تريدون الإبقاء علي. سأقوم بعمل كل شيء من أجلكم: سأقف حكم خط أو حكم للمباراة. هل تحبون أن أصنع لكم قهوة أو أحضر لكم كوكا كولا؟ هل ستعطونني صفارة حكم حقيقية؟» كانت هذه هي أمنية ماتيرن. هذه هي رسالته الحقيقية: أن يقرر: «هذه الكرة تخطت الخط. النتيجة ١٩/١٢ لصالح فيرستن. هناك خطأ. أنا أعرف قواعد اللعبة. لعبتها وأنا ناشئ صغير عندنا في ملعب هاينريش إيلرز. كان لدينا لاعب خط وسط ممتاز. كان ولدا سمينا بنمش كثير، لكنه خفيف الحركة كالبطة، وكان مثالا للهدوء. لم يكن هناك شيء يهزه وكان مزاجه رائقا دائما ويعرف قواعد اللعبة مثلي تماما: على اللاعب الذي يؤدي الضربة الحرة أن يقف بكلتا قدميه وراء خط ضرب الكرة. في اللحظة التي يمس فيها الكرة يتوجب على اللاعب أن يقف بإحدى قدميه على الأقل على الأرض. ضرب الكرة بقبضة غير مضمومة أو بإبهام مفرودة، يخالف قواعد اللعبة. يسمح للاعب نفسه بلمس الكرة مرة واحدة، ويسمح له في المجمل بثلاث لمسات. يسمح للكرة أن تلمس الأرض مرة واحدة قبل كل ضربة، يجب ألا تمس الكرة العارضة أو الخط، يجب عدم لمس الكرة إلا بالذراع والقبضة- آه، هل ألعب مع إيدي مرة أخرى، هو في الوسط وأنا على الخط! عند مخالفة القواعد يحتسب خطأ ويصفر الحكم صفارتين متتاليتين وهذا يعني في الوقت نفسه أن الكرة ميتة.» من كان يظن ذلك: ماتيرن الذي جاء ليحاكم، يثبت جدارته كحكم لكرة القبضة ويجعل من كلبه حكم خط: ينبح بلوتو على

لعبة خاطئة. ماتيرن الذي عادة ما يكون قاسيا دائما مع عدوه، لم يعد له خصوم بل فرق تخضع جميعها وبلا استثناء لقواعد اللعبة.

الصديقان الرياضيان فريتس أنكنريب وهاينه تولكسدورف معجبان به. يهيئون له الأجواء في مجلس إدارة الاتحاد وخاصة لدى الشباب «لكم أن تتخذوه قدوة. عندما أيقن أنه لم تعد لديه لياقة اللعب كما في الماضي، انسحب خارج الملعب في هدوء وعرض علينا مضحيا أن يقوم بالتحكيم. إنه المدرب المناسب لكم، رجل همام، خاض الحرب كلها وأصيب ثلاث مرات. وشارك عدة مرات في عمليات انتحارية. ولو حكى لكم مغامراته لما كففتم عن الاندهاش.»

من كان يظن ذلك: ماتيرن الذي جاء ليحاكم، يتحول إلى حكم غير متحيز ويرفض الرشوة التي يعرضها عليه السيدان أنكنريب وتولكسدورف بحسن نية، والمتمثلة في نصف وظيفة بشركة مانسمان، تكفل له هو وكلبه أن يعيشا هانئين. الآن يقف ماتيرن طاهر اليد بين شباب أصدقاء الرياضة في اونترات. يكون الأولاد الذين يرتدون بدلة تدريب زرقاء نصف دائرة واسعة. ويوضح هو لهم، وهو يرتدي بدلة تدريب بلون أحمر نبيذي، كيفية ضرب الكرة بباطن وبظهر اليد. وأثناء توضيحه لكيفية ضرب الكرة بالذراع، تسقط شمس يوم الأحد على جمجمته الصلعاء. إنها تلمع. ليس باستطاعة أولاد فريق اونترات الانتظار حتى يطبقوا ما لقنه لهم ماتيرن. توضح قبضته الأفقية مواضع تسديد الضربة الخلفية والضربة الخارجية الخطيرة. وبعد نهاية مباراة التدريب النشطة وبعد إجراء تمارين الإحماء للاعبي الظهيرة، يحكي للأولاد قصصا من زمن الحرب ومن زمن السلام.

تجلس بدلات التدريب الزرقاء مكونة نصف دائرة واسعة حول المدرب الأحمر. أخيرا يوجد شخص يجذب الشباب. لا يطرح سؤال لا إجابة له على حشائش ملعب كرة القبضة. لقد ذهب إلى جميع البلدان. ماتيرن يعرف كل شيء: يعرف ما الذي جرى لألمانيا غير المجزأة وما يمكن أن يحدث لها، ويعرف المتسببين في كل ذلك ويعرفهم ويعرف أماكنهم، هؤلاء القتلة من العهد الماضي، ويعرف أيضا كيف يمكن منع تكرار هذه المأساة. لديه الصوت المناسب لمخاطبة الشباب. يستطيع أن يحول كل ما هو رخو و هلامي إلى شيء واضح ومجسم. تكشف لوازمه المتكررة عن دوافع قتل. يحول المتاهات إلى شوارع رئيسية معبدة.

عندما يقول المدرب ماتيرن: «وهذا هو ماضينا الذي لم نتغلب عليه بعد!»، يرى شباب فريق اونترات الرجل الوحيد الذي تغلب على ماضيه بحق. على أية حال لقد تدرب على ذلك، مرات ومرات، يقول: «مثلا، عندما ذهبت إلى مستشار المحكمة الخاصة وإلى القاضي نفسه وطلبت منهما أن يتفوها بالحقيقة، تضاءل هذان النذلان وأصبحا في حجم قملة، وقائد مجموعة فرق الهجوم زيلكه، ذاك الذي كان يجعجع بالعبارات الفضفاضة، بكى عندما رآني مع الكلب. . .» ودائما لا تخلو الحكايات المروية في نصف الدائرة من إشارة إلى الكلب بلوتو المتواجد دائما في قصص الماضي، لقد صار بلوتو لازمة مكررة في قصيدة ماتيرن الطويلة: «وعندما كنت مع الكلب في منطقة الفيزر الجبلية. وكان الكلب معي في منطقة ألتينا-زاورلاند. كان الكلب شاهدا عندما كنت في باساو.» يصفق الأولاد عندما يحكي ماتيرن قصصا من الماضي. إنهم مبهورون به. مثل أعلى ومدرب في ذات الوقت. للأسف لا يكتفي ماتيرن فقط بدفن النازية، بل يجعل الاشتراكية تنتصر طوال الوقت.

يوجه له مجلس إدارة الاتحاد بالإجماع السؤال التالي: «ما شأن ماركس والرياضة؟»

يطرح مدير ملعب اتحاد أصدقاء الرياضة في اونترات سؤالا مكتوبا: «هل لنا أن نسمح بانتشار الدعايات الشرقية المحرضة في ملاعبنا؟»

يقول المدير الفخري للاتحاد في حانة الفريق بميدان دوروتيا: «إن شبابنا الرياضيين لا يريدون استمرار هذه الأوضاع.» إنه يعرف ماتيرن منذ فترة ما قبل الحرب: «لقد تسبب في الماضي في إحداث المشكلات نفسها. لا يستطيع التأقلم. إنه يسمم الأجواء.» وحسب رأيه الذي يسمع له الجميع دائما ويهزون رؤوسهم مرددين «تمام، صحيح جدا»، لا يكفي أن يكون الرياضي باتحاد اونترات ملتزم رياضيا فقط، بل عليه أن يكون نظيفا من الداخل أيضا.

بعد سنوات كلاب عديدة تعقد لماتيرن للمرة الكذا في حياته المتوسطة الأجل، محكمة شرفية. تماما مثلما كان الحال مع فريق «يونغ برويسن» في ملعب هاينريش-إيلرز ورجال مجموعة فرق الهجوم رقم ٨٤، يقرر اتحاد أصدقاء الرياضة باونترات أن يشطبوا ماتيرن للمرة الثانية من قوائمهم. تماما مثلما في عام ٣٩: وافق الاتحاد بدون معارضة على منعه من دخول الاتحاد وحظر دخوله

الملعب. يمتنع صديقي الرياضة أنكنريب وتولكسدورف عن التصويت وهو أمر يقابل عامة بإعجاب صامت. ثم يقول المدير الفخري مؤكدا: «فليكن مسرورا أن الحكاية بقيت داخل الاتحاد. في الماضي كان للموضوع تبعات وتم تناوله في شارع كافاليري، إن كنتم قد سمعتم عنه من قبل.»

لا تمارس الرياضة وإلا مارسوا بك الرياضة.

مسكين يا ماتيرن، كم من هزائم أخرى ستشطبها على أنها انتصارات؟ وأي مكان لم يبصقك خارجه بعد أن أخضعته؟ هل سيطبعون في المستقبل خريطة الألمانيتين ويعرضونها في المدارس كوسيلة إيضاحية لغزواتك بالشعار المعروف: رمحان متعانقان؟ هل سيقولون إن انتصار ماتيرن في فيتسنهاوزن قد تحقق في صباح يوم...؟ وهل رأت معركة بيليفلد المنتصر ماتيرن في كولونيا الواقعة على نهر الراين في اليوم التالي؟ عندما انتصر ماتيرن في دوسلدورف-رات، هل سُجل ذلك بتاريخ الثالث من يونيو عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين؟ وإذا لم تسجل انتصاراتك وتحصى، فهل تذكر الجدات شيئا منها في حكاياهن للأحفاد: «زمان في عام الكلاب السابع والأربعين، جاء إلينا كلب مسكين، ومعه كلب أسود، وأراد التشاجر مع جدكم، لكنني أخذته إلى جنب وهدأته حتى أصبح لطيفا وهادئا كقط، لم يكن شخصا سيئا».

كثيرا ما قامت إنغه زافاتسكي، على سبيل المثال، بمساعدة ماتيرن على النهوض ثانية واعتنت به، كذلك تفعل الآن، حيث إن جراح معركة اونترات يجب أن تضمد. ذاك أمر لا بد من حدوثه. تستطيع إنغه أن تنتظر. لكل محارب أن يعود لبيته ولكل امرأة أن تنتظر بذراعين مفتوحتين. ولكل انتصار أن يحتفل به.

حتى يوخن زافاتسكي كان له الرأي نفسه. لذلك قال لزوجته إنغه: «إن كنت لا تستطيعين كبت رغباتك فافعلي»، وعليه يفعل زوج المحبين الكلاسيكي فالتر وإنغه كل ما لا يستطيعان كبته حتى الآن، فالمنزل كبير. والواقع أن المتعة حاليا وبعد أن هدته السنون، أكبر بكثير من الوقت الذي كان فيها شابا ينتصب عضوه كالماكينة بمجرد النظر إليه ويصل إلى غايته في وقت أسرع من المطلوب. دائما هذا الهوس بالأرقام القياسية، يقول لها: "سأريك! أنا أستطيع دائما وبسرعة، أستطيع أن أنام معك سبع مرات وبعد ذلك أصعد بك جبل

الفيلدبيرغ. هذه هي طبيعتي. هذه طبيعتنا جميعا نحن آل ماتيرن. زيمون ماتيرنا مثلا، كان يضع دائما قطعة من اللحم فوق عضوه، حتى وهو على ظهر الفرس في حملات انتقامه ما بين ديرشاو ودانتسيغ وألبينغ. كان رجلا بحق. وحتى يومنا هذا يمكنك أن تقرئي عن أخيه غريغور ماتيرنا في أرشيف مدينة دانتسيغ بأنه «لعنة، يقتل ويسيل دماء المسيحيين.» أتى ماتيرنا في ذاك الخريف إلى دانتسيغ ليعيث فيها فسادا وليشنق كلاوس بارتوش، وقد جعل من قضيبه المنتصب حاملا يعلق عليه حبل المشنقة، حتى أن الذهول قد اعترى كل اللصوص والتجار. «كان رجلا ولا كل الرجال. وفي الماضي كان بإمكانك أن تضعي على قضيبي المنتصب زكيبة من الفلفل أو ثقل وزنه عشرة كيلوات، دون أن يمنعني ذلك من أن أرويك وأكفيك.»

ما فات فات: لم يعد يثقب الحائط بآلة متينة. الآن تعلمه هي برفق وعناية: «لا تتعجل وينتابك الهلع، لدينا وقت. إنها أجمل سنوات العمر، عندما تتخذ القدرة الجنسية نمطها المعتاد، وتصبح غالية وثمينة مثل دفتر توفير. وخصوصا أن هناك بالعالم أشياء أخرى غير ذلك، كأن نذهب مثلا إلى المسرح وخصوصا أنك كنت ممثلا. أليست لديك رغبة؟ لا عليك، إذن فلنذهب للسينما، أو نذهب مع فالي إلى موكب القديس مارتن: يا فوانيس يا فوانيس، يا شمس وقمر ونجوم. يمكن أيضا أن نذهب إلى مقهى كايزرفيرت المطل على الراين. نستطيع أيضا أن نشارك في سباق العدو الذي يستغرق ستة أيام إلى دورتموند. لم أذهب قط إلى ضفاف نهر الموزل، هل نذهب إلى هناك عند جني العنب. يا لها من سنة سعيدة معك. سأستمتع طويلا بذكرى هذا الوقت. الآن تبدو لي أكثر اتزانا. بل إنك تخرج أحيانا بدون الكلب. طبعا هناك استثناءات، مثلا عندما تقابلنا في معرض أزياء الرجال الأخير مع ذاك الرجل السمين الذي يدعى زيمراو، جن جنونك وذهبت معه ومع يوخن لتتناقشوا خلف ركن المعرض، ولكنكم شربتم سويا بعد ذلك بعض أقداح من البيرة، وبل وعقد يوخن صفقة مع زيمراو: عدة دست من معاطف الدفيل. أو في اثنين الكرنفال بكولونيا: بعد مضي ساعة كاملة من مرور الموكب تأتي عربة تحمل طاحونة هواء وحولها ترقص راهبات وفرسان بدروع حقيقية. لكنهم جميعا بدون رأس يحملون رؤوسهم تحت آباطهم أو يتقاذفون بها. وفي الوقت الذي أردت أن أسألك فيه عما ترمز إليه تلك الطاحونة والراهبات

والفرسان، وجدتك انصرفت تريد أن تتخطى الحواجز وأن تذهب إلى الراهبات. لحسن الحظ أنهم لم يسمحوا لك بتخطي الحاجز. من يعرف ماذا كان يمكن للشرطة أن تفعل بك، إنهم لا يفهمون المزاح. لكنك عدت إلى هدوئك في الحال. كنا مضحكين جدا في المحطة، أنت كنت متنكرا في زي محارب من القرون الوسطى وزافاتسكي كان أميرالا أعور وصنعتما مني زوجة لص. خسارة أن الصور لم تكن واضحة بالقدر الكافي، وإلا لكان بإمكانك أن ترى كرشك يا حبيبي. لقد سمنت منذ أن كففت عن ممارسة الرياضة. أعتقد أن الاتحادات والجمعيات ليست بالشيء المناسب بالنسبة لك، أنت تتبع دائما طريقك الخاص. وليست لديك أية مشكلات حاليا مع يوخن، لأنه يفعل لك ما تريد. إنه ضد القنبلة الذرية لأنك ضدها، وقد وقع على ذلك أيضا. لكنني أنا أيضا أصبحت الآن ضدها لأنني سعيدة بالبقاء معك، ولا أريد أن نهلك. لأنني أحبك. لا تصغ إلي. أستطيع أن أقبل التراب تحت قدميك لأنني. . .، أتسمعني؟ أحب فيك كل شيء، كل شيء. نظرتك التي تخرق الجدران وطريقة إمساكك للكأس وطريقة تقطيعك للشحم، عندما تتحدث بطريقة مسرحية وتريد أن تمسك شيئا ما بيديك. صوتك وصابون حلاقتك وعندما تقص أظافرك، أو طريقة مشيك، إنك تمشي وكأنك ذاهب إلى موعد هام. لأنني أحيانا لا أفهمك. لكن ذلك لا يهم. لا تصغ إلي. لكنني أريد أن أعرف ما كان بينك وبين يوخن في الوقت الذي كنتما فيه معا. حسنا، لا داعي لأن تصر بأسنانك، لقد قلت لك، لا تنصت إلي. اسمع، عيد الرماة سيقام على مروج الراين؟ هل نذهب إلى هناك؟ ولكن بدون يوخن؟ غدا؟ سأعمل حتى السادسة في الفرع على الجهة الأخرى. فلنتقابل في السابعة، على جسر الراين، من جهة أوبركاسل.»

تواعد ماتيرن بدون كلب. يجب ألا يخرج بلوتو العجوز الطيب إلى الشارع كثيرا فقد تدهسه السيارات. اشترى لنفسه رطلا كاملا من الكرز. والآن يبصق بذور الكرز في اتجاه الموعد. لا بد للقادمين من الاتجاه المقابل أن يبتعدوا ليتجنبوا البذور المبصوقة. يتناقص عدد ثمار الكرز والدقائق. عندما يسير المرء فوق الجسر يدرك مدى اتساع الراين: عرض الراين من المرصد بجهة دوسلدورف إلى أوبركاسل يساوي رطلا كاملا من الكرز. يبصق البذور أثناء هبوب الريح الجانبية التي تطير البذور باتجاه كولونيا، لكن الراين يأخذها معه إلى دويسبورغ أو أبعد

من ذلك. تنادي الكرزة أختها. أكل الكرز يثير الغضب. يتزايد الغضب من كرزة إلى أخرى. عندما طرد يسوع الصيارفة من المعبد، أكل قبلها رطلا من الكرز. حتى عطيل فعل ذلك قبل أن. . . والأخوان مور كانا يأكلان الكرز حتى في الشتاء. ولو كان على ماتيرن أن يمثل دور المسيح أو عطيل أو فرانتس مور لكان عليه أن يأكل رطلا كاملا من الكرز قبلها. كم من الكراهية تنضج مع ثمرات الكرز أو تطهى معها وتوضع في البرطمانات؟ تبدو ثمار الكرز مدورة، لكنها في الحقيقة مثلثات مدببة الأطراف، والكرز الحامض بالأخص يسبب تثلم الأسنان. وكأن هذا ما ينقصه أيضا. لا يعدو تفكيره مدى بصاقه. يمسك العائدون من أشغالهم الذين يسيرون أمامه قبعاتهم بإحكام ولا يجرؤون على النظر وراءهم. فمن ينظر وراءه يجد شخصا خلفه. إنغه زافاتسكي التي تواعدت أيضا، هي الوحيدة التي تقف دون مهابة في موعدها بالضبط وتعكس عينيها ماتيرن الآتي مهددا. وكيف لها أن تعرف أنه قد أكل ما يقرب من رطل من الكرز. يتطاير فستانها الصيفي الأبيض الجديد ضيقا من أعلى وواسعا من أسفل. ما يزال مقاس وسطها ٤٥، لكنها ترتدي حزاما. وقفت تحمل تطلعاتها بلا أكمام. تكشف الريح العابثة بفستان إنغه عن ركبتيها المتلاصقتين. ابتسامة ولقاء، ما بينهما أربع خطوات ونصف بالصندل الإيطالي: تصيبها البذرة ما بين النهدين. لكن إنغه زافاتسكي التي لا يخرجها شيء عن هدوئها، تبقى شجاعة وتظل واقفة: «هل أتيت في موعدي؟ هذه البقعة على الفستان تجعله يبدو جيدا. كان ينقصه شيء من الأحمر. هل كان كرزا حلوا أم حامضا؟»

لأن الكيس كان قد أفرغ كل ما به من غضب. يتركه باصق الكرز يسقط: «هل أحضر لك بعضا منها، يوجد كشك هناك.»

لكن إنغه تريد: «ركوب المراجيح الدوارة، مرارا وتكرار.»

إذن يقطعان مروج الراين بالعرض إلى حيث المراجيح، يذهبان مع الكثيرين الذين يذهبون إلى هناك. ليس هناك وصف للمكان لأن إنغه لا تريد آيس كريم ولا تستطيع الرماية ولا تستشعر لذة قطار الملاهي إلا في الظلام وتشعر في تلك العروض المسرحية التي يقدمونها بالإحباط، لا تريد سوى المراجيح الدوارة دائما وأبدا.

في البدء يصيب لها وردتين وزنبقة ثم تجعله ينحشر معها في إحدى عربات

الملاهي. في هذه الأثناء يفكر وقد انغلق على نفسه تماما في هذه الجموع وفي المادية وفي التسامي. ثم بعد ذلك يصيب لها بثلاث رميات دبا أصفر صغيرا، لكن الدب لا يزوم. والآن يقف ماتيرن ويشرب كأسين من البيرة واحدة تلو الآخرى. الآن يشتري لوزا محمصا، سواء أرادت هي أم لم ترد. ثم يعاود الرماية ويحرز مرتين ثمانية ومرة عشرة. وأخيرا تستطيع أن تركب المراجيح الدوارة من جديد، لكن ليس دائما وأبدا.

تدور المراجيح دائما كما هو معتاد. المراجيح ممتلئة لثلثها فقط، لقد أصبحت موضة قديمة. لكن إنغه تعشق الأشياء القديمة. تجمع العلب الموسيقية والدببة الراقصة وألعاب القص واللزق وخيال الظل والصور اللاصقة ولعبة الحلزون الطنان ويبدو وكأن المراجيح الدوارة قد خلقت من أجلها. طرزت هذا الثوب والملابس الداخلية خصيصا لهذه الرحلة الدوارة. أطلقت شعرها، والركبتان متباعدتان دائما، فمن لها سخونة إنغه ولديها فرج يشكو الحمى كل ساعة، لا بد أن تعلقه دائما في الهواء ليكون عرضة للريح. لكن ماتيرن لا يحب اتباع قوانين الجاذبية. دوران لمدة دقيقتين ونصف سواء استدرت ووقفت في الاتجاه المعاكس أو لم تفعل: تدور دائما وأبدا حتى تتوقف الموسيقى. لكن إنغه تريد «مرة أخرى، مرة أخرى». حاول لمرة واحدة ألا تعكر الصفو. لن تجد وسيلة أرخص من هذه لجعلها تدوخ. فلتنظر حولك قليلا، أثناء الدوران. دائما وأبدا يرى برج لامبرت المائل الذي يرمز لدوسلدورف ودائما وأبدا هي الوجوه نفسها التي تقف وسط دائرة ممسكة بالآيس كريم وقد حملت معها ما كسبته من الرماية أو لعب النرد أو ما اشترته وتنتظر دائما عودة ماتيرن. إنسان الحشد يؤمن به، ويرتعد عند ظهوره. حكمة الدهماء، خشية الدهماء! والجميع يشبهون بعضهم بعضا وكأنهم خلقوا من العجين نفسه. المعاش في القلب، أدغال بلا أسنان، سكارى بالأماني، مع ذلك فليسوا بطيبين أو أشرار، بل شيء عجيب، صلصة. بازلاء منثورة، أو لتقل زبيب داخل الكعك. وجود منسي يبحث عن بديل للتسامي. دافعو الضرائب لهم النقش نفسه، ما عدا شخص واحد. كلهم سواء: هناك واحد يبدو مختلفا. خطأ في النقش لكنه واضح. لا يمكن نسيانه بين الدورة والدورة. اشترى قبعة الرماة مثل كل إخوانه الرماة الآخرين ورغم ذلك يظهر ويختفي ويظهر ويختفي. هذا الأخ مميز جدا. يا للأسماء! إنه...، نعم، بالطبع

إنه... لحظة! يختفي- يظهر: لقد افتقدته: قريبا ستنتهي هذه اللعبة يا أخي رائد الشرطة. قريبا ستنتهي البهجة أيها الرائد أوسترهويس. هل نريد أن نركب المراجيح الدوارة؟ ونطارد اللوازم المتكررة ودوافع القتل؟ قل لي يا هاينريش، هل نريد؟

يريد بعض الإخوة من الرماة ذلك، لكن ذاك المميز لا يريد. أراد قبل ذلك، لكن الآن بعد أن قفز شخص من المرجيحة الدوارة وهي تدور ونادى باسمه ليصل النداء إلى آخر الدنيا، مضيفا إلى الاسم الرتبة المتقادمة، لم يعد الرامي أوسترهويس الفائز بأوسمة المدينة يرغب في ركوب المرجيحة الدوارة، بل أراد أن يهرب. لا يحب سماع هذا اللقب: رائد الشرطة. حتى أصدقاؤه القدامى، لا يجوز لهم أن ينادوه به. لأن ذلك كان في الماضي ولم يعد لائقا استخدامه في الوقت الحالي. حدث ذلك مرات عدة وكثيرا ما صورته الأفلام: ليس هناك أسهل من الهروب من ساحة عيد الرماة. لأن الرماة يقفون في كل مكان بقبعاتهم، نصفهم بقبعات حراس الغابة وبعضهم بطواقي الكاوبوي، وهم مستعدون لتغطيته. يجرون أيضا قليلا ويجرون الذئب وراءهم ويضللونه، يذهبون بعقله حينما يقسمون أنفسهم ويجعلون الذئب على شفا أن ينقسم على نفسه أربعة أجزاء. ستة عشر جزءا من ماتيرن يطاردون أوسترهويس. امسكوه، امسكوه! لازمة متكررة تطارد دافع للقتل! ياه، لو كان بلوتو معه لعرف طريق أوسترهويس. آه لو كنت بقعته هو بالكرز وبذره بدلا من إنغه، ملازم الشرطة وسنواته المحطِّمة للضلوع، «أوسترهويس يا أوسترهويس!» لا تلتفت وراءك، فبذر الكرز وراءك.

وبعد ساعة من الصراخ والبحث عن أوسترهويس - ربما يكون قد أمسك بكتيبة كاملة من الرماة من أزرار ملابسهم ثم تركهم بلا رغبة - يجد أخيرا طريقه من جديد: يلتقط من النجيل المدهوس صورة مدغدغة. ليست لهذا أو ذاك من الرماة، بل لرائد الشرطة المتقاعد أوسترهويس الذي قام بكلتا يديه باستجواب فالتر ماتيرن المسجون على ذمة التحقيق في قبو رئاسة الشرطة بشارع كافاليري عام ٣٩.

يفتش ماتيرن في خيام البيرة باحثا عن صاحب الصورة. ربما سقطت من جيب سترة الرماة التي يرتديها. لا يعثر ماتيرن على أحد. أو هل تخلص منها

صاحبها- دليل! ابحث مع ماتيرن، يجوب ماتيرن المسارح وينقب باحثا تحت عربات المساكن المتنقلة. يهبط الليل على مروج الراين - يتبعه فستان إنغه ويطلب منه بأدب أن يركبا قطار الملاهي دائما وأبدا - يدخل ماتيرن عندئذ آخر خيمة من خيام البيرة. بينما لا تستطيع الخيام الأخرى الممتلئة المنتفخة أن تسيطر على ضجيج الغناء داخلها، لا يصدر عن هذه الخيمة أي صوت. يحذره المنظم عند مدخل الخيمة «هش! نحن نصور الآن.» يمشي ماتيرن على أطراف قدميه محترسا فوق نشارة الخشب المتخمرة. لا توجد كراسي قابلة للطي ولا صفوف من الموائد. يا لما تراه العين الباحثة عن أوسترهويس: يا لها من صورة! يا لها من صورة تلك التي يزمع مصور عيد الرماة أن يلتقطها! وسط فراغ ساكن لا تعصفه الريح، ترفع منصة مائة واثنين وثلاثين راميا متراصين بتدرج باتجاه سقف الخيمة. في المقدمة يركعون على الركب، ثم يتلوهم الجالسون ثم يتلو الجالسين الواقفون وفي المؤخرة يفوق الواقفون الصف الأخير الجميع علوا. مائة واثنان وثلاثون راميا يرتدون قبعاتهم، نصفها قبعات حراس الغابة والنصف الآخر قبعات الكاوبوي وقد أمالوها قليلا ناحية اليمين. الأوسمة وأشرطة اتحاد الرماة موزعة بعدالة.

لا يوجد شخص يلمع أكثر من زميله، ليس هناك صدر أكثر فراغا من الآخر. ليس هناك ملك للرماة ومائة وواحد وثلاثون راميا، بل بالأحرى مائة واثنان وثلاثون راميا لهم الرتبة نفسها يبتسمون بوداعة ومكر لماتيرن المدجج بصورة رائد الشرطة ويحاول أن يختار. كل تشابه محض صدفة. كل تشابه مدحوض. يتم الاعتراف بكل تشابه مائة واثنتين وثلاثين مرة، حيث يبتسم أخ الرماة أوسترهويس أثناء بريق فلاش آلة التصوير بين المنصة وسقف الخيمة مائة واثنتين وثلاثين مرة وقد تراص بتدرج، راكعا، جالسا، واقفا وواقفا في القمة وهو يرتدي قبعة الرماة بميل قليل نحو اليمين. بورتريه عائلي: مائة واثنان وثلاثون توأما. يقول مصور عيد الرماة «أيها السادة! لقد انتهينا». يقف مائة واثنان وثلاثون هاينريش ويثرثرون بعضهم مع بعض وقد أثقلتهم البيرة، يهبطون من فوق منصة التصوير ويريدون جميعا أن يصافحوا شخصا، يعرفونه من أيام رائد الشرطة، مائة واثنتين وثلاثين مرة «كيف الحال والأحوال؟ رجعت إلى البلاد؟ هل نمت الضلوع سليمة من جديد؟ كانت أياما قاسية. نستطيع جميعا

نحن المائة واثنين وثلاثين أن نشهد بذلك. لكن لم يكن هناك أي تهاون مع من لم يؤد واجبه. على الأقل كان الأولاد يغردون ناطقين بالمعلومات إذا ما أخذناهم بين أيدينا، وليس كتلك الطرق الطرية التي يستعملونها الآن. . . .»

عندئذ يهرب ماتيرن من فوق نشارة الخشب المتخمرة «إلى أين تذهب مسرعا يا رجل؟ لا بد لنا أن نشرب نخب هذا اللقاء!» تلفظه خيمة عيد الرماة. يا للسماء المنقطة ذات النجوم! في الخارج ينتظره فستان إنغه والرب الحبيب. تحت حمايته ورعايته يصبح الصباح على مروج الراين، حينما تتمكن إنغه من تهدئة حبيبها ذي الأسنان المصطكة.

الماتيرنياده الواحدة والتسعون المتبصرة بعض الشيء

بم ينفعه رأسه المصفح، عندما تكون جدران التذكر مصممة خصيصا لتسرب الذكريات عبرها؟ هل هذه مهنة: الاصطدام بالأبواب الدوارة؟ أو استتابة المومسات؟ أو نخر الجبن السويسري؟ من يريد نكأ الجراح القديمة، إن كان نكأ الجراح يسبب المتعة؟ أو أن تحفر حفرة لأخيك، حتى يستطيع أن يخرجك منها فيما بعد؟ ملاكمة خيالية؟ ثني دبابيس الأمان؟ غرز المسامير في الأعداء المطاطيين؟ تعقب الأسماء في أدلة التليفونات وأدلة العناوين اسما اسما؟- فلتكف عن الانتقام يا ماتيرن! فلتترك بلوتو بجانب المدفأة. كفى ما قمت به من عمليات تطهير من النازية! فلتصنع سلامك مع هذا العالم، أو فلتربط التزامك بطاعة قلبك وطحالك وكليتك بتأمين دخلك الشهري. فأنت لست كسولا. كنت تعمل دائما وقتا كاملا: التجوال وشطب الأسماء والتجوال. وكثيرا ما بلغت الحد الأقصى لقدرتك على الإنجاز بل وتخطيته أيضا: نساء يصطحبنك، نساء تتركهن راقدات. ماذا بإمكانك أن تفعل أيضا يا ماتيرن؟ ما الذي تستطيع عمله أمام المرآة وضد الريح؟ الحديث بصوت عال وواضح على خشبة المسرح. إذن فلتدخل في أدوار ولتنظف أسنانك، دق ثلاث مرات على الباب وشارك بوصفك ممثل للشخصيات، نمط ظاهري، فرانتس مور وكارل مور، حسب المزاج. قلها للجالسين في الصالة وفي اللوجات «لكنني أريد فيما بعد أن أقف بينكم وأؤدي أدوارا مرعبة!»

يا للغباء! فحتى الآن ماتيرن ليس على استعداد لأن يصنع من ثأره عملا

مجزيا نوعا ما. لا ينتج عن جلسته في مقاعد آل زافاتسكي سوى عدم متثائب. يجر نفسه وحصيات كليتيه من حجرة إلى أخرى. يتحمله أصدقاؤه. تدعوه حبيبته إلى السينما. إذا ما ذهب للتمشية مع الكلب أو لقضاء مصلحة، لا يجرؤ أحد أن يلتفت وراءه. ما الذي يمكن أن يجعله يتخلى عن التحرش بالسائرين أمامه، الذين يستمعون لصريره؟

يُطرح في الأسواق في عام ٥٥، عندما يبلغ كل الأطفال المولودين في عام السلام ٤٥ سن العاشرة، منتج رخيص بكميات كبيرة. ويشرف على توزيعه جهاز سري ولكنه ليس ممنوعا. لا توجد إعلانات تروج له، مفاجأة الموسم، ليس له وجود بنوافذ العرض. ولا يباع في محلات لعب الأطفال والمتاجر. ولا ترسله متاجر التوزيع بالبريد دون تحصيل الرسوم البريدية. لكن الباعة المتجولين يقفون به في الأسواق الموسمية وأمام الملاعب ومباني المدارس. يمكن الحصول على هذه اللعبة المخصصة لصغار السن والشباب من سن سبع وحتى سن واحد وعشرين، في كل مكان يتجمع فيه الأطفال وكذلك أمام المدارس الحرفية ونزل صبيان الحرفيين والجامعات.

الشيء الذي نتحدث عنه هنا - لكي لا نزيد غموض السلعة الاستهلاكية المليئة بالأسرار - عبارة عن نظارات. لا، ليست تلك النظارات التي ترى من خلالها أشياء غير مهذبة بألوان وأوضاع مختلفة. لا يريد منتج سيئ السمعة أن يفسد الشباب الألماني الغربي في فترة ما بعد الحرب. ليست هناك حاجة إلى الاستقصاء عن التراخيص اللازمة لها لدى مكتب الفحص الاتحادي المختص وليست هناك ضرورة لذلك. لا يجد القساوسة مناسبة لإطلاق الأمثولات الوعظية المخيفة من فوق منابرهم. ومع ذلك فالنظارات المعروضة هنا للبيع بهذا الرخص اللافت للانتباه، ليست نظارات لتصحيح قصور النظر. هذه النظارات التي سيطرح منها في الأسواق حسب التقديرات حوالي مليون وأربع آلاف نسخة، ليست بنظارات مفسدة أو شافية. سعرها خمسون بفنيغا. فيما بعد، بعدما يتوجب على لجان الفحص في ولايتي هسن وسكسونيا السفلى أن تنشغل بأمر هذا المنتج، تتبين صحة التقديرات الرسمية: فقد أنتجت شركة براوكسل وشركاه الواقعة في غروس-غايزن بالقرب من هيلدسهايم، مليونا وسبعمائة وأربعين ألف نسخة من موديل النظارات المتهمة بغير حق ووزعت منها بالضبط

مليونا وأربعمائة وستة وخمسين ألفا وثلاثمائة واثنتي عشرة نظارة. ليست صفقة سيئة، خاصة وأن تكاليف الإنتاج قليلة: إنه منتج بلاستيكي بسيط الصنع. زجاج النظارة هو الشيء الوحيد الذي لا بد تطلب عملا بحثيا طويلا، رغم أنه مثله مثل زجاج النوافذ، غير مصقول صقلا جيدا. يقال إن اختصاصيي بصريات درسوا في ينا، وهربوا من جمهورية ألمانيا الديمقراطية، قد قاموا بمعاونة شركة براوكسل وشركاه بمعرفتهم المتخصصة. لكن شركة براوكسل وشركاه تتمكن من أن تثبت للجنتي الفحص أن ذلك لم يكن عمل اختصاصيي البصريات وأن هذا المزيج الذي يتم صهره في الكوخ الزجاجي الملحق بالمصنع عبارة عن مزيج فريد، ولذلك تقدمت الشركة للحصول على براءة اختراعه: يضاف إلى الخلطة المعروفة المكونة من رمل الكوارتز والصودا وملح غلاوبر والحجر الجيري، مقدار موزون بالغرام من الميكا اللامعة المستخلصة من النايس اللامع والأردواز اللامع والغرانيت اللامع وفي هذه الأحجار يكمن سر النظارات. إذن ليست سحرا أسود أو شيئا ممنوعا، لقد أكدت توصية كيميائيين متخصصين أنه قد تم إنتاجها على أسس علمية. تتوقف مساعي لجان الفحص في هسن وسكسونيا السفلى ومع ذلك، لا بد أن هناك شيئا في هذه النظارات، غالبا أنها مرايا الميكا اللامعة الصغيرة، لكن الشباب والصغار من سن السابعة وحتى واحد وعشرين عاما هم الوحيدون القادرون على إدراك الحيلة الكامنة في النظارات، وليس باستطاعة الكبار ولا الأطفال الأصغر سنا أن يعرفوا سرها.

ما اسم هذه النظارات؟ لها مسميات عديدة متداولة، لكن شركات براوكسل لم تبتكر هذه المسميات. بالأحرى يقدم المنتج سلعته بوصفها لعبة أطفال بلا اسم، لكنها تكتسب بمجرد تحقيق مبيعات جيدة بعض المسميات التي يستخدمها الباعة كشعارات للترويج.

يسمع ماتيرن لأول مرة عن «النظارات العجيبة» عندما يذهب إلى سوق أعياد الميلاد في شارع بولكرت بدوسلدورف مصطحبا معه الصغيرة فالي التي صار عمرها الآن ثماني سنوات. يقوم ببيعها رجل ليست له ملامح مميزة، لا تستطيع أن تفرقه عن بائع كعك القرفة أو بائع أقلام الحبر الرخيصة وأمواس الحلاقة، يقف بكراتينه المملوءة حتى نصفها بين كشك يبيع حلوى التفاح المبشور المقلية وآخر يبيع كعك أعياد الميلاد.

لكن المشترين لا يتزاحمون على الناحية اليسرى حيث الروائح الدسمة الجذابة، ولا على الناحية اليمنى حيث يرش سكر البودرة بسخاء بقدر ما يتزاحمون أمام الكراتين التي قاربت أن تفرغ. والبائع، وهو بالتأكيد بائع موسمي، لا ينادي على بضاعته بل يهمس: «ارتدي النظارات العجيبة، أنظر من وراء النظارات العجيبة». لكن هذا الاسم، برغم ما يوحي به من روعة، هو الاسم الذي يعرفه الكبار الذين يمتلكون حافظات النقود ويدفعون الثمن لصغارهم. لكن الشباب الناشئ قد فهم سر النظارات: فالصبية من سن الثالثة عشرة والمراهقون من سن السادسة عشرة يطلقون على النظارات «نظارات الاكتشاف» أما طلاب الثانوي العام وطلاب ميكانيك السيارات الذين أنهوا دراستهم وكذلك طلبة الجامعات في الفصل الدراسي الأول فيسمونها «نظارات المعرفة». والتعبير الأقل تداولا وغالبا ليس له أصل طفولي هو: «نظارة اكتشاف الأب» و«نظارة اكتشاف الأم» أو «كاشفة العائلة».

وإذا انطلقنا من تلك المسميات الأخيرة، فإن نظارات براوكسل التي طرحت منها الشركة مئات الآلاف، تكشف أسرار بيت الوالدين. تستطيع النظارة أن تكشف وأن تتعرف، بل وأن تعري تاريخ الأب والأم وكذلك أي شخص بالغ تعدى سن الثلاثين. ومن لم يبلغ في عام ٥٥ سن الثلاثين أو كان أكبر من إحدى وعشرين سنة، لا يستطيع تعرية تاريخ الأخرين ولا يستطيع إخوانه الذين يصغرونه تعرية تاريخه. هل ينبغي حل مشكلات الجيل بمثل هذه اللعبة الحسابية المعمِمة؟ هل تعد هذه السنوات التسع مخصومة وهل يعد مواليدها غير قادرين على المعرفة الأولية؟ هل لدى شركة براوكسل وشركاه طموحات، أم أنها قد توصلت ببساطة من خلال بحوث السوق الحديثة إلى معرفة حاجات الجيل الناشئ ما بعد الحرب وإلى كيفية إشباعها؟

وحتى عند هذه النقطة الخلافية، استطاع محامي شركة براوكسل وشركاه تقديم تقارير، وتسببت موضوعيته السوسيولوجية في تشتيت أفكار لجنتي الفحص. فقد ورد في أحدها «إن اجتماع المنتَج والمستهلك، يظل أمرا مأمون العواقب حتى تأتي اللحظة التي يبدأ فيها المستهلك في الإنتاج بذاته وبالتالي يحول المنتج المكتسب إلى أداة إنتاج، أي إلى شيء لا يجب المساس به.»

للمتشكك أن يستمر في هز رأسه، حيث إنه مهما كانت الأسباب التي تقرر

على أساسها إنتاج النظارات العجيبة وتوزيعها، فإن نجاح مفاجأة الموسم هذه أمر لا جدال فيه وقد غيرت بنية المجتمع الألماني بشكل جوهري، بغض النظر عما إذا كان هذا التحول في البنية أو في سلوك المستهلكين مقصودا أو غير مقصود، كما يقول شيلسكي[٢٢].

يكتسب الشباب رؤية. وحتى لو أن أكثر من نصف عدد النظارات المباعة تتحطم بعد شرائها بقليل، لأن الآباء يدركون خطورة النظارات، يتبقى حوالي سبعمائة ألف من مرتدي النظارات، ويتمكنون بهدوء رؤية صورة الأبوين بتأمل عميق. هناك لحظات مناسبة كثيرة لعمل ذلك، مثلا أثناء العشاء وأثناء رحلات العائلة أو أثناء دوران الأب في الحديقة بماكينة تشذيب النجيل. يمكن ملاحظة تواجد النظارات في جميع مناطق جمهورية ألمانيا الاتحادية، فيلاحظ انتشارها بكثافة مفزعة في ولايات وستفاليا شمال الراين وهيسن وسكسونيا السفلى وتتوزع بقدر متساو حسب نسبة السكان في جنوب غرب البلاد وفي بافاريا. وولاية شليسفيغ هولشتاين هي الولاية الوحيدة - باستثناء مدينتي كيل ولوبك - التي توجد بها مناطق كاملة تخلو من النظارات العجيبة، فلم تتورع السلطات في مراكز أويتن وريندسبورغ ونويمونستر عن مصادرة النظارات من البائع وهي جديدة في كراتينها. صدر الحكم المؤقت لصالح شركة براوكسل. صحيح أن الشركة استطاعت الحصول على بعض التعويضات، لكن الشركة لم تتمكن من أن تجد زبائن للنظارات سوى في مدينتي كيل ولوبك وفي المنطقة المحيطة بايتسهو. واستطاع هؤلاء الزبائن أن يكونوا صورة عن آبائهم.

ماذا يرى المرء إذن عبر هذه النظارة؟ لم تأت الاستطلاعات بنتائج كثيرة. فمعظم الشباب الذين كونوا لأنفسهم صورة عن أبويهم أو ما يزالون منهمكين في تطوير وإثراء صورة الأبوين، لا يريد الحديث عن ذلك. ومع ذلك فهم يعترفون بأن النظارة العجيبة تفتح الأعين. وكانت استطلاعات الرأي تجري أمام دور السينما أو في الميادين الرياضية تقريبا على النحو التالي: «قل لنا أيها الشاب، ما هو الأثر الذي أحدثه ارتداؤك لنظارتنا؟»

---

(٢٢) عالم اجتماع ألماني تخصص في سوسيولوجيا جيل ما بعد الحرب وسوسيولوجيا الجنس. (مترجم)

«لا أعرف ماذا أقول لك. بعد ارتدائي للنظارة عدة مرات أستطيع رؤية أبي بوضوح.»

«نحن نريد أن نسمع تفاصيل معينة. تحدث من فضلك دون أي مخاوف وبصراحة. نحن من شركة براوكسل وشركاه. ومن المهم لنا أن نعرف ذلك، لمصلحة الزبائن ولكي نستمر في تطوير النظارات...»

«النظارات لا تحتاج إلى أي تطوير، إنها متقنة الصنع، لقد قلت لكم، ارتديتها عدة مرات واستطعت أن أرى بوضوح، لا يوجد وضوح أكثر من ذلك.» كل من سُئلوا تهربوا من الإجابة، لكن ما هو أكيد أن الشاب ذا العينين غير المسلحتين يرى أباه بعين مختلفة عن الشاب الذي يرتدي النظارة العجيبة إضافة إلى أنه تأكد أن النظارة العجيبة تبين لمرتديها من الشباب ماضي آبائهم في صور متغيرة وفي أحيان كثيرة وبقليل من الصبر تعرض لحياته في تسلسل زمني. تتضح معالم فصول من الماضي، تم كتمانها عن الأبناء لسبب أو لآخر. وحتى في هذا الاتجاه لم تأت استطلاعات شركة براوكسل ولا استطلاعات الإدارات التعليمية بأية نتيجة. مع ذلك فمن المدهش أنه يمكن التخمين بأن الأسرار التي تنكشف ليست أسرارا ايروتيكية كالخيانات المعتادة، بل تتكرر خلف زجاج نظارات كشف الأب مشاهد عنف، قام الأب بها أو قبل بها أو تسبب فيها قبل ١١ أو ١٢ أو ١٣ عاما: جريمة قتل، تتكرر مئة مرة، المساعدة في...تدخين السجائر والمشاهدة أثناء... قتلة تزينهم الأوسمة ويحتفى بهم، أهل ثقة. دوافع القتل تتحول إلى لوازم متكررة. مع القتلة على المائدة نفسها، في القارب نفسه، في السرير وفي الكازينو. أنخاب، أوامر بالتحرك العسكري. ملحوظات بالملفات. ترطيب الختم بزفير النفس. أحيانا لا يوجد ما يُرى سوى توقيعات وسلال قمامة للأوراق. كل الطرق تؤدي إلى... الكلمات والقدرة على الصمت. كل أب يخفي على الأقل جريمة قتل واحدة. تبقى كثير من الجرائم غائمة أو مطمورة أو مدفونة وكأنها لم تحدث، حتى تظهر النظارات العجيبة بالأسواق في السنة الحادية عشرة بعد الحرب وتميط اللثام عن الجناة.

ليست حالات منفردة. يتكتم الأبناء والبنات على الأسرار التي عرفوها حتى في أحلامهم، مثلما فعل كل من الآباء والأمهات في الماضي، ولا يخرج شيء منها إلى النور إلا إذا تطوع شاب أو شابة وسمح بتعريض معرفته للتقييم

الإحصائي. قد يكون الخجل عائقا. فمن يشبه أباه في الملامح، يخشى أن تكون هناك تشابهات على مستويات أخرى. إضافة إلى أن طلبة المدارس الثانوية والجامعات لا يريدون باستجوابهم للآباء، أن يضحوا بمستقبلهم التعليمي الذي يموله الآباء. وبالتأكيد فإن الشخص الذي اخترع النظارة العجيبة - وليس شركة براوكسل وشركاه - أي الذي فصل مرايا الميكا الصغيرة عن أحجار النايس وخلطها بمزيج الزجاج المعتاد كان له هدف نهائي من وراء انتشار النظارة العجيبة وغالبا كان يأمل في تحققه. لكن انتفاضة الأطفال ضد الآباء لا يكتب لها الوجود. يعوق الاعتزاز بالأسرة وغريزة البقاء وتطلعات ساذجة مثل الحب الأعمى للآباء الذين تم تعرية ماضيهم قيام ثورة، كان من المقدر لها لو قامت، أن تمنح قرننا هذا بعض العناوين الرئيسية: «حملات الأطفال الصليبية تشهد انتعاشا جديدا. تنظيمات المراهقين تحتل مطار كولونيا! صدور قوانين الطوارئ!- أثناء المصادمات الدامية في بون وبادغودسبيرغ، لم تتمكن قوات الشرطة وفرق الجيش من. . .إلا في الساعات الأولى من الصباح. ما يزال راديو هيسن فيما عدا المبنى المجاور واقعا في قبضة. . .حتى الآن تمكن سبعة وأربعين ألف شاب، من بينهم أطفال عمرهم ٨ سنوات من. . . تفشي حالات الانتحار بين المحاصرين في مناطق لونهبيرغ والإلبه. قام المحرضون الذين تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة بالاعتراف. بعد الانتهاء من عمليات التطهير المنظمة سيتحدث. . . عبر كل الإذاعات. ما يزال البحث عن العملاء الشيوعيين الذين تسببوا في اندلاع الثورة وقادوها، مستمرا. بعد التدهور المبدئي في أسواق التعامل، تشهد البورصة. . .حتى في زيورخ ولندن هناك طلب على السندات الألمانية من جديد. سيعلن السادس من ديسمبر يوما للحداد الوطني.»

لم يحدث شيء من هذا القبيل. أصبحت الحالات المرضية معروفة. عدد لا يستهان به من الفتيات والفتيان لم يعودوا قادرين على تحمل رؤية صورة الوالدين المفزعة. يهربون من مواجهتها: إلى الخارج، إلى الفرقة الأجنبية، كما هو معتاد. بعضهم يعودون. تنجح في هامبورغ أربع محاولات انتحار متتالية وفي هانوفر محاولتان، مما يحدو بشركة براوكسل وشركاه أن توقف إنتاج النظارات قبل عيد الفصح بقليل.

يضيء الماضي طوال أشهر قليلة، لكي يسدل عليه الستار من جديد وليبقى

معتما للأبد كما هو مأمول. ماتيرن، الذي يدور عنه الحديث في الماتيرنيادات هو الوحيد الذي يزداد رزانة وتعقلا إزاء الثورات، لأنه حين اشترى لابنته فالي إحدى هذه النظارات من سوق أعياد الميلاد بدوسلدورف، وضعت الطفلة النظارة على عينيها مباشرة: كانت فالي تضحك لتوها وتأكل كعك التوابل، والآن ترى ماتيرن عبر النظارة وتسقط منها علبة الكعك ذات الرباط الذهبي وتصرخ وتهرب منه.

يجري ماتيرن وراءها ومعه الكلب. لكن خوف الطفلة يتزايد من كليهما حيث إن الطفلة ترى الكلب على حقيقته المرعبة أيضا، ويتمكن ماتيرن من الإمساك بها عند بوابة راتينغ. يشفق المارة على الطفلة التي تصرخ ويطلبون من ماتيرن أن يثبت أنه أبوها. تعقيدات! وفي الحال ترد تعليقات مثل «كان يريد بالتأكيد مهاجمة الطفلة. انظروا إليه. سيماهم على وجوههم! هذا الحيوان!» وأخيرا يقوم شرطي بتفريق هذا التجمع. يتم التأكد من البيانات الشخصية. يقول الشهود إنهم رأوا هذا ولم يروا ذاك. فالي ما تزال تصرخ وترتدي النظارة. تأخذ سيارة الدورية ماتيرن وكلبه والطفلة المفزوعة إلى بيت آل زافاتسكي. لكن حتى في بيت العائلة المألوف ووسط اللعب الكثيرة الغالية، لا تريد فالي أن تتوقف عن الصراخ، لأن النظارة ما تزال على عينيها. لأن فالي لا ترى ماتيرن وحده في هيئة أخرى بل ترى يوخن وإنغه زافاتسكي بعين جديدة، ومريعة أيضا. وصراخها يجعل بلوتو يختفي تحت المائدة يملأ الصراخ حجرة فالي ويجعل الكبار يتحجرون. ووسط الصراخ تخرج بعض الكلمات المشوهة بفعل الصراخ والتي تحمل رغم ذلك معنى ما. تتكلم فالي متلعثمة عن ثلج كثير ودم وعن أسنان الرجل السمين الطيب الذي قام أبي وعمي فالتر بضربه مع آخرين، كان منظرهم جميعا مرعبا وقاموا بتسديد اللكمات لوجهه، وقام عمي فالتر بتسديد أكبر عدد من اللكمات للرجل السمين الطيب الذي لم يعد واقفا بعد لأن عمي فالتر. . . «لا يحق لك أن تفعل ذلك! لا يحق للمرء أن يفعل ذلك. الضرب والتعامل بوحشية مع الناس والحيوانات والزهور. هذا شيء محرم. من يفعل ذلك لا يذهب إلى الجنة. الرب الحبيب يرى كل شيء. كف عن ذلك كف عن ذلك. . .»

ولا تهدأ الطفلة إلا عندما تتمكن إنغه زافاتسكي من خلع النظارة عن عيني الطفلة. لكن بعد ذلك بساعات أثناء رقاد فالي في سريرها محاطة بالدمى الكثيرة،

يستمر صراخها. تقاس حرارتها ويتبين إصابتها بالحمى. يستدعون الطبيب. ليس لديها أعراض إنفلونزا ولا أي مرض من أمراض الأطفال المعتادة. يقول الطبيب إن صدمة عصبية هي التي تسببت في هذه الأزمة. شيء لم يكن في الحسبان، لذلك ينصح الطبيب بالراحة. وعلى الكبار ألا يتدخلوا. إذا لم تتحسن حالتها، يجب نقلها إلى إحدى العيادات. لا تزول الحمى ليومين وليلتين ويصحبها بلا خوف أو تبرم إعادة للمشهد الشتوي: جليد على الأرض ودم يتقطر، قبضات تتكلم والرجل السمين يسقط ويقف ويعاود السقوط، علام يسقط؟ على الجليد، لأن عمي فالتر وأبي...، يسقط في الثلج ويبصق أسنانا كثيرة، واحدة اثنتين خمس ثلاث عشرة اثنتين وثلاثين!- لم يعد أحد قادرا على أن يعد معها. لذلك نقلت فالي مع دميتيها المفضلتين إلى مستشفى ماريا. لا يجلس ماتيرن وزافاتسكي بجانب سرير الأطفال الخالي الذي لا يطاق، بل يجلسان في المطبخ ويكرعان الخمر حتى يسقطا من فوق الكراسي. لقد ظل زافاتسكي محافظا على حبه للجلوس بالمطبخ: في الصباح يصير رجل أعمال يرفل في ثياب مهندمة وفي المساء يتجول مرتديا حذاء بيتيا ما بين الثلاجة والموقد ويشد في حمالات بنطلونه. في الصباح يتحدث بألمانية رجال الأعمال الخفيفة النشطة والتي تحمل بقايا لغة الجيش المقتضبة الموفرة للوقت. ذات مرة قال غودريان وهو أحد القادة العسكريين حينما أراد لدباباته أن تنجز أعمالا كبيرة: «إننا لا نريد ننشغل بصغائر الأمور، بل نريد أن ننجز أعمالا كبيرة» وزافاتسكي يردد وراءه هذه العبارة حينما يريد أن يُغرق السوق بكمية من الملابس الجاهزة. ولكن في المساء يقف في المطبخ مرتديا حذاءه البيتي ويأكل الفطائر المحمصة ويتحدث طويلا بلكنة واضحة وباستطراد عن الأيام الخوالي في مسقط رأسه. ويتعلم ماتيرن أيضا الاستئناس بدفء المطبخ. يربت الرفيقان أحدهما على كتف الآخر بحزن. تومض عيونهما من التأثر ومن العرقي غير المخفف. يتقاسمان الشعور بالذنب على مائدة المطبخ ويتشاجران فقط حينما يتعلق الأمر بتواريخ محددة. يقول ماتيرن إن هذا الأمر أو ذاك قد حدث في يونيو عام سبعة وثلاثين وزافاتسكي يقول: «كان ذلك في سبتمبر، من كان يظن أن النهاية ستكون سوداء بهذا الشكل.» لكن كليهما متفقان على أنهما كانا ضد النازية في الماضي: «تعرف، إن فرقة الهجوم التي كنا فيها، كانت بمثابة ملجأ، يمكنك أن تقول هجرة داخلية. لسه فاكر أيام ما كنا

نتفلسف على البار. وكذلك فيلي إيغرز كان موجودا والأخوان دوليك وفرانتشن فولشليغر وبوليتس وهوبه وأوتو فرانكه. وظللت أنت تتكلم وتتكلم عن الوجود حتى أصاب الهوس الجميع. وسع لي وسع! والآن؟ الآن تجيء ابنتك وتقول لك: قاتل قاتل!»

في كل مرة يدوم هذا الرثاء في المطبخ لهنيهة حتى يغلي ماء القهوة ويعاود زافاتسكي النهوض: «قل يا فالتر، تفتكر يا فالتر أن هذا هو جزاؤنا؟ هل نستحق ذلك، لا وألف لا.»

وعندما عادت فالي زافاتسكي من المستشفى بعد حوالي أربعة أسابيع، اختفت النظارة العجيبة من المنزل. لم تلقها إنغه في سلة القمامة ولم يقم زافاتسكي وماتيرن بتحطيمها في المطبخ، في الأغلب أن الكلب قد مضغها وابتلعها وهضمها. لكن فالي لا تسأل عن اللعبة الضائعة، لأن عليها أن تحصل ما فاتها من دروس المدرسة. تصبح الفتاة جادة ونحيفة ويصير باستطاعتها الجمع والضرب. يأمل الجميع في أن تنسى الطفلة السبب في جديتها ونحافتها. لأن وجودها في المستشفى كان له غرض واحد وهو أن تنسى. وصارت القاعدة الأساسية في حياة كل من يهمهم الأمر هو النسيان. صار النسيان كلمة مأثورة ومنقوشة في مناديل الجيب والفوط والوسائد وحشو القبعات. لا بد لكل شخص أن يكون قادرا على النسيان. النسيان من شيم البشر. لا بد للذاكرة أن تحتفظ فقط بالذكريات الطيبة، وليس بفظائع الأمور. من الصعب الاحتفاظ بالذكريات الطيبة، لذا فعلى المرء أن يجد ما يؤمن به، كأن يؤمن بالله مثلا وإن لم يستطع فليؤمن بالجمال أو بالتقدم أو بالخير الكامن في البشر أو بأي فكرة أخرى. «نحن هنا في الغرب، نؤمن إيمانا راسخا بالحرية، دائما وأبدا»

إذن النشاط! النسيان بوصفه نشاطا منتجا. يشتري ماتيرن ممحاة ضخمة ويجلس إلى مائدة المطبخ ويبدأ في محو كل الأسماء المشطوبة وغير المشطوبة من فوق قلبه وطحاله وكليتيه. بل ويريد أن يبيع الكلب بلوتو الذي يعد قطعة من الماضي تتجول رغم ضعفها وهرمها على سيقان أربع، أو يودعه في أحد ملاجئ الحيوانات ويمحوه أيضا بالممحاة. لكن من يشتري مثل هذا الكلب الهرم. إضافة إلى أن الأم والطفلة تعارضان بيعه: لا تريد إنغه بيع الكلب إطلاقا. تبكي فالي وتتوعدهم بأن تمرض ثانية لو تخلص ماتيرن من الكلب. إذن يبقى الكلب أسود

واضحا. وتبدي الأسماء مقاومة شديدة لمحاة ماتيرن. فمثلا حينما يمحو أحد الأسماء عن طحاله وينفخ ليبعد آثار المحاة، يتعثر أثناء قراءته الجريدة في شخص آخر يكتب مقالات عن المسرح. يحدث ذلك عندما يقوم المرء بعمل شيء إضافي أثناء القيام بمحو الأسماء. لكل مقال مؤلف. ومؤلف هذا المقال رجل متخصص. لقد اكتسب معارف كثيرة وكتب قائلا: «بالقدر نفسه الذي يحتاج فيه الإنسان إلى المسرح، يحتاج المسرح إلى الإنسان.» لكنه يتأسف قائلا: «في هذه الحالة من الاغتراب يشعر الإنسان...» ومع ذلك فهو يعرف جيدا أن: «تاريخ البشرية يجد في المسرح نمطه الظاهري.» لكنه يتنبأ بتحول خشبة المسرح ثلاثية الأبعاد من جديد إلى الصورة المسطحة لصندوق الدنيا. وهنا يتفق الرجل الذي يوقع مقالته بالحرفين ر. ت. مع الكاتب الكبير ليسنغ ويقتبس عبارته: «ما جدوى العمل المضني من أجل الشكل الدرامي؟» يتضمن المقال في طياته تحذيرات وإنذارات: «لا يختفي المسرح من الوجود عندما يتخلى الإنسان عن إنسانيته، بل العكس، أغلقوا المسارح، وسيفقد الإنسان إنسانيته!» وعامة كان السيد رولف تساندر شديد التأثر بكلمة إنسان. ماتيرن يعرفه شخصيا من أيام عمله بالمسرح. يستخدم تساندر عبارات مثل: «إنسان العقود القادمة» أو «كل ذلك يقودنا إلى مواجهة حادة مع الإنسان.» أويقول بتحيز «لا وألف لا للمسرح المفرغ من الإنسان!». مع ذلك لم يعد ر. ت. أو د. رولف تساندر ممارسا «لمهمته المسرحية»- كان في الماضي كاتبا مسرحيا بمسرح مدينة شفيرين - ومؤخرا صارت له مهام استشارية بإذاعة غرب ألمانيا، لكن هذا لا يمنعه من كتابة مقالات لملحقات يوم السبت في صحف عديدة: «لا يكفي أن يرى البشر الكارثة فقط، حيث يظل الاهتزاز الذي تحدثه في النفس غرضا في حد ذاته، لابد أن يتم تأويل الكارثة حتى يتمكن التأثير التطهيري في ذروته من تمزيق إكليل العدم ويعطي معنى للفوضى.»

يغمز الخلاص بإنسانية من بين السطور. هذا هو الرجل الذي ينبغي على ماتيرن الفوضوي أن يتوجه إليه، ولا سيما أنه يعرفه جيدا من الماضي ويحمل اسمه منقوشا في مكان ما، إما في القلب أو الطحال أو الكلى. لم تتمكن أي ممحاة، حتى تلك التي اشتراها مؤخرا، من أن تمحو اسمه. كل إنسان له سكن، حتى رولف تساندر. وهو يعمل في مبنى الإذاعة الجميل الجديد في كولونيا،

ويسكن، حسبما أسر دليل التليفون لماتيرن، في حي كولن-مارينبورغ.

هل يذهب مصطحبا الكلب أو بدونه؟ هل يذهب ليحاكم أم ليطلب مشورته في أزمته الإنسانية الفوضوية؟ هل يأخذ معه الثأر أم مجرد طلب إنساني؟ الاثنين. لا يستطيع ماتيرن أن يتخلى عن أي منهما. إنه يبحث عن العمل والثأر في آن واحد. في قبضته يغفو طلب المشورة في حضن الانتقام المميت. يزور مع الكلب الأسود نفسه صديقا وعدوا. لا يذهب إليه مباشرة ويقول له: «ها أنا ذا يا تساندر، خيرك وشرك!» يتسحب مرات عديدة متجولا حول حديقة منزله وينوي، لأنه لن يصيب المسرحي القديم بأذي، أن يلحق الأذى على الأقل بأشجار حديقته.

في إحدى ليالي أغسطس العاصفة - كل المعلومات صحيحة: كان ذلك في أغسطس وكان الجو حارا. كان هناك برق ورعد ومطر - قفز ماتيرن مع الكلب فوق سور الحديقة ولم يسقط على أرض الحديقة اللينة، لم يأخذ معه بلطة أو منشارا، بل أخذ معه مسحوقا أبيض. ماتيرن يعرف كيف يستخدم السم. له خبرة في هذا المجال: فبعد ساعات ثلاث، مات هاراس. لم يرش سم جوز القيء، بل استخدم سم الفئران العادي. لكنه هذه المرة لقتل النباتات. يتسحب من شجرة لشجرة ومعه ظل الكلب. رقصة تمجد الطبيعة. يحدد إيقاع رقصتي المينويت والغافوت تعاقب الخطى في حديقة تساندر الخضراء المسكونة وقت الغروب بالعفاريت والجنيات. تتحول الانحناءات إلى عطايا باليد: ينثر ماتيرن المسحوق فوق الجذور التنينية الضخمة، دون أن يهمس بأية تعاويذ. لكنه يصر بأسنانه كما هو معتاد:

لا تلتفتوا وراءكم
فالصرار وراءكم.

ولكن كيف للأشجار أن...! لا يصدر عنها أي حفيف، حيث لا وجود لأي نسمة تحت السماء الغائمة. لا يعطي طائر العقعق أي إشارة تحذير، وأبو زريق يظل صامتا. تحتفظ تماثيل أطفال الباروك المجنحين المغطاة بالطحالب بصمتها ولا تقرقر. حتى ربة الصيد ديانا التي يتبعها كلب الصيد عند ساقها المهرولة لا تريد أن تلتفت وتشد وتر قوسها الذي لا يخطئ أبدا. من قبو الأفكار المظلم يتحدث السيد تساندر بنفسه إلى ناثر السم المجنح ماتيرن: «هل أصدق ما

تراه عيني؟ أأنت ماتيرن؟ يا إلهي، ويا له من عمل لطيف تقوم به في حديقتي، تنثر سمادا فوق جذور أشجار حديقتي العملاقة. ألا ترى أنها ضخمة بما فيه الكفاية؟ لكنك كنت تجنح دائما إلى الأعمال الكبيرة. سماد! يا له من عمل لا معنى له، لكنها لفتة لطيفة منك! ويكفي أنك لا تفكر في الجو العاصف. في الحال سيعصف الجو بالبشر والأشجار. ستمحو الأمطار المفاجئة آثار دأبك الزراعي وتغسله. ولكن يجب ألا نضيع الوقت! فالريح تعلن عن تقلب الجو، ومن المؤكد أن قطرات المطر الأولى قد انطلقت من أعلى وهي في طريقها إلينا. . .هل لي أن أدعوك أنت وكلبك الرائع هذا إلى بيتي المتواضع!»

يمسك تساندر بماتيرن الكاره من ذراعه بخفة ويقوده باتجاه البيت. على الطريق المفروش بالحصى يتوجب عليهما أن يسيرا بخطوات مسرعة. لا يتأتى لهما أن يتحدثا ثانية إلا بعد أن يدخلا الشرفة: «يا إلهي، هذا العالم، كم هو صغير! لقد خطرت كثيرا على بالي، وقلت ترى، ماذا يفعل ماتيرن؟ هذا الفتى ابن الطبيعة - لو تسمح لي أن أقول - هذا الإنسان المحب للشرب وللنشوة؟ - والآن أنت هنا أمامي تقف بين كتبي وتتحسس أثاث بيتي وتتجول ببصرك تحت ضوء المصباح، أنت أمامي بشحمك ولحمك - مرحبا يا ماتيرن!»

وتسرع مديرة منزل تساندر في صب شاي قوي ورجولي. والكونياك موجود أيضا. الأجواء فوق الوصف ولها اليد العليا. وبينما كانت الجو المتقلب يطغى على الحديث مع السيد تساندر في الخارج، يدور بالداخل، على مقاعد جافة وقديمة، حديث مفيد عن المسرح: «لكن يا صديقي العزيز - حسنا فعلت بإفضائك ما في جعبتك من شكاوى - لكنك مخطئ في ظنك وتظلمني كثيرا بكلامك هذا. أعترف لك بأنني أنا ألغيت عقدك مع مسرح شفيرين قبل الآوان، لكن لم يكن هناك مفر من ذلك. كان علي أن أفعل ذلك طوعا أو كرها. لكن ما جرى لك أو ما توجب القيام به إزاءك، لم يكن لأسباب سياسية كما تدعي أنت الآن، بل لأسباب، كيف أستطيع أن أعبر عن ذلك؟ لأسباب كحولية. طبعا، كلنا كنا نشرب. لكنك كنت تميل دائما إلى المبالغة. وبصراحة، أي مدير مسرح أو كاتب مسرحي أو مدير فرقة واع بمسؤولياته في بلدنا الديمقراطي كان سيتصرف في الوقت الحالي بالطريقة نفسها: فبمجيئك سكرانا إلى البروفة، سكران وبدون نص، تفسد علي العرض كله. أما عن تذكري لعباراتك المدوية! لم

أكن ضد مضمونها وفحواها، لكنني كنت وما زلت في الماضي والآن، ضد المكان والوقت الذي كنت تطلق فيه تصريحاتك القوية. مع ذلك، لك تقديري واحترامي، لقد نطقت مئات المرات بما كنا نفكر فيه ونعجز عن التعبير عنه علنا. لك إعجابي وتقديري في الماضي واليوم، شجاعتك الرائعة، لكن الحالة التي كنت تتفوه فيها بمثل هذه العبارات المعضلة، أي وأنت مخمور، أفقدت كلامك أثره. تكاثرت البلاغات على مكتبي، خاصة من عمال المسرح، ترددت وتوسطت لأهدئ الأمور ولكن في النهاية، توجب علي أن أتصرف، لأنني لو لم أفعل ولو لم أطلب منك من خلال هذا القرار التأديبي مغادرة شفيرين، لكان من غير الممكن التنبؤ بما يحدث لك هناك. شفيرين كانت في ذاك الوقت مكانا حافلا بالمخاطر بالنسبة لك. أنت تعرف أنهم كانوا في الماضي لا يعرفون المزاح. لم يكن للإنسان الفرد أية قيمة.»

في الخارج قام الرعد المسرحي بالتأثير اللازم. وفي الداخل فكر ماتيرن في مصيره، لو لم يكن هناك شخص محب للبشر مثل د. تساندر. في الخارج تزيل الأمطار الصحية السم القاتل للنباتات عن جذور أشجار الحديقة القديمة العليمة. في الداخل ينهنه بلوتو وسط أحلامه الكلابية. بالخارج تهطل أمطار شكسبيرية بانتظام. وبالطبع تتكتك الآن ساعة في الحجرة الجافة، لا، بل تكسر ثلاث ساعات غالية بتكات مختلفة صمت المؤلف المسرحي السابق والبطل المسرحي السابق. لا تعدو ضربات الرعد خشبة المسرح. تضيء أنوار البرق ذهن المضيف الحصيف رولف تساندر فيعاود الحديث: «أتذكر يا ماتيرن أدوارك والطريقة التي كنت تؤدي بها؟ دور فرانتس مور، الفصل الخامس، المشهد الأول: حكمة الدهماء، خشية الدهماء! كنت رائعا. لا بل مدهشا. ايفلاند ذاته، لم يكن ليؤديها بهذه الطريقة المؤثرة. كنت اكتشافا جديدا من دانتسيغ التي جاء منها كثير من الممثلين المتميزين - يكفيك أن تفكر في زونكر أو ديتر بورشه إن شئت. ولو لم تخني الذاكرة، أظن أن معلمك كان الممثل الطيب والإنسان والزميل المحبوب غوستاف نورد، لقد مات فقيرا بائسا عند نهاية الحرب. الآن أتذكر: لقد لفت انتباهي في إحدى مسرحيات بيلينغر السيئة. ألم تمثل دور ابن دوناتا أوبفركوخ؟ أجل، وأنقذت الممثلة بارغهير الليلة بأدائها المتميز. من كان هناك أيضا؟ طبعا، ما زلت أذكر عرض شنايدر فيبل الذي مثل فيه كارل بروكل في الدور الرئيسي.

حينما أتذكر فريتشن بلوهوف يهدر باللهجة السكسونية في دور أمير أركاديا لا أستطيع أن أكف عن الضحك. كان ذلك في موسم ٣٦-٣٧. ومن أيضا، كارل كليفر ودورا أوتنبيرغ التي لا تنسى. وهاينتس بريده الذي ما زلت أحتفظ له في ذاكرتي بدوره المتقن في عرض «ناتان الحكيم»[٢٣]، وتعاودني دائما ذكرى أستاذك المتألق في دور بولونيوس! ممثل رائع لأدوار مسرحيات شكسبير وروعة أدائه لا تقل في مسرحيات شو. كانت جرأة من مسرح مدينة دانتسيغ أن يقدم عرض جان دارك عام ٣٨. لا بد أن أؤكد أنه لولا مقاطعة دانتسيغ. . . ! وكيف كنتم تسمون هذا المكان عندكم؟ آه تذكرت، مطحنة القهوة! يقال إنها تحطمت تماما، وما تزال باقية لحد الآن! لكنني سمعت أنهم يريدون إعادة بنائها في المكان نفسه وعلى الطراز الكلاسيكي نفسه. شيء مدهش. دائما البولنديون. . . ! وقلب المدينة القديمة يريدون. . . حارات لانغ وفراون ويوبن لم يتم إعادة بنائها. أنا أيضا من المنطقة نفسها، من ميمل. إن كنت أريد أن. . .، لا يا عزيزي. لا تتزوج المرأة نفسها مرتين. إن الجو المخيم على المسرح الألماني الغربي لا يستطيع في الوقت الحالي أن. . . الإذاعة المسرحية؟ المسرح كوسيلة اتصال جماهيرية؟ المسرح بوصفه مجرد مصطلح يصف الجنس الأدبي؟ والنمط الظاهري؟ كون الأشياء لا تتعدى أغراضها ولا يتم تفسيرها؟ التطهير؟ الذروة؟- كل ذلك راحت أيامه يا عزيزي ماتيرن- أو ربما لا فالعمل الإذاعي يشبع كل رغباتي ويتيح لي الوقت لتدوين بعض المقالات الصغيرة التي كنت أريد كتابتها منذ سنوات. وماذا عنك أنت؟ هل فقدت حماسك؟ الفصل الخامس، المشهد الأول: حكمة الدهماء، خشية الدهماء، !»

يلوي ماتيرن فمه ويشرب الشاي. في داخله، وحول قلبه وطحاله وكليتيه المتضررتين، ينعقد إكليل من الشتائم: منافق! نازي بالفطرة! مداهن! منافق! نازي بالفطرة!- لكن شفتيه تخرجان صوتا ضعيفا من فوق طرف الفنجان: «المسرح؟ لا لن أعود إليه أبدا! إن كان ذلك عدم ثقة بالنفس؟ يمكن. إضافة إلى الإصابة في ساقي. صحيح أنها غير ملحوظة، لكن على المسرح؟ فيما عدا ذلك كل شيء موجود: الإلقاء والاستعداد وكذلك الرغبة، لا ينقصني شيء سوى الفرصة المناسبة.»

---

(٢٣) إحدى أشهر مسرحيات ليسنغ.

وبعد مرور دقيقة، تكت فيه الساعات الثلاث القيمة دون تشويش، خرجت كلمات الخلاص من فم تساندر. بصوت شبه مرتفع وبحصافة وإحساس، تحدث الرجل الذي يميل إلى النحافة وهو يذرع الغرفة الواسعة جيئة وذهابا. في الخارج تذكّر أشجار الحديقة، التي يتقطر منها ماء المطر، بقصر عمر عواصف أغسطس. يتحسس د. تساندر أثناء حديثه ظهور الكتب المرصوصة في الرفوف أو يخرج أحد المجلدات ويفتحه ويتريث، ثم يقرأ إحدى العبارات المقتبسة، مضفرا إياها بسلاسة في حديثه ثم يعيد الكتاب بحب إلى مكانه. في الخارج يجعل الغروب الأشجار تلتصق بعضها ببعض. في الداخل يتسمر تساندر أمام مجموعته المسرحية التي استطاع إنقاذها على مر العقود: أقنعة رقص من جزيرة بالي، عرائس شيطانية صينية، راقصي الموريسك الملونين - دون أن ينقطع حديثه. تأتي مديرة المنزل مرتين بالشاي والكعك، هي أيضا قطعة نادرة، مثل الساعات الإمبراطورية وطبعات المسرحيات القديمة الأولى والآلات الموسيقية الهندية. لا يتحرك ماتيرن من مكانه. تتراسل الأباجورة مع جمجمته. ينام بلوتو مصدرا خشخشة: كلب عجوز كشجرات الحديقة. في الداخل يتحدث تساندر عن عمله الإذاعي. إنه يشرف على ساعات الإرسال الصباحية المبكرة وإرسال ما قبل النوم: برامج الأطفال والبرنامج الليلي. لا يجد تساندر تناقضا في ذلك، بل. . . . إنه يتحدث عن التوترات، عن مد الجسور بين. . . لا بد أن نجد طريقنا إلى الماضي من جديد من أجل أن. . . يقول ماتيرن إنه قد عمل في الماضي لبرامج الأطفال. لقد أدى دور الذئب في حكاية ذات الرداء الأحمر، وابتلع سبعة أطفال. يلتقط تساندر خيط الحديث ويقول «إذن، هذا عظيم، نحن في حاجة إلى أصوات، أصوات كصوتك يا ماتيرن. أصوات تملأ المكان، أصوات قريبة من عناصر الطبيعة الأولية. أصوات لها مدى في الأثير، أصوات تجعل للماضي رنينا. إننا نعد مثلا سلسلة جديدة اسمها «مناقشة مع الماضي» أو أفضل أن نطلق عليها «مناقشة مع ماضينا». يعمل شاب موهوب، ربما في موهبته خطورة، على تطوير شكل البرنامج. على فكرة، هو أيضا من دانتسيغ. أستطيع أن أتصور لك دورا يناسب موهبتك في إذاعتنا، أجل أنت بالذات يا ماتيرن هو من يقوم بهذا الدور. البحث الملح عن الحقيقة. السؤال الأبدي عن الإنسان. من أين إلى أين؟ وما أوصده الصمت حتى الآن، ينفتح الآن بفعل الكلام! هل تريد؟»

عندئذ يصحو كلب ماتيرن الأزلي مترددا. وماتيرن يريد. اتفقنا؟ اتفقنا. بعد غد في العاشرة بمبنى الإذاعة. لكن في الموعد بالضبط. تأتي في الموعد بالضبط وغير سكران. هل أطلب لك تاكسيا؟- باستطاعة د. رولف تساندر أن يحسب تكلفة المواصلات على إذاعة غرب ألمانيا. بإمكانك خصم كل النفقات. كل مخاطرة معفاة من الضرائب. يجد ماتيرن ضالته في تساندر.

ماتيرنياده المناقشة المفتوحة رقم مائة

يتحدث يدمدم يجعجع. يدخل صوته إلى كل بيت. ماتيرن مذيع الأطفال المعروف. يحلم الأطفال به وبصوته الذي يجعلهم يفصحون عن كل مخاوفهم ويقلدونه في دمدمته عندما يتحولون إلى شيوخ منكمشين، يقولون: «في طفولتي كان هناك عم يحكي الحواديت وصوته جعلني... أرغمني... أخذني... أعطاني...، لدرجة إني لغاية اليوم أحيانا...، لكن هذا هو حال كثير من الماتيرنيين، الذين كانوا يستمعون في الماضي إلى ماتيرن» لكن حتى الكبار الذين أثرت أصوات أخرى في تنشئتهم أصبحوا يستخدمون صوت ماتيرن كوسيلة تربوية. عندما لا يطيع الملاعين الصغار، تهدد الأم قائلة: «هل أفتح الراديو ثانية وأجعل هذا العم الشرير يتكلم؟»

عبر الموجة القصيرة والمتوسطة يمكن للرجل المرعب أن يدخل إلى كل غرفة. حنجرته مطلوبة. كذلك ترغب الإذاعات الأخرى في أن يسجل ماتيرن لها متحدثا مدمدما ومجعجعا. صحيح أن الزملاء يقولون من وراء ظهره إنه لا يستطيع الإلقاء بصورة سليمة ومدربة، لكن عليهم أن يعترفوا بأن في صوته شيئا مميزا: «مثل هذا الصوت المؤثر ذي الطابع الهمجي الذي يجمع بين السذاجة والغلظة يدر ذهبا في هذه الأيام التي سئم الناس فيها من الإتقان.»

اشترى ماتيرن لنفسه أجندة للمواعيد، حيث إنه يذهب تارة هنا وتارة هناك في أوقات محددة لتعليب صوته. في معظم الأوقات يتحدث يدمدم يجعجع لدى إذاعة غرب ألمانيا، وكثيرا ما يفعل ذلك لدى إذاعة هيسن، ولا يذيع أبدا لدى إذاعة بافاريا، أحيانا يعمل لحساب إذاعة شمال ألمانيا ويحب جدا أن يذيع لدى راديو بريمن حيث اللهجة الشمالية، ومؤخرا يذيع لإذاعة جنوب ألمانيا بشتوتغارت. ولو كان عنده وقت يعمل أيضا لراديو جنوب غرب ألمانيا. يخشى

الذهاب إلى برلين الغربية. لذلك تتخلى إذاعة القطاع الأمريكي وإذاعة برلين الحرة عن برامجها الخاصة التي تحتاج إلى صوت ماتيرن وتحصل في إطار برنامج لتبادل البرامج على برامج ماتيرن للأطفال من إذاعة غرب ألمانيا بكولونيا، مقر إقامة حنجرته الغالية.

لقد استقر وأصبح لديه سكن في مبنى جديد، بغرفتين ومسقط للقمامة وبار وكنبة مزدوجة، حيث تأتي إليه السيدة إنغه التي لا يمكن التخلص منها كل نهاية أسبوع، إما وحدها أو مع فالي. تبلغه تحية زافاتسكي رجل الموضة الرجالي. يزعجها الكلب. تريد أن يكونا وحدهما. الكلب مزعج مثل جدة عجوز، لا تستطيع أن تسيطر على لعابها السائل. رغم ذلك ما يزال يقظا ومدربا. كيف يمكن للمرء أن يستشعر راحة مع هذا الحيوان؟ أعمش وسمين في بعض أجزاء جسمه، لكن جلد رقبته متهدل. رغم ذلك فليس هناك من يقول: «فلنتخلص منه.» بمعنى أصح اتفق ماتيرن مع السيدة إنغه وفالي على: «أن يتلقى بلوتو لقمة الإحسان من أيديهم حتى يأتي أجله وهو لن يعيش طويلا على أي حال. وما دام هناك ما يكفينا، فهناك ما يكفيه أيضا.» ويتذكر ماتيرن في مرآة الحلاقة: «كان دائما صديقا لي في الشدائد. ظل بجواري حينما ساءت أحوالي وعندما كنت مضطربا وغير مستقر، عندما كنت أطارد شبحا بأسماء كثيرة ولم أتمكن من الإمساك به. التنين، الشر، اللوياثان. العدم. التيه.»

ورغم أن ماتيرن يجلس على المائدة مرتديا سترة من الكاروه الرقيق، إلا أنه يزفر بين الحين والآخر فوق الأومليت. تتفادى عيناه المتصيدتان السيدة إنغه وتبحث في ورق الحائط عن كلام منقوش. لكن نقش الباوهاوس لا يحتمل معنيين ولا تفصح نسخ الأعمال الفنية المؤطرة على الحائط عن أي شيء رغم تنوعها الحداثي. أو عندما يصدر عن المدفأة صوت دق، ينصت ماتيرن للصوت ويتحرك الكلب قليلا، حتى تتوقف إشارات الدق، وتتحول الزفرات إلى فقاعات كبيرة. ولا يجد عملا إضافيا ينسيه زفير الساعات الطوال، إلا مع مطلع العام الجديد حيث تبدأ الذبابات الأولى في الحركة. حتى الخياط الصغير في الحدوتة استعان أولا أيضا بمضرب للذباب ثم اصطاد في النهاية وحيد القرن. لن يعرف أحد الاسم الذي أطلقه ماتيرن على ما يصطاده من على زجاج النافذة، لن يعرف أحد الأسماء التي يطقها بين إصبعيه، أسماء أعدائه الممسوخين، ينزع عنهم

السيقان ساقا ساقا ثم يجردهم من الأجنحة، دون ندم أو أسى.

يبقى الزفير، يصحو مع ماتيرن ويذهب معه للنوم، يجلس معه على موائد مقصف الإذاعة، أثناء مراجعته لنصه الذي يقوم فيه بدور الشرير. حيث إن التسجيل سيبدأ في الحال، يجب على ماتيرن أن يتحدث يدمدم يجعجع. لا بد أن يترك نصف كوب البيرة في المقصف. تلتف حوله مذيعات البرامج: بين النساء، هنا يتحدث المزارع، أنغام ما بعد الظهيرة، كلمة يوم الأحد، موسيقى مبهجة مع آلات النفخ النحاسية، ربع ساعة تأمل. أخواتنا وإخواننا خلف الستار الحديدي. التقرير الرياضي ونتائج اليانصيب. أشعار قبل منتصف الليل. حالة منسوب النهر. جاز. أوركسترا غورتسنيش. إذاعة الأطفال. زملاء وزملاؤهم: هذا أو ذاك أو هذا الذي يرتدي قميصا كاروه بدون ربطة عنق. إنك تعرفه بالتأكيد. أو من المحتمل أنك تعرفه. ألم يكن هو ذاك الذي كان على جبهة ميوس عام ٤٣؟ وهذا الذي يرتدي أسود في أبيض ويشرب الحليب المخفوق؟ ألم يكن في الماضي...؟ كلهم كلهم كلهم! بابيونات كاروه أو أبيض في أسود. أشخاص ثقال الظل منكبين على لعبة «سكات» أو الشطرنج والكلمات المتقاطعة. يمكن استبدالهم بعضهم ببعض. إنهم ينبتون من جديد. آه يا ماتيرن، تدريجيا تعاود ندبات الأسماء المحفورة بجسدك في تنغيصك. يزفر في كابينة الإذاعة الخالية المملة. يسمع زميل صوت زفرة الزميل ماتيرن الثقيلة الصاعدة من مركز الأرض ويربت على كتفه «ماتيرن يا عزيزي، ما الذي يجعلك تزفر هكذا! لا بد أن نكون راضين عن أحوالنا، فلدينا وظيفة كاملة. بالأمس فتحت الراديو وهل تعرف من سمعت؟ ألقيت اليوم نظرة على غرفة أطفالي. لقد أخذوا الراديو إلى غرفتهم، وصوت من الذي كان يدوي هناك ويسكت الملاعين؟ طبعا صوتك أنت أيها المحظوظ.»

ماتيرن أداة التربية الإذاعية المدوية، يتحدث ويدمدم ويجعجع دائما في دور اللص أو الذئب أو زعيم العصابة أو يهوذا. صوته أكثر حشرجة من باحث بالقطب الشمالي، يتحدث وسط عاصفة ثلجية. صوته أعلى من سرعة الريح عند ١٢ عقدة. يتحدث كمسجون يسعل ويصلصل بسلاسل قيده أو كعامل منجم متأمل قبل انفجار مهيب. كمتسلق جبال شديد الطموح في رحلة استكشافية غير معدة جيدا لتسلق الهملايا. كباحث عن الذهب، كلاجئ من المناطق الشرقية.

كمستغل للبشر، كقائد مجموعة بفرق الحماية، كفرد من أفراد الفرقة الأجنبية، كمجدف على الرب أو كمشرف على العبيد، في دور حيوان رنة بحواديت عيد الميلاد، هذا الدور قام به من قبل، بل وعلى خشبة المسرح كممثل.

قال له هاري ليناو القادم من منطقته نفسها والذي يدير برامج الأطفال بالاستعانة بمشورة د. ر. تساندر: «أكاد أظن أن أول لقاء بيننا كان في مسرح المدينة في عرض للأطفال. مثلت ابنة برونيس الصغيرة، كما تذكر، دور ملكة الثلج ولعبت أنت دور حيوان الرنة. كان دورك مؤثرا جدا، إن لم يكن علامة مميزة. شيء ثابت في ذاكرتي لحد ما. جزء هام من خبرات الطفولة، يعيد للمرء ذكريات كثيرة.»

هذا الملعون بذاكرته الأرشيفية. دائما ينظم أينما ذهب أو وقف أو جلس، يكتب بخط منمنم على قصاصات صغيرة ما يجب عمله. لا يوجد موضوع لا يستطيع أن يقدم فيه حقائق ومعلومات: يتحدث عن بروست وهنري ميلر وتوماس ديلان وكارل كراوس، اقتباسات من أدورنو، يعرف حجم طبعات الكتب بالأرقام، جامع للتفاصيل وباحث عن الروابط والصلات، يتخذ مسافة من الأشياء ويكشف كنهها. دودة أرشيف وعارف بالأمور المحيطة، يميز من يقف في معسكر اليسار ومن كتب باليمين. يكتب مستقلا وبنفس قصير عن صعوبات الكتابة، مسترجع للزمن الماضي وشاهد على العصر، متشكك ومتذاكٍ، لكن لا يوجد مؤتمر للكتاب بدون موهبته في الصياغة وقدرته على تحصيل المعارف وقدرته على التذكر. يظن أنني مادة لكتابته. يثبتني بخط منمنم على قصاصة. ويدعي أنه يعرف كل شيء عني، لأنه رآني مرة كحيوان رنة ومرتين في الزي العسكري. كان صغيرا جدا، كيف يمكنه أن. . .فعندما كنت مع إيدي كان سنه. . .لكن أمثاله يريدون أن يعرفوا كل شيء بالتفصيل. هؤلاء الذين يستطيعون الاستماع بصبر، لديهم موهبة التجسس مع الاحتفاظ بابتسامة العارفين بالأمور: «لا عليك يا ماتيرن. لقد فهمت. لو كنت ولدت مثلك قبلها ببضع سنوات لسئمت وضجرت من هذه الأسئلة مثلك تماما. طبعا أنا آخر من يتكلم عن الأخلاق هنا. فجيلي كما تعلم قد مر بكل التجارب. إضافة إلى أنك قد بينت بما فيه الكفاية أنك أيضا مختلف. لا بد أن ندع الضغائن جانبا ونطرح كل هذه الأشياء في إحدى المرات للنقاش معتمدين على الحقائق. مثلا في سلسلة

برنامجنا «المناقشة». ما رأيك؟ فحكاية برامج الأطفال هذه، رغم فائدتها، لن تنفعنا على المدى البعيد. فهذه البرامج المدوية التي تسهم في ذهاب الأطفال إلى النوم ليست سوى خداع. ولحظات الصمت بها تعبر عن أشياء أكثر بكثير. نريد عمل شيء حيوي. تنقصنا الحقائق. أن تفضي بما عندك. كل ما في قلبك وما يؤرق كليتيك!»

يبقى الطحال. وما يلبسه هذا الوغد! أحذية إنجليزية وبلوفرات تزلج. وغالبا أنه لوطي. لو أستطيع أن أتذكر هذا الولد، يحكي دائما عن ابنة خاله ويغمز لي ملمحا. يقول إنه ابن الأسطى النجار صاحب الكلب. «إنك تعرفه بالتأكيد، وابنة خالي تولا - كان اسمها في الحقيقة أورسولا - كانت مهووسة بك، زمان في بطارية الدفاع الجوي على الشاطئ وبعد ذلك في كايزرهافن. ألا تذكر؟» بل إنه يقول إنني دربته «كنت فرد مدفعية رقم ٦ وكنت أعمل على ماكينة الإطلاق.» وقد عرفته على مقولات هايدغر - «ينسحب الوجود من ذاته من خلال الموجود...» - لقد جمع هذا الصبي حقائق عن موضوع ماتيرن، تربو كثيرا عما يتخيله ماتيرن ذاته. ورغم ذلك يبدو مهندما ومثارا للإعجاب. عمره حوالي ثلاثين عاما، وجهه سمين عند الذقن ودائما يطلق النكات. كان يصلح لأن يكون ضابطا بالغستابو. في الآونة الأخيرة يأتي إلى بالبيت - مدعيا أنه يريد يعرض علي دورا - وماذا يفعل حينئذ؟ يمسك بفم بلوتو ويبحث عن الفك أو ما تبقى منه. تماما مثل خبير كلاب. لكنه غامض مع ذلك: «غريب، غريب جدا. حتى نفس Stop والخط ما بين أعلى الظهر والكفل. هذا الحيوان عجوز جدا، أرجح عشرين أو أكثر من سنوات الكلاب الإنجيلية، يمكنك أن تلاحظ ذلك حالا من الشق عند القدم الأمامية ووقفة الأذن. قل لي يا ماتيرن، من أين تحصلت على هذا الكلب؟ لا من الأفضل أن نناقش ذلك علنيا. حسب اعتقادي نحن هنا بإزاء حالة تستوجب - لقد حكيت لك من قبل عن خطتي المفضلة - مناقشتها بحيوية أمام الرأي العام. ولكن ليس بطريقة طبيعية مسطحة. لدينا أفكار كثيرة فيما يتعلق بالشكل. من يريد أن يأسر جمهوره، لا بد أن يقلب أفكاره رأسا على عقب ومع ذلك يستمر في الخطاب. تقريبا مثل مسرحية كلاسيكية لكنها مختزلة في فصل واحد. ورغم ذلك سنحافظ على البناء الدرامي: التقديم نقطة التحول النهاية الكارثية. إنني أتخيل المشهد كالتالي: بقعة جرداء

بالغابة، فلنقل غابة من أشجار الزان، زقزقة عصافير. إنك تتذكر بالتأكيد غابة الياشكنتال. إذن البقعة الجرداء المحيطة بتمثال غوتنبرغ، عظيم! نطرد الشيخ غوتنبرغ ونُبقي على المعبد. وتقف أنت مكان مخترع الطباعة. نعم، نوقف النمط الظاهري ماتيرن هناك. وهكذا تكون تحت السقف وتستطيع أن توجه نظرك شطر جبل الإربس- على ارتفاع قدره أربعة وثمانون مترا من سطح البحر - لكننا لن نظهر طريق شتيفن الذي يقع بفيلاته المتجاورة وراء جبل الإربس، لن نظهر سوى البقعة الجرداء. وسنبني للجمهور مدرجا يجلسون عليه أمام النصب التذكاري لغوتنبرغ، عددهم اثنان وثلاثون شخصا.. كلهم من الأطفال والشباب وتتراوح أعمارهم ما بين عشرة أعوام وواحد وعشرين عاما. على اليسار هناك منصة صغيرة لإدارة المناقشة. وبلوتو - عجيب هذا الكلب، درجة التشابه مرعبة - سيقف بجانب صاحبه.»

هكذا فقط وبدون موسيقى تقريبا يقيم هذا الولد عرضا. تساندر مبهور تماما وليس لديه حديث سوى عن «الشكل الإذاعي الجديد» وفي الحال يستقصي عن «كل ما هو إذاعي». إمكانيات للمسرح: «لا صندوق الدنيا والمسرح ثلاثي الأبعاد. ينصهر الجمهور نهائيا مع خشبة المسرح ليشكلوا وحدة. بعد قرون من المونولوج تجد البشرية مجالا جديدا للحوار، وفوق ذلك يجعلنا النقاش الغربي الكبير نأمل من جديد في التفسير وتطهير العواطف.»

يشير رولف تساندر بكلامه إلى المستقبل ولكن هذا المتذاكي لا يرى أمامه سوى الحاضر. إنه لا يريد أن يخلص المسرح من التحجر الراسخ بل يريد أن يضع ماتيرن على الصليب. إنه يحيك له فخا، لكنه يتحدث عند سؤاله عن أغراضه بنغمة إنسانية معتادة: «صدقني يا ماتيرن، إننا نريد أن نطور بمعونتك طريقة معروفة للتوصل للحقيقة. إنه لمن الضروري هنا أن نخترق ما بينك وبين الكلب وأن نفتح نافذة تتيح لنا الإطلالة على تاريخك، وهذا أمر بالغ الأهمية جدا ليس فقط لحياتك، بل ولحياة لبشر المحيطين بك. فحتى أنا - يمكنك أن تقرأ محاولاتي الكتابية - ينقصني المدخل الحيوي، ينقصني الواقع بلحمه ودمه، تفتقر المهارة الشكلية إلى المضمون، تنقصني عبارة «هكذا كان» الكاشفة للأمور. ساعدني يا ماتيرن من فضلك وإلا بقيت أسيرا لتخيلاتي!»

وهذا المسرح سيقام فقط بين الأشجار. لقد استطاع الولد أن يحصل حتى

على أشجار الزان ومعبد صغير من الحديد الزهر، سيقف فيه النمط الظاهري مكان يوهانس غوتنبرغ. لمدة ستة أسابيع بدون حساب البروفات سيتم عصر ماتيرن والكلب أمام الجمهور المتغير. وهذه هي الصورة النهائية للنص الذي قام المتذاكي بتركيبه وتأليفه بالاشتراك مع مستشاره د. رولف تساندر، وذلك فقط لأسباب فنية. ينبغي لماتيرن أن يحفظ الدور الرئيسي في النص «على كل حال أنت ممثل!» لكي يستطيع في موعد التسجيل أن يتحدث به ويدمدم ويجعجع.

مناقشة مفتوحة

نص: ر. تساندر/ هـ. ليبناو.

موعد الإذاعة: (الموعد المحتمل) في الثامن من مايو عام ألف وتسعمائة وسبعة وخمسين.

شخوص المناقشة:

هاري ليبناو: مدير المناقشة

فالي س.: مساعدة ترتدي النظارة العجيبة

فالتر ماتيرن: موضوع المناقشة.

ويقف إلى جانبه: كلب الرعاة الأسود بلوتو.

إضافة إلى ذلك يشارك اثنان وثلاثون شابا وشابة من جيل ما بعد الحرب المتحمس للمناقشة بشكل أو بآخر. ليس بينهم من هو أصغر من عشر سنوات ولم يتعد أي منهم العام الحادي والعشرين.

وقت المناقشة: قبل سنة تقريبا، عندما تم سحب تلك النظارات العجيبة أو نظارات المعرفة من السوق.

مكان المناقشة: بقعة بيضاوية جرداء في غابة من أشجار الزان. على الناحية اليمنى هناك مقصورة مكونة من أربع درجات وعليها يجلس الأطفال والشباب بنينا وبنات بدون أي تكلف. وعلى الناحية اليسرى هناك منصة وعليها طاولة يجلس خلفها مدير المناقشة ومساعدته. وعلى الجانب توجد سبورة مدرسية. وبين المنصة والمقصورة يوجد معبد صغير من الحديد الزهر تحيطه سلاسل حديدية على شكل زهور وله سطح من عش الغراب. يبدو المعبد في خلفية المشهد وقد ارتفع بواسطة ثلاث درجات من الغرانيت عن الأرض.

في داخل المعبد الدائري يحيط عمال النقل بتمثال تذكاري - من الواضح أنه تمثال ليوهانس غوتنبرغ واقفا - يلفونه ببطانيات صوفية ويخرجون به في النهاية. يهتف العمال فيما بينهم «هيلا هوب». ضجيج بين الأطفال والشباب.

يحفز مدير المناقشة العمال بنداءات مثل: «نريد أن نبدأ يا أساتذة! من المؤكد أن هذا الشيخ الكبير ليس أثقل من آلة البيانو العريضة. يمكنكم أن تتناولوا إفطاركم بعد إخلاء المعبد.»

طغى صوت زقزقة العصافير على كل شيء.

أثناء انصراف عمال النقل يدخل ماتيرن مع كلب الرعاة الأسود إلى البقعة الجرداء.

تخرج المساعدة فالي س. نظارة من جرابها لكنها لا ترتديها.

يقوم الشباب المشاركون في المناقشة بتحية ماتيرن الذي لا يعرف مكانه، بدبيب الأقدام.

توجهه جوقة من الشباب والأطفال ويد مدير المناقشة إلى داخل المعبد: «مكان ماتيرن اليوم هو بيت غوتنبرغ! في المكان الذي وقف فيه غوتنبرغ سنتعرف اليوم على ماتيرن! سيجيب بسرور عن الأسئلة: ماتيرن! موضوع المناقشة يقف حيث وقف غوتنبرغ من قبل! نريد أن نتناقش مع الإنسان والحيوان! جاء ماتيرن. مرحبا! مرحبا»

يحل التصفيق ودبيب الأقدام محل الأبيات الشعرية المرحبة. يقف ماتيرن مع كلبه في المعبد الصغير. تعبث المساعدة بالنظارة. يقوم مدير المناقشة ويمحو بحركة من يده كل أنواع الضجيج ما عدا أصوات العصافير ويفتتح المناقشة:

مدير المناقشة: أعزائي المتناقشين! أصدقائي الشباب! لقد تجسدت الكلمة لحما من جديد واتخذت لنفسها سكنا بيننا. بمعنى آخر: لقد جئنا هنا لنتناقش، حيث إن المناقشة هي وسيلة التعبير الملائمة لجيلنا. حتى في الماضي كانت المناقشات تدور حول مائدة العائلة أو بين الأصدقاء أو في أحواش المدارس: بسرية أو كتمان أو بلا غرض، لكننا تمكننا من تحرير المناقشة الكبيرة الحيوية التي لا تريد أن تنتهي من بين الحوائط الأربعة التي كانت محبوسة بينها وذهبنا بها إلى الخلاء تحت السماء المكشوفة وبين الأشجار!

متناقش: نسيت إدارة المناقشة ذكر العصافير!

جوقة المتناقشين: نريد أن نتناقش
مع الإنسان والحيوان!

مدير المناقشة: نعم نعم! فالعصافير والشحارير وحمامات الغابة يجيبون عن أسئلتنا أيضا، كوكو كو، كوكو كو! الجميع يتحدثون! الجميع يريدون أن يتزودوا بالمعلومات. كل حجر يزودنا بالمعلومات.

جوقة المتناقشين: ما اسم الحجر اليوم،
فحتى الأحجار بشر!

متناقشان: إن كان اسمه فريتس فدعوه يذهب،
وإن كان قد عُمد على اسم اميل، فدعوه يتوه
أما إن كان اسمه فالتر، فدعوه يقف!

مدير المناقشة: إنه هو. لقد جاء فالتر ماتيرن إلينا، لكي نتمكن من التناقش حوله «هو» وحينما أقول «هو» فإنني أعني وجوده المتعين، هو بشحمه ولحمه.

متناقش: هل أتى طواعية؟

مدير المناقشة: نحن نتناقش لأننا نعيش. نحن لا نتصرف، بل...

جوقة المتناقشين: نتناقش!

مدير المناقشة: نحن لا نموت، بل...

جوقة المتناقشين: نناقش الموت!

متناقش: هل أتى ماتيرن طواعية؟

مدير المناقشة: نحن لا نحب، بل...

جوقة المتناقشين: بل نناقش الحب!

مدير المناقشة: لذلك فليس هناك شيء لا يمكننا مناقشته بحيوية. نستطيع التناقش حول الله وحول التأمين الإلزامي وحول القنبلة الذرية وحول باول كليه، لا نرى في الماضي والقانون الأساسي أية مشكلات بل موضوعات للمناقشة. المحبون للنقاش هم وحدهم الجديرون بـ...

جوقة المتناقشين: ... بالانتماء للمجتمع البشري.

مدير المناقشة: المحبون للنقاش هم وحدهم القادرون على أن يصبحوا بشرا من خلال النقاش. لذلك فإن معنى أن تكون إنسانا هو أن...

جوقة المتناقشين: ... ترغب في المناقشة!

متناقش: هل يرغب ماتيرن؟

جوقة المتناقشين: هل يرغب ماتيرن
في مناقشة كليتيه معنا؟

فتاتان: نحن الفتيات متشوقات
إلى التعرف إلى أشعار ماتيرن القلبية!

متناقشان: نريد أن نتأمل طحاله
ونخبر أحواله.

جوقة المتناقشين: نريد أن نطعم الحقائق
من جيوب سرية

فتاتان: ونريد أن نعرف أيضا
كيف تُقبّل الأفكار بعضها بعضا.

جوقة المتناقشين: إن يقل ماتيرن: أنا راغب!
فقد قُضي الأمر.

مدير المناقشة: إذن فنحن نسألك يا فالتر ماتيرن: هل تريد أن تكون حيويا منفتحا بدون تعقيدات؟ هل تريد أن تفكر فيما تقول، هل تريد أن تفضي بالمخبوء؟ بكلمات أخرى: هل تريد أن تصبح موضوعا لهذه المناقشة العامة المفتوحة؟ إن وافقت فأجب بصوت عال وواضح: أنا، فالتر ماتيرن، محب للمناقشة!

متناقش: إنه لا يريد. لقد قلت ذلك من قبل!

متناقش: أو أنه لم يفهم بعد.

متناقش: إنه لا يريد أن يفهم!

جوقة المتناقشين: ماتيرن لا يريد أن يفهم،
فلنرغمه على المناقشة!

مدير المناقشة: أرجوكم أن تكون صياغة النداءات العابرة في شكل جوقة أو كتابيا. ليس هناك محل للمشاعر الغوغائية في المناقشات المفتوحة - فالتر ماتيرن! إنني أسألك للمرة الثانية، هل أنت بحاجة إلى إبلاغنا إن كانت مشاركة الجمهور ممكنة أم لا؟ (همهمات بين المتناقشين. يظل ماتيرن صامتا.)

متناقش: إن كان لا يريد فلتغلقوا المعبد إذن!

متناقش: هل ننتقل إلى المناقشة بالإكراه. فقضية ماتيرن هي قضية عامة ويجب مناقشتها.

مدير المناقشة: (متحدثا إلى المساعدة) إيقاف المتناقشين رقم ١٤ ورقم ٢٢ لتعطيلهما للمناقشة - تسجل فالي س. الرقمين على طرف السبورة. مع ذلك تأخذ إدارة المناقشة النداءات العابرة غير المصاغة كتابة أو في شكل جوقة في اعتبارها، وتعدها نوعا من الحيوية المنشودة، وسوف تقوم بإعلان بدء المناقشة بالإكراه إن ظل موضوع المناقشة معاديا للنقاش. هذا يعنى أن مساعدتنا ستلجأ إلى أداة التنفيذ المسماة نظارة المعرفة وتجعلنا نرى الحقائق الأساسية الضرورية للمناقشة.

جوقة المتناقشين: من يصمت، ستنفذ أشعة النظارات عبر جلده وينكشف.

مدير المناقشة: لذلك أوجه السؤال إلى فالتر ماتيرن للمرة الثالثة: هل أنت مستعد أن تقف، داخل هذا المعبد الصغير الذي كان به تمثال غوتنبرغ مخترع فن الطباعة، باعتبارك موضوعا للمناقشة؟ أي: هل أنت محب للمناقشة؟

ماتيرن: اللعنة! أقسم لكم (يصمت قليلا) بثالوث الشيطان وبالعذراء إنني محب للنقاش.

جوقة المتناقشين: إنه يقول: إنه سيشارك
سيشاركنا اللعبة.

ماتيرن: كما في يوم القيامة
الذي يتكلم فيه كل الناس
فعلت وكنت
وعوجت شعرة
صوبت تجاه المرآة، مرتين وأصبتها،
أيقظت المرآة من النوم شبه الأعمى.

متناقشان: صرخ ماتيرن الذي كان يضرب باحثا عن الزبد
حتى انتثر الماء، صرخ: خديعة!

ماتيرن: أسقطت الحمامة من فوق البرج، وأقبرت الدودة في باطن الأرض.

متناقشان: ذات مرة طعن فرنا حتى الموت

فإذا ما رأى فرنا بعد ذلك فار ومار.

متناقشان: ماتيرن يخنق فوطته في غضب. ففوطته كانت دائما قذى لعينه.

ماتيرن: لقد خنقت الحجر، وحليت الملح، ونزعت ثغاء عنزة من حلقها.

جوقة المتناقشين: رسم ماتيرن بالطباشير قطا بجانب البيت

وعلى الفأر غدا أن يموت من الفضيحة!

ماتيرن: اليوم أنا موضوع المناقشة، والنتيجة النهائية معروفة! (تصفيق ودبيب بالأقدام بين الجمهور. يقوم مدير المناقشة ويشير بيده طالبا الهدوء من الجميع)

مدير المناقشة: كما سمعنا، فإن فالتر ماتيرن على استعداد للمشاركة ولكن قبل أن تنساب الأسئلة والأجوبة متدفقة وتحملنا معها في البدء على صفحة قناة صغيرة، تستحيل بعد ذلك إلى نهر عريض الكتفين، دعونا نصلي: (يقف المتناقشون والمساعدة ويعقدون أذرعهم على صدورهم) أيها الخالق العظيم للنقاش العالمي الحيوي المستمر دائما، الذي خلق الأسئلة والأجوبة، يا من تعطي الكلمة أو تتلقاها، كن معينا لنا، لأننا نريد أن نناقش موضوع نقاشنا المحب للنقاش فالتر ماتيرن مناقشة تفصيلية. يا رب كل المناقشات...

متناقشون: ...هبنا كل النضج اللازم للمناقشة.

مدير المناقشة: يا خالق اللغة الحكيم العليم، يا من تجعل النجوم تتناقش في الكون...

جوقة المتناقشين: ...احلل عقدة لساننا.

مدير المناقشة: يا خالق موضوعات النقاش السامية، وأنت نفسك أسمى موضوع نقاش، احلل عقدة لسان ماتيرن المحب للمناقشة...

جوقة المتناقشين: ... احلل عقدة لسانه أيضا.

مدير المناقشة: ولتكن مناقشتنا هذه خالصة لك وحدك وتعظيما وإجلالا لاسمك...

جوقة المتناقشين: آمين. (يجلس الجميع. همهمات مكتومة. يريد ماتيرن أن يطلب الكلمة. لكن مدير المناقشة يرفض طلبه).

مدير المناقشة: السؤال الأول حق للمتناقشين وليس لموضوع المناقشة. ولكن قبل أن نبدأ بالأسئلة الاختبارية المعتادة، أريد أن أقدم للجمهور مساعدة إدارة

المناقشة فالي س. وأشكر شركة براوكسل وشركاه التي قدمت لنا بكل ود واحدة من نظارات المعرفة التي أصبحت الآن نادرة وتم سحبها من السوق. (تصفيق الجمهور). لكننا لا نريد أن نستعمل هذه الوسيلة إلا عند الضرورة وبناء على طلب الأغلبية، لا سيما أن الشخص موضوع المناقشة قد أبدى استعداده للنقاش، وأن المراقبة الدائمة لمسار المناقشة بواسطة نظارة براوكسل المعرفية، لا محل لها إلا في حالة المناقشة بالإكراه. مع ذلك فلا بد من إيضاح الغرض من وجود النظارة هنا ولهذا تطلب إدارة المناقشة من فالي س. أن توضح للمتناقشين الجدد وللشخص موضوع المناقشة إمكانيات هذه النظارة وما هي المناسبة التي أتاحت لها استخدام النظارة لأول مرة بطريقة حيوية.

فالي س.: أنتجت شركة براوكسل وشركاه قبل خريف العام الماضي تقريبا وحتى ما قبل عيد الفصح في هذا العام حوالي مليون وأربعمائة وأربعين ألف نظارة، ووزعتها في الأسواق باسم النظارات العجيبة وحققت مبيعات هائلة. كان ثمن النظارة الواحدة خمسين بفنيغا، وقد مكنت شاريها طالما أن عمره لا يقل عن سبع سنوات ولا يزيد على إحدى وعشرين سنة من أن يتعرف على البالغين ابتداء من سن الثلاثين.

مدير المناقشة: من فضلك يا فالي ألا تريدين أن توضحي لنا أكثر ما الذي يتم التعرف عليه عند ارتداء النظارة؟

فالي س.: عمي فالتر وهو موضوع النقاش اليوم، والذي أصبحت بفضله، ولأنني أعرف عنه الكثير، مساعدة لإدارة المناقشة رغم صغر سني، قد ذهب معي في أحد البشارة الثالث من العام الماضي إلى سوق عيد الميلاد المجيد بدوسلدورف. وهناك كانت إعلانات ضوئية كثيرة ومحلات يمكن للمرء أن يشتري منها كل شيء: كعك القرفة وحلوى اللوز ومدافع دبابات وكعك أعياد الميلاد وقنابل يدوية وأدوات منزلية ووابلات من القنابل وكؤوس للكونياك وفرق انتحارية ولوازم متكررة ودوافع للقتل ومساند لأشجار عيد الميلاد وأوسمة للاشتباك عن قرب ودمى بشعر قابل للغسيل، مهاد للدمى ونعوش للدمى، قطع غيار للدمى وكماليات للدمى وأجهزة رادار للبحث عن الدمى...

جوقة المتناقشين: ادخلي في الموضوع!

فالي س.: وكذلك تلك النظارات العجيبة كانت معروضة للبيع. اشترى لي

عمي فالتر واحدة منها. ارتديت النظارة في الحال، لأنني أجرب كل شيء على الفور، ونظرت من خلال النظارة ورأيت ماضيه بوضوح: شيء مفزع! وطبعا بدأت أصرخ على الفور وأجري هاربة منه. (تصرخ صرخة قصيرة). لكن عمي فالتر جرى ورائي وأمسك بي عند بوابة راتينغ. كان معه كلبه. ولكن لأنه لم يخلع عني نظارتي، واصلت النظر إلى ماضيه وماضي الكلب أيضا على أنهما شيء بشع مفزع ولم أستطع الكف عن الصراخ. (تصرخ عدة مرات). وبعد ذلك توجب علي دخول مستشفى ماريا لمدة أربعة أسابيع. أعجبني الحال هناك، رغم أن الطعام لم يكن على ما يرام، لأن من بين الممرضات واحدة اسمها مثل اسمي فالبورغا والأخرى اسمها دوروتيا والممرضة في وردية الليل كان اسمها. . .

جوقة المتناقشين: من فضلك لا تخرجي عن الموضوع!

متناقش: لا نريد سماع قصص المستشفيات!

متناقش: هذا الاستطراد لا لزوم له.

فالي س.: هذه هي تجربتي مع النظارة العجيبة، التي سوف أرتديها بوصفها نظارة المعرفة إذا صدرت عن الشخص موضوع المناقشة أقوال معطلة للنقاش. تعد نظارة براوكسل المعرفية أداة أساسية في كل مناقشة مفتوحة. فإذا ما فشلت اللغة. . .

جوقة المتناقشين: . . . فإن نظارة براوكسل المعرفية لا تفشل أبدا!

فالي س.: ومن يقف مثل عمي كموضوع للمناقشة، . . .

جوقة المتناقشين: يجب أن يتذكر أن نظارة براوكسل المعرفية جاهزة دائما.

فالي س.: ظن كثيرون أن ما مضى مضى. . .

جوقة المتناقشين: . . .لكن نظارة براوكسل المعرفية قادرة على جعل الماضي حاضرا.

فالي س.: فلو ارتديت النظارة الآن مثلا، لأنظر بها إلى عمي، فلسوف أصرخ على الفور مرة أخرى، مثلما كان الأمر في أحد البشارة الثالث من العام الماضي. هل أرتديها؟

(يضطرب ماتيرن وكلبه. يربت ماتيرن على عنق الكلب. يشير مدير المناقشة إلى فالي س. أن تجلس.)

مدير المناقشة: (ملتزما) اسمح لي يا سيد ماتيرن، فالأمور تختلط على

المتناقشين نظرا لأعمارهم التي تتراوح ما بين الطفولة والشباب. ومن ثم تكون هناك خطورة في تحول العمل الجاد إلى لعب. لكن إدارة المناقشة ستقوم لراحتك وراحتنا بالسيطرة على زمام الأمور بحيث نوقف أية سخافات زائدة عن الحد. برفعنا الحظر عن المتناقشين رقم ١٤ ورقم ٢٢، يمكننا الآن افتتاح المناقشة بالأسئلة الاختبارية. تفضلوا بطرح أسئلتكم! (يرفع عدة متناقشين أيديهم. يناديهم مدير المناقشة واحدا تلو الآخر).

متناقش: السلسلة الأولى من الأسئلة الاختبارية موجهة إلى الشخص موضوع المناقشة: كم هو عدد المحطات؟

ماتيرن: اثنتان وثلاثون.

متناقش: وبالعد التنازلي؟

ماتيرن: اثنان وثلاثون.

متناقش: كم نسيت منها؟

ماتيرن: اثنتين وثلاثون.

متناقش: وعدد المحطات التي ما تزال تذكرها بالضبط...

ماتيرن: ... اثنتان وثلاثون محطة بالتمام والكمال.

متناقش: واسم وجبتك المفضلة؟

ماتيرن: أم اثنتين وثلاثين.

متناقش: ورقم حظك هو؟

ماتيرن: اثنان وثلاثون في اثنين وثلاثين.

متناقش: ورقم نحسك هو؟

ماتيرن: الشيء نفسه!

متناقش: هل تحفظ جداول الضرب؟

ماتيرن: ٨-١٦-٢٤- ٣٢...

متناقش: شكرا. انتهت الأسئلة الاختبارية الأولى.

مدير المنقاشة: السلسلة الثانية من فضلكم.

متناقش: هل تستطيع أن تكوّن جملا بسيطة تبدأ بكلمة «كل.»

ماتيرن: (بسرعة) كل سِنة محسوبة. كل ساحرة شريرة تحترق بصورة أفضل. كل ركبة تؤلم. كل محطة تتحدث بالسوء عن المحطة التالية عليها. كل فايكسل

ينساب في الذاكرة أعرض من الراين. كل حجرة معيشة دائما ما تكون مربعة. كل قطار يطلق بخاره. كل موسيقى تبدأ. كل حدث يلقي بظلاله. كل ملاك عنده لثغة. كل حرية تعيش فوق جبال عالية. لكل معجزة تفسير. كل رياضي يقوم بتلميع ماضيه. كل سحابة قد أمطرت عدة مرات. كل كلمة قد تكون الأخيرة. كل شراب مركز حلو جدا. كل واحد كل واحدة كل سر منغص....

مدير المناقشة: هذا كاف، شكرا جزيلا. والآن السلسلة الثالثة والأخيرة من الأسئلة الاختبارية. تفضل!

متناقش: هل تؤمن بالله؟

ماتيرن: أطلب ترك هذا السؤال، لأن السؤال عن الله يصعب اعتباره سؤالا اختباريا؟

مدير المناقشة: يمكن قبول السؤال عن الله باعتباره سؤالا اختباريا ما دام لم يتعرض لتفاصيل إضافية مثل إن كان «ثالوثا» أم «واحدا حقا».

متناقش: أتؤمن إذن بالله؟

ماتيرن: بالله؟

متناقش: نعم، هل تؤمن بالله؟

ماتيرن: أنت تقصد إن كنت أنا أؤمن بالله؟

متناقش: بالضبط: بالله!

ماتيرن: تعني، بالرب الذي فوق؟

متناقش: ليس فقط فوق، بل الموجود في كل مكان.

ماتيرن: أي أنك تعني شيئا بأعلى أو في أي مكان آخر..

متناقش: نحن لا نعني أي شيء، بل بالتحديد وبالضبط: الله! هل تسمعني، هل تؤمن بالله!

جوقة المتناقشين: صورة أم كتابة
نعم أو لا!

ماتيرن: كل إنسان، أراد أو لم يرد، وبغض النظر عن تربيته ولون بشرته وعن الفكرة التي يعتنقها، كل شخص يفكر ويشعر ويأكل ويتنفس ويتصرف، أي يعيش...

مدير المناقشة: يا سيد ماتيرن، المتناقش يسألك: هل تؤمن بالله؟

ماتيرن: أنا أؤمن بالعدم. لأنني أسأل نفسي أحيانا بشكل جدي. لماذا الكينونية وليس العدم؟

متناقش: جملة شائعة مقتبسة من هايدغر.

ماتيرن: ربما يكون الوجود المحض والعدم المحض وجهين لعملة واحدة؟

متناقش: هايدغر مرة أخرى!

ماتيرن: العدم ينعدم دون أن يخلف شيئا.

متناقش: هايدغر!

ماتيرن: العدم هو أصل النفي. العدم أكثر أصالة من العدم والنفي. العدم أمر واقع.

جوقة المتناقشين: هايدغر هي! هايدغر ها
السؤال يقول: هل تؤمن بالله؟

ماتيرن: بلى أحيانا أستطيع أن أكفر بالعدم، لأنني أعتقد من جديد أنني أؤمن بالله، عندما..

متناقش: لا يجوز لنا إعادة طرح السؤال. أجب إما بلا أو بنعم؟

ماتيرن: إذن- (صمت)- أقسم بالثالوث: لا.

مدير المناقشة: إذن نعتبر أن السؤال الاختباري الثالث والأخير قد تمت الإجابة عنه. وملخص الإجابات هو كالتالي: رقم الحظ ورقم النحس للشخص موضوع المناقشة هو: اثنان وثلاثون. يستطيع الشخص موضوع المناقشة تكوين جمل لا نهائية باستخدام كلمة «كل». لا يؤمن بالله. وهذا المزيج المكون من رقم اثنين وثلاثين وجمل «كل» والله، تتيح لنا أن نطرح سؤالا إضافيا، تفضلوا! تدون فالي س. نتيجة الاسئلة الاختبارية على السبورة.

ماتيرن: (منزعجا) من الذي يحدد قانون المناقشة هنا؟ من يدير الأمور هنا ويمتلك خيوط اللعبة، من؟

مدير المناقشة: ينبغي لهذه المناقشة التي يحييها أناس محبون للمناقشة أن تصل إلى النقطة التي يحبذ عندها إدخال عنصر حيوي ضروري وهو العنصر الذي يتوعد بالكارثية بمعناها الكلاسيكي. لذلك أرجو طرح السؤال الإضافي بناء على نتيجة الأسئلة الاختبارية.

متناقشة: هل تحب الحيوانات؟

ماتيرن: سؤال سخيف! ألا ترين أن معي كلب.

متناقشة: هذه ليست إجابة عن سؤالي.

ماتيرن: إنني أعتني بالكلب جيدا، وبطريقة سليمة وأحيانا أكون صارما معه.

متناقشة: في الحقيقة إن سؤالي لا يحتاج إلى تكرار، لكنني سأطرح السؤال مرة أخرى: هل تحب الحيوانات؟

ماتيرن: انظري إليّ يا آنسة. ماذا ترين؟ كلب عجوز وأعمى، يصعب إطعامه لأن أسنانه أكثر من معيبة ورغم ذلك...

فتاة: هل تحب الحيوانات؟

ماتيرن: هذا الكلب...

إدارة المناقشة: إدارة المناقشة تعترض. نظرا لأن الشخص موضوع النقاش يتهرب بوضوح وعن عمد من السؤال، فإننا نسمح بأسئلة تخدم أغراض المناقشة في إطار السؤال الإضافي. تفضلوا!

متناقش: هل قتلت ذات مرة حيوانا بيديك؟

ماتيرن: أعترف: قتلت بيدي عصفور كناريا - كان ذلك في بيليفيد - لأن صاحبه كان من النازيين، وأنا بوصفي معادياً للفاشية...

متناقش: هل قتلت حيوانا بسلاح ناري؟

ماتيرن: في الجيش: أرانب وغرباناً، لكن من ذا الذي لم يطلق النار على الحيوانات في الحرب وهذه الغربان...

متناقش: هل قتلت في الماضي حيوانا بسكين؟

ماتيرن: مثل كل الصبيان، بمجرد أن امتلكت مطواة جيب، قتلت جرذاناً وحيوانات خلد. المطواة أهداها لي صديق، وبهذه المطواة قام كلانا...

متناقش: هل سممت ذات يوم حيوانا؟

ماتيرن: (صمت) نعم

متناقش: أي نوع من الحيوانات؟

ماتيرن: كلب.

جوقة المتناقشين: هل كان أبيض أم أزرق أم بنفسجياً؟

أحمر أو أخضر أو أصفر أو بنفسجياً؟

ماتيرن: كان كلبا أسود.

جوقة المتناقشين: هل كان من نوع شبيتس أم داكل أم

بكيني؟

بيرناردينر أم بوكسر أم

بكيني؟

ماتيرن: كان كلب رعاة ألمانياً أسود الشعر، وكانوا ينادونه بهاراس.

إدارة المناقشة: لقد توصلنا من خلال السؤال الإضافي المدعم بالأسئلة التي تخدم الغرض إلى أن موضوع المناقشة فالتر ماتيرن، قد قتل عصفور كناريا وعدة أرانب وغرباناً وحيوانات خلد وجرذاناً وكلباً. لذلك أكرر السؤال الإضافي المؤسس على الأسئلة الاختبارية الثلاثة - هل تحب الحيوانات؟

ماتيرن: سواء صدقتموني أم لا: نعم!

إدارة المناقشة: (تعطي إشارة للمساعدة فالي س. وتكتب فالي بالطباشير على السبورة كلمة «محب للحيوانات») لقد اكتشفنا أن الشخص موضوع النقاش قد سمم كلب رعاة أسود ويمتلك رغم ذلك كلب رعاة أسود شبيهاً بالآخر تماما. ولأنه يدعي حبه للحيوانات، يمكن أن يصبح الكلب في حد ذاته وبشكل أخص كلب الرعاة الأسود هو نقطة النقاش الأساسية لدى الشخص موضوع المناقشة. لذا أرجوكم من باب الحيطة أن تطرحوا أسئلة اختبارية بشأن نتيجة العرض الحيوية وهي «كلب رعاة ألماني أسود الشعر» للتأكد من تلك النقطة الأساسية الحالية. تفضلوا! (تدون فالي س. نتيجة العرض على السبورة).

متناقش: مثلا: هل تخاف من الموت؟

ماتيرن: أنا مثل القطط بسبع أرواح.

متناقش: إذن فأنت تريد أن تعيش ألف عام؟

ماتيرن: مائة ألف عام لأنني بسبع أرواح.

متناقش: وإذا حدث ومت، فأين تفضل أن تموت، في الحجرة أم في الخلاء أم في المطبخ أم في الحمام أم في القبو؟

ماتيرن: هذه الأشياء تعد بالنسبة لشخص بسبع أرواح سيان.

متناقش: ماذا تفضل: الموت نتيجة لمرض أم لحادث بالطريق؟ أو هل تفضل

صراعا مفتوحا، النزال كصيغة للوجود المتعين، الحرب كسبب، الثورة كإمكانية أم المشاجرة بالأيدي؟

ماتيرن: (بمزاج رائق) يا صديقي العزيز، كل هذه الأشياء تعد بالنسبة لشخص مثلي بسبع أرواح، مناسبات لإبراز فنون التحايل على الموت. تستطيعون أن تناقشوني بالسكاكين والأعيرة النارية، تستطيعون أن تلقوني من فوق برج التلفزيون وإذا أردتم أن تدفنوني في باطن الأرض وأن تثقلوني بحجج صلدة كالغرانيت، فسوف أقوم في اليوم التالي واقفا على قدمين صلبتين. عمر الشقي بقي!

جوقة المتناقشين: مدفون بأسفل
لن يخرج ثانية إلى النور
وميض
لا يحرك ساكنا و لا يلعق

ماتيرن: لأن الملعقة كانت أيضا في القبو
منصهرة، لكن عندما صفرت
ربة الفجر أورورا بصفارتها
انقشعت الظلمة، وقف

جوقة المتناقشين: ماتيرن على قدمين صلبتين
بقلبه وطحاله وكليتيه، كان جائعا
ولعق بالملعقة، أكل، وخري ونام.

ماتيرن: كانت الضربة مؤثرة، سقطت من البرج.
لم تكترث الحمامات لذلك.
كانت مجرد نقوش مسطحة على الرصيف
ومن كان يمر، كان يقرأ بخط مائل:

جوقة المتناقشين: هنا يرقد، يرقد متسطحا
يرقد
ذلك الذي سقط من عل، ذاك الراقد هنا
ليست هناك أمطار تغسله
ولا برد يضربه ولا خطاب ولا رموش

ولا حتى مناقشة مفتوحة تسعفه،

ماتيرن: لكن أورورا تأتي سائرة على قدميها
وتدق على الأسفلت الذي أرقد عليه
في البدء تقوم الأحزمة ثم يقوم الراقد
ويقذف وينجب ويضحك في أسى.

جوقة المتناقشين: لقد ثقبوه بالرصاص حتى صار كالمصفاة،
خططوا لعمل نفق عبره
هو المقتول حديثا بالرصاص
كي يمر فيه القطار

ماتيرن: القطارات الخاصة، عبرني ملوك
هل تريدون
أن تروا الملوك في ظهري والبابا
عندما تحدث عبر الثقب بتسع لغات.

جوقة المتناقشين: هكذا كان قُمعا ونفقا وميكروفوناً
ولم تكن هناك جمارك على الناحيتين،

ماتيرن: ولكن عندما سدت أورورا
ثقوبي من الأمام والخلف
بمطرقة الاستيقاظ الشهيرة
قام ماتيرن، الذي قتل حديثا بالرصاص
وتنفس وتكلم وعاش وصرخ! (صمت. فالي س. تكتب كلمة «سبع أرواح» على السبورة)

مدير المناقشة: بعبارة أخرى: إنك لا تهاب الموت؟

ماتيرن: حتى ذوو السبع أرواح لديهم نقاط ضعفهم.

مدير المناقشة: إذن فأنت لا تريد أن تعيش ألف عام وأكثر؟

ماتيرن: لا طبعا! إنكم لا تدركون صعوبة الوقوف على القدم مرة أخرى.

مدير المناقشة: إذن لو كان لديك الاختيار ما بين الموت في السرير والموت في الخلاء، فماذا تختار؟

ماتيرن: في الهواء الطلق المنعش، في أي وقت!

مدير المناقشة: ضعف القلب أم حادثة الطريق أم آثار الحرب؟

ماتيرن: أريد أن أُقتل.

مدير المناقشة: بالسكين أم بالسلاح الناري؟ هل تريد أن تشنق أم تموت بالصعقة الكهربية؟ أن تختنق أم تموت غريقا؟

ماتيرن: أريد أن أموت مسموما وأن أنهار أمام جمهور عرض افتتاحي في مسرح مفتوح!

(يمثل انهياره)

جوقة المتناقشين: هل تسمعون! السم مرة أخرى!
يقسم ماتيرن بالسم!

متناقش: أي سم يقصده؟

متناقش: سم عين الضفدع الذي راحت أيامه؟

متناقش: سم الحيات؟

متناقش: ربما زرنيخ أو فطريات سامة: كأس الموت أو الكبريت أو فطر الشيطان؟

ماتيرن: سم فئران عادي جدا.

مدير المناقشة: تطرح إدارة المناقشة سؤالا عابرا: عندما قمت بتسميم كلب الرعاة الأسود، ما كان نوع السم الذي استخدمته؟

ماتيرن: ببساطة: سم فئران!

جوقة المتناقشين: ظاهرة جديرة بالتأمل:
مرتين سم فئران!

مدير المناقشة: (متحدثا إلى فالي س.) قد نحتاج أيضا إلى الاحتفاظ بهذه الحقائق. دوني تحت «سبع أرواح»: «التشوق للموت، نقطتين، سم»، ثم على اليمين نكتب التالي: موت الكلب هاراس، نقطتين، سم فئران. (تكتب فالي بخط واضح)، ولكن قبل أن نمضي في التأكيد الأول للنقطة الأساسية «كلب رعاة أسود»، أطلب منكم أن تطرحوا سؤالا ثانيا لاختبار النقطة الأساسية، تفضلوا!

متناقش: ما هو برجك؟

ماتيرن: لا أعلم، أنا مولود في التاسع عشر من أبريل.

فالي.س: بصفتي مساعدة لإدارة المناقشة أحب أن أوجه عناية الشخص موضوع النقاش إلى أن المعلومات الخاطئة قد تؤدي إلى اللجوء الفوري للمناقشة بالإكراه: لقد ولد عمي أي الشخص موضوع النقاش في العشرين من أبريل عام ألف وتسعمائة وسبعة عشر.

ماتيرن: هذه الشيطانة! هذا ما هو مكتوب في بطاقتي، لكن أمي تدعي أني ولدت في التاسع عشر، وبالتحديد في الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق. لكن السؤال هو ما إذا كان العالم يصدق أمي أم بطاقتي؟

متناقش: سواء في التاسع عشر أم في العشرين من أبريل، أنت على العموم مولود في برج الحمل.

جوقة المتناقشين: حجر الأم وبيان البطاقة
كلاهما من صنع الحمل.

متناقش: من هم مشاهير الرجال غيرك، ولدوا أثناء سطوع الشمس على برج الحمل؟

ماتيرن: لا أدري! بروفيسور زاوربروخ.

متناقش: غير صحيح، زاوربروخ كان من برج السرطان.

ماتيرن: إذن جون كينيدي.

متناقش: إنه النموذج المعتاد لبرج الجوزاء.

ماتيرن: أو الرئيس السابق عليه.

متناقش: صار من المعروف الآن أن الجنرال أيزنهاور من مواليد برج الميزان.

مدير المناقشة: السيد فالتر ماتيرن موضوع المناقشة. ركز من فضلك. من الذي ولد مثلك في برج الحمل؟

ماتيرن: أيها المتذاكون غير الأكفاء! هذه ليست مناقشة مفتوحة، وسوف تستحيل إلى ليلة ليلاء. أنا أعرف ما تبغون الوصول إليه. إذن سأقول لكم: في الشهر نفسه وكما هو مكتوب في بطاقتي، وأيضا في العشرين من أبريل، ولد أدولف هتلر، المجرم الأكبر على مر العصور.

إدارة المناقشة: اعتراض! سنحتفظ بالاسم ولكن ليس بالوصف غير الموضوعي (فالي س. تكتب). لم نأت هنا لنسب ولكن لنتناقش. تبينت إدارة المناقشة التالي: أن الشخص موضوع المناقشة فالتر ماتيرن و«أدولف هتلر الذي

شيد الاوتوستراد الألماني» والذي سبقت مناقشته منذ وقت غير بعيد، قد ولدا في اليوم نفسه وينتميان إلى البرج نفسه وهو الحمل!

متناقش: هل هناك أي وجه شبه آخر بينك وبين أدولف هتلر المولود في برج الحمل؟

ماتيرن: كل البشر لديهم شيء مشترك مع هتلر.

متناقش: نحب أن نؤكد أن موضوع المناقشة ليس كل البشر ولا «البشرية» بل أنت.

فالي س.: إذا لزم الأمر، فأنا أعرف شيئا، يمكن أن أثبته دون أن أرتدي نظارة المعرفة. إنه يفعل ذلك حتى أثناء النوم وأثناء الحلاقة. ولكي يقوم بذلك لا يحتاج حتى إلى مص ليمونة قبلها.

ماتيرن: كانوا يسمونني في المدرسة وبعد ذلك أيضا «الصرار» لأنني أحيانا، حينما لا تسير الأمور على ما يرام، أصر بأسناني، هكذا (يصر بأسنانه أمام الميكروفون)، ومن المفترض أن المدعو هتلر كان يفعل ذلك أيضا: كان يصر بأسنانه (فالي.س. تكتب «صرير الأسنان أو الصرار»)

جوقة المتناقشين: لا تلتفتوا وراءكم!
فالصرار وراءكم.

متناقش: أوجه شبه أخرى مع مشيد الأوتوستراد الألماني؟

جوقة المتناقشين: لا تذهب إلى الغابة،
ففي الغابة غابة.
من يذهب إلى الغابة،
ويبحث عن الأشجار،
لن يبحث عنه أحد بعد ذلك.

متناقش: نريد أن نعرف ما إذا كان لموضوع المناقشة فالتر ماتيرن المسمى بالصرار أي أوجه شبه أخرى مع أدولف هتلر، الذي سبق تناوله بالمناقشة من قبل.

جوقة المتناقشين: لا تخف
الخوف رائحته خوف
من له رائحة الخوف

يشمه

الأبطال، الذين لهم رائحة الأبطال.

متناقش: يبلل الشخص موضوع المناقشة شفتيه.

جوقة المتناقشين: لا تشرب من البحر

فماء البحر يزيد عطشا

من يشرب من البحر

يرغب على الفور

في الشرب من المحيط.

متناقش: في الأفق تبزغ ملامح مهددة وحيوية لمناقشة بالإكراه.

جوقة المتناقشين: لا تبن لك بيتا

وإلا ستكون في بيتك

ومن كان في بيته

فسينتظر

زيارة متأخرة ويفتح لها الباب.

متناقش: تخرج لنا المساعدة فالي س. مستندات من حقيبة المستندات: بطاقات بريدية، آثار دماء وشهادات صحية وعينات براز وشهادات وربطات عنق وخطابات...

جوقة المتناقشين: لا تكتب خطابا.

فالخطاب يدخل الأرشيف

ومن يكتب الخطاب

يوقعه

وتوقيعه هو الذي يتبقى منه.

متناقش: إنه يقول بأنه ما يزال يقف في المركز. هو الذي وقف دائما في المركز، نمط ظاهري، أبو سبع أرواح، الصرار، هو الذي نستطيع رؤية ما خلفه أثناء حياته.

جوقة المتناقشين: لا تقف في الضوء

فالضوء لا يراك.

متناقشان: لا تكن شجاعا

فالشجاعة تحتاج إلى الشجاعة.

فتاتان: لا تغني في النار

فلا أحد يغني في النار.

متناقشان: لا تغرق في الصمت

وإلا خرقت الصمت.

جوقة المتناقشين: لا تلتفتوا وراءكم!

فالصرار وراءكم!

ماتيرن: لكي تستطيعوا الرؤية بوضوح: سأتكلم مرة أخرى! ماذا تريدون معرفته وسماعه بماذا تأمرون؟

متناقش: حقائق، أوجه الشبه بينك وبين الآخر المولود في برج الحمل.

جوقة المتناقشين: لا تنظروا حولكم!

ماتيرن: حتى أرضيكم: أحب هتلر هذا الكلب مثلي، كلب الرعاة الألماني ذا الشعر الأسود. وذاك الكلب الأسود هاراس الذي كان ملكا للأسطى النجار...

مدير المناقشة: عند هذه النقطة نستطيع أن نقول إن النقطة الأساسية: كلب رعاة ألماني أسود الشعر قد تأكدت، ولكننا نرغب أن يقوم المتناقشون رغم ذلك ولدواعي الحيطة بطرح سؤال إضافي؟ (تدون فالي س. وتضع خطا تحت النقطة الأساسية).

متناقش: النقطة الأساسية: لا بد من اختبار النقطة الأساسية كلب رعاة ألماني من الناحية الايروتيكية.

متناقش: المتناقش رقم ٤٨ يعني بالتأكيد المحتوى الجنسي للنقطة الأساسية: كلب رعاة ألماني أسود.

مدير المناقشة: نسمح بطرح السؤال الاختباري الإضافي، تفضلوا!

متناقش: مع أي من مشاهير النساء أحببت أو تحب أن تمارس الجنس؟

ماتيرن: في عام ألف وثمانمائة وستة مارست الجنس مرتين متتاليتين مع الملكة لويزه ملكة بروسيا. في ذاك الوقت كانت في طريقها للهرب من نابليون وباتت في طاحونة أبي التي كان يحرسها كلب اسمه بركون.

متناقش: الملكة المذكورة غير معروفة في أوساط المتناقشين...

مدير المناقشة: مع ذلك، أرجوكي يا فالي أن تدوني كلب الحراسة بركون، وبعدها تكتبين كلمة «أسطوري» وعلامة استفهام.

ماتيرن: بالإضافة إلى أنني منذ أواخر صيف عام ثمانية وثلاثين وحتى أوائل عام تسعة وثلاثين، كنت أمارس الجنس بانتظام مع العذراء مريم.

متناقش: يستطيع أي كاثوليكي متدين أن يتفهم الممارسة الجنسية المتخيلة مع العذراء مريم، علاوة على أن هناك مطلق الحرية للآخرين الذين لا يعتقدون في ذلك.

ماتيرن: عامة هي التي حرضتني على تسميم كلب الرعاة الأسود هاراس بسم الفئران، لأن هاراس . . .

مدير المناقشة: إذن بناء على رغبة الشخص موضوع المناقشة ندون قبل عبارة: «موت الكلب هاراس بسم الفئران» عبارة «تأثير العذراء مريم».

متناقش: نحتاج إلى شيء واضح لا يحتمل التفسيرات ولا يدخل في نطاق الخيال.

ماتيرن: إليكم ما ترغبون: لقد نمت مع ايفا براون عندما كانت معشوقته.

متناقش: احك لنا من فضلك تفاصيل هذا الجماع.

ماتيرن: أنا كرجل لا أتحدث عن خبراتي الجنسية!

متناقش: هذا ليس عدلا. على أية حال نحن نتناقش هنا بشكل مفتوح.

فتاة: إن ادعاء الغموض لا يتفق وواقع المتناقشات الحاضرات.

جوقة المتناقشين: يتهيأ الوضع
لمناقشة بالإكراه!

مدير المناقشة: اعتراض إدارة المناقشة: لقد أجاب الشخص موضوع المناقشة بشكل كاف على الأسئلة الخاصة بمجامعة نساء شهيرات، فبعد الممارسة الأسطورية مع لويزه ملكة بروسيا التي لا يعرفها كثيرون هنا، وبعد اعترافه بالممارسة الخيالية مع العذراء مريم، اعترف أيضا بمضاجعة الآنسة ايفا براون. يعد السؤال عن تفاصيل عملية الجماع أمرا لا حاجة لنا إليه. لكن يمكن سؤال الشخص موضوع المناقشة عما إذا كان الجماع بين ماتيرن وايفا براون قد تم في حضور متفرجين أو بدون، تفضلوا!

متناقش: هل كان مشيد الأوتوستراد الألماني مثلا حاضرا؟

ماتيرن: هو وكلبه المفضل بريتنس وكذلك مصور الفوهرر هوفمان.

مدير المناقشة: تمت الإجابة عن السؤال الاختباري وقد أكد المحتوى الجنسي للنقطة الأساسية «كلب رعاة ألماني أسود الشعر». فلندون اسم الكلب برينتس، أما المصور فنستطيع أن نستغني عنه، أليس كذلك؟ (فالي س. تدون) قبل أن نتناول تفصيليا موضوع ملكية الكلب الموجود هنا والذي لا يعد مجرد نقطة أساسية فقط في المناقشة، بل ويقف عند قدم الشخص موضوع المناقشة، هل توجد لدى الشخص موضوع المناقشة أية أسئلة يوجهها إلى المتناقشين.

ماتيرن: ما معنى كل هذا الهراء؟ لماذا أقف في موضع يوهانس غوتنبرغ؟ ولماذا تنعتون هذه المحاكمة العلنية: مناقشة علنية؟ أي حيوية تلك في المناقشة، حينما تنحصر هنا حركتي بين الأعمدة. فأنا كممثل وكنمط ظاهري، بوصفي كارل مور وفرانتس مور: «حكمة الدهماء وخشية الدهماء» أحتاج إلى الحركة هنا وهناك، إلى الظهور المفاجئ وغير المتوقع على خشبة المسرح، أحتاج إلى توجيه كلماتي إلى الجمهور، إلى الخروج من على المسرح والدخول من جديد بشكل مرعب: «لكنني أريد أن أكون بينكم وأن أقوم بأداء مرعب!»- وبدلا من ذلك لا يوجد سوى الثبات في المكان ولعبة الأسئلة. بأي حق يريد هؤلاء المغرورون المتعالون أن يحاكموني؟ أو فليكن: لأي غرض تتناقشون هنا؟

مدير المناقشة: السؤال الأخير مقبول.

متناقش: عندما نتناقش، نكتسب معلومات.

متناقش: في كل ديمقراطية يوجد للمناقشة مكانتها المشروعة.

متناقش: كي نتجنب سوء التفاهم: تختلف المناقشة الديمقراطية المفتوحة جوهريا عن الاعتراف الكاثوليكي، في أنها تقام في العلن وعلى مسمع ومرأى من الجميع.

متناقش: من الخطأ أيضا مساواة مساعينا مع الاعتراف العلني بالذنب في الدول ذات الحكم الشيوعي.

متناقش: خاصة وأن المناقشة الديمقراطية المفتوحة ليست مرتبطة بأي مطلق دنيوي أو ديني، بل إنها تنتهي بدون أي إلزام، بمعنى أن المناقشة لا تنتهي أبدا، لأننا نواصل نتيجة المناقشة المفتوحة الكبرى بعد انتهائها في دوائر أصغر ونبحث عن موضوعات مثيرة للمناقشة المفتوحة التالية.

متناقش: فمثلا، بعد موضوع المناقشة فالتر ماتيرن، نريد أن نناقش موضوع المدرسة الطائفية أو هل نطرح السؤال: هل صار للتوفير ذي الضرائب المخفضة أي معنى الآن؟

متناقش: ليست لدينا أية تابوهات.

متناقش: مؤخرا تناقشنا حول الفيلسوف مارتن هايدغر، أعماله وحياته. أعتقد أنه لم يعد يشكل لنا أي غموض.

جوقة المتناقشين: حكى الزعبوط ذات مرة
نكاتا ميتافيزيقية.

متناقش: عادة ما تُحل المشكلات من تلقاء نفسها إذا تحلينا بالصبر، فمثلا قضية اليهود. هذه المشكلة لم تكن لتحدث لجيلنا. فنحن كنا سنتناقش مع اليهود طويلا حتى يقتنعوا ويهاجروا من تلقاء أنفسهم باقتناع. نحن نحتقر العنف. وحتى لو لجأنا للمناقشة بالإكراه، تبقى نتيجة المناقشة غير ملزمة: فلو شنق الشخص موضوع المناقشة نفسه أو ذهب لشرب البيرة، هذا شأنه، ففي آخر الأمر، نحن نعيش في بلد ديمقراطي.

متناقش: نحن نعيش لنتناقش.

متناقش: في البدء كانت المناقشة!

متناقش: نحن نتناقش لكي لا نخوض مونولوجا داخليا مع أنفسنا.

متناقش: فهنا وهنا فقط تتحقق الروابط الاجتماعية - هنا لا يوجد شخص وحيد!

متناقش: فليس لأفكار الصراع الطبقي أو للاقتصاد الوطني البورجوازي أن يعوض عن النموذج الشرائحي لعلم الاجتماع التطبيقي أي المناقشة المفتوحة.

متناقش: وعموما فإن الفعالية التقنية لجهازنا الوجودي مرتبط بالتنظيمات الاجتماعية الكبرى وبالمنظمات العالمية للمتناقشين الأحرار ومحبي المناقشة.

متناقش: المناقشة تعني التغلب على الوجود المتعين!

متناقش: أثبت علم الاجتماع الحديث أن المناقشات المفتوحة في الدول الجماهيرية الحديثة هي المجال الوحيد الذي يتيح تكوين شخصيات قادرة على الحوار.

جوقة المتناقشين: نحن عائلة دولية مستقلة فريدة للنقاش الحيوي المفتوح!

متناقشان: لو أننا غير راغبين في المناقشة، لما كان وجود للديمقراطية ولا للحرية، أي لا حياة في المجتمع الديمقراطي الجماهيري الحر.

متناقش: إذن فلنلخص كلامنا: فلننهض جميعا. (الجميع يقفون). لقد سألنا الشخص موضوع المناقشة، لماذا نتناقش والإجابة هي: نحن نتناقش لندلل على وجود الشخص موضوع المناقشة، فإذا سكتنا ينتفي وجود فالتر ماتيرن موضوع المناقشة.

جوقة المتناقشين: لذلك نود أن نقول:

إن ماتيرن بدوننا غير موجود!

(فالي س. تدون)

مدير المناقشة: بهذا نكون قد أجبنا عن سؤال الشخص موضوع المناقشة. ونسأله، هل تريد أن تطرح سؤالا إضافيا؟

ماتيرن: أكملوا. أنا أعرف الآن ما يدور حولي وسألعب معكم دون خجل.

مدير المناقشة: نعود إلى النقطة الأساسية: كلب رعاة أسود ثبت وجوده ثلاث مرات في سياق جنسي.

ماتيرن: (بعاطفة متوهجة) هل أتقيأ أمامكم أيها الأصدقاء،

إذن فلتمسكوا بالوعاء!

بازلاء أكلتها قبل سنوات كلاب

أتقيأها أمامكم دون خجل.

مدير المناقشة: نريد الآن أن نناقش ونوضح الأمور بخصوص ملكية كلب رعاة أسود.

ماتيرن: البطاطس التي أُكلت قبل سنوات كلاب،

ستثبت لكم اليوم

أن البطاطس كانت موجودة في تلك الأيام أيضا

دوافع القتل الماضية

أصبحت لوازم متكررة للحاضر.

مدير المناقشة: وسنسأل تحديدا عن كلب رعاة أسود، يجسد النقطة الأساسية كلب رعاة أسود شخصيا.

ماتيرن: فهنا لا توجد أية حواجز

ما كان طعمه يروق لي في الماضي
يجعلني اليوم أتجشأ.
ما سلك في هذا الطريق صاعدا جبال القوقاز
وهابطا إلى بحيرة لادوغا الباهتة
يجب أن يرتد طوفانا: حسب موعده، نصف مهضوم
مر كالمرارة
وقد تكون رائحته زاعقة حتى تتجشأون أنتم أيضا حموضته.

مدير المناقشة: أرجوكم أن تتفضلوا بطرح أسئلة حول ملكية كلب الرعاة الموجود لدينا هنا.

ماتيرن: القتل، كلمة عفى عليها الزمن!

متناقش: ما اسم كلب الرعاة الموجود هنا؟

ماتيرن: تصويب
بياض العين
القبض عليه ممتصا قارطا.

متناقش: أكرر. السؤال يتعلق باسم الكلب الموجود هنا.

ماتيرن: جثث، من يعد الجثث؟
لقد تم التخلص من العظام.
يسيل الدم على خشبة المسرح.
تدق القلوب بخفوت.
محظور على الموت دخول المكان! (صمت)
والكلب اسمه، من لا يعرف اسمه؟ بلوتو

متناقش: ومن هو صاحب بلوتو؟

ماتيرن: صاحبه هو من يطعمه.

متناقش: هل اشتريته؟

متناقش: لقد جاء إلي بنفسه.

متناقش: هل بحثت عن صاحب الكلب؟

ماتيرن: لقد جاء إلي بنفسه بعد نهاية الحرب. في هذه الأثناء كانت هناك كلاب كثيرة بلا أصحاب.

متناقش: هل يستطيع الشخص موضوع المناقشة تخمين اسم المالك المحتمل للكلب بلوتو، والذي ربما امتلك بلوتو تحت اسم آخر؟

ماتيرن: أستطيع أن أحدثكم عما أكلت أو لمست أو فعلت أو عن الخبرات التي مررت بها ولكنني أرفض مناقشة تخميناتي؟

مدير المناقشة: نظرا لأن الشخص موضوع المناقشة يريد أن يتملص، لأسباب معادية للمناقشة، من مناقشة تخميناته، يمكن للمتناقشين أن يسألوا الكلب بلوتو مباشرة، حيث إن الكلب بلوتو يعتبر نقطة أساسية تابعة للشخص موضوع المناقشة. سنعزف للكلب ثلاث مقطوعات موسيقية. (تدون فالي س. سؤال الكلب موسيقيا) مقترحاتكم من فضلكم.

متناقش: ربما نبدأ السؤال الموسيقي بمقطوعة موتسارت موسيقى ليلية صغيرة! (تضع فالي س. الأسطوانة وتعزف الموسيقى لمدة قصيرة).

مدير المناقشة: يتبين لنا أن الكلب بلوتو لا يتأثر بموسيقى موتسارت. الاقتراح الثاني.

متناقش: فلنجرب هايدن أو شيئا من هذا القبيل، ربما أغنية ألمانيا؟ (تضع فالي س. الأسطوانة. يحرك الكلب ذيله، بمجرد بدء المقطوعة الموسيقية.)

مدير المناقشة: يظهر الكلب فرحا وانفعالا عند سماع هذه الموسيقى ويبين لنا ذلك أن صاحب الكلب السابق كان ألماني الجنسية. وبهذا يتضح لنا أن الكلب غير تابع لجيوش الاحتلال الماضية. وبذلك يمكننا أن نستغني عن موسيقى هيندل وموتيفات من أوبرا كارمن الفرنسية. وكذلك عن «كسارة البندق» و«القوقازي». كذلك عن التراتيل الكنسية الأمريكية أو القصائد الغنائية من عصر الرواد الأمريكي. المقترح الثالث من فضلكم!

متناقش: لكي نوفر على أنفسنا عناء البحث، أقترح الطريق المباشر: مقطوعة من المقطوعات المميزة لفاغنر، موتيف سيغفريد أو كورال القبطان...

متناقش: من الأفضل إذن عزف غروب الآلهة!

جوقة المتناقشين: غروب الآآآلهة
غروب الآآلهة

(تضع فالي س. الأسطوانة. تعزف المقطوعة لوقت طويل. يعوي الكلب باستمرار)

مدير المناقشة: بذلك يتبين لنا بشكل كاف أن الكلب بلوتو كان ملكا لشخص من المولعين بفاغنر. وعلى أساس هذه النتائج - أطلب النظر بعين الاعتبار لملاحظاتنا المدونة - لا نخطئ في تخميننا لو قلنا إن مستشار الرايخ السابق أدولف هتلر الذي تناولناه بالمناقشة من قبل بصفته مشيد الأوتوستراد الألماني والمعروف بولعه بموسيقى فاغنر، هو المالك الحقيقي لكلب الرعاة الأسود الموجود هنا والمسمى حاليا بلوتو. ولكي لا نعطل مسار المناقشة المفتوحة، ننتقل إلى المواجهة الحيوية: كلب الرعاة الأسود في مواجهة صورة هتلر، تفضلوا!

ماتيرن: لا معنى لما تفعلون، فهذا الكلب يوشك على العمى.

مدير المناقشة: لا يمكن لغريزة الكلب أن تعمى أبدا، فأبي مثلا وهو نجار محترم، كان يحتفظ بكلب حراسة، كلب رعاة أسود وكان اسمه هاراس ومات بالسم. ولأن مدير المناقشة قد نشأ مع هذا الكلب، يسمح لنفسه دون أن يكون خبيرا بعلم الكلاب، أن يقيّم الكلاب وخاصة كلاب الرعاة السوداء جيدا. المواجهة من فضلكم! (تقف فالي س. وتفرد على السبورة صورة كبيرة ملونة لهتلر. وتدفع بالسبورة إلى مقدمة المشهد وتجعلها مواجهة للمعبد الحديدي. صمت لوقت طويل. يضطرب الكلب. يمد الكلب أنفه متشمما باتجاه اللوحة وينفلت فجأة وينهنه أمام اللوحة ويقف على ساقيه الخلفيتين ويبدأ في لحس الصورة الملونة لهتلر. تقوم فالي س. بضم اللوحة بناء على إشارة من مدير المناقشة. يستمر الكلب في النهنهة وتعيده فالي س. بصعوبة إلى المعبد الصغير. تعاد السبورة إلى مكانها، هرج ومرج بين المتناقشين.)

متناقش: الأمر واضح.

متناقش: مرة أخرى يثبت لنا أن المواجهة الحيوية وسيلة لدفع المناقشة إلى الأمام.

جوقة المتناقشين: عندما تواجها
نبح عدة مرات
لقد اكتشف شيئا
ولحسه بلسانه.

مدير المناقشة: لقد أسفرت المواجهة عن نتيجة تعد، بغض النظر عن أهميتها لمسار المناقشة، إشارة إلى حدث تاريخي. لذلك نرجو منكم الوقوف وتأمل هذه

الحالة لبرهة: أيها الخالق العظيم للمناقشة العالمية التي لا تنتهي، يا مبدع موضوعات المناقشة السامية. . .(صمت لمدة طويلة. المتناقشون باحتفالية) آمين! يجلس المتناقشون مرة أخرى. في هذه الأثناء أمدنا أرشيف المناقشة بالحقائق التالية.

فالي س.: (فالي س. لم تصلي معهم وتمسك بأوراق في يديها) من بين كلاب الرعاة التي كانت في حظيرة كلاب مستشار الرايخ السابق أدولف هتلر، كان هناك كلب أسود الشعر اسمه برينتس. وهذا الكلب كان هدية مدير مقاطعة دانتسيغ أدولف فورستر إلى مستشار الرايخ. وبعد أن قضى الكلب برينتس شهور حياته الأولى في معسكر تدريب كلاب الشرطة بدانتسيغ- لانغفور، انتقل إلى مقر إقامة الفوهرر المسمى بيرغهوف. وهناك استطاع أن يلهو ويلعب بحرية وسط الطبيعة حتى قامت الحرب. لكن أحداث الحرب جعلته يتنقل مع الفوهرر من مقر قيادة إلى مقر قيادة آخر، حتى انتهى به الأمر إلى مخبأ الفوهرر في مقر المستشارية.

مدير المناقشة: وهنا حدث التالي:

فالي س.: في العشرين من أبريل عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين. . .

متناقش: أي في اليوم الذي يحتفل فيه كلا من مشيد الأوتوستراد الألماني والشخص موضوع مناقشتنا فالتر ماتيرن بعيدَي ميلادهما. . .

فالي س.: وبينما كانت جماعة المهنئين، التي يشترك فيها الجنرال فيلدمارشال كايتل والعميد فون يون. . .

متناقش: قائد الفرقاطات لوده نويرات. . .

متناقش: والأميرالان فوس وفاغنر. . .

متناقش: والجنرالات كريبس وبورغدورف. . .

فالي س: والعقيد فون بيلوف ومدير الرايخ بورمان والمبعوث هيفل من وزارة الخارجية. . .

متناقش: والآنسة براون. . .

فالي س.: وقائد الجناح الأساسي لفرق الحماية غونشه وقائد مجموعات فرق الحماية فيغلاين. . .

متناقش: د. موريل. . .

فالي س.: السيد غوبلز وزوجته وأطفالهما الستة، وأثناء التهاني، يهرب كلب الرعاة الأسود من صاحبه.

متناقش: وماذا يحدث له بعد ذلك؟ هل يمسكونه أو يضربونه بالرصاص؟

متناقش: هل رآه أحد وهو يهرب؟ أو يعبر إلى الناحية الأخرى؟

متناقش: وإلى من عبر؟

فالي س.: بعد قليل من التفكير قرر الكلب أن ينصاع للظرف الحاضر ويتوجه نحو الغرب. ونظرا لاندلاع كثير من المعارك النهائية حول عاصمة الرايخ القديمة وقت هروبه، استطاع برينتس أن يهرب من قبضة الفرقة المشكلة خصيصا للبحث عنه والتي لم تكل في بحثها الدؤوب عنه. في الثامن من مايو عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين في الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحا عبر الكلب برينتس في شمال ماغدبورغ نهر الإلبه سابحا وبحث لنفسه غرب النهر عن سيد جديد.

جوقة المتناقشين: صاحب الكلب الجديد

هو ماتيرن

فالي س.: ولكن نظرا لأن الفوهرر ومستشار الرايخ السابق أدولف هتلر قد قال في وصيته المحررة بتاريخ التاسع والعشرين من أبريل من سنة هروب الكلب، إنه قد أهدى كلبه الأسود برينتس إلى الشعب الألماني. . .

مدير المناقشة: يتبين لنا أن موضوع المناقشة فالتر ماتيرن ليس هو المالك الشرعي للكلب برينتس، المسمى حاليا بلوتو. لكننا يمكن أن نعتبر ماتيرن مديرا للإرث الذي تركه الفوهرر «كلب الرعاة الأسود برينتس».

ماتيرن: يا للوقاحة! أنا معاد للفاشية!

مدير المناقشة: ولماذا لا يقوم شخص معاد للفاشية بإدارة إرث الفوهرر؟ نحب أن نسمع رأي المتناقشين في هذا الأمر.

ماتيرن: كنت عضوا في الصقور الحمراء وبعد ذلك كنت عضوا مسجلا بالحزب الشيوعي. . .

متناقش: يستطيع الشخص موضوع المناقشة أن يدلل على صفات تؤهله للاضطلاع بهذه المهمة التاريخية. . .

ماتيرن: لقد قمت بتوزيع المنشورات حتى ستة وثلاثين. . .

متناقش: فهو يشترك مثلا مع المالك السابق للكلب في أن كليهما من مواليد برج الحمل.

ماتيرن: وعندما دخلت فرق الهجوم بعد ذلك، لم يكن ذلك سوى فترة قصيرة لم تتعد ستة أشهر.

متناقش: كذلك يشترك ماتيرن الذي يقوم برعاية الكلب مع مالكه المتوفى في الصر بالأسنان.

ماتيرن: لقد طردني النازيون. محكمة الشرف!

متناقش: ولكن ألا يجب أن نعترض على ذلك، لأن ماتيرن الذي يرعى الكلب قد سمم من قبل كلبا أسود؟

ماتيرن: بل وبسم الفئران، لأن هذا الكلب النازي الذي كان مملوكا لأسطى نجار قد قام بتعشير كلبة في معسكر تدريب كلاب الشرطة وبعد ذلك. . .

متناقش: ومع ذلك يدعي الشخص موضوع المناقشة حبه للكلاب.

متناقش: نقترح ربط النقطة الأساسية «كلب رعاة أسود» بنقطة الملكية «كلب الرعاة الأسود برينتس» في إطار شجرة سلالة الكلب بلوتو والماضي الحيوي للشخص موضوع المناقشة.

ماتيرن: بصفتي معادياً للفاشية أحب أن أسجل اعتراضي الشديد على هذا الربط بين هذه التصادفات!

مدير المناقشة: الاعتراض مقبول. سنصحح أنفسنا: سنقوم بمناقشة النقطة الأساسية وشجرة سلالة الكلب مع الماضي المعادي للفاشية للشخص موضوع المناقشة.

متناقش: لكن النتيجة النهائية للمناقشة هي التي ستبين ما إذا كان الشخص الذي يقوم حاليا برعاية الكلب مؤهلا وجديرا بالثقة لرعاية إرث الفوهرر، الكلب برينتس المسمى حاليا بلوتو.

مدير المناقشة: نقبل طلب المتناقش. نظرا لاحتمال وجود نقطة أساسية أخرى، ترجو إدارة المناقشة طرح أسئلة لا تمس النقطة الأساسية أو مسألة ملكية «كلب الرعاة الأسود» بشكل مباشر. تفضلوا! (فالي س. تدون: النقطة الأساسية الثانية، نقطتان.)

فتاة: هل يستطيع الشخص موضوع المناقشة أن يعدد لنا خبرات طفولة هامة أثرت فيه كثيرا؟

ماتيرن: خبرات واقعية أم أجواء خيالية؟

فتاة: نحن نحب أن نحصل من كل طبقات الوعي على حقائق تدفع بالمناقشة إلى الأمام.

ماتيرن: (يقوم بحركة يد واسعة) هنا نيكلسفالده وهنا شيفنهورست.

بيركونوس بيكولوس بوتريمبوس!

اثنتا عشرة راهبة بدون رأس واثنا عشر فارسا بدون رأس

غريغور ماتيرنا وزيمون ماتيرنا

العملاق ميلغيدو واللص بوبروفسكي

القمح الكويافي وتحطم السدود...

والفايكسل يجري،

والطاحونة تطحن،

والقطار الإقليمي يسير،

والزبد يذوب

والحليب يتخثر،

يوضع فوقه قليل من السكر

تقف الملعقة،

وتأتي المعدية،

وتغيب الشمس،

وتعود الشمس،

ويذهب رمل البحر،

ويلعق البحر رملا...

يجري الأطفال حفاة حفاة،

ويجدون التوت الأزرق

ويبحثون عن الكهرمان

ويدهسون نباتات الحسد

وينقبون عن الفئران

ويتسلقون بأقدام حافية داخل الصفصافة المجوفة. . .
ولكن من يبحث عن الكهرمان
ويدهس نباتات الحسد
ويقفز داخل الصفصافة
وينقب باحثا عن الفئران
سيجد داخل السد فتاة ميتة جافة:
إنها بنية الدوق سفانتبولك،
التي كانت تحفر دائما في الرمل باحثة عن الفئران،
وتقضم بقاطعيها
. . .لم ترتدي قط جوارب أو أحذية. . .
يجري الأطفال حفاة حفاة،
وتهتز الصفصافات
وينساب الفايكسل بلا توقف،
والشمس ساعة تغيب وساعة تجيء
والمعدية تأتي وتذهب
أو ترسو وتصر،
وأثناء تخثر الحليب وحتى تقف الملعقة ويسير القطار الإقليمي ببطء ويصفر بسرعة عند المنحنى والطاحونة تصر أيضا عندما تكون قوة الريح ثمانية أمتار في الثانية. ويسمع الطحان، ما تسر له به دودة الدقيق. وتصر الأسنان عندما يقوم فالتر ماتيرن بالصرير بأسنانه من اليسار إلى اليمين. كذلك تفعل جدته: تطارد لورشن المسكينة عبر الحديقة. تهرب سنتا، سوداء وعشار، عبر أحد أعواد الفاصوليا، لأن الجدة كانت قريبة جدا منها ورفعت ذراعها بميل: وفي يدها كانت هناك مغرفة خشبية ألقت بظلالها على لورشن ذات الشعر الملفلف وأصبحت أكبر وأكبر. . . لكن إيدي أمزل. . .

متناقش: هل إيدي أمزل هذا صديق للشخص موضوع المناقشة؟

ماتيرن: كان صديقي الأوحد.

متناقش: هل مات هذا الصديق؟

ماتيرن: لا أستطيع أن أتخيل أن إيدي أمزل قد مات.

متناقش: هل كانت الصداقة مع إيدي أمزل صداقة حميمة؟

ماتيرن: لقد كان بيننا عهد أخوة بالدم! لقد شق كل منا ذراعه اليسرى بمطواة الجيب. . .

متناقش: وماذا حدث للمطواة؟

ماتيرن: لا أعرف.

مدير المناقشة: نعيد طرح السؤال بإلحاح: ماذا كان مصير مطواة الجيب؟

ماتيرن: كنت أريد أن ألقي زلاكا في مياه الفايكسل، عندنا يسمون الأحجار زلاكن.

متناقش: نحن في انتظار مطواة الجيب!

ماتيرن: لقد بحثت عن الحجر أو الزلاك في جيبي ولكنني لم أجد سوى. . .

متناقش: . . . مطواة جيب.

ماتيرن: بثلاث شفرات ومبرام ومنشار وشوكة. . .بالرغم من ذلك ألقيت بـ. . .

متناقش: . . .بالمطواة!

ماتيرن: في مياه الفايكسل. - ماذا يجلب نهر معه؟ مغارب وصداقات ومطاوي جيب! ماذا يعود إلى الذاكرة سابحا على البطن بمعاونة الفايكسل؟ مغارب وصداقات ومطاوي جيب! الدوام ليس مقدرا لكل الصداقات. الأنهار التي تريد أن تصب في الجحيم تصب في الفايكسل. . .

مدير المناقشة: لذلك نريد أن نؤكد ما يلي: أن موضوع المناقشة فالتر ماتيرن وصديقه إيدي أمزل قد عقدا في الطفولة عهد أخوة بالدم وذلك باستخدام مطواة جيب. ألقى فالتر ماتيرن عندما كان صبيا بالمطواة في نهر الفايكسل. لماذا ألقى بالمطواة؟ لأنه لم يجد حجرا يلقيه. لماذا؟

ماتيرن: لأن الفايكسل كان ينساب دائما مستقيما ولأن الشمس كان تغرب خلف السد المقابل ولأن دم صديقي إيدي أمزل ظل يجري في عروقي بعدما عقدنا عهد الأخوة بالدم ولأن ولأن. . .

متناقش: هل كان صديقك زنجيا أو غجريا أو يهوديا أو شيئا من هذا القبيل؟

ماتيرن: (بحماس) كان نصف يهودي فقط. كان له شعر أمه الأشقر المحمر ولم يرث من ملامح أبيه إلا القليل. شاب رائع. كان سيعجبكم يا أولاد. كان دائما حسن المزاج وكانت لديه أفكار رائعة. كان سمينا وكان علي دائما أن أحميه. لكنني كنت أحبه رغم ذلك وكنت أعجب به وحتى يومنا هذا كنت سوف. . .

متناقش: عندما كنت تتضايق من صديقك، وهو شيء يحدث بين الحين والآخر، أي الشتائم كنت توجهها إليه؟

ماتيرن: في أسوأ الأحوال، كنت أقول له أيها الحلوف السمين وذلك لسمنته وتكوره. وعلى سبيل الاستهزاء كنت أقول له: يا خراء الذباب! لأن لديه نمش كثير. كذلك كنت أشتمه قائلا يا صانع التماثيل، لأنه كان يصنع من الملابس تماثيل غريبة وكان الفلاحون يضعونها في حقولهم على هيئة فزاعات للطيور.

متناقش: هل تتذكر شتائم أخرى؟

متناقش: شتائم معينة؟

ماتيرن: هذه هي كل الشتائم.

متناقش: عندما كنت تريد أن تضايقه جدا أو تهينه؟

ماتيرن: لم يكن بنيتي أبدا فعل ذلك.

مدير المناقشة: نريد أن نوجه عناية الشخص موضوع المناقشة إلى أننا لا نناقش هنا النوايا بل الأفعال. إذن فلتقل ما هي أسوأ الشتائم وأفظعها؟

جوقة المناقشة: نريد أن نسمع كلمة أخرى
وإلا فعلينا أن نستجوبه بالإكراه

فالي س.: في آخر المطاف علي أن ألجأ إلى نظارة المعرفة وأن أرى مواقف تعود إلى الماضي البعيد، لم يستطع فيها عمي فالتر أن يسيطر على أعصابه.

ماتيرن: (يلوح بيده) ولكن عندما لا أستطيع أن أسيطر على نفسي لأنه عاود. . . أو لأنه لم يكف عن. . . أو لأن إيدي. . . - كنت أسبه حينئذ قائلا كوهين.

مدير المناقشة: سنقوم بعمل استراحة حتى يتم تقييم كلمة كوهين. (استراحة بهمهمة خفيفة. تقوم فالي س. من مكانها) أرجو منكم الانتباه لمساعدتنا فالي س.

فالي س.: تعتبر كلمة كوهين إشارة تحقيرية إلى اليهود ولا ننسى اقترابها

الصوتي من كلمة كهين أي داهية ومكار وقد اعتاد الناس غناء هذه الأغنية الساخرة. . .

جوقة المتناقشين: يا يهودي يا كوهين
يا بو منخار طويل
ورجلين معوجتين
يا وغد يا قذر.

متناقش: لكن صديق الشخص موضوع المناقشة كان سمينا ومدورا.

مدير المناقشة: كما تبين لنا من المناقشات المفتوحة السابقة أن الشتائم لا تتبع دائما منطقا صارما. فالأمريكيون يسمون الألمان «كرنبا»، رغم أن هناك من الألمان من لا يحب ولا يأكل الكرنب المخلل بانتظام. ولذلك من الممكن أن يكون المقصود بلقب كوهين شخصا يهوديا أو في مثل حالتنا شخصا نصف يهودي يميل إلى الامتلاء.

متناقش: وفي كلا الحالتين نريد أن نسجل ميل الشخص موضوع المناقشة إلى السباب المعادي للسامية.

ماتيرن: أنا أعترض بصفتي إنسانا ومحبا حقيقيا للسامية. لأنني، ولو كان الغضب قد دفعني أحيانا لمثل هذه الثورات، كنت أحمي إيدي دائما عندما يسبه الآخرون قائلين له كوهين. مثلا عندما قمت أنت يا سيد ليبناو بمساندة ابنة خالك التي يتدلى المخاط من أنفها، بسب صديقي في حوش ورشة أبيك النجار لمجرد أنه كان يرسم الكلب هاراس، كنت أنا من وقف أمام أمزل ومن صد عنه شتائمكما التي كانت جارحة رغم طفوليتها.

متناقش: يبدو أن الشخص موضوع المناقشة يريد أن يوسع قاعدة المناقشة، من خلال طرح جوانب من الحياة الشخصية لمدير المناقشة للنقاش.

مدير المناقشة: وهكذا يتحدث عن ابنة خال مدير المناقشة ويسميها ذات الأنف الذي يتدلى منه المخاط.

متناقش: ويذكر حوش ورشة النجارة التي نما وترعرع فيها مدير المناقشة بين مخازن الخشب وأوعية الغراء بدون أي حرج.

متناقش: ويذكر أيضا كلب الحراسة هاراس التابع لورشة النجارة وهو كلب الرعاة الأسود نفسه الذي قام الشخص موضوع المناقشة فيما بعد بتسميته.

مدير المناقشة: نظرا لأن إدارة المناقشة قد وجدت نفسها مضطرة إلى لتعامل مع الهجوم الواقع عليها بصفة شخصية غير منصفة من قبل الشخص موضوع المناقشة على أنه دليل على عدم تحكمه في أعصابه، سنسمح باستفسار: هل كانت هناك بين الكلب الأسطوري بركون والكلبة سنتا التي كانت ملكا لأبي الشخص موضوع المناقشة أي الطحان ماتيرن والكلب هاراس الذي كان ملكا لأبي مدير المناقشة، الأسطى النجار ليبناو، أية صلة بخلاف أن ابن الطحان فالتر ماتيرن من ناحية وابن النجار هاري ليبناو وابنة خالته تولا بوكريفكه قد سبّوا صديق الشخص موضوع المناقشة قائلين له كوهين؟

ماتيرن: آه يا سنوات الكلاب التي تعض بعضها ذيل بعض! في البدء كانت الذئبة الليتوانية. تم تهجينها مع كلب رعاة. ومن هذا المزيج الوسخ جاء كلب ذكر لم يرد اسمه في أي شجرة سلالة. وهذا الكلب الذي لم يحمل اسما ولد بركون وبركون ولد سنتا...

جوقة المتناقشين: وسنتا أنجبت هاراس...

ماتيرن: وهاراس ولد برينتس الذي يدعى حاليا بلوتو ويعيش في كنفي ويطعم من رزقي. آه يا سنوات الكلاب ذات النباح المبحوح. ذاك الذي حرس طاحونة الطحان وكان حارسا لورشة نجارة وكان يتمسح بحذاء من تسمونه مشيد الأوتوستراد الألماني، قد جاء في آخر المطاف إلي أنا، المعادي للفاشية. هل تفهمون هذا الرمز؟ هل وصلت حساباتكم لسنوات الكلاب الملعونة إلى آخرها؟ هل حصلتم على ما تريدون؟ هل ما يزال لديكم ما تقولونه؟ هل يستطيع ماتيرن أن يذهب مع كلبه ليشرب كأسا من البيرة؟

مدير المناقشة: عندما تؤدي هذه النتيجة الجزئية الهامة المعجلة بنهاية المناقشة المفتوحة الحيوية إلى زهو الشخص موضوع المناقشة بنفسه، فإننا لا نكون عندئذ قد حصلنا على ما نريد. ما زالت هناك الأشياء غير الواضحة. فلنتذكر. (يشير إلى السبورة) لقد قتل الشخص موضوع المناقشة عدة حيوانات...

متناقش: لقد سمم كلبا...

مدير المناقشة: وادعى مع ذلك...

متناقش: ... أنه يحب الحيوانات...

مدير المناقشة: ... أن تكون محبا للحيوانات. لقد عرفنا منذ وقت قصير

أن الشخص موضوع المناقشة الذي يحب أن يصف نفسه بأنه معاد للفاشية ومحب للسامية، كان من ناحية يحمي صديقه إيدي أمزل من مضايقات الأطفال الجهال ومن ناحية أخرى كان يسبه بشكل جارح قائلا له «كوهين». ونحن نسأل:

جوقة المتناقشين: ماتيرن يحب الحيوانات

فهل يحب ماتيرن اليهود أيضا؟

ماتيرن: (بانفعال) أحلف بالله وبالعدم أنه قد حاق باليهود كثير من الظلم.

متناقش: أجب بوضوح وبدون لف أو دوران: هل تحب اليهود كما تحب الحيوانات أم أنك لا تحب اليهود؟

ماتيرن: لقد ظلمنا اليهودَ جميعا.

متناقش: هذا معروف للجميع. فالإحصائيات تتحدث عن نفسها. إن موضوع التعويض والتسوية الذي تناولناه بالمناقشة منذ زمن غير بعيد، ما يزال قيد النقاش منذ سنوات. لكننا نتحدث عن اليوم. هل تحب اليوم أم لا؟

ماتيرن: عند الضرورة أنا على استعداد أن أفدي كل يهودي بحياتي.

متناقش: وماذا يعني الشخص موضوع المناقشة بكلمة "عند الضرورة"؟

ماتيرن: مثلا لقد قام تسعة رجال من فرق الهجوم بضرب صديقي إيدي أمزل في يوم بارد من أيام يناير ولم أستطع معاونته.

متناقش: ما هي أسماء الرجال التسعة؟

ماتيرن: (بصوت شبه مرتفع) وكأن باستطاعة الأسماء أن تحدد الجناة! (بصوت عال) تفضلوا: يوخن زافاتسكي. باول هوبه. فرانتس فولشليغر. فيلي إيغرز. ألفونس بوبليتس. أوتو فرانكه. أيغون دولك وبرونو دولك.

جوقة المتناقشين: (تعد على الأصابع)

لقد عددنا ثمانية فقط

ما اسم التاسع؟

تسعة من شفابن تسعة غرابيب

سيمفونيات تسع

والملوك التسعة المقدسون

رأيناهم يركعون

مدير المناقشة: لقد عد المتناقشون ثمانية أسماء فقط برغم أنه قد قيل لهم إن هناك تسعة. هل لنا، من أجل تجنب المناقشة بالإكراه، أن نفترض أن الشخص موضوع المناقشة كان هو الشخص التاسع؟

ماتيرن: لا! لا! لا يحق لكم ذلك. . .

فالي س.: معنا نظارة المعرفة! (ترتدي النظارة وتقترب من المعبد بعض الشيء.)

تسعة يتسلقون سور الحديقة

ومن بينهم عمي.

تسعة يدهسون ثلج يناير

وعمي معهم فوق الثلج.

وعلى كل وجه خرقة سوداء

وعمي ملثم بينهم

تسع قبضات قصدت وجها واحدا

وكانت ضربات العم قاصمة.

وعندما تعبت القبضات التسع

استمرت قبضة العم في الضرب.

وعندما بُصقت كل الأسنان

خنقت صرخة صوت عمي

وكانت تراتيل العم تتردد

كوهين كوهين كوهين

هرب تسعة رجال من خلف السور

وعمي كان بينهم!

(تخلع فالي س. النظارة وتعود إلى السبورة وتقوم بعمل رسم كروكي لتسعة رجال)

مدير المناقشة: تتبقى لنا الأسئلة التالية:

متناقش: ما هو رقم فرقة الهجوم؟

ماتيرن: (مشدودا) فرقة لانغفور نورد رقم أربعة وثمانين لواء رقم ستة.

متناقش: هل دافع صديقك عن نفسه؟

ماتيرن: في البدء أراد أن يقدم لنا قهوة لكننا لم نرغب.

متناقش: ماذا كان إذن الهدف من زيارتكم؟

ماتيرن: كنا نريد أن نلقنه درسا لا ينساه.

متناقش: لماذا قمتم بتلثيم وجوهكم؟

ماتيرن: لأن هذا كان أسلوبنا: ملثمون يلقنون درسا!

متناقش: بأي طريقة تقومون بتلقين الدرس؟

ماتيرن: ألم يكن ذلك واضحا؟ لقد تلقى ضربا، هذا الكوهين، وسع لي وسع! ضربناه على وجهه.

متناقش: هل فقد صديقك في هذه الأثناء أسنانه؟

ماتيرن: كلها، فقد اثنتين وثلاثين سنّا!

جوقة المناقشة: ليس الرقم بجديد
يظل الرقم وفيا لصاحبه

مدير المناقشة: يتبين أن رقم حظ ورقم نحس الشخص موضوع المناقشة يتطابق مع عدد أسنان صديقه إيدي أمزل والتي تهشمت على يد التسعة الملثمين من فرق الهجوم ومن بينهم الشخص موضوع المناقشة والرقم هو اثنان وثلاثون. ومن هنا يتبين لنا أنه بخلاف النقطة الأساسية «كلب رعاة أسود» هناك نقطة أساسية أخرى يمكن لنا من خلالها تأمل موضوع المناقشة فالتر ماتيرن بحيوية ألا وهي الرقم «اثنان وثلاثون» (تدون فالي س. بخط واضح) وهكذا تثبت المناقشة المفتوحة الحيوية جدارتها التامة من جديد.

متناقش: بماذا ننعت الشخص موضوع المناقشة في النهاية؟

مدير المناقشة: بماذا ينعت الشخص موضوع المناقشة نفسه؟

ماتيرن: ثرثروا وتعالموا وافعلوا ما تريدون! أنا ماتيرن وكنت وما زلت معاديا صريحا للفاشية. لقد أثبت ذلك اثنتين وثلاثين مرة وما زلت أفعل...

مدير المناقشة: نحن نرى إذن في موضوع المناقشة فالتر ماتيرن شخصا معاديا للفاشية يقوم بإطعام كلب الرعاة بلوتو الذي خلفه هتلر، والذي كان يدعى في الماضي برينتس. لذلك دعونا بعد أن توصلنا إلى نتيجة المناقشة أن نقوم بالحمد

والثناء والصلاة: (يقف المتناقشون ويعقدون أذرعهم) أيها الموجه والخالق للمناقشة العالمية الحيوية الدائمة الذي أتاح لنا وجود شخص محب للمناقشة ونتيجة عامة للمناقشة، اسمح لنا بشكرك وحمدك، بأن نمجد كلب الرعاة الألماني اثنتين وثلاثين مرة. ها هو:

جوقة المتناقشين: ممدود القامة بشعر أسود خشن وأذنين واقفتين وذيل طويل.

متناقشان: ينظر بعينين داكنتين مائلتين قليلا.

متناقش: تقف الأذنان معتدلتين وتميلان للأمام ميلا خفيفا.

جوقة المتناقشين: عنق ممشوق، بدون لغد أو تهدل لجلد الحنجرة.

متناقشان: يفوق طول الجذع ارتفاع الكتفين بمقدار ستة سنتمترات.

متناقشات: وأينما نظرت إليه تجد سيقانه معتدلة.

جوقة المتناقشين: الأصابع تنغلق جيدا وكفله الطويل المنحدر بخفة. وباطن القدم صلب وقوي.

متناقشين: الأكتاف والأفخاذ ومفاصل القفز

متناقشة: قوية وبعضلات جيدة.

جوقة المتناقشين: وكل شعرة منفردة: مستقيمة وثابتة وخشنة وسوداء.

خمس متناقشات: وجلد الفراء: أسود.

متناقشان: ليس كلون الذئاب الغامق على أساس أصفر أو رمادي.

متناقش: لا، بل يلمع شعره أسود على كل جسمه حتى الأذنين المائلتين للأمام قليلا وعلى الصدر الغائر المضلع وبطول الأفخاذ.

ثلاثة متناقشين: سواد المظلات، سواد السبورة، سواد القساوسة، سواد الأرامل...

خمسة متناقشين: سواد فرق الحماية، سواد الفلانخ الأسباني الفاشي، سواد الشحرور، سواد عطيل، سواد منطقة الرور...

جوقة المتناقشين: سواد البنفسج، سواد الطماطم، سواد الليمون، سواد الدقيق، سواد الحليب، سواد الثلج...

مدير المناقشة: آمين! (تنتهي المناقشة).

ماتيرنياده الهروب رقم مائة وواحدة

يقرأ ماتيرن في مقصف الإذاعة هذه الصيغة النهائية للمناقشة المفتوحة. لكن بعد خمس وعشرين دقيقة- بينما لم ينته المتناقشون من ترديد صلاة الختام، يدعى ماتيرن إلى غرفة التسجيل رقم ٤ - لكنه يغادر مع بلوتو عبر الباب الزجاجي مبنى الإذاعة الجديد. لا يريد أن يتكلم. لا يرغب لسانه في ذلك. يقول إن ماتيرن ليس موضوعا يمكن مناقشته على الملأ. لقد صنع هؤلاء الجواسيس والمتذاكون له بناء محكما من خلال إسهاماتهم في النقاش وهو لا يريد أن يسكنه أبدا ولا حتى لمدة الإرسال الإذاعي، لكن هناك أجرا كبيرا سيحصل عليه نظير مساهمته بصوته المحبوب في برامج الأطفال. يستطيع أن يقدم هذه الورقة المهورة بالتوقيع للخزينة: قبل مغادرته مبنى الإذاعة بكولونيا يحصل أوراق البنكنوت الجديدة.

في البدء عندما كان ماتيرن في طريقه لرحلات الانتقام، كانت محطة كولونيا الرئيسية وكاتدرائيتها مكانا يفصح له بالكثير. الآن ومعه المكافأة الأخيرة في جيبه ولديه رغبة في السفر، يتخلى عن مثلث الإذاعة-الكاتدرائية-المحطة المشحون. يخترقه ويهرب.

ويقدم أسبابا كثيرة للهروب: أولا المناقشة الحيوية المقززة، ثانيا لقد سئم الدولة الألمانية الغربية الرأسمالية العسكرية المنتقمة والمليئة بقدامى النازيين وبدأت جمهورية ألمانيا الديمقراطية الواقعة شرق نهر الإلبه، البناءة المحبة للسلام والتي تكاد تنعدم فيها الطبقات، تجتذبه وثالثا لقد ضجر من إنغه زافاتسكي وأصبحت رغبتها في الطلاق من يوخن زافاتسكي دافعا لهروبه.

وداعا أيها النابان القوطيان بالحمام الذي يجد رزقه في ساحتكما، الوداع يا بهو المحطة بتيارك الهوائي الشديد. يبقى بعض الوقت لشرب كوب من البيرة في صالة انتظار محطة كولونيا المقدسة. وقت محدود جدا لتفريغ المثانة للمرة الأخيرة في مرحاض المحطة الرجالي الكاثوليكي المبلط الدافئ ذي الرائحة الحلوة اللاذعة. لا لا! لا مجال للمشاعر المفرطة. فلتذهب الأسماء المنقوشة على ميناء المباول الأبيض والتي تجعل قلبه يقفز وطحاله يتورم وكليتيه تتألمان، إلى الشيطان وكل مرادفاته الفلسفية. يريد النمط الظاهري أن يُستبدل بآخر. الشخص ذو الأرواح السبع يريد أن يغير فراشه. يريد مدير الإرث أن يتخلى عن مسؤوليته. سينتقل

ماتيرن الذي طاف المعسكر الغربي ليحاكم بكلبه الأسود، يريد أن ينتقل إلى معسكر السلام دون كلب، لأنه يترك بلوتو الشهير ببرينتس لدى مكتب إرسالية المسيحية بالمحطة. أية إرسالية يا ترى؟ هناك إرساليتان تتنافسان، لكن الإرسالية البروتستانتية أكثر عطفا على الحيوان من الكاثوليكية. مع الوقت صار لماتيرن معرفة بالأديان والمعتقدات: «من فضلك، هل من الممكن أن أترك الكلب عندكم لمدة نصف ساعة. أنا مصاب حرب. هذه هي بطاقتي، أنا ذاهب لقضاء بعض الأعمال ولا أستطيع أخذ الكلب معي لأسباب وظيفية. جزاؤكم عند الرب. ممكن أن أحصل على شيء من القهوة بالحليب؟ عندما أعود، طبعا طبعا، يسعدني ذلك جدا. كن مهذبا يا بلوتو. لن أتأخر أكثر من نصف ساعة.»

مفترق الطرق. يتنفس الصعداء متعجلا. تحترق السفن أفكارا وكلمات وأعمالا. ينفض التراب عن نفسه أثناء السير: رصيف رقم أربعة. القطار العابر للمناطق، عبر دوسلدورف، دويسبورغ، إسن، دورتموند، بيليفلد، هانوفر، هلمشتات، ماغدبورغ إلى محطة برلين تسولوغيشر-غارتن وهناك يقف قطار متأهب للانطلاق إلى محطة برلين -شرق. رجاء إغلاق الأبواب وتوخي الحذر عند انطلاق القطار!

آه يا أيها اليقين المدخن للغليون! في الوقت الذي قد يلعق فيه بلوتو الحليب في إرسالية المحطة، يسافر ماتيرن بدون كلب في قطار الدرجة الثانية. يسير القطار مباشرة ودون توقف إلى دوسلدورف. ينظر بعينين مسالمتين ويحاول أن يبدو غريبا عن المكان، فقد يصعد إلى القطار بعض من أصدقائه الرياضيين أو الرماة أو أحد أفراد عائلة زافاتسكي ويرغمونه على النزول، لمجرد تواجدهم في القطار. لكن ماتيرن يبقى جالسا ولا يخفي وجهه المميز عن الأعين. الجلوس مع مسافري القطارات العابرة للمناطق في الديوان نفسه ليس بالأمر المريح جدا. كثير من محبي السلام في القطار، لقد استطاع أن يعرف ذلك بسرعة، لا يريد أحد منهم أن يبقى في الغرب،رغم أنه يبدو أكثر جاذبية من...

فالجميع لديهم أقارب هناك. هناك تعني دائما المكان الذي لا يتواجد به المرء. «لقد كان هناك حتى آخر مايو ثم انتقل إلى الجانب الآخر. الباقون هناك يعرفون السبب. ويعرفون كل ما يجب على المرء أن يتركه هناك. لكن هنا تجد صلصة طماطم إيطالية وعندنا هناك قد تجد أحيانا صلصة طماطم بلغارية.» كانت

تلك محادثة دامت حتى بعد دويسبورغ: من سقف الحلق ناعمة متشكية وحذرة. الوحيدة التي تفكر في الأمر بعمق هي تلك الجدة من هناك: «عندنا هناك لم توجد دوبارة بنية لمدة طويلة. عندئذ قال زوج ابنتي ذلك: إذن فلتأخذوا منه ما يغطي حاجتكم، فنحن لا نعرف متى تستطيعون العودة إلى هنا مرة ثانية. لم أستطع في البداية أن أعود نفسي على الحياة هنا. زحام كثير. والإعلانات. . .، لكن عندما رأيت الأسعار. . .لقد طلبوا مني أن أبقى هنا: جدتي ابقي معنا لكنني أقول لهم، لن أكون سوى عبء عليكم وعندنا هناك ربما تتحسن الأحوال تدريجيا. الشباب يستطيعون تكييف أوضاعهم بصورة أفضل. عندما جئت إلى هنا في المرة الفائتة، قلت لهم على الفور: لقد طاب لكم العيش هنا، عندئذ قال زوج ابنتي الثانية طبعا يا جدتي. الحياة هناك لم تكن حياة. لكن كليهما لا يعتقدان في إعادة توحيد البلاد. لقد قال مدير ابنتي الذي نزح من هناك قبل أربع سنوات فقط: الروس والأمريكان على وفاق في المبدأ. لكن الجميع يقولون غير ذلك،سواء هنا أو عندنا، وكل عام في وقت أعياد الميلاد أقول في العيد القادم وفي كل خريف عندما أحضر البرقوق من الحديقة وأطبخه، أسأل أختي ليسبت، ما إذا كنا سنأكل هذا البرقوق في عيد الميلاد القادم ونحن كلنا مجتمعين في سلام؟ هذه المرة جلبت معي إلى هنا برطمانين من البرقوق المحفوظ. لقد فرحوا به وقالوا: الطعم البيتي القديم نفسه. رغم أن عندهم هنا كل شيء ويأكلون الأناناس كل يوم أحد.»

تخترق هذه الموسيقى أذن ماتيرن بينما يدور فيلم بالخارج: مناطق صناعية بعمالة كاملة في قلعة الاقتصاد الحر. بدون تعليق، فالمداخن تتحدث عن نفسها. من يرغب، يستطيع أن يعدها. ليس من بينها مدخنة واحدة من الورق المقوى. كلها باسقة ومتجهة إلى السماء. نشيد أنشاد العمل. محمولا حيويا جادا، حيث يصعب العبث بالأفران العالية. الأجور القانونية تنتظر الاستئناف. الأطراف المحددة لتعريفة الأجور تقف بعضها أما بعض، عينا لعين. الفحم والكيمياء، الحديد والصلب، الراين والرور- لا تنظر من النافذة وإلا رأيت أشباحا! تبدأ هذه المتعة البصرية عند مناجم الفحم وتتزايد على الأرض المستوية. في ديوان المدخنين بالقطار تستمر الموسيقى المتشكية الصادرة من سقف الحلق: «يقول زوج ابنتي هناك إن. . . وتقول ابنتي التي تسكن هنا إن. . .»، بينما تظهر في الخارج – لا تنظر

عبر النافذة! - فزاعات الطيور، أولا في حدائق الخضروات الصغيرة ثم بعد ذلك وسط حقول الحبوب، معلنة انتفاضتها. الحركة - حيوية الأشباح - حركة الفزاعات. الفزاعات تجري، بينما يسير القطار العابر للمناطق دون تأخير. لا يعني ذلك أن الفزاعات تسبقه. لم تقم الفزاعات بقفزات شبحية غير حذرة أمام القطار. إنها تداوم فقط على الجري. وبينما تقول الجدة في ديوان المدخنين بالقطار: «لم أرد أن أنتقل إلى هنا دون أختي، حتى لو قالت لي عشرات المرات: اذهبي إلى هناك، نحن لا نعرف إلى متى سيكون مسموحا لنا بالمغادرة»، تنزع الفزاعات في الخارج - لا تنظر عبر الشباك! - نفسها من أماكنها المغروسة فيها. تغادر شماعات الملابس المخصصة لغرض ما أحواض الخس وزراعات القمح التي تصل إلى حد الركبة. تبدأ عيدان الفاصوليا المغطاة بملابس شتوية في العدو وقفز الحواجز. وما كان يبارك لتوه عيدان التوت الشوكي بأكمام طويلة ويقول آمين، يبدأ في العدو. لكن ذلك ليس هربا بل سباق تتابع. ولا يعني ذلك أنها جميعا تريد النزوح شرقا إلى معسكر السلام، بل إنها تقوم بالأحرى بتسليم رسالة أو كلمة سر معينة بعضها لبعض، حيث إن الفزاعات تتخلى عن جذورها في حدائق الخضروات وتسلم العصا التي يوجد بداخلها النص الرهيب ملفوفا إلى فزاعات أخرى كانت حتى ذاك الحين تقوم بحراسة الحنطة النابتة. وحيث إن فزاعات حدائق الخضروات تلتقط الآن أنفاسها وسط أعواد الحنطة تنطلق فزاعات الحنطة محاذية للقطار وتصل منقطعة الأنفاس إلى فزاعات تقف مستعدة للانطلاق وسط عيدان الشعير الناضجة، وتقوم فزاعات الشعير ذات الأطراف المصنوعة من عيدان الفاصوليا بملابسها ذات الكاروهات العريضة بتخفيف العبء عن فزاعات الحنطة وتحمل الرسالة الشبحية وتجاري القطار المنتظم في مواعيده في السرعة، إلى أن تتسلم منها الرسالة فزاعات حنطة أخرى ترتدي أقمشة مضلعة وتكمل سباق التتابع.

فزاعة اثنتان ست فزاعات - لأن فرق الفزاعات تتصارع من أجل الفوز - تحمل ستة خطابات ملفوفة، أصل وخمس صور، أو هل تحتوي ست صيغ مختلفة على المعنى الخبيث نفسه والرسالة نفسها؟ إلى أي عنوان توجه هذه الرسائل؟ لكن العداء تساتوبك، لا يحل محل العداء نورمي[٢٤]. لا تسمح أية أردية رياضية بأية

---

(٢٤) عداء فنلندي (١٨٩٧-١٩٧٣) حقق الكثير من الأرقام القياسية العالمية وحصل على ٩ ميداليات ذهبية.

نتائج نهائية: يتقدم فريق فيرستن بالزي الأبيض في أزرق، لكن فريق أصدقاء الرياضة باونترات يلحق به، ويسبق فريق أولاد ديرندورف، ويتبارون كتفا بكتف مع فريق لوهاوزن ۰۷ . . . .يتم قطع مسافات السباق في ملابس مدنية وبأزياء على كل موضة: تحت قبعات من الفيلور وقلنسوات النوم وخوذات من كل نوع ترفرف أردية الحوذية والمعاطف البروسية والسجادات المقروضة، من قرضها يا ترى؟ تتخذ أرجل السراويل، التي تصب في الأحذية المطاطية البالية والأحذية ذات الرباط والأحذية العسكرية وصنادل الرهبان، خطوات واسعة. يحل معطف دفيل محل زي فارس من الهوصار. معاطف جوخ لكل الأجواء تسلم لمعاطف بأكمام طويلة. حرير صناعي يسلم لموسيلين. نسيج أحمر قرمزي يسلم لخيوط صناعية. بوبيلين يسلم لقماش مضلع. قماش نانكين وقماش بيكي يوفدون الديباج والشيفون. القلنسوات الهولندية والمعاطف الثقيلة تبقى في المؤخرة. يمر معطف ألستر ثقيل عابرا بعباءة بيتية وزي من طراز الإمبراطورية الفرنسية الثانية مملوءين بالهواء. تسلم أزياء على طراز الديركتوار وطراز عصر الإصلاح تسلم لأزياء القرن العشرين والملابس الفرانكونية القديم. يعرض غنسبورو حقيقي بالتعاون مع الأمير بوكلر-موسكو للطريقة الكلاسيكية لتسليم عصا السباق. يتقدم بلزاك من جديد. تثبت المناديات بحقوق المرأة جدارتهن. ثم تتقدم تنورة أميرة الموكب السباق لوقت طويل. يا لها من ألوان فاقعة ومتكسرة: تغييرات كثيرة درجات من ألوان الباستيل وغنى لوني! يا لها من نقوش: زهور صغيرة منثورة وخطوط رقيقة. يا لها من طرز تحل بعضها محل بعض: يفسح الكلاسي الحديث مجالا للعملي، والطراز الحربي إلى الطراز اليومي البسيط. يسقط الوسط لأسفل من جديد. يؤدي اختراع ماكينة الخياطة إلى دمقرطة الأزياء النسائية. ذهبت أيام تنورات الكرينولين. لكن هانس ماكارت يفتح كل الصحارات ويعطي للقطيفة بأنواعها والخيوط المنسلة حريتها. انظروا كيف تجري: لا تنظر من النافذة وإلا رأيت أشباحا! في هذه الأثناء تدور في ديوان المدخنين بالقطار قصة بلا نهاية- تحكي الجدة عن هنا وهناك، حتى تسلم أراضي منطقة وستفاليا عصا السباق بخفة فزاعة إلى مطلع آراضي سكسونيا السفلى، حتى تصل العصا من هنا إلى هناك، لأن الفزاعات لا تعترف بالحدود. تسافر رسالة الفزاعات مع ماتيرن إلى معسكر السلام، تنفض عنها الغبار وتخلف وراءها الحنطة الرأسمالية.

ستتلقاها فزاعات ذات وعي طبقي وسط الشوفان الشعبي. تعبر الرسالة من هناك إلى هناك دون رقابة أو تصريح. لن يتم تفتيش الفزاعات، لكن ماتيرن سيتم تفتيشه، وكذلك الجدة التي كانت هناك وتعود الآن إلى هناك.

يريد ماتيرن أن يستنشق الهواء. لكم هي مختلفة رائحة السجق هنا في معسكر السلام الاشتراكي! فلتذهب رائحة الكاري الرأسمالية إلى الجحيم! يقفز قلب ماتيرن فوق أسوار حديدية: نقطة الحدود مارينبورن! كم يبدو الناس رائعين هنا، حتى الثكنات والشرطية وسلال الورود وقصاري البصاق. ويا للأعلام والشعارات المشبعة باللون الأحمر. أخيرا تنتصر الاشتراكية بعد كل هذه السنين التي قضاها بصحبة كلب أسود. يريد ماتيرن أن يخبر الآخرين، بمجرد تحرك القطار، بفرحة قلبه الحمراء. ولكن مع بداية حديثه وثنائه على السلام في المعسكر الشرقي، يخلو ديوان المدخنين بهدوء من الركاب الذين يسحبون معهم أمتعتهم. يقولون أن الدخان كثيف، وبالتأكيد هناك مكان في ديوان غير المدخنين. لا تؤاخذنا، رحلة سعيدة. يتركه كل المسافرين الذين يريدون السفر إلى أوشرسليين أو هالبرشتادت أو ماغدبورغ. يقع ماتيرن الوحيد أسيرا لإيقاع قضبان السكة الحديد: شبح شبح، شبح شبح.

ما تزال الفزاعات في طريقها محملة بالرسالة. لكنها الآن ترتدي ملابس اللصوص وملابس سبارتكوس. تسلم الفزاعات المضربة عصا السباق بعضها لبعض. تشتم الفزاعات الثورية المتطرفة رائحة الدم. حتى وسط الغابات المختلطة يدعي ماتيرن رؤيته لبروليتاريا ثائرة. تلفظ الغابات فزاعات ترتدي معاطف شتوية. الجداول ليست عائقا. تقفز طائرة فوق الأسوار. طويلة السيقان تعدو فوق الأرض المتموجة. تختفي وتعاود الظهور. ترتدي قباقيب وقبعات فريجية وبدون جوارب. فزاعات عبر الحقول. فزاعات الغابات والمروج. فزاعات ثورة الفلاحين: بوندشو وكونراد المسكين، المتشردون وعمال التعدين والإصلاحيون الدينيون، الراهب الصغير بفايفر وهبلر وغاير وفورة ألشتيت ومانسفلد وأيكسفلد وبالتزار وبارتل وكرومف وفيلتن، كلهم تجاه فرانكنهاوزن التي تشكل فيها قوس قزح من خرق وهلاهيل، من لازمات متكررة ودوافع للقتل... ينظر ماتيرن إلى الناحية الأخرى من القطار، لكنه يفزع حينما يرى خلف زجاج النافذة الأخرى الفزاعات نفسها التي لا تعرف سوى اتجاه واحد.

النزول من القطار! يريد النزول في كل محطة لا يقف فيها القطار. ينمو الشك داخله. كل قطار يسير إلى غير هدفه. هل سيتقبلني معسكر السلام بود حقيقي، عندما تهدأ أخيرا أنفاس هذا القطار الذي تجر درجتاه الأولى والثانية أمنياتي؟ يراجع ماتيرن تذكرته: كل شيء سليم. كل ما يحدث بالخارج ويراه عبر النافذة، يحدث مجانا. لماذا يفكر في شيء سيئ عندما يرى بعض الفزاعات تجري؟ إنها تجري على كل حال وسط سهول ماغدبورغ الشعبية الغنية ببنجر السكر وليس وسط صحراء نيفادا الرأسمالية. إضافة إلى أنها كانت موجودة دائما. لم يكن هو أول ولا آخر من صنعها من الملابس وأسلاك الورود. لكن هذه الفزاعات - نظرة عبر النافذة - يمكن أن تكون من صنعه. هذا هو أسلوبه. منتجاته. أيدي إيدي الماهرة!

يهرب ماتيرن وأين له أن يهرب في قطار متحرك تكشف نوافذه المغلقة يمينا ويسارا كل شيء؟ الحمام هو المهرب الوحيد. بإمكانه أن يتبرز وبذا يكون هناك دافع لهروبه. اهدأ! تصرف وكأنك في بيتك، إخلع عنك كل المخاوف، لأن لحمامات كل القطارات سواء السريعة منها أو البطيئة ألواح زجاج بيضاء كالحليب. تطرد النوافذ البيضاء كالحليب الأشباح. يا له من مكان هادئ وديع. الحمام مقدس وتقريبا كاثوليكي مثل مرحاض المحطة بكولونيا والذي كان يضمه ويأويه عندما كان يبحث عن مكان هادئ. هنا أيضا توجد شخبطات على الطلاء المتلف. المعتاد: أشعار واعترافات واقتراحات. أسماء لا يعرفها، فلا قلبه ولا طحاله ولا كليته اهتزت عندما حاول أن يفسر ما نقشته بضعة أقلام منفردة. لكن عندما يقفز ذاك الرسم الذي بحجم الكف إلى عينيه - رسم للكلب بركون سنتا هاراس برينتس بلوتو يقفز سور حديقة -، يدخل حينئذ داكنا إلى أغوار قلبه ويعكر طحاله القرمزي ويجري سواده في كليتيه. الآن يعاود ماتيرن الهروب، هذه المرة من الكلب المرسوم بدقة.

أين يمكن لك إذن أن تهرب في داخل قطار عابر للمناطق بعد أن غادرت الملجأ الوحيد الذي يحميك بزجاجه الأبيض كالحليب من عرض الأشباح؟ في البدء يريد أن ينزل في ماغدبورغ، لكنه يبقى للهدف الذي تشير إليه تذكرته ويرجو من نهر الإلبه أن ينقذه. يقف نهر الإلبه بالعرض. نهر الإلبه هو الحد الطبيعي لمعسكر السلام. ستحبط كل الأشباح المفزعة للطيور وكل هذه الكائنات

المتحركة خارج القطار عند الضفة الغربية لنهر الإلبه وستصدر صرختها أو عويلها تجاه السماء، بينما يفر القطار عابرا جسر نهر الإلبه الذي لم يتم الانتهاء من إصلاحه بعد.

ولكن أثناء تأمل ماتيرن والقطار نصف الخاوي للخلاص من الفزاعات خلف جسر نهر الإلبه، يخرج من بين أعواد بوص النهر على الناحية الشرقية شر أعظم: لا تهرع رسل الفزاعات المعتادة، التي تشبه الرسل التي تجري بين ماراثون وأثينا، وحدها، بل يمضي أيضا كلب أسود، ما تزال فروته مبللة بماء الإلبه، في اتجاه وحيد لا يحيد عنه: إنه يتبع القطار العابر للمناطق! يتسابق كتفا لكتف مع القطار الذي يمرّ سريعا في معسكر السلام. يسبق الكلب القطار المتأخر قليلا عن موعده، حيث يتوجب على القطار ألا يسرع كثيرا، نظرا لهشاشة القضبان في معسكر السلام. ثم يعاود الكلب الرجوع لكي يشبع ماتيرن من رؤية هذا السواد.

لو كنت تركت الكلب بلوتو لدى الكاثوليك وليس لدى الإرسالية المنافسة المحبة للحيوان! لو كنت أعطيته السم المجرب وضربته بعصا لفقد هذا الكلب شبه الأعمى رغبته في الصيد والقفز. هكذا إذن يصغر كلب رعاة أسود ما بين غنتين وبراندنبورغ سنوات كلاب عديدة. تبتلعه التموجات الأرضية وتقذفه الطرق الضيقة. تقسمه أسوار الحدائق إلى ستة عشر جزءا. حركات جميلة متساوية أثناء الجري. يلمس الأرض بنعومة. الساقان الخلفيتان القويتان، لا أحد يقفز هكذا سواه. هذا الخط من أعلى الظهر إلى الكفل المنسدل بتساو. ثماني- أربع وعشرون- اثنتان وثلاثون ساقا. يتقدم بلوتو ويصبح في مقدمة حقل الفزاعات. تصنع شمس المساء خيال الظل. يتجه الجيش الثاني عشر نحو بيليتس. غروب الآلهة. بنية النهاية. لو كانت هناك كاميرا: اقطع اقطع! صور الأشباح عن قرب! صور الكلب عن قرب! لكن تصوير المعسكر الشرقي من القطار المتحرك ممنوع. تبقى مجموعة فينك المتنكرة في صورة جيش فزاعات مع كلب اسمه بركون سنتا هاراس برينتس بلوتو، بدون تصوير، على علو فالتر ماتيرن نفسه الذي يصر بأسنانه خلف الزجاج: امش يا كلب! Go ahead dog! انصرف يا Kyon!

لكن الكلب والفزاعات لا تختفي إلا بعد الجزيرة، وقبل بوتسدام في منطقة

البحيرات التي يغمرها الظلام الدامس. يبقى ماتيرن ملتصقا بكرسيه البلاستيكي في الدرجة الثانية ويثبت نظره على الصورة المؤطرة أمامه: تظهر في الصورة المربعة منطقة جبال الإلب الرسوبية، التجوال في سويسرا السكسونية. تغيير جيد، بخاصة وأنه لا يرى الفزاعات ولا بلوتو تتيه بين الجبال. أحذية تجوال جيدة وقوية بنعل مزدوج وجوارب صوفية غير مرقعة. حقيبة ظهر وخريطة للتجوال. قد تكون هناك أحجار غرانيت ونايس وكوارتز. تراسل برونيس في الماضي مع عالم جيولوجي في بيرنا وتبادل معه أحجار النايس اللامعة وأحجار الغرانيت اللامع. إضافة إلى أن هناك كثير من أحجار الإلب الرسوبية. تريد الذهاب إلى هناك. هناك ستجد راحتك. هناك لن يلحق بك أي شيء من الخلف. لم تذهب قط إلى هناك، لا بكلب أو بدون كلب. على المرء أن يذهب إلى الأماكن التي لم يزرها قط، مثلا إلى فورشتاين ثم تصعد طريق كنوتن مارا بطريق تسيغنروك باتجاه بانوراما بولينتس وهي هضبة صخرية بدون إفريز تتيح إطلالة رائعة على وادي بولينتس: هناك يقودك وادي أمزل إلى منخفض أمزل وهوكشتاين. ثم ترتاح في قصر وادي أمزل الصغير. أنا غريب هنا. ماتيرن؟ لم أسمع عنه من قبل. لماذا يسمى وادي أمزل وادي أمزل ومنخفض أمزل منخفض أمزل؟ هذه التسميات ليست لها أية علاقة بصديقك الذي له الاسم نفسه. إضافة إلى أن هناك هوة أمزل وصخرة أمزل. ماضيك لا يهمنا. لدينا هموم اشتراكية أخرى. إننا نشارك في إعادة بناء مدينة درسدن الجميلة، سنبني قصر تسفينغر القديم بأحجار الإلب الرسوبية. إننا ننتج أجزاء الواجهات لمعسكر السلام في المحاجر المملوكة للشعب. لا أحد يصر بأسنانه عندنا ولا أنت أيضا. لذلك قدم لنا بطاقتك وتصريحك. تجنب مدينة برلين الغربية المواجهة. ابق في القطار حتى محطة شرق برلين، ثم زر بعد ذلك منطقة جبال الإلب الرسوبية البناءة. فلتظل جالسا داخل القطار في هدوء عندما يقف القطار في محطة المحرضين على الحرب الانتقاميين. اصبر حتى تستقبلك محطة شارع فريدريش بالترحاب. لا تنزل في محطة برلين-تسو، أعوذ بالله!

لكن قبل أن يتوقف القطار في محطة برلين-تسو، يتذكر ماتيرن أنه ما يزال يحتفظ بباقي مبلغ المكافأة الضخم. يريد لا محالة تغييره إلى المارك الشرقي بسعر الصرف الرأسمالي الغربي المربح ١ : ٤. إضافة إلى أنه يريد شراء ماكينة حلاقة

وأمواس وجوربين وقميص ليبدل فيهم: من يدري ما إذا كانت لديهم هناك في معسكر السلام أكثر الأشياء الضرورية.

ينزل من القطار بهذه الأمنيات المتواضعة. ويهبط معه آخرون، ولديهم بالتأكيد أمنيات أكبر. يحيي أفراد العائلات بعضهم بعضا دون أن يراعوا أحاسيس ماتيرن الذي لا تنتظره أية عائلة هنا. هكذا يفكر ماتيرن بمرارة. لكن هناك من ينتظر ماتيرن. هناك من يستقبله قافزا عليه بساقيه الأماميتين ويلعقه بلسان طويل. فرح بنهنهة. هل لا تعرفني؟ ألم تعد تحبني؟ هل كان علي أن أنتظر لدى غرسالية المحطة البائسة حتى أقضي نحبي؟ ألا يحق لي أن أظل وفيا مثل كلب؟

بلى بلى! حسن يا بلوتو! لقد عاد إليك سيدك مرة أخرى. فلتدعني أتأملك. هو وليس هو. كلب ذكر أسود يرد عندما تناديه بلوتو، لكن قواطعه تبدو سليمة بدون فجوات. اختفت العلامات الرمادية أعلى الظهر. لم يعد هناك عمش بالعينين. لا تعدو سن هذا الكلب ثماني سنوات. استعاد شبابه وتجدد. الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو رخصة الكلب. ضاع الكلب ووجدوه من جديد. وكما يحدث في المحطات، تقدم إليه الشخص الأمين الذي عثر على الكلب: «من فضلك، هل هذا كلبك؟»

يخلع القبعة عن شعره الممشط بعناية. يبدو مثل عصا رفيعة مصنوعة، لها صوت متحشرج لكنها تمص في عود متوهج: «جاء إلي الكلب وأصر على أن يجرني معه إلى المحطة، ثم قادني إلى هنا حيث القطارات السريعة.»

هل يريد مكافأة أو يريد أن يتعرف علي؟ ما يزال ممسكا بالقبعة في يده ولا يرحم أحباله الصوتية: «لا أريد أن أكون متطفلا، يسعدني لقاؤك. فلتسمني ما تشاء، هنا في برلين، ينادونني الفم الذهبي، وفي هذا الاسم تلميح إلى حشرجة صوتي الدائمة وطقم الأسنان الذهبية الذي اضطررت إلى ارتدائه.»

يبدأ ماتيرن في تقليب كل حساباته. يحصل قلبه الذي ما يزال أحمر من الالتهاب على رقائق ذهب. يزن كل من طحاله وكليتيه دنانير من الذهب: «يا لها من مفاجأة، نتلاقى في المحطة، لا أعرف الآن هل أندهش لحصولي من جديد على بلوتو الذي ضاع مني في كولونيا أم على هذا اللقاء، هذا اللقاء الهام.»

«لدي أيضا الشعور نفسه!»- «أليس لدينا معارف مشتركة؟»- «هل تعني. . .؟»- «طبعا. آل زافاتسكي»، «سيندهشون لو!» - «إذن أنا أتكلم مع

ماتيرن أم هل أنا على خطأ؟» - «بشحمه ولحمه. لا بد أن نشرب نخب هذا اللقاء.» - «أنا موافق» - «إلى أي محل نذهب؟» - «كما تشاء» - «أنا غريب هنا» - «إذن فلنبدأ ببعض المشروبات بحانة بارفوس» - «أنا موافق على ما تقوله، لكنني أريد أن أشتري قميصا كغيار وماكينة حلاقة، فلم آخذ معي أية استعدادات للرحلة. ابق بجانبي يا بلوتو، انظر كم سعيد هو الكلب.»

الماتيرنياده الثانية بعد المائة المقاومة للحريق

ها أنت ترى راقص الرب مع إكسسواره الوحيد. يطوح وينقل عصاه المصنوعة من الخشب الأسود ذات المقبض العاجي بين خطواته الرقيقة الخفيفة. معروف في كل محطات القطار وفي هذه المحطة أيضا، الجميع يحيونه: «مرحبا أيها الفم الذهبي! هل عدت من السفر؟ ما أخبار الغرام؟»

ويدخن دائما وبسرعة سجائر ماركة «نافي كات». وأثناء شراء ماتيرن لماكينة الحلاقة المصيرية ومعها موسين من أحد محلات المحطة التي تظل مفتوحة لوقت متأخر، يدخن الآخر بلا توقف، وحينما تفرغ علبة الثقاب، يشعل سيجارته من الشرطي المكلف بالحراسة: «مساء الخير يا حضرة الجاويش!» يقوم الشرطي بأداء التحية للمدخن المتجول.

والجميع يغمزون للفم الذهبي ملمحين، حسبما يظن ماتيرن، إليه وإلى الكلب الذي استعاد شبابه:

بين الاخوة، تفاهم، عظيم أيها الفم الذهبي! لقد اصطدت إذن طيرا نقيا.

بمناسبة الطيور! أثناء ذهاب ماتيرن لشراء زوجين من الجوارب وقميص كغيار، يحيط بالشخص الذي تعرف عليه حديثا خمسة أو ستة صبية. وماذا يفعلون؟ يقفون بين شبابيك تذاكر المترو السريع ونافذة العرض الخلفية لمكتبة هاينه، ويتراقصون حوله وحول عصاه الخشبية التي تعطي الإيقاع، يقرقعون ويهزجون بالمؤثرات الصوتية، يلتفتون بستراتهم إلى اليسار ويظهرون حواشيها ويشبهون بذلك أفراد عائلة فزاعات الطيور التي عقدت سباق التتابع على جانبي القطار العابر للمناطق وكأنها كانت تريد أن توصل خبرا أو رسالة أو كلمة سر قبل وصول القطار إلى محطة برلين- حديقة الحيوان: «إنه في الطريق! إنه قادم! ها هو جاء وعليه أن يشتري ماكينة حلاقة وجوارب وقميص كغيار.»

لكن الصبية يختفون بمجرد أن يعود ماتيرن بالكلب الذي استعاد شبابه ولفافة المشتروات إلى الفم الذهبي: «هل نذهب إذن؟»

المكان ليس بعيدا. وهو غير موجود في وقتنا الحالي، لكنه يقع أثناء عبور الثلاثي لشارع هاردنبرغ أمام سينما نشرات الأخبار التي تقع الآن في مكان آخر. لا يدخلون متجر بيلكا، بل يعبرون أثناء إشارة المشاة شارع يواخيمستالر، ثم يمشون بضع خطوات في شارع كانط وخلف محل الأدوات الرياضية «كوخ التزلج» يضيء الاسم بالنيون فوق علامة الحانات البيرلينية: آنا هلينا بارفوس التي تقوم في وقتنا الحالي بجلي الأكواب في أحد بارات السماء، بينما تجلس أثناء اقتراب الثلاثي من المحل خلف خزينة أرضية. في الماضي كان رواد هذه الحانة من الحوذية، بينما يرتادها الآن رجال شرطة المرور بعد انتهائهم من وردياتهم وكذلك أساتذة كلية الفنون بميدان شتاين وأزواج المحبين الذين ينتظرون حتى بداية عرض السينما. أحيانا يجيء أناس يسعون إلى تغيير وظائفهم. يقفون حينئذ على البار ويبدلون بين الكأس والكأس الساق التي يقفون عليها. وعلاوة على ذلك، هناك عجوز ثرثارة تجلس دائما مرتدية القبعة نفسها وتتناول وجبة ساخنة على حساب آنا هيلينا في مقابل أن تقص عليها وقائع عروض مسرح الفولكسبونه من عرض آداموف الأخير إلى آخر تصفيق ناله عرض إلزا فاغنر، حيث إنه ليس لدى السيدة بارفوس أي وقت لزيارة المسرح، فخزينتها لا تتوقف عن الرنين.

عندما يطلب الفم الذهبي «ليمون ساخن من فضلك» لا يثير ذلك دهشة أي شخص سوى ماتيرن: «ربما بسبب حلقك، واضح أنك أصبت ببرد شديد. من المرجح أنه التهاب بسبب التدخين. إنك تدخن بشراهة.»

ينصت الفم الذهبي بانتباه لصوت ماتيرن ويربط بين ذلك ورشف الليمون الساخن بماصة. لكن الاستماع لماتيرن ورشف الليمون عبارة عن فعلين، والفعل الثالث هو التدخين، يدخن سيجارة عقب الأخرى ويشعل السيجارة الجديدة من الثلث الأخير للسيجارة التي تسبقها ويلقي بعقب السيجارة المشتعل وراءه: وتعطي بارفوس المستغرقة في حكايا المسرح للنادل إشارة برمشها لكي يطفئ عقب السيجارة بقدمه، بعد أن دفع السيدان ثمن كأسين من البيرة وليمونا ساخنا وثلاث قطع من الكفتة. كلٌّ دفع حساب مشروباته، ماتيرن دفع لنفسه وللكلب. لكن ماتيرن والفم الذهبي وبلوتو الذي اكتسبه سيده من جديد لن يسيروا مسافة

طويلة: يمشون بطول شارع يواخيمستالر ويعبرون فوق خطوط المرور البيضاء شارع كودام ويدخلون عند ناصية شارع أوغسبورغ محل «الزنجي الأبيض». هناك يتناولون التالي: ماتيرن يشرب كأسين من البيرة وكأسين من عرقي الحبوب ويشرب الفم الذهبي ليمونا ساخنا يرشفه حتى قاع الكوب المسكر ويحصل الكلب على قطعة من سجق الدم الطازج من صنع المحل. في المجمل يدهس النادل أربعة أعقاب سجائر مشتعلة من خلف المدخن. هذه المرة لا يبقيان عند البار بل يقفان عند مائدة لشرب البيرة وقوفا. يقفان في مواجهة بعضهما ويعد ماتيرن ما يلقيه الفم الذهبي خلفه مصحوبا بالدخان ويدهسه النادل: «لا تدخن بهذه الشراهة ما دام صوتك متحشرجا بهذا الشكل.»

لكن المدخن الذي سبق تحذيره عدة مرات يرى أن التدخين المستمر ليس هو المتسبب في حشرجة صوته المزمنة. يرجع السبب في هذه الحشرجة إلى الوقت الذي لم يكن فيه مدخنا وكان ما يزال رياضيا، شخص ما هو الذي تسبب في تخشين أحباله الصوتية: «إنك تذكر بالتأكيد، كان ذلك في بداية يناير.»

ورغم أن ماتيرن يهز باقي البيرة في كأسه محاولا التذكر، لا يستطيع أن يتذكر شيئا: «ما الذي ينبغي أن أتذكره؟ هل تريد أن تخادعني؟ فلنترك المزاح جانبا؟ يجب أن تكف فعلا عن التدخين المستمر، فهذا سيدمر صوتك. أيها النادل، الحساب. أين نذهب الآن؟»

في هذه المرة يدفع الفم الذهبي كل الحساب، بما في ذلك سجق الدم الطازج لبلوتو. بالتأكيد لا يحتاجان إلى فرد سيقانهما والتمشية من جديد. خطوتين في شارع أوغسبورغ. تحايا متبادلة وسط هواء مايو الذي يجاهد من أجل البقاء لطيفا رغم أبخرة الكاري المنبعثة من مطاعم الوجبات السريعة. سيدات وحيدات يسعدن برؤية الفم الذهبي دون أن يثقلن عليه. والشيء نفسه يتكرر في «حانة باول» التي يجلسان فيها على مقاعد البار لأن الكنبة الدائرية المحيطة بمائدة الزبائن المستديرة مشغولة: كثير من مقاولي النقل مع رفيقاتهم وحكايا طويلة لا يقطعها الاستقبال الحافل «للفم الذهبي» إلا لفترة وجيزة حيث يذهبون لمداعبة الكلب. «كلبي هاسو أتم سنواته العشر»، ثم بفضول وبعض المعرفة بالكلاب: «هذا كلب مدرب، من أين حصلت عليه؟» وكأن ماتيرن ليس هو صاحب الكلب، بل هذا المدخن الذي يترفع عن الإجابة عن كل الأسئلة ويطلب

المشروبات: «يا هانشن! بيرة ماركة توخلس للسيد ولي أنا المشروب المعتاد. وأيضا عرقي الحبوب للسيد. ليس عندكم، إذن دورنكات، لو كان ذلك يناسبك.»

طبعا يناسبني. لكن لا يجب خلط المشروبات. الحذر واجب حتى يظل الرأس صافيا وتظل الأيدي هادئة غير مرتعشة، إذا ما حدثت أية مشاكل، من يدري.

يحصل ماتيرن على مشروباته. يرشف الفم الذهبي بالماصة مشروبه المعتاد. يحصل الكلب بلوتو، الذي استعاده سيده من جديد والذي وصفه أحد مقاولي النقل بأنه كلب مدرب، على بيضة مسلوقة يقشرها له هانشن بنفسه خلف البار. يسمح الجو العائلي للحانة بتبادل الأسئلة والأجوبة والتلميحات التي تحتمل معنيين من مائدة إلى مائدة وبين الموائد والبار. فمثلا يُطرح سؤال من مائدة بها ثلاث نساء يجلسن بجانب الباب عما إذا كان «الفم الذهبي» قد عاد إلى البلاد لأسباب خاصة بالعمل أم لأسباب شخصية. والمائدة التي في خلفيتها صور المصارعين والملاكمين تستعلم عن أحوال أعمال الفم الذهبي ولا يتمكن الاثنان من الحديث في هدوء. يرد ذكر المشاكل مع مصلحة الضرائب. يشكو الفم الذهبي من طول فترات التوريد. يجيء رد من الكنبة الدائرية «وماذا تنتظر من طلبيات التصدير التي تقوم بها؟» يريد هانشن أن يعرف أخبار غراميات الفم الذهبي. وهو سؤال قد طرح من قبل في محطة حديقة الحيوان التي تضج بالحياة، ويجيب عنه الفم الذهبي في كلا الحالتين ملمحا بدخان سيجارته.

ولكن أيضا في هذا المحل الذي يعرف فيه الجميع عادات الفم الذهبي ما عدا ماتيرن الجديد، لا يتوقف المدخن عن إلقاء أعقاب السجائر وراءه، رغم أن ماتيرن يضع أمامه دائما مطفأة السجائر: «لابد أن أقول لك، إن تصرفاتك غريبة! غالبا أن الناس يعرفون أسلوبك. ألا تريد أن تستخدم فلترا؟ أو تحاول أن تستعيض عنها بالعلكة؟ كل هذا مصدره التوتر العصبي. مسألة حشرجة الصوت ليس لي شأن بها. ولكن فلتحاول أن تكف نهائيا عن التدخين لمدة أسبوعين. إن ذلك يقلقني كثيرا.»

يسر الفم الذهبي لسماع ماتيرن وهو يعبر عن قلقه بكلمات كثيرة. لكنه يذكر ماتيرن أيضا أن التدخين ليس سببا في حشرجة صوته المزمنة، إنها ترجع إلى

تاريخ محدد: «في عصر يوم بيناير، منذ سنوات عديدة، من المؤكد أنك تذكر ذلك يا عزيزي ماتيرن. كان هناك جليد كثير متراكم فوق بعضه.»

يرد ماتيرن أن بشهر يناير عادة ما يتراكم جليد كثير، إنها مجرد حجة بلهاء يزود بها الفم الذهبي عن إدمانه للسجائر، لأن هذا القطران الأسود الذي يدخنه هو سبب مرض حلقه وليس برد عادي أصيب به منذ عدة سنوات.

تأتي المشروبات هذه المرة على حساب مقاولي النقل، مما يجعل ماتيرن يرد دعوتهم بسبع كؤوس من عرقي العرعر ويقول: «إننا من البلدة نفسها! من نيكلسفالده وتيغنهوف كانت مركز المنطقة.» لكن رغم شيوع جو لطيف من الألفة في «حانة باول»، لا يبقى الفم الذهبي وماتيرن والكلب فيها وقتا طويلا. برغم أن مائدة النساء الثلاث التي يتبدل جالسوها كثيرا ومائدة مقاولي النقل وهانشن قد ألحوا كثيرا في أن يبقى الثلاثي مدة أطول: «دائما تأتي على عجل، من زمان لم نسمع منك أي حكاية من حكاياتك!»، يصر السيدان على دفع «الحساب!»، مما لا يمنع الفم الذهبي من أن يحكي إحدى حكاياته - ماتيرن يقف مع الكلب عند ستار المدخل.

«احك لنا عن الباليه الذي كنت تخرجه!»

«أو عن أيام الاحتلال عندما كنت ضابطا مختصا بالثقافة »

«أو حتى حكاية السوس.»

لكن مزاج الفم الذهبي يذهب في اتجاه آخر. مواجها للمائدة المستديرة، يمر ملامسا مائدة النساء الثلاث وآخذا هانشن في اعتباره، ويقول كلاما بصوت متحشرج، يبدأ مقاولو النقل في شحنه مطأطئين رؤوسهم، كلام ثقيل ثقيل.

«سأحكي حكاية قصيرة جدا، بمناسبة هذا الجمع السعيد. كان يا ما كان، كان هناك صبيّان. أهدى أحدهم للآخر على سبيل الصداقة مطواة جيب جميلة. فعل الصبي الذي تلقى الهدية بالمطواة أشياء كثيرة. وذات مرة قام بشق ذراعه وذراع الصديق الذي أهداه المطواة بالمطواة نفسها وهكذا أصبحا أخوين بالدم. ولكن عندما أراد الصبي الذي أهديت له المطواة أن يلقي يوما بحجر في النهر ولم يجد، ألقى بالمطواة في النهر، وهكذا ضاعت المطواة للأبد.»

هذه الحكاية جعلت ماتيرن يغرق في أفكاره. الآن هم ثانية في الطريق إلى حانة أخرى: يمشون بطول شارع أوغسبورغ عابرين شارع نورنبرغ. وبينما يريد

المدخن أن يتجه يمينا إلى شارع رانكه ليزور شخصا يسميه هو الأمير ألكسندر، يلاحظ الكآبة التي حلت بماتيرن ويتركه يقوم بتمشية مع الكلب الذي استعاده مؤخرا: يمشي بطول شارع فوغر ويعبر ميدان نولندورف ثم يسير على الناحية اليسرى لشارع بولوف. يمكن للمرء أن يدخن في الشارع أيضا.

ماتيرن: «قل لي، حكاية المطواة هذه ليست غريبة علي.»

يجيب الفم الذهبي: «لا عجب يا صديقي، فهذه القصة موجودة في كتب قصص الأطفال. الجميع يعرفونها، حتى رجال المائدة المستديرة في حانة باول أومأوا برؤوسهم عند المواضع الصحيحة لأنهم يعرفون الحكاية.»

يخمن ماتيرن شيئا أكثر من ذلك ويبحث عن معنى ومضمون الحكاية: «وما هو المضمون الرمزي للحكاية؟»

«يا أخي! إنها حكاية عادية! أي رمز في ذلك، صبيّان ومطواة جيب ونهر. إنها أقصوصة يمكنك أن تجدها في أي كتاب مطالعة ألماني. أقصوصة أخلاقية، يسهل الاحتفاظ بها في الذاكرة.»

ورغم أن القصة أصبحت أقل إزعاجا لماتيرن بعد أن سماها أمثولة، لكنه يعارض من جديد: «إنك تبالغ في الحديث عن جودة كتب المطالعة الألمانية. فليس فيها على كل حال سوى هراء الماضي. ليس هناك من يوعي الشباب عن الماضي بشكل سليم! لا شيء سوى الأكاذيب.»

يضحك الفم الذهبي والسيجارة في فمه: «يا صديقي العزيز الطيب، حتى قصص كتاب المطالعة التي أحكيها عبارة عن أكاذيب رغم أخلاقيتها وسهولة تذكرها. اسمع مثلا ما تقوله نهاية الحكاية: ألقى الصبي بالمطواة في النهر وضاعت للأبد - لكن انظر ما معي؟ ما قولك؟ تأملها جيدا. طبعا لقد فقدت لمعانها مع السنين. ما قولك؟»

وكأنه قد تحصل عليها من الهواء ترقد مطواة جيب صدئة في كف الفم الذهبي. ينحني عمود الإنارة الذي يقف تحته ماتيرن والكلب والفم الذهبي على المطواة التي لها ثلاث شفرات ومبرام ومنشار وشوكة.

«وأنت تقصد أن هذه المطواة هي المطواة نفسها التي ترد في قصتك؟»

ممسكا بعصاه القادرة على صنع الأعاجيب الفنية في كل وقت، يقر الفم الذهبي كل شيء بسعادة: «مطواة كتاب مطالعتي الكاذب! أرجوك باسم كل

شيء في العالم ألا تصدر حكما متعجلا على الكتاب المدرسي الألماني. إنه ليس بهذا السوء. كان عليهم أن يحذفوا معظم المفارقات الساخرة حتى لا يجرحوا الحس الطفولي بقسوة الحقيقة التي لا تحتمل. لكن رائحة كتب المطالعة الألمانية جيدة وهي أخلاقية وتنطبع في الذاكرة.»

وما كادت «صومعة بولوف» أن تأخذهم بالأحضان وما كاد الفم الذهبي يعيد المطواة التي عثر عليها من جديد إلى غرفة إكسسواراته وما كادت التخيلات المتعجلة تشهد الثلاثي على البار ثم جالسين بالصالون الأخضر وما كادت «صومعة بولوف» تمسك بتلابيبهم، حتى تطلقهم قرب الفجر - حيث لا يوجد محل بالمنطقة المحيطة بكنيسة الحواريين يمكنه أن يمد زبائنه بطعام أفضل من ذاك الذي يقدم بالصومعة - حتى غمرت المدخن رغبة في فعل الإحسان.

أثناء عبورهم لشارع كو-دام لكي ينعطفوا يمينا واقعين في أسر شارع بوتسدام، يعبر الفم الذهبي عن رغبته في العطاء-المنح- الإهداء: «انتبه لما أقول يا صديقي العزيز. هذه الليلة الخالية تقريبا من الغيوم والتي أغدق عليها القمر بكثير من ضوئه، تجعلني راغبا في العطاء: خذ يا صديقي! صحيح أننا لم نعد صبية بعد، وأن شق الأذرع بهذه الشفرات الصدئة كعهد أخوة بالدم يعد الآن شيئا خطرا، لكن خذها مع ذلك. أقولها لك من أعماق قلبي.»

في آخر الليل حيث أنعم شهر مايو على كل المقابر وحديقة الحيوان وحديقة كلايست بزهره، يحصل ماتيرن بعد أن استعاد الكلب الذي عاد شابا، على مطواة جيب ثقيلة، وكما تبين له، عصية على الفتح. يعرب له عن عظيم شكره ولكنه لا يستطيع أن يقدم له شيئا في المقابل سوى أن يعبر له عن قلقه بشأن حلق الفم الذهبي المتحشرج: «لا أطلب منك شيئا مستحيلا ولكن افعل ذلك من أجلي، فلتستغن عن كل ثالث سيجارة، صحيح أنني لا أعرفك إلا منذ عدة ساعات ولكن رغم ذلك. قد أبدو لك سخيفا وفضوليا، لكنني قلق بشأنك.»

وماذا يفيد ذلك عندما يعاود المدخن إرجاع سبب حشرجة صوته إلى شهر يناير البارد الذي تحول صقيعه إلى جو ذوبان للجليد. وماتيرن يعاود القول إنها السجائر التي يقول عنها الفم الذهبي إنها غير مضرة وإنها ضرورية لحياته: «ليس اليوم يا صديقي! لكن معرفتك تشجعني. غدا، غدا سنكون أكثر زهدا. لذلك دعنا نعود، إني أقر بأن حلقي يحتاج الآن إلى ليمون ساخن. هناك في هذا المبنى

الخشبي يوجد مقهى مؤقت، وهو في الوقت نفسه مكان سيسعد باستقبالنا مع الكلب. ستحصل على بيرتك والعرقي الذي تريده وسأحصل أنا على المشروب المعتاد، وسيحصل بلوتو الطيب على الكفتة أو سجق الدم أو البيض المسلوق أو اللحم - فالعالم غني جدا بالخيرات!»

يا لها من كواليس! في الخلفية يقف قصر الرياضة مهددا وهو عبارة عن شونة دُرس قمحها. وفي الأمام محلات للحرف المختلفة وتتخللها فتحات في المبنى. أحد هذه المحلات مخصص للتخفيضات والثاني يبيع اللحم المشوي والسجق المحمر إضافة إلى رائحة سجق الكاري الخالدة. وهنا تشتري النساء في النهار خيوط شغل الإبرة والمحل الرابع يبيع ورق اليانصيب. والمحل السابع المصنوع من أجزاء ثكنة خشبية يدعى «لدى جيني» ويفترض أن يكون المكان الجديد الذي يجلس فيه الثلاثي.

لكن قبل أن يقفلوا عائدين إلى المحل، يصيغ ماتيرن سؤالا، يريد أن يتشكل في هواء مايو: «قل لي، هذه المطواة- التي أمتلكها الآن- من أين جئت بها؟ لا أستطيع أن أتصور أنها المطواة نفسها التي ألقاها ذاك الصبي، أعني في القصة، في النهر.»

وبمجرد أن يعلق المدخن مقبض عصاه العاجي في مقبض الباب ليفتحه - هكذا فعل مع كل أبواب الحانات الأخرى، تريد جيني صاحبة مقهى «عند جيني» أن ترحب بالزبائن الجدد - إنها تعرف القادمين وتبدأ بعصر الليمون - حينئذ تخرج أحبال الفم الذهبي الصوتية كلمات توضيحية: «هل من الممكن أن تتبعني يا صديقي العزيز. تحدثنا عن مطواة الجيب. كل مطواة تكون جديدة في البداية، ثم يتم استخدامها، إما للغرض المخصص لها أو تستخدم لغرض آخر كثقالة للخطابات مثلا أو حينما لا توجد أحجار للقذف، تقذف بدلا من الحجر. كل مطواة جيب تضيع يوما ما. تُسرق، تُنسى، تُصادر أو تُرمى. والآن نجد أن نصف مطاوي هذا العالم عبارة عن مطاوٍ تم العثور عليها. وهذه المطاوي تنقسم إلى مطاوٍ عُثر عليها بسهولة، ومطاوٍ متميزة، وهذه التي وجدتها أنا لكي أسلمها لك أنت صاحبها الأصلي، تنتمي للفئة الأخيرة. أم أنك تريد أن تدعي هنا على ناصية شارعي بالاس وبوتسدام، هنا أمام قصر الرياضة التاريخي والحديث، وقبل أن يبتلعنا المقهى، أنك لم تمتلك واحدة من قبل، أو أنك لم تفقد واحدة أو أنك لم

تنس أو لم تقذف بواحدة وأخيرا أنك أيضا لم تعثر لتوك على واحدة من جديد؟- ومع ذلك فقد عانيت من أجل ترتيب هذا الاحتفال بالعثور على المطواة من جديد. في حكاية كتاب المطالعة قيل إن المطواة غرقت في النهر وضاعت للأبد، لكن كلمة «للأبد» هذه كذبة، لأن هناك أسماك تبتلع مطاوي الجيب وينتهي بها الأمر على مائدة المطبخ. هناك أيضا حفارات عادية تخرج كل ما في جوف النهر وتخرج معها مطاوي الجيب. إضافة إلى أن هناك ما يسمى بالصدفة، لكنها لا تلعب دورا هنا. لن تصدقني لو حكيت لك كم من السنوات كلفني بحثي عن المطواة، سنوات طوال، ناهيك عن التكاليف والطلبات والالتماسات، بل إنني لم أتورع عن رشوة مسؤولين كبار بمصلحة تنظيم السدود وحصلت أخيرا نتيجة لرضوخ السلطات البولندية على رخصة للحفر عند مصب الفايكسل، لأن المطواة قد ألقيت كما تعلم في نهر الفايكسل، واستخرجها حفار، خصصته لي الإدارة المركزية بوارسو، من المكان الذي أُلقيت فيه في شهر مارس أو أبريل من عام ١٩٢٦، بين قريتي نيكلسفالده وشيفنهورست، لكن السد كان أقرب إلى نيكلسفالده. يا له من اكتشاف دامغ! رغم أنني قد حفرت لسنوات طوال عند الساحل الجنوبي للسويد وفي خليج بوثنيا، وأمرت بتقليب منطقة الفيضانات بشبه جزيرة هيلا على حسابي وتحت إشرافي. نستطيع إذن لكي ننهي موضوع الشيء المكتشف أن نقول ولدينا أسبابنا: إنه لمن العبث إلقاء مطاوي الجيب في النهر. كل نهر يرد مطاوي الجيب من جديد وبلا شروط! وبالمثل أيضا فإنه من العبث القول بغرق كنز النيبلونغن في النهر، لأنه لو كان هناك شخص جاد يهتم بكنوز هذا الشعب المضطرب المخبوءة مثل اهتمامي أنا بمطواة الجيب، لظهرت كنوز النيبلونغن المخبوءة وبعكس صاحب المطواة الذي ما يزال على قيد الحياة، كانت الكنوز ستسلم إلى المتحف الوطني. الآن تحدثنا كثيرا ما بين الباب ومفصله. لا تشكرني من فضلك! لكن استمع لنصيحتي: اعتن بملكك الجديد جيدا. لا تلقه مثلما فعلت ذات مرة في الفايكسل. أو اليوم في نهر الشبريه، رغم أن الشبريه يعيد المطاوي المقذوفة دون أدنى مقاومة وليس كذلك الفايكسل الذي نشأت أنت على ضفافه. يمكن للمرء أن يعرف ذلك من لكنتك.»

وثانية يقف ماتيرن وكلبه عند قدمه على البار ويمسك بيده اليمنى كأس البيرة وبيده اليمنى عرقي الحبوب. وأثناء استغراق ماتيرن في محادثة نفسه: من

أين له أن يعرف. . .من أين، يدور بين الفم الذهبي وصاحبة المحل الخالي فيما عداهم من الزبائن مشهد تلاقي، تفصح فيه الألقاب المتداولة مثل «حبيبة قلبي جيني، جيني يا سلواي، وحبيبتي جيني» أن هذه الإنسانة النحيلة الواقفة خلف البار تعني للفم الذهبي شيئا أكبر مما يمكن لجدران هذا المكان أن تستوعبه. وأثناء عصر هذا المخلوق الذابل لنصف الليمونة، يتأكد ماتيرن أنها أيضا جيني الفضية أيضا وأنها كذلك ملكة الثلج: «لكننا فيما عدا ذلك لا نريد أن نسميها أنغوستري، لأن اسمها الحقيقي يصيبها باكتئاب ويجعلها تفكر في بيداندنجيرو، إن كنت قد سمعت بهذ الاسم من قبل.»

يرفض ماتيرن، الذي ما يزال داخله يعج بالشجار بشأن مطواة الجيب، أن يثقل مقدرته على التذكر بأسماء غجرية لا يمكن نطقها وأن يقيم خاتما فضيا رقيقا ترتديه جيني. فجيني التي كثر الثناء والإطراء عليها، لا تعد بالنسبة له سوى فتاة من فتيات حانات الرقص الرخيصة اللائي أكل عليهن الدهر وشرب، وتلك ملاحظة ثاقبة، حيث إن أثاث الحانة يؤكد ذلك: ففي حين زينت صور الملاكمين والمصارعين ذوي الأنوف المفلطحة حانة باول، زينت جيني حانتها بأحذية قديمة ومستهلكة لفريق الباليه: تتأرجح الأحذية من السقف المنخفض بألوان وردية أو فضية باهتة أو بيضاء بلون البجع. وطبعا هناك أيضا صور لهذه الراقصة أو تلك. يشير الفم الذهبي بإصبع العليم بالأمور إلى أوضاع الأتيتيود والأرابيسك: «على اليسار بأسفل ترقص ديغه. شاعرية جدا في رقصها! وهناك سيفا كولر وسكوريك وماريا فريس في أول أدوارها الكبرى كدولسينا. وهناك بجانب لوكليرك التعيس ترقص صديقتنا جيني أنغوستري مع زميلها مارسيل، وحينما لعبت جيني دور ابنة البستان، كانوا ينادونه فينشل.»

إذن فهي حانة للفنانين. يمر الناس بعد العروض على حانة «عند جيني»، ويقابلون حينما يسعدهم الحظ بريدوف الصغير أو راينهولم أو الأخوات فيسكو أو كلاويسشن غايتل أو مصور الباليه راما الذي قام بعمل الرتوش لمعظم الصور المعلقة هنا، بحيث لا يكون تقلص عضلات الرقبة ملحوظا في الصور، ولا بد أن يبدو فرد مشط القدم في أحسن صورة.

ياه كم من من اللحظات الجميلة والطموحة رقصتها هذه الأحذية المطرزة بالدانتيل! الآن تنضح الحانة، رغم صنبور البيرة والعرقي ماركة مامبه وعرقي

العرعر ماركة شتوبه، برائحة الطباشير والعرق وملابس الباليه الحامضة. إضافة إلى وجه الماعز التعيسة الواقفة خلف البار والتي يدعي الفم الذهبي أنها تصنع أفضل وأحسن ليمون ساخن. الآن يقول المدخن ولعا، إنه يشعر بعد الرشفات الأولى بتحسن في حلقه، يتذكر صوته أغاني موتسارت الأوبرالية - حيث كان يغني وهو صبي في كورال الكنيسة - يحتاج فقط إلى بضع كؤوس من الليمون الساخن من يدي جيني ثم يكون بإمكانه أن يوقظ الملاك بداخله ويجعله يغرد.

وبالرغم من أن ماتيرن كله آذان صاغية ومستعدة للاستماع لبعض النغمات الناعمة نسبيا والصادرة من حلق الفم الذهبي، لكنه لا يجد مفرا من التعبير عن قلقه بشأن الفم الذهبي: «قد يكون صحيحا أن الليمون الساخن هنا أفضل من أي مكان آخر، وليكن طعمه مميزا أيضا. ولكن هذا يعد مبررا أقوى لأن تتمسك بعصير الليمون وتكف عن هذا التدخين الشره الذي يبدو لي وكأنه نوع من السخرية.»

وما كادا يدخلان في الموضوع القديم: «لا تدخن كثيرا وإلا دخنت كثيرا!» حتى يفتح المدخن بأظافره علبة سجائر «نافي كات» جديدة ولا يقدم منها شيئا لا لماتيرن ولا لصاحبة المحل، مفضلا نفسه عليهما، ومستغنيا عن أعواد الثقاب، يشعل السيجارة من بقايا السيجارة القديمة، ويلقي بالعقب المتوهج وراء ظهره، يتطاير من فوق كتفه ويسقط على أرض الحانة، هناك يجوز له أن يستمر في التوهج أو ينطفئ أو يجد ما يتغذى عليه - من يدري؟

هذه المرة لا يوجد نادل يقف وراء ظهر الفم الذهبي ويدهس بكعب حذائه الإخراجات المتوهجة لضيف خاص، هكذا ينعت الفم الذهبي أعقاب السجائر التي يلقيها وراءه: «تلك الأعقاب يا صديقي العزيز تعتبر تبرزي الوجودي. ليس لدي شيء ضد الكلمة وضد العملية الضرورية. نفايات نفايات! ألسنا...؟ أو لن نصير إلى...؟ ألا نعيش من...؟ انظر من فضلك إلى كأس الليمون الساخن تلك، ولكن أرجوك بدون تقزز. سنبوح لك بسر. السر المميز لهذا الكوب العادي من الليمون ليس حبات الليمون المنتقاة ولا الماء المميز بل: يخلط في الكوب ما مقداره طرف نصل سكين من أحجار الميكا المأخوذة من الغرانيت والنايس - انتبه من فضلك لهذه السمكات الفضية اللامعة في الكوب! ثم بعد ذلك - سأبوح لك بوصفة غجرية - ثلاث قطرات من المستخلص الثمين اللذيذ

الذي تحتفظ لي به العزيزة جيني دائما، هذا المستخلص الذي يجعل من مشروبي المفضل شيئا سحريا يسري في الحلق كالبلسم. إنك تدرك ما أعني. إنني أرى الكلمة القبيحة والعظيمة في ذات الوقت على لسانك، إنك تخمن أن مستخلص السائل نفسه موجود في بيرتك، وتريد أن تتلافى الاشمئزاز في زوايتي فمك وأن تصرخ: بول! بول! بول امرأة!- لكنني قد اعتدت أنا وجيني على أن يظن بنا الآخرون أننا ندير مطبخا للساحرات الشريرات، لا عليك، لقد سامحناك - أليس كذلك يا جيني! وها نحن نملأ الأنخاب من جديد وليس للمرة الأخيرة في ظل هذا الوئام تحت سماء أحذية الباليه التي أصابها الإعياء: بإمكان ضيفي أن يحصل على البيرة وعرقي القمح وبإمكان الكلب أن يسعد بقطع الكفتة، لكنني أنا الذي يدخن، لكي يدرك العالم بأسره بأنني ما أزال على قيد الحياة، أنا من تحشرج صوته فجأة أثناء ذوبان الجليد في عصر يوم من أيام يناير، أنا الذي يستطيع دائما العثور على أية مطواة جيب، أنا الذي يعرف قصص كتب المطالعة مثل تلك عن إوزة العماد المحترقة وتلك التي تحكي عن ثعابين الماء الشاربة للحليب وكذلك تلك عن الفرسان الاثني عشر بدون رأس والراهبات الاثنتي عشرة بدون رأس أو تلك الحكاية الأخلاقية عن فزاعات الطيور التي خلقت جميعها على صورة الإنسان، أنا المدخن الشره الباقي على قيد الحياة والذي يلقي وراءه ما كان يعلق بفمه متوهجا: إخراجات! إخراجات! أنا الفم الذهبي الذي تمنى وهو طفل أن تكون له اثنتان وثلاثون سنا ذهبية بدلا من الأسنان المعتادة المملة، أنا المدخن ذا الأسنان الذهبية - لقد ساعدني صديق في الحصول عليها، بأن خلصني من أسناني الطبيعية - أنا الذي تم خلاصه أحب عصير الليمون الساخن الذي يمنحه ما مقداره طرف نصل سكين من مادتي البيوتيت والموسكوفيت لمعة مرآة صغيرة، ويعطيه مستخلص جيني نكهة مميزة، لكي نقرع الأنخاب - أي نخب يا ترى؟ نخب الصداقة ونخب الفايكسل الذي لا يكف عن الجريان، نخب كل الطواحين الساكنة والتي تدور، نخب حذاء أسود لامع ومصقول كان ملكا لابنة عمدة القرية الصغيرة، نخب العصافير، ريفاصع!- نخب حقول القمح الشاسعة وجنود مشاة فريدريش الثاني ملك بروسيا الذي كان يحب أكل الفلفل، نخب زر جندي الدراكون الفرنسي، الذي كان شاهدا على حكاية تحت كنيسة الثالوث المقدس، نخب الضفادع القافزة والعظاءات المرتعشة، نخب لعبة كرة المضرب الجلدية

الألمانية، لا بل نخب ألمانيا كلها، نخب مرق المصير الألماني، كبيبات السحاب الألمانية، نخب البودنغ الأصلي والمشاعر العميقة الباطنة وما إلى ذلك، نخب طائر اللقلق[٢٥] المسمى أديبار الذي يجلب الأطفال إلى العالم، كذلك نخب عزرائيل الذي اخترع الساعة الرملية، ولكن أيضا في صحة حانة أدلر ومنطاد تسيبلين الذي طار فوق ملعب هاينريش إيلرز، في صحة الأسطى النجار وعازف البيانو، في صحة أقراص ملبس السعال، وتلك الفتاة الغرائية الطائشة، في صحة الغرفة المبطنة بالبلوط وماكينة الخياطة «سينغر»، في صحة مطحنة القهوة بالمدينة وكتيبات «ريكلام» المائة التي يسهل طيها، في صحة كتاب هايدغر «الوجود والزمان» وكذلك في صحة عمل فايننغر الرئيسي، إذن في صحة الغناء والفكرة المحضة، في صحة السذاجة والخجل والكرامة، في صحة الخجل من والانفعال بسبب. . . ، في صحة الشرف والمتعة الحسية العميقة، في صحة الرحمة والحب والمزاح، في صحة الإيمان، وشجرة البلوط وموتيفة زيغفريد وآلة الترومبيت وفرقة الهجوم رقم أربعة وثمانين. في صحة تمثال الثلج الذي أطلقني في يوم من أيام يناير لأبقى على قيد الحياة مدخنا. أنا أدخن إذن أنا موجود! في صحتك وصحتي يا فالتر، فلنقرع الأنخاب! إنه أنا يا فالتر في صحتك! إنك تقول إن المكان يحترق، ومع ذلك في صحتك! أترى أن علينا أن نطلب المطافئ، في صحتك دون مطافئ! تريد أن تقول إن إخراجاتي التي تسميها أنت أعقاب سجائر هي التي تسببت في اشتعال هذا الملجأ لأحذية الباليه المرهقَة، الذي تسبه أنت مسميا إياه حانة؟ أرجوك لا تزعج الحريق ودعنا نقرع الأنخاب، حتى أستطيع أن أشرب الليمون الساخن اللذيذ!»

الآن يقرع الصديقان الأنخاب، بينما يتقدم حريق الأرضية ويبدأ في لعق جدران المكان الخشبية. يتلاقى كوب البيرة مع كوب الليمون الساخن ويرنان في طاعة، بينما تبدأ الأحذية المنهكة المعلقة في السقف والمصنوعة من الدانتيل في الرقص مع إزدياد الحرارة: échappé croisé, échappé effacé, assemblé assemblé, petits battements sur le cou-de-pied من يتخيل أن الحريق يستطيع أن يكون معلم باليه رائع بهذا الشكل! لكن المعجزة الحقيقية التي تستحق

(٢٥) قديما كان الآباء يجيبون عن سؤال الأطفال: كيف أتينا إلى العالم؟ بأن يقولوا لهم إن طائر اللقلق قد أتى بهم ووضعهم في مدخنة البيت.

التصفيق يحدثها ليمون جيني الساخن: قطرات جيني وما مقداره طرف نصل سكين من مسحوق الميكا لهما تأثير عجيب: يحكي الفم الذهبي بصوت رزين عال قليلا أو بالأحرى خفيض جدا يعلوه صوت الاحتراق المحرك لرقصة الباليه، قصصا مثيرة من كتاب المطالعة ذات مغزى أو بدون، دون أن يكف رغم المحيط المشتعل عن التدخين. وماتيرن بدوره ليس كسولا ويحكي أفضل ما عنده من حكايات والتي تكمل قصص الفم الذهبي التي لا تخلو من فجوات. كذلك تعرف صاحبة الحانة جيني بعض القصص، وحول هذا الرباعي الذي يتجاذب أطراف الحديث - حيث ينصت الكلب بلوتو للحكايات - تحكي النار قصة تستحوذ على إعجاب باليه الهواء الساخن تحت السقف: يستجيب فريق باليه السقف بحركات Pas de chat دقيقة ولا يريد أن يكف عن تبديل القدمين: pas de bourrée, pas de bourrée! وبينما تستحيل أطراف الصور بأوضاع الأتيتيود والأرابيسك إلى اللون البني، وبينما تصب حكاية الفم الذهبي مدعومة بالماتيرنيادات في حكاية جيني ذات الليمون الساخن، بينما تتلوى الصور وتتقلص، وبينما لا تجد الحكايات نهاية وبينما تقفز أحذية الباليه المتحررة بخطوات منتظمة فوق اللهيب، تبدأ المطافئ في رواية حكايتها بخراطيم الحديقة.

بسرعة! لا بد للفم الذهبي أن يعجل بحكاية فزاعات الطيور وعلى ماتيرن أن يسرع بإنهاء حكايات الكلاب، ومن المستحسن أن تنهي جيني بأسرع ما يمكن أساطير أحجار النايس اللامعة التي يذهب فيها هوصار الغابة والمينغش أي الباليرتمينغر والتسيغانكن لصيد القنافذ وذلك بنهاية احتفالية ووليمة قنافذ، حيث إنه ليس بإمكان الفم الذهبي ولا صاحبة الحانة ولا ماتيرن الذي يتخذ من الكلب أمثولة أن يحكوا أسرع من النار الملتهمة للخشب. سرعان ما أكلت النار صور أوضاع الأرابيسك والأتيتيود الثابتة وسرعان ما يمزج تصميم الرقص المبدع حركة pas assemblé التي تقوم بها جماعة أحذية الدانتيل الراقصة بحركة اللهب الذكورية pas jété. باختصار: اشتعلت ألسنة اللهب الوضاءة في كل الحانة فيما عدا قطعة مهووسة بالحكايا. لذلك تُحكى قصة تدخل فزاعات أثناء معركة لويتن. وبعد ذلك مباشرة يحكي ماتيرن عن تسميمه لكلب رعاة أسود بمساعدة العذراء مريم. وتحكي جيني صاحبة الحانة التي يزيد اللهب جمالها ويجعلها هي الراقصة الذابلة تزهو من جديد، بكلمات لامعة، عن أن المكونات القليلة لشراب

الليمون الساخن تمثل للفم الذهبي إكسير الحياة. يقول الفم الذهبي محمسا نديميه الجالسي، بصحبة الكلب الغافي، على البار وفي فمه دائما سيجارة جديدة «لا تقطعوا خيط الحكاية، احكوا يا أطفال احكوا! فإننا نحيا بحكاية القصص، فما دامت تخطر لنا أفكار بمغزى أو بدون، حكايات الكلاب أو ثعابين الماء أو الفزاعات أو الجرذان أو الفيضان أو وصفات الطعام أو القصص الكاذبة أو حكايات كتاب المطالعة، ما دامت الحكايات قادرة على تسليتنا، فليس بمقدور أي جحيم أن يسلينا. الدور عليك يا فالتر! احك بمقدار حبك لحياتك!»

يختفي الباليه، ومعه التصفيق المهسهس. تلعب ألسنة اللهب بذيول تسع. يلقى خشب الجدران مصيره. تقوم المطافئ بواجبها. كانت النار ستكون مقبضة لو لم يحك ماتيرن قصص يناير الجليدية القارصة: «مثل هذا البرد كان في الشرق أيضا. وعندما كان الجليد يسقط هناك، كان يسقط بحق ولأيام طوال. كان الثلج يغمر كل شيء، أي نعم كل شيء! لذلك كانت تماثيل الثلج دائما في الشرق أكبر منها في الغرب، حتى في الماضي، وعندما كان يسود جو ذوبان الجليد، كان هناك عمل كثير، حتى أجدادي الذين كانوا يحملون اسم ماتيرنا أيضا، كانوا يفضلون . . . عندما يكون البحر متجمدا من جزيرة هيلا وحتى مصب الفايكسل»

ياه! يستطيع ماتيرن تحت الإضاءة المناسبة أن يحكي قصصا من الماضي السحيق. تلتهم النار وجبتها التالية وتبصق عظاما لينة ومسامير متوهجة، تلتهم بنهم محدثة ضجيجا، تمسح البيرة السائلة على الأرض وتفجر صفوف الزجاجات: عرقي العرعر ماركة شتوبه وعرقي القمح وروح التوت والبراندي والعرق الأصلي والشيري والبلاك بيري والجين والكوراتشو الحلو وقهوة الهوصار. . . مشروبات روحية! يا له من تعبير: الجميل يداعب التسامي. تنفجر الروح في الروح الأخرى، بينما يحكي ماتيرن ماتيرنياداته التي ترجع إلى زمن بعيد يقوم بحكاياتها واحدة تلو الأخرى: «الحكاية عن أخوين، وحكاية غيورغ ماتيرنا تبدأ في عام ١٤٨٨، حيث كان، هو القادم من دانتسيغ إلى لندن، وشعر بالإهانة هناك حين غشوه في وزن الملح وعندئذ سال الدم للركب، أي نعم للركب! ثم عاد إلى دانتسيغ وطالب بالعدالة لكنه لم يحصل عليها. وفي الحال أحدث شغبا بميدان أرتوس الذي كان ممنوعا حمل السلاح فيه، لكنه كان يحمل سلاحا وقد

استخدمه، وعليه اعتبروه خارجا عن القانون! لكنه لم يكن كسولا بل بحث عن زملائه الباقين من فلول هذه العصابة التي أشعلت أمام أعين اللحام هانس بريغر حرائق كهذه التي أمامنا وسفكوا دماء كثيرة. ومن بين الأسماء التي انضمت إليه مثلا بوبروفسكي وهيلدبراند بيرفالد. ولكي نختصر ونقول المفيد: في سوبكاو حدث كذا وفي إلبينغ تحقق كذا وكذا ووسط برد يناير صال وجال في أراضي فرسان الصليب الألماني ثم فرغ جسد المستشار مارتين رابنفالد من الهواء، وعبأه بعد ذلك مثل زكيبة بالرصاص حتى كاد ينفجر. ثم تخصص بعد ذلك في إضرام الحرائق، لأن البرودة لم ترد أن تذهب. اشتعلت حدائق لانغ ومعها كنيسة القديسة برباره ومستشفى القديسة برباره. وهدم حارة برايت الجميلة ذات الرسوم اللطيفة وفي النهاية قبض عليه تسانتور حاكم مقاطعة بوزن. كان ذلك في الرابع عشر من سبتمبر، أي نعم! عام ١٥٠٢. لكن من يظن أننا قد وصلنا إلى نهاية الحكاية فقد ضل واحترق، حيث يأتي من بعد ذلك الأخ زيمون ماتيرنا وينتقم لأخيه غريغور ويشعل الحرائق صيفا وشتاء في البيوت ذات الهياكل الخشبية المتكاتفة وشونات الغلال الضخمة. امتلك في ناحية بوتسيغ متجرا للقطران والزفت والكبريت وقام بتشغيل ثلاثمائة فتاة، كان عليهن جميعا أن يكن عذارى وكن يقمن بعمل الفتائل. وكان يدفع للرهبان الدؤوبين في ديري أوليفا وكارتهاوس لكي يصنعوا له مشاعل من الزفت. وبعتاده ذاك أشعل في حارة البقدونس وحارة دريهر نيرانا تصل ألسنتها لباب السماء. وفي هذه النار التي أشعلت لهذا خصيصا لهذا الغرض، يقوم بشواء وتحمير اثني عشر ألف قطعة من سجق الخنزير ومائة وثلاثة خراف وسبعة عشر ثورا - دون حساب الطير، أي إوز الجزيرة والبط الكاشوبي - حتى يطعم فقراء المدينة والمساكين من عمال المشغل ومرضى مستشفى الروح القدس ومن أتوا يعرجون في مشيهم من يونغشتات ومانتبودن، ويترك النار تهسهس وتطقطق بلهيبها الأحمر في بيوت التجار الأثرياء. تشوي النار الحريفة كالفلفل للفقراء شيئا مغذيا للجوعى والمرضى. يا لزيمون ماتيرنا! لو لم يمسكوه لأضرم النار في العالم بأسره ليوفر للمستضعفين في هذا العالم لحما مشويا على الأسياخ، وأنا أتيت من صلب هذا الرجل الذي يعد أول مشعل حرائق ذي وعي طبقي، أي نعم! ستنتصر الاشتراكية، أي نعم!»

من المحتمل أن هذه الصيحة وما تلاها من قهقهات لا تريد أن تنتهي - حيث إن «الفم الذهبي» قد أطلق بعض القصص المضحكة من كتاب المطالعة - قد أضفت على المشهد من الخارج شيئا مفزعا، حيث لا يستولي الفزع فقط على المارة الفضوليين الذين يؤمنون بحكايات الأشباح، بل وعلى رجال مطافئ برلين الغربية، حيث يريد رجال المطافئ، رغم كونهم بروتستانتي المنشأ والتربية، أن يصنعوا علامة الصليب في عجالة. وإزاء موجة الضحكات الجحيمية التالية تختفي فرق المطافئ الأربع. يتمكن الرجال ذوو الخوذات من لـمّ خراطيمهم السمينة في وقت قصير. تترك المطافئ النار تأكل في الأكشاك وتهرب مطلقة سرينتها المعروفة، والغريب أن الحريق لا يريد أن يخرج عن الحانة ويلتهم باقي صف الأكشاك. لم يأتِ حتى ولو حارس ليحرس الحريق المدمر، حيث إن كل أذن قد أدركت أن ضيوفا من الجحيم يتناولون الشراب في قلب النار ويتبادلون الصياح بشعارات مؤيدة للشيوعية، ثم يتبع ذلك ضحكات بهيمية ثم في النهاية صوت من طبقة تينور يغني بصوت يعلو ألسنة اللهب ووهج النار. يدنس غناء لاتيني، كذاك الغناء المعهود في الكنائس الكاثوليكية، شارع بوتسدام من مبنى مجلس الرقابة وحتى شارع بولوف.

لم يستمع قصر الرياضة لمثل هذا الغناء من قبل: ترنيمة كيريليسون Kyrie تطلق شررا. وترنيمة تمجد الرب في الأعالي Gloria in excelsis Deo تعلم ألسنة اللهب الطويلة الأصابع أن تضم أيديها. يؤدي الفم الذهبي هذه الأغاني الأوبرالية باحتراف، ثم يعتقد بصوته اللامع كالميكا والرشيق كالليمون، أثناء انتهاء النار من وجبتها الثالثة وقضمها للحلو، بطفولية شديدة في الله الواحد in unum Deum، وبعد ترنيمة Sanctus ناعمة لتمجيد الرب يأتي التسبيح Osanna الذي يتمكن الفم الذهبي من تقديمه أداء صوتي متعدد. ولا تستطيع عينا ماتيرن اللتان تحملان كل الدخان أن تحبسا الدموع عند غناء الفم الذهبي لترنيمة البركة الفخيمة ببطء Benedictus ويقول له: «فلتوفر علينا ترنيمة حمل الرب Agnus Dei»، لكن الأغنية الجماعية المبهجة تستحوذ بعد ذلك على مشاعر ماتيرن التي كادت تنتقل إلى الكلب بلوتو وجيني صاحبة الحانة، وتلملمها في منديل حريري: يغني الفم الذهبي «دونا نوبيس» Dona nobis لمدة طويلا حتى يعود السامعون الممتنون إلى أنفسهم، وتذهب كل ألسنة اللهب والشرارات لتنام.

ثم يختتم بآمين طويلة متشابكة، يفرشها بطيئة كغطاء سرير فوق الألواح المتفحمة والزجاج المنصهر وبالبه الهواء الساخن الذي تحول مرهقا إلى رماد.

ويغادرون أرض الحريق الميت أيضا متعبين، يعبرون فوق البار الذي لم يمسسه ضر، يمشون بحذر، خطوة خطوة، يتقدمهم الكلب، ويقطعون شارع بوتسدام الخالي الذي لا تحرسه سوى المصابيح. تعرب جيني عن إرهاقها وتريد أن تذهب للبيت. لكن لا بد من دفع الحساب. يتولى الفم الذهبي دفع الحساب. تريد جيني الذهاب إلى المنزل، تقول: «على أي حال، لن يتعرض لي أحد في الطريق» لكن السيدين يصران على حمايتها. يودعانها في شارع مانشتاين أمام محل «لايديكه». تقول جيني، هذه المخلوقة التي ما تزال باقية على قيد الحياة، أمام باب البيت: «إذهبا الآن لتناما أيها المتجولان القديمان، وغدا سيكون لديكما مزيدا من الوقت.»

لكن ليلة المخلوقين الآخرين اللذين يميلان إلى النجاة أكثر من ميلهم إلى البقاء، لم تنته بعد. كذلك ظل المخلوق الخالد يقظا منتعشا على أربع أرجل: «بلوتو ابق عند قدمي!»

حيث إن هناك بقية لا بد من تذوقها. وبينما يدور الحديث من ناحية عن كمية باقية من السجائر، يشعلها الفم الذهبي واحدة تلو الأخرى بطول شارع يورك مرورا بالمكتبة التذكارية، لابد أيضا من الحديث عن بقية أخرى، تعلق بين اثنتين وثلاثين سنة وتسبب تثلمها جميعا.

لكن هذه الموسيقى تأتي على هوى الفم الذهبي، يقول: «كم يروق لي يا عزيزي ماتيرن أن أسمع صرير أسنانك من جديد، مثلما كان الحال أيام زمان مع أمزل.»

لكن ماتيرن لا يريد سماع نفسه. في داخله - حيث إن للصرار داخل - تدور المصارعات، عبر جسر تسوسنر وبطول الميناء الحضري يمسك المصارعين بخناق بعضهم، لا أحد يدري من يريد أن يصرع من! غالبا تبذل عشيرة ماتيرن كلها كل ما بوسعها: كثير من المصارعين الشجعان الذين لا يقهرون، ينتظرون خصوم يليقون بقدراتهم. هل باستطاعة الفم الذهبي المصارعة؟ إنه يعاود الحديث بسخرية ويدخن بسخرية شديدة تلك السجائر التي تتشكك في كل شيء. ما كان واضحا ومسلما به ولا يحتمل معنيين داخل موقد النار، ينهار بعد جسر الأدميرال

من خلال عبارات نشاز متحشرجة تتخللها كلمات مثل لكن ولو. لا شي نقيا. يقلب دائما كل القيم رأسا على عقب، حتى تنزلق البنطلونات إلى الركبة. موضوعه المفضل هو «البروسيون في العموم والألمان على وجه الخصوص.» عبارات مدح وثناء خبيثة لهذا الشعب الذي عانى منه الأمرّين قبل وبعد تمثال الثلج. هذا لا يجوز أيها الفم الذهبي! حتى رغم مايو والربيع، كيف يغرم المرء بقتلته!

لكن حتى حبه لألمانيا يحمل في طياته ريحا من أوراق الغار المتهكمة التي طارت من أكاليل الجنازات الشمعية. مثلا يدلي الفم الذهبي باعترافات عبر قناة لاندفير: «لقد اكتشفت، ولك أن تصدقني أم لا، أنه بين اتش وبيلت وماس وميمل، كي نظل في نطاق النشيد الوطني القديم، يتم إنتاج واستخدام أفضل لون للختامات، لون يدوم ولا ينمحي.»

يعلق المدخن بصوته المتحشرج عبارات في الأجواء المسلحة بالمخالب على ضفاف جدول مايباخ. وتشاركه الحديث سجائره المهلكة التي تنتقل من زاوية الفم إلى الزاوية الأخرى: «لا يا عزيزي ماتيرن، ربما تكون أنت حانقا وساخطا على وطنك الكبير. لكنني على العكس منك أحب الألمان. ياه كم هم غامضون وينعمون بالنسيان الذي يرضي الرب! يطبخون حساء البازلاء على شعلة غاز زرقاء ولا يأبهون بشيء. رغم ذلك لم يُطبخ في أي مكان آخر في العالم مثل هذا المرق البني الثخين الذي يطبخ هنا في البلاد.»

وفيما تتفرع مياه القناة المستقيمة التي تكاد تكون راكدة، وتتجه يسارا إلى الميناء الشرقي حيث تبدأ حدود القطاع السوفياتي على الجهة المقابلة. وعلى اليمين توجد قناة نيوكولن التي تسير بها السفن. وأثناء وقوفهما الآن مع الكلب الوفي أمام هذا الموقع الهام - هناك تقع تربتو: من ذا الذي لا يعرف النصب التذكاري للحرب هناك؟ - يتفوه الفم الذهبي بكلمات تليق بمقام تفريعة القناة لكنها تأتي بما لا تحمد عقباه. يتوجب على ماتيرن أن يسمع الآتي: «طبعا من الممكن القول بأنه يمكن صنع فزاعة طيور من كل إنسان، حيث يتوجب علينا ألا ننسى أبدا أن الفزاعات قد خلقت على صورة الإنسان. لكن من بين كل الشعوب التي تعيش حياتها بوصفها جيوشا من الفزاعات، فإن الألمان هم أفضل من يستطيعون، حتى

أكثر من اليهود، أن يهبوا للعالم يوما ما فزاعة الطيور الأكثر أصالة ولديهم كل الإمكانيات لذلك.»

لا ينبس ماتيرن بكلمة. حتى الطيور التي استيقظت تتظاهر بأنها ما تزال نائمة. يعلو صرير الأسنان المعتاد. يبحث الحذاء في اضطراب على الأسفلت المسطح: ليست هناك حجارة. بماذا أرمي؟ ليس هناك زلاك. هل ألقي مثلا بالقميص والجوارب التي أحتاجها للغيار؟ تركتُ ماكينة الحلاقة في الغرفة المدخنة. إذن علي أن... أو أذهب إلى القطاع الآخر هناك. لقد كان هذا ما أردته، ومع ذلك ما زلت هنا. سوف....

ويلقي بالفعل باليد المغلقة وراء ظهره ويطوح بكل عزمه: يا له من وضع قذف جميل وقوي! يسر الفم الذهبي برؤية الحركة المتزنة ويضطرب بلوتو. يقذف ماتيرن بـ؟ بماذا إذن؟ بالمطواة التي استعادها من جديد. ما أعاده الفايكسل بعد مقاومة، يقذفه ماتيرن في قناة لاندفير في المنطقة التي تتفرع فيها، ولكن بمجرد أن طرطشت المطواة في الماء وبمجرد أن اختفت على ما يبدو للأبد، يقول الفم الذهبي ناصحا ماتيرن بنية حسنة: «لا تقلق يا عزيزي ماتيرن. هذه مهمة تافهة بالنسبة لي. سيتم تجفيف هذا الجزء من القناة للبحث عن المطواة. ليس هناك تيار ماء قوي هنا. بعد أسبوعين فقط ستحصل على مطواتك القديمة - فأنت تعرف أنها جعلتنا أخوين بالدم.»

ياه يا للإغماء الذي يجعل البيض يفقس وينزلق منه الغضب عاريا ومزغبا. يطلق ماتيرن كلمة. يا للغضب البشري الذي يبحث دائما عن كلمات ويجد دائما واحدة في النهاية. يطلق ماتيرن كلمة وحيدة هادفة مصيبة. غضب بشري، لا يكتفي ويتخذ من التكرار وسيلة للتصعيد. يكرر الكلمة عدة مرات. الكلب يقف. والقناة تتفرع. ينسى الفم الذهبي أن يشعل سيجارته من السيجارة التي احترقت عن آخرها. تنزلق اللوازم المتكررة لتصبح دوافع قتل. ماتيرن يصوب ويقول: «كوهين!»

تستيقظ العصافير ولا تغفل من بعد. يا لصباح مايو الجميل اللطيف الذي يوشك أن يبدأ تحت السماء المشطورة! يا لليلة التي مرت ويا للنهار الذي لم يأت بعد. يا لساعات الشفق التي تتردد فيها كلمة «كوهين» ولا تريد أن تسقط مباشرة على الأرض، بل تريد أن تظل عالقة سابحة في الهواء لوهلة أخرى.

يسقط ماتيرن على الأرض. لقد كلف نفسه فوق طاقتها. أشياء كثيرة: أولا رحلة القطار بكل ما فيها، ثم جولة الحانات وتغيير الجو وفرحة اللقاء. لا أحد يستطيع تحمل ذلك. كل توضيح يتعلق فقط بالظروف. كل كلمة زائدة: «افعل بي ما تشاء!»

يلوح الفم الذهبي بعصاه إلى تاكسي: «إلى مطار تمبلهوف. صالة المغادرة من فضلك. هذا السيد والكلب وأنا، كلنا في عجلة من أمرنا. نريد أن نأخذ الطائرة الأولى المتجهة إلى هانوفر. سنقوم بزيارة مصنع مقام تحت الأرض: شركة براوكسل وشركاه، هل تسمع عنها؟»

الماتيرنياده الغائرة الثالثة بعد المائة

من يريد أن يسافر إلى تحت الأرض، لا بد أن يبدأ رحلته عبر الأجواء: أي بركوب خطوط الطيران البريطانية الأوروبية حتى هانوفر-لانغنفلد. وباقي المسافة تقصرها سيارة الشركة فوق أرض مسطحة، مارة بأبقار وأشغال طرق وتتبع تحويلات وتفريعات للطرق الرئيسية عبر أراض ربيعية خضراء وأراض باهتة اللون. من على البعد يبدو الهدف ملتصقا بالأفق: هذا الجبل المخروطي المكون من الرواسب وهذه الصناديق المصنوعة من الطوب الأحمر، أي المعمل وغرفة تغيير الملابس وحجرة المراجل والإدارة والمخزن، وفوق أسقف كل المباني وفوق جبل الرواسب وقلاباته نرى برج الإنتاج الشامخ.

من يريد أن يبني أية كاتدرائيات أخرى، بعد أن صارت هذه الكواليس دعامة للسماء! إنها شركة براوكسل وشركاه التي رغم قيدها لدى اتحاد منتجي البوتاس في هانوفر ومسؤوليتها أمام مصلحة المناجم بالمنطقة، فإنها لم تعد تنتج ولا حتى طنا واحدا من البوتاس ومع ذلك يجرى العمل بها في ثلاث ورديات. يعمل بها كبير مفتشي المنجم ومفتش الوردية ومفتش المنطقة وعمال المناجم وعمال التعدين المرخصون ويصل مجموع عددهم إلى مائة واثنين وثمانين عاملا.

وما دامت خطوط الإنتاج تدور وتنتج، فلن يُدعى الشخص الأول الذي نزل من سيارة الشركة هنا من بعد «الفم الذهبي»، بل سينادونه «سيدي المدير» «السيد براوكسل»، هكذا تحدث إليه كل من السائق والخفير.

والثاني الذي غادر سيارة الشركة لم يكن ماتيرن بل الكلب الأسود الذي شب عن الطوق والذي يناديه كل من برواكسل وماتيرن بلوتو.

وأثناء عبورهم بوابة المصنع الحديدية، يخلع الخفير طاقيته ويحيي المدير براوكسل. وعند ذلك يطرح ماتيرن، الذي لم تسلبه الأحاديث العجيبة والمدهشة في الليلة الماضية ورحلة الطيران عبر الممر الجوي برلين -هانوفر كل دهشته، يطرح السؤال التالي: «كيف يتأتى أن يشبه خفير المصنع أبي الطحان ماتيرن لهذه الدرجة؟»

لكن مدير المنجم السيد براوكسل الذي يقود ضيفه في الحال إلى غرفة تغيير الملابس الخاصة بمفتشي المنجم ويصفر للكلب بلوتو ليبقى بجانبه، وكأنه كلبه، يعرف الإجابة: «الخفير أنطون ماتيرن لا يشبه الطحان أنطون ماتيرن. إنه أبوك الطحان.»

وردا على كلام براوكسل ينطق ماتيرن، الذي يحاول دون جدوى أن يصفر للكلب بلوتو ليبقى بجانبه، بعبارة غير واضحة لكن لها رنين الاستنتاج: «كل أب يصبح في النهاية خفيرا لابنه.»

وعندئذ يضع المشرف على عنبر تغيير الملابس أمام ماتيرن ورقة يتوجب عليه التوقيع عليها، فطبقا لقانون شرطة المناجم يتوجب على غير العاملين بالمنجم الذين يأتون فقط لغرض الزيارة ويهبطون بالمصعد إلى تحت الأرض أن يؤكدوا رغبتهم تلك بهذا التوقيع. يوقع ماتيرن ثم يرشدونه إلى كابينة الحمام، حيث يكون عليه أن يخلع ملابس السفر بجانب الحوض الجاف ويلبس عفريتة فاتحة اللون وجوارب صوفية وحذاء ضخم برباط وشال من الصوف وخوذة مناسبة صفراء اللون وجديدة. يغير ملابسه قطعة قطعة ويسأل عبر الحائط مدير المنجم براوكسل في الكابينة المجاورة عن بلوتو: «أين ذهب بلوتو؟»

ويجيب براوكسل، الذي يتعين عليه أيضا رغم أنه المدير أن يغير ملابسه قطعة قطعة ويرتدي ملابس المهنة، عبر الحائط قائلا: «بلوتو عندي. أين له أن يذهب!»

ويغادر براوكسل وماتيرن غرفة تغيير الملابس ويتبعهما بلوتو. يحمل كلاهما في اليد اليسرى مصباح كاربيد. هذا الضوء مع العفريتة والخوذتين الصفرواتين يمحو الفوارق بين مدير المنجم والزائر. لكن أثناء مرورهما بمبنى الإدارة يخرج

رجل قصير أحدب من بوابة المبنى، ويشير واقي الأكمام الذي يرتديه إلى أنه وكيل الشركة، ويرغم الرجلين على الإبطاء، حيث يطلب الوكيل المزعوم من براوكسل بعض التوقيعات الضرورية. ويسعد الوكيل للتعرف على السيد ماتيرن الابن، ثم يفسح لهما الطريق إلى برج الإنتاج متمنيا للسيدين «كل التوفيق!»

ويعبر السيدان ماتيرن وبراوكسل وثالثهما الكلب فناء الشركة الذي تنقل فيه البلدوزرات وأجهزة الشحن هنا وهناك كميات من الصناديق الخشبية المغلقة بالمسامير. لكن ما يخزن أو يعبأ أو يوضع في الحاويات الكبيرة، ليس بوتاسا.

وعند وصولهما إلى برج الإنتاج وصعود براوكسل أولا على السلم الحديدي متجها إلى المصعد، يسأل ماتيرن: «هل ينبغي على الكلب أيضا أن يذهب معنا إلى أسفل؟» ولا يمزح براوكسل حينما يرد قائلا: «كل كلب يأتي من أسفل وعليه أن يعود في النهاية مرة أخرى إلى أسفل.»

لكن ماتيرن قلق ويقول: «الكلب لم يذهب أبدا إلى تحت الأرض.»

ويرد عليه براوكسل في ثقة: «هذا الكلب ملك للمصنع وعليه أن يتعود.»

لكن ماتيرن لا يستطيع أن يتقبل هذه الخسارة، حيث إنه كان قبل ساعات مالكا للكلب. «إنه كلبي. تعال هنا يا بلوتو!» لكن براوكسل يصفر له ويسبقهم الكلب ويصعد السلم المؤدي إلى سقالة المصعد المعلقة على ارتفاع متوسط من برج الإنتاج. سقالة المصعد معرضة لتيار الهواء. من أسفل تحرك الماكينة بكرات المصعد فوق رؤوسهم. ينتصب الحبلان العلوي والسفلي ويجعلان حركة المصعد محسوسة.

وأثناء إعلان دقات الجرس عن قدوم صندوق المصعد من مكان التعبئة (أربع دقات تعني السير ببطء)، يريد ماتيرن أن يقترح شيئا قبل فوات الأوان: «ماذا لو تركنا بلوتو هنا على السقالة، من يدري ما إذا كان سيتحمل الهبوط السريع إلى أسفل، وبالتأكيد أن الجو بأسفل حار كجهنم.»

لكن مدير المنجم لا يستعد للإجابة إلا بعد أن يدخلا إلى صندوق المصعد وينحشر بلوتو بينهما. يقفل صندوق المصعد. بثلاث دقات يعلن الجرس عن استعداد المصعد للحركة وبخمس دقات يتحرك المصعد، عندئذ يقول براوكسل: «لكل جحيم طقسه. لا بد للكلب أن يتعود.»

يبقى آخر شعاع من ضوء النهار بأعلى. بانطلاق المصعد من السقالة التي توجد على ارتفاع ٣٥ مترا فوق سطح الأرض، إلى مكان التعبئة في قاع الإنتاج الأساسي على عمق ٥٨ مترا تحت سطح الأرض، تبدأ الزيارة الرسمية للمنجم والمخصصة للزائر ماتيرن، حتى يمكنه أن يتعلم ويتثقف في التو واللحظة.

وقد نصحه براوكسل أن يفتح فمه ويتنفس بانتظام. وأوضح له أن ضغط الهواء على الأذن ناتج عن هبوط المصعد السريع وأن الرائحة اللاذعة ناتجة عن احتكاك صندوق المصعد بقضبانه المعلقة في بئر المصعد. يأتي تيار الهواء من أسفل ويمر عبر سرواليهما. يدعي ماتيرن أنه قد لاحظ أن بلوتو يرتعد. لكن براوكسل يقول إن أي شخص سيرتعد لو هوى في غضون دقيقة واحدة إلى مثل هذا العمق.

وقبل أن يصلوا إلى مكان التعبئة ولكي يتثقف ماتيرن، يعطي براوكسل له معلومات عن إنتاج البوتاس في الماضي وهو ما تعتبره شركة براوكسل وشركاه جزءا من تاريخها. تهوي معهم بسرعة ١٥ متر في الثانية كلمتي الحِمل النافع والخثارة. وأثناء هبوط المصعد بالسرعة نفسها يتحدث براوكسل عن فترات توقف عمل المصعد وفحص سيوره. تتكون سيور المصعد من سبعة حبال وكل حبل به اثنان وثلاثون وترا تلتف كلها حول قلب من الصلب مغطى بألياف قنب السيزال. ويعد ارتخاء الأوتار الخارجية التي تتسبب في زيادة التحميل على القلب الصلب والتغير الذي يطرأ عليها، أي التواؤها، من الأسباب الرئيسية لتهتك وقطع السيور وهو الأمر الذي يحدث نادرا. ويجب ألا ننسى أن الصدأ يأكل الأوتار أثناء حركة المصعد. لذلك لا بد من التشحيم ولكن بشحم خالي من الأحماض. ويجب ألا يغمر الشحم الحبل بأكمله، بل مائة متر فقط حتى لا يصل الشحم الجديد إلى بكرة المصعد، حيث إن هذا الحبل هو روح المنجم، هو أوله وآخره، إنه هو الذي يجلبنا إلى حيث ضوء النهار وهو الذي يذهب بنا إلى تحت سطح الأرض.

وهكذا لا يتبقى لماتيرن ولا حتى هنيهة لينتبه إلى زعزغات المعدة التي تحدث في ركوب المصاعد العادية. ولا يتمكن من ملاحظة الضغط على فوديه أو بلل عينيه، لأن براوكسل يشرح له تركيب بئر المصعد بداية من السقف وحتى القاع وما يسمى بمستنقع البيارة.

وينهي الجرس، بدقات أربع إضافة إلى الدقة المنفردة، التي تعلن عن توقف المصعد، هذا الدرس الذي لقنه براوكسل للزائر ماتيرن في خلال دقيقة واحدة. هكذا يزيد السقوط المعلق بحبل من موهبة الإنسان على التعلم والاستيعاب والاحتفاظ بما تعلمه.

يشير ضوء كهربي إلى أن مكان التعبئة على أهبة الاستعداد. وعند وصولهما إلى قاع الإنتاج، يسبقهما الكلب بلوتو، يردان تحية المفتش فرنيكه الذي غادر حسب التعليمات مكان عمله بأعلى ليقدم لماتيرن فكرة عن المنجم.

لكن براوكسل، الذي يعرف قيعان المنجم التي استنفدت محتوياتها وسراديبه ودهاليزه وبياراته المظلمة كمعرفته لمدينته القديمة التي ذهب فيها للمدرسة، ينبه المفتش قائلا: «لا تثرثر كثيرا يا فرنيكه! ابدأ كما هو معتاد هنا في المنطقة بوصف الوضع بعد عام ١٩٤٥ ثم فلتنتقل إلى الموضوع الأساسي، أي التوقف عن إنتاج البوتاس وبدء إنتاج منتجات تحمل علامة شركة براوكسل وشركاه التجارية.»

وبهذا التنبيه وبالاستعانة بخطوط الإنتاج الثلاثة في مكان التعبئة، يبدأ مفتش المنجم في إعطاء ماتيرن فكرة عن المنجم: «بعد عام ١٩٤٥،كما قال السيد المدير، لم يتبق لنا سوى ٣٩ في المائة من مجمل إنتاج البوتاس قبل الحرب. أما باقي المنتج من البوتاس ومعامله في ألمانيا - ولا أنكر أنها كانت آنذاك أحدث معامل للبوتاس - كانت تحت تصرف منطقة وسط ألمانيا المحتلة من القوات السوفياتية. لكن رغم أن الأمور كانت في غير صالحنا في البداية، فقد تفوق إنتاجنا في منتصف عام ٥٣ على المنطقة الشرقية رغم أننا قد أوقفنا في هذا الوقت استخراج البوتاس وبدأنا في إنتاج المنتجات المصنعة. ولكن لكي نعود إلى حديثنا عن إنتاج البوتاس، لقد كان لدينا مستودع أملاح يمتد من الجزء الشرقي من غابة هيلدسهايم مرورا بغروس-غايزن وحتى هازيده وهيملستور وايمركه وزارشتيت ومنه كنا نستخرج أملاح البوتاس. كانت الطبقات الملحية على عمق ثلاثة آلاف متر. وكان لدينا حق التعدين على عمق يبلغ حوالي ١٩ كيلومترا، لكننا لم نبلغ حتى الوقت الذي أوقفت فيه شركة براوكسل إنتاج البوتاس سوى ستة كيلومترات ونصف منها. يحتوي منجمنا على بيارتين تبعدان ثلاثة كيلومترات عن بعضهما. وكلتاهما على عمق ثمانمائة وخمسين مترا، وتقودان إلى قاع الإنتاج. وكلا البيارتان- الأولى بيارة الإنتاج والأخرى لنقل المنتجات بالمصعد ولها أيضا

وظيفة التهوية- مرتبطتان أفقيا بأربعة ممرات أساسية وتؤدي هذه الممرات إلى غرف الإنتاج. في الماضي كان قاع الاستخراج الأساسي على عمق سبعمائة وأربعة وثلاثين مترا. وهناك كان يستخرج من مستودع رونهبيرغ الوفير الإنتاج أغلب الأحيان سيلفنيت بنسبة ٢٤٪ وكارناليتيت، وقد وصلت كثافة الإنتاج إلى عمق عشرين مترا. وعندما بدأت أعمال الحفر والتفجير في مستودع شتاسفوت الاحتياطي، تولت شركة فينترسهال المساهمة في فبراير عام ١٩٥٢ إدارة معامل بورباخ لإنتاج البوتاس ولأنه تبين أن كثافة إنتاج مستودع شتاسفوت محدودة، تم تأجيره في البداية لشركة براوكسل وشركاه ثم انتقلت الملكية للشركة. لكن الجزء الأكبر من عمال المنجم بقوا مع ذلك لدينا، لأننا وعدناهم بدفع تعويض إضافي عن العمل الذي لا علاقة له بالتعدين، بخلاف العلاوة اليومية التي يبلغ مقدارها ماركين ونصف كل وردية وعقد العمل بالإنتاج. لكن هذا التعويض لم يدفع بانتظام إلا بعد أن أضربنا لمدة أسبوعين في يونيو ١٩٥٣. ما ينبغي ذكره أيضا أن غرفة المراجل الخاصة بالشركة تمدنا بالتيار الكهربي والتدفئة من خلال توربينات البخار الموصلة بها. ومن بين غرف الإنتاج البالغ عددها ثمانية وستين، قمنا بسد ستة وثلاثين منها بالرواسب لدواعي السلامة والأمان أما الأدراك الاثنتان والثلاثون الباقية فقد تم السماح لشركة براوكسل وشركاه باستخدامها لأغراضها بعد أن فحصتها شرطة المناجم ومصلحة المناجم المختصة لأسابيع عدة. ورغم أنه كان من الصعب علينا نحن عمال المناجم ترك أعمال التعدين فقد تمكنا من التعود على ظروف العمل غير التعديني ولا سيما أننا بقينا أعضاء بنقابة عمال المناجم بفضل مثابرة السيد براوكسل مع مصلحة المناجم المختصة.»

ثم يتحدث مدير المنجم براوكسل بعد ذلك قائلا: «حسنا يا فرنيكه! ليس هناك من يجرؤ أن يقول إننا ننتج بوتاسا أو فحما أو معادن. ما نستخرجه في وضح النهار، تستطيع رؤيته من كل زاوية.»

وحيث إن الزائر فالتر ماتيرن يسأل عن الرائحة المنتشرة في منطقة التعبئة وعن مصدر هذه الرائحة وسببها، وما الذي يختلط فيها، يوضح له مفتش المنجم والمدير بأن رائحة إنتاج البوتاس ما تزال طاغية على المكان: «تختلط في هذه الرائحة الأبخرة المشبعة بالملح الصخري القلوي الناتج عن الرواسب المبللة مع الرائحة الطينية للصخور الرملية الملونة وأبخرة المتفجرات التي ما تزال عالقة

وتحتوي على ملح البارود، حيث إنهم كانوا يستخدمون مادة الجيلاتين المتفجر في التفجير، إضافة إلى الكبريت الناتج عن الطحالب وحيوانات البحر الصغيرة، مخلوط مع الأوزون الناتج عن الشرر الكهربي لأسلاك المصعد ومع الخليط الغازي الموجود في كل الممرات والأدراك. ومن العناصر الأخرى المكونة للرائحة نجد: غبار الأملاح المترسب أو التيار، وأبخرة الكاربيد، وآثار ثاني أكسيد الكربون الناتجة عن الضوء والشحم - وإذا أتاح الخليط الغازي الموجود الفرصة لروائح أخرى، فسيمكن معرفة ماركة البيرة التي كان العمال يشربونها في الأوقات التي كان المنجم ينتج فيها البوتاس والتي ما يزالون يشربونها في مصنع براوكسل للمنتجات الجاهزة: إنها بيرة هيرنهويزر بيلسنر، الزجاجة التي تحمل إتيكيتا عليه الحصان السكسوني.»

ويجد الزائر ماتيرن، الذي أصبح على علم بمصدر الرائحة التي تسود الممرات ذات التهوية الجيدة الغرف قليلة التهوية، أن المكان ليس له رائحة نفاذة فقط، بل وأن هناك ريحا ساخنة تهب من قاع الاستخراج الأساسي لتصل إلى مكان التعبئة، رغم أن هناك كميات كبيرة من هواء مايو المنعش في الخارج بأعلى.

ولكن عند تحركهم أفقيا داخل قاع الاستخراج بواسطة تروللي كهربائي ثم بالمصعد، دون أن ينسوا الكلب بلوتو، إلى قاع الرواسب - ستمائة وثلاثون مترا تحت الأرض - يصبح الجو خانقا برائحة كريهة رطبة كما في شهر أغسطس، يعلوها الملح القلوي وفي وسطها الكبريت وفي الأسفل أبخرة بارود قديمة جدا ومعها رائحة الأوزون الناتجة عن احتكاك المصعد. يجف العرق بسرعة تفوق ظهوره على سطح الجلد. يقول ماتيرن: «إن هذا هو الجحيم.»

لكن مفتش المنجم فرنيكه يصحح له كلامه قائلا: «هنا يتم فقط إعداد بعض المواد بعينها. أي أنه في الغرفة الأولى، حسب برنامج الزيارة، تحدث عملية «تردية»- كما نسمي ذلك بلغتنا للمواد الجديدة التي ترسل من أعلى.»

ويدخلون الغرفة الأولى عبر المدخل الضيق ويتقدمهم الكلب. تنفتح قاعة في حجم صحن كنيسة. طبقات ملحية تعلق بأعلى وعلى الجانب وعلى الأرض تميزها ثقوب نصف دائرية وتمتد تجاه واجهة الغرفة التي تشبه مذبحا كنسيا وتوحي بجو قدسي. يمتد على جانبي الحجرة من مدخلها الضيق وإلى آخرها، صفان من

الأحواض، على كل جانب ستة عشر حوضا وكلها في علو الركبة وفي المساحة ما بين صفي الأحواض يقف هينريش شروتر الذي كان في الماضي عامل تفجيرات، ويقوم بالعناية بالأحواض بواسطة عصا طويلة تشبه الملعقة.

ويقول الرجل المسؤول عن كل أحواض الملح في الغرفة الأولى للزائر ماتيرن: «الخامات الأساسية التي نقوم بمعالجتها هي القطن والصوف الصناعي والبوبلين والتويل والبفتة والفلانل سريع الانكماش والجرسي سريع الانكماش والتفتاه والتل وكذلك الحرير الصناعي والطبيعي ومنذ وقت غير بعيد قمنا بمعالجة طلبية كبيرة من الشامواه واثني عشر ثوبا من الدمور وأحيانا يكون هناك طلب على كميات قليلة أو متوسطة من الكشمير والباتيستا والشيفون. ومنذ بداية الوردية الليلية اليوم هناك ثمانية أثواب من الكتان الإيرلندي التي يبلغ عرضها قبل وضعها في أحواض الملح مترا وعشرين وهي ما تزال في المرحلة الأولى من عملية «التردية». كذلك هناك كمية من الجلود أغلبها من جلود الخيل والحملان والماعز وفي الأحواض الثلاثة الأخيرة، على الناحية اليسرى في الأمام هناك بعض من الديباج وتشكيلة من الدانتيل البلجيكي وكميات قليلة من نسيج البيكي المضلع والكريب دو شان والجلد البري وقد دخلت جميعا في عملية «التردية». باقي الأحواض ذات السعة الكبيرة يتم فيها تردية مواد الحشو والخيش وأجولة البصل وقماش الأشرعة والحبال بكل أنواعها. ونستخدم عادة أملاح الإذابة الباردة الناتجة عن أملاح الترسيب المعتادة المخلوطة بكلوريد الماغنسيوم. وعندما نحتاج إلى عمل تردية قوية لنسيج جديد، نستخدم في هذه الحالة أملاح السيلفانيت مع إضافة من بروميد الماغنسيوم. وكل حمامات الملح تحتاج إلى تهوية جيدة وعلى وجه الخصوص تلك التي تحتوي على أملاح البروم. لكن للأسف، عندما تم فتح أدراك هنا على عمق ستمائة وثلاثين مترا لم تكن التهوية تتماشى مع اللوائح والتعليمات والسيد فرنيكه يشهد بذلك.»

لكن المدير براوكسل يهون من مسألة التهوية ويقول: «سيتحسن الوضع يا أولاد عندما تأتي أجهزة التهوية المركزية الجديدة وحينئذ ستكون التهوية أسرع.»

ثم يغادرون الغرفة الأولى التي تتطاير فوق أحواضها الملحية أبخرة بيضاء. ويذهبون إلى الغرفة الثانية، ويتقدمهم مفتش المنجم حاملا المصباح في يده. وفي هذه الغرفة يتم تردية الأقمشة والجلود المملحة وهي جافة، وذلك من خلال

جرافة يحركها ترس ليلقي بتلال الأقمشة فوق رواسب متبقية من أيام تعدين البوتاس.

وعندما يطأون الغرفة الثالثة مع الكلب النشيط، لا يسمعون ضجة للتروس ولا تخرج أبخرة ناتجة عن كلوريد الماغنسيوم، ولكن في مقابل ذلك تُترك ملابس رجالية وأزياء رسمية في حاويات تشبه الخزانات عرضة لحشرات العث لتفترسها في صمت. ولا تحتاج مجموعة الملابس الموجودة هنا إلا إلى صيانة أسبوعية. لكن مفتش المنجم فيرنيكه، الذي في حوزته مفاتيح للحاويات، يفتح واحدا من تلك الخزانات المميزة: وفي الحال تخرج سحابة من غبار حشرات العث الفضية. يغلق باب الخزانة ثانية. وبعد أن يُقدم لهم في الغرفة الرابعة شرحا لمجموعة ماكينات يقوم بالعمل على تشغيلها مجموعة من عمال التعدين السابقين وتقوم الماكينات من ناحية بتمزيق الملابس المملحة التي كانت فريسة لحشرات العث مرة أخرى، وتعرضها لحرارة شديدة وتلونها بالأحبار وبقع النبيذ، ومن ناحية أخرى تقوم بقص وحياكة الملابس التي تم ترديتها تردية نهائية وتبطنها وفقا لنماذج الأزياء المحددة، بعد ذلك تبتلعهم الغرفة الخامسة وهي عبارة عن قاعة تشبه ورشة ميكانيكية.

كل الخردة التي يمكن الحصول عليها من فوق سطح الأرض، من مقابر السيارات أو تلك الناتجة عن الحروب، بقايا عمليات الفك والإحلال، خردة وأنقاض بتصنيفات مختلفة منها مخلفات انفجارات المراجل، تشكيلة من الخردة مكومة هنا، تتجول على السير الناقل ويفتتها مقص الحديد ثم تُغسل للتخلص من الصدأ، تختفي لفترة وجيزة، لتتم جلفنتها بالكهرباء وتعود بعد ذلك إلى السير الناقل: تأخذ عملية التركيب مجراها، تدور كرات رولمان البلي، لا يعطل رمل الاختبار عمل التروس، وتتحول خطاطيف مزودة بجنازير يمكن التحكم في طولها إلى ناقلات للصناديق الفارغة. مكابس وقارنات وخراطات وآلات شبيهة تقوم باتباع أوامر المحرك الكهربي. على سقالات بطول إنسان بالغ تعلق منتجات الخيال الميكانيكي. بإيقاع بطيء تتحرك المصاعد المحملة بهياكل الفزاعات من طابق إلى طابق، تولت المطارق مهمة القضاء على البروزات المعدنية التي لم يتم التخلص منها تماما، ضجيج، ضجيج!

وفي الغرفة السادسة المجهزة لزيارة تثقيفية حيوية للمنجم يتطور هذا

الضجيج. ويشعرون في آذانهم بشيء يجعل الكلب بلوتو في البدء مضطربا، ثم يبدأ في العويل وسط الغرفة القائمة التي تنتمي إلى الطراز القوطي.

عندئذ يقول الزائر ماتيرن: «إنه الجحيم بعينه! كان علينا أن نترك الكلب بأعلى، إنه يعاني.»

لكن مدير المنجم براوكسل قال بأن عويل الكلب الحاد داخل الغرفة يختلط بصورة رائعة مع أصوات الآلات الإلكترونية التي تم اختبارها مسبقا في إنتاج الهياكل الموجودة هنا: «ما تسميه هنا في عجالة جحيما، يطعم في كل وردية ثلاثين عامل تعدين، تم تدريبهم وتعليمهم على يد نحاتين ومختصّي سمعيات معترف بهم دوليا. وسيؤكد لك السيد فرنيكه أن عمال المناجم الذين يزاولون المهنة منذ عشرين عاما، على استعداد أن يروا الجحيم فوق سطح الأرض، ولا يرونه مطلقا هنا بأسفل، حتى لو كانت التهوية قليلة.»

ويومئ مفتش المنجم الخبير عدة مرات ويقود مديره وكلبه المستمر في العويل وزائر المنجم من الغرفة السادسة، حيث تتنافس أصوات الضجيج بعضها مع بعض في سباق لا نهاية له، عبر ممر مليء بالبخار باتجاه غرفة تزداد سكونا كلما اقتربوا منها.

ثم يتبعون طنين مصباح الكاربيد الذي يحمله فرنيكه حتى يصلوا إلى بيارة الاستخراج التي حملتهم في بداية الزيارة من قاع الاستخراج الرئيسي إلى قاع الرواسب وقاع التهوية.

ويهبطون بالمصعد من جديد، ولكن لمدة قصيرة، إلى سرداب سفلي، ويطلق مفتش المنجم عليه عادة اسم القاع الأسفل، بينما يسميه المدير «طريق السلوكيات الراقية».

ويرى الزائر في كل من الغرف السابعة والثامنة والتاسعة، المشاعر الثلاثة الرئيسية وأصداءها، حتى يمكن له أن يتثقف ويتعلم.

ويعاود ماتيرن الصياح بعبارته: «إنه الجحيم بعينه!» رغم أن البكاء في كل صوره الإنسانية يتبدى هنا بلا دموع. تحول المشاعر الجافة الغرفة إلى حجرة للندب والنحيب. هياكل كانت من قبل خردة ثم بعثت من جديد على هيئة هياكل آدمية تتحرك بفعل محركات بصوت أو بدون، وقد خضعت حينئذ لاختبارات صوتية متعددة، تتشح بملابس الحداد المتردية وتقف في دوائر على

الأرض الجرداء وتصدر أنواع النحيب المختلفة. هنا يبدأ العويل. والدائرة المجاورة لا تستطيع التوقف عن الولولة. وتلك الدائرة تصدر نحيبا عميقا إلى الداخل. عويل يعلو وينخفض، يتضخم ويمتد في كل دائرة. بكاء مخنوق كما لو أن المرء يبكي والرأس مدفون في وسادة. قرقرة وكأن اللبن قد فار واحترق. نهنهة والمنديل بين الأسنان. بؤس تنتقل عدواه بسهولة. تشنجات قد تؤدي إلى فواق. من الزن إلى النحيب: من الزن المتقطع إلى الولولة المتواصلة. ووسط التشنج والضرب على الصدر والانطواء على الذات يولول صوت قريب من البكاء بحكايات مؤثرة وحكايات تجلب المخاط والدموع، حكايات تُذيب الحجر: «وقال الوالي القاسي لبائعة الزهور الصغيرة التي ترتعش من البرد... ولكن عندما مدت الطفلة المسكينة يدها متوسلة للمزارع الغني... ولما ازداد الجوع والبؤس، أمر الملك أن يقوم كل ثالث شخص في مملكته... وشعرت المرأة العمياء بالوحدة الشديدة وقالت لنفسها إن عليها أن... وحينما رقد المحارب الشاب المقدام غارقا في دمائه... ولف الحزن البلاد كما يلف الكفن جسد الميت. نعقت الغربان... وولولت الريح... شُلت حركة الخيل. ونخر السوس مطقطقا في أعمدة المبنى. الويل الويل! هذا ما توعدون به! لن يبقى حجر فوق حجر ولن تجف المآقي. الويل لكم.»

لكن من وقع في الغرفة السابعة تحت تأثير البكاء لا يملك الغدد التي تفرز ماء العينين، ولا حتى بفعل عصير البصل. صحيح أن الماكينات تصدر نحيبها، لكن لا أمل من أن تخرج منها دمعة واحدة. من أين لهذا التدريب المؤسس في ظل الملح العالق فوقه وتحته وفي كل مكان أن يفجر عيون ماء يفترض أن مخلفاتها من الكريستالين، وأن يغري ولو عنزة بالمجيء إليه؟

وبعد كثير من العبث، يغادر مدير المنجم مع الكلب والمفتش ويتبعهم الزائر الغرفة السابعة حيث الشعور الأساسي الأول ليسيروا صامتين في سرداب يعج بالحياة حتى يوجه مفتش المنجم مصباحه تجاه الغرفة الثامنة التي يبدو أنها لا تتسع لهذا الكم من المرح.

وعندئذ لا يستطع ماتيرن أن يحبس صيحته: «يا له من ضحك جحيمي!» وهنا ينبه مدير المنجم ماتيرن إلى أن المعروض هنا في غرفة الشعور الأساسي الثاني ليس سوى مجموع إمكانيات الضحك الإنساني. لدينا المقياس الذي يتراوح من

القرقرة إلى الهلاك ضحكا. ثم يقول مفتش النجم فرنيكه «لا بد من الإشارة إلى أن الغرفة الثامنة هي الوحيدة في كل المنجم المؤمنة بثلاثة صفوف من الدعامات المصنوعة من أفضل أنواع خشب المناجم، نظرا لكثرة الاهتزازات الدائمة التي تحدث فيها.»

وطبيعي جدا أنه حينما ترتدي الهياكل التي تمارس الحزن والألم أجولة من الخيش، أن تقهقه وتجعجع وتضحك تلك الهياكل المرتدية ملابس ملونة منقطة وقمصان رعاة البقر وملابس بالنقوش الاسكتلندية الكاروه، وكل هذه الملابس تعرضت رغم ذلك لعملية التردية. ويمكن لهذه الهياكل أن تمسك بطنها وأن تضرب على فخذها وأن تضرب الأرض بقدميها من خلال المحرك الموجود داخلها. وبينما تتمكن أعضاء الجسم من الحركة مستقلة، تخرج من فوهة بحجم قبضة اليد الضحكات المريضة والسليمة، ضحكات الشيوخ والضحكات الخارجة من براميل البيرة وأقبية النبيذ، ضحكات خارجة من بئر السلم أو من حجرات الاستقبال، ضحكات وقحة أو بلا سبب، ضحكات شيطانية، ضحكات مريرة، ضحكات ضائعة أو حائرة. تقرقع الضحكات داخل تلك الكاتدرائية المدججة بالأعمدة وتمتزج وتتزاوج وتتنوع في صورة جوقة تتصارع على التنفس: تضحك الفرقة العسكرية، الكتيبة، الجيش، يضحك الدجاج، يضحك آلهة هوميروس، وكل سكان منطقة الراين، ألمانيا كلها تضحك بلا توقف على...، مع... برغم...: تضحك ضحك فزاعات الطيور.

الزائر فالتر ماتيرن هو الذي استخدم هذا الوصف أولا. حيث إن مدير المنجم ومفتشه لم يقوما بتصحيح كلامه، عندما تحدث عن «الضحك الجحيمي»، وصف ماتيرن تلك النكات التي

تتبادلها الماكينات الضاحكة، بأنها نكات فزاعات الطيور: «هل تعرف تلك النكتة عن...؟ شحروران وزرزور تقابلا في محطة قطارات كولونيا... أو تلك؟ قنبرة تريد السفر بالقطار العابر للمناطق إلى برلين لحضور عيد القربان، وكيف عادت بعد مرورها نقطة تفتيش مارينبورن... أو تلك وهي نكتة جديدة تماما: ثلاثة آلاف ومائتان واثنان وثلاثون عصفورا ذهبوا جميعا إلى بيت دعارة، وعندما خرجوا منه، أصيب أحدهم بالسيلان. أيهم إذن؟ خطأ! انتبهوا مرة أخرى ثلاثة آلاف ومائتان واثنان وثلاثون عصفورا...»

عندئذ يقول الزائر ماتيرن إنه يعتبر هذا النوع من المزاح شديد التهكم. إنه يرى أن للمزاح تأثيرا محررا وشافيا، وكثيرا ما ينجم عنه خلاص النفس. إنه يفتقر في هذا المزاح إلى الدفء الإنساني أو الطيبة البشرية. ووعده المدير أن يقدم له مثل هذه الخصائص في الغرفة التاسعة. وعليه غادر الجميع ومعهم بلوتو الذي لا يضحك أبدا، ضحكات الفزاعات وساروا في الممر حتى لاحت تلك الغرفة الموعودة عبر ممر متفرع يسارا، وفيها كان الشعور الأساسي الثالث.

زفر ماتيرن لأنه أحس بمرارة ما هو مقدم عليه، قبل أن يراه. عندئذ كان على براوكسل أن يرفع مصباحه ويسأل ماتيرن ما الذي يدعو للزفير. «أتألم للكلب الذي لا يتاح له أن يقفز ويلهو وسط مروج الربيع الخضراء والذي يتوجب عليه أن يبقى هنا بجانبك ويتحمل هذا الجحيم المنظم.» لكن براوكسل الذي لا يحمل في يده عصا عادية، بل عصا من الخشب الأسود بمقبض عاجي، والذي كان قبل ساعات عدة مدخنا شرها ونودي باسم «الفم الذهبي»، لا يدخن الآن مطلقا بل يتحدث: «إذا أصر الزائر على أن يسمي منجمنا جحيما، إذن فلا بد للجحيم من كلب خاص به، انظر كيف يعلم مصباحنا الكلب، أن يلقي بظلال جحيمية تفترس الطريق. ها هو الممر يبتلعه، علينا أن نتبعه.»

هنا الكراهية بعينيها الملتصقتين ببعضهما، ليس هناك مكان للغضب المؤكسد، هنا مدرسة للانتقام بنوعيه البارد والملتهب. الفزاعات التي كانت ترتدي ريشا وتقوم بتشغيل مضخة للدموع تقول دائما لا، فزاعات الطيور التي كانت ترتدي ملابس كاروه وملابس منقطة بألوان زاهية وتجعل مولد المزاح المركب داخلها يطن، تقف الآن مرتدية بزات المحاربين التي نفختها الرياح، هذه البزات التي تعرضت لعملية التردية عدة مرات وخاضت سبع معارك داخل مراجل الغلي في إحدى القاعات الواسعة، وذلك لكل فزاعة على حدة. إنها الواجبات المدرسية المقررة على الغضب والكراهية والانتقام: قضبان الحديد المطاوع يجب ثنيها وتحويلها إلى علامات استفهام وحلقات مشابهة. لا بد للغضب المكتوف عادة أن ينفجر، أن تلفظه الرئتان. على الكراهية ذات العينين الملتصقتين ببعضهما أن تحدث ثقوبا في ركبتيها، لا بد للانتقام الملتهب والبارد أن يتجولا- لا تلتفتوا وراءكم فالانتقام من وراءكم! ولا بد لهما أن يضرسا بالأسنان ملاعق محملة بحصى من الكوارتز.

هذه إذن هي الوجبة التي استطعمها الزائر ماتيرن. وجبة مدرسية، طعام فزاعات الطيور حيث إن الغضب والكراهية اللذين لا يكفيهما أن يتفجرا ويحدثا ثقوبا، واللذين لا يجدان في لي الحديد تعبيرا كافيا عن الغضب المتفجر والكراهية الحارقة، يغرفان من مذود الحصى الذي يزودهما به كل ساعة عاملان من عمال شركة براوكسل وشركاه، من أجل تغذية صرير الأسنان.

أدار ماتيرن، الذي كان يصر بأسنانه منذ الصغر بمجرد أن يركبه الغضب أو تتغلب عليه الكراهية ويثبت نظره إلى نقطة معينة ويتيح للانتقام أن يتجول، أدار ظهره لتلك الفزاعات التي جعلت من تلك الصفة المميزة له سلوكا عاما.

وقال ماتيرن لمفتش المنجم الذي قادهم من الغرفة التاسعة إلى الممر حاملا في يده المصباح: «بإمكاني أن أتخيل أن تحقق هذه الفزاعات المعبرة مبيعات جيدة. فالبشر يحبون رؤية صورة معكوسة لأنفسهم وهم في فورة الغضب!»

لكن مفتش المنجم فرنيكه يرى العكس: «صحيح أن هذا الموديل من الفزاعات التي تصر بأسنانها كانت مطلوبة في الماضي داخل البلاد وخارجها، ولكن بعد أن اكتسب هذا العِقد قدرا من النضج أصبحنا نرسل هذا الصنف المعتمد على الشعور الأساسي الثالث فقط إلى الدول الإفريقية حديثة النشأة.»

وعندئذ يربت براوكسل على رقبة الكلب بلوتو بابتسامة رقيقة ويقول: «لا تقلقوا بشأن مشاكل المبيعات التي تواجهها شركة براوكسل وشركاه، فموضة الكراهية والغضب والانتقام المتجول ستعود ثانية يوما ما. وذاك الشعور المتجول الذي يتطلب صرير الأسنان لا يعد في آخر المطاف مجرد حدث موسمي. من يريد القضاء على الانتقام، فلا بد له أن ينتقم من الانتقام ذاته.»

تركب هذه الجملة معهم المصعد الكهربي ويتم اجترارها طوال رحلة طويلة عبر بابي تهوية وبيارات مسيجة وغرف مليئة بالرواسب. ولا تدخل جملة براوكسل عن القضاء على الانتقام غمار النسيان إلا عندما يعدهم مفتش المنجم بزيارة الغرف العاشرة إلى الثانية عشرة. وذلك دون أن تفقد هذه الجملة أي شيء من قصرها.

حيث إنه في كل من الغرف العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة التي تعقد فيها التدريبات الرياضية والدينية والعسكرية، أي سباق التتابع والمواكب الدينية الراقصة وتبديل الحراس، يعد الغضب والكراهية والانتقام المتجول الذي لا

يمكن محوه من العالم وكذلك مضخات الدموع الفاشلة ومولد المزاح، باختصار، البكاء والضحك وصرير الأسنان أي المشاعر الأساسية، تعد هي الأساس الذي تتمكن من خلاله فزاعات الطيور الرياضية من الاقتراب من الأرقام القياسية في القفز بالزانة والفزاعات الطالبة للصفح من المعدلات القياسية في الزحف والفزاعات المجندة حديثا من التفوق في الاشتباك عن قرب. ويسجل هذا التنافس بين الفزاعات في جداول، التنافس في العدو أو في سرعة التصليب أو في التغلب على الأسلاك الشائكة، ليس باستخدام كماشة قديمة مخصصة لهذا الغرض، بل بقضم الأسلاك بأشواكها والتهامها. يقوم عاملون بشركة براوكسل بتسجيل الأوقات القياسية للفزاعات وطول أكاليل الورود. وتتيح الغرف الثلاث، التي تم تفجيرها أثناء فترة إنتاج البوتاس وتم توسيعها حتى أصبحت في حجم صالة جمباز وصحن كنيسة وخندق للدفاع الجوي، في كل وردية لأكثر من أربعمائة من الفزاعات التي تعمل بروح الفريق الرياضي وفزاعات الخلاص والفزاعات المتماسكة، المجال لإطلاق طاقاتها المدارة إلكترونيا. ومؤقتا تدار الفزاعات من خلال أجهزة التحكم عن بعد - مركز إدارتها موجود في المكان الذي كانت فيه سابقا سقالة الرافعة، تدار إذن احتفالات رياضية داخل صالات مغلقة من خلال التحكم عن بعد وكذا احتفالات كاردينالية ومناورات خريفية. وبالعكس، هناك أيضا في البرنامج رياضات المجندين الجدد وقداسات ساحات القتال ومباركة أسلحة الفزاعات الخردة، وذلك لكي يمكن في «ساعة الجد» تجاوز كل الأرقام القياسية ولكي ينكشف كل زنديق ويجد كل بطل النصر الذي يستحقه.

ويغادر المدير مع كلبه والزائر ومفتش المنجم فرنيكه أصدقاء الرياضة المتردين بالأملاح ومسوح الرهبان المتردية بحشرات العث والزي العسكري المموه الذي تمت ترديته بالجرافات، لا بد من الزحف قدما، لا بد من الزحف تجاه العدو، بينما تزحف الفزاعات العدوة أيضا مقتربة. حيث إنه مكتوب في البرنامج: زحف، تقدم، زحف القوات المتقاتلة بعضها تجاه بعض.

ولكن عندما لاح مرأى الغرفتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، لم تعد الفزاعات ترتدي ملابس رياضية أو مسوح قداس حمراء أو ملابس عسكرية مموهة، وإنما في هاتان الغرفتان ترتدي الفزاعات بالأحرى ملابس مدنية. إذ إنه

في غرفة الشؤون العائلية والإدارية يتم تطوير وتعليم وممارسة الفضائل الديمقراطية لدولة فزاعات الطيور ودستورها والتي تحتاج عن جدارة إلى ارتداء الملابس المدنية، ويعني ذلك الاستفادة من الحياة اليومية المدنية. تجلس الفزاعات بعضها بجانب بعض في انسجام تام على المائدة أمام شاشة التلفزيون وفي خيام المعسكرات المتردية بحشرات العث. تُلقن عائلات من فزاعات الطيور- حيث إن الأسرة نواة الدولة!- دروسا عن كل مواد القانون الأساسي. تعلن الميكروفونات ما يجب على العشائر أن تردده بأصوات متنوعة، وهو ديباجة المبادئ الأساسية للفزاعات: «وعيا بمسؤوليته أمام الرب والبشر، وكله عزيمة وحرص على الحفاظ على وحدة الدولة والوطن. . .» وبعد ذلك المادة رقم واحد التي تتحدث عن كرامة الفزاعات التي لا يجب المساس بها. ثم بعد ذلك في المادة الثانية الحقوق المدونة بخصوص حرية تكوين الشخصية المتفزعة. وبعد ذلك هذه المادة وتلك إلى أن نصل إلى المادة الثامنة التي تمنح كل فزاعات الطيور التصريح بالتجمع والتجمهر بصورة سلمية وبدون سلاح دون الحاجة إلى إذن رسمي أو ترخيص. وكذلك تحترم كل عائلات فزاعات الطيور المادة ٢٧ التي تنص على أن: «كل فزاعات الطيور ذات الدم الألماني موسومة بالعلامة التجارية لشركة براوكسل وشركاه.» كذلك لا يوجد أي اعتراض على المادة ١٦ بند رقم ٢ التي تنص على أنه «يُكفل للملاحقين سياسيا حق اللجوء هنا تحت الأرض.» وكل هذه الدروس السياسية عن «حرية السب العام» وحتى الحرمان القصري من الجنسية، تتم ممارستها في الغرفة الرابعة عشرة: فزاعات لها حق الانتخاب تتوجه إلى صناديق الاقتراع، الفزاعات المحبة للنقاش تتناقش بشأن المخاطر الناجمة عن دولة الرفاهية، الفزاعات التي تظهر موهبتها الصحفية في صحيفة تصدر يوميا يشيرون إلى حرية الصحافة الواردة في المادة الخامسة. يجتمع البرلمان: محكمة الفزاعات العليا ترفض آخر استئناف. تؤيد المعارضة في قضايا السياسة الخارجية موقف الحزب الحاكم. الجناح البرلماني يمارس ضغوطا، ومصلحة الضرائب تطلب دائما المزيد، تتيح حرية تكوين الائتلافات للأدراك غير المتجاورة أن تشكل فيما بينها ائتلافا. ووفقا للمادة رقم ١ ب، ٣ أ يعد تحليل الفزاعات باستخدام كاشف الكذب المنتج من قبل شركة براوكسل وشركاه مخالفا للدستور. تنتعش الدولة، لا شيء يعوق الاتصال. وحرية التصرف الشخصي التي تقرها المادة ٢٨ أ٣، تبدأ

تحت الأرض وتمتد فوق الأرض المسطحة وفوق التلال وحتى حقول القمح الكندية وحتى زراعات الأرز الهندية، وحتى مناطق زراعة الذرة الأوكرانية التي لا يمكن إغفالها، إلى كل مكان تصل فيه منتجات شركة براوكسل وشركاه أي أنه على الفزاعات من كل حدب وصوب أن تقوم بواجباتها وهي منع الطيور من الحصول على غذائها في الحقول.

لكن الزائر ماتيرن بعد أن رأى الغرفتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة في هيئة مدنية، قال عدة مرات: «يا إلهي إنه الجحيم، الجحيم الحقيقي!»

ولإثبات عدم صحة رأي الزائر يقود مفتش المنجم فرنيكه بمصباحه فالتر ماتيرن والمدير وكلبه المطيع إلى الغرف الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة، حيث تجد كل من الإيروتيكا المتحررة من القيود والإيروتيكا المعقدة والخيلاء القضيبية مرتعا لهما.

حيث يُسخر هنا من كل الأزياء العسكرية ومن أي كرامة مدنية، حيث تنتعش الكراهية والغضب والانتقام المتجول من جديد بعد أن كان كل منها مقيدا أيضا لأنه تم على ما يبدو التحكم فيها، وقد غطت الفزاعات بشرة متردية ولكن لها رغم ذلك لون اللحم الوردي. لأن كل الفزاعات المتحررة والمعقدة والمختالة كانت تأكل من الكعكة نفسها التي تجمع وصفتها جميع الشهوات في عجين واحد لا يشبع منه أحد أبدا. وتقوم تلك الحثالة العارية الأرداف، متمكنة من كل الأوضاع، بالمضاجعة والقذف قدر ما استطاعت. لكن النتائج المقذوفة لا يمكن رؤيتها إلا في الغرفة الخامسة عشرة، حيث إن الإيروس المتحرر لا يسمح لأي فزاعة مستثارة أن توقف الانتصابات المتواصلة منذ عدة ورديات. لا يمكن لأي سدادة أن تقف في وجه هذه المقذوفات. ليس هناك جرس يعلن عن استراحة من الأورغازم الدائم. تقذف الفزاعات مخاطها غير عابئة، وهو عبارة عن منتج يحتوي على مادة السيلفينيت تم تطويره في معامل شركة براوكسل وشركاه، وقد طعم بمواد تحدث أعراضا مشابهة لسيلان القضيب، حتى يعود تأثير الاستثارة والحك بالنفع على الفزاعات المتحررة دائمة القذف. لكن انتشار هذا الوباء يقتصر فقط على الغرفة الخامسة عشرة، ولا يجوز له أن ينتقل إلى الغرفتين السادسة عشرة والسابعة عشرة، حيث إنه ليس هناك قذف في الغرفتين التاليتين، ليس هناك مجال ولا حتى للانتصاب الضروري في غرفة الإيروتيكا المعقدة. وحتى في غرفة

الخيلاء القضيبية تحاول فزاعات وحيدة رغم الموسيقى المهيجة والكلمات الخليعة أن تعين القضيب على الانتصاب ولكن بلا جدوى، رغم المشاهد الحسية المعروضة على شاشة الغرفة. لا يمكن لأي حليب أن يخرج. تنام كل الثعابين. تبقى كل الإشباعات فوق الأرض، حيث إن ماتيرن القادم من فوق الأرض، يقول: «هذا غير طبيعي. إنها عذابات الجحيم! الحياة الحقيقية تقدم أكثر من ذلك، أنا أعرف ذلك جيدا. لقد تمتعت بها.»

ولأن مفتش المنجم فرنيكه يظن أن الزائر يفتقر إلى روح الحياة تحت الأرض، يأخذه مع المدير ذي الابتسامة اللطيفة والذي يجر الكلب بلوتو معه في سلاسة، إلى الغرف الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين الواقعة أسفلهم على عمق سبعمائة وتسعين مترا وتضم المعارف والإنجازات والنقائض الفلسفية والاجتماعية والإيديولوجية.

وبمجرد أن يصلوا إلى ذاك القاع، يدير الزائر ماتيرن ظهره، إنه لا يريد أن يكمل، أرهقه الجحيم، يريد أن يتنفس الصعداء فوق الأرض. لكن مدير المنجم براوكسل يدق بشدة بعصاه الأبنوسية التي كانت قبل ساعات ملكا لشخص يدعى «الفم الذهبي»، وينبه ماتيرن إلى شيء فعله ماتيرن فوق الأرض ويقول: «هل نسي الزائر ملابسات إلقائه في ساعات الصباح الأولى لمطواة جيب في قناة اللاندفير التي تجري عبر برلين، برلين المدينة الواقعة تحت الشمس؟»

إذن غير مسموح لماتيرن أن يعود أدراجه، لا بد له أن يمر عبر الدهليز، لا بد له أن يتحمل المعارف الفلسفية التي تعرض لها الغرفة الثامنة عشرة بكلمات وفيرة.

لكن ليس الحديث هنا عن أرسطو ولا عن ديكارت أو سبينوزا، من كانط إلى هيغل، لا يوجد شيء فراغ. لا وجود للكانطيين الجدد ولا للهيغليين الجدد ولا لريكرت ذي الشعر الملبد كالأسد ولا لماكس شيلر، لا شيء من ظاهرية هوسرل ذات اللحية الدقيقة تجعل الزائر ينسى عذابات الإيروتيكا المسطحة، لا يوجد سقراط يذكره في العالم السفلي بالحياة فوق الأرض. لكنه، هو، الما قبل سقراطي، هو، يوجد منه مئات النسخ، هو، حيث تمت ترديته مئات المرات، هو الذي كان يرتدي الزعبوط الألماني، مرتديا صندلا رومانيا ومريلة كتانية: هو مائة مرة، قادم قادم! يفكر ويتكلم. لديه آلاف المعاني للوجود والزمان والماهية

والعالم، وللأساس والمعية والآنية، للعدم والتفزع، كل هذا في صورة هياكل فزاعات: لذلك: الإفزاع وحالة التفزع وبنية الفزاعة، وعرض الإفزاع وغير المتفزع والتفزيع والإفزاع المضاد وإحساس الفزاعة بذاتها والخلاص من التفزع. التفزع النهائي ونتيجة التفزع وكلية التفزع، وأساس التفزع، وجملة التفزع: «لأن ماهية التفزع هي التشتت الترنستندالي الثلاثي للتفزع في مخطط العالم. باحتفاظ المتفزع بذاته في العدم، يتفوق المتفزع على الفازع في الإطار الكلي....»

يتقطر التسامي إذن من زعابيط الغرفة الثامنة عشرة. مائة فيلسوف متردى بالأملاح يتفقون على رأي واحد: «الوجود المتفزع يعني البقاء في العدم.» والسؤال القلق للزائر ماتيرن، والذي يطرحه بصوته داخل الغرفة هو: «لكن البشر الذين صمموا الفزاعات على صورتهم...؟» يجيب عليه مائة فيلسوف وفيلسوف: «السؤال عن التفزع يجعل السائل نفسه محل تساؤل.» عندئذ يتراجع صوت ماتيرن. يلتفت مائة فيلسوف متشابهين واقفين على الملح المترسب ويحيون بعضهم بعضا: «التفزع كائن رغم إرادة صاحبه.»

بل إنهم تجولوا بالصنادل الرومانية في الحقول. أحيانا يصمتون ويمكن عندئذ سماع المحرك الموجود داخلهم. تتكرر جملة التفزع من جديد.

ولكن قبل أن يعيد الفيلسوف المتكرر مائة مرة والمتردي بفعل الجرافات وحشرات العث الشريط المسجل داخله، يحاول ماتيرن إنقاذ نفسه ويجري في الممر بغية الهرب، لكنه لا يستطيع لأنه ما يزال زائرا غريبا في المنجم وبالتأكيد سيتيه: «المفزع يحدث في التيه الذي يتيه فيه الإفزاع وبهذا يتأسس التيه.»

معتمدا على مفتش المنجم فرنيكه، ويذكره الكلب بلوتو بالجحيم، يمر عبر غرف تكشف أرقامها عن أنه لن تفوته أي غرفة من الغرف الاثنتين وثلاثين. في الغرفة التاسعة عشرة تتكوم المعارف السوسيولوجية. تأخذ كل من أشكال التوحد، ونظرية التقسيم الطبقي الاجتماعي، والأسلوب الاستبطاني، عدمية القيم العملية، والسلوكية المحضة، وحقائق وتحليل لمفاهيم، وبيانات إحصائية ودينامية، وكذلك اللابعد السوسيولوجي المزدوج ومجمل التركيب الطبقي، كلها تأخذ طابعا حركيا. وتختلف افزاعات السوسيولوجية بعضها عن بعض: المجتمع المعاصر الكبير ينصت إلى محاضرات عن موضوع الوعي الجمعي. تتحول فزاعات

العادة إلى فزاعات بيئية. تتطابق الفزاعات الثانوية مع المعايير الفزاعية السائدة. تتبارى الفزاعات المحددة مع تلك غير المحددة في جدال لا يريد الزائر ماتيرن ولا مفتش المنجم الخبير فرنيكه ولا المدير براوكسل مع الكلب أن ينتظروا نتائجه.

ففي الغرفة العشرين، تظهر كل التناقضات الأيديولوجية: هناك جدال بين فزاعات الطيور يستطيع ماتيرن متابعته، حيث إن لغطا مشابها يدور داخله، فالجدال يدور هنا كما في نفس ماتيرن حول السؤال التالي: «هل هناك جحيم؟ أم أن الجحيم موجود بالفعل على الأرض؟ وهل ستدخل الفزاعات الجنة؟ هل أصل الفزاعات من الملائكة، أم أن فكرة الفزاعات كانت موجودة قبل فكرة الملائكة؟ من قام بخلق الطيور الملائكة أم الفزاعات؟ هل هناك إله؟ أم أن الله هو الفزاعة الأولى؟ إذا ما سلمنا أن الإنسان خُلق على صورة الرب، والفزاعات على صورة الإنسان، ألا تكون الفزاعات صورة للرب؟» ياه، ماتيرن يريد أن يجيب عن كل سؤال بنعم ويريد في الحال أن يستمع لمزيد من الأسئلة الأخرى ويجيب عنها جميعا بنعم: «هل كل فزاعات الطيور سواسية؟ أو هل توجد فزاعات النخبة؟ هل تعد الفزاعات ملكا للشعب؟ أم يمكن لكل فلاح أن يؤكد على ملكيته للفزاعة؟ أي الأجناس تعد فزاعات؟ هل تتفوق الفزاعات الجرمانية على تلك السلافية؟ هل يمكن للفزاعات الألمانية أن تكون ملكا لليهود؟ نعم، ألا تنقص اليهود موهبة؟ هل من الممكن تخيل وجود فزاعة سامية؟ فزاعة كوهين! فزاهة كوهين!» - ويهرب ماتيرن ثانية إلى الممر الذي لا يطرح أية أسئلة يتوجب عليه أن يجيب عنها كلها بنعم.

برفق وعناية وكأن مدير المنجم ومفتشه يريدان أن يخففا من تعب الزائر المرهق، تنفتح أمام الزائر الغرفة الحادية والعشرون بصمت يريح العينين. هنا تتبدى التحولات التاريخية مجسدة في صورة فزاعات متردية ورغم ذلك حيوية تظهر حسب الترتيب أرقام السنين والانقلابات واتفاقات السلام، التاريخ مجسد في صورة فزاعات. دبوس فرانكوني قديم وقبعة ولنغتون وياقات ستيوارت وقبعات كالبريزية وطيلسانات إنجليزية وقبعات البحرية تجسد، بعد تعرضها لحمام الأملاح وقرض العث، ساعات الأقدار والسنين المصيرية. كل شيء ينقلب ويتعدل حسب الموضة. عقود تربط بين رقصات الفالس والبولونيز والغافوت. كلمات مجنحة تعلق وسط المكان وتحل بعضها محل بعض: هنا الذئب وهناك

الزوجة! في دولتي يستطيع كل شخص أن يعيش حسبما يحلو له[٢٦]. . . - أعطوني أربعة أعوام وأنا. . .![٢٧] وكذلك كل الصور المؤثرة، منها الثابتة ومنها الإيمائية: حمام الدم في فيردن. انتصار ليشفلد. التقدم نحو كانوسا. ما يزال الأمير الشاب كونرادين يركض بجواده ويركض. لا توفر العذراوات القوطيات في صنع ثنيات ثيابهن. وعندما اجتمع أمراء الراين الألمان في رينز عام ١٣٣٨، كان فرو السمور هو الزي السائد. من الذي سيطأ أرض هوبيهلاند بالزحافة التي تقيس مساحة الأرض بالذراع؟ الهوصار والأتراك يغيرون العادات والتقاليد. الفرسان يقبّلون الصدأ. تمنح منطقة بورغوند الشغوفة بالبهرجة خياما حمراء من القصب مبطنة بالقطيفة. وأثناء تورم كبسولات الخجل، يدق راهب مقولاته على الباب. يا لك من قرن تظلله شفاه الهابسبورغ! ثوار الفلاحين يذهبون وينقشون صورا على الحائط. لكن ماكسميليان يحتمل السترات العسكرية والقبعات والباريهات التي يزيد حجمها على الهالة القدسية. يواجه الزي الأسباني الأسود ياقات اسفنجية مكشكشة بثلاث بطانات. يحل الخنجر محل السيف ويتيح اندلاع حرب الثلاثين عاما التي تغير أزياءها حسب المزاج. حليات أجنبية من الريش وسترات جلدية وأحذية برقبة عالية تتجول هنا وهناك في المناطق الشتوية. وما كادت حرب خلافة العرش تخترع باروكات الألونج، حتى أصبحت حواف القبعات ذات الأركان الثلاثة المدببة أكثر حدة أثناء الحروب الشليزية الثلاث. لكن الباروكات بأنواعها لن تحمي أحدا من الثوار وشاحذي المقصات: رؤوس أينعت وحان قطافها! كل ذلك معروض بحيوية وحركة ناجحة في الغرفة الحادية والعشرين. ومع ذلك ورغم بياض البوربون الذي ضاع لونه، ينفلت من الديركتوار الترميم الوردي البهي. يرقص الكونغرس مرتديا جوب-بنطلون ونانكنغ ضيق عند السمانة. يظل معطف الفراك على قيد الحياة رغم الرقابة واضطرابات مارس ١٨٤٨. رجال كنيسة باول[٢٨] يتحدثون في أبواق خوفهم. تحت أنغام مارش يورك تمت السيطرة على خنادق دوبلر. برقية إيمس التي بعث

---

(٢٦) عبارة شهيرة لفريدريش الكبير. (مترجم)

(٢٧) عبارة لهتلر في بداية توليه للحكم. (مترجم)

(٢٨) التجمع الوطني الألماني بكنيسة باول بفرانكفورت، نواة أول برلمان ألماني عام ١٨٤٨، لم يكتب له النجاح.

بها بسمارك إلى القيصر، وهي المادة المفضلة لدى كل معلمي التاريخ. يأتي كابريفي وهوهنلوه وبيلوف مرتدين المعاطف. الصراع الحضاري، الحلف الثلاثي بين ألمانيا وإيطاليا والإمبراطورية النمساوية، وثورة شعب البانتو في جنوب غرب افريقيا ينتجون معا ثلاث صور مترعة بالألوان. ولا ننسى السترة الحمراء لفرسان الهوصار في موقعة مار لاتور. في بيئة البلقان المتردية تتهاوى الرصاصات. عند النصر تدق الأجراس. واسم النهر مارنه. تستبدل الخوذة البروسية ذات الرأس المدبب بالخوذة الحديدية. لم يعد ممكنا التخلي عن الأقنعة الواقية من الغازات. بمعطف الحرب وبوط برباط يهرب القيصر إلى هولندا لأن طعنة الخيانة جاءته من الخلف. بعد ذلك مجالس عسكرية لا شعار لها، ثم انقلاب كاب. رابطة سبارتكوس تفيق من سباتها. الأوراق النقدية تخشخش، بدلة شتريزهمان[٢٩] تصوت لصالح قانون التفويض. مواكب تحمل المشاعل. حرق الكتب. سراويل بنية لحدّ الركبة. البني كفكرة. البني يسود. صورة من شهر نوفمبر: سترة محشوة بالقش. بعد ذلك أعياد بالأزياء التلقليدية. بعد ذلك ملابس المساجين المخططة. بعد ذلك أحذية عسكرية بنصف رقبة بلاغات خاصة معونة الشتاء واقيات الأذن سترات واقية من الثلج بزات مموهة بلاغات خاصة... وفي النهاية تعزف فرقة بامبرغ السيمفونية في زيها البني شيئا من غروب الآلهة. وذلك مناسب لكل الأجواء ويصلح كلازمة متكررة ودافع لقتل التاريخ الذي بُعث إلى الحياة من خلال الفزاعات في الغرفة الحادية والعشرين.

عندئذ يعري الزائر ماتيرن رأسه ويمسح عنها بلورات العرق باستخدام كوفية أعطتها له إدارة المنجم. فأيام المدرسة كانت التواريخ تتدحرج منه من كتاب المدرسة وتختفي لتتحول إلى شخبطات على مقعد الدراسة، الشيء الوحيد الذي كان يحتفظ بتواريخه ثابتة بأرقام صحيحة في رأسه، كان تاريخ العائلة، لكن الفزاعات لا تعرض هنا لماتيرنيادات محلية. هنا نجد: الصراع بين البابا غريغور السابع والملك هنري الرابع حول تدخل الكنيسة في الشؤون الدنيوية والإصلاحات المضادة، والتي يعبر عنها ميكانيكيا من خلال محركات كهربائية:

---

(٢٩) غوستاف شتريزهمان (١٨٧٨-١٩٢٩) وزير خارجية ألمانيا في الفترة من ١٩٢٣-١٩٢٨، استطاع أن يتوصل للصلح بين ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، أدخل ألمانيا إلى عصبة الأمم عام ١٩٢٦ وحصل على جائزة نوبل للسلام. (مترجم)

معاهدة سلام وستفاليا، تعرض لها الفزاعات كما يتوجب لها أن تكون، موضوعها ومكانها، ومن مع من ومن ضد من، دون إنجلترا، هذا ينادي ب . . . ، وذاك يمنع . . . وفي المجمل تمارس الفزاعات التاريخ منتقلة من منعطف تاريخي إلى آخر مرتدية الزي المناسب لكل وقت.

وعندما يبدأ مرة أخرى عرض الصولات والجولات الفرانكونية القديمة عبر ليشفيلد متجهة إلى كانوسا، لا يستطيع الزائر ماتيرن أن يكتم كلمته التي ختم بها زيارة كل غرفة: «إنه الجحيم! إنه الجحيم!»

كذلك ينطق ماتيرن بكلمات جحيمية أخرى عند مغادرتهم مع الكلب الغرفة الثانية والعشرين التي تشبه صالة إحدى البورصات المالية. وفيها يمكن قياس التوسع الاقتصادي للقيادات المستثمرة المهيمنة على السوق والتي تسهم في تطور الاقتصاد. جعلت النظرة المجردة لتشكيل الفزاعات للكارتلات بصورة سريعة، والمؤثرات الصوتية لتقلبات أسعار الصرف، والجلسة التذكارية لمجلس إشراف أعلى بشركة ما، جعلت الزائر ماتيرن ينطق على الفور صيحته: «إنه الجحيم، إنها شركة الجحيم المساهمة!»

لكن الغرفة الثالثة والعشرين تفقده طلاقة اللسان هذه، حيث يبلغ ارتفاع سقفها ١٦ مترا وتشكل بجدرانها وأرضيتها الملحية غرفة ذات طابع أكروباتي يطلق عليها «الهجرة الداخلية». لا بد أن نتذكر أن الفزاعات وحدها هي القادرة على أن تلفلف نفسها بهذا التعقيد الذي لا يمكن فكه، أنها الوحيدة القادرة على الزحف داخل أحشائها. الفزاعات وحدها هي القادرة على منح كل ما هو مفترض أو خيالي جسدا من الداخل وملبسا من الخارج. ونظرا لأن الفزاعات تعكس صورة الإنسان - حسبما تنص على ذلك دساتير الفزاعات - فسيكون هناك أشباه افتراضية للفزاعات فوق الأرض وتحت السماء الصافية.

يقول الزائر بصوت محمل بالسخرية: «لم ينس جحيمكم أحدا ولا حتى الزنابير المختبئة في جحورها.»

عندئذ يجيبه مدير المنجم براوكسل بعصاه الأبنوسية التي ألقت ظلها: «ما الذي يمكننا فعله؟ الطلب كبير. ما يميز كتالوجاتنا المنتشرة في جميع أنحاء العالم هو الاكتمال. ليست لدينا بضاعة كاسدة. وتمثل منتجات الغرفة الثالثة والعشرين

عاملا أساسيا في برنامج صادراتنا، لأن الناس ما يزالون يهاجرون إلى الداخل، حيث إن الداخل أكثر دفئا، حيث يكون المرء أكثر معرفة بذاته ويكون مع ذاته.»

وفي الغرفة الرابعة والعشرين، حيث الفزاعات هناك أقل جلوسا، لكن لها مرونة الحركة نفسها، يظهر هنا النفعيين المترددين. هنا تقاس القدرة على سرعة الاستجابة. من سقف الغرفة تعلق مصابيح تشبه إشارات المرور فوق الأرض، وتومض برموز سياسية. وتقوم فزاعات عارية ذات محرك داخلي يمكن رؤيته وسط هيكلها، بتغيير ملابسها بسرعة واضعة عقرب الثواني نصب عينيها. والشيء نفسه يتم مع مفرق الشعر: فأحيانا يفرق المرء شعره يسارا، والآن يفرق المرء شعره على اليمين، ثم يكون هناك طلب على الفرق في الوسط، ثم كل الفروقات الممكنة الأخرى، نصف يمين نصف يسار، وأحيانا يكون هناك طلب على تسريحات الشعر بدون مفرق.

تسلى ماتيرن بهذا العرض «يا لها من متعة جحيمية»، خاصة وأن خوذته المطلية بالأصفر تحمي رأسه الذي كثيرا ما تعرض لتغيير أفكاره لفترات قصيرة وأدت بذلك إلى إطالة جبهته ثم حالت بمساعدة النساء، حسبما يقول ماتيرن، دون نمو الشعر. الزائر ماتيرن سعيد بأن أحدا لن يتمكن بعد من مطالبته بتغيير فرق شعره حسبما تتطلبه الأوقات والظروف. «هل قمتم بالتمرن على هزليات أخرى غير هذه؟ الآن يتبدى لي الجحيم وكأنه مسرحا.»

بدأ ماتيرن يشعر بالراحة تحت الأرض، لكن مفتش المنجم فرنيكه، يرفع مصباح الكاربيد. ما تزال هناك مسرحية مرعبة وحيدة على عمق سبعمائة وتسعين مترا في الغرفة الخامسة والعشرين. وهذه المسرحية ذات الفصل الواحد والتي تخلو تقريبا من الحدث بعنوان «الجموح الذري» موجودة على برنامج الإنتاج منذ عدة ورديات، وعند رؤية ماتيرن لها انخفضت معنوياته المرتفعة، رغم أن عبارات الكتاب والشعراء الكلاسيكية تشكل خلفية للحدث الصامت. ما يوصف فوق الأرض بأنه عبث، يتبدى تحت الأرض واقعا: أعضاء منفصلة تتحرك مستقلة. رؤوس متفجرة ليس لديها ولا حتى العنق، لا تستطيع حك نفسها. باختصار: ما يجعل الجسم بنيانا كثير الأعضاء، يعيش من الآن فصاعدا ككيان منفصل. الذراع والساق، واليد والجذع تتخذ أوضاعها أمام الكلمات الكبيرة، التي تنطلق عادة من مقدمة المسرح. ويتم التأكيد عليها هنا من رواء الستار: «يا

آلهي! يا إلهي! هذا المزج مخيف- لكنه أبدي!» - «مرحبا يا أصدقائي الكرام! أي مناسبة هامة أتت بكم إلي في أعداد غفيرة هكذا؟» - «لكنني أريد أن قريبا أن أظهر بينكم وأن أقوم بإظهار بعض الملامح المرعبة!(٣٠)»

صحيح أنه في نص شيلر تأتي عبارة «يغادرون المشهد مرتعدين» بين قوسين. لكن هذه الأجزاء الجامحة من الفزاعات تبقى على حركتها طوال الوقت ولا تغادر المشهد. معين لا ينضب من الاقتباسات يتيح لها انحناءات متفردة، تتحدث أيد منفردة عن نفسها. تتكوم الرؤوس بعضها فوق بعض وتنطلق أفواهها جوقة للندب والرثاء: «ليس هناك ألم أكبر من تذكر الأوقات السعيدة الصافية في وقت الشدائد.»

وأثناء انتقال محدود بالمصعد إلى أسفل، حيث دق الجرس دقتين معلنا عن الوصول إلى أعمق قاع في المنجم، وحيث تبدت الآمال بأن الجحيم قد يكون قد انتهى ولم يتبق غير العودة إلى فوق الأرض، أثناء هذا الانتقال إلى أسفل قيل لماتيرن داخل صندوق المصعد الضيق إن قطع الفزاعات المتحركة المتفرقة تلك عليها طلب كبير في كندا والأرجنتين، حيث إن مساحات حقول القمح كبيرة وتحتاج إلى فرق من الفزاعات. وعند وقوف ثلاثتهم مع الكلب على أرض القاع على عمق ثمانمائة وخمسين مترا، يتحدث مفتش المنجم لأن المدير قد أعطاه الإشارة بأن يمهد بكلامه للمرحلة النهائية من زيارة المنجم ويقول: «بعد أن تتبعنا خط الإنتاج على مستوى القيعان الثلاثة التي تعلونا، أي أننا شهدنا عمليات التردية المختلفة ثم عملية التركيب، بعد أن حاولنا أن نوضح الدوافع الأساسية لكل الموضوعات من الرياضي منها إلى الذري، الآن يبقى لنا أن نرى كيف يتم إعداد كل الفزاعات على عملها الذي ستكلف به فوق الأرض. في الغرف السادسة والعشرين والسابعة والعشرين والثامنة والعشرين، يتم عمل تدريبات على الموضوع، واختبارات لا يمكن لأي فزاعة من إنتاج شركة براوكسل وشركاه أن تتجنبها.»

وقبل أن تنفتح الغرفة السادسة والعشرون يقول ماتيرن «هذا تعذيب للحيوان!» ويصرخ عاليا عندما يسمع من ماتيرن أن العصافير التي يطلق عليها

(٣٠) مسرحية شيلر «اللصوص»

براوكسل «مواطنينا الأعزاء المتواضعين» لا تكف عن التغريد تحت الأرض: «تعذيب للحيوان، كف عن ذلك!»

ويتحدث المدير: «هنا تتعرف فزاعاتنا المجهزة للتصدير على العصافير وأنواع الحبوب المختلفة التي سيتوجب على الفزاعات أن تحافظ عليها من نهب الطيور لها. وكل فزاعة يتم اختبارها - يتعلق الأمر هنا بمجموعة من فزاعات الحنطة الزيلاندنية التي تعمل في نطاق منطقة الكاب الجنوبية الغربية - لديها مجال جذب محدود، مما يجعل عصفور الاختبار يطمع في الانقضاض على الحبوب المزروعة. وأثناء هذه الوردية سيتم كما أرى اختبار المجموعات التالية: اثنتا عشر مجموعة من فزاعات أوديسا التي تعمل على حماية قمح غيركا الروسي وكذلك حراسة قمح زاندومير الأوكراني. وبعد ذلك فزاعات لابلاتا المطلوبة جدا والتي ساعدت القمح الأرجنتيني على تحقيق أرقام حصاد قياسية. بعد ذلك ثمانية أصناف من فزاعات كنساس المعروفة بحراستها لقمح كوبانكا، وهو قمح صيفي يزرع في ولاية ديكوتا الجنوبية أيضا. مجموعات صغيرة من فزاعات القمح تحول بين عصافير الاختبار وقمح زاندميركا البولندي الشهير بصلابته ومقاومته للشتاء. وفي الغرفتين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين يتم اختبار مجموعات أخرى من الفزاعات المخصصة لشعير بولاتافا وشعير البيرة الفرنسي الشمالي وللشوفان الاسكندنافي والذرة المولدافية والذرة الإيطالية المسماة تشينكوانتينو، وكذلك الذرة الأمريكية الشمالية والذرة السوفياتية والمطلوبة في جنوب روسيا وسهول المسيسبي- وفي حين أنه يتم في هذه الغرفة اختبار إبعاد العصافير فقط عن مجال الجذب المحدود للفزاعات، تختبر فزاعات التصدير في الغرفة التالية أمام طيور لها هديل، وبخاصة حمامات الحقول، التي يمكن لها أيضا أن تلحق ضررا بالشلجم وبذور البازلاء والكتان. أحيانا يسمح باستخدام الغربان أو طيور العقعق أو قنابر الحقول في الاختبارات، بينما تقوم طيور السمنة والشحارير في الغرفة الثامنة والعشرين بإجراء الاختبار لفزاعاتنا. ونستطيع أن نطمئن زائرنا أن كل طيور الاختبارات بدءا من العصافير ومرورا بحمامات الحقول وطيور البرقش والقنابر والزرازير، نجلبها من فوق الأرض بتصريح من السلطات المختصة. وتقوم جمعيات الرفق بالحيوان في هيلدسهايم وهانوفر باختبار غرف الاختبار كل ثلاثة أشهر. لسنا أعداء للطيور. إننا نعمل بالتعاون معها. بنادق الرش وفخاخ الصمغ

وشباك صيد الطيور تعد أشياء غريبة بالنسبة لطيورنا. وقد احتجت شركة براوكسل عن حق وجدارة ضد صيد الطيور الإيطالية المغردة. نجاحنا في كل القارات، فزاعاتنا في أوهايو وميريلاند، وفزاعات قمح أوروتوبا السيبيرية..، وفزاعاتنا التي تحمي قمح مانيتوبا الكندي وفزاعات الأرز التي تحرس أرز جزيرة جافا وتلك التي تحمي الأرز الإيطالي أوستيليوني الذي يزرع بالقرب من مانتوا، وفزاعات كوكوروتس التي ساعدت الذرة السوفياتية على تحقيق محصول ينافس نظيره الأمريكي، كل فزاعاتنا سواء كانت تحرس الحنطة المحلية أو شعير حنا أو شوفان ميلتون الذي يرجع أصله إلى مينيسوتا، أو قمح بوردو الشهير أو زراعات الأرز الهندية أو ذرة كوتسكو التي تزرع في جنوب بيرو أو الذرة العويجة الصينية أو الفريك الإسكتلندي، هذه الفزاعات التي تحمي الحبوب من هجوم الطيور، كل منتجات شركة براوكسل وشركاه لا تخالف الطبيعة لأنها نفسها منتجات طبيعية: بين الطيور وفزاعات الطيور انسجام تام. لو لم تكن هناك فزاعات الطيور لما كانت هناك طيور، وكلاهما الطير والفزاعة مِن خَلْق الله وكلاهما يسهم في حل مشكلات التغذية المتزايدة التي يواجهها العالم حيث تقوم الطيور بالتغذي على عث القمح وسوسه وخنافس الحبوب وحبوب الخردل الخبيثة، وتقوم الفزاعات بإبعاد تغريد الطيور وهديل الحمام وزقزقات العصافير عن الحبوب الناضجة، وبإبعاد الزرازير عن جبال العنب والشحارير وطيور السمنة عن أشجار الكرز.»

ومع ذلك ورغم كل حديث المدير براوكسل عن ذلك الانسجام بين الطيور وفزاعاتها، يتفوه الزائر ماتيرن مراراً وتكراراً بكلمة «تعذيب للحيوان». فقد أغضبه أن يسمع أن الشركة قد بدأت لأغراض ترشيد النفقات في تربية العصافير وحمامات الحقول والشحارير داخل المنجم، لكي تبيض وتفقس هنا، وأغضبه أن أجيالاً كاملة من الطيور لن تعرف ضوء النهار وستعتقد أن السقف الصخري الملحي هو السماء، وتحدث ماتيرن عن عذابات جحيمية وعن طيور جحيمية، بالرغم من أن الطيور تغرد في الحجرات الثلاث بنشاط ونشاط ربيعي، مثلما في أغنية الطيور عن نشيد البرقش وتغريد القنبر وهديل الحمام وموسيقى العقعق وضجيج العصافير غير المنظم، باختصار الصوتيات الضرورية للأجواء الربيعية متوفرة في الغرف الثلاث. فقط عندما تقل التهوية على عمق ثمانمائة وخمسين

مترا، تفقد مخلوقات شركة براوكسل ذات الريش رغبتها في الحياة تحت الأرض.

يُظهر الزائر أنه استسلم للأمر الواقع. ثم يبتكر كلمة فيها إطناب واستطراد: «عار جحيمي». ولو لم يعده مفتش المنجم بأن تدريب الفزاعات ينتهي في الغرفة التاسعة والعشرين، أي الحفل الختامي، الاجتماع الكبير للفزاعات، لهرع في عماء إلى مكان التعبئة لو استطاع الوصول إليه، بحثا عن الهواء وضوء النهار وعن شهر مايو الربيعي. وهكذا انضم إليهما ونظر من طرف القاعة إلى السحر الذي يجري بالداخل. هنا نرى كل الفزاعات المدربة في الغرف ممثلة: فزاعات الخلاص «هاللولويا» وفزاعات الاشتباك الميداني عن قرب. والقسم المدني يعرض لـ: عائلات فزاعات طيور بصغارها، وعلى رأسهم ديك الفزاعات. فزاعات متحررة وفزاعات معقدة وفزاعات مختالة بنفسها. في حفل الفزاعات المتردي جاء كل من فزاعات الزعبوط والفزاعات الثانوية الخاضعة للمعايير الاجتماعية والفزاعات النخبوية التي تشبه الملائكة. وأما بخصوص القسم التاريخي، فكانت هناك أنوف بورغوند وشفاه الهابسبورغ وياقات شيلر وأحذية سوفورو والسواد الأسباني والأزرق البروسي وبينها تجار السوق الحر، وكذلك هؤلاء الذين يصعب العثور عليهم لأنهم المهاجرون المختفون في أحشائهم. ومن يعمل على تهيئة أجواء الفزاعات ويهيئ للتغيير الفزاعي؟ إنهم طبعا الانتهازيون المحبوبون، الذين يلبسون تحت البني أحمر وفي الحال يندسون تحت الأسود الكنسي. وفي هذا الاحتفال الشعبي تختلط الفزاعات الذرية مع تلك الجامحة المحبة للتمثيل. فزاعات ملونة. فزاعات تعقد صداقات بالاستعانة بألمانية الفزاعات. موسيقى الفزاعات تلطف من الكراهية والغضب والانتقام المتجول، أي المشاعر التي تمت تربيتها في غرف المشاعر الأساسية، تعمل الموسيقى على حفظ النظام من خلال تزييتها لمحركات الفزاعات وسيطرتها على الشجار محذرة «الويل لكم لو، الويل لكم لو!»

لكن منتجات الشركة تبقى محافظة الأدب، حتى لو كان هناك لغط من حين لآخر. فالفزاعات المشاغبة تضايق الفزاعات التي تغني أغاني الإرساليات الدينية. الفزاعات السارقة لا تستطيع الكف عن السرقة. انضمت جماعة الفزاعات المسماة «موت فالنشتاين» إلى ممرضات المستشفيات الشاحبة المعقمة. من كان يتصور أن الزعبوط المتفزع الما قبل سقراطي سيدخل في نقاش مع النظرية الحامضة عن الطبقات الاجتماعية؟ تبدأ المغازلات. يختلط الضحك الذي وصف في الغرفة

الثامنة بأنه ضحك جحيمي مع البكاء في الغرفة السابعة وصرير الأسنان في الغرفة التاسعة، فأي احتفال ذاك الذي لا يضحك فيه المرء على النكتة ويبكي على الخسارة بالاستعانة بمنديل ويتم فيه دفن شجار سريع بصرير الأسنان.

والآن أثناء توجه منتجات الشركة التي تجمعت خلال الاحتفال الختامي مصحوبة بالمدير والزائر ومفتش المنجم والكلب إلى الغرفة الثلاثين، يسود الصمت لبرهة.

يغمر الخزي ماتيرن، ولا يجرؤ على الالتفات لأن الفزاعات المجتمعة يتم توجيهها عن بعد، وأنها حسبما يقول «تتحرك بآلية وبلا روح» ويتم الآن تحليفها يمين الولاء لشركة براوكسل. وتتشجع الفزاعات وتنطق مرددة: «بقدر ما يعنيني الرب.» وهو اليمين المناظر للقسم المعتاد «أقسم بـ. . .» وتقسم الفزاعات على ألا تنكر أبدا أن أصلها من تحت الأرض وألا تغادر الحقل الذي أرسلت إليه، ودائما أن تبعد الطيور، قدرها الأزلي، بعدل وحزم، تقسم به ذاك الذي تحرس عينه العالم السفلي: «بقدر ما يعنيني الرب!»

كذلك لا بد من ذكر أنه في الغرفة الحادية والثلاثين يتم تجميع الفزاعات المفردة ومجموعات الفزاعات وتوضع في صناديق جاهزة للتصدير، وأنه في الغرفة الثانية والثلاثين يتم وضع العناوين على الصناديق وإصدار إذن التوريد وترسل إلى عربات النقل.

يقول مفتش المنجم «وبهذا نصل إلى نهاية خطنا الإنتاجي الطويل. نتمنى أنكم قد تمكنتم من تكوين صورة تقريبية عن العمل هنا. هناك بعض الأماكن لا يسمح لكم بدخولها أثناء هذه الزيارة وهي بعض المعامل فوق الأرض وورش المحركات الآلية والكهربائية. كذلك يحتاج كوخنا الزجاجي إلى تصريح خاص لزيارته. ربما لو طلبتم من السيد المدير ذلك.»

لكن الزائر ماتيرن اكتفى بهذا القدر. عيناه تعكسان شعورا بالغثيان. يهرع بسرعة تجاه الضوء قبل أن يصل المصعد إلى مكان التعبئة. لقد تشبع ماتيرن.

لذلك لا يتمكن من الاحتجاج عندما يقوم المدير براوكسل بربط الكلب بلوتو وتقييده في المكان الذي بدأت فيه زيارة المنجم. هنا تكتمل الصورة الشاملة في ذهنه، حيث عُلقت، بناءً على تعليمات براوكسل، لافتة كُتب عليها «كل

التوفيق» واقترح ماتيرن أن يكتب مكانها «على كل من يدخل إلى هنا أن يترك أي أمل خلف ظهره.»

وبمجرد أن ينفتح صندوق المصعد من أجل الصعود يتفوه الزائر بباقي كلامه: «إنه كلبي»

ويردّ عليه براوكسل «هذا هو مكانه، فهل هناك مكان فوق الأرض يستحق الحراسة مثل هذا المكان؟ هنا حيث يقول قاع الإنتاج كلمته الأخيرة وتتنفس أجهزة التهوية هواءها من هواء الربيع بأعلى. عليه أن يبقى هنا ومع ذلك لن يسمى «سيربيروس»[٣١]. الجحيم بأعلى!»

يا لرحلة المصعد سويا، لقد تركا مفتش المنجم بأسفل.

يا للخمسة عشر مترا المكتسبة في كل ثانية.

يا للشعور المعروف الذي يحس به المرء في كل رحلة بالمصعد.

الهسيس الذي يسمعانه يضع سدادات قطنية في آذانهما. وكلاهما يشم الرائحة اللاذعة. وكل صلاة تترجى حبل المصعد ألا ينقطع حتى يمكن رؤية النور، نور النهار المغسول بشمس مايو...

ولكن أثناء وطئهم للسقالة المعلقة خارجة المصعد تمطر بالخارج ويزحف الغروب من جبال الهارتس تجاه الأرض المنبسطة.

هذا وذاك - من يريد بعد ذلك أن يسميهما براوكسل وماتيرن؟- أنا وهو، نسير بضوء مطفأ تجاه مبنى تغيير الملابس، حيث يأخذ منا حارس المبنى الخوذات الواقية وكشافات الكاربيد. ويقودني أنا وهو إلى الكبائن التي تحفظ ملابس كل من ماتيرن وبراوكسل. أنا وهو، كل منا يخلع عنه ملابس العمل تحت الأرض. لي وله يملأ حوضان بالمياه للاستحمام. على الجانب الآخر أسمع إيدي يطش في الماء والآن أنزل أنا أيضا داخل حوض الاستحمام. الماء ينزع عنا الملح. يصفر إيدي بلحن غير محدد. أحاول أيضا أن أُصفر مثله. لكنني أجد صعوبة في ذلك. كلانا عار. وكل منا يستحم مع نفسه.

تمت

---

(٣١) الكلب الحارس للعالم السفلي في الميثولوجيا اليونانية القديمة. (مترجم)



الفهرس

هذا الكتاب

سنوات الكلاب تُعدّ من أهم الأعمال الروائية التي كُتبت بعد الحرب العالمية الثانية، وما زالت إلى اليوم مثار جدل واسع في مختلف الأوساط الثقافية والسياسية والدينية. إنها رواية منذرة، جدّيّة، عميقة الدلائل، ذكيّة في تناولها للموضوعات، المحرّم منها والمباح، ولاذعة في سخريتها. واعتمدت في بعض تقنياتها على أسلوب السّرد العربي القديم الذي ينتمي إليه غراس حسبما أكّد في مناسبات عديدة. إنها تمثّل الجزء الثالث والأخير من ثلاثية دانتسيغ التي صدرت عن منشورات الجمل.

